د . سيد مصطفى سالم

تكوين اليمن الحديث

١- اليمن والإمام يحيى

١٩٠٤ - ١٩٤٨

الطبعة الرابعة

١٩٩٣



د. سيد مصطفى سالم

تكوين اليمن الحديث

١- اليمن والإمام يحيى

١٩٠٤ - ١٩٤٨

الطبعة الرابعة

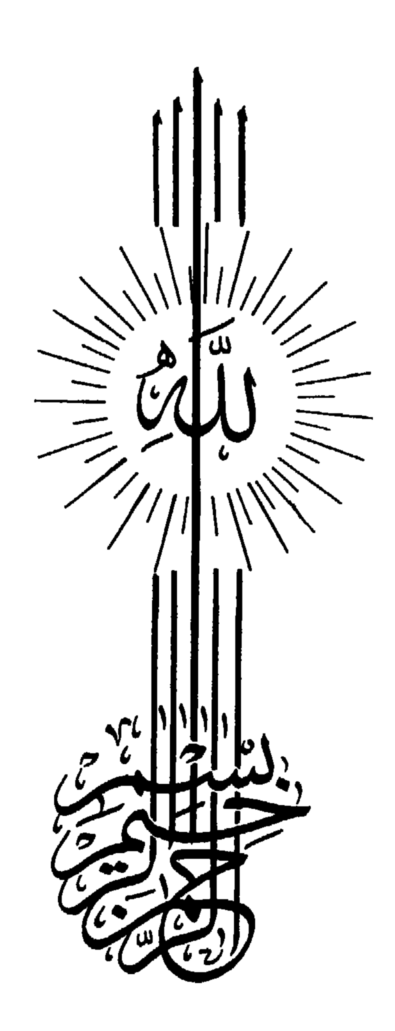
١٩٩٣

تكـوين اليمـــن الحـــديث

الطبعـــة الـــرابعـــة : ١٩٩٣
الطبعـــة الثـــالثـــة : ١٩٨٤
الطبعـــة الثـــانيـــة : ١٩٧٠
الطبعـــــــــة الأولى : ١٩٦٣

توزيع دار الأمين للنشر والتوزيع

القاهرة : ١ شارع محمد محمود - باب اللوق (برج الأطباء) الدور الخامس - شقة ٥٠٥ - ت : ٣٥٥٨٤٦١
الجيزة : ١ شارع سوهاج - خلف قاعة سيد درويش - الهـــرم


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



تكوين اليمن الحديث

١- اليمن والإمام يحيى

١٩٠٤ - ١٩٤٨



الإهـــــــداء

إلى

ذكـــرى

الأستاذ الكبير المؤرخ الراحل

محمد شفيق غربال



تقـديم

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

أرى قبل أن أمضى فى تقديم هـذا الكتاب – أن ثمة كلمتين ينبغى على أن أبدأ بهما ، هما كلمة اعتذار وكلمة شكر .

أما الاعتـذار فأقدمه لجمهور القـارئين ، ذلك لأنى فى كتابة هـذا التقديم أحـاول أن أشغل من هذا الكتـاب صفحات كـان من المقدور أن يشغلهـا قلم أستاذنا المؤرخ الراحل الكريم : محمد شفيق غربال . فقد صاحب شفيق غربال هذا الكتاب منـذ كان فكرة عرضها على تلميـذه « السيد جمال مصطفى سالم » عندمـا كان يطلب العلم عليه فى معهـد الدراسات العربيـة العالية ، كمـوضوع لرسـالة الماجستير فى التاريخ العـربى الحديث من هذا المعهـد . ومضى الأستاذ يتتبع جهود تلميذه ، ويمحض له النصح ، ويمـد له أسباب التشجيع والتوجيه والإرشاد حتى أتم « السيد سالم » رسـالته وسلمها للممتحنين ، وتهيأ لمناقشتها ، وإذا بالقدر يحرمه ويحرمنا جميعًا من أستاذنا الكبير ، ففقدنا بوفاته الركن الركين، والظل الظليل ، والقلب الكبير ، والأستاذية الشامخة .

ونـوقشت رسالـة الأستاذ « السيـد مصطفى سـالم » فى جو عـابق بذكـرى الأستاذ الراحل ، ونـال بها صاحبها درجة الماجستير بتقدير جيد جـدًّا مع توصية المعهد بطبع الـرسالة على نفقتـه ، ونفذ المعهد مشكـوراً توصية اللجنـة ، وهكذا استحالت الرسالة إلى الكتاب الذى يظهـر اليوم والذى قدر لى أن أتولى تقديمه إلى جمهور القارئين .

أما كلمة الشكر فلمؤلف هـذا الكتاب الصديق الأستاذ « السيد مصطفى سالم » الذى طلب إلى أن أتولى هذا التقديم ، وها أنذا أفعل .

وكتاب اليوم فى تاريخ اليمن الحديث ، فهـو يتناول تاريخ هذه الشخصية التى ارتبط تـاريخها بتـاريخ اليمن الحديث والمعاصر منـذ مطلع هذا القـرن إلى قـرب منتصفه ، وهى شخصيـة الإمـام يحيى حميـد الدين . وقـد اختـار المؤلف موضوع رسالتـه قبل أن يقفز اليمن بأحداثه الراهنة إلى سطـح الأحداث العالمية البارزة .

وأشهد أن « السيد سالم » قد تناول موضوعه بروح المؤرخ الموضوعى الجاد ، فعمل قـدر استطـاعته على أن يخلـص نفسه من عـواطف الـرضـا أو السخط ، الحب أو الكـره ، مع حرصـه - فى الوقـت نفسه - على أن يصـدر أحكامـه على الرجال والأحداث التى تناولها فى رسالته فى ضوء ما تجمع له عنها من حقائق .

وما أشـق ذلك على المؤرخ ، المفروض فيـه التمسك بالموضـوعية والنـزاهة المطلقة ، والمطـالب - فى الوقت نفسه - بأن يمسك الميزان ويصـدر الأحكام ، وتزداد هـذه المشقة - خـاصة - إذا كان الموضـوع الذى يتنـاوله المؤرخ بأحـداثه وشخصياته قريب الصلة بالعصر الذى يعيش فيه المؤرخ ، وما أقرب عهد الإمام يحيى بعصرنا .

وصعوبة أخـرى تواجه المؤرخ الذى يتنـاول بالبحث موضـوعًا (معاصراً) هو قلـة (الوثـائق) الرسميـة ، فأكثرهـا لا يزال حبيس الخزائن ، لم يـوضع بعد تحت تصرف الباحثين مما يضيق أفق المادة التاريخيـة أمام الباحـث ، وإن كان من المسلم به أن البـاحـث يستطيع أن يستعيض عن هـذا النقص - بوفـرة وافرة من كتابات الصحف والرسائل المنشورة ، على أن يشق طريقه بينها فى حرص وحذر شديين . وأشهد أن صـديقنا الأستاذ « السيد سـالم » قد واجه هذه الصعـوبات التى أشرت إليها ، وغيرهـا ، وشق طريقـه بينها فى صبر وأنـاة وجلد على العمل وإقبـال على البحث ، وهى صفـات نعـرفهـا فى النـابهين من تـلامـذة « شفيق غربال».

لقد شارك الإمام يحيى - حتى قبل أن يلى الإمامة - فى أحداث اليمن وتشكيل مصيره بأكبر نصيب . فعل ذلك وقت أن كانت بلاده لا تزال تحت حكم الأتراك العثمانيين ، أى فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى ، وبذلك وضع الأساس لحكم (الإمامة) فى اليمن ، ثائرة على الترك أولا ، ثم مشاركة لهم ثانيًا ، ثم منفردة بالحكم أخيراً ، حتى مصرعه فى سنة ١٩٤٨ .

لقد عاش الإمام يحيى وحكم اليمن فى حقبة طويلة من الزمن امتدت نحو نصف قرن ، ولكن أهمية حكم الإمام ليست مستمدة فقط من طول عهد هذا الحكم ، وإنما هى مستمدة أيضًا من خطورة العصر الذى قام فيه هذا الحكم . العصر شهد انحلال الإمبراطوريات ، وقد أفاد هو نفسه من هذا الانحلال حين أقام - أو حاول أن يقيم - دولة اليمن ، أو ما سماه « المملكة المتوكلية اليمنية » فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وشملت هذه الموجه بقية الأقطار العربية التى سلمت - حتى ذلك الوقت - من المد الاستعمارى . وحاول الإمام يحيى أن يقى بلاده غوائل تلك الموجة فاصطنع سياسة العزلة حينًا ، و (المضاربة) الدولية حينًا آخر . وعصر الإمام يحيى هو أيضًا - العصر الذى شهد يقظة الشعوب العربية وتطلعها إلى الحرية والديمقراطية والوحدة .

وهكذا وجد الإمام يحيى نفسه وبلاده محوطين بتيارات مختلفة لم يكن لهما بها عهد من قبل . وانتهى الإمام إلى خطة ظل متشبثًا بها حتى مصرعه ، وهى أن يعمل على أن يمسك بين يديه (بمفاتيح) هذه التيارات ، تمامًا كما كان يمسك بين يديه بمفاتيح خزائنه ، وظن أنه بذلك قادر على ضبط التيارات المختلفة التى ناوشته من كل جانب ، والأخذ من كل منها ، ولكن بقدر محدود .

وهكذا عاش اليمن حياة ملؤها التناقض ، ولم يستطع أن يحقق فى هذا العصر الذى اشتدت فيه حركة الأمم والشعوب شيئًا .

وبلغ من خطورة خطة الإمام يحيى أنها استحالت من بعده إلى (نظام) حاول ابنه أحمد ثم حفيده البدر أن يسيرا عليه ، وهما لا يملكان شيئًا من صفات مؤسس الدولة وواضع نظامها ، حتى بعد أن ثبت فشل خطة الإمام يحيى حين راح - هو نفسه - ضحية لها فى ١٩٤٨ . فكان الانهيار ، وهو لا يقل خطورة عن انهيار سد مأرب فى القديم . ولكن إذا كان انهيار سد مأرب قد جلب على اليمن الدمار والخراب ، فالمأمول أن انهيار الإمامة المتوكلية سيفتح أبواب اليمن لتيارات التقدم والنهضة والعزة والحرية .

لقد أسهم الأستاذ « السيد مصطفى سالم » فى خدمة تاريخ اليمن وتاريخ القضايا العربية المعاصرة بقلمه ، تمامًا كما يسهم اليوم إخوانه - من شباب المصريين - فى خدمة اليمن والقومية العربية على أرض المعركة بالسيف والنار . ويقدمون وقودا لها من دمائهم وأرواحهم .

صنع الله لهذا الجيل من المصريين الذى أعده القدر لخدمة العروبة - والإنسانية - بالسيف والقلم جميعًا .

سيدى بشر . الإسكندرية
أغسطس ١٩٦٣

أحمد عزت عبد الكريم

مقـــــدمة
الطبعــــة الرابعــــة

يصعب فى الواقع كتابة مقدمـة رابعة لكتاب من الكتب بعد أن يكون المرء قد أفرغ ما يريد ذكره فى مقدمات سابقة ، وترجع الصعوبة إلى عدة أسباب منها: لمـاذا يعاد طبع كتـاب ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٣م ؟ وقد يبـدو أن الإجابة سهلة ميسرة ، وهى أن الكتاب ما زال مقروءًا مـرغوبًا . ولكن الصعوبة تكمن فى هذه السهولة ، إذ أن إعادة طبع كتاب للمرة الرابعة يرجع إلى أسباب أكثرعمقًا ، وخـاصة إذا أعيـد طبعـه كما هو ، ليظل وثيقـة مطبـوعـة لمـا كـان ينشر فى تلك السنوات ، وقد بينت تفسير ذلك خلال مقدمة الطبعة الثالثة .

فيلاحظ أننـا وقد قاربنـا نهاية القرن العشرين ، نجـد أن اليمن - بأجزائه المختلفة - قد مرَّ بمراحل وتطورات متعددة خلال هذا القرن . فقد دخل اليمن هذا القـرن وهو ولاية عثمانية فى جـزء منه ، ومحمية بـريطانية فى جزء آخـر . وقد استقل جزؤه الشمالى عقب الحرب العـالمية الأولى تحت اسم : المملكة المتـوكلية اليمنية . ورغم نشـوب ثورتى ١٩٤٨ ، ١٩٥٥م ، فقد ظل النظام الـذى وضعه الإمام يحيى لحكم اليمن سـائدًا حتى قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م . وإعـلان قيام الجمهورية العـربية اليمنية . أما الجزء الجنوبى من البلاد ، فقـد ظل يعرف بأنه : عـدن ومحميـاتها ، وعـدن والمحميـات التسـع أو النـواحى التسع ، أو الجنـوب العربـى ، أو الجنوب اليمنى ، حتى نشبت ثـورته فى ١٤ أكتوبـر ١٩٦٣ وحقق استقلالـه فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ ، وأعلن قيـام الجمهورية اليمنيـة الديمقـراطية الشعبيـة . وهنا بـدأ يطفو بـالتـدريج - وعبر سنوات - اسميّ الشطـر الشمالى والشطـر الجنوبى - ولـو محليا - على الجمهـوريتين اليمنيتين الفتيتين تعبيرًا عن الرغبة الشعبية والحكومية فى تحقيق الوحدة اليمنية التى قدِّر لها أن تتحقق فى ٢٢ مايو ١٩٩٠م . وإعلان قيام «الجمهورية اليمنية» التى ضمت الشطرين ، والتى ارتضت التوجه الديمقراطى التعددى توجها لها لبناء اليمن الحديث القوى .

وهكذا يتضح تعدد المراحـل التى مرّ بها اليمن بشطريه خـلال هذا القرن

حتى وصل إلى وحدته ، وأصبحت كل مرحلـة من هذه المراحل تحتاج إلى دراسة منفردة متعمقة .

وهنـا تكمن أهميـة إعادة طبع هـذا الكتـاب ، لا ليتـوفر بين يـدى القـراء والباحثين من المهتمين بتاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، بل لأنه يتضمن تاريخ المراحل الأولى من مراحل هـذا القرن ، ولأنه يمهد لى - ولغيرى - كتابـة تاريخ بـاقى المراحل . فهو يحمل فى طيـاتـه اللبنة الأولى التـى شكلت ملامح تـاريخ اليمن فى النصف الأول من القـرن العشرين - مهما كـانت مـلامح هـذه اللبنـة وطبيعة تكـوينها - لذلك اعتبرتـه الخطوة الأولى التى تحتاج إلى خطـوات أخرى حتى يتم تغطية تاريخ اليمن خلال قرننا الحالى .

وكنت قد تمنيت يـومًا أن أواصـل دراسـة الفترة التى توقفت هنا عنـدها - أى عـام ١٩٤٨ - إلى قيـام ثـورة ١٩٦٢م ، تحت عنــوان : « مقـدمـات ثـورة سبتمبر ١٩٦٢ » لأنـال بها درجـة الدكتـوراه ، غير أن أستـاذى الكبير المرحـوم الدكتـور أحمد عزت عبـد الكريم وجهنى إلى أن أخصص دراستى حـول تاريخ اليمن فى القـرنين ١٦ ، ١٧ الميلاديين ، فامتثلـت لهذا التوجيه ، وسجّلـت هذه الأمنية فى مقدمـة كتابى : « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥م » . هذا وما زلت أطمع - أنا أو أحد تلاميذى - أن أحقق هذه الأمنية لنكمل باقى الخطوات .

وأخيرًا ، فإنى إذ أدفع بهذا الكتـاب إلى المطبعـة للمرة الـرابعـة فهذا لأنـه الحلقـة الأولى من حلقـات تـاريخ اليمـن فى القـرن العشرين ، فبـدون دراسـة الماضى لا نستطيع أن نفهم الحاضر أو نترسم خطـوط المستقبل ، كما أن الحاضر باستمـرار عبارة عن صراع جـدلى بين الماضى والمستقبل أو هـو بالأحـرى نقطة الالتقاء بينهما . فعل يقدر لنا جميعًا أن نخط تاريخ باقى الحلقات ؟

نتمنى ذلك ...... والله الموفق .

القاهرة : أغسطس ١٩٩٣

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

الطبعة الثالثة

يتردد المرء كثيرا عندما يُقْدِم على إعادة طبع كتاب من كتبه للمرة الثالثة ، خاصة إذا كان قد مرَّ على ظهور هذا الكتاب لأول مرة حوالى عشرين عاما . ويرجع هذا التردد إلى عدة أمور منها طول المدة ، فمن المتوقع أن يكون قد ظهر خلالها كتابات لمؤلفين آخرين قُدِّر لهم أن يعالجوا نفس الموضوع والفترة ، وأنه من المحتمل أن تكون هذه الكتابات قد أضافت شيئا جديدا إلى كتابى . وقد يرجع التردد أيضا إلى أن طبيعة التطور والتغير فى كافة مجالات الحياة بما فى ذلك مجال التأليف تفرض أن يضاف إلى مادة الكتاب ما وجدته من جديد خلال تلك الفترة ، حتى لا أتصف والكتاب بالجمود والتحجر .

لكن هذا التردد سرعان ما اختفى ، إذ اتضح أن الكتاب ما زال منفردا فى موضوعه وفى الفترة الزمنية التى عالجها ، بل وإضافة إلى ذلك أعتبر أساسا لكثير من الدراسات التى تناولت بعض ما ورد فيه من نقاط وإشارات ، وتم توسيعها وتعميقها على يد مؤلفين آخرين ، وبرزت بالتالى فى شكل كُتب جديدة أضيفت إلى المكتبة اليمنية .

أما من ناحية المادة التاريخية الجديدة التى تعرفت عليها وجمعتها خلال تلك الفترة الطويلة ، فكنت قد قررت مبكرا أن أفرد لها دراسات جديدة فى كتب أخرى حتى لا أزحم هذا الكتاب بما وجدت ، وحتى أتوسع فى دراسة هذا

الجديد وتعميقه ، وحتى يظل الكتاب وثيقة لما كان يكتب فى أواخر الخمسينيات وأوئل الستينيات من هذا القرن .

وقد تحقق بعض ما نويته مبكرا فى فترات سابقة ، فقد أشرت خلال فصول الكتاب الذى أقدم له الآن إلى بروز بعض مظاهر المعارضة لحكم الإمام يحيى منذ مبايعته بالإمامة وبعد استقلاله بالحكم ، وأن تلك المعارضة اشتدت بعد عام ١٩٣٤ حتى قيام ثورة عام ١٩٤٨ . لذلك سعدت عندما حصلت على أعداد « مجلة الحكمة اليمانية » وعكفت على دراستها حتى أخرجت عام ١٩٧٦م دراسة خاصة مستفيضة - تتعلق بهذه المعارضة - تحت عنوان : « مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح فى اليمن ، ١٩٣٨-١٩٤١م » (١٣٥٧ - ١٣٦٠هـ) . كذلك كنت قد أفردت فصلا خاصا فى الكتاب المقدم له بعنوان « جنوب غرب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى » غير أنى عندما اطلعت على بحث الأستاذ جون بولدرى ، ووجدت أنه يغطى نقصا فى مادة هذا الفصل ، وخاصة فيما يتعلق بأحداث الساحل اليمنى فى الفترة ذاتها ، سارعت إلى ترجمة هذا البحث ، ونشرته مع تقديم فى كتاب منفرد عام ١٩٨١م بعنوان : « العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركى ، ١٩١٤-١٩١٩م » .

أما كتابى الأخير : « وثائق يمنية ، دراسة وثائقية تاريخية » الذى صدر عام ١٩٨٣ ، فهو يحتوى على عدد غير قليل من الوثائق التى تمس تاريخ الإمام يحيى منذ مبايعته بالإمامة إلى خروج الأتراك من اليمن وإعلان الاستقلال ، وهى الفترة التى تمثل الثلث الأول من كتاب : « تكوين اليمن الحديث » . ولقد ألقى نشر نصوص هذه الوثائق وتحليلها والتعليق عليها أضواء جديدة وكثيرة على أحداث تلك الفترة ، غير أن تخصيص كتاب بذاته لهذه الدراسة قد أفسح

المجـال لدراستهـا بإسهاب وعمق ، وكـان ذلك أفضل بكثير من إضـافة هـذه الوثائق إلى صفحات كتابى الحالى .

وأخيرا فإذا كان على المؤلف أن يقف من مؤلفاته مـوقفا عادلا موحدا مثلما يقف الأب من أبنائه ، فـلا يرفع من قدر أحـدهم بالنسبة للآخـرين ، ولا يظهر اهتماما بواحـد منهم على حساب الآخر ، لذلك أبقيت كتـابى الأول على حالته التى وُلد عليها لأول مرة طالما استطـاع بمفرده أن يقف على قدميه ، وأنه أصبح مرجعـا أساسيـا لكثير مما ظهر من مـؤلفات عربيـة وأجنبية تعـالج نفس الحقبة التاريخيـة التى تضمنها ، أو لدراسـات توسعت فى معالجة بعض نقـاط الكتاب الفرعية التى وردت به أو أشار إليها .

لهذا كله حاربت التردد الذى انتابنـى ، ودفعت بالكتاب إلى المطبعة للمرة الثالثة .

وبالله التوفيق .

صنعاء : يونيو ١٩٨٤

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

الطبعة الثانية

لا يسعنى فى هذه المقدمة إلا أن أتحدث عن نقطتين هامتين :

النقطة الأولى توضيحية ، تتعرض لعنوان الكتاب وهو « تكوين اليمن الحديث » فقد كان هناك بعض سوء الفهم حوله ، بحجة أن تكوين اليمن حديثًا لا يقف عند حدود عهد الإمام يحيى . ورغم موافقتى على هذا الرأى ، فقد كان المقصود من وراء هذا العنوان هو إبراز كيفية ظهور دولة اليمن الشمالية بشكلها وحدودها الحالية - التى تعرف الآن باسم الجمهورية العربية اليمنية - من خلال أحداث عهد الإمام يحيى . ولذلك فقد احتفظت بعنوان الكتاب وفصوله ومادته كما هى لاتفاقها جميعًا مع ما ذهبت إليه .

والنقطة الثانية تتصل بكلمة الشكر : الشكر لهؤلاء الذين شرفونى بقراءة الكتاب وعلقوا عليه شفاهة أو تحريراً ، وخاصة من اليمنيين الأشقاء الذين من أجلهم ، وبفضل تشجيعهم ، أعيد نشر الكتاب .

والشكر لأستاذى الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى أغدق على من عبارات الثناء فوق ما أستحقه عندما شرفنى بكتابة مقدمة الطبعة الأولى ، ولما يغمرنى به من مساعدات وتشجيع منذ ذلك الحين حتى الآن .

وإنى إذ أعيد طبع هذا الكتاب لتتسع رقعة الانتفاع به ، فإنى أرجو أن أوفق فى تقديم المزيد والجديد من دراسات فى تاريخنا العربى الحديث .

القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٠

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

(الطبعة الأولى)

كانت « المملكة المتوكلية اليمنية » تعيش فى عزلة تقليدية منذ قيامها بعد الحرب العالمية الأولى ، فعاشت بعيداً عن التيارات الحضارية والسياسة العالمية، رغم ظهورها على المسرح الدولى والعربى ، فى فترات قصيرة متباعدة . وإلى جانب ذلك ، اشتهرت تلك المملكة بالتخلف والجمود ، وأنها تعيش فى حالة بدائية متأخرة ، رغم أهميتها الاستراتيجية والتاريخية وثرواتها الطبيعية . وانعكس ذلك كله فيما قيل وفيما كتب عنها ، فظهر متناقضًا مضطربًا قليلا ، ولم تتناول تاريخها الحديث والمعاصر ، وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراهنة أبحاث علمية جادة . واقتصرت الكتابات التى ظهرت على كتابات رحالة تعبر عن مشاهدات سريعة ، وانطباعات ولقطات مسافر ، أو كانت كتابات منحازة تدافع عن أوضاع معينة أو تهاجمها ، أو كانت أخباراً تحيطها الشك والريبة ، تتسرب بين حين وآخر لتظهر فى الجرائد والمجلات أو فى الكتب. وكان الفراغ الكبير الذى أحسته المكتبة العربية - أو حتى المكتبات الأخرى - يحتم القيام بأبحاث علمية مختلفة لسد هذه الثغرة . وكان هذا هو الدافع لأن أخصص رسالتى لنيل درجة الماجستير فى دراسة « تاريخ اليمن الحديث » فبدأت العمل فى هذا البحث فى يناير ١٩٥٩ ، وقد انتهيت منه فى مايو ١٩٦١ ، ثم تمت المناقشة فى أبريل ١٩٦٢ .

ولم يكن الأمر سهلا أمامى عندما بدأت البحث ، إذ قامت عدة صعوبات تمثلت فى قلة المراجع والمصادر ، وفى كيفية معالجتها والاستفادة منها ، وذلك نتنيجة الظروف السياسة التى مر بها اليمن فى تاريخه الحديث . وكان الأمر يزداد تعقيداً كلما توغلت فى البحث لما كنت أتكشفه دائمًا من قلة المعلومات فى بعض

النـواحى ، وفى غموضهـا واضطرابها فى النـواحى الأخـرى . ولذلك كنت أقـوم بالجهد المضاعف لأعثر على القليل المتناثر من المادة التاريخية ، التى كان على أن أدقق فى دراستها ، وأقارن بعضهـا ببعض ، حتى أتمكن فى النهاية من رسم خط تـاريخى سليم ، يـربط أجـزاء الـرسـالـة دون الخوض فيما تعـرضـه على المراجع المختلفـة من تفصيلات زائدة ، لا تخدم البحث التـاريخى . وهـذا لا يعنى أنى أهملت النواحى الاقتصاديـة والعمرانية والاجتماعية ، فقد تناولتهـا كثيراً وخاصة بما يوضح جوانب البحث المتعددة . وفى كثير مـن الأحيان ، كنت أشعر باليأس الشديد فى مـواصلة بحث هذا الموضوع ، وبالخوف من عدم الـوصول إلى نتائج مفيدة ، لولا تشجيع المغفور له الأستاذ المشرف ودفعه لى .

* * *

إن أول مـا يلفت النظـر فى تـاريخ اليمـن الحديث والمعـاصر ، هـو قيـام «الدولـة المتوكليـة اليمنية » وبالتـالى شخصية مـؤسسها الإمـام « يحيى بن حميد الدين » ثم الارتباط بينهما . ولهذا الترابط كـان موضوع الرسـالة وعنوانها الأصلى هـو : « أثر الإمـام يحيى فى تاريخ اليمن الحديث » فـالإمام يحيى يعتبر مـؤسس تلك المملكة ، والـذى شكل ملامح شخصيتها المعاصرة . وأفـادنى هذا الترابط من الناحية العمليـة ، إذ جعلت تاريخ حياة الإمام يحيى ، محوراً لـدراسة تاريخ اليمن الحديث . فإلى جـانب تتبعى لمراحل حيـاته المختلفـة ، منذ تـولى إمامـة الزيـديين عام ١٩٠٤ ، حتى أصبـح حاكما مستقـلا عام ١٩١٩ ، وحتى وفـاته ١٩٤٨ ، فقـد أوضحت كيف انتقل اليمن من ولاية عثمانيـة إلى دولة مستقلـة . وأبـرزت - طوال البحث - مـلامح الـدولة الجـديدة ، ونـوع اسـتقلالها ، إلى جانب مشاكلها العديـدة الداخلية والخارجية ، كما أوضحت دور الإمام يحيى فى مراحل تاريخ هـذه الدولة وسياسـته ، وكيف طبع اليمن فى النهـاية بالطابع الذى عرف به .

وقد تناولت هذه النقـاط فى بابين كبيرين ، اشتمل الباب الأول على تاريخ اليمن تحت الحكم العثمانى أى من سنـة ١٩٠٤ وهـو تاريخ تـولى الإمـام يحيى

الإمامـة ، إلى ١٩١٩ ، واشتمل الباب الثانى على تـاريخ اليمن المستقل أى من ١٩١٩ إلى ١٩٤٨ عند وفاة الإمام يحيى . وقسمت الباب الأول إلى ثلاثة فصول، وحرصت أن يكـون الفصل الأول فصلا تمهيـديًّا ، أقدم بـه اليمن نفسه وظـروفه الطبيعيـة والاجتماعية والتـاريخية - تلك البيئـة التى قامت فيهـا تلك الدولـة - وذلك لقلة ما يعـرف عن اليمن ، بالرغم مما قد يبـدو فى ذلك من بعد عن البدء فى الموضوع مباشرة . والفصل الثانى والثالث يتناولان أحداث اليمن تحت الحكم العثمانى ، ورغم وحدة هذه الفترة ووحدة طـابعها العام ، إلا أننى حرصت على تقسيمها إلى فترتين ، فى فصلين منفصلين ، لزيادة التوضيح من ناحية ، ولأن كل منهما تتميز عن الأخرى ببعض المميزات من ناحية أخرى . أما الباب الثانى فقد قسمتـه إلى فصلين فقط ، وأخـذت عـام ١٩٣٤ فـاصـلا بينهما ، لما تم فيـه من أحداث هـامة أثرت فى تاريخ اليمن . وقـد حمل كل من الفصلين طابعًا خـاصًّا تميـز بـه عن الآخـر ، تبعًا لطبيعـة الأحـداث والظـروف التى كـانت فى كل من الفترتين . فـاهتممت فى الفصل الأول بـالحروب والمواقف العنيفة والعـلاقـات السيـاسية ، تلك النـواحى التى تصاحب دائما دولـة جديـدة . أما بعـد ١٩٣٤ فكـانت الـدولة قـد وصلت إلى عهـد من الاستقـرار والهدوء النسبى ، ولـذلك عملت فى هذا الفصل على دراسـة سياسـة الإمام يحيى من النـواحى المختلفة ، وأثره فى خلق شخصية الـدولة اليمنية فى تاريخها المعاصر وقـد قمت بإعادة هذا التقسيم إلى تقسيمات أصغر عند النشر .

وقـد حرصت - نظـراً لقلة المراجع وظـروف الموضوع الخاصـة - أن أقسم الموضوع بعد الفصل التمهيدى إلى فترات زمنية محدودة ، تشكل كل منها مرحلة معينة من مراحل قيام تلك الـدولة وأحسست من البداية بضرورة السير البطىء فى دراسـة الأحـداث وتطـورهـا . فلم أتعمـد مثلا دراسـة العـلاقـات اليمنيـة السعوديـة منذ بدايتهـا حتى تمت تسوية الصلح فى عـام ١٩٣٤ ، بشكل طولى منفـرد فى جـزء خـاص ، بل تعمـدت دراسة هـذه العـلاقـات ضمن أحـداث وعلاقـات أخرى سارت معهـا فى خطوط زمنية متـوازية وذلك لأنى أعتقـد أنه

ليس هناك ظواهر تاريخية ، بل هناك أحداث تاريخية تتفاعل مع بعضها البعض، وتؤثر كل منها فى الأخريات ، وتفسر كل منهم الأخرى فى نفس الوقت. وأدى هذا الفهم إلى أنى قسمت كل فترة من تلك الفترات إلى أقسام أصغر ، حتى يتضح فى النهاية مجرى التيار العام لتاريخ هذه الفترة الهامة من حياة الشعب اليمنى . ورغم عزلة اليمن المعروفة ، فقد كنت أومن بأن تاريخه لا ينفصل عن تاريخ الجهات المجاورة ، لذلك حرصت على التوسع فى توضيح بعض النقاط من تاريخ الدولة العثمانية ، أو من تاريخ الجزيرة العربية على الأقل التى عاصرت أحداث اليمن .

وأخيراً ، فإنى لا أملك إلا أن أشيد بما تفضل به على أستاذنا الراحل ، المؤرخ الكبير « محمد شفيق غربال » وإلا أن أتغنى بما غمرنى به من تشجيع وتوجيه ، وإنى لا أفخر بشىء قدر فخرى بأنى أتممت رسالتى هذه تحت إشرافه ورعايته .

وإنى أتقدم بالشكر كذلك إلى لجنة المناقشة الأساتذة ، الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور عبد الحميد البطريق والدكتور محمد أنيس ، لما تكبدوه من جهد فى قراءة الرسالة ، ولما أسدوه إلى من توجيهات قيمة عند المناقشة .

كما أتقدم بالشكر إلى « معهد الدراسات العربية » وإلى أساتذته ورجال إدارته ، وإلى مكتبته النفيسة .

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٢

السيد جمال مصطفى سالم

القسمُ الأول

تمهيــــد

فى جغرافية اليمن وتاريخه وأحواله الاجتماعية

أهمية التعريف باليمن :

لا شك فى أن المنهج الأكـاديمى للبحث العلمى ، يحتم البـدء مبـاشرة فى تناول عهـد الإمام يحيى ، وهو موضـوع الرسالة ، ولكن ظـروف اليمن الخاصة ، تفـرض تخصيص فصل مستقل فى أول الـرسالـة أوضح فيـه الأبعاد المختلفـة - الطبيعية والبشريـة والتاريخيـة - التى تغلف الأحداث الـرئيسية للمـوضوع . إذ يعتبر اليمن من أكثـر البلاد التى يجهل العـالم عنه الكثير ، لا من نـاحية تـاريخه وأحداثه المعاصرة فحسب - بل من ناحية جغرافيته وأوضاعه الاجتماعية وموارده الاقتصادية أيضًا . وانعكس ذلك فى كتابات المؤرخين والكتاب المحدثين الذين تناولـوا تاريخ وأوضاع بلـدان الشرق الأوسط المعاصرة ، فنـرى أنهم لم يخصصوا لليمن إلا فصولا صغيره فى كتبهم أو أهملوا الحديث عنه كلية ، وذلك على الرغم من أهميتـه الاستراتيجيـة والتاريخيـة . ويسـد هذا الفصل بعـض الفراغ الـذى شعرت به عنـد بداية البحث ، ويوضح فى نفس الـوقت المؤثرات المختلفة التى ظهر أثرها فى سير الأحداث هناك ، وفى بيان المواقف المختلفة التى شكلت عهد الإمـام يحيى ، تلك المؤثـرات التى لعبـت - وتلعب - الـدور الأكبر فى تـاريخ اليمن الطويل .

جغرافية اليمن[1] :

يـلاقى البـاحث نقصًـا كبيراً عند دراسـة جغـرافيـة اليمن ، فليس هنـاك مصادر أو إحصائيات رسميـة أو غير رسمية يعتمد عليها فى الدارسـة . وهذا ما دفع (فيشر) إلى أن يصف اليمن بأنه إقليم مغلق ، ولم تعـرف طبيعته تمامًا ، وأن الرحـالات العرضيـة لبعض الرحـالة ، تعتبر المصـدر الرئيسى للمعلـومات عن الأحوال الجغرافية[2] ولكننـا سنحـاول رغم ذلك ، دراسة طبيعـة هـذا الإقليم،

---

(١) يقصد باليمن هنـا ما عرف « بالمملكة المتـوكلية اليمنية » أو مايعرف الآن « بـالجمهورية العـربية اليمنيـة » . ورغم أن اليمنيين أنفسهـم يعتبرون أن « اليمن » يضم مناطق واسعـة تمتد مـن عسير ونجران شمالا إلى عدن وحضرمـوت جنوبًـا ، إلا أنى أردد لفظ « اليمن » فقط فى البحث لسهولة التعبير مع إيمانى بما يذهبون إليه فى حدود وطنهم .

(٢) W. B. Fisher ; The Middle East , Methuen & Co., London, 1950, p. 433.

ومعرفة جغرافيته بقدر الإمكان . يمتد اليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه جزيرة العرب حوالى ٣٠٠ ميلا بين خطى عرض ١٢-١٨ شمالا . وتبلغ مساحته حوالى ٧٥ ألف ميل مربع . ويبلغ عدد سكانه حوالى أربعة ملايين نسمة[١] . أما حدوده السياسية الحالية فهى : من الشمال « عسير » وتتبع المملكة السعودية ، ويمتد خط الحدود من ميناء « ميدى » على البحر الأحمر ، إلى شمال بلدة « صعدة » متبعًا وادى « مخلاف » إلى حدود « نجران » و« يام » الجنوبية . ومن الجنوب ما كان يعرف بمحميات عدن ، وتمتد الحدود بين «الشيخ سعيد » على البحر الأحمر إلى جنوب بلاد « الحجرية » و« ماوية » و«قعطبة » . ومن الشرق « حضرموت » والخط الفاصل هو وادى « بيحان » وبادية « الجوف » الممتدة إلى الربع الخالى ومن الغرب يمتد البحر الأحمر[٢]. ويتضح من هذا أن اليمن ذو موقع استراتيجى هام ، إذ يقع عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ليقابل القطب الثانى لهذا البحر المتمثل فى قناة السويس.

أما من ناحية التضاريس ، فيمكن تقسم اليمن إلى ثلاثة أقسام : الأول منخفض يمتد على طول الساحل ويسمى تهامه ، والثانى الهضبة ومرتفعاتها الشمالية ، والثالث المنخفض الشرقى ويعرف بالجوف . وسهل تهامه عبارة عن شريط ضيق من الصحراء الرملية التى يشتد حرها ، ويتراواح عرضها بين ٢٠-٥٠ ميلا . أما الهضبة - فهى تميل نحو السهل الساحلى وبها مساحات عريضة يتراوح عرضها بين ٧-١٠ آلاف قدم - أى أنها ليست جبلية وعرة - وبها أعلى قمة فى كل الجزيرة العربية ، وهى قمة النبى شعيب على بعد ٣٠ ميلا غربى صنعاء ، ويقدر ارتفاعها بحوالى ١٤ ألف قدم فوق سطح البحر . وقد

---

(١) Richard H. Sanger ; The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York , 1954, p. 235.

(٢) المقتطف : مجلد ٩٠ ج ١ ص ١٨-١٩ (عدد يناير ١٩٣٧- من مقالة أحمد وصفى زكريا الذى زار اليمن عام ١٩٣٦ ومكث به ستة أشهر) .

قطعت المجارى المائية سطح الهضبة حيث توجد ظاهرة القنوات المائية ، ولكنها لا تستطيع عبور السهل الساحلى لتصل إلى البحر ، ويعنى هذا أنه ليس باليمن أنهار طويلة ويظهر طفح « اللافا » بوضوح على الهضبة : وتعمل هذه المواد البركانية على خصوبة التربة .

ويتأثر مناخ اليمن بعدة عوامل : منها قربه من خط الاستواء ، واختلاف تضاريسه ، وقربه من مسطحات مائية عريضة مثل البحر الأحمر فى الغرب والبحر العربى فى الجنوب . فعلى الهضبة تنخفض درجة حرارة الشتاء إلى أقل من ٤٠° ف ويظهر الجليد على المرتفعات الشامخة . أما فى الصيف فترتفع درجة الحرارة للقرب من خط الاستواء ولكن ليس بالدرجة التى تصل إليها فى باقى الجزيرة العربية ، بسبب ارتفاعها من ناحية ، ولوجود فصل مطير متميز من ناحية أخرى يشمل شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر . ورغم صعوبة البت فى مناخ اليمن إلا أنه يمكن القول أن كمية المطر تزيد على ٢٠ بوصة فى السنة فوق أغلب الهضبة ، وقد تصل إلى ٤٠ بوصة على الأجزاء العليا منها . وهناك فصلان لسقوط الأمطار ، ولكن الفترة التى يسقط فيها أغلب المطر هى التى سبق ذكرها لهبوب الرياح الموسمية التى تهب على الحبشة والهند ، أما الفصل الثانى للأمطار فهو فى شهر مارس نتيجة تأثر اليمن بمناخ البحر المتوسط مثل باقى بلاد الشرق الأوسط . ويلاحظ أن المرتفعات هى التى تتأثر بهذه المقادير من الأمطار ، أما السهل الساحلى المتاخم للبحر الأحمر فأمطاره قليلة جداً ، وأقصى ما يمكن أن يرى منه فى فصل الشتاء .

وتبعًا للتغيرات المناخية تتأثر الحالة النباتية ، ففى تهامة - على الساحل - تقل درجة الاخضرار ، فيوجد الصبار وشجر السنط ، وفى الداخل من تهامة لا تتغير المظاهر النباتية كثيراً ، نظراً لانتشار أكمات الرمال والحصى التى كثيراً ما تحملها الرياح العاصفة ، وفوق ٣٠٠٠ قدم تظهر نباتات البحر المتوسط ، وعند

ارتفاع ٤٥٠٠ قـدم تبدأ أعظم منطقة إنتـاجية .. فتـوجد الحبوب حيث تـوجد التربة الخصبة ، كما توجد أنواع من أشجـار الفاكهة والخضروات . وهناك نباتان يستحقان الذكر بشكل خاص[١] ، هما : شجيرة البن التى تنمـو على المرتفعات بين حوالى ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قـدم وتشتهر منطقة مناخـة التى تقع خلف ميناء « مخا » بزراعته ، والبن يمثل الثروة القومية لليمن منذ قديم الزمن . والنبات الثانى هو القات ، وينمـو إلى ارتفاع ١٠ أقدام تقريبًـا وتقصر زراعته على ارتفاع ٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم[٢] . والجدير بـالذكـر هو أن الأحوال المنـاخية ، وجـودة التربة ، تساعدان على نمو القطن [٣] .

ولا تقل الثـروة المعدنيـة أهمية عن الثـروة النباتيـة ، فيوجـد فى الشمال من منطقة صنعـاء منجم مهم للحـديد . وفى الجنـوب وجد الفحـم الحجـرى بكثرة حتى إنه يبدو على السطح فى منحدارات الجبال ، وفى « صليف » منجم للملح يحوى نسبة مـرتفعة من كلـوريد الصوديـوم تجعله فى مصـاف أفضل المناجم فى العالم . وبإيجاز يمكن القـول إن اليمن من البلاد الغنيـة معدنيًّـا ، ويحتوى كثيراً من الذهب والفضة والأورانيوم والنحاس والماغنيزيوم والبوتاس .

أما البترول فقـد عثر عليـه فى منطقة « صليف » وفى منطقـة « شبوه » على الحدود الشرقيـة ويمثل رأس مثلث مع كـل من « بيحـان » و « عيـاضـة » وهما ضمن المحميات البريطانية[٤] .

---

(١) تتشابه ظروف نمو نباتى البن والقات ، وهما يعتبران نبـاتان متنافسان وخاصة فى الأزمنة الحديثة إذ كان البن طـوال تاريخ اليمن يمثل الثروة القومية للبلاد واكتسب شهـرة عالمية لجودته وانتشاره . والغلبـه الآن للقات لأنه يدر أربـاحاً طائلة سريعـة ، ولأن أسرة « حميد الـدين » أهملت زراعـة البن الذى يحتـاج إلى عنـايـة أكثر من حيث الإنتـاج والتسـويق وخلافه . والقات نبـات منبه يمضغه اليمنيون ، وله جلسات خاصة وعـادة ما تكون بعد الظهـر ، ومضغه عـادة منتشرة بين كل الفئات والطبقـات هناك ، ولـلإمام يحيى قصيـدة مشهورة فى مدحه .

(٢) Fisher ; The Middle East pp. 433-435.

(٣) Hogarth, (D. G.) ; The Nearer East, H. F rowde , London , 1905, p. 140 (1905).

(٤) Jean Jacques berreby La Peninsulsa Arabique, Paris, Payot, 1958, pp 135-136

الحالة الاجتماعية :

تتميز الحالة الاجتماعية فى اليمن بعدة أمور :

أولا - القبيلة هى الوحدة الاجتماعية للمجتمع اليمنى .

ثانيًا - هناك اختلاف ظاهر بين سكان الجبال وسكان السهول فى نواحى الحياة المختلفة .

ثالثًا - شعب اليمن مقسم بين مذهبين كبيرين هما : المذهب الشافعى والمذهب الزيدى .

وقد لعبت هذه الحقائق دورا هامًّا فى تاريخ اليمن حتى اليوم ، وهى ترجع فى أصولها إلى جذور تاريخية وجغرافية واضحة .

وسبب وجود وأهمية ظاهرة « القبيلة » هناك ، يرجع إلى أن طبيعة اليمن بأقسامه المختلفة لا تحتمل وجود جماعات بشرية كبيرة تمتد لمسافات طويلة . ولكن حتى لا يختلط الأمر فى الأذهان ، نقول إن لفظ « قبيلة » لا يعنى بالضرورة أن هناك تنقلا أو ترحالا - تلك الظاهرة التى ترتبط دائمًا بكلمة قبيلة - إذ إن القبائل مستقرة مكانيًّا إلى حد كبير فى اليمن ، فقد ارتبطت بالأرض وتعمل أساسًا بالزراعة ، وفى العادة تسكن القبيلة الواحدة عدة قرى متجاورة . وهذا لا ينفى وجود حياة رعوية ، وإن كان ذلك فى نطاق ضيق فى مناطق متفرقة ، وخاصة فى داخل تهامة ، كما لا ينفى وجود ترحال محلى كما هو الأمر بالنسبة لقبائل الجوف فى الشرق الذين ينقلون التجارة بين عدن والداخل - إلى جانب القليل من الزراعة والرعى - على ظهور الإبل . وترجع أهمية النظام القبلى فى اليمن إلى أنه يعنى بالتالى إلى وجود نظم اجتماعية وظواهر نفسية معينة دائمًا ما ترتبط به وبوجوده أشد الارتباط . فالمجتمع القبلى يقوم على نوع من العلاقات والروابط الاجتماعية ، التى تدور حول « وحدة الدم » أو « العصبية » التى تفرض بعض الحقوق والالتزامات المتبادلة ، وتعين أنواعًا معينة من السلوك.

« إذ يدخل أفراد المجتمع القبلى فى صلب ضمائرهم الشعور بالمسئولية والوازع الخلقى بأن يستنكفوا عن القيام بكل عمل يخالف مصالح العصبية»[١].

وهذه الخصائص تعنى أن القبيلة تميل إلى الانغلاق حول نفسها ، وتحاول الاكتفاء الذاتى ، وتنفر من الغريب بوجه عام ، ويقوى ترابطها فيما بينها فى نفس الوقت .

وإلى جانب هذا كله فالحياة القبلية تتميز بأمرين : أولهما أن القبيلة تتمسك باستقلالها الذاتى وتتعصب له أشد التعصب ، فلا تحب أى تدخل خارجى مهما كان نوعه أو مصدره . وثانيهما أن القبليين متعصبون جدًّا لقضاياهم الخاصة ، ولا يبعدون فى تفكيرهم عن نطاق حياتهم اليومية الرتيبة . وهم إلى جانب انغماسهم فى حياة حضارية خاصة يخلقونها لأنفسهم - وهى غالبًا تستمد جذورها من القديم ، ولا تقبل التأثيرات الخارجية بسهولة - فإنهم دائمًا يتعلقون بشىء يتعصبون له ويلتفون حوله ، مثل قضية معينة ، أو مصلحة خاصة ، أو عقيدة بذاتها . ومن البديهى أن نتوقع أن أفراد القبيلة - تحت ضغط الحياة التقليدية الخاصة والمصير الواحد - لا يتحركون أو يتخذون موقفًا معينًا ، إلا بصورة جماعية وكأنهم كتلة واحدة .

أما ظاهرة الاختلاف بين أهل السهول وأهل الجبال فى اليمن ، فهو أمر محقق هناك . ويرجع هذا الاختلاف إلى الظروف الجغرافية التى تختلف من مكان إلى آخر . ففى تهامة - حيث تبلغ الحرارة السنوية حوالى ٨٥° ف ويقل الماء وتنتشر التربة الحجرية - لا توجد إلا مجموعات سكانية صغيرة متناثرة . وهم من البدو بوجه عام ، ويشتغلون بقليل من الرعى والصيد والزراعة . ووجود الموانى المختلفة مثل « المخا » و « اللحية » و « الحديدة » و « غليفقة » يعطى تهامة أهمية كبيرة[٢] بالرغم من فقر أجزائها النسبى .

---

(١) الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : حلقة الدراسات الاجتماعية ، الدورة الخامسة ١٦-٢٥ مايو ١٩٥٦ ص ١٦٠-١٦١.

(٢) Hogarth ; The Nearer East p. 154, p. 167.

والأهالى هنا دائمًا يكونون شبه عراة ، وسمر الوجوه ، وذلك لحر بلادهم ولاختلاط دمائهم بالدم الصومالى والحبشى منذ أقدم العصور ، كما أنهم يسكنون بيوتًا من العشش . وفى الداخل من تهامة تتعدد بعض القبائل ذات الشكيمة القوية مثل « الصبيحة » و « الزرانيق » و « القحرى » و « بنى صليل » وغيرهم[١] . أما أهالى الهضبة فهم يختلفون عن أهالى تهامة فى كثير من النواحى ، فنجدهم أقل نحافة ، وأكثر حركة وأشد حيوية ، أذكياء ، من العرب الخلص . وقد فضلهم « سانجر » لا عن باقى أهل اليمن فحسب ، بل عن باقى أهل الجزيرة العربية أيضًا لهذه الصفات الخاصة[٢] . وهم يشتغلون بالزراعة أساسًا ، وتتصل قراهم بعضها ببعض ، وبيوتهم مبنية من الحجر وتتكون من طابقين أو ثلاثة ولا يوجد فيها أكواخ مثل تهامة . ويلاحظ أنهم – فوق الجبال العالية – يلبسون جلود الغنم فى الشتاء لشدة البرد . وأهل الهضبة أيضًا أكثر نقاوة من حيث اللغة واللهجة من أهل تهامة ، ويتضح هذا كلما صعدنا مع الجبال[٣] . ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى اختلاط أهل تهامة بعناصر أجنبية ، بعكس أهالى الهضبة الذين يحتفظون بعزلتهم التقليدية ، إلى جانب اقتصار تراثهم الثقافى على القرآن والأدب العربى القديم . وكلما صعدنا مع الجبال أيضًا نجد أن الجبليين أحد مزاجاً ، وأكثر حركة ، وأشد تعصباً لمبادئهم ، مهما كانت هذه المبادئ ، كما أنهم لا يصبرون على الخضوع لسادة لا يبذلون لهم العطاء ، أو يهملون مصالحهم[٤] . وأهالى الجبال – إلى جانب صفاتهم الخاصة – يكونون فى الغالب أصحاب مذهب معين ، يخالف فى العادة مذهب أهل السهل ،

---

(١) المقتطف : مجلد ٩٠ جزء ٣ صفحة ٣١٨ .

(٢) Sanger ; The Arabian Peninsnla, p. 136

(٣) Jacob; Kings of Arabia Mills & Boon , London, 1923, p. 101.

(٤) Hogarth ; The Nearer East, p8 267

إذ إن المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الدينية تلجأ دائمًا إلى التحصن فوق الجبال . وهذه الحقيقة تكرر نفسها فى باقى بقاع العالم العربى ، فيوجد «العلويون » فوق جبل العلويين ، ويوجد « الدروز » فوق جبل الدروز ، ويوجد « الموارنة » فوق جبل لبنان . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير أن أهل الجبال الشمالية العالية فى اليمن يعتنقون المذهب الزيدى . ويرجع « جيكوب » وجود الاختلاف المذهبى القائم فى اليمن إلى الاختلافات الطبيعية ، تلك الاختلافات التى تظهر عند سكان كل قطر تنقسم تضاريسه بين سهول وجبال ، والتى تختفى دائمًا وراء واجهات مذهبية أو حزبية أو غيرها . فيقول : « والأسس الجغرافية – لا الاختلافات المذهبية – هى سبب الاختلاف بين هاتين المدرستين المتنافستين ، إذ إن الفرق الدينية المختلفة تختلط فى المسجد الواحد »[١] .

وأهل اليمن عمومًا من المسلمين إلا أنهم ينقسمون أساسًا إلى شيعة – وهم أتباع المذهب الزيدى – وإلى سنة وهم يتبعون المذهب الشافعى[٢] ويقطن الشافعيون السهول والهضبة الجنوبية والوسطى ، ويبلغ تعدادهم ثلثى سكان اليمن . أما الزيديون فيتجمعون أساسًا فوق الجبال ، وخاصة فى شمال الهضبة وهم حوالى ثلث السكان ، ويقبضون على زمام الحكم فى أغلب الأحيان منذ ظهور المذهب الزيدى فى اليمن . وإلى جانب هؤلاء يوجد قليل من الإسماعيلية فى جهات « حراز » ويسمونهم هناك « مكارمة » وهم لا يتبعون الإسماعيلية أتباع « أغاخان » وكان يوجد كذلك أقلية يهودية تسكن أحياء خاصة بهم ، لكنها هاجرت إلى فلسطين المحتلة ، وكان بيدهم معظم صناعات اليمن ، ويؤثرون فى الحركة الاقتصادية[٣] .

---

(١) jacob, Kings of Arabia, p, 110.

(٢) تستميل بعض المراجع العربية لفظى « الشوافع » و « الزيود » مقابل « الشافعيون » و«الزيديون».

(٣) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢ ، (عدد أول نوفمبر ١٩٣٧) .

أما الطبقات فى اليمن فيمكن أن نقول إنها ما زالت تحمل التقسيمات التى كانت عليها فى العصور التاريخية الماضية . وهى مقسمة إلى « السادة والفقهاء ، والقضاة والنقباء والمشايخ والعقال ، وهؤلاء هم علية القوم ، ويلى هؤلاء العوام وأرباب الحرف »[١] . وهذه التقسيمات فى الحقيقة لا تقوم على أساس اقتصادى بالمعنى الحديث ، بل هى طبقات اجتماعية تنقسم كل طبقة - داخليًا - إلى عدة مستويات اقتصادية . فيوجد داخل طبقة السادة مثلا الغنى والفقير على الرغم من أن طبقة السادة نفسها كانت هى أعلى طبقة فى اليمن .

والمجتمع اليمنى - على كل حال - مجتمع يقوم على الأساس الطبقى ، أى طبقات مختلفة الواحدة فيها عن الأخرى فى كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والدينية . وتتألف الطبقة العليا من السادة المعروفين بأنهم من سلالة النبى ، أما المزارعون وأصحاب الحرف والقبائل البدوية فإن كل فئة منهم تشكل طبقة خاصة مقفلة لها وظيفتها الخاصة[٢] .

وإلى جانب أن الطبقات اليمنية استمدت وجودها وتشكيلها من الأسس التاريخية القديمة ، فإنها ما زالت تلعب دورها فى تاريخ اليمن الحديث . فهذه الطبقات ما زالت شبه مغلقة ، تحتفظ كل منها بكيانها الخاص ، وتحاول فى نفس الوقت الاحتفاظ بدورها المستمد من تقاليد وعقائد ذات أصل قديم . ونحب أن نتعرض لطبقة السادة - وهى الطبقة العليا ذات السيادة - لندرك أهمية الوضع الطبقى ، ومدى ما يلعبه هناك من أدوار سياسية اجتماعية فى تاريخ اليمن . وتطلق كلمة السيد فى اليمن على المتسبين لآل الرسول فقط . والسادة هناك كثيرون وأسرهم معروفة وأنسابهم محفوظة . و « السادة » أسمى طبقات اليمن وأوفرها احترامًا واعتزازاً ، وهم القابضون على عنان العقائد والميول ، والمسيرون للآراء والنزعات ، وإذا صادف اليمانى - رفيعًا كان أم وضيعًا -

---

(١) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ (عدد أول نوفمبر ١٩٣٧) .

(٢) Jean-Jacques berreby ; La Peninsule Arabiaue, p. 124 .

واحداً من هؤلاء السادة وإن صغر سنه ورق حاله يهوى على ركبتيه ويديه بالتقبيل : وكل الإمارات والعمالات الرفيعة والمقامات والوظائف الدارة فى اليمن هى للسادة بادئ ذى بدء مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم . وكل صدقات الفطر، والهدايا ، والنذور الدينية فى الأعياد والمواسم ، وغيرها من الأوقاف ، تجبى لهم مهما كثر مالهم وسعد حالهم . والقاعدة عند السادة أن يصاهر بعضهم بعضًا»[1] . ويحتاج هذا القول بعض التصحيح ، فمن ناحية - نجد أن السادة فى اليمن ، يقابلون الأشراف فى مصر ، الذين يتمتعون باحترام العامة وتقديسهم. ومن ناحية ثانية - نجد أن الإمام يحيى استغل هذا الوضع الخاص ، فقرب إليه بعض أفراد تلك الطبقة ، ورفع من شأنهم اعتماداً على نسبهم فقط ، مما أوجد فى النهاية مشكلة الخلاف الشديد بين الهاشميين والقحطانيين - وهم أهل اليمن الأصليين .

من العرض الجغرافى الاجتماعى السابق يتضح أن اليمن غنى بثرواته الطبيعية - النباتية والمعدنية - وأن هذه الثروات لم تستغل بعد الاستغلال اللازم للارتفاع بمستوى سكانه . وقد جذب أنظار اليونان القدماء وفرة مياه اليمن ، والاخضرار الدائم الذى يكسو جهاته المختلفة - بعكس انتشار اللون الأصفر الذى يكسو باقى جهات الجزيرة العربية - ولذلك فقد أطلقوا عليه اسم «العربية السعيدة » أو Arabia Felix كما أن اليمن غنى بإمكانياته البشرية ، ولا يشوب هذا القول أن شعبه مقسم بين مذهبين كبيرين ، أو أنه يضم بين جوانبه سهليين وجبليين ، فهذه الاختلافات توجد فى معظم دول العالم . وهذه الاختلافات ذاتها تغنى تلك الدول بتنوع العناصر والاهتمامات ، وتصبح عوامل إيجابية فى رفع شأن الدول ، إذا لم يستغل الحكام والساسة هذه الأوضاع لتحقيق مصالح خاصة ، أو للوصول إلى أغراض معينة ، ولم يوسعوا الثغرات بين عناصر شعوبهم . وحديثًا قال المؤرخ الإنجليزى « برى » « فالقول بأن اليمن لا يستطيع

---

(١) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ (عدد أول نوفمبر ١٩٣٨) .

إطعام شعبه قول غير صحيح ، ولا يرجع إلى العوامل الطبيعية أو إلى خمول أهله الـذاتى ، ولكنـه يـرجع إلى اضطـراب الأمن ، والظـروف المعقــدة التى تعتبر السلطات مسئولة عنها »[١] .

المذهب الزيدى :

أشرنـا فيما سبق إلى المذهب الـزيـدى لمامـا ، ولكنـا نحب هنـا أن نبحث أصـول هـذا المذهب وتـاريخه فى اليمن، لما له مـن أثر كبير فى مجريـات الأمـور هناك.

لقد سـاعد هذا المذهب على خلق وحـدة بشرية مترابطـة فى تاريخ اليمن منذ ظهـور المذاهب هنـاك ، فقـد قـامـت بعض الـدول القـويـة على أسـاسـه واستطاعت أن تمد نفـوذها على مناطق واسعـة فى جنوب الجزيرة العـربية ، وأن تنشر العدل والسـلام هناك . وظهـرت أهمية المذهب فى فترة الاحتـلال العثمانى الأول والثـانى ، إذ كـان هـو التنظيم السيـاسى الـوحيـد ، الـذى اصطـدم بـه العثمانيون فى اليمن . ويمكن اعتباره العصبية التـى قال عنها « ابن خلدون » فى مقـدمته المشهـورة إنها ضروريـة لقيام الـدول وربط بين قوة الـدولـة وقوة هـذه العصبية . ولكن يجب - القول إن العصبية الزيـدية لم تكن دائماً عاملا إيجابيًّا فى قيام تنظيم سياسى فى اليمن فحسب - بل كانت أيضًـا عاملا سلبيًّا ، إذ كانت أحيانًا عـامل هدم واضطراب ، وهذا مـا دفع هانز هلفرتـز إلى القول : «إن أهـم أسبـاب اضطـرابـات اليمن أيـام الحكـم العثمانى ، هـو تعلق اليمنيين بفكـرة الإمامة، فالمذهب يبيح بطبيعته فرصة التنازع بين أبناء بيت « على » على الإمامة، فيظهر العديد من الأدعياء ، وتزيـد الفوضى والاضطراب طالما كـانت السلطة العليا ضعيفة »[٢].

---

(١) Bury : Arabia Infelix, or THe Turks in The Yemen , Macmillan & Co, London , 1915, p. 117.

اختصرنا كثيرًا فى هـذا الجزء عند نشر الـرسالة ، ويمكن الـرجوع - لـزيادة الفهم وإكمال بعض النقص - إلى رسالة ماجستير الزميل اليمنى السيد / محمد أنعم غالب التى نشرت قريباً بعد ترجمتها تحت عنوان « نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن » .

(٢) Hans Helfritz ; The Yemen, A Secret Journey, Allen & Unwin, London, 1958, p. 129.

ولكى نتحدث عن « الـزيدية » ودورها الكبير بشىء من الـدقة والعمق ، يجب أولا أن نعرض لمبادئها وأصولها . هى إحدى فرق الشيعة ، وتنسب لزيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وتتفق مع بـاقى الفرق الشيعية فى بعض الأمـور وتختلف فى البعض الآخر . حقيقـة لقـد حصر أتباعهـا الإمامـة فى أولاد فـاطمة ، لكنهم لم يقصروهـا على فرع معين بل أجـازوا لكل فـاطمى عالم زاهـد شجاع ، سخى ، خـرج بالإمامة ، أن يكون إمـامًا واجب الطاعة سـواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين . أى إنهم يرفضـون فكرة أن لا إمام بعـد الإمام الثانى عشر [١] .

كما أجـازوا . خـروج إمـامين ، فى قطـرين ، يستجمعـان هـذه الخصـال ، ويكون كل واحـد منهما واجب الطاعـة » بل أجازوا أمـراً هامًّـا جدًّا ، وهـو أن الإمـام ليس مـن الضرورى أن يكـون أفضل الموجـوديـن ، بل يجوز أن « يكـون المفضـول إمامًـا ، والأفضل قائمًا ، فيرجع إليـه فى الأحكام ، ويحكم بحكمـة فى القضايـا » : والزيـدية ثـلاث فرق تقـريبًا وهى : « الجارودية » و « السليمانية » و«البترية » ولا داعـى للدخـول فى تفصيلات كثيرة عن هـذه الفرق ، أو نـذكر الاختـلافات الطفيفـة بينهـا . ولكن يمكن مثـلا أن نعـرض لرأى السليمانيـة فى الإمـامة ، فهـو يوضح المفهـوم السياسى عنـدهم . فهم يقولـون : « إن الإمامـة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين ، وإنها تصح فى المفضـول مع وجود الأفضل » . لـذلك فهم من وجهـة النظر الشيعيـة البحتة يعتبرون خارجين أو متحررين ، فهم مثلا « أثبتـوا إمامة أبى بكر وعمر » وأن الأمـة اختـارتهما ، وهـذا حق اجتهـادى ، وقـد تكـون الأمـة أخطأت فى اجتهـادها، ولكن لا يبلغ هـذا الخطأ درجـة الفسق . ويقـولون كـذلك « وحتى يكون للمسلمين جماعـة ولا يكون الأمر فـوضى بين العامة فـلا يشترط أن يكون

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، مطبعة كلبرت ، لندن سنة ١٩٠٩هـ (١٨٩١م) ص ١٣٥ - ١٣٦ .

الإمام أفضل الأئمة علمًا وأقدمهم رأيًا وحكمة ، إذ الحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل »[١] وهذا يعتبر تقاربًا شديداً بينهم وبين السنة .

وهذه هى أهم ملامح « الزيدية » بوجه عام ويمكن أن نستخلص من ذلك حقيقتين هامتين هما :

أولا : أن شروط الإمامة عندهم هى أربعة عشر وهى أن يكون الإمام مكلفًا، ذكراً ، حرًا ، مجتهداً ، علويًا ، فاطميًا ، عدلا ، سخيًا ، ورعًا ، سليم العقل ، سليم الحواس، سليم الأطراف، صاحب رأى وتدبير، مقدامًا فارسًا[٢] .

ثانيًا : أن الزيدية أكثر الفرق الشيعية تحرراً ، وأقربها إلى السنة دون جدال .

ويلاحظ أننا لا نرى أن للزيديين سلالة متصلة بل هى متقطعة وإن كانت محدودة فى بيت معين . فهم بحق يؤمنون بما نستطيع أن نسميه « الانتخاب الطبيعى » للحاكم وإن كانوا يحصرونه داخل نطاق محدود .

ولكن هذه المبادئ نفسها تسمح بوجود ثغرة فى بنائهم السياسى وأصبحت موضع تأويلات وتفسيرات كثيرة لخدمة أطماع شخصية . فقد كان القصد من الشرط الأخير للإمامة - مقدامًا فارسًا - هو إتاحة الفرصة دائمًا للأصلح من بين هؤلاء الأفراد أن يتولى إمامة الزيديين ، ولكن هذا الشرط نفسه كان عونًا لبعض الطامعين منهم فى الخروج على الإمام القائم بالأمر . وهذا ما جعل أمين الريحانى يقول - من غير فهم لحقيقة المذهب - « فهم يجعلون الإمامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف »[٣]. وقد أدى هذا المبدأ بدون شك إلى قيام كثير من الفتن والاضطرابات منذ دخول المذهب الزيدى إلى اليمن . وهذا ما دفع هانز إلى قوله الذى سبق أن أشرنا إليه ، إذ كلما تضعف السلطة العليا

---

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ، القاهرة (الطبعة الأولى سنة ١٣١٧هـ-١٨٩٩م) جزء ١ ، ص ١٠٧ - ٢١٦ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، مطبعة دار الريحانى ، بيروت ، ١٩٥١ ، الجزء الأول ، هامش صفحة ١٤١ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٠ .

تتعدد الإمـامات وتنقسـم الدولـة على نفسها ، وسنعـرض لهذه المبادئ وآثـارها العملية ، عند ترجمة حياة الإمام فى الفصول القادمة .

أما أصل هـذه الفرقة فترجع كما قلنـا إلى زيد بن على ومن أحفـاده القاسم الرسى بن إبراهيم طبـاطبا ، الذى فر إلى السند ومات هنـاك سنة ٢٤٥هـ (سنة ١٨٥٩م) فذهب ابنه الحسن إلى اليمن ومـن نسله الأئمة الزيديـون الذين دعوا لأنفسهم « بصعدة » شمال اليمن ، وأقـاموا للزيدية دولـة استمرت حتى الآن . وأول من خرج منهم داعيًا لنفسه بصعـدة ، يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ، وتسمى بالهادى وبويع بها سنة ٢٨٨هـ (سنة ٩٠٠م)[1].

وهكذا بدأت الـدعوة الزيديـة باليمن فى القرن الثالـث الهجرى (العاشر الميلادى) . واختـار أئمة المذهب الـزيدى اليمن بالـذات هربًـا من الاضطهاد السيـاسى ، فأصبح المعقل الحصين لهم ، وذلك لطبيعتـه الجبليـة من نـاحيـة ، ولبعده عن العاصمة الإسلامية (فى بغداد) من ناحية ثانية .

الأتراك العثمانيون فى اليمن قبل الإمام يحيى :

بدأت عـلاقة الإمبراطوريـة العثمانية باليمن بعـد فتح مصر عام ١٥١٦ ، وذلك عنـدما وجـه العثمانيـون أنظارهم نحـو الشرق الأوسط والبـلاد العربيـة بالذات ويرجع سبب زحفهم إلى الجنـوب بعد أن استقروا فى مصر إلى أنهم ورثوا تـركـة المماليك ومشكـلاتهم ، التى كان منهـا تحول الطـريق التجـارى إلى رأس الرجاء الصـالح بعيداً عن مصر ، ومحاولة إعادته إليها . ولـذلك جهز العثمانيون أسطولا حربيًّا فى السـويس للزحف به إلى سواحل شبه الجزيرة العـربية الجنوبية لمحاربـة البرتغاليين ، وإعادة الطـريق التجارى إلى مصر . وقـد وصل الأسطول العثمانى إلى عدن فى سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) وبعد فشل مهمته ضد البرتغاليين

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

فى الهند ، ركـز قائد تلـك الحملة مجهوداتـه للاستيـلاء على اليمن فدخـل ميناء «المخـا» ثم انتقل منه إلى مينـاء « الصليف » ثم استولى على مـدينة « زبيـد » فى الداخل وأعـدم حاكمها ، وبـذلك تم الاستيلاء على اليمن ، وولى أحد أتبـاعه حاكما وأصبح بذلـك ولاية عثمانية[1] ولم يستقـر الأمـر للعثمانيين فى اليمن إلا حـوالى قرن واحـد . وكان حكمهم فى تلـك الفترة غير مستقر ، فقـد اصطدمـوا بالأئمـة عندمـا بدأوا فى التوسع فى أنحـاء اليمن المختلفة ، واستمـر النزاع بين الطرفين حتى تم إخراج العثمانيين من اليمن عـام ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م) عندما سلموا « زبيد » إلى الإمـام المؤيد[2] «وهو الإمـام المؤيد محمد بن القـاسم الذى بويع بـالإمامة فى عـام ١٠٢٩هـ ، الـذى كان قد أخضع جميع الجهـات اليمنية لسيادتـه ، فتمت لـه السيطرة على الجنوب العـربى من عـدن جنوبًـا إلى صعدة شمالا وذلك عندما استولى على زبيد وخلفه أخوه أحمد عام ١٠٥٢هـ (١٥٤٢م) الذى تنازل عن الإمامة لأخيه إسماعيل عام ١٠٥٤ (١٥٤٤م) بعد وقوع صدام بينهما وبعد أن استقر الأمر للإمام المتـوكل إسماعيل ، استولت جيوشه على يافع وحضرموت ولحج وعدن ، وشمل سلطانـه كثيراً من تهامة ويعتبر عهده من أزهر عهود الإمامة الزيدية فى اليمن »[3] .

استمر اليمن بعد ذلك لمدة قرنين يتمتع باستقلاله تحت حكم أئمة صغار والمشـايخ والرؤسـاء المحليين . ودعـم الاستقلال النشـاط التجارى المستمـر مع البلاد الأجنبية فانتعشت الأحوال هنـاك . ولم تستمر وحدة المنطقة واستقلالها أو انتعـاش تجارتها وازدهـار الحيـاة بها ، فقـد كـان ذلك يتـوقف على شخصيـة

---

(١) محمـد بن أحمد عيسى العقيلى : من تـاريـخ المخـلاف السليمانى ، مطـابع الـريـاض ، ١٩٥٨، القسم الثانى من الجزء الأول ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) نفس المرجع : ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) نفس المرجع : ص ٣٨١ - ٣٨٣ .

الإمام فى العاصمة ، وعلى قدرته على فرض سيطرته على المناطق المختلفة[١] .

فقد أدت التناقضات الداخلية الخاصة باليمن مثل الطبيعة الجبلية ، والعناصر القبلية ، وتنافس المشايخ والأئمة ، واستمرار الحروب والمنازعات إلى ضعف الأئمة الزيديين ، واستقلال القبائل والمشيخات عن أئمة صنعاء .

فثار فى القرن الثامن عشر شريف أبى عريش بتهامة (مقاطعة جازان حاليًا) واستقل عن اليمن ، ثم ثار الحاكم فى لحج فى سنة ١٧٣٢ فاستولى على عدن وأعلن استقلالها[٢] واستمرت هذه الظاهرة تتكرر مما ساعد فى النهاية على دخول قوات محمد على باشا والى مصر إلى اليمن ، بعد انتصار ابنه إبراهيم باشا على الوهابيين فى نجد والحجاز . وقد استقر الحكم المصرى فى تهامة وامتد إلى تعز ، ولكن السياسة الاستعمارية الإنجليزية كانت له بالمرصاد ، فعملت انجلترا على إثارة القلاقل أمام المصريين هناك ، وتمكنت مع القوى الأخرى من إخراج قوات محمد على من البلاد العربية فى عام ١٨٤٠ .

وقد استعاد الأئمة سلطتهم الاسمية تحت سيادة السلطان - فى خلال الفترة من ١٨١٨ إلى ١٨٤٠ - الذى أبقى الحاميات المصرية فى الموانئ الهامة (مثل المخا والحديدة) . ولم يكن للعثمانيين قوة كافية تمكنهم من فرض سيطرتهم على المناطق التى أخلاها المصريون فى البلاد العربية عامة ، ولكنهم تشجعوا أخيراً سنة ١٨٤٩ فأنزلوا قوة حربية فى الحديدة لاسترجاع اليمن . ونجحت الحملة واستطاعت السيطرة على مدن الساحل ، بل وزحفت إلى صنعاء حيث تحجحت فى إقصاء الإمام وتعيين آخر[٣] . إلا أن وجودهم فى صنعاء لم يستمر ، وعادوا إلى الحديدة حتى افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩م .

---

(١) اهتم كل من العقيلى والواسعى فى كتابيهما بذكر أسماء الأئمة وتتبع أخبار كل منهم - منذ ظهور الزيدية فى اليمن حتى الإمام يحيى - ويمكن الرجوع إليهما .

(٢) Hogarth, D. G. 0 Arabia, Clarendon Pr., Oxford , 1922, p.99.

(٣) Ibid, p. 111

شجع فتح قناة السويس العثمانيين على إعادة النظر فى نفوذهم فى الجزيرة العربية ، فأرسل الباب العالى قوات عثمانية تحت قيادة رءوف باشا ليحسم أمر اليمن – فنزل فى الحديدة ، واستطاع أن يصد هجومًا شنه عليه أمير عسير الذى حاول طرد الأتراك من الحديدة . وقد مرض رءوف باشا بعد ذلك ، فنجح خلفه مختار باشا فى دخول صنعاء سنة ١٨٧٢ ، وكان أهم عوامل نجاحه فى صنعاء – إلى جانب قوته المادية – رغبة أهل اليمن فى السلام وسأمهم من حكامهم العاجزين المتنازعين(١) .

فقد كانت الإمامة الزيدية – تلك القوة التى كانت تخط مصير اليمن السياسى – تجتاز محنة شديدة عند عودة الأتراك لضعف الأئمة وحروبهم المستمرة ضد بعضهم البعض ، حتى إن مدينة صنعاء نفسها انقسمت إلى شيع وأحزاب ، أخذت تقاتل بعضها بعضًا بعنف وفى غير هوادة . وكثيراً ما كان بعض الأئمة يستنجد برجال القبائل الذين عاثوا فى الأرض فساداً ، وكان البعض يتنازل عن السلطة وعن الإمامة . وحدث أن انتخب للإمامة بعض المحتالين والمشعوذين فى بعض الأقاليم بعيدا عن الإمامة المركزية(٢) . لهذا فليس غريبًا أن نعرف أن الاحتلال العثمانى الثانى ، ودخول صنعاء سنة ١٨٧٢ صاحب تنازع اثنين من أئمتها ، وأن أهلها كانوا قد سئموا طول المنازعات ، وأن الترك دخلوا اليمن فى وقت كان يحتاج فيه إلى حكم قوى يقر الأمور وينشر الهدوء(٣) .

وبالرغم من الحقيقة السابقة ، فقد وجد العثمانيون صعوبات جمة فى الاستيلاء على سائر جهات اليمن . وقامت ضدهم الثورات المتفرقة العديدة تحت زعامة بعض الأئمة . فقد تقدم مختار باشا الذى خلف رءوف باشا عند

---

(١) Bury ; Aralbia Infeli, P.P. 14-15 .

(٢) سلفانور أبو نتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٧ ص ٥٣٠ .

(٣) Bury ; Arabia Infelix, P8 204 .

مرضـه عن طريق « بـاجل » و «عشارة » إلى صنعاء سنـة ١٨٧١ ، واستولى على «عمران » و « كوكبان » و « شبام » ، واحتل فى الجنوب جبل « ريمة » و « تعز » وافتتح طريقًا من الحديدة إلى صنعـاء ، وأسس بريداً إلى « صعدة » و « شهارة » فى الشمال . ولكن بالـرغم من هذا النجاح ، استمـر قيام الثورات ، فقـد حارب حافظ إسماعيل حقى باشا خليفة مصطفى عاصم باشا فى « همدان » و«حاشد» و « اللحية » ولكنـه لم يكن ينجح دائمًا . وفى مـارس سنة ١٨٨٢ نجح بـواسطة محمد عزت بـاشا - الذى نجحت دبلوماسيتـه - على « داعى » قبيلة «يام» كما طارد الإمام شرف الذين الذى كان قد تقدم إلى « عمران » ولكن الوالى تمكن من الحصول على الاعتراف بـالسيادة التركيـة فى « حبور » و « شهـارة » و «صعدة » وامتد الحكم التركى جنوبًا حتى باب المندب . ولم يعن هذا استتباب الأمر لهم ، فقامت ثـورة سنة ـ١٨٩٢م ، وهى أول حلقة فى سلسلة الثـورات العنيفة التى لم تنته إلا سنة ١٩١١ عندما عقـد صلح « دعان » إذ ثارت الحرب ثانية فى الشمال فى ١٨٩٥ - ١٨٩٦ . واستمـرت الاضطـرابـات فى السنتين التـاليتين ، كما أدى الاضطراب فى البحـر الأحمر إلى قيام الطـرادات الإيطالية بعـدة مظاهـرات أمام «الحديدة » سنة ١٩٠٢[١] .

عهد الإمام المنصور :

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى حياة الإمـام المنصور والـد الإمام يحيى ، كمثل لتوضيح أحوال اليمن فى هذه الفترة .

يقول العـرشى عند ترجمتـه لحياة الإمام المنصور « ولما تـوفى الإمام الهادى ، خرج من صنعاء المنصور بالله محمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل ، وهو المنظور إليه فى ذلك الـوقت فى الأعيان ، والمشار إليه بـالبنان ، وكان أحد أعـوان الإمام المتـوكل ومن أهل العقد والحل ، مع العلم والفطـانـة والفضل والديـانة ، دعـا بصعدةفى ذى القعدة سنة ١٣٠٧ هـ (سنة ١٨٩٠م) ولبت دعوته القبائل وتفرسوا

(١) THE ENCYELOPEDIA OF ISGAM; VOL, 4, FART 2, P. 1157.

فى دعوتـه الفرج عما قد حـل بهم من ولاة العجم من العوج »[١] . وهو فى ترجمته الموجزة هذه يشير إلى نقطتين هامتين :

أولا : يصف الإمـام ببعض الصفـات المعينـة ، وإننا نـرى أنها الصفـات المطلـوبة فى الإمـام ، وهـذا يدل على طبيعـة ذلك العصر ، وفكـرة الشعب عن الحاكم الأمثل فى نظره .

ثـانيًا : أنـه يعبر عن أزمـة اليمن فى تلك الفترة ، ورغبتهـا فى الخلاص والاستقـرار وذلك بقولـه : « وتفرسـوا فى دعوتـه الفرج عما قـد حل بهم من ولاة العجم[٢] من العوج » ويؤيد هذا ما قالـه الجرافى عنه « وكان فارسًا شجاعًا قاد الجيوش إلى « الحيمـة » لإخراج « المكـارمة » منهـا ، وحبس فى الحديـدة فى أيام الـوالى مصطفى عـاصم بـاشـا مع من حبس من العلماء لانتمائهم إلى الإمـام المتوكل، وكـان مهيب الجانب ، محبوبًـا حازمًا ، وقـد بويع بـالإمامة بعـد الإمام شرف الديـن بالإجماع ، لأن العلماء لم يجدوا من يصلح لـلإمامـة غيره .. وكان فى صنعاء فخـرج منها ، لأنهم ذكـروا له أن أمـر بيعته قـد اشتهر ويخشى عليـه من الأتراك وتبعه ولده » (الإمام يحيى)[٣] .

وقد ذهب الإمام المنصور إلى صعدة ، فاجتمع به العلماء والأعيان وبايعوه، وتلقب بـالمنصور بالله ، ثـم وضع يده على مـا كان قـد جمعه الإمام شرف الـدين لبيت المال استعـداداً لبـدء الحرب مع العثمانيين . وانتقل إلى جبـل الأهنـوم فى شهر المحرم سنة ١٣٠٧هـ (سنة ١٨٩٠م) ومنه أخذ يرسل رجـاله وأتباعه إلى جميع الجهات لبث الدعوة له ، ودعا القبـائل لحرب الأتراك فأجابوه إلى ما طلب «وقد وقع خروجـه من صنعاء وقع الصاعقة على رجال الـدولة ، وذلك لما له من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الـذين يخشون بأسهـم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغـط الأتـراك لـذلك سرعـان مـا التفت حـول الإمـام ،

---

(١) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٧٩-٨٠ .

(٢) يقصد العثمانيين .

(٣) عبد الله عبد الكريم الجرافى اليمنى : المقتطف من تاريخ اليمن ، مطبعة الحلبى . القاهرة ١٩٥١ ص ٢٠٧- ٢٠٩ .

مما أدى إلى اتجاه القبائل إلى محاصرة صنعاء سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١)[١] » وقد اشتد الحصار وفشلت القوات التركية أول الأمر فى فكه ، فقد استمر محكماً لعدة أشهر ، ثم خف الحصار بعد حرب قاسية ، كما سلمت بعض الحاميات التركية الأقل أهمية حتى تمكن أحمد فيضى باشا من استعادة صنعاء بعد معركة شاقة عنيفة تكلفت الكثير[٢] .

وتوضح الصورة السابقة مدى توتر العلاقات بين الحاكم والرعية فى اليمن فى هذه الفترة ، وتحفز كل منهما للآخر ، بل إن حصار صنعاء يعبر عن شدة الفوضى التى سادت اليمن حتى استطاعت القبائل الوصول إلى العاصمة نفسها .

فقد انتشرت الحروب ، وسقطت هيبة الحكومة ، واحتل رجال القبائل الكثير من دور الحكومة ، وقبضوا على كثير من المديرين وكبار الموظفين وأرسلوهم أسرى إلى الإمام ، إلا أن أحمد فيضى باشا قد تغلب على هذا الاضطراب ودخل صنعاء سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ، واستمر الإمام المنصور فى «الأهنوم ». وقد وصل فى هذه السنة أحد رجال الدولة العثمانية وهو نامق «بك » لاستطلاع حقيقة الأحوال فى اليمن ، وتقدم إليه كثير من الناس بالشكاوى العديدة ، مما أدى إلى زيادة ضغط فيضى باشا على اليمنيين بعد عودة نامق بك إلى الآستانة . ومن الجدير بالانتباه أن نشير إلى أنه قد جرت عدة مكاتبات بين الإمام المنصور وأحمد فيضى باشا حيث دافع الإمام عن مقدرة اليمن على حكم نفسه ، وأظهر استياء اليمنيين من أعمال موظفى الدولة ، ومقابلتهم الشعب بالشدة . ودافع الوالى عن حسن نية السلطان نحو اليمن وأكد أن الدولة العثمانية لا تضمر أى سوء للبلاد اليمنية ، ولكنها تريد المحافظة على استقلالها وعدم وقوعها فى أيدى الدول الأوروبية الاستعمارية الواقفة للبلاد العربية بالمرصاد[٣] . ولم تنته هذه المكاتبات إلى اتفاق ما ، وعزل أحمد فيضى باشا ، وحل محله حسين حلمى باشا فاستبشر الأهالى به .

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٩ .

(٢) WAVELLO A MODERN PILGRIM INMECCA, LONDON , 1912 P. 200 .

(٣) عبد الله عبد الكريم الجرافى : نفس المرجع ، ص ٢١٠-٢١٧ .

وقد وعدهم بالعدل والأمن وأمر بعزل من أساء التصرف من الموظفين ، وقام فعلا بإصلاحات كثيرة . وحدث أن اعتدى بعض الموظفين المعزولين عليه سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) ولكنه شفى من الجرح الذى أصابه . وفى سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) أرسلت الحكومة العثمانية بعض رجالها لإبرام الصلح بين الإمام والدولة العثمانية ، وانتهت إلى وضع شروط للصلح أرسلت إلى السلطنة لعرضها على الوزارة ، فلم توافق عليها وعزلت حسين حلمى باشا ، وعينت بدلا منه عبد الله باشا واليًا وقائداً للجيوش ، ولكن الحال استمر على ما هو عليه من الفوضى والاضطراب حتى توفى الإمام المنصور بقفلةعذر سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)[1] .

هذه هى الصورة العامة لحالة اليمن فى هذه الفترة . ثورات واضطرابات عامة مبعثرة ، وقد تتركز أحيانًا بشكل أقوى عند صنعاء نفسها ،ثم محاولات شديدة من جانب العثمانيين للضرب على أيدى القبائل وإخماد هذه الثورات ، ثم التقاء سريع قصير بين الدولة العثمانية وبين الإمام زعيم أكبر قوة سياسية فى اليمن ، ولكنه سرعان ما يفشل ، ويتكرر اضطراب الأحوال وقيام الثورات ، وهذه الصورة المضطربة هى التى أكسبت اليمن فى هذه الفترة شهرته بأنه مقبرة الأتراك[2] .

والحقيقة أن طبيعة اليمن كانت تحتاج إلى حكم أكثر صلاحا وقوة ، فإلى جانب الوضع القبلى وبعد المسافة عن العاصمة العثمانية ، وضعف العثمانيين العام ، كانت طبيعة اليمن من أكبر عوامل الاضطراب السياسى ، ومن أكبر العقبات أمام الحكم العثمانى هناك . فالجبلى المحلى يمكنه التغلب على أرضه الوعرة وتسلقها والسير فيها فى أى اتجاه خلال ممرات يعرفها هو وحده - وهو ما لا تستطيعه الجيوش النظامية . وحتى هذه الصورة لا تتساوى مع الثورات التى قامت بها قبائل تهامة الشديدة الضراوة ، وذلك بالرغم من أن طرق مواصلاتها كانت أسهل ، بالإضافة إلى وجود مركز إدارى وعسكرى منظم فى هذه السهول

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجوافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٤.

(٢) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 40

القاحلة ، إلا أن موارد المياه كانت تعتبر مشكلة صعبة إلى جانب المناخ القاسى الذى يؤذى الجيوش العثمانية الوافدة من الشمال[1] .

وسبب آخر - أشرنا إليه عند الحديث عن طبيعة القبائل نحب أن نوضحه بصورة أوسع - هو أن العثمانيين عند عودتهم إلى اليمن مرة أخرى كانت تحدوهم الرغبة فى التدخل بصورة أعمق فى شئون ولاياتهم وذلك أخذاً بالأفكار الغربية فى الحكم المباشر ، التى تعتمد على وجود دولة ذات أصول قومية معينة. ولكن طبيعة القبائل - أو بمعنى أدق طبيعة الشعب اليمنى - كانت حينئذ لا تقبل هذه النظريات الحديثة « فكلمة الاستقلال هى التى تحرك مشاعرهم وهم لا يكرهون وجود الدولة ، ولكن على شرط أن تتركهم فى حالهم يتمتعون باستقلالهم »[2] .

ولكن هل حقيقة لم يقم الترك بعمل إيجابى فى اليمن إلا القيام بهذه الحروب المبعثرة هنا وهناك وإخضاع القبائل واستعراض عضلاتهم ؟

الحقيقة أنهم قاموا ببعض الخدمات فى اليمن . فهم مثلا أول من وضع له خريطة سياسية - أو بمعنى آخر - هم أول من عرفوا اليمن تعريفًا سياسيًا دقيقا إلى حد كبير . حقيقة ظلت مشكلة الحدود الجنوبية والشمالية لليمن مضطربة إلى حد ما - إلا أن هذا يرجع إلى الظروف العامة المضطربة ، وإلى طبيعة القبائل القائمة على الحدود ، التى لا تعرف معنى الحدود . وقد ظلت هذه المشكلة قائمة إلى عهد الإمام يحيى ، بل مثلت أكبر مشكلة واجهته بعد محاولاته القبض على زمام الأمور فى اليمن . لقد خلق العثمانيون سنة ١٨٧٢ من اليمن ولاية واحدة ، وقسموها إلى أربعة متصرفيات : تعز ، صنعاء ، عسير ، والحديدة ، واستقر الوالى فى صنعاء . وقد قسمت كل منها إلى أقضية ، على رأس كل منها قائمقام ، فكان لواء تعز مقسما إلى أقضية : أب ، عدين ، حجرية ، مخا ، قعطبة.

---

(١) BURY ; ARABIA INFELIX, P. 35.

(٢) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 63.

ولواء صنعاء مقسما إلى جبل حراز ، حجة ، ذمار ، يريم ، رداع ، عمران . أما عسير فكانت تضم أبها ، رجال المع ، قنفذه . بينما كانت الحديدة تضم زبيد ، لحية ، الزيدية ، ريمة ، حجور ، بيت الفقيه ، باجل ، أبو عريش[١] . ولا يعيب هذا التقسيم أنه محتاج فعلا إلى الاستقرار وسيادة الأمن حتى يؤتى ثماره - فهذه ظروف خارجة عن إرادة العثمانيين أنفسهم كما أوضحنا . حقيقة أن يد العثمانيين لم تصل إلى شرقى اليمن الأعلى وشماليه ، ولا جنوب اليمن الأسفل فظلت «مأرب » و « صعدة » و « نجران » و « شهارة » و « قفله عذر » وما حولها من القبائل العاتية مثل « حاشد » و « بكيل » و « أرحب » و « ذو حسين » وأمثالها تحت سلطة الأئمة والمشايخ المحليين ، وكذلك كان الحال فى أراضى المحميات التسع فى اليمن الأسفل التابعة لمستعمرة عدن[٢] .

وتبدو أهمية هذه التقسيمات الإدارية بشكل واضح فى دلالتها على فهم الترك لطبيعة اليمن وظروفه ، وأن هذا التقسيم استجابة واقعية لهذه الطبيعة الخاصة . ويدل على هذا أن الإمام يحيى قد أبقى معظم هذه التقسيمات على حالها وأقام عليها حكاما سماهم « عمالا » وهو نفس اللفظ الذى كان مستعملا فى العصور الإسلامية السالفة , وذهب العثمانيون فى اهتمامهم بولاية اليمن إلى أكثر من ذلك ، فقرروا مثلا مد سكة حديدية من رأس الكثيب فى شمالى « الحديدة » إلى « باجل » فوادى « ضفور » « فمفحق » « فسوق الخميس » فصنعاء » . «وعمدوا فى مد هذه السكة إلى إدارة الخط الحجازى ، فقامت هذه الإدارة بالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبان حديدية ، وتقدم الخط من الساحل إلى الداخل نحو ١٥ ك . م . ثم حالت مفاجأة إيطاليا بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب البلقانية والحرب العالمية الأولى دون إتمام بقية

---

(١) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 68.

(٢) أحمد وصفى زكريا : المقتطف . المجلد ٩٠ ، الجزء الأول ص ٨٠ .

الخط »[١] . وإلى جانب ذلك فطن العثمانيون إلى أهمية مملحة « الصليف » فاستغلوها . كما أعلنوا فى عام ١٨٨٠ عن مناقصة لاستغلال مناجم اليمن وتقدموا بالأموال الطائلة لاستخراج المعادن المختلفة ، ولكن فوضى الأحوال الداخلية قضت على هذا المشروع[٢] . وكذلك قام هؤلاء ببعض المشروعات العمرانية ، لتقديم الخدمات اللازمة للأهالى مثل إنشاء المستشفيات والمدارس - وخاصة فى المناطق الهادئة التى كان يقطنها الشوافع - ولكن هذه المشروعات كانت ضعيفة قليلة لا تفى بحاجة الشعب اليمنى إلى مثل هذه الأمور الضرورية . ومن الجدير بالذكر أن نقول إنهم أقاموا مدرسة « للصنائع » فى صنعاء لتعليم الطلبة بعض الصناعات الصغيرة ، ولكن الإمام يحيى حولها بعد الاستقلال إلى سجن ظل يعرف باسم « سجن الصنائع » .

طبيعة الحكم العثمانى لليمن :

لكن حتى لا ندخل فى تفصيلات كثيرة ، يمكن القول إن الحكم العثمانى تميز بظاهرتين بارزتين ، أو - بمعنى آخر - لقد خضع سير الأحداث لعاملين مهمين :

أولهما : أن العثمانيين كانوا عنصراً لا يختلف دينيًّا عن رعاياهم فى اليمن ، وذلك فى وقت كانت فيه السيادة للرعوية الدينية لا للقومية الخاصة وخاصة فى الشرق الأوسط ، بعكس القوميات البلقانية التى كانت تحت السيادة العثمانية . فكانت تسود الشرق العربى فكرة الزعامة الدينية ووجود خلافة تشمل العالم الإسلامى كله ، حتى لقد كان التفكير القومى عند المستثيرين من العرب فى ذلك الوقت مجرد مطالبة بإصلاحات معينة أو مطالب دستورية أو إلحاح للاعتراف بوجودهم كعنصر كبير فى الإمبراطورية له قيمته . ويؤيد هذا مثلا تأييدهم المطلق للانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، بل ونرى المتطرفين بعض الشيء من العرب يطالبون باستقلال ذاتى تحت لواء « العثمانية» أو بإمبراطورية

(١) أحمد وصفى زكريا : المقتطف . المجلد ٩٠، الجزء الأول ، ص ٨٠.

(٢) Jacob ; Kivgs of Arabia, p. 277 .

ثنائية وخاصة بعد انهيار الامبراطورية فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣) .

ولكن حتى هذه الأفكار القومية المهزوزة عند العرب كانت وقفًا على عرب الشمال ، أى فى الشام والعراق ومصر ، وهم أكثر تقدما واحتكاكا بالأفكار الغربية من سكان الجزيرة العربية .

وبناء على ذلك يمكن القول أن اليمنيين بوجه عام - حتى الزيديين - كانوا لايشعرون بالنفور الدينى من العثمانيين نظراً للوحدة الإسلامية ، ومن المهم جداً أن يتضح هذا المفهوم الذى سيتأكد بعد قليل فى مظهرين معينين :

أولا : فى مفهوم الإمام يحيى عن الاستقلال أثناء حروبه ضد الترك .

ثانيًا : فى طبيعة ثورات القبائل ، ونوع مطالبهم الخاصة وهم يثورون تحت لواء الإمام بل وهم يندفعون وراءه .

وقد ذهب البعض إلى أن الزيديين لم يقبلوا الخلافة العثمانية ، وثاروا ضدها لأنها خلافة سنية ، وأن المذهب الزيدى يحصر الخلافة أو الزعامة الدينية فى الأئمة فقط .

وهذا الرأى - فى حقيقة الأمر - مبالغ فيه ، إذ إن هذا الشعور العدائى لم يكن موجوداً إلا عند الغلاة المتعصبين منهم ، وعند الأئمة وحتى هؤلاء كانوا لا يعارضون فى الاعتراف بالسيادة العثمانية - إذا اعترف العثمانيون بزعامتهم الدينية - إلى جانب بعض مظاهر السلطة الزمنية على شيعتهم .

أما الحروب والثورات التى تزعمها الأئمة - والتى شهدها العصر العثمانى الثانى فى اليمن ، والتى قيل إنها تعبير خفى عن رفض الأئمة للسيادة العثمانية تحت ستار محاربة الفساد ، ورفع الظلم - فلم تكن إلا دفاعًا عن مصالح خاصة منبثقة من أوضاع محلية مؤقتة ، وإلحاحًا من الأئمة فى تأكيد زعامتهم الدينية ، والحصول على بعض مظاهر السلطان ، ولكن التناقض بين موقف كل من العثمانيين والأئمة من الحكم ، عمل على إثارة الحروب بينهما . واتضح الخلاف

بين الموقفين منذ اللحظة الأولى لدخول العثمانيين اليمن للمرة الثانية فأعلنوا سياستهم فى برنامج خاص وضعه أحمد مختار باشا الذى تمكن من دخول صنعاء ١٨٧٢ ، واستطاع أن يجعل من اليمن ولاية عثمانية .

ويقضى هذا البرنامج بتضييق الخناق على الأئمة ، وتحويلهم إلى رؤساء جماعات دينية محلية ، فأدى هذا إلى ثورة الأئمة وعملهم على إثارة القبائل ، وذلك لا رفضًا للخلافة العثمانية السنية ، ولكن دفاعًا عن مصالح وأوضاع خاصة بهم . وأهم بنود هذا البرنامج التى تمثل موقف العثمانيين من الأئمة هى[1] :

(ا) حصر نفوذ الأئمة ورجال دعوتهم وجعلهم فى شبه عزلة تحول دون اتصالهم المباشر بالشعب ورؤساء القبائل .

(ب) منع دفع عوائد الزكاة التى تدفع للإمام ، وتقرير ثلاثة آلاف ريالا راتبًا شهريًا للإمام وأسرته .

ثانيهما : أما العامل الثانى الذى أثر فى سير أحداث هذه الفترة ، فهو حقيقة هذا الحكم ذاته . فهو بدون شك حكم دولة قد أصابتها الشيخوخة ، ودب فيها الفساد . وأثر الوضع العام للإمبراطورية على الواقع الخاص فى اليمن، إذ إن مظاهر فساد الموظفين والإدارة العثمانية فى اليمن ، كان من العوامل الهامة فى ثورات الشعب اليمنى ، ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا يعتبرون اليمن منفى للموظفين المغضوب عليهم .

ولكن على كل حال نحب أن نقول إن هذين العاملين المتناقضين المتصارعين هما اللذان حددا نوع الأحداث اليمنية العثمانية فى هذه الفترة

---

(١) العقيلى : من تاريخ المخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الأول ، ص ٥٣٠ .

(١٨٧٢ - ١٩١٨) فالارتباط الديني ، أو الجذب الديني من ناحية ، والتنافر السياسي القائم على التعفن الإداري من ناحية أخرى هما عناصر الوضع الذى سنتكلم عنه .

أما عن الوضع العام للإمبراطورية فقد كانت التناقضات الداخلية العديدة فيها ، كما كانت الأطماع الأجنبية حولها كفيلة بتحطيم هذه الإمبراطورية قبل الحرب العالمية الأولى بزمن بعيد ، وخاصة أن هذه الدولة تجمدت على أوضاع قديمة معينة ، وحتى الإصلاحات التى حاولت القيام بها - لم تكن تفيد من ناحية - كما لم تكن إيجابية وفعالة من ناحية أخرى .

ويمكن أن يتضح هذا كله بدراسة مشكلات عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩) الذى يشغل عهده تلك الفترة المحددة التى ندرسها بالنسبة لليمن . وتتبلور مشكلاته فى الحقيقة فى كيفية حكم الإمبراطورية الواسعة ، بالرغم من التنافر الداخلى والتدخل الأجنبى فرعايا هذه الإمبراطورية الواسعة من ناحية - كانوا مجموعات كبيرة ، ذات لغات متعددة ، لا يجمع شملهم أية روابط اللهم إلا رباط الخضوع لحكم إمبراطورى واحد .

أما الناحية الثانية : فهى التدخل الأجنبى ، والسيطرة الأجنبية ، إذ تعرض كيان الإمبراطورية للخطر بشكل جدى من جراء هذا النفوذ الأجنبى ، فاحتل الأجانب مناصب هامة فى إدارة الإمبراطورية نتيجة الامتيازات المعروفة وتمتعوا بحقوق كثيرة أكسبتهم إياها هذه الامتيازات ، مثل محافظتهم على نظام بريدهم الخاص داخل الإمبراطورية نفسها وأكثر من ذلك كانت مالية الإمبراطورية العثمانية نفسها - فضلا عما أصابها من نقص فى الإيرادات وسوء تدبير فى المصروفات - تحت سيطرة « إدارة الدين العام العثمانى » ويتألف مجلسها من ممثل عن كل من بريطانيا وفرنسا و ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية النمسوية المجرية وتركيا .

وبالرغم من ذلك لم تقنع الحكومات الأجنبية بهذا التدخل الكبير بل

كانت تسعى إلى تحطيم الإمبراطورية نفسها وتقسيمها فيما بينها ، وإن كان التنافس حول وراثة أملاك الرجل المريض هو الذى كان يحد من رغبتهم فى تقسيمها ، فعملوا سواء بإرادتهم أو رغم أنفهم على المحافظة عليها أطول مدة ممكنة . وكذلك لعب التخلف الاقتصادى دوراً هامًّا ، إذ دعم الاضطراب السياسى ، وعدم الاستقرار القائم . فقد أهملت الطرق البرية والنهرية ، كما أهملت الموارد الطبيعية للبلاد ، ووصلت الزراعة إلى حالة يرثى لها رغم أنها مهنة الأغلبية من السكان ، وتعرضت البلاد لخطر الفيضانات نتيجة عدم الاهتمام بتنظيم الرى والصرف . ووصلت الإمبراطورية العثمانية إلى درجة كبيرة من التخلف الصناعى فى القرنين ١٩ و ٢٠ خاصة وأنها لم تتأثر أو تستفد من الانقلاب الصناعى - الأساس الحديث للحضارة والمجتمع الغربى - بل كانت على العكس ضحية له ، فلم تستطع منتجاتها التى أخرجتها بوسائلها القديمة أن تنافس - حتى فى أسواقها الداخلية - منتجات أوروبا الجيدة الرخيصة[١] .

سياسة عبد الحميد الثانى الإسلامية :

عرف عهد عبد الحميد بكثير من المظاهر الخاصة به ، واعتمد حكمه على الجاسوسية والإرهاب ، وكانت هذه الطريقة فى الحكم نتيجة عدم إيمان عبد الحميد بالحياة الدستورية ، فركز السلطة كلها فى يده . وكان تركيز السلطة فى القسطنطينية قد بدأ منذ عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨-١٨٣٩) وسار خلفاؤه على منواله .

وعطل عبد الحميد الدستور وألغى البرلمان فى بداية حياته ، وهو الذى جاء للحكم لتنفيذ الدستور ، وقد أدت هذه السياسة إلى تدهور الإدارة والاقتصاد ، وضياع الممتلكات ، وقيام الثورات ، وسيادة الحكم الفردى ، ولسنا بصدد

---

(١) Earle ; Turkey , The Great Power, and the Baghdad Rail Way , Macmillan , New-York , pp. 9 _ 12 (1935) .

التحدث عن عهد عبد الحميد بشكل تفصيلي ، ولكنـا نرغب فى إبراز عدة نقاط معينة تساعد على فهم مجرى الأحداث فى الجزيرة العربية عامة ، واليمن خاصة ، وهـذه النقاط تنبثق فى جـوهرهـا من التجائه إلى الـدين ليرفع من شأنه فى نظـر رعاياه ، ويملأ الفراغ السياسى الـذى نتج عن موقفه من الديمقراطية ، ويغطى المفاسد الإدارية والضعف الاقتصادى .

وقد نجحت سياستـه المعتمدة على الدين ، فى رفع شأنه فعـلا - لا فى العالم العـربى الـذى كان يعنيـه عبـد الحميـد بهذه السياسـة فحسب - بل فى العـالم الإسلامى أيضًا . بل لا نغالى كثيراً إذا قلنا إن العـامل الدينى كان له أثره فى رفع شأن عبـد الحميد فى المجـال الدولى أيضًـا . وقد استغل عبـد الحميد - تنفيـذاً لسيـاسته الـدينيـة - تلك الحركة التـى هزت العـالم الإسـلامى فى أواخر القـرن التـاسع عشر ، واستهدفت بعث الإسـلام ، وتحقيق الوحـدة الإسلاميـة ، والتى كانت مدينـة بالدرجة الأولى إلى تفكير جمال الدين الأفغـانى فى أوج مجده وقوته ونشاطه لكن لم تكن سيـاسة عبد الحميد الإسلامية قـائمة على تبنى أفكار جمال الدين لاقتناعـه بها ، بل كانت فى جوهرها ، محاولة من جـانب الخليفة السلطان لتأييد سلطتـه الزمنيـة فى الدولـة العثمانية ، بإعـلان حقوقـه وامتيازاتـه كخليفة للمسلمين على حدود أوسع . وكانت خطته تـرمى إلى إعادة الخلافة إلى مكانتها اللائقـة فيها ، وإقناع الرأى العـام بأنها والسلطنة شيء واحد فإذا مـا استعادت الخلافة اعتبـارها بهذا الشكل ، عمد إلى تسخيرها لتكـون دعامة ، ثم قـوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية[١] .

وقد حاول عبـد الحميد - تحقيقًا لهذه الغايـة أيضًا - تغليف نفسه بكثير من مظاهـر التقوى والـورع ، فاتخذ مكة مـركزاً للدعـاية لـه فى موسم الحج ، واهتم

---

(١) جورج أنطـونيوس : يقظـة العرب ، ترجمة على حيـدر الركابـى ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٦٦-٦٧ .

بإنشاء مساجد ، وفتح مدارس الدعاة فى إستامبول . وكان من مظاهر تنفيذ هذه السياسة كذلك - اهتمامه البالغ بمشروع مد السكك الحديدية من دمشق إلى المدينة فمكة . وكان الغرض الظاهرى هو تسهيل الحج ، بينما كان السبب الحقيقى يتعلق بعوامل سياسية وعسكرية . وقد غطت تبرعات العالم الإسلامى ما ينوف عن ثلث النفقات البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وهذا يدل على مدى نجاح دعوة عبد الحميد الإسلامية . وهذا المشروع كان من نواح عديدة ، لعبة سياسية رائعة ، لأنه خلق فى جميع أنحاء العالم الإسلامى حماسًا كبيراً ، وعمل أكثر من مشاريع عبد الحميد الأخرى على إعلاء شأن الخلافة . أما من الناحية العسكرية ، فقد أوجد للسلطان وسيلة فعالة للنقل البرى تحمل جنده إلى الجزيرة ، ومنها إلى أطرافها ، وخاصة اليمن المضطرب . وفاق هذا الطريق البرى الطريق البحرى عن طريق قناة السويس ، من ناحية السرعة والسهولة ، إذ كانت السلطنة لا تملك الكثير من السفن السليمة التى تمكنها من تنفيذ سياسة عبد الحميد الحربية فى الجزيرة العربية [١] .

وكان يرغب صادقًا فى مد الخط الحديدى إلى مكة - وربما أبعد من مكة - ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وهذا يرجع إلى أوضاع خاصة بالجزيرة العربية ، وإلى السياسة الدولية أيضًا ، كما أن الانقلاب الدستورى شغل الحكومة فى أمور دستورية عطلت قليلا المشاريع العامة .

الانقلاب العثمانى (١٩٠٨) وأثره فى اليمن :

تفاعلت التراكمات من المفاسد والرجعية ، التى سادت عهد عبد الحميد ، وأدت إلى قيام ثورة يولية ١٩٠٨ ، وأسرع عبد الحميد فأعلن الدستور فى ٢٤ من شهر يولية سنة ١٩٠٨ ، عندما قامت جمعية الاتحاد والترقى بثورتها هذه .

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب (ترجمة على حيدر الركابى) ص ٧٢-٧٣.

ولكنـه خلع عن العرش ، بعـد أن فشلت محاولتـه الرجعيـة فى أبريل سنـة ١٩٠٩ ضد رجال الاتحاد والترقى الذين ولوا بعده أخاه محمد الخامس .

ويجب أن ندرس أثـر تلك الثورة على سياسـة الحكومة العثمانية ، بـالنسبة لرعاياها العرب عامة - والجزيرة العربية واليمن خاصة .

وهذه الدراسة تعنينا إلى درجـة كبيرة - فهى تفيدنا فى فهم وتفسير أحداث اليمن فى هذه الفترة .

كانت جمعية الاتحاد والترقى جمعيـة سرية شكلها رجال « تـركيا الفتاة » فى «سالونيك » وكـان أفرادها خليطًا من الأجناس والأديـان ، يسوده الترك ، وكان من بينهم أيضًـا جماعـة من العـرب وأكثـرهـم من ضبـاط الجيش ، تعـاونـوا مع زعمائها تعـاونًا وثيقًا بصفتهم رعـايا عثمانيين ، لا بصفتهـم عربًـا قوميين ، ولكن العنصر التركى هـو الـذى تغلب بعد ذلـك . وكانت الجمعيـة تحمل فى طيـات نظـرياتها كثيراً مـن الأفكار والآراء والأغـراض ، تتعـدد بتعـدد أجناس وأديـان أفرادها ، ولكنهـا مع ذلك اتحدت فى الدرجة الأولى ، حول غـرض واحد سعت جاهدة لتحقيقه ، وهو القضاء على حكم عبد الحميد ، والوصول إلى إقامة حكم صالح يسعد بـه الرعايا العثمانيون جميعًا ، على أسـاس إدماج الأجناس المختلفة فى بوتقـة واحدة على نحو مـا أراده دستور ١٨٧٦ ، وكانت الكلمـة السائدة فى الجمعية هى كلمة أعضائها العسكريين[١] .

ورث رجال جمعية الاتحاد والترقى ميراثًا ثقيلا مـن الأعباء والمفاسد ، وكان عليهم أن يرتفعـوا بأنفسهم إلى مستوى الأحـداث ، وإلى ما تعهـدوا بحمله من مسئوليـات ، ولكن كان أمامهم ظـروف أخرى معقـدة ، غير التركة التى تخلفت عن حكم عبد الحميد الطويل تمثلت هذه الظـروف أساسًا فى الأحوال السياسية التى تولـوا الحكم فيها ، فقد كانت الحركـات الاستقلالية فى الولايـات البلقانية

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٠٧-١٠٨ .

على أشدها من نـاحية ، وكانت الدول الأوروبية قد نفد صبرهـا من ناحية ثانية على هـذه الإمبراطوريـة العجوز ، وتعمل جـاهدة على الاقتطـاع من أملاكهـا . وهكـذا التقت أطماع الدول الأوروبيـة بالـرغبات الجادة فى الاستقـلال فى وقت واحد . فقد استولت النمسا على ولايتى « البوسنة والهرسك » فى أكتوبر ١٩٠٨، وفى الوقت ذاتـه تم انفصال « بلغاريـا » . وبعد ذلك وقع العـدوان الإيطالى فى خريـف سنة ١٩١١ على « طرابلـس الغرب » ، وبعـدها مباشرة قـامت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ .

وهكذا فقدت تركيا جميع ممتلكاتها الأوروبيـة - ما عدا تراقيا الشرقية - إلى جانب طـرابلس وكريت وجزر الـدوديكان . وكانت هـذه السلسلة من الحروب الكثيرة تكلف الدولة نفقات عسكرية باهظة تنوء بها خزانتها المجهدة[1] .

ولكننا لسنـا بصدد الدفاع عن جمعيـة الاتحاد والترقى وأسلوبها فى الحكم ، أو عن تلك الأفكـار التى كـانـت تملأ رؤوس رجـالها والتى كـانت واضحـة فى أعمالهم ، ولكننا نـرغب فقط فى توضيح الفكرتين اللتين تبناهما رجـال الجمعية ، واعتمدوا عليهما ، فظهرت آثارهما فى الحكم ، وكانتـا تدلان على اهتزاز نظرياتهم فى الحكم ، وعدم إدراكهم تمامًا لمطالب العصر الذى ظهروا فيه .

الأولى : هى موقفهم من فكـرة القومية بـوجه عام ، وموقفهم من قـوميات إمبراطوريتهم المختلفة ، وعدم اعترافهم بالمسـاواة بين جميع رعاياهم تحت فكرة «القوميـة العثمانية » وعملهم على تمييز قـومية معينـة على باقى القوميـات . فقد عملوا على تمييز العنصر التركى على باقى العنـاصر المختلفة فى الإمبراطورية من عرب وأرمن وكـرد وغيرهم ، وعملوا جاهـدين على تنفيذ هذه السياسـة ، فسعوا «لتتريك » جميع العثمانيين واستعملـوا فى ذلك كل الطرق المختلفـة ، من ضغط وإرهـــاب إلى صبغ جميع الإدارات والمصـــالح والمدارس فى الإمبراطـوريـــة

---

(١) جورج أنطنيوس : يقظة العرب ، ص ١١٣ .

بالصبغـة التركية ، وجعلوا اللغـة التركية هى اللغـة الأولى فى جميع البقاع داخل الإمبراطـورية ، وأشعل ذلك نـار الصراع بين القـومية التركيـة الصاعـدة ، التى كانت تحاول أن تثبت وجـودها كقوميـة خاصة لها كيانها المتميـز - وذلك نتيجة احتكـاكها بـالـدول والأفكار القـومية فى أوروبـا - وبين القـوميات الأخـرى فى الإمبراطوريـة ، وخاصة العربيـة التى كانت تتلمس طريقها إلى الـوجود ، والتى سـاعدهـا بل ودفعهـا إلى تطويـر نفسهـا ، ذلك الاحتكاك والصراع بينهـا وبين القـوميـة التركيـة . وقـد أدى هذا الصراع فى النهـايـة إلى انهيـار الإمبراطـوريـة العثمانية، عندمـا دخلت الحرب العالمية الأولى ، التى خرجـت منها دولة محدودة المساحة ، تضم عنصراً واحداً فقط هو « العنصر التركى » .

الثانية : هى ميلهم إلى سياسـة المركزية العنيفة ، وهذا نفسـه يعبر أيضًا عن عـدم إدراكهم التام لمتطلبـات عصرهـم . وكـانت الإمبراطـورية - كما يعتقـد - تحتـاج فى هذا الـوقت إلى سيـاسة أقـرب إلى الـلا مركـزيـة والاستقلال الـذاتى للولايـات والقوميـات المختلفة . ولا نلقى هذا الكـلام على عواهنـه ، إذ كانت الإمبراطوريـة مترامية الأطـراف تنقصها وسـائل الاتصال الحديثـة من نـاحية ، وتضم قوميـات مختلفة عديـدة ، تحتاج كل منها إلى الشعـور بكيانها الخاص من ناحية أخرى ، وذلك فى وقت سادت فيه الأفكار القومية .

فقد لجأ رجال الحكم حينئذ إلى سياسة مستـوردة من الخارج ، سياسة خاصة بمجتمع وبيئة وظروف أخرى ، لا سياسة تنبثق من واقع المجتمع العثمانى . فقد تأثر الاتحاديـون بأفكار الثورة الفـرنسية عـامة ، واستعاروا منهـا الكثير لتطبيقها داخل الإمبراطورية ، وتمسكـوا منها بالذات بفكرة « المركزية » بـالرغم من الفرق الشـاسع بين فرنسـا كما كانـت سنة ١٧٨٩ ، والمملكـة العثمانية سنـة ١٩٠٨ ، فتمركـز الإدارة فى باريس ، كان استمـراراً لتطور تاريخى طـويل ، جعل باريس مركزاً ثقافيًـا واقتصاديًا ، و أدى إلى توحيد فرنسا سيـاسيًّا وإداريًّا ، لكن الوضع كان على نقيض ذلك تمامًـا فى المملكة العثمانية ، فإن القوى التى ولـدتها اليقظة القــوميــة ، كـــانت تعمل بـــاتجاه معـــاكس ، متنـــافـــر مع المركـــز المتمثل

فى القسطنطينية ، لأن المنابع التى تغذى تلك القوى ما زالت قائمة على فوارق اللغة والعادات والأفكار[١] .

كان لوصول الاتحاديين إلى الحكم وظهور أفكارهم الجديدة أعمق الأثر فى تاريخ العرب الذين كانوا أكثر شعوب الإمبراطورية ابتهاجًا بالانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، فقاموا بالمظاهرات الكبيرة سواء فى القسطنطينية أو فى العواصم العربية تعبيراً عن فرحهم وتأييداً لرجال العهد الجديد .

وترجم العرب فرحتهم إلى عمل إيجابى تمثل فى تأسيس أول جمعية عربية هى جمعية « الإخاء العربى العثمانى » وتم افتتاحها رسميًّا فى ١ سبتمبر ١٩٠٨ فى اجتماع كبير عقدته الجالية العربية بالقسطنطينية ، وحضره أعضاء جمعية الاتحاد والترقى . وكان أهم أهدافها الرئيسية حماية الدستور ، وتوحيد جميع الأجناس فى ولائها للسلطان ، وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس من المساواة بين العرب وغيرهم ، والعمل على نشر التعليم باللغة العربية داخل الحدود العربية، والمحافظة على العادات العربية . وكانت عضويتها مفتوحة أمام العرب من جميع الأديان ، كما تقرر إنشاء فروع لها فى جميع المقاطعات العربية[٢] . ولكن هذا الإخاء العربى العثمانى لم يستمر طويلا فسرعان ما خلع الاتحاديون قناعهم الذى عاش فترة يغطى أفكارهم العنصرية . وكان الدافع الأول لإظهار حقيقة نواياهم هو انقلاب أبريل سنة ١٩٠٩ الرجعى الذى قام به عبد الحميد ، وكان الدافع الثانى هو توالى الأحداث الجسيمة التى أدت إلى خروج الولايات البلقانية خاصة الواحدة تلو الأخرى من الإمبراطورية العثمانية .

وكانوا من وجهة نظرهم يعتقدون أن المركزية وسيادة قومية واحدة ، أو طبع الإمبراطورية بقومية واحدة ، هو السبيل السليم لإنقاذ الإمبراطورية وإعادة مجدها السالف . ولهذا كان من أول أعمالهم بعد رجوعهم للحكم ، بعد انقلاب عبد الحميد الرجعى ، فى أبريل سنة ١٩٠٩ ، إلغاء الجمعيات التى

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٥١١ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٠٩ .

أسستها العناصر غير التركية ، ومن بينها جمعية الإخاء العربى العثمانى ، وذلك قبل أن تنقضى ثمانية أشهر على افتتاحها .

وهنا ازداد شك العرب وارتيابهم فى نوايا الاتحاديين نحوهم ، وفكروا جديًّا فى العمل السرى – كأسلوب لحماية قوميتهم العربية التى تريد القسطنطينية القضاء عليها ومحوها تمامًا – إلى جانب الجمعيات المختلفة العلنية التى سمحت الظروف لها بالإعلان عن نفسها وعن عملها ، وخاصة فى خارج نطاق النفوذ العثمانى ، كما كان الأمر بمصر التى كانت تحت الاحتلال الإنجليزى فى ذلك الوقت .

ولا شك أن عرب الجزيرة شاركوا باقى إخوانهم – العثمانيين عامة والعرب خاصة – الفرحة والابتهاج بثورات ٢٠ يولية سنة ١٩٠٨ ، ١٣ – ٢٦ أبريل ١٩٠٩[١] ، وتمنوا الخير الكثير على يد رجال جمعية الاتحاد والترقى . إلا أن هذا الشعور ، وما ترتب عليه من مواقف عملية ، اختلف اختلافًا بينـاً فى الجزيرة العربية عنه فى باقى العالم العربى .

ويرجع سبب الاختلاف إلى أوضاعها الخاصة : فالجزيرة فى ذلك الوقت كانت متخلفة حضاريًّا وثقافيًّا عن باقى الجماعات العربية التى فى خارجها ، وذلك نظراً للظروف الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فيها . وهذا ينطبق على الجزيرة بوجه عام – فهى تتميز بأنها وحدة سكانية وحضارية واجتماعية واحدة ، بالرغم من وجود بعض اختلافات بين أجزائها داخل هذه الوحدة . وقد أدى هذا الوضع ، الجغرافى الاقتصادى ، إلى تحديد أوضاع اجتماعية خاصة بالجزيرة . فنحن نعرف أن الوحدة الاجتماعية ، فى الجزيرة كلها ، هى القبيلة بكل ما لها من صفات فكرية ونفسية وأوضاع اقتصادية واجتماعية ، تؤدى كلها إلى سلوك ومواقف تختلف تمامًا عما فى العراق والشام ومصر مثلا . كما أدى هذا الوضع الاجتماعى بالتالى إلى تشكيلات سياسية خاصة أيضًا ، فقد كانت الوحدة

---

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia , Paris, 1937 , p. 75.

السياسية فى الجزيرة ، هى الإمارة أو المشيخة المحددة المساحة ، التى تعتمد على النفوذ الأسرى ، الإقطاعى المظهر .

هذا هو العامل الأول فى سير أحداث الجزيرة العربية ، ولكن هناك عاملا آخر خارجيًّا نشأ نتيجة بحث بريطانيا عن محطات ومراكز لها ، فى طريقها إلى الهند ، لتأمين مستعمراتها هناك ، ثم لتأمين هذا الطريق نفسه .

فقد أسرعت إنجلترا بالسيطرة على الممر العربى ، وخاصة هوامشه الساحلية - عدن والسواحل الجنوبية والشرقية - وذلك بسبب الأهمية الكامنة فى استراتيجية الجزيرة العربية . فهى كقوة بحرية ، إنما تسعى أساسًا إلى الاستعمار الساحلى . وعندما شقت قناة السويس ازدادت هذه الأهمية ، وأصبح الممر هو « الشريان الإمبراطورى » إلى المستعمرات الآسيوية[1] . وقد أدى هذا الدافع الاستعمارى إلى تأكيد التفتيت السياسى الموجود فعلا فى الجزيرة العربية ، أو بمعنى آخر كان الاستعمار هو العامل الثانى إلى جانب الأوضاع الخاصة بالجزيرة ، التى أشرنا إليها . ونتيجة للعوامل السابقة يمكننا أن نفهم بسهولة سبب الاختلاف بين أفكار ومواقف أهل الجزيرة ، وبين باقى أجزاء العالم العربى العثمانى .

وظهر هذا الاختلاف أساسًا فى نوع الأفكار « القومية » عند كل منهما وأساليب العمل الإيجابى تنفيذاً لهذه المطالب القومية . ومن التجاوز حقيقة أن نقول إن أفكار أهالى الجزيرة تتصف بأنها « قومية » فى هذه الفترة ، فلم ينادوا بصورة جديدة للحكم ، أو بمطالب معينة مثل اللامركزية بالصورة التى عرضها حزب اللا مراكزية العثمانى ، الذى اتخذ القاهرة مقرًّا له ، أو تحويل الإمبراطورية إلى إمبراطورية ثنائية ، كما نادت بها الجمعية القحطانية .

---

(١) الدكتور جمال حمدان : دراسة فى العالم العربى ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص٢٧ . ويمكن الرجوع إلى هذا الكتاب لزيادة فهم هذه النقطة الهامة ، وهو دراسة متعمقة لجغرافية العالم العربى وأثرها على تاريخ وأوضاع المنطقة .

ولكن أوضاعهم الخاصة جعلتهم يفكرون فى أكثر من أمر ، تبلورت كلها حول مطلب واحد تمسكوا به تجاه الاتحاديين ، وهو أن يتركوا وشأنهم ، يدبرون أمرهم بأنفسهم دون تدخل حكومى - مهما كان نوع هذه الحكومة وجنسيتها - هذا مع رضائهم واعترافهم بالسيادة العثمانية . وكان ذلك تلبية لعقائدهم الدينية المتحكمة ، ونظرتهم المقدسة إلى الخلافة التى أحيا شأنها عبد الحميد ، كما سبق أن عرضنا . وكانت لهم وسائلهم الخاصة التى تختلف عن عرب الشمال أيضًا .

فقد رأينا أسلوب القوميين العرب فى الشام ، والعراق ، ومصر ، يتمثل أساسًا فى تكوين الجمعيات ، والأحزاب السياسة ، وعقد المؤتمرات ، أو الالتجاء إلى التشكيلات السرية ، والاعتماد على المنشورات فى نشر دعوتهم ، إذا لم يتمكنوا من الاعتماد على الصحف والمجلات .

ولكن فى الجزيرة عبر العرب عن عدم رضائهم عن أوضاع الاتحاديين وموقفهم من العرب بالثورات المتصلة ضد الحاميات العثمانية الموجودة فى أراضيهم ، أى كانت الأساليب السلمية فى التعبير عن المطالب القومية مجهولة عندهم ، بل كانوا يلجأون إلى طريقتهم الخاصة التى ألفوها فى منازعتهم الشخصية ، وهى القتال ، والكر والفر ، والالتجاء إلى الجبال والفلوات ، أو الهجوم المباغت وهكذا ... والحقيقة أن حياتهم البسيطة الأولية ، هى التى أوحت لهم نوع تفكيرهم وأسلوب عملهم .

الأوضاع فى الجزيرة العربية وعلاقاتها باليمن :

وهنا يمكن استعراض الوضع فى الجزيرة العربية بصفة خاصة ، حتى تتضح حقيقة الوضع فى اليمن بصورة جلية ، ويبرز فى نفس الوقت مدى تأثر أحداثة بباقى أحداث الجزيرة وأوضاعها .

نالت الجزيرة اهتمام العثمانيين الخاص فى خلال القرن التاسع عشر ، فعملوا على تقوية قبضتهم هناك ثانية . ويرجع تاريخ تعيين الولاة فيها إلى سنة

١٨٤١ حيث عين وال على الحجاز ، بقصد إخضاع البلاد المقدسة إلى نظام مباشر للحكم ، يستند إلى إدارة مزدوجة ، يستمد فيها الوالى سلطته من تأييد الأشراف ، وهم أصحاب السلطة التقليدية فى مكة . كما بعث السلطان - كما رأينا - حملتين عسكريتين بقصد إخضاع اليمن ، الأولى فى سنة ١٨٤٩ ، والثانية سنة ١٨٧٢ . وحاولت السلطنة جادة وضع تقسيم إدارى لليمن ، فوضعوا له حدوداً سياسية معينة لأول مرة .

أما فى شرق الجزيرة العربية ، فقد استطاع مدحت باشا استخلاص الأحساء سنة ١٨٧١ وكان يود التقدم أبعد من ذلك إلى نجد .

أما فى الجنوب ، فكانت بريطانيا قد أقامت حمايتها عليه بالفعل ، من «بريم » إلى « المكلا » على الساحل ، كما فرضت نفوذها على جزر البحرين ، والساحل المتهادن ، السلطنة العمانية ، واحتفظ قلب الجزيرة العربية باستقلاله وإن لم يخل من آثار المنافسات الخطيرة بين القوتين الكبيرتين - تركيا وإنجلترا - فى الجزيرة العربية .

كما استطاعت الإمارة الوهابية أن تستعيد بعض قوتها منذ منتصف ذلك القرن ، وأن تجذب انتباه حكومة الهند الإنجليزية وفرنسا - فضلا عن السلطان العثمانى - ولكن هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ قضت بفشل مجهوداتها فى الجزيرة العربية . وإلى جانب ذلك فقد بدأت الإمارات الفتية التى ظهرت فى جبل شمر - فى شمال الجزيرة - تجذب إليها الأنظار ، وقد تقرب حكامها آل الرشيد إلى السلطات العثمانية فى العراق ، مما أكد منافستها للرياض التى أصابها الضعف، عندما استولى الأتراك على الأحساء ، بل إن محمد الرشيد استطاع أن يدخل الرياض نفسها بعد سنة ١٨٩١ ، فأصبحت عاصمته « حائل » عاصمة لكل وسط الجزيرة ، ولكن ابنه الذى خلفه سنة ١٨٩٦ ، لم يكن كفؤاً لإدارة هذا الملك العريض ، مما أدى به إلى استقدام الأتراك إلى وسط الجزيرة ، فزحفت قوات عثمانية من العراق والمدينة ، واحتلت مدينة القصيم لفترة وجيزة ، وذلك

يطمعون كثيراً فى أن يكون أداة طيعة فى أيـديهم . وقد ساعدهم الشريف حسين فعلا كما أملـوا فيه ، فسـاعدهم حربيًّـا ضد الإدريسى ، وسـاعدهم بنصـائحه واتصالاته بالإمام يحيى سعيًا وراء الصلح بينه وبين السلطان .

إلا أنه سرعان ما دب الخلاف بين الاتحاديين وبين الشريف حسين ، وهذا راجع إلى شخصية الحسين الخاصة التى تتصف بـالطموح والعناد ، إذ عمل منذ وصوله مكة على جـذب القبائل حوله وحول الأشراف ، بعد أن كـانوا قد أهملوا فترة حكم الأشراف الـذين سبقوه . لهذا خشى الاتحاديـون هذه الشخصيـة التى تريد أن تثبت وجودها فى بقعة داخل إمبراطـوريتهم ، فرفضوا وساطته بعد ذلك بينهم وبين الإدريسى والإمام يحيى(١) .

أما فى المناطق الساحلية فى الجزيرة . فقد وجد العثمانيون لهم منافسًا خطيراً فى هذه الجهـات ألا وهى بريطانيا . وكـانت احتياجات إمبراطوريـة الهند تحمل بريطـانيا على البحث عن حلفـاء ومراكز لتمـوين السفن - سواء التجـارية أو الحربية - بالفحم على سواحل جزيرة العرب .

وقـد دفعتهـا محاولة بـونـابـرت باستيـلائه على مصر فى عـام ١٧٩٨ ، إلى احتلال جزيـرة بريم الواقعة فى مدخل البحر الأحمر الجنـوبى . وفى الوقت نفسه تقـريباً عقـدت اتفـاقًا مـع إمارة مسقط الـواقعـة عند مـدخل الخليج العـربى لأسباب تتعلق بمقتضيات التجارة فى الهند .

وقد أثـر حرص بريطـانيا على إنشاء مـراكز لها على طول سـواحل الجزيرة العربيـة ، تأثيراً كبيراً فى تاريخ اليمن الحديث ، ولهذا يجب معـرفة حقيقـة النفوذ البريطـانى ومراكـزه فى الجزيـرة ، حتى يسهل فهم أثـر ذلك على تاريخ الإمـام يحيى.

---

(١) Hogarth ; Arabia, pp, 114-119.

عندما بـدأ عبد الرحمن وابنه عبد العـزيز آل سعود يزحفان نحـو الرياض ، وقد أحسا بدنو فرصتهم . وأجبر الاضطـراب فى اليمن قائد القوات العثمانية ومعظم قواتـه فى القصيم على الانسحاب والتوجـه إلى اليمن ، فكان مصير باقى قـواته الضعيفة الهزيمة أمام عبد العزيز آل سعود الذى دخل الرياض ، وبدأ نجمه فى الصعود بين حكام الجزيرة العربية منذ ذلك الحين .

وقبل نهايـة القرن التـاسع عشر ، أخـذت سياسـة السلطـان عبد الحميـد الآسيوية تؤثر فى الجزيرة العربية . فإن الخليفة الذى كان قد صمم على أن يكون له طـريق خاص إلى المدن المقدسة ، وإلى اليمـن ، قد زاد حامياتـه فى الجزيرة ، وزاد هباته إلى البدو على طول طريق الحج .

وجـاء الاتحاديـون إلى الحكم بعـد ذلك عند القضـاء على عبـد الحميـد ، وبدأت علاقة الاتحاديين بالجزيرة بعملين لهما أهميتهما :

أولا : افتتاح سكـة حديـد الحجاز رسميًّـا فى شهر سبتمبر سنـة ١٩٠٨ ، وكان الخط قد بلغ المدينة .

ثانيًا : تعيين الشريف حسين بن على أميراً على مكة(١) .

وترجع أهمية هذين العملين إلى النتائج العملية التى ترتبت عليهما .

فوصـول خط سكة حديـد الحجاز إلى المدينـة ، معناه تأكيد سيـادة ونفوذ الباب العـالى فى الحجاز ، لأنه ضمن له وسيلـة فعالة لنقل الجنـود والمعدات فى أسرع وقت وأسلم طريق . وهذا مـا كان فعلا ، فقد أصبح الحجـاز مركزاً تنطلق منه الوسائل التنفيذية لإخضاع المتمردين فى جهات الجزيرة المختلفة .

أما تعيين الشريف حسين ، فكـان له أهميته وخطـورته كذلك . فقـد رأينا كيف أن الاتحاديين هم الذين عينوه ، بـالرغم من السلطان عبد الحميـد ، وكانوا

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٩ .

كانت فرنسا ترمى من وراء احتلال مصر جعلها محطة أو خطوة أولى فى سبيل مهاجمة بريطانيا فى أغلى درة فى تاجها - أى فى إمبراطورية الهند - لذلك سارعت بريطانيا سنة ١٧٩٩ ، باحتلال جزيرة بريم (ميون) عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وبالاتصال بشيوخ الجنوب العربى ، وخاصة منطقة عدن لتقيم معهم علاقات دبلوماسية ، وكان ذلك للمرة الأولى فى تاريخ المنطقة .

وواصلت بريطانيا مساعيها لتوطيد هذه العلاقات ، فعقدت شركة الهند الشرقية معاهدة تجارية مع سلطان لحج صاحب النفوذ فى عدن فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ .

وزادت أهمية عدن أكثر فأكثر ، إذ فكرت تلك الشركة نفسها سنة ١٩٢٧ أن تسير سفنها فى رحلات منتظمة إلى مصر ، وهنا رغبت جادة فى امتلاك نقطة على هذا الطريق تجعلها محطًّا لها . وكانت الدبلوماسية البريطانية فى هذه الآونة تعلب دوراً خطيراً فى الإمبراطورية العثمانية ، وتتبع سياسة ذكية مزدوجة ، وخاصة أن بريطانيا كانت ترى أن هذه الإمبراطورية الضعيفة لا تستطيع البقاء طويلا ، وأن الدول الأوروبية تطمع فى احتلال أجزاء منها .

فهى ترغب جادة فى الحصول على أجزاء من هذه الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت تقف بالمرصاد أمام مطامع الدول الأوروبية الأخرى ، فى الإمبراطورية نفسها ، ولا تسمح لهذه الدول باحتلال أجزاء من أملاك الباب العالى - إلا تنفيذاً لخطتها هى ، ومقابل سكوت هذه الدول عن أعمال بريطانيا استطاعت أن تحصل على موافقة الباب العالى على احتلال ميناء عدن ، وكانت وجهة نظر السلطان هو دفع بريطانيا وإغرائها فى مساندته ضد والى مصر محمد على باشا ، الذى استطاع أن يكون إمبراطورية عربية خارجة على السلطان[١] .

وفعلا أحس « بالمرستون » وزير خارجية بريطانيا حينئذ ، بمدى خطورة

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، الجزء الأول ، ص ٣٨٨ .

وجود قوات مصرية فى الجهات المجاورة لمنطقة عدن هذه قرب مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وكانت القوات المصرية تحتل تهامة اليمن ، منذ مطاردتها للوهابيين من الجزيرة العربية عمومًا .

حاولت بريطانيا شراء ميناء عدن - ولكن سلطان لحج كان يرفض ذلك باستمرار ، عندئذ فكرت بريطانيا فى اللجوء إلى الطرق العنيفة للحصول على هذا الميناء الذى يزداد أهمية لها باستمرار . تقدمت بريطانيا للهجوم على المدينة بإحدى الحيل العديدة التى لا تجد جهداً فى إيجادها ، وسرعان ما افتعلت مبرراً تعتمد عليه ، وضربت عدن واحتلتها فى ١٦ يناير ١٨٣٩ ، ثم عقدوا عدة اتفاقيات مع السلطان فى ٢ و ٤ فبراير ، ثم فى ١٨ يونية ١٩٣٩ وتقضى جميعها بالاعتراف بملكية انجلترا لعدن ، فى مقابل منحة سنوية تبلغ حوالى ٥٦٠٠ ريالا تدفعها بريطانيا للسلطان .

إلا أن الأمر لم يستتب تمامًا بهذه الاتفاقيات ، فقد حاول العرب أكثر من مرة استرداد عدن ، والشيخ عثمان - ذلك الإقليم المتاخم لعدن ، الذى أصبح فيما بعد جزءاً من مستعمرة عدن ، بعد أن اشترتها حكومة الهند من سلطان لحج باسم الحكومة البريطانية فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢[١] - ولكنهم فشلوا دائما .

لم يقتصر نشاط إنجلترا على جنوب غرب الجزير ة العربية ، بل أسرعت إلى الركن المقابل ، إلى جنوب شرق الجزيرة ، فحصلت على بعض الامتيازات فى مسقط عند مدخل الخليج العربى ، وذلك بمقتضى المعاهدة التى عقدت فى ٣١ مايو ١٨٣٩ ، ولكن مسقط فى الحقيقة لم تصبح خاضعة أو تابعة لبريطانيا

(١) J C. Hurewitz ; dplomacy in the Near and Middle East, S. Van Naostrand, New York. 1956, Vol, 1. p, 126.

ويروى أحمد فضل بن على العبدلى فى كتابه « هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن » تفاصيل كثيرة عن محاولات إنجلترا لاحتلال عدن يجب الاطلاع عليها (ص١٤٣-١٤٥) وأهمية هذه التفصيلات تتضح فى أنها تمثل وجهة نظر عربية بعيدة عن الادعاءات الإنجليزية ، مع ملاحظة أنه أحد أفراد أسرة العبادلة التى منها سلاطين لحج .

كما كان الحال فى عدن مثلا ، بل كان لها كيانها المستقل المتميز[١] .

وكانت علاقات بريطانيا قد بدأت قبل ذلك سواء مع البحرين أو الكويت . وكانت البحرين تمثل مصيداً للؤلؤ عظيم الأهمية . وقد بدأت هذه العلاقات بين بريطانيا وبين البحرين سنة ١٨٢٠ ، عندما ارتبط شيوخ البحرين بالمعاهدات العامة - الخاصة بمنع القرصنة ومحاربة تجارة الرقيق . وأكد هذا الارتباط معاهدات ١٨٥٦ ، ١٨٦١ ، ١٨٦٨ .

أما اتفاقية ٣٢ ديسمبر سنة ١٨٨٠ بين بريطانيا وشيخ البحرين ، فكانت تقضى بإخضاع سياسة الشيخ الخارجية لبريطانيا ، أو بمعنى آخر - تقضى بالاقتطاع من مظاهر سيادته ووضعه تحت الحماية . فقد تعهد الشيخ بأن يمتنع عن الدخول فى مفاوضات أو عقد معاهدات من أى نوع ، مع أية دولة أو حكومة - غير الحكومة البريطانية - بدون موافقة بريطانيا ، وأن يرفض الشيخ السماح لأية حكومة غير الحكومة البريطانية ، أن تعين لها وكلاء دبلوماسيين أو قنصليين ، أو دعوة مندوبين أجانب للإقامة فى أراضيه ، إذا لم توافق الحكومة البريطانية[٢] . بل عقدت كذلك اتفاقية أخرى بينهما فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٢ ، أكدت الشروط السابقة ، بل أوضحت أكثر فأكثر مدى الخضوع الذى جاء فى اتفاقية سنة ١٨٨٠ .

وقد جاء فى الاتفاقية الأخيرة ، أن على شيخ البحرين ألا يدخل فى أية علاقات مع أية حكومة غير الحكومة البريطانية إلا بموافقة بريطانيا .

كما عليه ألا يوافق بأية حال من الأحوال ، على التنازل أو بيع أو رهن أو احتلال أى جزء من أراضيه إلا للحكومة البريطانية[٣] .

---

(١) Hurewitz ; Diplomacy in the Near and the Middle East, Vol. 1, p. 127.

(٢) Wilson ; The persian Gulf, George Allen and Unwin, London 1954, p. 247.

(٣) Hurewitz ; Ibid , p. 299.

أما عـلاقات بريطـانيا بالكويت ، فقـد بدأت مبكرة نسبيًّـا وذلك فى سنة ١٧٧٥ ، عندما كان ميناء الكويت هو الميناء الوحيد الصالح للاستعمال فى هذه المنطقة الصحراوية ، فاستعملته بريطانيـا كمحطة بريد برية من الهند إلى البحر المتوسط وزاد بعد ذلك نفوذ بريطانيـا فى الكويت ، وتأكد بشكل واضح عندما حاول الباب العالى سنة ١٨٩٧ إعادة سيادته الاسمية على هذه المنطقة .

فأسرع الشيخ مبـارك الصباح ، الـذى تـولى الإمارة سنـة ١٨٩٦ ، يطلب حماية بريطانيا ضد هذه المحاولة العثمانية[١] .

وكان هذا انتصاراً دبلوماسيًّا لبريطـانيا على الباب العالى ، بل وحدث بعد ذلك أيضًا مـا أكد هـذه السيادة ، وذلك فى الاتفـاقية السريـة التى عقدت بين شيخ الكويت وبـريطانيـا . وقد تم ذلك عندما حـاولت إحدى الشخصيات الروسية المعروفة ، وهو الكونت كابنست KAPNIST عرض مشروع جديد يقضى بمد خط سكة حديد من شاطئ سوريا على البحر المتوسط إلى الكويت .

هنـا أسرع البارون كيرزون - الـذى أصبح حـاكمًا للهند بعـد عرض هـذا المشروع بسبعـة عشر يـومًا فقـط - إلى الحصول من الشيـخ على هذه الاتفـاقيـة السريـة ، التى تقضى بعـدم تنـازل شيخ الكـويت عن شىء من أراضيـه ، كما أكدت سيادة بريطـانيا على سياسة الكويت الخارجية . وقـد أصبح هذا الاتفاق السرى علنيًّا بعد سنة ١٩٠٣ ، عندما أثيرت مشكلة خط سكة حديد بغداد بين الباب العالى وألمانيا وإنجلترا .

أمـا اتفاقيـة ٢٣ ينـاير سنـة ١٨٩٩ (١٠ رمضـان سنة ١٣١٦هـ) فهى تقضى بأن يـوافق الشيخ مبـارك ابـن الشيخ الصبـاح شيخ الكـويت ، على ألا يسمح لأية دولـه بإقامـة ممثلين لها فى الكويت دون مـوافقة حكومـة بريطـانيا ، كـذلك تعهـد الشيخ ألا يتنـازل أو يبيع أو يرهـن أو يسمح باحتـلال أى جـزء

---

(١) Wilson ; The Persian Gulf , p. 252.

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

من أراضية بدون موافقة سابقة من حكومة بريطانيا[١] .

بعد هذا العرض العام ، يمكن رسم خريطة سياسية للأوضاع القائمة فى الجزيرة العربية فى تلك الفترة الهامة ، التى سارت أحداثها متوازية مع أحداث اليمن كما سيتضح فيما بعد .

وأهم ما يحدد خطوط هذه الخريطة ، هو وجود زعماء محليين ، استطاعوا أن يستمدوا كيانهم وسلطتهم من ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة بمناطقهم .

فكان هناك الشريف حسين فى مكة ، وعبد العزيز آل سعود فى الرياض ، والإدريسى فى صبيا فى عسير ، والإمام يحيى فوق الجبال الشمالية فى اليمن ، وآل الرشيد فى حائل فى الشمال ، والصباح فى الكويت . وإلى جانب هؤلاء كانت هناك مشيخات وإمارات صغيرة على الساحل الشرقى والجنوبى للجزيرة العربية .

ولا شك أن العثمانيين والإنجليز كانا يمثلان القوتين الفعالتين فى أحداث الجزيرة حينئذ . فكانت إنجلترا تحرص على تأكيد نفوذها على السواحل ، طبقًا لمخططها السياسى الاستعمارى العام .

وكان نفوذ العثمانيين يختلف قوة وضعفًا من مكان إلى آخر فى هذه البقاع ، تبعًا لصلتهم بهذا الأمير أو ذاك ، وتبعًا لقوة الحامية الموجودة فى المنطقة .

وقد عرفنا موقفهم من الشريف حسين ، ومدى نفوذهم عليه ، علمًا بأنه كانت لهم حامية دائمة قوية فى المدينة . أما فى حائل فكان أمراؤهم آل الرشيد يعترفون بسيادة العثمانيين عليهم ، وكثيراً ما كانوا يستنجدون بهم ضد عدوهم عبد العزيز آل سعود .

أما عبد العزيز فكان فى خصام مع الترك ، لأنهم يساعدون آل الرشيد ضده فى القصيم ، لذلك قويت علاقته مع الكويت التى كانت تخضع غير

---

(١) Wilson ; The Persian Gulf, P . 219.

مباشرة لحماية الإنجليز ، فكان الشيخ مبارك الصباح يعتمد على مساندة بريطانيا له ، وخاصة منذ سنة ١٩٠٣ ، وعلى المساندة التى وفرتها له وجود المقيم الإنجليزى منذ ذلك التاريخ . فتعاون الصباح مع ابن سعود على مهاجمة عشائر المنتفق فى العراق ، وكان الأتراك كثيراً ما يستعملونهم . كما هاجم كلا الأميرين - الصباح وابن السعود - جبل شمر أيضًا ، خاصة أن الأمير سعود ابن الرشيد الذى تولى الإمارة سنة ١٩٠٨ ، كان طفلا صغيراً وتولى الوصاية عليه أبناء عمومته . وكان للعثمانيين السيادة العسكرية فى الأحساء إلا أن هذه السيادة لم تدم طويلا . ففى ربيع سنة ١٩١٣ انقض عبد العزيز آل سعود على الأحساء وأخذ « الهفوف » ثم بعد فترة قصيرة استولى على « القاطف » وأخرج الترك - سواء العسكريين أو المدنيين - من هذه المنطقة ، بعد أن مكثوا بها أكثر من أربعين عاما . وهنا بدأ ابن سعود محاولاته فى الاتصال بالانجليز والاستعانة بهم، وكان لأمير الكويت دور فى التقريب بين الطرفين[١] .

أما فى جنوب غرب الجزيرة ، فلم يكن وضع العثمانيين أحسن حالا ، إذ كان الإدريسى والإمام يحيى يتمتعان بوضع خاص فى عسير واليمن ويناوئان الحكومة السيادة والنفوذ ، مما يتعارض مع مبدأ الحكومة ، إذ كانت ترسل القوات والمعدات لإخماد هذه الثورات التى لم تنته فى اليمن إلا فى سنة ١٩١١ ، عند عقد صلح « دعان » وهو خاص بالإمام يحيى فقط .

أما الإدريسى فواصل ثورته ضد الأتراك حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى .

أما نفوذ العثمانيين على الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة ، فكان معدوما تقريبًا ، إذ كان الانجليز هم أصحاب النفوذ الفعلى المباشر فى هذه الجهات ، كما سبق أن بينا .

---

(١) Hogarth ; Arabia, PP. 123-124



القسم الثانى

اليمن تحت الحكم العثمانى

(١٩٠٤ - ١٩١٨)

الباب الأول

الإمام يحيى منذ توليه الإمامة حتى عقد صلح « عدان »

(١٩٠٤- ١٩١١)

الفصل الأول

بيعة الإمام يحيى بالإمامة

مولده ونشأته :

ولد يحيى حميد الدين بمدينة صنعاء فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٨٦هـ . (يونيـة سنة ١٨٦٩)[١] . وتاريخ ميـلاده مختلف عليه بعض الشىء ، فيذهب محمـد حسن فى كتـابه « قلب اليمن » إلى القـول إنـه ولـد سنة ١٢٨٥هـ[٢] ، ويذهب آخرون إلى أنه ولد فى سنة ١٨٧٦م[٣] . ولكن هذه التواريخ المتضاربة لا تعنى الشىء الكثير فنحن نميل إلى الأخذ برواية الـواسعى ، التى يؤيدها كل من الجرافى ونزيه العظم .

وقد صـاحبت طفولته وصباه ، أحـداث قاسية ، وقـد سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق طرفًـا من هذه الظروف السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية التى صـاحبت نشأة الإمام يحيى الأولى ، فترددت أصـداؤهـا فى نفسه ، وسـاهمت فى تحديد نوع تفكيره واتجاهاته .

تربى الإمام يحيى تـربية خاصة عـربية إسلامية صرفـة ، ويقول أمين سعيد عنـد ترجمة حيـاة الإمـام يحيى « اعتدنـا ونحن نـدون تراجم العظماء من رجـال العصر الحاضر ، أن نـذكـر أسماء المدارس التى تخرجـوا منهـا ، والشهـادات أو

---

(١) عبـد الواسع بن يحيى الـواسعى اليمانى : تـاريخ اليمن المسمى فـرجة الهمـوم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦هـ . ص١٩٤.

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٧ ص ٩٦ .

(٣) Revue du Monde Nusulman . Tome., 111, p, 52.

ويكتل جهودهـا ويحشد رجـالها لمهاجمة صنعاء ، أو للـدفاع عن مـراكز الزيدية المحصنة فى الشمال ضد زحف الأتراك ، وكذلك لمهاجمة مراكز العثمانيين الحربية المتناثرة هنا وهناك .

ويقول الجرافى عند كلامه عن أحداث سنة ١٣٢١هـ . (١٩٠٣) م :

« قـام سيف الإسـلام يحيى ببعض المجهـودات الضخمـة فى الاتصـال بـالقبـائل وتنظيمهـا وتجهيز الجيـوش منهم للـزحف على البـلاد التى تحت يـد الأتراك، وقد تلقاه الأهالى بالطاعة والترحيب »[١] .

وأخيراً يمكن القول إن شخصية الإمام المنصور ، وسياسته ، وأحداث فترة حكمـه - إلى جانب العلماء ، والسـادة الـزيديين الملتفين حـولـه ، كانت كلهـا عوامل عظيمة الأثر فى حياة الإمام يحيى وآرائه وسياسته فيما بعد . وهذا ما يؤدى بنا إلى القول إن عهـد الإمام يحيى ، كان صورة تقليدية وامتـداداً لعهد السابقين من الأئمة ، لتشابه النشأة والظروف والأوضاع .

مبايعته بالإمامة :

« اشتد المرض بـالإمام المنصـور فى سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) وفى شهر ربيع الأول من هـذه السنة توفى إلى رحمة الله بـ« قفلة عـذر » من بلاد حـاشد ، فكتب ولـده سيف الإسـلام يحيى إلى العلماء يستـدعيهم فحضروا ونعى اليهم والده الإمـام ، وطلب إليهم أن يختاروا من يقـوم بالأمر بعـده ، فاتفقت كلمتهم جميعًـا على أن لا يقوم مقـام الإمام أحـد مثل ولـده ، وبايعـوه بـالإمامـة وتلقب بالمتوكل »[٢] .

هذه هى الصـورة التقليدية التى يجب أن يذكـرها مؤرخـو اليمن عن تولى

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٥ .
(ويلاحظ أن الجغرافى يكتب تاريخه على طريقة الحوليات) .
(٢) نفس المرجع : ص ٢١٧ .

الرتب العلمية التى يحملونها ، وأسماء المدارس أو الجامعات التى منحتها . أما فى سيرة الإمام فالأمر غير ذلك ، فنحن موردو أسماء العلماء الذين درس عليهم ونال إجازاتهم بالتدريس - وهى الطريقة التى كانت متبعة فى العصور الإسلامية القديمة ولا يزال بعض علماء الدين الإسلامى يسير عليها »[1] .

ولذلك نرى أن دراسة الإمام يحيى كلها إسلامية محضة لا علمانية ، ونرى الكتاب التقليديين الذين كتبوا عنه ، يذكرون العلماء الذين أخذ عنهم ، فيقولون مثلا إنه أخذ الحديث عن القاضى العلامة المتحدث ... والتفسير عن المفسر الكبير ... ودراسته تنحصر فى فروع العلم الإسلامى البحت ، مثل القرآن والتفسير والحديث وعلم الكلام وأصول المذهب الزيدى وغيرها .

وقد اعتنى والده المنصور بتنشئته تنشئة دينية حربية ، تتفق والدور السياسى الذى كان يعده للقيام به ، وتتلازم مع كون المنصور نفسه أحد كبار السادة الزيديين ، كما اتضح فى الفصل الأول .

عاش الإمام يحيى سنواته الأولى مع والده فى صنعاء ، وكان يشاهد عن كثب مجريات الأمور ، وكان يشارك أباه فى الأحداث مشاركة فعلية إيجابية ، وخاصة بعد أن هاجر من صنعاء معه سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠م) إلى جبل «الأهنوم» عندما بويع المنصور بالإمامة .

ومما لا شك فيه أن الإمام المنصور ليس هو الذى بدأ طوراً جديداً من أطوار حياته بعد مبايعته وهجرته فحسب ، بل إن ابنه سيف الإسلام يحيى كذلك قد بدأ فترة جديدة فى حياته ، خاصة وأن عمره حينئذ كان قد بلغ نحو واحد وعشرين عامًا ، أى شابًا يافعا يستطيع أن يدرك كل ما حوله من أحداث ، بل يستطيع أن يشارك فيها مشاركة فكرية ومادية . فنراه قد شارك أباه فى الثورات المتعددة التى قام بها ، كما كان يقوم بالاتصال بالقبائل المختلفة ،

---

(١) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٦٩ .

الإمام يحيى الإمامة ، ولكن هناك كثيرا من العوامل تؤدى إلى اهتزاز هذه الصورة أمامنا . فطبيعة المذهب الزيدى لا تحتم أن يرث الأبناء الإمامة ، والمجتمع اليمنى مقسم إلى قبائل لا يمكن جمع كلمتها بسهولة ، إلى جانب وجود الحكم العثمانى فى اليمن ، ووجود إنجلترا فى المحميات وهما أصحاب مصالح خاصة فى هذه المنطقة.

كل هذه عوامل تجعلنا لا نستطيع أن نقبل الصورة التى رسمها لنا الجرافى عن تولية سيف الإسلام يحيى الإمامة عند وفاة والده بكليتها ، وأن البيعة تمت بهذه السهولة ، أو أنه لم يكن هناك من يعارضها بعد إعلانها .

وهذا ما يدعونا أيضًا إلى رفض ما قاله سلفاتور ابونتى الكاتب الإيطالى عند حديثه عن التولية إذ يقول « ارتقى يحيى عرش اليمن بدون جلبة ولا ضوضاء ، وبموافقة إجماعية . وكان أول عمل قام به ، هو أنه شهر الحرب على الأتراك ، وهاجمهم بعساكره ...[1] .

كما يعطينا الواسعى صورة أخرى عن المبايعة أكثر عمقًا وتفصيلا عن الصورة السابقة - ولكنها تحمل نفس المعنى فيقول « ولما كانت وفاة والده الإمام المنصور بالله رضوان الله عليه فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ ، أجمع من كان بمحروس « قفله عذر » من علماء صنعاء وبلادها ، و « ذمار » و « صعدة » و«حوث » على مبايعتهم له ، فامتنع عن قبول المبايعة له منهم ، وبذل بيعته لمن يرونه أهلا للقيام بها . فما زال أولئك الأعلام فى مراجعة له وإلزامه الحجة بوجوب قيامه بأمر المسلمين والإسلام حتى أسعدهم (بقبولها) وكانت دعوته المباركة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ ، وتلقب المتوكل على الله رب العالمين ، وضرب على سكته « عصمتى بالله المتوكل على الله » ثم وصلت إليه بيعة جميع علماء هجرة «حوث » ، ومدينة « شهارة » وسائر المدن

---

(١) سلفاتور ابونتى : مملكة الإمام (ترجمة طه فوزى) ص ٥٥ .

و البلـدان وكانت لدعوته الصولة فى جميع البلاد ، ووفدت إليه الرؤساء والمشايخ والأجناد من الأغوار والأنجاد[1] .

وإن كانت هـذه الصورة « الواسعية » تعبر عن المعنى الـذى لا نقبله على عـلاته ، إلا أنها فى نفس الـوقت ، تحمل فى طياتها المعنى الـذى نقصده والـذى سبق أن نوهنـا به . فإن امتناع الإمام يحيى عـن قبول الإمامة « فـامتنع عن قبول المبايعـة له منهم » كان فى المنزلـة الأولى يرجع إلى رغبته فى أن تكـون البيعة على شكل أوسع ، ومن جميـع السـادة والعلماء والمشـايخ فى شتـى جهـات اليمن ، إحساسًا وإدراكـا منه بأهمية جماعية البيعة فى هذا الـوقت الحرج بالذات حتى لا يظهر من يناوئه فيما بعد - أو حتى فى نفس الوقت - فى جهة أخرى من اليمن .

ويؤكـد هذا أنه يعرف جيـداً طبيعة المذهب الزيدى ، ويـدرك بالتفصيل التاريخ الإمامى الطويل فى اليمن الملىء بالتنافس والنزاع بين الأئمة .

ومـا ذهبنا إليـه فى أمر تـوليته تـؤيـده كثير من الأحداث الـواقعية ، فبعـد مبـايعته ، لاقـى الكثير من الصعاب والمضـايقـات التى أثـارها أمـامـه بعض المنافسين الذين ظهروا فيما بعد .

واحتاجت هذه الصعاب وقتًا طـويلا من حكمه لمعالجتها - إن لم نقل إنها كانت من المشكلات التى حددت طبيعة أعمالـه طوال فترة حكمه - فإحساسه بالخوف من المنافسين سيفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التى ستواجهنا على مدار البحث . وقد احتاج وجود منافسين لـه منذ اللحظة الأولى لتولية الإمامة ، إلى القيام بحروب مستمرة سواء على الهضبة ، أو فى السـاحل .

فنرى حتى بعـد تولى الإمـام يحيى الإمامـة - نظراً لضعف قـوته ولضعف السيطرة العثمانية على أجزاء اليمن المختلفـة - أن كل شيخ قبيلة أو رئيس قرية يحسب نفسـه الزعيم الـوحيـد فى البلاد ، وأن من الـواجب على الأهـالى طاعتـه وتأدية الضرائب والزكاة له .

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

كما « قـام بعض السادة يطـالبـون بالإمـامـة ، غير معترفين بإمامـة يحيى ، ومنهم أحد أبناء عمومته ، ويدعى أحمد بن قاسم حميد الدين الضحيانى »[١] . كما كان هنـاك أسرة أخرى تنـافس أسرة الإمام يحيى على الإمـامة هى أسرة شرف الدين التى كانت تعتمد على إثارتها لبعض القبائل الشافعية[٢] .

واستمر ظهور هـذه المنافسات حتى بعد أن استطـاع الإمام يحيى إخضاع الضحيانـى ، وحتى بعد الحرب العـالمية الأولى . يقـول الريحانى « فعنـد إعلان الهدنـة « سنة ١٩١٨ » وانسحـاب الأتـراك من اليمن ، تحرك بعض المدعين إلى صنعاء ، فى نفس الـوقت الذى تحرك فيه إليهـا الإمام يحيى ، بل ولجأ بعضهم إلى أعداء الإمام ، وملـوك وأمراء البلاد المجاورة ، فكانـوا يكاتبون سرًّا الملك حسين ابن على ، والإدريسى ، وحتى الإنجليــز ، يطلبـون العــون منهم ، للتغلب على الإمام يحيى »[٣] .

ويستطرد الريحانى قائلا « إن الحزب المناوئ للإمام يحيى حاول إرسال وفد إلى الحجاز ، ســافر رجالـه عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ ، وقصـدهم السفر إلى الحجاز شـاكين مستنجدين ، ولكـن الإنجليز لم يأذنـوا لهم بالمرور ، فـرجعوا إلى بلادهم ، وقد سمعـت من مصـادر شتى ما يدهـش ويضحك من أخبـار هذه الفئـة وأغـربها أن الإمـام يحيى رشـا بعض الموظفين الكبـار من الانجليـــز فى عـدن، ليـوقفوا أعضـاء الوفـد ، فحققوا لـه تلك الـرغبة »[٤] . وهـذه القصــة بالرغـــم من شكـنا فى بــعض تفـاصيلها فإن لهــا دلالتهـا الهــامــة ، وهــى توضــح بجلاء ما ذهبنـا إليه من أن مبايعة الإمام يحيى لم تكن إجماعية وأنه ظهر

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ١٥٩ .

(٢) General Edouard Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 71 .

(٣) ، (٤) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

لـه بعض المنافسين على الإمـامة بعـد تـوليه لها ، ذلك الأمـر الذى كـان يحدث باستمرار بين الأئمة الزيديين قبل ذلك .

ومن الطريف إمعـان النظر فيما قالـه الريحانى كـذلك بصدد توليـة الإمام يحيى إذ قال « وبعـد وفاة المنصـور ظفر ابنه يحيى المتـوكل على الله بالإمـامة »[١] فنحن لا نعتقد أنه أورد لفظ « ظفـر » إعتباطًا ، بل نرى أنه كـان يقصد أن تولى الإمام يحيى الإمامة كان محفوفا بالصعاب ، فاستعمل هذا اللفظ بدلا من «نال » أو « تولى » .

وقد شهـد شاهد من أهلهـا - كما يقول المثل العربى - إذا قـال أحد تجار صعدة عنـد وصولـه إلى عدن فى أمـور تجارية - عنـدما سئل عن أحـوال اليمن السياسيـة « ... وقد قام إمام ثـان (المعروف أن الأول هو الضحيـانى) فى جهة صعدة فلم يتبعه إلا رجال قليلون ، فأرسل إليه الإمام حميد الدين « يقصد يحيى» قوة سحقته ، فقدم الخضوع والطاعة ، وكذلك الإمام الثالث المسمى القاسمى ، فإنه قد قهر وخضع لحميد الدين .. »[٢] .

ويمكن أن نخلص من هـذا كله إلى وجود صعـوبات عـدة قابلهـا الإمام يحيى عنـد مبايعتـه وبعد ذلـك ، وهذا مـا دعانـا إلى منـاقشة روايـات المبايعـة المختلفة .

وأخيراً يمكن أن نخـرج بالنتيجـة الآتيـة : عند وفـاة الإمـام المنصور سنـة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) كـان الإمام يحيـى يبلغ من العمـر حينئذ حـوالى خمسـة وثلاثين عـامًا ، وأن الفترة التى عاشها فى كنـف أبيه المنصور كانت فـرصة كبيرة للقيام ببعض الأعمال التى أكسبته الشهرة بين الزيـديين ، وأن الفترة نفسها مكنته من أن يرى عن كثب طبيعة العلاقـات ، وحقيقة الأوضاع السائدة حينئذ . لهذا

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧١٨ الصادر فى ٣ مارس ١٩١٠ (٢٠ صفر سنة ١٣٢٨هـ) ص ١ .

كله استطـاع أن يحصل على مبايعة من كانـوا حوله فى « قفلة عـذر » حيث توفى والده[١] .

إلا أن بيعتـه فى « قفلـة عذر » كـانت غير نهائيـة ، أو بإجماع اليمنيين ، أو حتى كل الزيـديين فقط ، بل كانت مبايعتـه هناك هى نقطة انطـلاق فقط لبناء مستقبله السياسى فى اليمن .

---

(١) روى لنا السيد محمـد أحمد النعمان أحد زعماء الاتحاد اليمنى - بعد مناقشة الرسـالة - أنه سمع من المعمرين بـاليمن أن الإمام يحيى أغلق على المجتمعين - لانتخاب إمام جـديد بعد وفاة المنصور - باب غرفة الاجتماع ، وتـرك « ناصر مبخوت الأحمر » حارسًا عليها فلما سمعهم الحارس يتداولون الرأى فى انتخاب الإمام يحيى أو انتخاب غيره ، هاجم الاجتماع وهددهم بالقتـل وقال « مابش (ليس هناك) إمام غير سيـدى يحيى » . ومن المعروف أن آل الأحمر كانوا من أكبر الثائرين على حكم أسرة حميد الدين فيما بعد .

الفصل الثانى

علاقة الإمام يحيى بالعثمانيين بعد توليه الحكم

ثورته ضد الترك وحصار صنعاء سنة ١٩٠٥ :

لا نتوقع أى تغيير لطبيعة العلاقـات بين الأئمة والعثمانيين - التى رأيناها قبل ذلك - بعد تـولى الإمام يحيى الإمامـة ، بل ظلت العلاقـات كما هى نتيجة استمرار الظـروف والأوضاع ، وبقـائها على حالها ولـذلك فعندمـا تولى الإمـامة انتهج نفس المنهج الذى شاع قبله ، ووقف موقفًا عدائيًا من العثمانيين ليجبرهم على الاعتراف بـوضعـه الخاص . ولهذا يمكن أن نفهـم مـا قالـه أمين سعيـد عن أعماله عقب إعلان مبـايعته : « أسرع بإشهار الجهاد ضد الأتراك ودعـا قومه إلى مواصلـة الحرب للتنكيل بالترك الذين سعـوا فى الأرض بالفساد وتـركوا الشرائع وظلموا العباد » ، كما جاء فى منشور أذاعه يومئذ[١] . وقد ذكرت ويفل Wavell فى مقدمة كتابها الذى يتناول أساسًا ثورة ١٩١١م تأييداً لما ذهبنا إليه من أن كلا من فترة حكم المنصور وفترة حكـم الإمام يحيى الأولى بالـذات كانتـا متشابهتين تمامًـا بل تماثلت أحـداثها ودوافعها فتقـول : « حتى العشرين سنـة الأخيرة (السابقـة لسنة ١٩١١) بينما كان العرب والترك يتنـازعون حول تقـرير المصير ، كان تاريخ اليمن تاريخ السيف والنـار فهو تسجيل للمعارك والحصار ، أماكن تؤخذ عنوة ، وحاميات تخضع نتيجة الجوع ، ومذابح وحشية وانتقامًا قاسيًا»[٢].

تمكن الإمام يحيى بعـد توليه الإمـامة من حصـار صنعاء ، ويقال إنـه كان

---

(١) أمين سعيد : اليمن ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ٢٧ .

(٢) Wavell ; A Modern pilgrim in Mecca, p. v.

معه حوالى عشرين ألف يمنى ، وإن الكثير منهم كان أغلبهم من القبائل الشافعية[١] . ورغم أن هذه الرواية تحتاج إلى مناقشة بعض نقاطها - وهذا سيتضح فيما بعد - إلا أننا الآن نقول إن الحرب اشتدت بين الطرفين ، وبدأت المدن اليمنية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى يد الإمام وأتباعه ، فسقطت مدينة « عمران » و « حجة » و « ثلا » وغيرها ، وانتقل الإمام من « قفلة عذر » إلى «حوث » إلى « خمر » إلى « عمران » ثم إلى « كوكبان » وهنا وصلت الأتراك إمدادات كثيرة جمعت من مختلف المراكز لفك الحصار عن صنعاء ، لكنهم لم يستطيعوا ذلك . ووصلت بعد ذلك قوة هائلة من الجنود العثمانيين بقيادة رضا باشا إلى الحديدة ، واتجهت إلى صنعاء فى استعداد كامل ، وانضم إليها البعض من رجال قبائل « يام » فتلقاهم أصحاب الإمام فى « الحيمة » و « بلاد البستان » ونهبوا ما كان معهم من مؤنة وسلاح ، واستسلمت قبائل « يام »[٢] ، وقدمت الطاعة لأتباع الإمام الذين ساقوهم إلى « كوكبان » فأمرهم بإلقاء السلاح إبقاء على أرواحهم . ووصلت القوات التركية إلى صنعاء فى حالة يرثى لها ، وكان من جراء ذلك أن زادت الشدة على من فى صنعاء[٣] . وقد أعطانا الواسعى وصفًا دقيقًا صريحًا للحالة القاسية التى وصلت إليها حالة اليمن ، وخاصة فى صنعاء، فى تلك الفترة فقال :

« .. تجمعت القبائل على صنعاء وتكاثرت ، وضاقت على أهلها بما رحبت واشتد الحصار ، وخرج الناس الصغار والكبار والنساء والمخدرات ، وقاسوا عظيم الأهوال ، وباعوا جميع الأموال والأمتعة والفراش وكان الثمن فى غاية الرخص لعدم (وجود)[٤] المشترى حتى إن بعضهم يؤجر الحامل إلى السوق

---

(١) Bremonl ; Yemen et Saoudia, p. 72.

(٢) سيأتى ذكر قبائل « يام » هذه مرات أخرى وخاصة فى أثناء تناول الأزمة اليمنية السعودية.

(٣) الجراق : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٩ .

(٤) لا توجد فى الأصل .

ويعجز عن أجرته ثم لا يجد مشتريًا ، ثم يأخذ الحامل نصف ما حمل ، والجوع عم اليمن بسبب الفتن ، وبالمحاصرات ترك الزراع الزراعة وخلت من اليمن قرى كثيرة مات أهلها من الجوع . وفى « خولان » كانوا يأكلون التبن بعد طحنه ومات فى قرية « القابل » خارج صنعاء ١٦ مائة[١] غير الذين ماتوا فى سائر القرى حول صنعاء . ووجد فى « سهام » على قارعة الطريق موتى ٥١ نفسًا . وفى داخل صنعاء أمر المفتى[٢] البوليس وطائفة من الجنود أن يهاجموا بيوت التجار ، والأعيان من أهل صنعاء ومن كان منظوراً إليه باليسار ، ويأخذ ما لديهم من الحبوب لأجل عساكر الدولة وأخذ كل شيء يؤكل »[٣] . نعم لقد اشتد الحصار على صنعاء ، وساءت الأحوال عمومًا إلى درجة كبيرة ، وهنا خرج بعض كبار الأتراك وبعض كبار الأهالى لمقابلة الإمام فى « كوكبان » لتسليم المدينة له ، فأرسل إليهم لإتمام التسليم سيف الإسلام أحمد بن قاسم الدين ثم انتقل هو إلى قرية القابل[٤] . وقد اشترط الإمام لإتمام الصلح خروج الأتراك من صنعاء إلى «حراز» على أن يتركوا له ما للحكومة من مال وسلاح ، وعلى أن يقوم الإمام بنقل أمتعتهم وتأمين طريقهم . وقد استطاع الإمام أن يدخل المدينة رسميًا فى ٢١ أبريل سنة ١٩٠٥[٥] . وعندئذ أعلنت أكثر البلاد الطاعة للإمام ولم يبق بأيدى الأتراك سوى مدينتى « تعز » و « إب » وبلاد « حراز » و « التهائم » و « قفلة شمر » طبق شروط الهدنة .

حروب فيضى باشا لفض الحصار :

وقد دامت الحال على ذلك عدة أشهر انتظاراً لرأى الباب العالى فى

---

(١) هكذا وردت فى الأصل .

(٢) كان معروفاً بميوله نحو الترك ومعاداته للإمام .

(٣) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) وهى قرية قريبة من صنعاء فى الشمال الغربى منها .

(٥) Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 72 .

المفاوضات لعقد صلح يوافق الطرفين ، ولكن الباب العالى كان قد عين فى أثناء ذلك أحمد فيضى باشا واليًا على اليمن للمرة الثالثة ، وهو معروف بشدته وقسوته ومهارته الحربية ، وخبرته بالبلاد ، وكان حينئذ فى شمال نجد ، فأسرع عبر الجزيرة - بالرغم من أنه كان يبلغ ٧٥ سنة - ممتطياً جواده إلى جده ومنها إلى الحديدة فوصلها فى ٧ يونية سنة ١٩٠٥ ، وكان الوضع قد جمد مؤقتًا بين الإمام وبين العثمانيين فى مراكزهم التى حددت سلفًا . نزل فيضى باشا بالحديدة حيث لحقته الإمدادات الكبيرة ، وخرج منها إلى « مناخه » حيث انضمت إليه باقى القوات العثمانية ، وخاصة التى كانت فى « حراز » ثم اتجه إلى صنعاء ، وأخضع القبائل التى قابلته أثناء زحفه حتى وصل إلى جبل « عصر » المقابل لمدينة صنعاء ، فانسحب الإمام ومن معه من صنعاء خوفًا على أهلها إلى بلاد حاشد ، فدخلها فيضى باشا فى أول سبتمبر من نفس العام[1] . هكذا وصل الوضع بعد أن وصل فيضى باشا إلى صنعاء ، وانسحاب الإمام منها إلى بلاد حاشد فى الشمال . ولكنا فى نفس الوقت يجب أن نضيف إلى جانب حجة الخوف على أهل صنعاء كتبرير ظاهرى للانسحاب ، إحساس الإمام يحيى بأهمية القوة التى تصاحب أحمد فيضى باشا ، وأنه يمكنه أن يحاصره مع قواته داخل صنعاء ، وأن يقضى عليهم جميعًا نهائيًا ، ولذلك أسرع بالانسحاب والالتجاء إلى الجبال الشمالية للتحصن بها .

لم يهدأ الحال عند استرجاع صنعاء ، بل كان أمام فيضى باشا مرحلة طويلة ليتمكن من السيطرة على الأمور فى اليمن ، فما زالت بقية الهضبة الشمالية فى يد الإمام ، وما زالت القبائل تعلن تمردها هنا وهناك ، لذلك خرج فيضى باشا من صنعاء يريد إخضاع بقية الهضبة . وهنا اتبعت القبائل التابعة للإمام حركات عسكرية « فابية » فكانوا ينسحبون باستمرار ، فيتبعهم فيضى باشا بغية القضاء عليهم ، ولكن كان ذلك يبعده عن مراكزه الرئيسية فى

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

صنعـاء وفى الساحل ، وكـانت القبـائل تـريد أن تقطع صلتـه بصنعـاء وتفنى الجيوش العثمانية بين الصخور الصماء التى لا يعرف مسالكها أحد غيرهم.

وفعلا نجحـت الخطة ، واضطربـت نظم الفرق العثمانيـة ، ونتيجة المرض والإجهاد وقلة الإمدادات تلاشت معنوية الجنود تدريجيًّا فكان النصر (الحقيقى) حليف العرب . وعنـد عودة فيضى بـاشا إلى صنعـاء قابلـه الإمام بقـوة أخرى ، فعرج فيضى باشا على « عمران » ووصل إليها بعـد خسائر فادحة وبعد أن فقد أكثر من نصف جيشه ، ولكنه قام بمجهـودات مضاعفة حتى استطاع أن يرجع إلى صنعاء ، حيث كانت القبـائل قد التفت حولها ثانيـة وحاصرت الحامية التى تركها فيها[1] .

ولكن فيضى بـاشا على كل حـال ، وعلى الرغم ممـا لاقاه فى حـروبه ، قـد استطـاع أن يستولى على المدن الهامـة التى تحت سيطـرة الإمـام ومنها « شبـام » و«كـوكبان » و « عمـران » و « حجة » وغيرهـا ، ولكنـه فشل فى زحفه على بـلاد «شهارة »[2] .

المفاوضة مع الإمام :

كانت هـذه العمليات الحربيـة الكبيرة المستمرة ، تكلف الـدولة كثيراً من المال والـرجـال ، فضـلا عن أن قضيـة اليمن كـانت تشغلهـا عن المشكـلات الأخـرى الكبيرة الخاصة ببـاقى الإمبراطوريـة العثمانية الـواسعة . لـذلك لجأت الدولة إلى طريق المفاوضة ، وهى فى هـذا تكرر أعمالها السابقة من حرب وثورات إلى هدنـة ومفاوضـة ، كما ذكرنـا من قبل - وستكرر ذلك مـرات أخرى ممـا يدل دلالة واضحة على عجـزها فى معالجة شئون اليمن . وعلى هـذا أرسلت الحكومة وفـداً لعقـد الصلـح مع الإمـام ، فقـدم الأخير شروطًـا معينـــة نحب أن نثبتهـا

---

(١) الجرافى : المتقطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٢) Jucob ; Kings of Arabia , p 111.

كاملة ، حتى تكون أمام أعيننا جميعًا ، لنعلق عليها ونستخرج منها ما نشاء.

وقد ذكر لهذه الشروط مقدمة ، كما ذيلها بمؤخرة فيقول :

« وافقت مستمداً بعون الله على شرط الصلح ما بينى وبين مأمور سلطان الإسلام ، الذى أدعو الله أن يؤيد ملكة لإطفاء نار الحرب الموقدة ، وأن تستبدل الفوضى والعداوة بالصداقة ، لتسلم البلاد من القلاقل وتحقن الدماء ، وتزول المحن من هذه البقعة ، ويستتب الأمن ويربط المؤمنون برباط الإخاء التى لا انفصام لها ، ويرتفع الظلم من بينهم :

١- أن تطبق الأحكام وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء .

٢- أن يعود إلى الإمام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم .

٣- أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالإمام .

٤- أن تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كى لا تدفعهم قلة ذات اليد إلى الارتكابات (أى ارتكاب المعاصى) .

٥- أن تحال الأوقاف إلى عهدة الإمام لإحياء المعارف فى البلاد .

٦- إقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين والإسرائيليين كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله والتى أبطلها المأمورون الترك كأنها لم تكن شيئًا مذكوراً .

٧- يؤخذ العشر من المزروعات التى تسقى بماء السماء ، وأما التى تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك أرباب الخبرة ، وإذا حصل خلاف يرجع إلى الأصول التى وضعها عبد الله بن رواحة فى « الخرص » ويؤخذ عن البقر والغنم والإبل النصاب الشرعى ، وأما الأراضى التى تغل مرتين أو ثلاثة فيؤخذ عنها نصف العشر أو ربعه ودفع ما سوى ذلك من التكاليف .

٨- جباية الأموال المار ذكرها تكون بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة ، وإذا تجاسر أحد على أخذ زيادة عن التكاليف المار

ذكرهـا فعزلـه أو تحديد الجزاء لـه راجع إلى الإمـام - ولا يكون لـلإمام علاقة بقبض الأموال الأميرية .

٩ - تعفى عشائر حاشد وخولان والحدا وأرحب من التكاليف .

١٠- يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون إليه .

١١- إعلان العفو العام فى البلاد كى لا يسأل أحد عن ماضيه .

١٢- أن لا يولى أحد من أهل الكتاب على المسلمين .

١٣- أن تشمل أحكام هذه المواد المار ذكرها صنعاء وتعز وملحقاتها .

١٤- أن لا تتدخل الحكومة فى شئـون « آنس » ولا تعارض الإمام فى تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانـه وقلة حاصلاتهم ، ولما يخشى من وقوع محظور فى مخالفة مأمورى الحكومة لهم .

١٥- أن تكـون المحافظـة على هـذه البلاد من تعـديـات الدول الأجنبيـة راجعة للدولة العلية .

وقد ختم الإمـام هذه الشروط بـالمؤخرة التـالية « إن تنفيـذ هذه الشروط فى البلاد اليمنية يكون سببًا لسلامة الأفـراد البشرية وترقى البلاد وإحيائها ، فيظهر الأمر بأبهى مظاهـره ويحصل منه خير كثير . ولا يخفى أن البعض يستفيدون من كثرة سوق العسـاكر إلى البلاد اليمنية ، إذ لا يخلـو ذلك من الفائدة المادية لهم ، ولعلهم لا يـرضـون بهذه الشروط لأن بـاتبـاعهـا يستتب الأمن وينقطع ورود العساكر إلى هذا القطر ، فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون . لذلك أطلب صدور فرمان سلطـانى يتضمن قبول الشروط المار ذكرها ، كى يطمئن اليمانيـون وترتاح قلوبهم ، ولا يعترضنى المأمورون فى إجراء الأحكـام التى تخولنيها الشروط وإحالة إدارة البلاد الشرقية التـى تشابه بلاد (آنس) إلى عهدتـى » . مؤرخ فى ١٣ صفر ١٣٢٤[1] (أبريل ١٩٠٦) .

---

(١) الوسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٠٧-٢٠٩ .

ونحب قبل أن نعلق على الشروط المقدمة من الإمام لإقرار السلام فى اليمن أن نذكر تعليقًا لرحالة عربى زار اليمن على هذه الشروط نفسها بعد أن أثبتها فى كتابه توضيحًا لأهميتها قبل أن نتناولها نحن بالتعليق ، يقول :

« وقد أثبت شروط الصلح ههنا لسببين : **الأول** : ليعلم القارئ الكريم أن جلالة الإمام يحيى لم يكن متعنتًا فى طلباته ولا أراد المحال ، وأنه وضع هذه البنود لتكون ميثاقًا قوميًا لليمن . **والثانى** : لأن حكومة الإمام المتوكلية الحالية (يقصد الإمام يحيى) طبعًا قد اتخذت هذه الشروط دستوراً لحكمها ، وهى اليوم تسير فى جميع أعمالها بموجب هذا الدستور ولا تخل به فى شىء »[1] .

ومهما يكن موقفنا من هذا الرأى المبالغ فيه والذى سنناقشه فيما بعد ذلك ، فإننا نحب أن نوضح هنا بعض النقاط :

١- هذه الشروط توضح بجلاء موقف الإمام من قضية الاعتراف بالسيادة العثمانية على اليمن ، فهو يعلن رأيه بصراحة وخاصة فى المقدمة . وهذا يجعلنا نؤكد ما ذهبنا إليه فى الفصل الأول من موقف الأئمة من السيادة العثمانية ، ونرفض الرأى القائل بأن الإمام يحيى لا يقبل هذه السيادة .

٢- توضح هذه الشروط مطالب الإمام من وراء هذه الحروب القاسية المستمرة .

٣- أن هذه الشروط معظمها تنظيمية إدارية توضح وجهة نظر الإمام فى طريقة استتباب الأمن فى اليمن ، وفى حل قضيته المزمنة التقليدية .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ١٥٨-١٥٩ .

٤- الصبغة الدينية واضحة جداً فى الشروط سواء فى الشكل أو فى الجوهر وهذا يدل على عقلية الإمام وطريقة تفكيره .

٥- هاجم الإمام السياسة العثمانية الإدارية فى اليمن ، وأن شخصية «المأمورين» أنفسهم هى أسباب إثارة هذه الحروب . ورغب فى إدخال بعض التعديلات على النظام الإدارى ، حتى يرتفع سبب الشكوى المستمرة والحروب الدائمة . ومن اقتراحاته فى هذا الخصوص : رفع المرتبات ، العزل ، فرض الجزاءات ، المراقبة ، وغيرها .

٦- رغم أنه طلب لنفسه بعض الحقوق فى الشئون الداخلية - إلا أنه سلم تمامًا بحق السلطنة فى إدارة الشئون الخارجية للولاية ، وحقها فى الدفاع عنها .

٧- اعتبرت الدولة مطالب الامام انتقاصًا لسيادتها ، وسيكون هذا سببًا لرفض هذه الشروط وعودة الحرب مرة أخرى . وفعلا لم يقدم الإمام هذه الشروط لإرشاد الدولة إلى ما فيه صلاح اليمن وسلامتها فحسب ، بل لقد جعل لنفسه بعض الحقوق والمطالب ، مما يدعونا إلى القول إنه لم ينسَ نفسه ومصالحه أثناء الحروب الطويلة .

٨- يجب أن نلاحظ أن هذه الشروط ستكون دوامًا هى المحور التى تدور حوله مفاوضات المستقبل وشروط الصلح ، وهذا هو سبب أهميتها .

٩- يمكن أخذ هذه الشروط حجة على الإمام نفسه لمناقشته الحساب على ضوئها ، وملاحظة موقفه منها على مر الأيام طوال فترة حياته .

تجدد الثورة وحضور وفد مكة إلى اليمن :

فشلت المفاوضات ورفضت هذه الشروط ، ونحن نميل إلى القول أن سبب ذلك هو أن السلطنة كانت تعتبر هذه الشروط انتقاصًا لسيادتها

- كما سبق أن أشرنا - وخاصة أن السلطان عبد الحميد الثانى كان هو الذى يتولى السلطنة حينئذ ، وهو الذى عرف بمحاولاته الصريحة العميقة لتركيز السلطة فى يده ، والقضاء على مناوئيه ، وعلى أية شخصية تريد أن تحدد سكانها أو تقيم نفسها داخل ملكه العريض . وإن كان من بين الأسباب أيضًا « أن الموظفين الذين أنيط بهم عقد الصلح لم يخلصوا نيتهم وخدعوا حكومتهم لشىء فى نفوسهم ، فوقعت الحرب ثانية وحصلت معارك تشيب من هولها الأطفال فى « خولان » و « البيضاء » و « سنحان » و « رجام » و « ذمار » و «حجة » و«آنس» وغيرها[1] .

عادت الحكومة تحاول مرة أخرى الاتصال الشخصى بالإمام ، وتطرق باب المفاوضات ويمكن تفسير هذه المحاولات بأمرين :

أولا : أن السلطان يحتاج فى واقع الأمر استتاب الحال فى اليمن ، وحل قضيته نهائيًا .

ثانيًا : أن السلطان لا يفهم حقيقة الأمر فى اليمن ، ولذلك يرسل الوفود إلى هناك للمفاوضات ، وتقريب وجهات النظر ، والوقوف على الأسباب الحقيقة لهذه الثورات .

ولهذا أرسل السلطان فى منتصف عام ١٣٢٥هـ (سنة ١٩٠٧م) وفداً من كبار علماء مكة ، وذهب إلى صنعاء « وكتبوا مكتوبًا معناه النصيحة وترك القتال والحث على الصلح »[2] . فرد عليهم الإمام فى خطاب طويل يعرض فيه وجهة نظره فى قضية اليمن ويشرح مطالبه وأغراضه ، ويقدم بعض الاقتراحات لإنهائها (انظر ملحق ١) .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ١٥٨ .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢١١ .

كتب الإمام لخطابه مقدمة طويلة بدأها بـالبسملة والسلام على رسول الله والثناء عليـه ، ثم أخذ يشرح أهميـة الدين الإسـلامى فى تنظيم الحيـاة البشرية ، ودور الرسـول الكريم فى تبليـغ الرسالـة وهدى النـاس ، ثم يعرض كيـف كان الـدين سببًا فى رفعـة شأن المسلمين وقـوتهم ولكنهم تخاذلوا فضعفت شـوكتهم وتفرقت كلمتهم - حتى ظهرت الـدولة العثمانية إلى الوجـود « ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين » . ثم يعرج الإمام بعد ذلك إلى التنويه عن دور أسلافـه فى تاريخ اليمن الذين حكموا اليمن « من المائة الثالثـة إلى التاريخ » (يقصـد تاريخ كتابـة خطابـه) وأن هذا ليبرهن على أحقيته فى حكم اليمن - حيث إنه مـن سلالة الرسول - فضـلا عن فخره بدور آبائه وأجداده ، بل ذكر أن أهل اليمن هم الـذين يتمسكون بهذه السلالة وذلك لـرغبـة أهل اليمن فى أن يحكمهم سـاداتهم وأولاد نبيهم رضى الله عنهم .. بعـد ذلك يعـرض العلاقـات العثمانيـة اليمنية وخـاصـة منذ الفتح العثمانى الثـانى لليمن ، ثم يتوسع فى شرح دور أبيـه المنصور وكيف أنه ثـار ضد مفاسـد الولاة وظلمهم ، ثم يتكلم عن دوره هو وأنـه استمرار لدور أبيـه ، لأن ظلم المأمورين مازال يتضاعف مـن عام إلى عام ، « وتنوعهم فى المعاصـى وارتكاب الشهوات ظاهراً بلا حياء ولا احتشام » بل ويشير إلى اتفاقه مع فيضى باشا السابق ولكن الأخير ينقض هذا العهـد ويزداد قسوة فى محاربته لـلإمام وأتباعـه ، حتى اضطر هو أن يصـد عن نفسه « وكان مـا كان » وهو بهذا يـوضح أنه مظلوم ، وأنـه هو المعتدى عليه ، وأن الولاة يثيرون عليـه غضب السلطان « ويستنجدون منه (من السلطان) الأجناد المترادفة والأموال المتكـاثرة ، ويشيرون باستئصال أهل البيت النبـوى والدين المصطفـوى ، وينسبوننـا عنـدهـم إلى الخوارج والرافضـة ، وربما يخرجوننـا عن دائرة الملة المحمدية . لا والله مـا لنا مذهب غير ما كـان عليه خير القـرون ، والسلف الصـالحون ، وإنـا لنبرأ إلى الله من الخوارج والـروافض وأهل البدع المحـدثة ، والمأمورون يعرفـون ذلك منا ، لكنه حداهم على ذلك مـا جبلوا عليه من حب جمع المال من غير الوجه الحلال ، ولا يتسم لهم ذلك إلا باستمرار القتال والتنقل من حـال إلى حال » بل هو يصف للـوفد فى خطابـه خلق الولاة

الشخصية ويحثهم على التطلع إلى هـذه الأشياء كلهـا ومراقبتهـا فيقول : « وهـم على اللـذات والشهـوات عـاكفـون ، وعلى التفنن فى الفجـور يتنـافس منهم المتنافسون ، فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجحدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير جامع ، وتعرفهم الكئوس والأقداح ، وتصافيهم ربات القدود الملاح ، وكل هذا بين واضح سترونه عيانًا إن لم يضرب عنكم الحجاب وتوصد الأبواب » وهو بهذه العبـارة الأخيرة « إن لم يضرب عنكـم الحجـاب وتـوصـد الأبـواب » يثير ملاحظة جـديرة بالاهتمام وهى أن الولاة كانوا يتعمـدون دائمًا إخفاء الحقائق فى اليمن عن الـوفـود والـرسل التى تأتى إليـه لاستطـلاع الأحـوال للـوقـوف على الحقيقة، ويؤكد هذه الظاهرة ويعرضها بالتفصيل فيقول « وكلما خرج أحد منهم (من الـرسل) تلقـاه المأمورون بـالإحسـان وأدخلوا عليـه من يتكلم بمـرادهـم وحالـوا بينه وبين ما هو مأمـور بإمضائه وسيكون ذلك أو نوع منـه معكم أو قد كان حتى أرسلنا كتبًـا عديدة إلى الباب العالى من طرق شتى لم يعـود (يعد) لنا جـواب رأسًا لاحتفـال المأمورين بـردها عن ذلك البـاب » . ويختم كتابـه أخيراً بتمنياتـه أن ينجح وفد مكـة فى مهمته « إنما نمـد إلى الله أكف الابتهال أن يجعل على أيديكم جبر كسر اليمن الميمون ، وأن يقذف فى قلب سلطان الإسلام الرأفة والرحمة » . وقـد كتب الإمام هذا الكتاب فى ١٨ شعبـان ١٤٢٥ هـ[١] (أكتوبر ١٩٠٧).

هذا هـو رد الإمام على وفـد مكة ، وهـو دون شك يحمل فى طياتـه الصورة التى حاولنـا رسمها لـلإمام ، والتى عـرفنا بعض خطـوطها العـامة من الشروط السابقة الذكر ، المقدمة منه لإتمام الصلح بينه وبين فيضى باشا . فهذا الخطاب يكمل فى الحقيقة تلك الصـورة ، ويبرز الموقف الذى أراد أن يلتزمه تجاه الـدولة العثمانية على اليمن ، ورغبته فى أن يعترف العثمانيون بوضع خاص له . لكن هذا الخطـاب لم يقدم أو يـؤخر كثيراً فى حل القضيـة اليمنيـة . لكن هذا الخطـاب لم يقدم أو يـؤخر كثيراً فى حل القضيـة اليمنية . واستمرت الأوضـاع مجمدة على ما هى عليـه ، فكل يحتفظ بما تحت يـديـه ، إلى جـانب المنـاوشـات التى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢١١-٢١٨ .

تحدث هنـا وهنـاك . وسبب ذلك أن العثمانيين لم يسيطـروا على الموقف تمامًـا فى اليمن ، كذلك كان الأمـر بالنسبة للإمام . بل وقـامت السلطنة بعد ذلك بعمل إيجابى ، كحل جـزئى لقضيـة اليمن . ففى سنة ١٣٣٦هـ (١٩٠٨م) عـزلت أحمد فيضى باشا والى اليمن لموقفه المعروف من اليمنيين ، وعينت بدلا منه حسن تحسين بـاشا واليًـا على اليمن « وقد صلحت فى أيـامه أحـوال اليمن ، وسكنت الفتن ، ولم يتعـرض الإمـام وشيعتـه وأعوانـه بأذيتهم وحصل بينـه وبين الإمـام صلح[١] ، وأن لا يعتدى أحد على الآخر كل فى جهته »[٢] .

الرسل اليمنيون إلى السلطان العثمانى :

وكان هذا العمل - وهـو عزل فيضى باشا وتعيين تحسين باشـا بدلا منه - عملا حكيما ، إذ كان الأمر فى اليمن يحتاج إلى تهدئة عـامة ، فكان لا بد من هذا التغيير . ونجح تحسين بـاشا فى القيـام بالـدور المطلـوب منه فـاعترف بالـوضع الخاص للإمام داخل الولاية - رغم أن هذا كان يعنى ضمنًا وجود « دولة داخل الدولة » و « انتقاصًا للسيـادة العثمانية » . ولكن كان لا بد من هذا العمل حتى تتمكن الدولة من الوصول نهائيًـا إلى إقرار الأمن فى اليمن . وقد أرسل السلطان فى السنة نفسهـا يطلب وفداً مـن كبار رجـال صنعاء ، من سـادة وعلماء وأعيان «ليتكلموا فيما يصلـح اليمن ففرح النـاس بذلك » . وصل الـوفد إلى استـانبول ومكثوا بها مـدة طويلـة حتى استطـاعوا مقـابلة السلطـان عبد الحميـد ولم تدم المقابلـة إلا حوالى عشر دقـائق . ويرجع ذلـك أساسًا إلى فشـل الوفـد فى عرض القضية التى أتـوا من أجلها ، إذ كـان الوفد يختلف أسـاسًا فيما بينـه وبين نفسه حـول أكثر من نقطـة . فمثلا لم يكـونـوا متفقين على كيفيـة حل أزمـة اليمن ، فالبعض يذهـب إلى أنـه لا بد من اسـتعمال القـوة لإنهائهـا ، ويرى البعـض الآخـر أنـه لا يمكـن أن تهدأ الحال فى اليمن إلا بـالطـرق السلمية والـرجـوع

---

(١) يقصد « مهادنة » إذ إن الصلح النهائى لم يحدث إلا بعد ذلك .

(٢) الـواسعى : تـاريخ اليمن ، ص ٢١٩ ، العقيلى : من تـاريخ الخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الأول ، ص ٥٢٧ .

إلى الشرع . ولم ينقسم الوفد على نفسه حول كيفية حل أزمة اليمن فقط - بل اختلف أفراد هذا الوفد حول الغرض من حضورهم إلى استانبول أيضًا .

فكان القليل يدرك حقيقة الغرض ، وهو عرض قضية اليمن عرضًا سليما يخدم به المصلحة العامة ، ولكن أكثرهم كان يرى أن المثول أمام السلطان فرصة لا تعوض لنيل مطالب خاصة ، كالحصول على مراكز معينة فى الدولة أو الشكوى من أمور تمسهم هم أنفسهم . وهكذا فشل وفد صنعاء ، وعاد مباشرة بعد هذه المقابلة إلى اليمن أو بالأحرى أرجعهم السلطان مباشرة بعد أن قابلوه .

ولكن السلطان عاد فكلف الوالى أن يرسل وفداً آخر من أهل اليمن من رجال الإمام خاصة لا من أهل صنعاء كما كان الأمر فى المرة السابقة ، ولكن الوفد الأخير رجع أيضًا بخفى حنين بعد أن مكث مدة طويلة فى الآستانة وفشلت محادثاتهم الطويلة لعدة عوامل سنعود إلى شرحها ، كان من ضمنها ما أبداه بعض رجال الدولة هناك من أن « إقامة الحدود فى اليمن خاصة يخل بالقانون الأساسى (أى الدستور) فى جميع الولايات العثمانية »[١] .

لم تستمر هذه الحالة الهادئة - إلى حد ما - طويلا ، فقد عزل الوالى حسن تحسين باشا ، وقد حزن أهل اليمن عمومًا لعزله ، وتوجه وفد إلى الآستانة على رأسه السيد محمد على الأهدل للمطالبة بإرجاع تحسين باشا إلى منصبه فى اليمن[٢] . ويجب أن يتضح أمر هام خاص بهذه الفترة الهادئة نسبيًّا وهو أنها لم تكن وقفًا على اليمن ، بل كانت عامة شملت أغلب الإمبراطورية العثمانية وخاصة العالم العربى . ويرجع السبب فى ذلك إلى قيام ثورة سنة ١٩٠٨ - التى تكلمنا عنها فى الفصل الأول - وإلى إعلانها الدستور ورغبتها فى تطبيق مبادئ جديدة ، وإلى محاولتها الالتقاء بعناصر الإمبراطورية لحل المشكلات المعلقة . وسرعان ما انتهت هذه الفترة عندما اتضح ميل الاتحاديين

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٢٣ الصادر فى ٩/ ٣/ ١٩١٠ (٢٦ صفر ١٣٢٨) ص ٢ .

إلى تطبيق « المركـزيـة » وإلى « تتريك » عنـاصر دولتهـم ، وهنـا تجددت المنـازعـات بين العـرب والترك بشكل أعنف وأعمق ، خـاصـة وأن الخلاف بين العـرب والسلطان قبل انقـلاب ١٩٠٨ كان حـول مفاسـد الحكومـة وولاتها أو ماشـابه ذلك ، ولكن الخلاف بينهما بعد هذا الانقـلاب كان حول مبدأ هـام هو «تقرير المصير » فـالعرب يحاولون التمسك بذاتهم المتميـزة ، وقوميتهم الخاصة ، والأتراك يعملون على محاربة هذه النزعـة ، وعلى إذابة العناصر العثمانية المختلفة فى بوتقة الجنسية التركية .

تولى كامل بك متصرف « تعز » أمر الـولاية بعد حسن تحسين باشا ، ولكنه لم يستمر فى الـولاية أكثر من ستـة أشهر ، وتـولى فى نفس السنة فى جمادى الأول سنة ١٣٢٨هـ (يونيـة سنة ١٩١٠) أحـد رجالات الاتحاديين وهـو محمد على باشا الذى كـان مخلصًا لمبادئه ، والذى حضر إلى اليمن تنفيذاً لسيـاسة خاصة ، وهى القضـاء على كل منـاوأة وكل تمرد فى اليمن سـواء من الإمـام يحيى ، أو من السيـد الإدريسى فى عسير . واتبع سيـاسـة العنف والطـرق العسكريـة ، وهنـا تجددت الثورات والحروب فى اليمن ثم عـزل محمد على بـاشا ، وتـولى بعده أحمد عزت باشا الذى تمكن من عقد صلح « دعان » عام ١٩١١ .

الفصل الثالث

أحداث اليمن بعد ثورة سنة ١٩٠٨

ظهور محمد الإدريسى فى عسير :

قبل أن نتكلم عن أحداث اليمن عند الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، يجب أن نتناول الوضع فى عسير ، وذلك لعدة أمور ، منها أنها الجارة المباشرة لليمن بل كانت تعتبر جزءاً منه - على الأقل - حسب التقسيم الإدارى الذى وضعه له العثمانيون فى هذه الفترة - وخاصة بعد ظهور الأدارسة فيها ، ولما لعبوه من دور هام ضد العثمانيين ، سواء فى فترة تفاهمهم مع الإمام يحيى أو فى فترة حروبهم معه .

يرجع تاريخ ظهور الأدارسة فى عسير إلى وقت وصول السيد أحمد الإدريسى إلى صبيا . وهو أحد رؤساء الطرق الدينية ، وكان قبل ذلك مقيما بمكة منذ سنة ١٧٩٩ واعظًا ومرشداً إلى طريقته الأحمدية . وقد أقام فى « صبيا » إلى أن توفى سنة ١٨٣٧م ، واستطاع أثناء إقامته فيها نشر تلك الطريقه الخاصة به . وقد خلف السيد أحمد لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة ، إذ عاشت أسرته من بعده تتمتع بنفوذ وسلطان عريض يعتمد أساسًا على قبره الذى اعتبر مزاراً من بعده ، فظلت أسرته يحفها هذا الإجلال الدينى العميق مما أكسبها مكانة خاصة[1] . وقد عبر هوجارث عن دور السيد أحمد الإدريسى فى رفع شأن أسرته فى عسير فقال : « .. واستقر أخيراً فى صبيا تحت حكم أشراف أبى عريش ، واعتبر وليًّا من الأولياء المحليين عند وفاته سنة ١٨٣٧ ، وترك ابنه وحفيده يحصلون على الثروة والنفوذ من وراء أهمية قبره الكبيرة »[2] :

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ص ٤٢ .

(٢) Hogarth ; Arabta, p. 120 .

أما السيد محمد بن على بن أحمد الإدريسى - وهو الذى استطاع أن يستغل هذا النفوذ الروحى لأسرته ويطالب لنفسه بنفوذ زمنى سياسى ، أو بمعنى آخر هو الذى سيجعل للأدارسة خطورة سياسية يخشاها العثمانيون ، ويجعلهم يرسلون القوات الكبيرة لمحاربته والقضاء عليه - فقد ولد فى صبيا سنة ١٨٧٦ وتلقى تعليمه ما بين الأزهر « بالقاهرة » و « الكفرة » ، مقر السنوسيين فى برقة ، كما ذهب إلى السودان ثم عاد إلى « صبيا » فى أوائل القرن العشرين . وقد أصبح رجلا ناضجًا واسع الأفق واسع الاطلاع بعد هذه الجولات الواسعة وبعد زيارة المراكز الإسلامية الهامة . وترجع بداية ظهوره - كشخصية قوية لها خطورتها - فى أفق عسير ، إلى سنة ١٩٠٧[١].

عندما عاد السيد محمد على الإدريسى إلى صبيا كان مصممًا على استغلال ثقافته الواسعة وقدرته الإدارية على ترقية أتباعه ورفع شأنهم والعمل على سعادتهم لهذا بدأ يجذب إليه أنظار القوى التى يعنيها أمره ، وهى أولا قبائل المنطقة ، وقد أخذت تهتم بأمره عند بداية ظهوره كثيراً بل اعتبروه أحد رجال الدين العديدين أو المتصوفين الذين سرعان ما تنطفئ نجومهم . أما الشريف حسين أمير مكة فقد تجاهله واعتبره « حديث نعمة» سينتهى أمره سريعًا ، وخاصة أن الشريف كان له بعض النفوذ الأسمى - على الأقل - على قبائل المنطقة . أما الإمام يحيى فى اليمن نفسه ، وكان الإمام يحيى ينظر إلى عسير على أنها جزء من اليمن ، كما أن الإدريسى كان قد استطاع نشر دعوته خارج المخلاف السليمانى ، فامتد شمالا وجنوبًا ، حتى إن بعض القبائل المنتشرة حول صعدة اعتنقت تعاليم الإدريسى . ولذلك رأى الإمام يحيى أنه من المفيد

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 70.

أن يـرحب بالتحـالف مع الادريسى وذلك لحمايـة مـؤخرتـه عنـدما يضطـر - الإمام- إلى مهـاجمة الأتراك فى صنعـاء ، وتجبره العمليات العسكـرية بينـه وبين الأتراك إلى الزحف جنـوبًا من معاقله فى شمال الهضبـة اليمنية . ولهذا سيتقارب الاثنان ويتحد عملهما المشترك ضد العثمانيين وإن كان لفترة محدودة[١] .

الأوضاع الداخلية العامة :

أما عن الوضع العام هناك فقد استعرضنا قبل ذلك كثيراً من مظاهر الحالة فى اليمن ، وعـرفنا كثيراً مـن أسباب الاضطـراب ، وأرجعنـا بعضها إلى عـوامل خاصة باليمن مثل جغرافيته وأحوالـه الاجتماعية ، وعوامل خاصة بطبيعة الحكم العثمانى مثل ضعف القـوات هناك وفسـاد الولاة والموظفين ، ومثل عـدم تمكن الأتراك من القبض على زمام الأمور فى كل اليمن ، مما كان يعطى الفرصة للإمام يحيى أو السيـد الإدريسى لـلاتصال بـالقبـائل وجـذبها نحوهما وإثـارتها ضـد العثمانيين وقلنا إن هذه العوامل كلها جعلـت اليمن بما فيها عسير فى حالة ثورة وفوضى مستمرة . وقد استمرت هذه الحالة المضطربة بعد ثورة ١٩٠٨ ، وبعد أن أفصح الاتحاديون عن حقيقـة سياستهم وقد عبر أحد أشراف اليمن فى مقـالة له فى الأهرام عن هذه الحالة فقـال : « اليمن الآن ليس دار توطن بل هو دار حرب وقتال بين هيأتين تديـران أمورها ، وأهاليها ضياع بين الهيأتين لا يعـرفون إلى أية حكـومة يـرتكنون ، حكـومة الإمـام أو الـدولة العليـة ، كلا الحكـومتين تقبض العوايد الشرعية والعرفية فتراهم فقراء خـائفين .. وفى كل قضاء وناحية مدير أو حاكم ، ومن لـدن الإمام أيضًا عامل وحـاكم ، وللدولة محصلون للمال يطـوفون القرى للتحصيـل ، ولـلإمـام قبـاضـون فى كل قـريـة »[٢] ثم أخـذ يعـدد

---

(١) Hogarth; Arabia , P. 121 .

(٢) الأهرام : العدد . ٩٤٧ الصـادر فى الخميس ١٣/ ٥/ ١٩٠٩ (٢٣ ربيع الثانى ١٣٢٧) ص ١ .

سوء حالة الولاة الحكوميين وأنه يجب تغييرهم وأن نور الدستور لم يصل بعد إلى اليمن ، وإن كان فى نفس المقالة كثير من الدفاع عن الترك وأنهم طيبون يحبون الخير للأهالى .

وعبر الإدريسى نفسه أيضا عن هذه الحالة وأسبابها ، وذلك فى خطاب خاص أرسله لأحد أصدقائه فى مصر وهو مؤرخ ٩ رجب سنة ١٣٣٧ هـ (يولية ١٩٠٩) وكانت المعارك مستمرة حينئذ بينه وبين القوات العثمانية وفى هذا الخطاب ينفى عن نفسه الإشاعات التى تطلق حوله وخاصة ما يقال عنه إنه يدعى « المهدية » بل يؤكد أنه حريص على « ائتلاف العرب والدولة » ثم يستعرض تاريخ وجوده فى عسير فيقول « إن الفوضى كانت ضاربة أطنابها فى هذه البلاد عند وصوله إليها ، وأن الإنسان كان لا يأمن على حياته ، بل وصل الحال إلى درجة أن الإنسان لا يولع (يضىء) سراج بيته بالليل مخافة من عدو يراقبه فيبصره على النور فيضربه بالرصاص » . ويواصل الإدريسى حديثه عن علاقات القبائل بعضها ببعض وعن استمرار الحروب بينها فيقول : « إن القبائل تطاولت على الحكومة نفسها وعلى القوات العثمانية » . بعد ذلك يشير إلى المجهود الذى بذله فى إصلاح أحوال القبائل وإقرار العلاقات بينها على أسس شرعية سليمة . وأن نجاح أغراضه ، حتى فكر فى الخروج للحج على ألا يعود إلى عسير بل يذهب بعدها إلى مصر هربًا من المصاعب الجمة التى يجدها بين هؤلاء البدو ، وتجنبًا لهذه العلاقات القبلية الفاسدة . إلا أنه رغم ذلك كان يحس ببداية تعلق الناس به والتفافهم حوله « والناس يسعون إلى بابى أفواجًا أفواجًا ، لتلقين الذكر ، والتزام الطاعة الواجبة ، والتوبة مما هم عليه والامتثال لما يقربهم من الله » وأخيرا يرجع الإدريسى سبب الاضطراب القائم فى عسير إلى وجود أشخاص :

« .. لا يرتاحون إلا إذا كانت فيه فتنة بين الدولة والعرب لأجل - مع تجهيزات الدولة - يتكسبون مالا بخدمة العساكر ، والأمر الثانى أن بعضًا

ممن يريدون مخاذلـة رعية الدولة حتى يستولـوا على البلاد بسياستهم التى تخفى عليكم (يقصـد صـديقـه فى مصر) ومع حـالتنا هـذه انتظمت البـلاد وفـات الغرض . ثم إن هؤلاء الوشاة لم يقف بهم الحال حتى يتهمونى بدعوة « المهدية » للاستخفاف بنا و إغضـاب الدولة »[1] وتمنى فى نهاية خطـابه أن تعرف الـدولة المفسد من المصلح وتتحقق الصديق من العدو[2] .

لكن نحب أن نقول ملاحظة هـامة عن سير الأحداث فى اليمن وعسير فى تلك الفترة . وهى أننـا لا نستطيع فى الحقيقـة تتبع مجريـات الأمـور فى سلسلـة تاريخية واضحة ومعرفة الحقيقة بين هذه الأحداث المضطربة القلقة وذلك لسبب هـام ، وهو أن الحكـومـة العثمانيـة كانت لا تسمـح بتسرب أخبار الجنـوب إلى الخارج ، كما لا تسمح بوجود مراسلين يوافون صحفهم بأخبار الحرب فلم يظهر من هذه الأحـداث الدامية فى الصحف إلا إشـارات قليلة ، كما كانت الحكـومة تعمـد إلى التصريحات الـرسميـة لتطمس بها الحقـائق . ولم يصـاحب الجيـوش العثمانية الـوافدة إلى اليمن مراسلـون حربيـون ، وكان الترك يتعمدون هـذا كله ويرضون به تمام الرضى ، فكم كانوا يتمنون أن يبقى العالم جاهلا بهذه الأحداث وأن يتركوا بمفردهم يتصرفـون فى اليمن كما يريدون[3] . ويؤكـد ذلك « الأهرام » نفسهـا بأنه لا يمكن الاعتماد على الأخبـار الواردة من هـذه الجهات لاضطـرابها وتناقضها مع بعضها[4] ، إلا أن هناك بعض الحقائق التى تؤكد شدة الاضطراب والفوضى فى اليمن وعسير فى هـذه الفترة ، فقد أرسلت حكومـة إيطاليا مـذكرة

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٥٦ ، السبت ٢١/٨/١٩٠٩ (٥ شعبان ١٣٢٧) ، ص ١ .

(٢) يلاحظ فى كتابتـه الصبغة الإسلامية البحتة فغير المقدمة والمؤخـرة ذات الأسلوب الدينى التقليدى نجده دائماً يطلق على نفسه « الفقير إلى الله » و « الحقير » وغيرها .

(٣) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. V (The preface).

(٤) الأهرام : العدد . ٧٩١ ، الثلاثاء (٢٢/ ٢/ ١٩١٠) ١١ صفر ١٣٢٨ ، ص ١ .

إلى الباب العالى تطلب منه اتخاذ الوسائل اللازمة لحماية رعاياها فى الحديدة وسائر الأنحاء الأخرى[١] .

موقف الرأى العام التركى بعد سنة ١٩٠٨ من قضية اليمن :

عرفنا قبل ذلك العوامل التى تدفع الإمام يحيى إلى الثورة . ونحب الآن أن نستعرض موقف الأتراك - حكومة وشعبًا - من قضية اليمن - بعد أن عرفنا موقفهم العام من قضية العرب عمومًا - وذلك قبل أن نتتبع الأحداث العنيفة هناك التى أدت إلى صلح دعان سنة ١٩١١ بين الإمام يحيى والحكومة العثمانية.

كان للأتراك - حتى غير الرسميين - مواقف عدائية صريحة ضد قضية اليمن ، أو بالأحرى ضد قضية العرب بوجه عام ، إذ كان الاتجاه الصاعد حينئذ عند الأتراك هو التتريك والمركزية كما قلنا ، لذا نادوا بهذه الآراء العدائية وصرحوا بها اعتقاداً منهم أنها وسائل فعالة لحل قضية اليمن . بل من الغريب أن يصل حد تفكير هؤلاء الأتراك إلى درجة اعتبار الولايات العربية بما فيها اليمن ، مستعمرات يمكن أن تقارن بالمستعمرات الإنجليزية والفرنسية . فيقول أحد هؤلاء الغلاة فى مقالة نشرتها جريدة « سنجاق » التركية وترجمتها الأهرام إلى العربية ، إن « الانجليز والفرنسيين والهولنديين يحتلون بلاداً إسلامية واسعة ، وأن عساكرهم فى هذه الولايات من أهالى البلاد أنفسهم وأنهم يحكمون هذه المناطق بكل راحة ويربحون منها ويدخلون إليها أسباب المدنية » ثم يتساءل عما فعله العثمانيون فى ولاياتهم فيجيب على نفسه قائلا « إن باليمن أربعة ملايين مسلم ومع ذلك فقد خسرت الدولة عليهم مئات الألوف من الرجال والملايين من النقود دون أن تستفيد

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٦٦ ، الخميس ٢/٩/١٩٠٩ (١٧ شعبان ١٣٢٧) ص ١ .

منهم شيئًا » وهو يشير بعد ذلك إلى الثورات العديدة والخسائر الفادحة « فإذا علم ذلك فنحن نسأل لماذا أعمالنا تخيب وأعمال الأوروبيين تنجح ؟ ولماذا يقوم الأهالى وهم مسلمون ويشهرون فى وجه عساكرنا السلاح ؟ ولماذا لا يفعل ذلك المسلمون فى الأراضى والبقاع التى يتولاها الأجانب ؟ » ثم يذهب فى إجاباته إلى أن حكومته لا تستعمل الوسائل التى يستعملها الأجانب « فيعتبر اليمانيون وغيرهم أن الرحمة بهم ضعف ، أما الأجانب فيتخذون فى أحكامهم طرقًا عملية حكيمة ، فيدرسون حالة البلاد وطبيعتها ، وعادات أهلها وأخلاقهم وتعطى عساكرهم المرسلة إليها كل التعاليم اللازمة حتى لا يكون وجودهم فى البلاد وصمة عليها وعلى أهلها » وأخيراً يمنطق هذا الكاتب حديثه فينتهى بالنصيحة فى آخر مقاله ، فيطالب الدولة بأن ترسل فرقًا عسكرية إلى العواصم العربية مثل بغداد والبصرة واليمن لإخماد العناصر المتمردة « فيحتلوا نقطًا حربية ويعلنوا الإدارة العرفية ، ويهتموا فى ضبط أحوال القبائل والعشائر حتى تخضع خضوعًا تامًا » . وكانت هذه النزعة العنصرية التى أوضحها كاتب هذا المقال هى النزعة السائدة عند معظم الترك ، إذ كان اتجاهًا قوميًا أكثر منه وحدة إسلامية ، بل إن الأتراك المثقفين عارضوا فكرة « الجامعة الاسلامية » لأنهم شعروا أن هذه النزعة تباعد بينهم وبين العناصر غير الاسلامية وخاصة فى البلقان .

حقيقة كان هذا الاتجاه الحديث ناتجًا من الاحتكاك السياسى والفكرى بأوروبا ، ولكنه فى نفس الوقت كان يخالف الأصول التاريخية التى قامت عليها الإمبراطورية العثمانية ، ويناقض الأسباب الحقيقية لاستمرار بقاء هذه الإمبراطورية بأطرافها المترامية كما هى على مر القرون ، ويحطم الأسس الواقعية للعلاقات العربية التركية طوال هذه الفترة . فمن يتحقق من طبيعة الفتح العثمانى للبلاد العربية ، يرى بوضوح أنه لم يكن فتحًا بالمعنى السياسى

---

(١) الأهرام : العدد ١٩٥١١ ، الأربعاء ١٩٠٩/٦/٣٠ (جمادى الثانى ١٣٢٧) ص١ .

المعروف ، يتبعه انتصار وسيادة لغة ، وثقافة ، وتقاليد ، ونظم ، وإدارة الدولة المنتصرة على الشعب المغلوب ، بل كان الفتح العثمانى انتصاراً حربيًّا لقوة عسكرية إسلامية على قوة عسكرية إسلامية أخرى ، أو بالأحرى انتصار السلطان العثمانى على السلطان المملوكى سلطان مصر والشام وصاحب السيادة والنفوذ فى الجزيرة العربية .

أما الشعب العربى صاحب التقاليد والثقافة والأوضاع الخاصة فلم يتأثر بهذا الانتصار أو بتلك الهزيمة ، بل أكد العثمانيون بقاء هذه الأوضاع المتوارثة فلم يغيروا شيئًا من مظاهر المجتمع العربى ، وتركوه كما هو ، ولم يشعر العرب إلا بتغير الإدارة والأجهزة المملوكية بأخرى عثمانية ، ثم صارت الحياة العربية كما هى ، وعاد العرب إلى حياتهم السالفة يجترونها مرة ومرات تحت اللواء العثمانى بعد أن اختفى اللواء المملوكى . ولكن عند الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ كان التطور السياسى والفكرى داخل الإمبراطورية ، الذى سار هادئًا مترددا ، قد وضحت معالمه وبرزت آثاره . وقد أكد الأستاذ ساطع الحصرى ما ذهبنا إليه بقوله : « إن استيلاء السلطنة العثمانية على هذه البلاد العربية لم يكلفها حروبًا كثيرة لأنه لم يستلزم محاربة سكان البلاد وإنما استلزم محاربة الدول المسيطرة عليها فقط »[١]. وكانت نعرة الإخضاع بالقوة متغلبة على تفكير الترك بشكل ظاهر وقوى . ففى مقالة أخرى كتبها أحد الضباط الذين خدموا طويلا فى اليمن ، نشرتها جريدة « زمان » التركية - ونقلتها بعد ترجمتها جريدة الأهرام - عن اليمن وأحواله ، وطريقة معالجة أزمته ، جاء فيها « أن الزعيم السيد يحيى قد عرف أن يستفيد من الأغلاط العديدة التى ارتكبتها الحكومة السابقة . وهكذا توصل إلى جرأة كبيرة حتى إنه ليس من الحكمة أن تتفق الحاضرة معه على الشروط التى كانت قد وضعت منذ مدة . على أنه يكفى

---

(١) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٥٨ .

فرقتين من الجنـود النظامية تحت قيـادة ضابط نشيط لإخماد هـذه الثورة . ولكن يجب العمل بحكمة وسرعة ، لأن الحامية موزعـة فى تلك البلاد من باب المندب حتى تخوم الحجاز ، وعليه فليس بالإمكـان الاستفادة منها فى أول الأمر . ولذلك ينبغى أن تكون الفرقتان المشار إليهما ، بمثابة قوة نقالة (متنقلة) لإعادة الأمن ، وبعـد ذلك تحشد الجنـود فى نقطـة مركـزيـة يمكنها تـأييد الشروط التى تـوافق الدولة. وأهمها أن يسلم الإمام يحيى كل السلاح والذخيرة ، وأن يحل اللجنة التى يرأسها، وهى أشبه بالعصابـات المقدونية ، وأن يسلم المقلقلين الذين يبثون روح الثورة فى البلاد . هذا ما يجب أن تناله الحكومة بالقوة ، ثم يجرى عاجلا ما تحتاج إليه البـلاد من الاصلاحات الادارية ، وإلا فما دام الامام يحيى زعيم عصـابات تامة العدد فإن تلك البلاد تبقـى مهددة للأمن والنظام العام »[١]. وواضح من هذه المقـالة الـروح العسكريـة التى تعبر عن صـاحبها خير تعبير . كما أنها خير شاهـد على وجهة نظر الأتـراك فى قضية اليمن ، ومنهـا يتضح رأى الأتراك غير الـرسميين ، فهى رغم أنها لا تـدل مبـاشرة على مـوقف الحكـومـة ، إلا أنها تعبر بجلاء عن الاتجاه العام السائد فى الأوساط التركيـة ، وتشرح موقف الرأى العام من هـذه القضية ، أمـا الغريب فى هـذه المقالـة فهى تلك النظرة المسيطـرة على كـاتبهـا ، فهو مثـلا يـرجع أسبـاب الثورات المستمـرة فى اليمن إلى « أغـلاط » الحكومة السابقة دون أن يفهـم مثلا أن حكومته الحالية - الاتحادية - إنما ترتكب نفس الأخطـاء السـابقـة التى تنبثق أسـاسًا من عـدم فهمهـا صحـة الموقف فى اليمن[٢] . وفى نقطة ثـانية يصف الإمـام يحيى والقبائل الملتفـة حولـه ، ويقصد أساسًا الزيديين ، بأنهم « كالعصـابات المقدونية » ، دون أن يفهم كذلك الفارق الشـاسـع بين الاثنين ، إلا أنـه فى الـواقـع يعبر عن وجهـة نظـره فيهـا ،

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٧٥ ، الصادر فى ١٣/ ٩/ ١٩٠٩ (٢٨ شعبان ٢٧) ص١ .

(٢) Rev, du Mus, ; Vol , XXV, p, 279.

وأنه لا يتضح أمامه منها إلا الجانب الثورى فيها . ثم أخيراً ينصح بالحل الأمثل عنده ، وهو الإخضاع أولا ثم إجراء بعض الإصلاحات الإدارية ، دون أن ينصح مثلا بالاتصال بالشعب اليمنى مباشرة ليتعرف على الأسباب الحقيقية للثورة .

موقف الدولة الرسمى بعد سنة ١٩٠٨ :

وتنبئ هذه الآراء والأفكار التى ظهرت فى تلك الفترة - بشكل مباشر وغير مباشر - عن نية الحكومة تجاه قضية اليمن ، فهى أصداء للاتجاهات السائدة فى الأوساط الحكومية . فكانت ثورات اليمن المستمرة المتعددة تجبر رجال الحكومة على البحث عن حلول لهذه الأزمة المزمنة ، فتعددت محاولات الحكومة فى إيجاد هذه الحلول . وقد وضعت لجنة مجلس المبعوثان لائحة تخول الإمام يحيى إدارة شئون بعض الأقضية الداخلية مدة عشرة سنوات تحت رقابة حاكم يعينه الباب العالى ، وقوات عسكرية عثمانية تعسكر فى تلك الأقضية فيكون شأن الامام يحيى كشأن أمير مكة من بعض الوجوه ، لكن لم ينته مجلس المبعوثان من درس هذا المشروع إلى شيء[1] . ويرجع هذا إلى عدم استقرار الحكومة على رأى معين ، وعدم رضائها واطمئنانها إلى هذا المشروع الذى يعطى الإمام وضعًا خاصًا ، أو مركزاً معينًا فى بقعة ما داخل إمبراطوريتها، ويرجع هذا أيضًا إلى قيام ثورة العناصر الرجعية فى أبريل سنة ١٩٠٩ ضد الاتحاديين .

فلما قمعت هذه الثورة انتخب مجلس المبعوثان لجنة مكونة من نوابه برئاسة مصطفى عاصم أفندى مبعوث الآستانة ، واجتمعت هذه اللجنة مراراً .

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٠٨ ، السبت ٢٦/٦/١٩٠٩ (٨ جمادى الثانى ١٣٢٨) ص ١ .

وفى ٧ أغسطس ١٩٠٩ أقرت مشروعًا من ست مواد[1] .

المـــادة الأولى : تقسم ولايـة اليمن إلى ولايتين : سـاحلية وجبليـة ، فتتنـاول الولاية السـاحلية قسـم تهامة وهو السهل والسـاحل ، وتتناول الولاية الجبليـة أقضية عمران وحجة والطويلـة وحجور وذمار ويريم وآنس.

المادة الثانـية : تفوض الولاية الجبلية إلى الإمـام يحيى حميد الدين ، والساحلية إلى أحد ذوى الكفاءة والاقتدار .

المـادة الثـالثة : يفوض متـولو زمام الإدارة فى الـولاية تفويضًـا تامًّا بـانتخاب القضاة والعمال والمأمورين وفقًا لـلأحكام الشرعية ، وانتخاب رجـال الـدرك (الجندرمـة) من الأهلين (ويشترط أن تعـرض أسماء القضاة والعمال والمأمورين على مركز السلطنة) .

المادة الرابعـة : تفوض الولايتان بـالإنفاق من الأموال التى تجبيانها ، فإن بقى رصيـد يرسل إلى مـركـز السلطنة ، ويبـذل قسم منـه فى سبيل الترقيات المحلية .

المادة الخامسة : يكون قضـاء « مناخـة » مركزا للجيش مع إبقـاء قوة كـافية فى صنعاء تحت إمـرة أحد القـواد المقتدرين للمنـاظرة على الأمن العام ، ولكن لا يترك جند فى القصبة التى يتخذها الإمام مركزا له - بل وتوضع قوة من الجند فى تهامة لتأييد الأمن العام .

المادة السادسة : يتطلب من الذوات (الأشخاص) الـذين يعينون فى الولايتين أن يقدمـوا لمركز السلطنـة فى نهاية كل سنـة ميزانيـة تبين فيها الإيرادات والنفقات فصلا فصلا .

---

(١) المؤيد : العدد ٥٨٤٣ فى ١٥/٨/١٩٠٩ .

وقـد رفع هـذا المشروع إلى مجلس الـوزراء فأقره وأمـر بعـرضـه على مجلس المبعوثان الـذى عرضه بدوره على لجنـة خاصة أدخلت عليه بعـض التعديلات وبعد ذلك طبع هذا المشـوع ووزع على أعضاء المجلس (المبعوثان) كما نشرت نصـوصـه فى الجرائد . إلا أن طلعت بك وزير الخارجيـة الاتحادى ، سحبـه من مجلس المبعوثان بعـد توليه الوزارة مباشرة ، ووعـد بأن يحل قضية اليمن فى أقرب وقت[1] . وهكذا لاقى هذا المشروع مصير المشروعات السابقة وهو عدم التنفيذ وقـد عدلت الحكـومـة عن التنفيذ هـذه المرة - كما صرح بـذلك طلعت بك فى المجلس - بسبب اشتـداد حـركة الإدريسـى فى عسير فأجلته مـؤقتًـا حتى تهدأ الأحوال[2] .

ومن الغريب أن كان تعليق الأهرام بعـد نشر هذه الشروط وعدم تنفيذها ، هو إرجاعها سبب هذه الاضطرابـات إلى « الطبيعة القبلية لأهل هذه الجهات ، وما طبع عليه العرب والقبائل من حب للقتال ، وأخذ الثأر والحروب المستمرة » فقط ، دون أن تشير البتة إلى المفـاسد الحكوميـة ، وذلك التفكير العنصرى الذى يحدد موقف الاتحاديين من البلاد العربية . وهى وإن كـانت تشير فى مقالة تالية إلى أن سبب الثـورات هـو الضرائب وســوء الإدارة التركيـــة إلا أنها تعـــود مسرعة فتـدافع عن حكومـة الاتحاد والترقـــى وتحث العرب على الهـــدوء ، بل أكثر من ذلك تهدد العرب فى صـورة نصيحة فتقول إن « حكومة اليـــوم عامدة إلى استئصال جـرثومـة كل الثورات » ثم تعـدد الاستعدادات « التحـــوطات » التى صــــرح طلعت بك وزيـر الـداخليـة الاتحادى أنـه اتخذهـــا ، وتعـدد القـــوات والفرق التى ســترسـلها الحكومـــة لإخمـــاد ثـورات اليمن . ثم تقول « ولـو فكـر العـرب فى هذه الأمـور حـــق التفكير لترددوا كثيراً قبل مجاهـرتهم

(١) المؤيد العدد ٦٠٣٧ ، فى ١٣/ ٤/ ١٩١٠ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٥٦٠ فى ٢٦/ ٨/ ١٩٠٩ (١٠ شعبان ١٣٢٧) ص١ .

بشق عصا الطاعة ، والهجوم على جنود عازمة على مقاتلتهم لا على الانضمام إليهم كما كان يحدث سابقًا »[١]. والتفسير الوحيد لموقف الأهرام هذا ، وغيرها من الجرائد ، ما أشرنا إليه سابقًا من عدم وجود مراسلين للصحف المختلفة فى اليمن ، وإلى تصميم الحكومة الاتحادية على طمس الحقيقة ، وإصدار البلاغات الرسمية بما تريد .

لم تقف محاولات الحكومة عند حد عرض المشروعات والتنظيمات لتهدئة الحالة فى اليمن ، بل كانت مستعدة تمامًا لمعالجة الأمر بالحزم والقوة . وهناك عديد من الدلائل التى تشير صراحة إلى هذا الموقف ، غير التصريحات الكثيرة بالاستعدادات الضخمة ، وبالقوات التى ترسلها الحكومة فعلاً إلى اليمن صرحت الحكومة مثلا أنها قد أدرجت فى ميزانية عام ١٩١٠ مبلغًا كبيراً لشراء ٢٤ زورقا عسكريًا « لخفر سواحل اليمن »[٢] . وكما وعدت بإرسال ٤٨ زورقًا حربيًا آخر ، إلى تلك الجهات ، لمنع تهريب السلاح[٣] وكانت الحكومة تخاف تهريب السلاح أشد الخوف ، وكانت تشك دائمًا فى أن إنجلترا وإيطاليا تساعدان على تهريب الأسلحة إلى تلك الجهات ، وإلى قبائلها الأشداء المتمردين . بل ولجأت الحكومة إلى وسيلة أخرى لمواصلة الحرب هناك ، فكانت ترفع رتب الضباط إغراء لهم على السفر إلى اليمن ، وتعمد إلى ترقيتهم ، قبل ترحيلهم إلى هناك »[٤] حتى تضمن حسن قيامهم بواجبهم وحتى لا تعدم رجالا ينفذون رغباتها وطلباتها .

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٦٩ فى ٦/ ٩/ ١٩٠٩ (٢١ شعبان سنة ١٩٢٧) ص١.
(٢) الأهرام : العدد ١٦٥٠ فى ١٠/ ١٢/ ١٩٠٩ (٢٧ ذو القعدة ١٣٢٧)ص١.
(٣) الأهرام : العدد ٩٦٥٣ الاثنين ١٣/ ١٢/ ١٩٠٩ (٣٠ ذو القعدة ١٩٢٨)ص١.
(٤) الأهرام : العدد ٩٧٢٢ ، الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩١٠ (٢٥ صفر ١٢٢٨)ص١.

قضية اليمن فى مجلس المبعوثان :

لم تكن الصحف التركية أو الدوائر الرسمية وحدها هى التى تثار فيها قضية اليمن ، بل كان مجلس « المبعوثان » نفسه هو المجال الثالث ، الذى فرضت قضية اليمن نفسها عليه ، فكانت مثار مناقشات عديدة جادة داخل المجلسين بين النواب العرب وبين أعضاء الوزارة الاتحادية خاصة طلعت بك وزير الداخلية . وكان الأخير مجبراً على الإجابة أحيانًا خضوعًا للنظم البرلمانية ، وكان أحيانًا أخرى يجبر النائب العربى الذى يوجه إليه السؤال على السكوت وعدم المناقشة . فقد حدث أن قام السيد محمد عبد الله مبعوث اليمن فى مجلس المبعوثان فقال : « إن مطالب منتخبيه حقة عادلة ، فهم لا يطلبون شيئًا لا يسع الحكومة أن تمنحهم إياها : فهم يريدون أن تفتح لهم مدارس ، وأن تكون الأحكام بموجب الشريعة الغراء ، وأن تنشأ مجالس صلح تراعى عادات البلاد وتقاليدها . يريدون أن تجبى الضرائب عندهم حسب الطريقة الجارية فى سائر ولايات السلطنة وأن تضمن الحكومة للمشايخ والأعيان المكلفين بذلك رواتب كافية ... وأن تعهد بمناصب الوالى والقائمقام والمدير إلى أعيان اليمن فى النواحى التى ليس لهم فيها أملاك وأن تنشأ جندرمة[1] محلية وتفتح الطرق وسبل المواصلات الجارية التى تجبى ظلمًا واستبداداً ، ثم أعرب عن وجوب تعيين راتب مقرر من الحكومة للسادة من سلالة النبى لأن فقرهم الحالى يضطرهم إلى طلب المساعدة من القبائل . وقد قوبل حديثه بالتصفيق الحاد عندما قال إن اليمنيين لا يريدون الانفصال عن الدولة بل هم يفتخرون بأن يعيشوا فى سلام مع إخوانهم العثمانيين تحت راية واحدة » .

عندئذ قام طلعت بك فشرح خطة الحكومة فى بلاد العرب ، وأوضح موقف الحكومة منها وذكر أن المجلس كان مهتما بدرس مشروع إصلاحى

---

(١) الجندرمة هى قوات الشرطة الخاصة بالمحافظة على الأمن .

خاص باليمن عندما انفجر بركان الثورة هناك فهوجمت الجنود العثمانية وسلبت القوافل وحدث غير ذلك من الحوادث المؤسفة نتيجة تحريضات « الشيخ يحيى والمهدى الإدريسى » - كما قال - اضطره إلى سحب المشروع من المجلس حتى يتمكن من الدفاع عن أجزاء السلطنة ، ووجه حملة عسكرية إلى اليمن . كما قال إن المجلس وافق على هذه « التحوطات » وأن الجنود العثمانية استطاعت إخضاع القبائل الثائرة « وأن الحالة هادئة فى اليمن الآن » .

وأنهى حديثه قائلا بأن مقترحات السيد محمد عبد الله محل اعتبار الحكومة، ولكن الحكومة فى حاجة إلى فترة من الزمن لايمكن تقديرها تمامًا ، وأنها ستعمل على إدخال كثير من الإصلاحات فى اليمن . وكادت المناقشة تنتهى عند هذا ، وصفق له أغلب من فى المجلس حتى المعارضين له ، إلا أن السيد عبد الحميد الزهراوى - نائب عربى ومن رجالات حزب اللامركزية - قد تابع الحملة ضد طلعت بك ، وأعرب عن أسفه لإرسال حملة عسكرية إلى اليمن ، واتهم ناظر الداخلية (طلعت بك) بجهل الأمور ومحاولة إخفاء الحقيقة ، وهنا ثار طلعت بك ونهض صارخًا ، وقال إنه لو سلم بجهله بحقيقة الأمور ودقائقها فى اليمن ، إلا أنه لا يسمح باتهامه بالكذب مطلقًا - ويقصد اتهامه بأنه يتعمد إخفاء الحقائق وتشويهها - وقال مدافعًا عن نفسه « ... أما الكذب فأنا لا أعرفه البتة ، بل أعيده إلى من حاول إلصاقه بى ... » . فصفق الجميع لكلام الناظر وأجبروا الزهراوى على أن يكف عن حملته[1] وكان الاتحاديون عمومًا يلجأون إلى التهريج الخطابى فى المجلس ، وتعمد إحراج المعارضين فى كثير من الأحيان . وكان تشكيل البرلمان العثمانى يساعدهم على كسب هذه المواقف ، والفوز بتأييد مشروعاتهم وقوانينهم فى هذه المجالس النيابية والتى عمدوا على ضمان أغلبيتها إلى جانبهم . فرغم أن الترك لم يكونوا أكبر عنصر فى الإمبراطورية العثمانية عدداً،

---

(١) الأهرام : العدد ٩٧١٠ ، الثلاثاء ٢٢/٢/١٩١٠ (١٧ صفر ١٣٢٨) ص ١ .

وكـان العـرب متفوقين عليهـم فى هذه النـاحيـة إذ يشكلـون أكبر عنصر داخل الإمبراطـوريـة ، إلا أن الترك بما كـان لهم من سيادة وسلطـان ضمنـوا أن تكـون أغلبية مجلس المبعوثان (النـواب) منهم . فالمجلس الذى التأم فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ ، وهو أول مجلس نيـابى بعد الانقلاب ، ضم ٢٤٥ عضواً منتخبًا ، كان منهم ١٥٠ من الأتراك و ٦٠ من العـرب أى إن كفة الترك كانت راجحـة بنسبة ٥ إلى ٢ ، أمـا باقى الأعضـاء فكانـوا من الأقليات التى يمكن ضم أصـواتها إلى جـانب الترك . أمـا فى مجلس الأعيـان (الشيـوخ) الـذى يضم أربعين عضـواً يعينهم السلطان فكان عدد العرب ثلاثة فقط[١] .

كرر طلعت بك تصريحاته السـابقة فى جلسة تالية جـوابًا على سؤال يتعلق بمطالب اليمنيين فقال « إنى توليت نظارة الـداخلية والحكومة مشغولة فى ذلك العهـد بمشروع ينظم شئـون اليمن وإدارتها ولكن علمت بعـد أيـام أن قبيلتين يمانيتين هـاجمتا قـافلة وسلبتـاهـا ٦ آلاف ليرة وقتلتا ١٦ عسكـريًا ، وأن الثـوار احتلوا عشرة مواقع هنـاك وأضرموا نار الثورة فى تهامـة وعسير وأن إدريسًا يتهدد الحديدة ، فرجوتكم على أثر ذلك كله أن نؤجل كل إصلاح فى تلك البلاد إلى ما بعـد توطيـد الأمن فى ربـوعها ، وبـلاداً مثلهـا تعـاقبت فيها الثـورات لا يمكن إخمادهـا فى أشهـر » ثم أشـار إلى أنه أرسل إحـدى عشرة أورطـة إلى هنـاك وأنها استطاعت تهدئة الحالة نسبيًا ، وأنه لا يمكن الإصلاح إلا بعد نشر الأمن «ولكن لا يمكن تحديد الزمن الذى يكفى للبدء فى الاصـلاحات » . وقد حدث أن حاز طلعت بك ثقة المجلس بخصوص هذه القضية وأقرت أغلبية المجلس الحكومة فى خطتها[٢] .

لم يكن الحال دائمًا هو تغلب الأتراك فى المجالات البرلمانية أو حتى العامة،

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ١١١ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٢٥ ، الاثنين ٢٨/ ٢/ ١٩١٠ (١٧ صفر ١٣٢٨) ص ١ .

بل كان يظهـر أحيانًا ومضات لامعـة من المقاومة من ناحيـة العرب ، أو بعض المظاهـر التى تدل على استمرار هذه المقـاومة ، وعلى وجود من يـدافع عن هذه القضية . فمثلا نجد أن طاهـر رجب ، أحد نواب اليمن فى مجلس « المبعوثان » والـوحيـد الذى يعـرف التركيـة قـدم استقالتـه من المجلس ، وأوضح أسبـاب استقالته فيها وهى :

١-أن الحكومة لا تعمل شيئًا لليمن .

٢- أنـه يئس من زملائه النـواب اليمانيين لأنهم يجهلون التركيـة ، فهم لا يستطيعون الاعراب عن أمانيهم وآرائهم (كانت اللغة التركية هى لغة الحديث فى المجلس) .

٣- أن أعماله فى اليمن معطلـة فهو لا يستطيع البقاء فى الآستـانة وإهمال تلك الأعمال .

وقد قبل المجلس استقـالته بعد بحثها ، وبنى موافقتـه على السبب الثالث فقط[1] .

بل وهناك صـور أخرى تعبر عن الصراع المستمر بين العـرب والترك حول قضية اليمن ، بصفتهـا جزء من القضية العربيـة العامة . فقد قامـت المظاهرات الصاخبـة احتجاجًـا على كاتب إحـدى المقالات التى هـاجمت اليمن وأهلها ، وعلى صاحب الجريـدة ، وذلك لأن الترك كانوا كثيراً ما ينـدفعون فى التعبير عن عنصريتهم الخاصـة وفى تحاملهم على العـرب . فقـد جاء فى هـذه المقـالـة التى أثارت الجالية العـربية فى العاصمة العثمانيـة : « ... إن أهل اليمن يعبدون المال وأنهم فى سبيل المال يضحون بكل شىء حتى أعراض النساء .. »[2] .

تجدد الثورة فى اليمن :

كان وصول محمد على باشا إلى اليمن لتولى أموره فى١٢ جمادى الأول ١٣٢٨

---

(١) الأهرام : العدد ٩٦٧٣ الاثنين ١٠/ ١٠/ ١٩١٠ (٨ ذو الحجة سنة ١٩٢٧) ص١ .

(٢) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٧٩ .

(مايو ١٩١٠)[١] ، بداية تجدد الاضطرابات بصورة عنيفة قاسية ، وقد أشرنا إلى أن الوالى الجديد كان أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، أو بالأحرى كان يمثل أفكارهم وسياستهم التى أرادوا تنفيذها فى كل بقاع الإمبراطورية ، فكانت توليته أمر اليمن استجابة طبيعية للأفكار التى تستحوذ على عقول رجال الحكم فى الآستانة ، وللأحداث الجارية فى باقى الإمبراطورية . ولذلك كان من الطبيعى أن نرى اختلافًا واضحًا بين سياسة تحسين باشا ومحمد على باشا ، ومميزات بارزة لسياسة الأخير .

وكان محمد على باشا يؤمن بسياسة خاصة وعقيدة معينة لا يحيد عنها وهى استعمال العنف والشدة فى قمع كل اضطراب يحدث فى اليمن ، والقضاء على شخصية كل من الإمام يحيى والسيد الإدريسى ولو معنويًّا والعمل على استتباب الأمن والسلام بأى ثمن ، ثم أخيراً إجراء بعض الإصلاحات إذا سمحت له الظروف بذلك دون أن تكون هذه الإصلاحات نتيجة رغبة أو مطالبة الامام أو غيره بل ما يراه هو لازمًا فقط . على هذا الأساس نرى أن ملامح سياسته وخصائصها بدأت تتضح بالتدريج . فنراه يميل إلى العنف منذ وصوله ، وبالغ فى الشك والارتياب والسجن لمجرد الشبهة ، وذلك ليشيع الخوف ويضمن الاستسلام ، دون أن يدرى حقيقة طبيعة اليمن أو يعرف حقيقة وضع الإمام فى اليمن . وقد وصف الواسعى هذا الوالى وسياسته عند وصوله فقال : « وكان فكره أنه لا يصلح اليمن إلا الشدة والقسوة فما زال يحبس هذا ويضرب هذا من دون سبب مع تسليمهم لحقوق الدولة وخضوعهم للأوامر والنواهى، ورجع إلى ما كان عليه الوالى فيضى باشا فى حبس من كان بينه وبين الإمام علاقة ولو ادعاء بلا صحة . وفرح بعض المأمورين بهذا للسعى لمن بينهم وبينه أدنى خصومة ألقوا إلى الوالى هذه الفكرة أن هذا الشخص يحب الإمام يحيى فمنذ ذلك يؤتى بذلك الشخص يضرب ثم يحبس وكانت هذه الدعوى مصدقة دون بينه بل قبولا كذبًا . فلما كثر الظلم والفساد ، وحصل لأهل اليمن الجور والاضطهاد، قام الإمام يحيى وبث

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

القبائل فى جميع مراكز اليمن فقام (فقامت) القبائل محاصرين لجميع مراكز اليمن : صنعاء وغيرها »[١] .

وقبل أن نتتبع أحداث هذه الفترة العنيفة يمكن أن تقول إن هذه الأحداث سارت سيراً منطقياً مع نفسها : والٍ جديد بأفكار جديدة ، وسياسة خاصة أدت إلى تجدد الاضطرابات واشتدادها بعد هدوئها النسبى .

لكن ما هو سبب التحول الظاهر فى سياسة الدولة نحو اليمن ؟

والإجابة بسيطة تتمثل فيما أشرنا إليه من استتباب الأمر للاتحاديين فى العاصمة العثمانية ، وسيطرة أفكارهم الخاصة عليهم سيطرة كاملة ظهرت فى سلوكهم السياسى وأعمالهم الحربية . ونضيف إلى هذا كله العامل الدولى الذى لعب دوراً هاماً ، فالهزائم السياسية والحربية التى أصابت الإمبراطورية فى هذه الفترة فى ولاياتها الأوروبية ، ثم قيام العلاقات الألمانية العثمانية السلمية ، وتغلغل ألمانيا فى السياسة والإدارة العثمانية ، كل هذا أوحى بل أوضح لرجال الآستانة أن قوتهم وسر بقاء إمبراطوريتهم هو فى الولايات العربية لا الأوروبية ، ولذلك أكدوا العزم على توطيد سيطرتهم هناك وعملوا على القضاء على كل مناوأة . وقد نقلت الأهرام عن جريدة الديلى ميل مقالا للسير وليم مكسويل عن بلاد العرب جاء فيها « والسبب فى هذه الثورة الأخيرة (فى اليمن) بسيط فإن الجنرال فوردرجول[٢] لم يكن أول الذين أبانوا السبب وأشاروا على الترك بأن قوتهم الحقيقة هى فى آسيا الصغرى وبلاد العرب أكثر مما هى فى أوروبا »[٣] .

بدأ الاحتكاك الحاد بين العناصر المحلية فى اليمن وعسير وبين الوالى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) كان يتولى تدريب الجيش العثمانى الحديث حينئذ . .

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ فى ٦/ ٢/ ١٩١١ (الاثنين ٧ صفر ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

الجديد ، فتراشق الطرفان بالتهم أولاً ، ثم تحول هذا إلى عراك عنيف ثانيًا . فكان الوالى يتهم الإمام والإدريسى بالخروج على الدولة ، وبالتمرد على الدين نفسه . وكان الأخيران يتهمان الدولة بعدم وفائها بالعهود الكثيرة التى أخذتها على نفسها، ويشكوان ظلم الوالى وفساد الموظفين . وقد جاء فى خطاب من صنعاء إلى أحد التجار اليمنيين فى مصر ونشرته المؤيد « أن الوالى أشاع أنه أرسل الكتب إلى الإمام يأمره فيها بجمع السلاح من قومه وإرساله إلى صنعاء وإلا اعتبره خارجًا على الدولة العلية وجرد عليه حملة تسحقه سحقًا[1] » . كما جاء فى مقالة طويلة كتبتها الطان الفرنسية (بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩١١) ونقلت عنها المؤيد « أن السلطان أبلغ الصحف تأكيده فى بدء الإصلاحات وذكر أن الإمام يحيى والسيد الإدريسى قد مالا إلى العصيان بالرغم من دلائل الرغبة للإصلاح من جانب الحكومة »[2] .

أما من ناحية الإمام أو الإدريسى فكان لهما أيضًا معاذيرهما أو بمعنى آخر حججهما فى القيام بهذه الأعمال الثورية . وكانا يظهران ذلك فى تصريحاتهما ، أو كتابات من يمثلهما إلى الجهات المختلفة وخاصة الأصدقاء فى مصر ، وقد نشرت بعضها على صفحات الجرائد المصرية ، ويمكن الآن أن نشير إلى بعض هذه الأقوال والكتابات لبيان سبب عودتهم إلى الأعمال العنيفة بعد فترة الهدوء النسبى الذى أشرنا إليه .

ففى رسالة للإمام يحيى إلى أحد علماء الآستانة - وقد كال له العالم التهم وسب مذهبه - قال فيها : « .. أما مسلكنا فهو السعى لإعلان كلمة الله والعمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله ونصرة الضعيف وإغاثة اللهيف والأخذ على يد الظالم . وقد علم هذا إخوان الدين وجماعة الموحدين ، كما علموا بالتتبع كذب

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ السبت ٢١/ ١/ ١٩١١ (٢٠ محرم ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (٧ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

ما ينسب إلينا من الرفض والخروج والبغى والعدوان ، وأنه اعتدى علينا وبغى علينا فخربت حق ديارنا ، وقتلت ظلمًا وعدوانًا رجالنا ، وانتهبت بأيدى الجور أموالنا ، واغتصبت حقوقنا . وقد وقف كثير من علماء الأمصار على كتب مذهبنا فى الأصول والفروع فتيقنوا افتراء الطاعنين فى مذهبنا وأمرهم إلى الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله .. » ويستطرد الإمام فيشير إلى معاملة الدولة القاسية لأهل اليمن فهى « لا ترسل لهم إلا آلات الحرب والجنود التى تحمل راية الموت والدمار » ثم يدافع عن نفسه فيقول « .. على أنه لا ذنب لنا إلا ما نبينه من وجوب اتباع الشريعة ، وندعو إليه من السلوك فى مناهجها الوسيعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. » ويختم كتابه بمحاولاته السلمية لعقد الصلح وأنه أرسل وفده إلى الآستانة لتقريب وجهات النظر وعرض قضيته أمام السلطان ولكن دون جدوى وفى النهاية يقول إن المسلمين إخوة وإن عليهم الاتحاد[١].

كما أوضح الإدريسى فى رسالة له إلى أحد أصدقائه فى مصر - وهى رسالة طويلة - يستعرض فيها قضيته مع الدولة وتطور أحداثها ، ويشرح فيها السبب العميق فى عودته إلى الثورة ألا وهو نكث الدولة لعهودها وهى نتيجة اضطراب مواقفهم من القضية العربية بوجه عام . ثم يدافع عن التهمة التقليدية التى تلصقها الدولة به وهى الخروج عليها والخوف على هذه البقاع من النفوذ الأجنبى. وقد بدأها بالإشارة إلى فترة الصلح أو التوفيق بينه وبين الدولة عندما كان سعيد باشا متصرفًا على عسير واستطاع أثناءها - وبناء على الهدوء والسلام فى هذه الجهات - أن يجبى الضرائب ويمد أسلاك التلغراف بين المراكز المختلفة وينشئ المحطات التلغرافية ، ويتعاون مع الإدريسى فى تهدئة القبائل . ثم أشار إلى أنه ساعد الدولة أيضًا فى تنفيذ أوامرها بما لديه من نفوذ وقدرة فائقة أثبتها على مر الأيام وظهرت واضحة

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٩ الاثنين ١٣ / ٢ / ١٩١١ (١٤ صفر ١٣٢٩) ص ١ .

للعيان فى إخضاع القبائل له وكسر شوكتها والإصلاح فيما بينها ، وقال إن سعيد باشا كان يمنيه دائماً على لسان الباب العالى بالإصلاح والاعتراف للإدريسى ببعض مظاهر الوضع الخاص فى عسير ، ولكن سعيد باشا عزل وعين مكانه سلميان باشا « الذى غير طريقة المصالحة واتبع طريقة العنف وعدم ملاحظة عادات البلاد ولغتها » وأنكر على الأهالى ما كان وعدهم به سعيد باشا ، وكان هذا نتيجة أن « مأجورو السوء سعوا بالمقاصد السيئة » فتحولت سياسة الدولة ، فاتخذت مكاتب التلغراف « قشلاقات عساكر » بدلا من كونها مكاتب للموظفين ، وخطورة ذلك - التى يدركها الإدريسى - هى أن هذه المكاتب تقع بين الأهالى وداخل جماعاتهم ، فكانت فرق الجنود تخرج إلى القرى وتحرقها وتؤذى أهاليها بالضرب والسجن ، لذلك يقوم الأهالى - البدو والمسلحون والذين ألفوا الحرب والتمرد حفظًا على حريتهم الشخصية - لصد هذا العدوان وتحدث الاحتكاكات العسكرية ، ثم تتضخم هذه الصورة « وتحشد القوات من ناحية الدولة ورجال القبائل من ناحية أخرى لتصبح معركة » . ويشتكى الإدريسى فى رسالته كذلك من فداحة الضرائب وعدم ملاءمتها لحالة البلاد ثم يدفع عن نفسه وعن أهالى عسير من أنهم لا يمكن وقوعهم بسهولة فى أيدى الأجانب . فيقول : « إن البدو الذين لم يألفوا الترك لما يرونه من ضعف الدين فى بعضهم كيف يمكن أن يألفوا الفرنج وهم على غير دينهم »[1] .

يتضح مما سبق موقف الأتراك ورغبتهم الملحة فى الإخضاع التام فقط - طبقًا لسياسة الاتحاديين عامة - دون محاولة الوصول إلى اتفاق يرضى الطرفين . وقد اتبعت الحكومة تنفيذاً لهذه السياسة كل الوسائل الملتوية من حرب ومهاجمة ثم سلام ومراوغة ، ولكنها لم تقبل مطالب اليمنيين .

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ الاثنين ٢٧/ ٣/ ١٩١١ (٢٦ ربيع الأول ١٣٢٩) ص ٢ .

ويؤكد هذا ما نقلته المؤيد عن جريدة « جون ترك » حيث تنصح حكومتها - العثمانية - فتقول : « .. إن الحكومة إذا دامت على إصرارها ، وعدم إجابتها لمطلب الإمام فإنها لا شك تكون قد أضاعت كل نفوذها .. وعلى كل فعواقب الأحوال وخيمة لأن أكثر موظفى الحكومة هناك غير أكفاء فهم لايزالون يسيئون استعمال وظائفهم .. »[١] .

وتتكر وجهة النظر هذه دائمًا فقد صرح أحد المبعوثين فى الآستانة لمحرر جريدة أجنبية أيضًا أن أكبر أسباب الثورة هو صدور وعود كثيرة من الحكومة لليمنيين وعدم تحقيقها لأى من هذه الوعود[٢] .

أما من ناحية أهل اليمن أنفسهم فقد كتبوا كثيراً عن قضيتهم مما يوضح الرأى العام اليمنى أو ما يمكن أن نسميه كذلك . ويجب أن نلاحظ أن بعض هؤلاء الكتاب أوالمتحدثين قد يكونون رجال الإمام أو من الطبقة التى تطمع فى الحكم فى ظل الهدوء والسلام وتحت الاستقلال الداخلى الذى يطمعون فيه جميعًا ولكن هذا لا يمنع من أن كتاباتهم وأحاديثهم تصور إلى حد ما موقف الرأى العام اليمنى من قضيته . وبالاضافة إلى ذلك سوف نوضح موقف بعض القبائل الخاص - الذى يتصف بالاستقلالية ، إما لاختلاف مذهبى أو للمحافظة على مصالح خاصة - من الطرفين المتنازعين . ففى مقالة لعبد المحسن الحسينى الرصاصى اليمنى بمصر نشرها « بالمؤيد » ردًّا على مقالة نشرتها جريدة « العلم » التى رفضت نشر مقالته لديها - وهى دفاع عن الإمام يحيى ضد ما اتهمته به « العلم » من الخروج والعصبية الجاهلية - يقول فى نهايتها « نحن كتبنا غير مرة فى مسألة اليمن واقترحنا على دولتنا العلية حفظها الله من كيد الأعداء بعنايته الربانية أنها لو جعلت

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٥٩ ، فى ٨/١/ ١٩١١ (٧ محرم ١٣٢٩هـ) ص ١ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٩٠ فى ١٤/ ٢/ ١٩١١ (١٥ صفر ٢٣٢٩ هـ) ص ١ .

ولاية اليمن تحت أحكام الإمام كما سبق - والقـوة العثمانية تكون منفذة لأحكام الإمام الشرعية ، ويكون مركزها الجديد ، وبهذه الطريقة تضارع ولاية اليمن ولاية الحجـاز فى السلطـة والقـوة ، وبهذا تنحسم الإشكـالات وتحافظ على هــذين العضوين المهابين فى الاسلام ، الترك والعرب وتشتغـل باسترجاع ملحقاتها بقوة الرجال من الترك فتعـز وترقى ، وذلك لا يكون إلا بجمع كلمـة الأمة ولم شعثها وأن لا تشغل مـركـزهـا وكتـابها الحريصين عليهـا بمسألـة اليمانيين المسـاكين المسترحمين خليفتهم ورجـال الـدستور العـادلين .. »[1] بل وكتبت « المؤيـد » نفسها ، مقـالة فى عددها السـابق مباشرة للعدد الـذى نشرت فيه المقالة سـالفة الذكر ، مقـالة لها تعقد مقارنـة بين سياسة السلطنة وسيـاسة إنجلترا فى الجزيرة العربيـة ، وموقف السلطنة المضطرب المتنـاقض فى هذه الجهات . وهذه المقـالة بمناسبـة مهاجمة الإنجليز لسواحـل عمان وأن أهالى عمان قد أرسلوا « للمـؤيد » خطـابات كثيرة يشكـون من إهمال الـدولة لهم إزاء هـذا العدوان الإنجليـزى . فتعلق الجريدة بأن الـدولة العلية لا ترسل إلا السيف والنـار للعرب بدلا من أن تـرسل لهم المعونـة والسند المادى والمعنـوى فتقـول فيها « أمـا القائمـون بإدارة الدولـة العلية فى هذه الأيـام فإنهم - سامحهم الله - لا يسمعـون عن العرب إلا كلمــة السـوء فتراهـم إذا أرسل لهم إمـام اليمـن مثـلا وفــداً ليتفــاهـم معهم ويناقشـــهـم فى الحل المعقول الذى يمكـــن أن ينفـــع المســألة اليمانيـة يضعون أصابعهم فى آذانهم ويتملقـونه بالكـــلام الفـــارغ إلى أن يعييـــه الانتظــــار فيقفــــــل راجعًـا من حيث أتى . وإذا كثـر الضغط وسـاءت الإدارة فى أرض الجزيرة ، وتهـــدد والى اليمن إمامهـــا لجمـــع السلاح من قبـائله التى لم تطأ الدولـــة أرضهـــــم فى زمن من الأزمان ، عندئـــذ تصل كلمـة السوء عن العرب إلى آذان الـدولـة على أجنحـــة الــــبرق فتجيش الجيـوش من العثمانيين لإبـادة إخـوانهم فى الوطـــن والـــدين كما فعلت فى هــذه الأيام ، إذ جهـزت عشرين طابوراً ، وستتبعها بثـــلاثين أخرى تنفق عليها - من المال الذى رهنت مستقبل الدولة عند استقراضه ... فانظر إليهم سامحهم الله ... وكيف لا يحسنون استعمال

---

(١) المؤيد : العدد ، ٦٢٧٤ فى ٢٦/ ١/ ١٩١١ (٢٥ محرم ١٣٢٩) ص ١ .

رابطة الوطن ورابطة الدين التى بين جزيرة العرب ، وبين الآستانة ، وكيف يعملون على إماتة ذلك الحب الذى تأصل فى قلوب الأمة العربية نحوهم ويقطعون أوصاله من حيث لا يشعرون . هذا فى الوقت الذى تستميلهم البوارج الإنجليزية (يقصد هنا أهل عمان) باللين والحيلة والهدايا لقبول راية ترفع أو بريد يؤسس فلا يقبلون فتسلط نارها الحاميه على ثغورهم من غير حق[1].

وكانت هذه الرسائل التى تدافع عن قضية اليمن تتوالى على الصحف المصرية لنشرها لتوضيح أسبابها وتطور أحداثها للرأى العام . وهناك رسالة من عبد الله ابن يحيى البدرى ببلاد حاشد مؤرخة ٢٨ ذى الحجة ١٣٢٨هـ (يناير سنة ١٩١٠) موجهة إلى علماء المسلمين - وهى مرسلة إلى عبد المحسن بمصر السابق ذكره - يشرح لهم نقاط هذه القضية ويستحث الهمم للدفاع عنها ويدعو العلماء إلى « الوساطة بين السلطان وبين هذين الرجلين[2]».

وأدلى الأجانب بدلوهم فى تناول القضية العربية عامة والقضية اليمنية خاصة لأنهم كانوا مهتمين اهتمامًا كبيراً بمصير الإمبراطورية العثمانية وبدقائق أحداث أجزائها المختلفة . وكان ذلك تحفزاً لالتهام أجزاء من هذه الإمبراطورية من ناحية ، وتحفزاً من كل منهم أمام الآخر للمحافظة على التوازن الدولى من ناحية أخرى . وكانت إنجلترا من أكبر الدول اهتمامًا بالجزيرة العربية ، ففضلا عما كان لها فعلا حتى هذه الفترة التى نتكلم عنها ، كانت تحاول نشر نفوذها ، وسيادتها على أجزاء أخرى . وقد نقلت المؤيد عن عدد « الطان » الفرنسية الصادر فى (٢٤/ ١/ ١٩١١) رأى أحد الأساتذة بجامعة فيينا وهو من المهتمين بالمسائل العربية » أن الإمام يحيى صاحب النفوذ العظيم فى البلاد الجنوبية تحت أمره على الأقل ٥٠٠٠٠ رجلا وأن السيد الإدريسى جمع فى أول يناير (١٩١١)

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ ، الأربعاء ٢٥/ ١/ ١٩١١ (٢٤ محرم ١٣٢٩) ص ١ .

(٢) يقصد الإمام والإدريسى .

٤٠٠٠٠ من الفرسان ، وأن جميع هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق الحديثة بالرغم من المجهودات التى تتخذها الحكومة فى السهر على منع تهريب الأسلحة. وقد وهنت عزيمة الدولة نظراً لشدة بأس العرب وصعوبة بلادهم ، وأن الجنود التركية تفر من الحرب فرقًا فرقًا ، وأن تلك الفرق الفارة يتراوح عدد أفرادها بين العشرين والخمسين تاركين سلاحهم وذخائرهم الحربية للثائرين»(١) . ونقلت المؤيد أيضًا ما كتبه السير وليم مكسويل عن بلاد العرب فى « الديلى ميلى » حيث قال عن اليمن « ... وبسبب خصوبة أرضها تختلف أخلاق أهلها عن أهالى باقى بلاد العرب فإنهم سكنوا الدور ... وهم يحقدون على سادتهم الأتراك الذين لم يأتوا إلى اليمن للعمل لما فيه فائدتهم ونفعهم ، ولكن لاستنزاف ما فى أيديهم . واليمنى ككل عربى يخفى فى نفسه احتقاره للتركى . وينظر إليه كالهمجى حيث جرد بلاده من مدنيتها ، وإذا جلست إلى جانب اليمانى يذكر لك عن بلاد العرب أنها كانت مركزاً للعلوم والمعارف كما هى اليوم للدين ... وقد جرى أكثر من جيلين وهما فى تنازع وما سمعت أوروبا بأعمالها إلا همسًا ، ولم تحول نظرها التفاتا حتى فى هذا الوقت الذى أرسلت فيه الحكومة العثمانية ثلاثين طابوراً وتتساوم فيه مع ألمانيا على أجرة نقله »(٢) .

وفى المقالتين السابقتين وهما على سبيل المثال لا الحصر بعض التعريف ببعض الحقائق ، وبالرغم من بعض نقائصهما مثل المبالغة فى حقيقه العدد الذى ورد فى المقالة الأولى عن جنود الإمام أو الإدريسى ، أو المبالغة والتعميم فى شعور العرب نحو الترك فى المقالة الثانية إلا أنهما فى الحقيقه كافيان إلى حد ما لكشف بعض جوانب أحداث هذه الفترة وتوضيح وجهة نظر الأجانب فى هذه المشكلة .

---

(١) المؤيد : العدد ، الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (٧ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) نفس العدد والصفحة .

أحداث الثورة وحصار صنعاء سنة ١٩١١ :

بعد هـذا العرض العـام السابق ، يجدر بنـا الآن أن نخصص الحديث عن الفترة التى أعقبت الهدوء النسبى ، والتى بدأت بتولى محمد على باشا حكم ولاية اليمن ، والتى انتهت بعقـد صلح « دعان » سنـة ١٩١١ . فالاهتمام بهذه الفترة وتتبع أحداثها أمر ضرورى لبيان المقـدمات التاريخية التى أدت إلى عقد الصلح الذى أدى بدوره إلى ملامح جديدة فى عـلاقات العثمانيين بالإمام . وقد سبق أن ذكرنا أن تولى محمد على باشـا أمر اليمن فى ١٢ جمادى الأول سنة ١٣٢٨ (مايو سنة ١٩١٠) كـان سببًا فى تجدد الحرب بصـورة عنيفة قـاسية . فنجـد مثلا أن المؤيد تنقل عن وكـالة رويتر أن « الإمام يحيى أشهـر الحرب على الأتراك ، وقطع أسلاك التلغـراف بين صنعاء والحديدة ، وينتظـر أن تثور اليمن ثورة عمـومية » وأن « السيـد الإدريسى قـد هـاجم الأتـراك فى عـاصمـة عسير (أبها) وأصبح المتصرف والجنـود فيهـا كمسجـونين من أول ديسمبر الماضى سنـة (١٩١٠) والعصابات (كذا) الثـائرة تتحرك فى كل جهة من جهات اليمن ، وأن متصرف عسير الجديـد لا يزال مقيما فى الحديـدة لأنه عـاجـز عن متابعـة سفره إلى مقـر متصرفيه عسير » . كما ذكرت المؤيد أن « طنين » التركيـة الممعنة فى تركيتها كتبت تعليقًا على هـذه الأخبار المتـواردة جاء فيهـا « أن السلطنة سترسـل لهم (دشًا) بارداً كالذى أرسلته إلى الألبان فى مقدونيا »[1] . وقد أيدت تقارير قناصل الدول الأجنبية فى الحديـدة « أن الإمام يحيى قـد زحف برجالـه نحو صنعـاء، وهو الآن (ينايـر سنة ١٩١١) أوشك أن يصل إلى صنعـاء . وقد وقع بينه وبين العسـاكر عدة مصادمات ولم يعرف حتى الآن مقدار القتلى والمجروحين منها »[2].

ولم تقف الدولة مكتـوفة الأيدى إزاء هذه الأعمال الثـورية بل طلب الوالى

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ السبت ٢١/ ١/ ١٩١١ (٢٠ محرم ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ الثلاثاء ٢٤/ ١/ ١٩١١ (٢٣ محرم ١٣٢٩) ص ٢ .

سرعة إمداده بالجنود والمعدات . وبذلت الدولة جهدها فى نجدة واليها فى اليمن، فأرسلت إليه الإمدادات المتتالية . ونقلت المؤيد عن « الطان » الفرنسية الصادرة فى ١٤/ ١/ ١٩١١ أى فى نفس الشهر الذى اشتد توهج الحالة فيه باليمن ما يفيد « أن حكومة الباب العالى قررت أخيراً أن ترسل إلى بلاد اليمن ٣١ أرطة ، ٨ بطاريات مدفعية ، مصممة على استعمال الشدة فى قمع الثورة التى تأججت نيرانها فى هذه الأيام » بل وعلقت الجريدة على خطورة هذا المشروع الحربى الذى تنوى الحكومة اتخاذه فقالت : « وهذا مشروع خطير يحتاج إلى المال الوفير ، بل هو من الصعوبة بمكان ، ولا تقوم به تركيا الحديثة إلا بمشقات جسيمة وضحايا وافرة »[1] . وتتوالى وصول هذه الإمدادات إلى اليمن، بل ويعتبر حضور عزت باشا إلى هذا الميدان حلقة كبيرة فى سلسلة محاولات الحكومة العثمانية لإخماد الثورة هناك وهذا ما سنتناوله فيما بعد بالتفصيل . لم تكن هذه الصورة هى كل جوانب موقف الباب العالى من هذه القضية ، بل كانت هناك صورة أخرى ، ولكنها سلمية فى طبيعتها . فقد قال مراسل المؤيد فى الآستانة فى ٣/ ٢/ ١٩١١ « أنه ما زالت تتوالى الجلسات فى الباب العالى للمذاكرة بشأن المسألة اليمنية كل يوم ، كما أنه قد عينت لجنة مخصوصة مؤلفة من قدماء المأمورين الملكيين ، والأمراء العسكريين للبحث فى شأن المسألة ، وقد بلغنى من مصدر يوثق به أن الحكومة قررت نهائيًا قبول مطالب الإمام جميعها ، وأن ما يرسل من الجيش إلى اليمن إنما هو للمحافظة على القسم الساحلى وإظهار هيبة الحكومة فى اليمن تجاه الأجانب ليس إلا ، وهذا ما كنت نوهت به فى الرسائل الماضية بقولى إن المقصود من « سوق » الجيش[2] هو عمل استعراض لا حرب ، والمستقبل كشاف الحقائق »[3] حقيقة

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) مصدرها (يسوق) : ويقصد هنا : إرسال الجيش .

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٤ الثلاثاء ٧/ ٢/ ١٩١١ (٨ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

يحتاج هذا الحديث إلى تعليق طويل وبيان ماهيـة اللجنة المخصوصة وعملها إلى غيره ، وكذلـك مناقشـة هذا الـرأى الأخير ، وهو أن أعمال الحكـومة العنيـفة يقصـد منهـا : « إظهـار هيبة الحكـومـة ليس إلا » فهو على جـانب كبير من الأهمية . ولكن مـا نقصده هنـا هو إظهـار موقف الحكـومة من المسألـة اليمنية بشكليـه الحربى والسلمى ، وإن كنا سنتحـدث عن هـذه اللجنة ، وعن صحـة رأى المراسل فيما بعد بالتفصيل .

زحفت القبـائل إلى المدن تحاصرهـا ، وتخربها ، وتنهب منها مـا تصل إليـه يـديها . وقد كتب شـاهـد عيان إنجليـزى - شـهد حصـار صنعـاء - مقالـة فى التيمس ونشرتها المقطم فقـال : « قد أتيح لى أن أكـون فى صنعـاء لما كان الإمـام محاصراً لها ، وظل الحصار من يناير إلى أواخر أبريل من العام الماضى (١٩١١) وكان عـدد المحاصرين يتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف مقـاتل (حقيقة لا يمكن حصرهم تمامًا) ولو هجم الثوار على المدينة بغتـة لتيسر لهم فتحها عنوة لأن حاميتهـا - كانت مؤلفة من خمسـة آلاف من المشاه وبعض الفرسـان ونحو ٣٠ مدفعًا - لم يكن فى استطاعتها الدفاع عن السور الذى يبلغ محيطه اثنى عشر كيلو مترا » بـل ويؤكد الكـاتب تلك الظـاهرة الغـريبة المتكررة ، وهـى هروب الجنـود العثمانيـة ، وانضمامهم إلى الثوار فيقـول « وحـدث أنـه لما عصفت ريح الثورة خـرج بعض الجنود المحليين من العرب من المدينة ، وانضمـوا إلى الثوار ، فشـدد ولاة الأمور على من تخلف من هـؤلاء الجنـود فى المدينـة واعتقلوهـم هـم وسـائر الـذين اشتبهـوا فيهم من الأهـالى إلى أن انتهى الحصـار ، ولم يشـددوا إلا فى هذا الأمـر ، وتجـاوزوا عن سعـى الـذين سـعوا فى نسـف الثـكنات . ويؤول تسـامحهم هـذا بخـوفهم من قيام الحرب عليهـم إذا سقطت صنعـاء وانتقامهم منهم ، وحـرصهم على حياة الجنود الكثيرين الذين

أسرهم العرب »[1] . ولكن الواسعى يعطينـا صورة أعمق وتفـاصيل أكثر لحالة الحصار الذى عاناه أهل صنعاء سنة ١٩١١ ، وأعمال الوالى سواء داخلها لحفظ الأمن فيهـا ، والقضـاء على المؤامرات التى يمكن أن يحيكهـا أهل صنعـاء ، أو بمعنى آخـر القضـاء على مـايمكن أن يقـومـوا به مـن مد المساعـدة للقبـائل المحاصرة ، وكـذلك أعماله خارجها من حيـث تقوية حاميتهـا ، أو بث الألغام حولها ، فيقـول : « وما زال الـوالى فى صنعاء يخيف النـاس ويمنعهم من الخروج وشـدد عليهم ، وأغلق أبـواب المدينـة ، وأمر البـوليس يـدورون فى الأزقـة وإذا وجدوا شخصين يتكلمان أو يمشيـان معًا ضربا وحبسا ، وإذا وجـد البوليس فى الليل مكانًا مرتفعًا مضيئًا بـا لمصباح فى أحد البيوت هجموا على صاحب البيت وضربوه وحبسوه ، ويزعم الوالى أنهم فى الليل يشيرون للمحاصرين بالهجوم على المدينة وما زال الناس فى الخوف والوجل من الوالى . هذا كله سوى ما الناس فيه من المحـاصرة والضيق ، وانقطـاع الطعـام عنهم وسـائر المحتاجـات ، وامتـلأ السجن محابيس ظلمًا ... » بل أشـار فى كـلامـه إلى ظاهـرة طبيعيـة تحدث دائمًا لأناس فى حـالة حصار ، وخـاصة إذا لم يكن لهم فى الحرب نـاقة ولا جمل ، فهم ليسـوا من أفراد حـاميـة المدينة كما أنهم ليسـوا فى تشكيـلات سرية مثـلا تعمل لصالح قضية معينة ، تتمثل فى مساعـدة المحاصرين أساسًا أو تخريب منشئات داخليـة أو غيره مما يصـاحب فترات الحصار دائمًا ، قال : « إن الناس اتجهت إلى المساجـد باعتبارهـا ملاذاً يلجأون إلـيه طوال النهار ، من ناحيـة لتعطل مظاهـر الحياة اليومية العادية من بيع وشراء أو القيام بوظائف رسميـة أو غـير رسمية ، ومن ناحيـة ثانيـة هربـًا من رجـال الشـرطة الـذين يشكـون ويرتابـون فى كل شىء ، وخوفـًا مما يتبع ذلك دائمًا من ضـرب وسـجن » . ويكمل الواسـعى وصفـه لمجهـودات الـوالى خـارج الأسـوار فيقـول

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء ٢ ، الصادر فى أول صفر ١٣٣٠ هـ (١٨ فبراير ١٩١٣) ص ١٠٦ - ١٠٧ .

« ... وأمر الوالى بخراب البيوت التى حول صنعاء « شعوب » و « الصافية »[1] وضرب المساجد ، وقلع الأشجار . ووضع حول صنعاء دفائن من البارود تسمى ديناميت وأهلكت من أهل صنعاء نفوسًا كثيرة لم يكونوا يعلمون بها إذا وضع أحد رجله عليها صعقت به وصيرته قطعًا . إنما فعل هذا الوالى خشية من العرب إذا هجموا صنعاء . وفى آخر مدة الحصار قرب العرب إلى حول صنعاء ، وعرفوا الدفائن وكانوا يحفرون التراب حفراً لطيفًا ويستخرجون تلك الدفائن ويأخذونها، فندم الوالى وحزن على ذلك »[2] . وكان الوالى يحاول بين الحين والآخر الخروج لملاقاة هؤلاء المحاصرين ويحدث التشابك وجهًا لوجه بعد أن تطلق آلاف الرصاصات ويقترب كل منهما إلى الآخر .

وبلغت الوحشية أقصاها فى هذا الحصار « فكان بعض الجنود يحضرون معهم عند عودتهم رؤوس بعض القتلى العرب إلى المدينة »[3] ، ولم تنفرد صنعاء بهذه الحياة الرهيبة ، إذ كان كثير من مدن اليمن محاصرة ، فمنها مثلا مدينة «يريم » وكانا يحاصرها ذو محمد وذو حسين[4] ، وكان رئيسهم يحذرهم دائمًا من النهب والقتل والهجوم على المدينة ، بل يأمرهم بحصار المدينة فقط ، وأن من خرج من المحاصرين سواء من العرب أو من الترك فهو آمن « فلم يسمعوا بل هجموا على هذه المدينة وحصل منهم الأفعال الشنيعة من النهب والقتل »[5] .

حملة عزت باشا :

وكان هذا الوضع الملتهب فى اليمن يؤدى بالدولة إلى القيام بالاستعدادات الضخمة لإخماد هذه الثورة بأى ثمن ، فكانت تجمع الفرق العسكرية من

---

(١) تعتبران من ضواحى صنعاء .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. 277.

(٤) وهما فرعان من قبيلة بكيل ، وكانا من أتباع الإمام .

(٥) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ .

ولاياتها المختلفة فى الآستانة ثم ترسلها إلى اليمن تباعًا . وكان هذا العمل فى حد ذاتـه يدل على قصر نظـر الدولـة ، حيث إن طـاقتها الحربيـة المتمثلة فى قـواتها الموزعة على هـذه الولايـات كانت محدودة للغـاية ، إذ كـانت الدولـة فى ضعف عام، فكـان معنى سحب قوة مـا من إحدى الولايـات يضعف نفوذهـا فى هذه الجهة . وكـان هذا من غير مقـابل إذ إن مسألة اليمـن كانت لا تحتاج كـل هذا المجهـود الحربى الضخم بل كـانت تحتـاج فى الـدرجـة الأولى إلى الالتقـاء مع الواقع اليمنى ، والتفاهم مع الإمام مباشرة . فـالواقع أن أهالى اليمن ليسوا جميعًا من الزيـديين ، كما أن هؤلاء ليسـوا جميعًا أتبـاعًا لـلإمام ويحاربـون خلفه وحتى القبـائل الشافعيـة التى تثور ضـد العثمانيين إنما تثـور ضد أوضـاع فاسـدة من السهل على الأتراك تلافيها وكسب هؤلاء إلى جانبهم . وهذ كله سيتضح بجلاء عند الحديث عن الصلح (سنة ١٩١١) ومعرفة دوافعـه ونتائجه ، وكذلك بعد الإشارة إلى الحرب الطرابلسية ، وسبب هزيمة الباب العالى أمام إيطاليا .

ولكن صممت الـدولـة على إرسال حملـة ضخمـة لإنهاء هذا الاستعصـاء المزمن ، وقد أشرنـا إلى ضخامة هـذا المشروع وما ستتكلفه الـدولة فى سبيل ذلك وما ستنـوء به خـزانتها من عبء كبير . ولكن قـائد هذه الحملـة المشير عبد الله بـاشا تـوفى وهـو فى طـريقه من الحجـاز إلى اليمن نتيجـة « مـا كان يعتريـه من النزلات الصـدرية » فعين البـاب العالى عزت بـاشا رئيس أركـان حرب الجيش بدلا منه قائدا لهذه الحملة . وشخصية عزت بـاشا شخصية جديرة بالتعريف لما قام به صاحبها من دور هام : « هو من أعلى بيوت المجد والشرف فى ألبانيا ، وقد تربى تـربية عسكرية عاليـة فى ألمانيا حتى إن الإمبراطور غليوم كـان يفتخر بأن المدارس الألمانية أنجبت مثلـه من العثمانيين . وكان السـلطان عبـد الحميد قد نفاه إلى سوريا أثناء حكمـه لمـدة طويلـة ، إذ كان يخشى الشخصيات القوية المسـتقلة ، ولمـا زار غليـوم سـوريا قـال فى حديث لـه إلى والى بيروت إذ ذاك : « إذا كـان الجيش العثمانى يستغنى عـن عـزت باشـا فإن الجيش

الألمانى فى حاجة إليه » . فاضطر السلطان عبد الحميد أن يرقى رتبته بعد ذلك ، وأن يرسله إلى اليمن فريقًا على الفرقة الرابعة عشر المقيمة فى الحديدة . وقد سار سيرة حسنة فى بلاد اليمن ، وأحبه أهلها حبًّا شديداً ، ولكنه لم يلبث أن أعيد إلى منفاه فى سوريا قبل إعلان الدستور بزمن قليل . ولما أعلن الدستور عين على الفور رئيسًا عامًّا لأركان حرب الجيش العثمانى بإجماع رجال الدولة ، على أنه ليس هناك أكفأ منه لهذه الوظيفة العالية[١] » وقال عنه الريحانى عند حديثه عن الصلح « فسعى عزت بما كان له من حنكة وفصاحة وكرم أخلاق إلى مصالحة الإمام . وقد كان عزت كريمًا وجواداً ... واستمال الإمام بفصاحته وحذقه »[٢] كما قال عنه الواسعى عند حديثه عن الصلح أيضًا أنه هو الذى توصل إلى عقده مع الإمام « وتوفق هذا الدواء (يقصد الصلح) الرجل الشهم الغيور عزت باشا... »[٣] .

زحف عزت باشا من الحديدة إلى الداخل قاصداً صنعاء لفك حصارها ، وقد حدثت عدة معارك بينه وبين القبائل المختلفة على طول الطريق ، فلم يكن الطريق معبداً سهلا فى الحقيقة . ويعدد الواسعى بعض المعارك التى وقعت قبل وصول عزت باشا إلى صنعاء فيقول : « ثم خرج عزت باشا من الحديدة والحرب فى طريقه لم يزل منها حرب مشهور فى « مفحق » ثم حرب عظيم فى « بيت السلامى » و « قملان » .. ثم فى « شعبان » مقابل محطة « متنة » التى يسميها الأتراك « سنان باشا » - قامت حرب عظيمة اختلط العرب والترك ووقع الضرب بالسيوف والمدى ، وفى ذلك يقول عزت باشا لو كان للدولة ألف رجل من هذه الرجال لأخذنا أوروبا بأسرها : لم يزل الحرب فى الطريق إلى « رأس عصر » مقابل مدينة صنعاء ... »[٤] . وفى

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٩٨ الخميس ٢٣/ ٢/ ١٩١١ (٢٤صفر ١٣٢٩هـ) ص ٢ .
(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جزء أول ، ص ١٤٦.
(٣) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ .
(٤) نفس المرجع : ص ٢٣١ .

الحقيقـة لقد صـاحبت هـذه المعارك ظـاهرة عجيبـة ، وهى تقليـدية عنـد أهل اليمن، ألا وهى انسحابهم أمام الجيوش التركيـة - إذا أحسوا بقوة عدوهم - إلى جبالهم ومعاقلهم على الهضبة وخاصـة فى الشمال . لذلك يرى البعض أن عزت باشا فى زحفه إلى الـداخل « لم يلق المقاومة التى كان يتوقعها ، فـرغم أنه حارب كثيراً فى طـريقه إلا أن الثـوار لم يـدافعـوا عن معقل من معاقلهـم العديـدة بين الحديدة وصنعـاء مدافعـه تستحق الذكر » . وقـد علق صاحب هـذا الرأى على كلامـه محاولا تفسيره وتحليله فيقـول « وقد دلت النتـائج على أن تقاعـدهم عن مقاومة الجيش كانت من حكمة من الإمـام وليس جبنًا منه ومن رجاله إذ لما بلغ الجيش صنعاء رأى أنه لا يستطيع أن يخطو إلى مـا وراءها » . ولكن رغم أن هذا الرأى يحمـل بعض الصحة إلا أن الحالة لم تكـن بسيطة أو سارت هكـذا بشىء من الرتابة والتنظيم ، فيتقدم عزت باشـا من الحديدة ليجد ثواراً ينسحبون أمامه بعد القيـام بمناوشـة ينظمون بها انسحابهم مثـلا . ولكن الحالة كـانت ملتهبة ، والحرب دائرة على أشـدها ، وخـاصة إذا عـرفنـا أن جزءاً كبيراً من جيش الثـوار الذى يحاصر صنعاء قد انسحب من حول صنعاء فى حوالى منتصف شهر فبراير سنة ١٩١١ لملاقاة قـوات عزت باشا التى كـانت تتقدم من الحديدة ، كما ظلت قوة كـافية من الثوار تحاصر صنعـاء وتبقى حاميتها تحت رحمتهـا . كما حدث فى النصف الثانى من شهـر فبراير هذا أن هـاجم رجال الإمام « النـازلين فى جوار صنعاء قـافلة مـؤلفة من ثمانين جملا تحمل أرزاقـًا ومؤونـة إلى الجنود من حـامية مدينة حجة . وقد قتل اليمانيون خمسين نفراً من الجنـود الذين حاولوا الدفاع عن القافلـة وانهـزم البـاقون ، وفى تلغراف رسمى من متصرف الحديـدة إلى الباب العالى بتـاريخ ١١ فبراير سنة ١٩١١ أن الأميرالاى رضـا بك قاد الستـة طوابير

---

(١) المنـار : المجلـد ١٥ ، جـزء ٢ ، ص ١٠٧ (الصـادر فى أول صفـر ١٣٣٠هـ - ١٨/٢/١٩١٢) .

(٢) Wavell ; A Modern Pilgrim in Aecca, p. 269 .

الألمانى فى حاجة إليه » . فاضطر السلطان عبد الحميد أن يرقى رتبته بعد ذلك ، وأن يرسله إلى اليمن فريقًا على الفرقة الرابعة عشر المقيمة فى الحديدة . وقد سار سيرة حسنة فى بلاد اليمن ، وأحبه أهلها حبًّا شديداً ، ولكنه لم يلبث أن أعيد إلى منفاه فى سوريا قبل إعلان الدستور بزمن قليل . ولما أعلن الدستور عين على الفور رئيسًا عامًّا لأركان حرب الجيش العثمانى بإجماع رجال الدولة ، على أنه ليس هناك أكفأ منه لهذه الوظيفة العالية[١] » وقال عنه الريحانى عند حديثه عن الصلح « فسعى عزت بما كان له من حنكة وفصاحة وكرم أخلاق إلى مصالحة الإمام . وقد كان عزت كريمًا وجواداً ... واستمال الإمام بفصاحته وحذقه »[٢] كما قال عنه الواسعى عند حديثه عن الصلح أيضًا أنه هو الذى توصل إلى عقده مع الإمام « وتوفق هذا الدواء (يقصد الصلح) الرجل الشهم الغيور عزت باشا... »[٣] .

زحف عزت باشا من الحديدة إلى الداخل قاصداً صنعاء لفك حصارها ، وقد حدثت عدة معارك بينه وبين القبائل المختلفة على طول الطريق ، فلم يكن الطريق معبداً سهلا فى الحقيقة . ويعدد الواسعى بعض المعارك التى وقعت قبل وصول عزت باشا إلى صنعاء فيقول : « ثم خرج عزت باشا من الحديدة والحرب فى طريقه لم يزل منها حرب مشهور فى « مفحق » ثم حرب عظيم فى « بيت السلامى » و « قملان » .. ثم فى « شعبان » مقابل محطة « متنة » التى يسميها الأتراك « سنان باشا » - قامت حرب عظيمة اختلط العرب والترك ووقع الضرب بالسيوف والمدى ، وفى ذلك يقول عزت باشا لو كان للدولة ألف رجل من هذه الرجال لأخذنا أوروبا بأسرها : لم يزل الحرب فى الطريق إلى « رأس عصر » مقابل مدينة صنعاء ... »[٤] . وفى

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٩٨ الخميس ٢٣/ ٢/ ١٩١١ (٢٤صفر ١٣٢٩هـ) ص ٢ .
(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جزء أول ، ص ١٤٦ .
(٣) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ .
(٤) نفس المرجع : ص ٢٣١ .

الحقيقـة لقد صـاحبت هـذه المعارك ظـاهرة عجيبـة ، وهى تقليـدية عنـد أهل اليمن، ألا وهى انسحابهم أمام الجيوش التركيـة - إذا أحسوا بقوة عدوهم - إلى جبالهم ومعاقلهم على الهضبة وخاصـة فى الشمال . لذلك يرى البعض أن عزت باشا فى زحفه إلى الـداخل « لم يلق المقاومة التى كان يتوقعها ، فـرغم أنه حارب كثيراً فى طـريقه إلا أن الثـوار لم يـدافعـوا عن معقل من معاقلهـم العديـدة بين الحديدة وصنعـاء مدافعـه تستحق الذكر » . وقـد علق صاحب هـذا الرأى على كلامـه محاولا تفسيره وتحليله فيقـول « وقد دلت النتـائج على أن تقاعـدهم عن مقاومة الجيش كانت من حكمة من الإمـام وليس جبنًا منه ومن رجاله إذ لما بلغ الجيش صنعاء رأى أنه لا يستطيع أن يخطو إلى مـا وراءها » . ولكن رغم أن هذا الرأى يحمـل بعض الصحة إلا أن الحالة لم تكـن بسيطة أو سارت هكـذا بشىء من الرتابة والتنظيم ، فيتقدم عزت باشـا من الحديدة ليجد ثواراً ينسحبون أمامه بعد القيـام بمناوشـة ينظمون بها انسحابهم مثـلا . ولكن الحالة كـانت ملتهبة ، والحرب دائرة على أشـدها ، وخـاصة إذا عـرفنـا أن جزءاً كبيراً من جيش الثـوار الذى يحاصر صنعاء قد انسحب من حول صنعاء فى حوالى منتصف شهر فبراير سنة ١٩١١ لملاقاة قـوات عزت باشا التى كـانت تتقدم من الحديدة ، كما ظلت قوة كـافية من الثوار تحاصر صنعـاء وتبقى حاميتها تحت رحمتهـا . كما حدث فى النصف الثانى من شهـر فبراير هذا أن هـاجم رجال الإمام « النـازلين فى جوار صنعاء قـافلة مـؤلفة من ثمانين جملا تحمل أرزاقًـا ومؤونـة إلى الجنود من حـامية مدينة حجة . وقد قتل اليمانيون خمسين نفراً من الجنـود الذين حاولوا الدفاع عن القافلـة وانهــزم البـاقون ، وفى تلغراف رسمى من متصرف الحديــدة إلى الباب العالى بتـاريخ ١١ فبراير سنة ١٩١١ أن الأميرالاى رضـا بك قاد الستـة طوابير

---

(١) المنـار : المجلـد ١٥ ، جـزء ٢ ، ص ١٠٧ (الصـــادر فى أول صفـر ١٣٣٠هـــ - ١٨/٢/١٩١٢) .

(٢) Wavell ; A Modern Pilgrim in Aecca, p. 269 .

الموجودة فى « عبال » إلى « مناخه » وأن كثيراً من الثوار التحقوا بجيوش الإمام النازلين إلى أطراف مناخه »[1] . وهكذا سار هذا الزحف من الحديدة إلى صنعاء وسط معارك وحروب ومناوشات عديدة حتى قرب نهاية مارس ، فطرد الثوار من مناخه بعد تكبدهم خسائر فادحة ، ووصلت مقدمة جيش عزت باشا إلى «سوق الخميس » وكان معنى هذا قرب فك الحصار القائم حول صنعاء . وقد أظهر الوالى المحاصر ، محمد على باشا نشاطًا مفاجئًا داخل المدينة وعند الأسوار تسهيلا لتقدم جيش النجدة وقد اشتدت وطأة الحرب فى هذه المرحلة الأخيرة ، وفى صباح ٥ أبريل سنة ١٩١١ ، ترك العرب كل مراكزهم وانسحبوا نحو الشمال ، وفى المساء من نفس اليوم دخل عزت باشا نفسه المدينة ، ومعه قواته . وفى اليوم التالى أقيم استعراض كبير للحامية ، وللقوة الجديدة فى المدينة ، فى ميدان أمام مبنى الحكومة ، وألقى عزت باشا خطابًا فى هذا الجمع الكبير بما فيهم أهل المدينة . واستقبلت المدينة القائد المنتصر بالفرح فأقيمت الزينات وأقواس النصر ، كما خرج كل أهالى صنعاء وهم يلبسون أحسن ملابسهم ليحيوا القائد الجديد رغم نزول المطر فامتلأت الشوارع بالناس فرحًا ، بانتهاء الحصار[2] .

لم يكن الوصول إلى صنعاء ، وفك حصارها هو نهاية المطاف بالنسبة للعثمانيين ، أو حلا لقضية اليمن ، بل كان هذا العمل فى حد ذاته خطوة لا بد أن يتبعها خطوات لإنهاء هذا الوضع والوصول إلى استقرار نهائى . حقيقة أن الأمر قد أصبح الآن أكثر تحديدا من ذى قبل ، إذ استطاع عزت باشا أن يؤكد نفوذ الدولة فى الساحل وخاصة فى الحديدة ، ثم على المدن والمراكز الواقعة فى الطريق من الحديدة إلى صنعاء ، ولكن هذا كما قلنا لم يعن مطلقًا أن اليمن خضعت تمامًا للقائد المنتصر ، بل كان الإمام ما زال له النفوذ

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٠٤ الخميس ٢/ ٣/ ١٩١١ (أول ربيع الأول ١٣٣٩) ، ص ٥٤ .

(٢) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. 278.

الأكبر والأوسع على الهضبة ، فمعظم مراكز ومدن الهضبة وخاصة فى الشمال مازالت فى يد رجال الإمام أو القبائل الموالية له .

وكان الإدريسى يشكل خطراً كبيراً أيضا فى عسير ، فهو يجمع حوله كثيرا من القبائل هناك ، ورجاله مسلحون شجعان يؤمنون به ويخلصون لشخصيته القوية . بل استطاع أن يحاصر مدينة «أبها» عاصمة العثمانيين فى عسير سنة ١٩١٠ ، ولم يفك حصارها إلا حملة قوية تعاون فى إرسالها الشريف حسين أمير مكة والعثمانيين فى اليمن . واتفق الطرفان على أن تكون مدينة «الليث» هى نقطة التقائها وانطلاقها ، ولكن هذه الحملة لم تفعل أكثر من فك حصار « أبها » وانسحب الإدريسى إلى المرتفعات ومراكزه الأخرى ، وهو مصمم على أن يبدأ من جديد ويستخلص عسير من الأتراك أو يجبرهم على الاعتراف بوضعه فى عسير أو باستقلال ذاتى « يمكنه من إسعاد أهلها ، ورفع الظلم عنهم »[١] . وقد شجع الإدريسى على القيام بهذا العمل التقارب الذى حدث بينه وبين الإمام يحيى ، وعندما رأى الأخير قد أعلن ثورته العامة وبدأ زحفه إلى صنعاء[٢].

لم يكن الأمر سهلا أمام عزت باشا ، عندما وصل إلى صنعاء ، إذ كان عليه أن يواجه أكثر من عدو ، وهم جميعًا أقوياء ، ولهم أهمية كبيرة ، وعليه أن يحسب حسابهم .

كان هؤلاء الأعداء جميعًا تجمعهم غاية واحدة ، وشعور واحد ، وهو كره حكم العثمانيين . إذ لا يمكن فهم التقارب بين الإدريسى والإمام إلا على هذا الأساس ، فهناك اختلافات مذهبية بينهما ولكن عداءهما للعثمانيين جعل كلاً منهما ينظر للآخر نظرة مادية بحتة ، نفعية فى أساسها ، فكلٌ يستطيع

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٤٢ .

(٢) Hogarth ; Arabia, p. 121 .

أن يعتمد على الآخر - من ناحية الشكل على الأقل - فى مضايقة العدو المشترك ومهاجمة قواته ، هذا فضلا عن موقف القبائل الشافعية فى الجهات المختلفة من عزت باشا ، سواء فى الساحل مثل « الزرانيق » و « القحرا »[١] - وهى قبائل مستقلة عن الإمام ولكنها معادية للأتراك فى نفس الوقت - أو فى عسير أو على الهضبة . ويلاحظ أن الإدريسى كان خير من يفهم الروح القبلية ، فهو يعرف أنه لا يمكنه ربط القبائل اليمنية بوجه عام ، وقبائل عسير بوجه خاص ، بفكرة مجردة لمدة طويلة . فطبيعتهم الجبلية القبلية تفرض عليهم نقص قدرتهم على التحمس لفكرة جامدة وباستمرار ، رغم أنهم يستطيعون الحرب - فى أى وقت - لفرض ما يتعلقون به ، لذلك كله لم يجعل الإدريسى لحركته طابعًا دينيًّا فحسب - بل طبعها بالواقعية أيضًا ، إذ كان مبدؤه هو « عسير للعسيريين» . كما أنه أحسن استغلال وتوجيه البدوية الأولية مثل تعلقهم بالثأر ، والحرية الذاتية ، والغنائم ، والرغبة فى القتال[٢] . وبناء على هذا الفهم العميق قامت خطورة الادريسى ، وكان الأتراك يخشونه ويحاولون كسر شوكته . أما على الهضبة فلم يكن الأمر يختلف كثيراً ، إذ كانت القبائل هناك تنقسم إلى قسمين : إما قبائل زيدية متعصبة للإمام وينتظرون إشارته - وكان يدفعهم لهذا عوامل أخرى كثيرة غير الوحدة المذهبية وأهمها الفقر الاقتصادى الذى يعانون منه كثيراً - أو قبائل غير زيدية وهذه لها دوافعها الخاصة أيضًا ، فسوء الإدارة العثمانية والضرائب العالية تصيبهم فى صميم حياتهم ، وتدفعهم دفعًا إلى الذود عن حياتهم وأرواحهم .

وإلى جانب هذا كله فقد نجح الإمام فى إغراء أولئك وهؤلاء بالغنائم الوفيرة التى يمكن الحصول عليها إذا شاركوه فى مهاجمة العثمانيين . وأكد

(١) هى نفس القبيلة التى أشرنا إليها من قبل ويكتب اسمها فى المراجع العربية فى عدة صور : القحرا ، القحراء ، القحرى .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, p. 36.

« برى » هذا المعنى بقوله « فقد استطاع الإمام مثلا أن يكسب إلى جانبه سكان شرق اليمن السنيين بواسطة الوعد بالغنائم ضد الأتراك السنيين »[١] .

حقيقة أن أهالى وسط الهضبة وجنوبها مثلا ليسوا متعصبين ، رغم أن تفكيرهم الدينى كان قويا بل أقوى مما فى سفوح الجبال أو فى تهامة ، ولكنهم فى نفس الوقت ليس لديهم الوقت الكافى للتعصب للمشكلات المجردة فالأرض لابد من حرثها ، كما أن تغير فصول السنة وسقوط الأمطار وغيرها - أو بمعنى آخر أن النواحى العملية التى تتطلبها معيشتهم اليومية - لا تحتمل مطلقًا الإهمال أو الإمهال بل تتطلب دائمًا رعاية ويقظة . لذلك كانت الحركات الثورية التى تقوم فى صنعاء لا تتمكن من الانتشار فى الريف بسهولة لأن رجال التلال لن يعيروا هذه الحركات اهتمامًا إلا إذا كانت تمسهم شخصيًا[٢] . ومعنى هذا أنه كان على عزت باشا أن يسرع ليتلاقى مع الواقع فى منتصف الطريق . فكان عليه أن يفهم مثلا أن قليلا من إصلاح الإدارة وتخفيف الضرائب وعدم التدخل فى حياة القبائل يساعده مباشرة على كسب نصف المعركة . كما يمكنه هذا من أن يجعل كثيراً من القبائل تنفض من حول الإمام - الذى يمثل لهم روح المقاومة ضد ظلم الأتراك ومفاسدهم - وكان الإمام لا يستطيع أن يحتفظ بهذه القبائل طويلا فى الميدان دون غنائم يغريهم بها باستمرار . ولكن كان أمام عزت باشا مشكلة خطيرة ، وهى الصورة أو الأوضاع التى كان عليها اليمن حينئذ بعد دخوله صنعاء . فكان عليه أولا أن يسيطر على هذه الأوضاع ، أو يعمل على تهدئتها بطريقة أو بأخرى ، ثم يدخل فى تفصيلات بعد ذلك لضمان استقرار الأمور فى اليمن نهائيًا .

كل هذه العناصر المختلفة - الإدريسى والإمام والقبائل - كانت أمام عزت باشا وهو فى صنعاء . وكان يرى أن على العثمانيين أن يسلكوا أحد

---

(١) bury ; Arabia Infelix, p. 33.

(٢) Ibid ; p. 34 .

طريقين : إما أن يـواصلوا الحرب بأى ثمن لإخضاع هذه الثـورة بالقوة - مع ما يحتاج ذلك من استعدادات ضخمة ومجهود كبير - وإمـا أن يكونوا أكثر واقعية فيفكـروا فى الاتفـاق مع الإمام - رأس المقـاومـة - وينظـروا فى إجابـة مطـالب الشعب اليمنى بوجه عام .

وقد حـدد الموقف - إلى درجة أكبر - فشـل محمد على باشـا والى اليمن فى حملته التى قادهـا ضد الإمام بعد دخـول عزت باشا صنعـاء وفك حصارها ، إذ خرج محمد على بـاشا بقوة كبيرة لمطاردة الثوار فى الشمال الغـربى ولكنه عاد إلى صنعاء دون أن يحقق نتائج هامة[١] .

---

(١) Wavell ; A Modern Polgrimin in Mecca, p. 285 .

الباب الثانى

الحكم العثمانى منذ عقد الصلح مع الإمام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

(١٩١١ - ١٩١٨)

الفصل الأول

مقدمات الصلح

دور عزت باشا ورجاله فى إتمام الصلح :

اختار عزت باشا - الذى كان مزوداً بسلطات واسعة لحل مسألة اليمن بما يراه - طريق الصلح . وقد كان عزت باشا فى اختياره هذا منطقيًّا مع نفسه ، متمشيًا مع الواقع ، مستجيبًا للحظة التاريخية التى يعيشها هو ودولته وأهالى اليمن . فتطور أحداث اليمن منذ تولية الإمام يحيى الإمامة - على الأقل إن لم يكن منذ الفتح العثمانى الثانى - بما تحمل من تناقضات واضطرابات دائمة ، كانت تؤدى إلى ضرورة التهادن والالتقاء مع الواقع اليمنى ، وإلى ضرورة تخلى العثمانيين عن أساليبهم وأفكارهم البعيدة عن هذا الواقع .

وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية شخصية عزت باشا ، وعرفنا لمحة من تاريخه الماضى قبل ذلك . والحقيقة أنه لم يكن قائداً محنكا فحسب - بل كان إداريًّا من الدرجة الأولى أيضًا « وقد استغل فصاحته وبلاغته فى التقرب للإمام »[1] . وبالاضافة إلى ما كان له من سلطات واسعة منحها له الباب العالى ، فقد بذل مجهوداً كبيراً فى إتمام عقد الصلح ، وسافر إلى استانبول ليعرض مشروع الصلح على الباب العالى ويحوز رضاه عليه[2] . هذا غير الشجاعة الأدبية التى أبداها عند مقابلة الإمام لعقد الصلح ، فقد ذهب إلى الإمام فى « دعان » هو وحاشية صغيرة وتوغل وسط آلاف الجنود الإمامية الذين يزأرون باسم

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 121 .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, p, 16.

الإمام ، حتى أنهى مهمته وسط هذه المظاهرة العسكرية المتعمدة . ففى وصف الواسعى لهذه المقابلة تصوير دقيق لشخصية هذا الرجل الذى لم يرسل من هو دونه ليقابل عدو الأمس واليوم . فيقول : « وقد جمع الإمام بعض قواده ورجاله إلى هذا المحل (دعان) مع عشرات الألوف من العساكر ، وخرج عزت باشا ، ومعه جملة من أركان الدوله من العرب والترك منهم القاضى العلامة عبد الله بن حسين العمرى . ولما وصل عزت باشا ومن معه إلى عمران ، أطلقت المدافع من القلعة فرحًا لا ستقباله لهذا السعى العظيم الذى فيه حياة أمتين ، عربية وتركية . وكان الإمام قد وصل إلى دعان قبل وصول عزت باشا . وقد أرسل الإمام لاستقبال عزت باشا جملة من رؤساء القبائل والمشايخ ، ولما كان بينهم وبين دعان ساعة ونصف ، استقبلهم ألوف من العساكر وهم يطلقون بنادقهم فى الفضاء ، وهى علامة التحية وهم ينشدون الأناشيد الحربية الحماسية وفيها المدح للإمام وللدولة والوطن ، وتسمى بعرف اليمن الزامل.. »[١] .

ولنا أن نتساءل الآن : هل كان عزت باشا - بما كان له من سلطات واسعة ورغبة فى عقد الصلح ومجهودات بذلها فى هذا الشأن - هو الشخص الوحيد الذى قام بهذا المجهود ، أم كان وراءه صف آخر من الرجال المتازين عملوا معه وساندوه فى إتمام مهمته الكبيرة ؟

الحقيقة أن عزت باشا لم يكن وحده أبداً فى مهمته الحربية السلمية فى اليمن بل كان لعناية الحكومة بالحملة الحربية التى أرسلتها لليمن لإنهاء مسألتها ، أن جعلت لعزت باشا هيئة أركان حرب من الرجال الممتازين. وكانوا رجالا عسكريين فى الأصل ، ولكنهم أظهروا هما عالية فى المجال السياسى والادارى وكان من أعضائها عزيز على المصرى وسليم الجزائرى ، وكانا من خيرة ضباط

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٤ .

العرب فى الجيش العثمانى . كما كان على رأس هـذه الهيئة رجل لمع فيما بعـد هو عصمت باشـا ، الذى أصبح رئيسًا للجمهوريـة التركية بعد ذلك . وقـد ساهم عـزيـز المصرى وسليم الجزائرى إلى حد كبير فى المسـاعى التى بـذلت للتـوفيق وأدت إلى صلح دعان [١]، ويمكن أن يبرز الدور الذى قام بـه عزيز المصرى من حديث أحد الضباط الأتراك إلى جريـدة « المفيد » البيروتية والذى نقلته المنار ، فقد جاء فى حـديثه أنه قال « التحق عزيـز بك المصرى بحملة اليمن ، وفى النية أن يوفق بين عزت باشـا والإمام يحيى حقنًا للدماء . وهذه العـاطفة التى وجدها عزيز بك فى قلب عزت باشا سهلت عليـه سبيل الاتفاق مع الإمام . وعزيز بك هو بطل هذا الاتفـاق ، وأؤكد لكم أن هذا البطل هو من أصدق الـرجال الذين خدمـوا الدولـة والأمة معًـا ، فإن خوفـه على دولته من الانقـراض لاشتغالها عن الأمور الخارجية بتجـريد الحملات على أبنائهـا ، وحبه بقاء العرب ذكـراً للدولة تستصرخهم عند الحاجة ، حملاه على عقد الاتفــاق . وقـد تمكــن بطلاقة لسانه من إقناع الإمـام بأن القتال إذا اســـتمر بينه وبين الدولة فإن الأجـانب الذين يتربصون بنـا الدوائر سـوف يستولـون على هذه البـلاد ، وعلى هذه الفكـرة بنى أساس الاتفاق بين عزت بـاشا والإمام يحيى »[٢] . وهذا الحـــديث يعبر أساسًا عن الـــروح الـــتى سادت هيئة أركان حرب عزت باشا والرجـــال المقربين إليه. وهذا مـا قصدناه من ذكـرها هنا أكثـر مما قصدنـاه من بيان دور فرد معـــين أو الحديث عن شخصية بذاتها . وهناك كـذلك شخصية أخرى لها أهميتها وستبرز فى الفترة التى تعقب عقد الصلح مباشرة ، وتستمر معنا - لا حتى نهاية حــكم الأتـــــراك فى اليمـن وأواخـــر الحرب العـــالميـــة الأولى فحسـب - بل

---

(١) أمين سعيد : اليمن ، ص ٣١ .

(٢) المنـار : المجلد ٥ ، الجزء ٢ ، الصـادر فى أول صفـر ١٣٣٠هـ (٨ فبرايـر ١٩١٢) ص ٥٣-٥٤ .

ستستمر خـلال حكم الإمام يحيى نفسه بعـد استقلاله نهائيًا . هـذه الشخصية هى شخصية محمود نديم بك ، وكان سوريًّا ويجيد اللغة العربية ، وكان يد عزت باشـا اليمنى فى المفاوضات مع الإمام . وقـد تركه عزت بـاشا خلفًا مدنيًّا له فى اليمن عندمـا عاد إلى استانبـول ليعرض الصلح على البـاب العالى ويحصل على الموافقة عليه .

موقف العثمانيين عامة من مفاوضات الصلح :

هـذا هو الـدور الـذى قام بـه العثمانيـون الذين داخل اليمن لإتمام عقـد الصلح ، ولكن هناك مجهودات أخـرى بذلت خارجها ، وفى الآستانـة بالذات ، يجب الإشارة إليهـا . وقد سبق أن تكلمنـا عن الآراء التى تظهر هنـا وهناك التى تعبر عن كيفية حل المسألـة اليمنية ، وأن البعض كان يشير على الحكومـة باتباع القوة كطـريقة مثلى فى هـذا الشأن . وكانت الحكـومة تأخـذ فى كثير من الأحيان بهذا الرأى وتـرسل الحمـلات العسكرية ، ونجـدات الحملات . وكـان البعض الآخر ينادى بالاتفاق مع الإمام وإجابة مطالبه بقدر المستطاع ، وكانت الحكومة تأخذ أحيانًا أيضًا بعض هـذه الآراء . واستعرضنا كل ذلك ولكننا نحب هنا أن نبين أمرين هـامين وهما : موقف الأحزاب العثمانيـة فى مجلس المبعوثان بـالنسبة لمسألة اليمن ، ومـوقف الحكومة السلمى بعد أن أرسلت حملتهـا الكبيرة هذه إلى هنـاك ، وهو مـوقف تمثل فى تأليفهـا لجنة لبحث مسألـة اليمن ضمت كثيراً من العناصر المهتمة المدركة لقضية اليمن .

برز فى مجلس المبعوثان فى هذه الآونة ثلاثة اتجاهات أو ثلاثة أحزاب :

الحزب الأول : هو حـزب الاتحاد والترقى ، وكان فى يـده أكثريـة المجلس وبالتـالى النفوذ والسلطـان ، فكان لا بد من مـوافقته حتى يتم انتخـاب أعضاء الوزارة ورجـالات الدولة . وكـان موقفه من مسألـة اليمن معروفًا واضحًـا ، فهو

المسئول مباشرة عن جميع الأعمال الحربيــة التى تمت فى اليمن ، ومسئـول عن موقف الحكومـة المعاند - لا من هذه المسألة فحسب - بل من القضيـة العربية بوجه عام .

الحزب الثـانى : وهـو الحزب الحر الائتـلافى ، وأكثـر أعضـائه من العـرب والألبان إلى جـانب أعضائه الأتراك ، ولكـن قلة النظام فى هـذا الحزب ، حالت دون ازدياد عدد رجالـه وبلوغه المكانة التى يقتضيها بـرنامجه وتستحقها خطته ، وأهمية القضـايا التى يعتنقها ، مثل الحريـة للعناصر المختلفة فى الإمبراطـورية ، والمسـاواة بينها ، والـلا مركـزيـة الإدارية وغيرهـا . وهذا الحزب لم يصرح ببيـان مفصل عن رأيه فى مسألة اليمن ، وشكل إدارتها فى المستقبل ، إلا بقدر ما يفهم من مجمل البرنامج العام السياسى الـذى نشر عند تأسيس الحزب . وكان موقفه يظهر أسـاسًا فى الوقوف ضـد الحكومة فى المجلس وسـؤالها عن الحالة فى اليمن ومناقشتها فيما يمكن أن تعمله أو فيما يجب عمله ، وغيره من المواقف البرلمانية .

الحزب الثالث : وهو حـزب الأهالى ، وأكثـر رجالـه من الأتراك الاتحاديين الـذين انفصلوا عـن حزب الأكثـريـة فى عام ١٩١٠ ، وكـان يعضـدهم بعض الأتراك الذين ظلوا على الحياد ، وهو أميل إلى المعارضة . وكان حزبًا منظمًا فعالا. ونحن نـرجع ذلك إلى تشكيله من رجـال تمرسوا عمليًـا على الأساليب البرلمانيـة والمواقف الساسية ، مما جعلهم أكثر فعالية من الحزب الثانى .

وكـان لهؤلاء مـواقف عمليـة بـالنسبة لقضيـة اليمن إذ كـانـوا يتقـدمـون بمشروعات إيجابية مدروسة لحل القضية . وقد نشر لطفى بك فكرى أحد رجال هذا الحزب البارزين ، ومبعوث لواء « درسم » فى جـريدة « إقدام » التركية ، بيانًا عن المسألة اليمنية ، ونقلتـه عنها جريدة المؤيد المصرية ، تضمن لائحـة بقانون أراد عرضها على مجلس المبعوثان لتكون أساسًا يبنى عليه شكل الإدارة فى اليمن وكان رأيه أن الدولـة تتبع وسائل التخدير والحلول الوقتيـة فى حل هذه المسألة .

ولكنه نصح بأن « يترك تنظيم النظامات القانونية لولاية اليمن نفسها » ويقول « إن هذا أجدى لأنه يلازم الواقع ويتجاوب معه باستمرار عن كثب».

وأخذ يشرح بعد ذلك الطرق والنظم التى يراها فقال : « والطريقة الإدارية التى أستحسنها فى هذا القانون تدور حول تعيين وال على اليمن من الآستانة تكون له سلطة واسعة ، وهو يناظر على مجلس عمومى يعقد فى مركز الولاية مؤلفًا من سادات القبائل ومشايخها وفقهائها ، ومن مندوبى البلاد اليمانية ، ويعهد إلى هذا المجلس العمومى بسن تلك القوانين الخاصة بالولاية وأوجه جباية الأموال اللازمة للحكومة ، وعلى مركز السلطنة أن يسد عجز ميزانيتها إذا كان ثمة عجز ، أو يأخذ زيادة وارداتها إذا توافرت الزيادة . واشترطت لأجل الاطمئنان على عثمانية الولاية أن تصدر إرادة سنية سلطانية مصدقة على كل قانون يختص باليمن « وأرى أن هذا القانون إذا أحسن تطبيقه والعمل به لا يلبث بضع سنين حتى يأتى بالثمرات المطلوبة » ثم سرد التنظيمات المختلفة الخاصة بإدارة الولاية والمجلس العمومى والشئون المالية والمعارف والأمن والعدل[١] .

هذه هى المواقف المختلفة لأحزاب مجلس المبعوثان والآراء التى لدى كل

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٠٨ الثلاثاء (٧/ ٣/ ١٩١١) (ربيع الأول ١٣٢٩) ص ١ ، ٢ .

من الجدير بالذكر معرفة أعضاء مجلس المبعوثان هذا ومعرفة جنسياتهم حتى يمكن فهم موقف كل من هذه الأحزاب بجلاء وإدراك سبب تغلب الأفكار التركية على باقى الأفكار . نقلت جريدة المؤيد (العدد ٦٤١١ الأحد ٩ يوليو ١٩١١) (١٣ رجب ١٣٢٩) عن جريدة الحضارة بيان بتقسيم المبعوثين (النواب) فى المجلس حسب جنسياتهم وهو كالآتى : ١٥٥ أتراك (منهم ١١٣ عن ولايات الأناضول ، ٢٧ عن ولايات الروملي ، ١٥ عن الولايات العربية) ٥٠ عرب ، ٢٥ روم ، ٢٠ أرناؤوط ، ١٠ أرمن ، ٧ أكراد ، ٥ بلغار ، ٤ يهود ، ٣ من رجال الحرب . ثم قالت الجريدة : ولا ينتظر أن تتغير كثيراً هذه النسبة إلا إذا دخل أهل جزيرة العرب أفواجا فى دفاتر الدولة فحينئذ يرجى أن يزيد نواب العرب زيادة تذكر .

منهـا ، وهى متبـاينـة عن بعضهـا البعض ، ولكن أهميتهـا أنها تـوضح مـوقف المجلس بكل صـورة بالنسبة لمسـألة اليمن . ولكن كـان هناك موقف حكـومى لابد من الإشارة إليـه ، وهو الذى تبلور فى تشكيل « لجنـة إصلاح اليمن » حتى يتضح الموقف العثمانى بأكمله . قرر مجلس النظـار العثمانى تأليف لجنة لدراسة مسألـة اليمن ، وتقـديـم الاقتراحـات أو التـوصيـات والمشروعـات لحل هـذه القضية، وقد عهد برئاسة هذه اللجنة إلى توفيق بك رئيس دائرة الماَلية فى شورى الـدولة ، وكـان قبل ذلك واليًا على اليمن عنـدما سقطت صنعـاء فى يد الإمـام (١٩٠٤ - ١٩٠٥) أما أعضاء اللجنة « فهم سماحة الشيخ محمود أسعد أفندى ناظر الـدفتر الخاقانى ، وفريد باشـا رئيس دائرة المشاة ، وإسماعيل حقى رئيس دائرة اللـوازم العسكريـة ، وغـالب بك مـديـر الأمن العام ، وعبـد المجيـد بك محاسب صندوق التقاعد العسكرى » . وكـان لهذه اللجنة حق استدعاء مبعوثى اليمن إليهـا عند الحاجـة لأخـذ معلومـاتهم عن اليمن والحالـة فيها وكـان أول اجتماع لهذه اللجنة يـوم الأحد ١٩/ ٣/ ١٩١١ ، وكـان عليها أن تقـدم ما تصل إليه إلى وزارة الـداخلية[١] . وقـد انضم إليها بعـد ذلك الأعضاء الآخـرين مثل الفريق يـوسف باشا وكان قـائداً فى اليمن قبل ذلك ، وفى تصريح للشيخ محمود أسعد أفندى ، أحد أعضاء اللجنة ، إلى محرر جريـدة استانبول الفرنسية - نقلته عنها جريدة المؤيد - « أن الإدارة التى تضع الآن خطة للجـرى عليها فى اليمن ليسـت من قبيـل الاستقلال الإدارى ، وإن كـانت ذات سـلطة واستقـلال أوسـع من سـائر الولايات واستقـلالها » ثـم قال : « إن اللجنـة سـتطلع على جميـع المسـتندات والتقارير المقدمـة سـابقًا ، مثـل تقرير حسـين حلمـى باشـا الصـدر الأعظم السابق وبعض الآراء المفيدة مثل رأى فيضى

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ الاثنين ٢٧/ ٣/ ١٩١١ (٢٦ ربيع الأول ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

باشا الذى مكث طويـلا فى اليمن . وأن اللجنة ستبدأ المداولة فى هذا الشأن فى ٢٧/ ٣/ ١٩١١ »[1] . ونحب أن نشير إلى مـلاحظة هـامة وهى أن أمـر تشكيل هذه اللجنـة وتاريخ أول جلسة لها يـدلان على حقيقة هـامة ، وهى أنها تشكلت وبدأت عملها فى نفس الوقت تقريبًا - أو حوالى ذلك الوقت - الذى ذهب فيه عزت بـاشا بحملته الكبيرة إلى اليمـن ، وفى أثناء اشتداد الحرب هنـاك بينه وبين الإمام .

وصل عـزت باشـا إلى الحديـدة فى شهر فبرايـر ثم زحف إلى صنعـاء حتى وصل إليها واستطاع فك حصارهـا فى أوائل شهر أبريل (١٩١١) بينما كان أول اجتماع لهذه اللجنـة مارس ١٩١١ . وهـذا يعنى مبـاشرة أن العثمانيين أرادوا أن يستعملوا أسلوبين فى حل أزمـة اليمن ، الأسلوب الحربى والآخر السلمى ، وأن هـذين الأسلوبين سـارا متـوازيين تقريبًـا ، لا من حيث الـزمن فحسب بل من حيث الأهمية أيضًا .

فنحن نـرى أن عزت باشـا لم يكن يتمكن من الحصـول على موافقـة الباب العالى على الصلح إلا إذا كان فى العاصمة تفكير أو استعداد لعقد هذا الصلح ، أو بمعنى آخر يمكن القول إن عقد الصلح - من ناحية العثمانيين - كان عبارة عن التقـاء بين رغبات الحملـة العسكريـة الموجودة فى اليمن وبين المجهـودات السلمية التى كانت تبذل فى العاصمـة ، وكان هذا التفكير عند كل من الجهتين ينبثق دون شك من واقع الحالـة فى اليمن وثوراتـه التقليدية التـى طبعت تاريخه الحديث تحت الحكم العثمانى . وهذا يـؤدى بنا بالتالى إلى قبـول الرأى القائل - الذى سبق أن ذكرناه فى الفصل السـابق - إن إرسال الجيوش العثمانية إلى اليمن كان بغرض الإرهـاب والتخويف فقط ، و إظهار هيبة الـدولة ، حتى تتمكن من عقد صلح مشرف لها ، وحتى لا يكون لموقفها هـذا فى اليمن أثر فى باقى ولاياتها العربية .

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٣٠ الاثنين ٣/ ٤/ ١٩١١ (٤ ربيع الثانى ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

موقف الإمام يحيى

ويمكن أن نستعرض كذلك موقف الطرف الثانى من الصلح ، وهو الإمام يحيى ، ونعرف سبب موافقته على عقد هذا الصلح ، حتى يكمل فهم جميع الظروف والعوامل التى انبثق منها الصلح وشروطه المحددة بالذات .

ظهر خلال البحث موقف الإمام يحيى من الدولة العثمانية ، موقفه بجانبيه الحربى والسلمى .

وفى كل هذه المجهودات ، سواء الحربية أو السلمية ، استطعنا أن نبرز خطًا واحداً يربط كل هذه المجهودات ويجعلها تسير فى اتجاه واحد ، وهو يتمثل فى التمسك بمطالب معينة . ومطالبة العامة التى وضحت من أحاديثه وكتاباته التى جعلت القبائل اليمنية تلتف حوله ، كانت تتبلور أساسًا حول « مطالبته برفع ظلم موظفى الترك فى اليمن ، وتخفيض الضرائب التى يبالغون فى فرضها ويشتدون فى تحصيلها حتى فى سنى القحط ونضوب موارد الأرض ، وإقامة الشريعة ، وتغيير الموظفين الفاسدين »[١] ، أما مطالبه الخاصة فكانت تتمثل فى إجبار العثمانيين على الاعتراف بشخصه ووضعه الخاص فى اليمن . وكان مع هذا كله يعلن ولاءه للسلطان العثمانى ، وتعلق اليمانيين بالخلافة ، واعترافهم بها فى حالة حصولهم على امتيازاتهم الخاصة بولايتهم[٢] . وتجلت هذه المطالب فى النصين اللذين أوردناهما قبل ذلك وهما : الشروط التى تقدم بها لعقد الصلح بينه وبين فيضى باشا (١٩٠٦) ، وثانيًا : كتابه الطويل إلى وفد مكة ، أو بالأحرى مذكرته لهذا الوفد ، وقد ضمنها كل مطالبه وآرائه .

ومانريد أن نصل إليه هو أن الإمام كان يرغب فى الصلح حتى وهو

---

(١) Rec, du m, musulm, vol IV, ni. 1 (Janv, 1908) p, 96.

(٢) Corresp. d,Oricnt, 4eme , 15.2.1911, p. 155.

يحارب ، أى لم يكن يعنى الحرب لذاتها لكسب انتصارات أمام الأتراك ، بل كان يحارب ليدافع عن نفسه وعن مطالبه - أو بالأحرى - لكى يجبر الأتراك على الاعتراف به وبمطالبه . ويعنى هذا بالتالى أن الإمام كان يوافق على الصلح، بل ويتمناه ، لأن حالة الحرب - بصفتها حالة غير طبيعية فى أى زمان ومكان - كانت تتعارض أساسًا حتى مع مطالبه الشخصية ، ولا نقول هذا الكلام على علاته ، بل يمكن التدليل عليه . فقد قلنا قبل ذلك إن مبدأ اختيار الإمام من بين أبناء فاطمة بنت الرسول ، دون تحديد ابن الإمام الراحل بالذات مثلا ، أتاح الفرصة للمنافسة بين أفراد هذا البيت . وعددنا بعض الذين قاموا لمنافسة الإمام يحيى فى فترات مختلفة ، بدأت مع بداية توليه الإمامة ، واستمرت حتى بعد عقد صلح دعان مع الأتراك والمنافسين - بل كان يريد أن يعقد الصلح مع الأتراك لتأكيد شخصيته التاريخية من ناحية ، وللتفرغ لمحاربة المنافسين من ناحية أخرى. وكان هناك سبب آخر للصلح والسلم ، وهو إحساسه العيمق بقوة الترك ، حقيقة تمكن الإمام من دخول صنعاء سنة ١٩٠٥ ، ثم نجح بعد ذلك فى حصارها لعدة أشهر سنة ١٩١١ ، ولكنه كان فى كلا الحالتين ، يحارب حاميات مجهدة مهلهلة ، وكان سرعان ما ينسحب إلى معاقله الجبلية فى الشمال عندما يرسل الباب العالى النجدات القوية . وكان هذا الانسحاب رغم منطقيته مع الخطط الحربية ، يحمل فى طياته معنى الخوف ، والإحساس بقوة الترك العسكرية. لذلك كان دائمًا يعلن أنه يرغب فى الصلح ، ويعيب على الدولة أنها ترسل له القوات الحربية لمحاربته ، مع أنه يعترف بسيادتها .

وبالإضافة إلى هذين العاملين ، كان هناك عامل ثالث يجعل الصلح شيئًا ضروريًا بالنسبة له ألا وهو الوضع القبلى للمجتمع اليمنى ، فهذا الوضع سلاح ذو حدين وهذا يحتاج إلى بعض التفصيل . نعرف أن التشكيل العام للمجتمع هناك هو التشكيل القبلى وأن بعض هذه القبائل زيدية والباقى شافعية

كما نعرف أنه لم تكن كل القبائل الزيدية موالية للإمام بدليل وجود منافسين له من السادة أبناء فاطمة أنفسهم . هذا من ناحية التقسيم المذهبى ، ولكن هناك ناحية أخرى ، وهى أن الإمام فى ثوراته عمومًا كان يجد التأييد المادى والمعنوى من القبائل بصفة عامة تقريبًا ، لأنه كان يمثل لهم روح المقاومة ، وكان الرمز الذى يعبر عن استيائهم وسخطهم على الحكم العثمانى ومفاسده هناك . وكان من ناحية أخرى ، يستطيع أحيانًا أن يجذب إلى جانبه القبائل السنية ضد الأتراك السنيين للسبب السابق ، بالإضافة إلى إغرائهم بإعطائهم الغنائم الكثيرة التى يحصلون عليها من الترك . ولكن إغراء الغنائم هذا لم يكن مستديمًا أو فعالا دائمًا ، فهو ذو أثر وقتى فقط . فالغنائم معناها المباشر الحرب ، والحرب معناها الخسران بالنسبة للإمام ، حتى وهو ينتصر ويغنم ويلحق الأضرار والخسائر بالترك ، إذ كان ذلك يكلفه الكثير من الجهد والوقت اللذين يمكن أن يستغلهما فى تثبيت أقدامه ، ونفوذه بين القبائل عن الطريق السلمى ، ودون تدخل ، حتى يؤكد مستقبله هناك .

ويؤيد جيكوب ما ذهبنا إليه من ناحية وضع القبائل الشائك بالنسبة للإمام - بل قال إنه وضع شائك حتى للترك وللإنجليز - فيقول إن من أسباب موافقة الإمام على الصلح مثلا القبائل الزيدية نفسها ، وأهمها قبائل حاشد وبكيل ، وذو محمد وذو حسين . وهذه القبائل بالذات ، هى ذخر الإمام التى استغلها فى كل حروبه ، وهى عامل انتصاره ، ولكن هذه القبائل القوية نفسها - وهى الشىء الوحيد المزعج للترك والمقلق لراحتهم فى اليمن - هى فى نفس الوقت مشكلة بالنسبة للإمام نفسه - فقوتها هذه تحتاج إلى شخصية قوية جدًّا حتى تتمكن من السيطرة عليها ، تملك كثيراً من الأسباب إلى جانب قوتها الذاتية ، لذلك كله فرح الإمام بالصلح ، لأن الترك كانوا - بناء على شروط الصلح - يدفعون مباشرة الرواتب الشهرية المتفق عليها لهذه القبائل ، والتى كان الإمام مسئولا عن تدبيرها قبل هذا[١] .

---

(١) Jacob; Kings of Arabia, p. 70 .

العوامل المساعدة فى عقد الصلح :

هذا هو موقف كل من الدولة والإمام ، واتضح أمامنا الآن أن الطرفين كانا يميلان إلى الصلح ونشر السلام فى ربوع اليمن . ولكن كانت هناك عوامل أخرى خارجية ليست خاصة بأى منهما ، ولكنها أثرت فى موقف كل منهما تأثيراً فعالا مما حملهما على الموافقة على عقد الصلح أو الإسراع فى عقده .

العامل الأول ، هو تدخل بعض المعنيين بالأمر كوسطاء لتقريب وجهات النظر ، مثل الشريف حسين أمير مكة ، و « السير » أحمد سلطان لحج ، فقد قام الاثنان بمجهود يذكر فى هذا السبيل .بدأ الشريف بالكتابة إلى « السير » أحمد ، وذلك فى مارس ١٩١١ ، وأخبره أن عزت باشا قد وصل ومعه قوات ضخمة مصمما على إعادة النظام فى اليمن . كما أخبره أن الحكومة طلبت منه أن يلعب دوراً معينًا ضد تمرد الإدريسى فى عسير ، ثم طلب من السلطان أحمد أن يكتب للإمام يحيى بألا يتمادى فى عداوة الترك ، لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائيًا فى وقت قريب ، كما أخبره أن الحكومة طلبت منه أن يلعب دوراً معيناً ضد تمرد الإدريسى فى عسير ، ثم طلب من السلطان أحمد أن يكتب للإمام يحيى بألا يتمادى فى عداوة الترك ، لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائيًا فى وقت قريب ، كما أخبره أن الحكومة ستهتم بأمر الإصلاح فى اليمن . وكتب الشريف مباشرة إلى الإمام ، وتحدث له عن ضخامة قوات عزت باشا . وأخذ يذكره برسالته السامية ، ويحاول أن يقنعه بأهمية وحدة المسلمين وخطورة انقسام المسلمين على أنفسهم فى ذلك الوقت الحرج ، وأنه من واجب كل مسلم أن يعضد خليفة الإسلام « ولو بعقال بعير » وأنه من الجرم أن تبعثر قوى الخليفة فى ميادين جانبية ، وأن هذا ضد العاملين من أجل الدين ، وأن إراقة الدماء تغضب الجد الأعظم ، وهو النبى ﷺ . ثم أضاف أخيراً أنه هو نفسه على وشك التوجه إلى عسير لإخماد ثورة الإدريسى . وقد أسرع السلطان السير أحمد ، بالرد على رسالة الشريف حسين ، ووعد بأنه سيكتب للإمام ، وأنه فرح لسماعه بدخول جيش الباب العالى صنعاء منتصراً ، وأنه يرى أنه لا بد من

بقاء القائد التركى العام هناك حتى لا يتجدد القتال . ولكنه فى نفس الوقت ، عبر عن خوفه من تقدم الترك إلى الشمال ناحية أقاليم الإمام ، لأن ذلك سوف يثير القبائل الزيدية ، ويحدث تصادما عنيفًا بينهما ، فينتشر الحرب والاضطراب فى اليمن . كما حرص السلطان فى خطابه على أن يشير إلى خصائص الزيود ، وأن المتاعب التى يثيرها الزيديون لن تنتهى إلا إذا زالت هذه الأسرة . كما قال إنه يعتقد أن الشريف حسين هو خير وسيط بين الترك والإمام(١) . من هذا يتضح أنه كانت هناك محاولات من جانب الشريف حسين على الأقل لإقناع الإمام بالصلح ، وكذلك كانت له محاولات مع الأتراك ، للتقريب بينهما . ومما لا شك فيه أنه كان لهذه المحاولات أثرها عند الإمام ، إذ كان كلام الشريف مثلا يحمل التهديد والتخويف ، إلى جانب اللين والحيلة كتذكيره بضرورة الوحدة الإسلامية .

والعامل الثانى ، هو الحرب الطرابلسية ، فقد بدأت إيطاليا ضرب «طرابلس الغرب» بالقنابل من البحر ، وبدأت تنزل جنودها إلى الشاطئ بالفعل ، فى أواخر سبتمبر ١٩١١ ، أو بالتحديد فى صباح أول أكتوبر ١٩١١. وأهمية حرب طرابلس هذه برزت فى أمرين : الأمر الأول : هو تعجيل الباب العالى بالموافقة على الاتفاق المقدم من الإمام . ففى منتصف شهر سبتمبر ١٩١١ - وقد وضح تحرش الإيطاليين بطرابلس الغرب ، كما ثبتت نية إيطاليا فى الاستيلاء عليها ، وأن الدول الكبرى تسكت على ذلك - أسرع الباب العالى فوافق على الاتفاق بعد إدخال بعض الشروط الطفيفة « أعاد الباب العالى لعزت باشا قائد الحملة اليمانية مطالب الاتفاق التى عرضها الإمام يحيى ، بعد أن عدل الباب العالى فيها بعض التعديل »(٢) . أما الأمر الثانى :

---

(١) Jacob ; kmgs of Araba, pp. 118 -119 .

(٢) المؤيد : العدد ٦٤٦٨ الخميس ١٤ / ٩ / ١٩١١ (٢١ رمضان ١٣٢٩هـ) ص ٢ .

فهو زيادة السخط العام على سياسة الحكومة فى اليمن ، وعلى كثرة إرسالها الجيوش إلى هناك . فانهزام الجيوش العثمانية فى طرابلس ، ووقوع الأخيرة فى أيدى الإيطاليين ، جعلت النواب العرب يستيقنون خطأ هذه السياسة العثمانية، إذ إن الحكومة كانت قد سحبت كثيراً من قواتها فى طرابلس لتحارب بها فى اليمن ، مما أضعف حامية طرابلس وسهل الأمر أمام إيطاليا[1] . إزاء ذلك يمكننا أن نقول إن حرب طرابلس الغرب أواخر ١٩١١ ، كانت من العوامل التى ساعدت على إسراع الباب العالى بالموافقة النهائية على الاتفاق الذى عقد بين الإمام يحيى وعزت باشا .

كيف توصل عزت باشا إلى عقد الصلح ؟

هناك عدة أمور اتبعها هذا القائد أوصلته إلى ما كان يصبو إليه من نجاح ، منها وأهمها نجاحه فى مهمته من الناحية العسكرية البحتة ، فهو كقائد عسكرى ، وضع نصب عينه إحراز الانتصارات العسكرية أولا ، ثم الاتصال بهؤلاء الثوار للاتفاق معهم ، وكان يرغب فى أن يثبت أن هناك قوة عثمانية قوية لا يستهان بها أتت اليمن ، وأرادت استرجاع بعض المدن التى استولى عليها الإمام ، وأنها - رغم قوتها واستعداداتها الضخمة - مستعدة للتفاهم للوصول إلى صلح نهائى .

أما الوسيلة الثانية فهى طريق المفاوضات والاتصالات الشخصية ، التى بذلها هو وأركان حربه . فقد أوضحنا أن رجال عزت باشا ، كانوا من المهارة بحيث استطاعوا إزالة كل العقبات بين الطرفين . أما الوسيلة الثالثة فكانت الهدايا والرشاوى ، وقد قال جيكوب إن كثرة ما أنفقه فى هذا السبيل ، دعا رؤساءه فى الآستانة إلى اتهامه بالإسراف والتبذير . ويعود

---

(١) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٦ .

جيكوب ، فى مكـان ثان بمنـاسبة الاتفاقيـة أيضًا ، ويؤكـد أن الهدايا المتبـادلة كانت من أهم أسباب الوصول إلى الصلح ، بل ويعبر عن ذلك باستعماله المثل العربى القـائل : « تهادوا تحابوا »[1] ، وأن عزت بـاشا نفذ مثل هـذا المثل . وقد أورد الـريحانى كـذلك عبـارة قصيرة - سبق الإشـارة إليهـا - معبراً عن ذلك ، ولكنها تحمل فى طيـاتها الكثير ، فقال : « وقد كـان عزت كريمًا جواداً فـاستغوى العرب بالمال » ونحن لا نستنكر هذا العمل من عـزت باشا ولا نستغربه ، إذ إن عرب اليمن جماعات فقيرة ، أنهكتها الحروب المستمـرة ، والضرائب ، وما قامت الحرب إلا دفاعًـا عن حيـاتها . لهذا نراها تـرضخ إذا وعـدها قـائد منتصر قوى بتخفيف الضرائب مثـلا ، وإعطـائهم بعض المال لإصـلاح حـالهم وتـرتيب أمورهم . وكذلك أمر الإمام ومشايخ الزيدية ، فهم فى حاجة فعلا إلى المال ، كما هم فى حـاجة إلى السـلام ، وذلك لإعادة النظـام والحياة إلى بـلادهـم بعد هـذه الحروب الطويلة .

أما من ناحيـة عزت باشا نفسه فكـان منطقيًّا مع نفسه ، فلماذا لا يستعمل المال ، كما استعمل السـلاح ، مـا دامت الغـايـة واحـدة ، وهى تهدئة الحال والوصول إلى الصلح .

---

(١) يعتبر جيكوب من أهـم الشخصيات الانجليزيـة فى حكومـة عدن الـذين عرفـوا حقيقة الأوضاع فى الجنـوب العربى ، والـذين عاشـوا وشاهـدوا ودرسوا هـذه البقاع ، وذلك فى الربع الأول من هـذا القرن . وقد انعكس هذا كلـه فى كتابه Kings of Arabia فهو ملىء بالآراء الهامة فى قضية الجنوب . وحشد جيكوب كتـابه أيضا بالكثير من الأمثلة والأمثال العربيـة المنتشرة فى جنوب الجزيرة . وأكثر من ذلـك كان يدعو الإنجليـز المهتمين بشئون هذه المنطقة حتى تنبثق سياسيتهم من واقع حياة أهلها . ومن المعروف - ومن الغريب - أن جيكوب كـان يحمل القرآن معه ، ويستشهد بكثير مـن الآيات القرآنية فى حـديثه مع أهالى هذه الجهات .

الفصل الثانى

صلح دعان ونتائجه

عقد الصلح والتعليقات المعاصرة له :

أدت الظروف والعوامل التى بيناها إلى عقد الصلح . وذهب عزت باشا إلى قرية (دعان)[1] لمقابلة الإمام لتوقيع الاتفاق ، وذلك بعد رجوع موافقة الإمام إلى عزت باشا فى صنعاء (ملحق - ٢) .

ونحب قبل أن نتناول هذا النص بالتحليل والتعليق أن نستعرض بعض التعليقات المختلفة حتى يكون تعليقنا شاملا مستوفيًا ، وحتى تبرز الحقيقة بجلاء أكثر .

أشار أمين الريحانى إلى صلح سنة ١٩١١ وشروطه بصورة سريعة ، ولكنه أوضح خلال إشارته هذه بعض الأمور الدقيقة ، فقال : « ... فعقدت معاهدات سنة ١٩١١ مدة عشر سنين ، وكان من شروطها أن يعترف الإمام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة أن لا يكون فى البلاد غير المحاكم الشرعية التى يعين الإمام قضاتها . وقد تعهدت الدولة أن تدفع للإمام ولرجاله السادة ومشايخ (حاشد) و (بكيل) مشاهرات مالية مقدارها ألفان وخمسمائة ليرة ذهبًا . وبما أن الزيود بموجب مذهبهم لا يستوجب عليهم إلا دفع الزكاة لغير الإمام إمامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد خصم اثنين ونصف بالمائة بدل الجباية »[2] . فهو هنا يبرز النقط العريضة فى الصلح ، مثل مدته ،

---

(١) دعان قرية صغيرة فى الشمال الغربى من « عمران » وهى تقع على قمة جبل .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، الجزء الأول ، ص ١٤٦.

والاعتراف بالسيادة العثمانية ، مقابل الاعتراف بوضع الإمام الخاص ، المتمثل بوجه خاص فى إشرافه على تنفيذ المسائل الشرعية . تلى ذلك ، إشارته الهامة إلى الاتفاق المالى ، وهو دفع المرتبات إلى الإمام ورجاله . وقد أعجبنا ملاحظته الدقيقة عن كيفية معاملة الزيود من حيث جمع الزكاة . فقد لفتت نظره هذه المعاملة الخاصة كما لفتت أنظارنا ، وسنعرض لها بعد عرض باقى التعليقات .

أما تعليق هانز هلفرتز الألمانى ، فكان أكثر اقتضابًا ، فلم يشر إلا إلى مدة سريان الصلح ، وأنه كان لمدة عشر سنوات بصفة مبدئية ، وأنه كان نتيجة طبيعية للأحداث « إذ تم عقده عندما هدد الإسلام نفسه ، عند هجوم إيطاليا على طرابلس »[١]. وكان هناك تعليق آخر لرجل إيطالى عاش فى اليمن ، واهتم بشئونه ، هو سلفاتور أبونتى . وقد ركز عرضه للصلح من ناحيته الإدارية فقال : « ... وأخيراً اضطر الباب العالى إلى الصلح مع الإمام ، وأمضى معه اتفاقًا فى سنة ١٩١٢ ، تركت للإدارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الأراضى الساحلية ، أما المناطق الأخرى أو الأقاليم الزيدية ، فإنها تركت تحت إدارة الإمام وسلطته الدينية والإدارية ، وعندئذ استبدل القانون التركى الذى كان معمولا به فى البلاد بالشريعة الإسلامية ، ووكل بإدارة القضاء موظفون كان يعينهم الإمام ... » . ولكننا نعارض هذا الحديث فى بعض نقاطه ، أولها ، تاريخ الاتفاق نفسه ، إذ الإجماع متفق على أنه تم سنة ١٩١١ لا ١٩١٢ كما قال هو . وثانيها ، أنه حدد مناطق نفوذ كل منهما تحديدًا لا نوافق عليه. فنحن لا نعرف مثلا لماذا قال (ومعظم الأراضى الساحلية) مع أن الإمام لم يكن له أى نفوذ على الساحل ، ولا يطمع أن يكون له ذلك ، فهذه المناطق غير زيدية ، فكيف يطمع فى

---

(١) Hans Helfritz; The Yemen, A Secrret Journey , p. 124.

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٦ .

مناطق ليس لـه أنصار فيها مع بقـاء الإدارة العثمانية قائمة . ومن نـاحية أخرى أننا إذا سلمنـا بسلطة الإمام الـدينية فى المناطق الـزيدية ، وهـذا واضح تمامًا فى نص الاتفاق - فإننا لا نسلم بقوله « إن المناطق الزيدية تركت تحت إدارة الإمام وسلطته الدينية والإدارابة » فقد رأينا مثلا أن موظفى الترك سيجمعون الزكاة من القبائل الزيديـة مقابل ٥ر٢ ٪ مما يجمعونه ، وهذا ينفى تمامًـا وجود أية سلطات إداريـة لـه فى المناطق الـزيـديـة ، ولكنها إذا وجـدت فهى ضمنيـة فقط ، وغير معترف بها سواء من ناحية الأتراك ، أو فى النص نفسه .

وهنـاك كـذلك تعليق يخالف التعليقـات السابقـة ، نقلتـه « المقطم » عن «التيمس » الإنجليزيـة ونشرته المنـار عن المقطم جاء فيـه : « عقدت الحكـومة العثمانيـة صلحًا غير مجيـد مع الإمام يحيى بعـدما رشت زعماء الثـورة بالأمـوال الطائلة ، ووعدتهم بالإصلاح ، فنال الإمام بذلك أكثر مما كان يطمع فيه ، وثبت فى مراكزه حاكمًا على القبائل الـزيدية ، ولم تتغير الحال فيما سوى ذلك عما كانت عليه قبل بـدء القتال . فـالأتراك يملكون صنعـاء وقد استرجعـوا معظم المراكز التى كـانوا يحتلـونها فى الماضى . والإمام يملك « شهـارة » وسائر المعـاقل التى كانت لـه . وقد أطـلق الإمـام أخـيراً سـراح خمسمائة أسير من الجنـود ، ولكنه لم يعد المدافع التى غنمها فى هذه الثورة ، أو فى ثوراته السابقة . واضطرت الحكومة أن تـرسل خمسين ألف عسكـرى بقيادة عـزت بـاشـا ، وهو من أكبر قـوادهـا ، للحصول على هذه النتائج »[1] . ويكمل هـذا التعليـق ، تعليـق جـريدة اللواء ، إذ قـالت : « ... فيستدل من هـذا الاتفـاق ، أن الحكومة اعتـبرت الإمـام حـاكمًا مستـقلا لا تتعـرض للبـلاد الواقعـة تحت سلطتـه ، وأنهـا تكفلت لـه بإصـلاح حـال الـزيـود المقيمين فى بـلادهـا . وقـد كتب

(١) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ٢ ، العدد الصادر فى أول صفر ١٣٣٠ هـ (١٨-٢-١٩١٢) ص ١٠٦ .

جلال نورى بك مقالة فى « الجون ترك » انتقد فيها هذا الاتفاق ، وقال إنه لا قوة بعد الآن تمنع الإمام من عقد اتفاق مع أية حكومة شاءها بعد هذا الاتفاق الذى عقدته الحكومة العثمانية معه »[1]. وهناك فى هذين النصين بعضَ الآراء المبالغ فيها ، فلا ندرى مثلا ، لماذا اعتبرت « التيمس » أن هذا الصلح (غير مجيد) بالنسبة للدولة العثمانية ، وبنت باقى التعليق على هذا الأساس المتحامل . فبدل أن تعبر مثلا عن الأموال التى منحت للإمام وكبار رجاله - كما عبر جيكوب (وهو إنجليزى أيضًا) - بأنها هدايا أو أن الهدف منها إصلاح الأمور بعد الأحداث الحربية الدامية ، اعتبرتها هذه الجريدة رشوة .

كما نستغرب لماذا اعتبرته صلحًا غير مجيد للدولة مع أننا نعتبره استجابة واقعية لأمور قائمة ، وأنه قد تم بعد انتصار الدولة الحربى على يد عزت باشا نفسه صاحب الصلح . ونقصد بذلك أن الدولة وافقت عليه وهى فى حالة انتصار ، وقد كنا نوافق على رأى الجريدة لو تم قبل إرسال حملة عزت باشا ، أو تم والإمام يحاصر صنعاء ويضغط عليها . فضلا عن أن مواد الاتفاق نفسه ، لا تحمل إلا تنظيما للحالة هناك لضمان الهدوء والاستقرار . وأن بعض المواد تؤكد بوضوح الخضوع للسيادة العثمانية ، كما أن البعض الآخر يقضى بضرورة الرجوع إلى الآستانة ، للحصول مثلا على الموافقة على تعيين حكام المناطق الزيدية بعد أن يختارهم الإمام . وهذا الإجراء رغم أنه إجراء ظاهرى فقط ، إلا أنه يؤكد «عثمانية » ولاية اليمن ، وبقاءها تحت السيادة العثمانية . كما جاء فى نهاية التعليق أن الحكومة « اضطرت أن ترسل خمسين ألف رجل بقيادة عزت باشا ، وهو من أكبر قوادها للحصول على هذه النتائج » فالجريدة بذلك تعبر عن الخيبة التى

---

(٢) اللواء : العدد ٣٧٧٩ الصادر فى ٧-١-١٩١٢ (١٧ محرم ١٣٣٠هـ) .

لاقتها الـدولة العثمانية بـأنها تكلفت كثيراً ولم تحصد إلا القليل . ونحن لا نعرف مثلا ، مـاذا كانت تنتظره الجريدة أكثـر من ذلك ، ألم ترسل الدولة هـذه الحملة لتهدئة الحالة فى اليمن من ناحية ، وضمان عثمانيتهـا ، وعدم خروجها على الدولة من ناحيـة ثانية ، وهذا هـو ما توصل إليـه عزت باشا فعـلا عن طريق الصلح . وكان هذا يعنى تـوفير المال والرجال للدولة ، مع الحصـول على نفس النتائج أما تعليق اللواء فإننا لا نـوافق عليه تمامًا ، إذ كيف تقول « إن هـذا الاتفاق يستدل منه أن الحكـومة اعتبرت الإمام حـاكما مستقلا لا تتعـرض للبلاد الوقـاعة تحت سلطته » . بل بالغت جريدة « جون ترك » فى تصوير هذه الناحية فى قولها : «إنه لا قوة بعـد الآن تمنع الإمام من عقـد اتفاق مع أية حكـومة شـاءها ... » وذلك اعتقاداً منها أن الإمام أصبح مستقلا فعلا بعد هذا الاتفاق ، والغريب أن اللواء كتبت تعليقها هذا بعد كتابة نص هذا الاتفاق مباشرة وحتى فى نفس الصفحة ، ويظهر منـه أنه ليس هنـاك مطلقًا نصًـا صريحًا أو غير صريح ، يعبر عما ذهبت إليه ، حقيقى أنه أصبح شخصًا متميزاً فى جزء من الإمبراطورية العثمانية ، ولكن هذا راجع فقط إلى وضعه المذهبى المتميز المستمد من كونـه إمامًا لطائفة دينية ، ولم يصل هذا التمييـز إلى درجة الاستقـلال ، بل إن بعض المواد ، رغم أنها تمنحه بعض الحقوق ، إلا أنها تـؤكد استمـرار خضوعه للسيـادة العثمانية . هـذا وإننا نسأل « جون تـرك » عن السلطة التى منحت الإمـام حق « عقد اتفـاق مع أية حكومة شاءها » .

وهنـاك تعليقان آخـران صادران مـن داخل اليمن نفسه ، ولـذلك فنحن نعتبرهما أكثر واقعيـة وفهما لحقيقة الـوضع فى اليمن . فقد أرسل ضـابط عثمانى شهد بنفسه الحرب والصلح هناك ، رسالة طويلة إلى جريدة « الحقيقة » البيروتية - ونقلتها المنار - جاء فيها : « أن قرية دعـان الواقعة على مسافة خمس ساعات من الشمال الشرقى من قضاء عمران سيكون لها شأن فى التاريخ حيث عقد فيها الاتفـــاق ، وتـم تـــوقيع شروط الصلـح بين الإمـــام يحيى حميـــد الـــدين

وقائد الحملة عزت باشا فانحسم بذلك الخلاف ... وقد نظر عزت باشا إلى المصلحة العامة قبل كل شىء ، ولولا ذلك لما تسنى له الحصول على وفاق ووئام بين طائفتين من المسلمين تقتتلان ، فهيأ للجيش العثمانى عضداً قويًا يبلغ عدده ثلاثة ملايين لأن الإمام يحكم على هذا العدد ، ويمكنه أن يكون محاربًا مع الجيش العثمانى جنبًا لجنب إذا مست الحاجة . ولا يستبعد القارئ هذا ، فالمثال حسى ظاهر ، وهو أنه لما بلغ الإمام إعلان إيطاليا الحرب على الدولة ، أرسل نبأ برقيًا إلى مقام الخلافة العظمى يقول إنه مستعد لتقديم مائة ألف مقاتل كاملى العَدد والعُدد .. »[1] .

وهذا الحديث يدل - وخاصة فى أوله - على الفرح ، أو أن عقد الصلح كان عملا جليلا .

ولكن لنا ملاحظة على المبالغة بعض الشىء فى قوة الإمام المادية . حقيقة أن هذا الصلح ضمن انحياز الإمام إلى جانب الدولة ضد القوى الأجنبية فضلا عما سيوفره هذا الصلح للدولة من جهد ومال . وحقيقة أن الإمام دائمًا يؤكد حسن نواياه تجاه السلطنة وخاصة بعد عقد الصلح . وحقيقة أن انحياز الإمام هذا إلى جنب الدولة ، يعنى انحياز قوة مادية كبيرة إلى جانبها ، ولكن هذا كله لا يعنى مطلقًا انحياز شعب اليمن بأجمعه إلى جانب الأتراك فليس للإمام نفوذ إلا على بعض الزيديين ويمكنه أن يجند منهم من يشاء ، ولكننا نشك فى مدى طاعة باقى شعب اليمن للإمام . وإن كنا نرجع سبب ما ذهب إليه هذا الضابط فى حديثه ، إلى أنه رأى - عن كثب - الثورة تشمل أغلب جهات اليمن ورأى الإمام يقف فوق تيارها ويعبر عنها ، فظن

---

(١) المنار : مجلد ١٥ ، ج٢ ، فى العدد الصادر فى أول صفر ١٣٣٠هـ (١٨/ ٢/ ١٩١٧) ص١٣٨، ١٤٢ .

(٢) ستتضح طبيعة هذا الانحياز فيما بعد .

أن عناصر هذه الثورة جميعها تخضع للإمام - تماما ودائما - أو أنها رهن إشارته . ولكن الحقيقة كما أشرنا ، هى أن الظروف والأحداث التى كانت تعيشها هذه العناصر فى هذه الفترة ، هى التى دفعتها إلى الثورة والانقياد إلى الإمام .

وهذا لا يعنى أن الإمام ، كان يتمكن من تحريك هذه الكتل البشرية فى اليمن كلما أراد : وسيزداد هذا الأمر إيضاحا عندما نتكلم عن نتائج الاتفاق ، ونعلق على مسألة استعداد الإمام لإرسال قوة لمحاربة إيطاليا فى طرابلس إلى جانب جيوش السلطان .

يتضح من هذا العرض لبعض الآراء والتعليقات عن الصلح ، أن البعض وصفه بأنه صلح « غير مجيد » والبعض الآخر ، وصفه بأنه « صلح مجيد » وطائفة ثالثة ترى أنه لم يغير أية أوضاع ، وطائفة رابعة ، ترى أنه أدى إلى نتائج هامة . هذا إلى جانب الاختلاف فى تفسير دوافع عقده ، فالبعض يرى أن الدولة اضطرت إليه ، والبعض الآخر يرى أنه نتيجة التهديدات الأجنبية للإسلام . وهذه الآراء رغم اختلافها وتباينها ، إلا أنها جميعًا هامة فى توضيح وجهات النظر فى الاتفاق ، كما يدعنا هذا إلى الحديث وإبداء الرأى فى مواده وفى أهميته .

أهمية الصلح :

يعتبر هذا الصلح استجابة منطقية للواقع العثمانى واليمنى فى آن واحد ، وهو اعتراف بواقع له جذور تاريخية عميقة . فمن المعروف مثلا أن المذهب الزيدى ظهر فى اليمن قبل ظهور العثمانيين بوقت طويل ، وأنه حظى بتأييد شعبى لم يحظ به العثمانيون طوال حكمهم ، لذلك فإن تلاقى القوتين صاحبتا النفوذ المادى والمعنوى ، فى صلح يعترف لكل منهما بوضعه وحقوقه لا يعنى أن هناك اضطراراً أو تنازلا ، بل هو وصول إلى الحل الذى يضمن لليمن

حياة هادئة آمنة . ويؤكد هذا الكلام ، أن الاتفاق ، يحمل بين طياته جوهر وخلاصة كل العروض والمطالب والحلول التى ظهرت قبله فى فترات الهدوء النسبى وقيام المفاوضات بين الطرفين ، أو فى المشروعات التى كانت تنظرها الدولة لحل قضية اليمن ، ولكنها لم تكن تنتهى فيها إلى رأى نهائى . وهذا التشابه بين هذا الاتفاق وبين ما سبقه من عروض وحلول ، يعنى مباشرة أنه لم يفرض من الخارج ، أو أنه نتيجة مؤثرات خارجية ، بل هو منبثق من أحداث اليمن الخاصة ، وواقع ظروفه وأوضاعه ، إلى جانب الأحداث العامة الخاصة بالإمبراطورية العثمانية .

وهناك بعض النقاط بالنسبة لهذا الاتفاق نحب أن نبرزها ، فهى تؤكد ما ذهبنا إليه . فهناك بعض المواد العامة تمثل الرغبة فى إصلاح الأمور فى اليمن . فمما لا شك فيه ، أن طريقة جمع الضرائب فضلا عن ارتفاع قيمتها ، كانت من أكبر عوامل ثورات اليمن ، لذلك نصت بعض المواد على أن تخضع قيمة الضرائب المفروضة للأسس الشرعية ، وأنه إذا أساء موظفو الحكومة جمعها ، فإنهم يحاكمون ، وعلى الحكومة معاقبتهم . كما اشترط الاتفاق أن تتنازل الحكومة عن حقوقها فى مناطق معينة من اليمن ، فلا تجمع منها الضرائب نظراً لفقرها وحالتها المضطربة ، وذلك مدة عشر سنوات . وهذه كلها خطوات هامة فى تهدئة الحالة هناك ، وإقرار السلام بطرق عملية سليمة وأكد هذا الاتجاه بصفة فعالة ، أن نصت بعض المواد كذلك على إصدار العفو العام عن الجرائم السياسية والضرائب المتأخرة التى سبقت عقد الاتفاق كما اشترط الاتفاق أنه على الإمام أن يخلى سبيل الرهائن الموجودين لديه . ثم أخيراً عمل الاتفاق على توضيح الصورة النهائية للعلاقات بين أعداء الأمس ، فأباح لكل من مأمورى الحكومة وأتباع الإمام ، أن يتجولوا فى أنحاء اليمن بشرط ألا يخلوا بالسكينة والأمن .

وإلى جانب هذه المواد ذات الطابع العام ، توجد مواد أخرى بعضها

خـاص بالحقـوق التى اكتسبها الإمـام بنـاء على هذا الاتفـاق ، وبعضها الآخـر خـاص بمظاهـر تبعية اليمن والإمـام للسيادة العثمانيـة . ولكننا نحب تـوضيح ملاحظـة جديرة بـالذكر قبـل الإشارة إلى هذه المواد ، ألا وهى أن هـذا الاتفاق اهتم حقيقة بتنظيم المناطق الزيدية ، أو التى يقطنها الزيديون ، وحدد الواسعى هذه المنـاطق فى بدء حديثـه عن الاتفاق ، ولكن هـذا لا يعنى أن الاتفاق أهمل باقى اليمنيين ، فهناك بعض المواد الخاصة بغير الزيديين . ولكنه اهتم بالزيديين بالذات لأنهم هم الذين لهم أوضاع خاصـة ، ومطالب خاصة ، وبالتالى جاءت هـذه المواد تنظم هذا الـوضع الخاص . أمـا باقـى جهات اليمن ، التى تقطنهـا فئات غير زيديـة ، فهى لا تطلب من العثمانيين إلا قليلا من الإصلاح وتخفيف الضرائب مثلا ، وهـذا ما نصت عليـه بعض المواد صراحة . ولكن لا يـدل هذا بـالتالى - كما ذهب إليـه البعض - على أن مـواد هـذا الاتفاق تعنى مبـاشرة أن اليمن قسمت إلى قسمين : قسم يخضع للعثمانيين ، وآخـر يتبع الإمـام . فهـذا التقسيم لم يحدث سواء من النـاحية الإدارية أو غيرهـا ، بل هذه المواد تعنى فقط أن هناك فئـة من الـرعايـا لهم أوضاع وظـروف خـاصة بهـم ، ويـريدون أن ينظمـوا حيـاتهم طبقًـا لمذهب معين ، وفى نفس الـوقت يعترفـون بـالسيـادة العثمانية ، فجاءت هـذه المواد لتحدد ماهية العـلاقة بين هذه الفئـة الخاصة ، وبين أصحـاب السيـادة العليا ، أو بـالأحـرى كـانت هذه المواد تحدد مظـاهـر السيادة العثمانية بـالنسبة لفئة اعترف لها العثمانيون بالـوضع الخاص وهذا يشبه إلى حد كبير وضع الأشراف فى مكة ، فهم يتمتعون بقدر من الاستقلال الذاتى ، أو مـا نحب أن نسميه بـالـوضع الخاص ، ولكنهم فى نفس الـوقت يخضعـون للسيـادة العثمانية، فكانت توجد قوة عثمانية كبيرة فى المدينة ، فضلا عما يقوم به شريف مكـة من خـدمات جليلـة ، لتأكيد السلطـة والنفوذ العثمانى فى هـذه الجهات .

وأكسب هـذا الاتفاق الإمـام بعض الحقوق ، فأعطـاه مثلا حق انتخـاب

حكـام المذهب الـزيـدى ، وانتخـاب رئيس المحكمـة الاستئنـافيـة بصنعـاء وأعضـائهـا ، كما أصبح لـلإمـام حق الإشراف والمراقبـة على الأسلـوب الإدارى للولاة ومـوظفيهم ، فعليه أن يعرض مظـاهر إساءات الموظفين وكيفيـة استغلال نفوذهم - إذا قاموا بذلك - أمـام الولاة . كما أعطيت له المسائل التى تحتاج إلى فهم ودراسة النـواحى الشرعية ، مثل الأوقاف وتنفيـذ الوصايا . إلى جـانب هذا اعترفت المادة (١٥) بـالهدايا التى يمنحهـا الزيـود لإمامهم ، أو مـا يمكن أن نطلق عليـه لفظ « الاشتراكات » . وأدركـت الحكومـة أنـه لا يمكنها منع هـذا الإجـراء حيث إن المذهب نفسـه يقضى بـدفع هـذه الأموال لـلإمـام ، فأقـرت الحكومة هذا الوضع ولكن بعد تنظيمه حتى لا يكون ذلك عملا سريًّا ، فتخفى عليهـم حقيقـة مركـز الإمـام ونفوذه بل وثـروتـه . والمذهب لا يفرض دفع هـذه الأمـوال لشخص الإمام ، ولكـن لأنه رئيس حكـومتهم ، وأن الغـرض من دفع الأموال - من وجهة نظرهـم - هو المشاركة فى بناء كيان دولتهم الخاصة .

لكن هـذه الحقوق والمكـاسب لم تمنح اعتبـاطًا أو دون تنظيم ، بل قيـدت جميعها بموافقة الحكومة وتصـديقها ، سواء من ممثلها فى اليمن ، أو من الآستانة ذاتها . فإذا نظرنا إلى إحدى هذه المواد التى تمنح الإمـام هذه الحقوق ، نجدها لا تنتهى إلا وقد قيـدت هذا الحق بمـوافقة الحكومـة ويتضح هذا بـالنظر فى المادة (٣) مثلا . لهذا فنحن لا نميل كثيراً إلى اعتبارهـا حقوقا أو مكاسب ، أو كما عبر البعض بأنها تنـازلات ، بل نرى أنها تنظيمـات فقط ، تتطلبها الأوضـاع الخاصة بهذه الجماعات الزيـدية . ويؤكد ما نـذهـب إليه بشكل صريح المادة (٧) التى تنص على أن « تتشكل محاكم مختلطـة من حكام الشـافعيـة والزيـدية للنظـر فى دعاوى المذاهـب المختلفة » . فقبـول العثمانيين أن يدخل الـزيديـون للنظر فى الدعاوى ، ليس تنازلا أو رضوخا من العثمانيين ، بل هو استجابة للواقع هناك ، فما دامت هناك طائفة زيدية كبيرة ولها مذهب معين تحتكم إليه فى كل شئونها فما

ضير الحكومة فى الرجوع إلى قضاة هذا المذهب لإنهاء الخلافات المحلية . وهذا أمر طبيعى ، أما غير الطبيعى فكان ما يحدث قبل الاتفاق ، وهو عدم الاعتراف بهذه الأوضاع الخاصة ، واتباع طريق الحرب مما كان يثير الاضطرابات والثورات دائمًا .

وهكذا احتفظت الدولة لنفسها بالتصديق على انتخاب الإمام للحكام والقضاة الزيديين ، وكذلك التصديق على أحكام القصاص ، وتعيين حكام الشافعية والحنفية ، وغيرها من الأمور التى تؤكد استمرار السيادة العثمانية على ولاية اليمن فى الوقت نفسه .

النتائج العامة للصلح :

بقى الآن أن نوضح النتائج العملية العامة لهذا الصلح ، فمما لا شك فيه أنه قد أدى إلى تغيير صورة العلاقات بين الإمام والعثمانيين ، وأنه أحال الحالة الحربية إلى حالة سلمية يسودها الهدوء والتفاهم . وهذا يتضح بالمقارنة بين أحداث الفترة التى سبقته فى اليمن بالأحداث التى أعقبته ، فهاتان الفترتان تحملان لونين مختلفين من حيث العلاقة ، ومن حيث سير الأحداث . وهذا كله يحتاج إلى تفصيل حتى يتضح ما ذهبنا إليه .

يقول أمير الآلاى إحسان بك ، وكان رئيسًا لأركان حرب الفيلق اليمنى ، فى حديث له مع صحيفة « المفيد » البيروتية - ونقلته المنار - أثناء وجوده ببيروت عائداً من اليمن ، عندما سأله مندوب هذه الصحيفة عن فوائد هذا الاتفاق : «إن الإمام وزع منشوراً على جميع القبائل الموالية له يحذرهم من الخروج على الدولة والتعدى على الجنود النظامية ، والانصراف عن مناوأة الدولة إلى الاهتمام بزراعة الأرض . فكان من ذلك أن الجندى النظامى أصبح يروح ويغدو بسلاحه الكامل فى أنحاء اليمن دون أن يعارضه معارض » كما قال تأكيداً للصورة السلمية هذه : « أما الرسوم الأميرية فتجبى بواسطة رجال الإمام الذين يصحبون رجال « الجندرمة » (الشرطة) ، ولم نسمع بعد عقد الاتفاق بشىء مما كان يقع بين الجباة وبين العربان ، الأمر الذى

كان يقضى إلى امتشاق الحسام وسفك الدماء بين الفريقين » . ثم يستطرد هذا القائد فى وصف حالة اليمن وما يحتاجه من مشروعات عمرانية ، وفوائد العناية بأرضه ، واستثمار خيراته فيقول : « أكثر بلاد الدولة أمنًا اليوم هو القطر اليمانى ، غير أن اليمن هى اليوم فى حالة البداوة ، وأن فى خصب أرضه وطيب تربته ، ما يساعد الدولة على نقله من حال إلى حال . والدولة تمد اليوم خطًّا حديديًّا من «الحديدة إلى « جميلة » وما مدته إلى الآن يقدر بثلاثة كيلو مترات ، إلا أنها ساعية بتسوية الأرض وسط الطريق ، ولكن مد السكة الحديد لا يجدى الأهالى نفعًا ، إذا لم تكن البلاد غنية ، وإذا أتيح لهذه البلاد أن تغنى ، فأرضها ستكون كنز هذه الثروة »[1]. وهذا يدل دلالة واضحة على أن اتفاق سنة ١٩١١ قد أدى إلى حالة من السلام ولو إلى فترة محدودة فقط .

وهناك عمل آخر إيجابى من ناحية الترك لتأكيد السلام ، فقد قامت الدولة بعزل الوالى الذى تمت فى عهده كل الحروب والمذابح السابقة ، وهو محمد على باشا ، وعينت بدلا منه محمود نديم بك الذى سبق ذكره ، والذى لعب دوراً كبيراً فى إتمام عقد الاتفاق « وفى سلخ جمادى الأول سنة ١٣٣٠هـ (مايو سنة ١٩١٢) عزل الوالى محمد على باشا وعين وكيلا له رجب أفندى الذى كان مكتوبجى ، وفى شهر ذى القعدة تعين محمود نديم بك واليًا فى اليمن »[2] .

ويؤكد سيادة السلام ، عقب عقد الاتفاق ، ما لاحظناه على تغير حديث الواسعى - فى حولياته - فهو لا يذكر - عند الكلام عن سنوات ما قبل الاتفاق - إلا المعارك التى دارت فى اليمن ، أما بعد عقد الاتفاق ، فلا يذكر إلا الأمور العادية التى تحدث دائمًا فى أى زمان أو مكان ، فيقول :

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ (من حديث إحسان بك إلى صحيفة المفيد البيروتية) .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

ثم دخلت سنة ١٣٣١هـ (ديسمبر سنة ١٩١٢) وأحوال اليمن صالحة ما خلا ما بين القبائل من الحدود ونزع الشيطان بينهم ، وكانت الأمطار هذه الأيام قليلة، والأسعار عالية »[١].

وفى مكان آخر يقول « ثم دخلت سنة ١٣٣٢هـ (نوفمبر سنة ١٩١٣) والجدب والقحط عم اليمن (نتيجة قلة المطر) وحصل مرض فى الأطفال والأكثر من الجدرى ، ومات كثير من الأطفال ، وفى هذه السنة قلت الأمطار ، وغلت الأسعار ، وأغاث الله الناس بخروج الدقيق والطعام من الهند والحبش والسودان . وقبض على سارق وقد هجم على بيت فأقر بها سرق فقطعت يده حدًّا بعد الحكم عليه . ورفع إلى الحاكم رجل شرب خمراً ، وأقر بها شرب إقراراً شرعيًّا ، وبعد الثبوت أقيم عليه الحد ، وأقيم على زان الحد الشرعى بعد ثبوته عليه بالإقرار ، واستيفاء الشروط »[٢] وهكذا يستمر الواسعى فى حولياته لا يذكر إلا هذه الأمور الداخلية العادية ، وهو الذى كان لا يذكر إلا الحرب ، «وجهاد الإمام ضد الأتراك . وظلم الأخيرين وتعسفهم ، وكثيراً ما كان يحمل عليهم بشدة دفاعاً عن قضية بلاده » .

أما الرأى الذى يقلل من أهمية هذا الاتفاق فهو رأى الأستاذ توفيق برو ، إذ إنه علق على هذا الاتفاق بقوله : « إنه لم يعد كسبًا يذكر للإمام ، بل يعد إلى حدٍّ ما انتصاراً لفكرة الدولة ، ولا ينطبق قط على أصول اللا مركزية فى الحكم ، حتى ولا على أصول توسيع المأذونية (الصلاحية) الكاملة إلا من ناحية حكم الشريعة بالنسبة للزيود .. » كما قال : « إن هذا الاتفاق لم يكن ليحل مشكلات اليمن حلا حاسماً بل ما لبثت أن ثارت المشكلات من جديد بسبب ازدواج السلطة ، وأن هذا الاتفاق لم يذكر شيئًا عن المشروعات الحيوية العمرانية

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٥٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

النافعة والصحية والتعليمية إلى غيره »[١] . وقد أوضحنا رأينا فى أغلب نقاط هذا الرأى فيما سبق ، عند ذكر الدوافع الأساسية التى دفعت كل من الترك والإمام لقبول الصلح ، ولكن ما نحب تأكيده وتوضيحه هنا ، وهو الذى دفعنا إلى رفع قيمة هذا الاتفاق ، هو أنه خلق حالة سلمية فى اليمن لمدة عشر سنوات بين قوتين تتحكمان فى مجرى الأحداث هناك ، ولا نقول إنهما قوتان متساويتان ، بل نقول إن لكل منهما أهميتها ودورها الفعال . وهذه الحالة السلمية ، المعترف بها من الجانبين ، تكفى أن تكون الكسب الوحيد من وراء عقد هذا الاتفاق ، إذ إننا نعتقد أن السلام كفيل بتفجير الطاقات العمرانية فى اليمن ، ويدفع إلى الإصلاح والتعمير ، دون أن يكون ذلك نتيجة نصوص مكتوبة أو اتفاقات معقودة . ولا أصرح فى ذلك من حديث الأميرالاى إحسان بك سابق الذكر إذ جاء فيه أيضًا عند ذكر الخط الحديدى التى تعمل الدولة على مده « .. إن الخط الحديدى يسهل نقل الجنود ، إلا أن الدولة إذا جرت على سياسة عزت باشا ، أصبح هذا الخط اقتصاديًا أكثر منه عسكريًا ، فإن اليمانيين متى قعدوا عن قتال الدولة ، وتعاهدوا معها ، انصرفوا إلى الزراعة والصناعة . وأن ذكاء هؤلاء القوم يساعد كثيراً على انتشار المدنية فى تلك الربوع ، وأن من مصلحة الدولة أن يساس هؤلاء سياسة الحلم ، لا سياسة العنف والشدة . ففى بعض أنحاء اليمن، تنبت الأرض أربع مرات فى السنة ، وبعضها تنبت مرتين ، فإذا عنيت الدولة بزراعة البلاد اليمنية ، كان لها مورد جديد يزيد فى ماليتها . وإنه ليؤسفنى أن أصرح لكم بأن الحكومة أرسلت كثيراً من الأدوات الزراعية ، ولكنها لم ترسل معلمين زراعيين حتى الآن ، وهذا الإهمال كان السبب فى تعطيل هذه الأدوات»[٢]. وهكذا يعبر رجل تركى عسكرى مسئول عن أهمية السلام ، إذ كيف ينصرف اليمنيون إلى الزراعية والصناعة ، وإلى استعمال الآلات ، وبالتالى

(١) توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الاهتمام بالصحة والتعليم ، إلا بعد أن يستتب الأمن فعلا وتهدأ الحرب ، ويطمئن كلٌّ على نفسه .

والحديث عن السلام هذا يؤدى بنا إلى ضرورة تتبع نشاط الإمام وأغراضه بعد عقد الصلح ، وقد سبق أن قلنا إن الإمام كان يطمع فى الصلح لأمور عدة منها : تثبيت نفوذه فى اليمن ، ليتمكن من القضاء على المنافسين المحليين من ناحية ، وليخلف الأتراك فى اليمن من ناحية ثانية . وكان الإمام يتنبأ بانهيارهم ، فبدأ حملة سياسية فى اليمن ليوسع نفوذه ، فذهب رسله ومبعوثوه إلى كل جهة ليمهدوا له الطريق ، وإن كان وجود الإدريسى فى عسير كان يعوق نشاطه[1] . فيقول جيكوب تأييداً لهذا الرأى : « كان هدف الإمام هو أن يرث نفوذ الترك فى اليمن ، وكان ذلك نصب عينيه دائمًا ، وكان يؤمن بأنه سيصل إليه فى يوم من الأيام »[2] .

ويعبر سلفاتور أبونتى عن هذا المعنى نفسه بقوله « ..أما الإمام يحيى فإنه بعد أن ضمن إعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه (يقصد أتباعه) من خزانة الدولة العثمانية ، اتخذ لنفسه مقرًّا فى « خمر » حيث أخذ يباشر سلطته ، وينشر نفوذه ويبسطه فى الأراضى التى خصصت له بمقتضى الاتفاق وفى العاصمة نفسها ، بينما كانت عيونه وجواسيسه يتوغلون فى محميات عدن وفى حضرموت ، ومن ذلك الوقت أصبح الإمام يحيى هو الملك الحقيقى فى البلاد ، كان هذا هو غرض الإمام بالتحديد ، والذى حدد نشاطه عقب الصلح حتى خروج الترك نهائيًّا من اليمن ، بل ونستطيع أن نقول إن الإمام يحيى استطاع فى هذه الفترة أن يحدد الخطوط العريضة لسياسته التى ترمى

---

(١) Jacob; Kings of Arabia, p. 133

(٢) Ibid , p. 137.

(٣) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٦ .

إلى تأكيد وجوده ومستقبله فى اليمن وهذه الخطوط كانت تتلخص فى :

المحافظةعلى ماله ورجاله ، فلا يحارب الأتراك ، ويرضى من الغنيمة باعترافهم بوضعه الخاص .

العمل على توطيد نفوذه بالتقرب إلى القبائل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

محاولة القضاء على منافسيه المحليين ، إما بطريقة مباشرة ، وذلك بالتصادم معهم وجهًا لوجه ، كما حدث بينه وبين « الضحيانى » أو غير مباشرة كما كانت الحال فعلا مع « الإدريسى » - حتى عقد الصلح - إذ كان الأتراك يقومون بحرب الإدريسى دون هوادة بغية القضاء عليه نهائيًا ، وكان الإمام يرقب ذلك بفرح دون شك .

وأخيراً العمل على ألا يصطدم بجيرانه الآخرين مثل الإنجليز فى الجنوب أو بالشريف حسين أو ابن السعود فى الشمال .

وكان النضال بين الأتراك وبين الإدريسى يسترعى انتباه الإمام الزائد ، إذ كان يهمه أن يسبق خروج الأتراك من اليمن إبادة منافسه الإدريسى . وكان تفكيره بالنسبة للنزاع الدائر بين الأتراك والإدريسى كما عبر عنه هو كالآتى :

« إذا كان الترك أقوياء بدرجة كافية لإبادة الإدريسى فلا اختصاص لى فى هذه الملحمة ، أما إذا لم يستطيعوا وتعثروا فى ذلك فعلى أن أساندهم[1] . ومن ناحية ثانية لم يكن عند الإمام رغبة التصادم حينئذ مع بريطانيا فى الجنوب بل اكتفى بزعامته الدينية تحت السيادة العثمانية ، وكان كثير من الشوافع حتى من الذين كانوا يتقاضون المرتبات الشهرية من الإنجليز (فى المحميات) كثيراً ما كانوا يتقربون إلى الإمام ، يسألونه أن يفصل فى منازعاتهم الشخصية ، وخاصة وقد زادت الحرب الإيطالية - التركية الشعور الدينى ، فكان رأى هؤلاء

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p. 134.

الشوافع أن العرب للعرب لأن هذه الحرب قد هددت وجود الإسلام نفسه[١] » .

ولكن هـذا الاتفاق نفسـه كان لـه رد فعل مخالف ، بالنسبـة للإمـام ، عما عرفنـاه سلفًا : حقيقـة أنه أتاح الفـرصة لـه لنشر نفوذه وتثبيتـه ، ولكنه فى نفس الوقت هز الصـورة الضخمة التى للإمام ، لا بين أتباعه الـزيود فقط ، بل أيضًا بين أهـالى اليمن جميعًا . فمما لا شك فيـه ، أنـه أصبح أقل قـوة وهو فى جـانب الحكومة منه وهو فى وضع معارض لها . إذ إن الذى كان يعنى العرب جميعًا ، هو كونـه الحاكم الشرعى المضطهد لليمن ، وأحد أحفاد « على » المبـاشرين ، لا أنه مولى الحكومـة العثمانية كما أصبح فعلا[٢]. فهو فضـلا عن أنه رضى بـرفع لواء السلام بينه وبين الـترك ، فإنه كان يتقاضـى راتبًـا شهريًـا لا بـأس به بلـغ «ألف ومـائة ليرة عثمانيـة مـشاهرة وكان لمشـايخ العـربان رواتب مقننـة أيضًـا»[٣] .

وهذا الوضع الجديد يحتاج - لكى يتضح بشكل كبير - أن نعود تاريخيًا إلى ما قبل هذه الفترة التى نتكلم عنهـا . نحن نعلم أن الإمام سليل أسرة تتربع على قمة الجماعـة الزيـدية فى اليمن ، وعـرفنا أيضًـا أن الإمام يحيى ، وحـوله أتبـاعه الـزيديـون ، كانـوا أكبر قـوة فى اليمن - إلى جانب القـوى الأخرى المتمثلـة فى القبـائل المختلفة ، والتى كـانت تعمل بشكل فـردى محلى مؤقت - حملت لـواء الثورة ضد العثمانيين ، وأدى هذا بالتالى إلى أن تنقـاد له باقى القبائل اليمنية غير الزيدية ، متمثلة فيه روح الثورة والتمرد ضد التعفن الإدارى العثمانى . وقام أبوه المنصـور من قبله بنفس الـدور ، وهذا مـا جعل القبائل مستعـدة دائمًا لتوجيـه

---

(١) Jacob; Kings of Arabia. p. 136 .

(٢) Bury ; Arabia Infeli p. 158 .

(٣) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ .

الضربات للحكومة العثمانية تحت قيادته[١] ، وعرفنا أن هـذا أدى بطبيعة الحال إلى زيادة نفوذ الإمـام يحيى ، وتقوية مركزه فى اليمن ، ولكنـه بعد الصلح ، وقد اعترف به الأتـراك كإمام - وهـذه تعتبر ضربة سيـاسية لـه - ووضعوا بين يـديه القيادة العليا للأمور الشرعية ، أصبح فى مـركز صعب . فهو فى الدرجة الأولى لم يعد « أميراً منفيًّا »[٢] أو أميراً إسـلاميًّا مضطهـداً ، حيث يستطيع أن يستأنف الحروب من أجل « المذاهب الإسلاميـة » فهو الآن فى جانب السلطة الحكـومية التى لم يـرحب بها كثيراً فى اليمـن . كما أن العسيريين لن ينسـوا أنـه استعمل الطوابير العثمانية ضدهـم ، عندما كان يسعى لإخضاعهم . ومن ناحية ثانية فإن قبائل اليمـن الشرقية ، التى كـانت تحارب إلى جانبـه وجانب أبيـه ، قد تغيرت وجهة نظـرهم فيه ، وبدأوا ينظرون إليـه نظرة واقعية - وخاصـة أن الغنائم التى كانت من العـوامل الهامة التى تجتـذبهم إلى الحرب - قد استنفـدت ، وضاعت خـلال فترة الهدوء السلمى التى تمضى دون غنائم جـديدة تـروى عطشهم ، ولم يعد يـذكرون الآن إلا موتـاهـم الذين لقـوا حتفهم فى أوحال «مناخـة» العبوس القاسية[٣] .

أمـا سكـان اليمن الأوسط فإنهم كـانـوا يجدون فى الشريعـة الإسـلاميـة وتطبيقها - التى نص عليها الاتفاق - بغيتهـم الكبرى ، لذلك تخلوا عن الإمام وانتبهوا إلى شئونهم الخاصة بعـد الصلح سنة ١٩١١ . وعلى كل حال فقد قلت أهميته ، وضعفت قوتـه ، وتخلت عنه القبائل الشافعية - التى سانـدته فى ثوراته وأدت إلى نجـاحه سنـة ١٩٠٥ ، هذا إلى جـانب خروج بعض الـزيود عليـه كما سيتضح فيما بعد[٤] .

---

(١) Bury ; Arabia Infeli, p. 37.

(٢) يقصد بها أنه رغم كـونه الأمير الشرعى ، إلا أنه طرد وسلب حقه بواسطـة عناصر أجنبية مغتصبة .

(٣) Bury ; Ibid, p. 37-38 .

(٤) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 76.

من هذا كله يتضح أن الإمام ، رغم الفرصة السلمية التى أتاحها له صلح دعان سنة ١٩١١ ، إلا أن الصلح نفسه وضعه فى مركز صعب ، إذ أصبح عليه أن يلعب دوراً مزدوجا ذا وجهين . فهو كقائد روحى ، وسليل الإمام « على » يشعر بالالتزام بأن عليه أن يقف حازما ضد الأتراك فى كثير من أمور المسلمين ، كما عليه أن يظهر بمظهر الزاهد أو الناسك أمام عيون القبائل المتعصبة الملتفة حوله ، والتى تعتبر رصيد قوته وكيانه فى اليمن ، ومع ذلك - وفى نفس الوقت - عليه أن يتعاون مع الفرق التركية وهو فى مقره فى « خمر » لما كان يتقاضاه منهم شهريًّا، وتطبيقًا لشروط الصلح .

وكان وجود هذه القوات العثمانية يصطدم أحيانًا بالتفكير الإسلامى القبلى القديم القائم هناك ، وذلك عند ظهور أى تغيير جديد - وذلك رغم التعليمات المشددة من السلطة المركزية فى صنعاء بعدم التصادم - وكان مجرد ارتدائهم الزى الأوروبى يعتبر عملا فاسداً فاجراً أمام هذه القبائل[1] .

فهو أمام القبائل والأتباع يجب أن يتقمص شخصية الزعيم الروحى الذى يدافع عن الشريعة دائمًا أمام خروج الأتراك عليها . وأمام الأتراك الذين يدفعون المرتبات الشهرية ، عليه أن يظهر بمظهر الإمام المتصالح المسالم ، الذى يضمن لهم هدوء القبائل واستتباب الأمن والسلام ، وتنفيذ شروط الصلح . وهذا الوضع المتناقض أمام هاتين القوتين هو الذى هز شخصية الإمام أمام الشعب اليمنى ، وجعلهم يفكرون فى شخصية جديدة يلتفون حولها ، تكون أكثر إيجابية أمام الأتراك ، وأكثر إخلاصًا لرعاية مصالحهم . وكانت هذه الشخصية التى تطلعت إليها الأنظار ، هى شخصية الإدريسى فى عسير ، الذى واصل الحرب ضد الأتراك .

---

(١) Bury; Arabia Infelix, p. 38.

الفصل الثالث

علاقة الإمام بالإدريسى بعد عقد الصلح

تطور نفوذ الإدريسى فى عسير :

قابلت اليمن خبر الصلح بالفرح والابتهاج ، لأنه يعلن بداية عهد سلمى جديد ، ينصرف الناس فيه إلى أمورهم وإلى حياتهم اليومية . وظهر هذا الفرح عندما قرئ الفرمان السلطانى فى صنعاء فى سبتمبر ١٩١٣ ، معلنًا تحالف الإمام مع الدولة « فسار الأهالى فى الشوارع مهللين يطلقون النيران ابتهاجًا بهذا الفرمان »(١) .

ولكن طبيعة الصلح ، وحقيقة الأغراض التى دفعت إلى عقده ، أدت إلى نتيجة هامة ، وهى أن نفوذ الإدريسى قد انتشر بمقدار ما انخفض نفوذ الإمام يحيى بانسلاخ كثير من قبائل الإمام عنه وانضمامها إلى الإدريسى(٢) . والأكثر من ذلك أن بعض قضاة الإمام بدأوا - منذ أوائل سنة ١٩١٣ - يخابرون الإدريسى فى أمر مبايعته ، الذى أصبحت سلطته عامة فى بلاد عسير ، وقسم كبير من منطقة شمال اليمن على أثر مناوشات حدثت بينه وبين رجال الإمام يحيى ، تغلبت فيها رجاله على رجال الإمام ، وأخذوا من بلاد اليمن التابعة للإمام ثلاثة حصون بعدما هدمتها المدافع كما زاد من نفوذ السيد الإدريسى، أن قبيلة حاشد ، التى يعتمد عليها الإمام يحيى اعتماداً كبيراً ، بايعته، وأرسل شيخها «منصور بخيت » جملة رهائن من أبناء زعماء القبيلة إلى «جازان»(٣) عاصمة الإدريسى ، تأكيداً لهذه المبايعة كما هى العادة عند قبائل اليمن»(٤).

---

(١) Bury ; Arabia Infelix, p. 38 .

(٢) الأهرام : ١٠٦٦٦ فى ٣/ ٤/ ١٩١٣ .

(٣) ميناء على ساحل عسير وتكتب أحيانًا « جازان » وأحيانًا « جيزان » .

(٤) المؤيد ، العدد ٦٩٦٦ فى ٢١ / ٤ / ١٩١٣ .

ولكن كيف زاد نفــوذ الإدريسى بهذه الــدرجـة ؟وكيف تغيرت طبيعــة العلاقة بينه وبين الإمام يحيى ؟

والإجابة تحتاج تتبع أحداث عسير منـذ عقد صلح دعان . من المعروف أن الاتفاق العثمانى - الإمـامى ، هذا عقد فى أوائل مايـو ١٩١١ ، فقام الإدريسى فى ١٣ من هذا الشهـر بقطع خطوط التلغراف ، وحاصر قـائده السيد مصطفى عاصمـة عسير ومركز العثمانيين بها - وهى « أبها » - حصاراً عنيفًـا كما استطاع أسر عـدد من الأتـراك ، وغنم كثيراً من الأسلحـة ، ونقل ذلـك إلى عـاصمتهم «صبيا »[1] . وهـذا التتـابع الـزمنـى المتقـارب - عقـد الصلح فى اليمن وتجدد الاضطـراب فى عسير - لم يأت عفواً ، بل هـو من الأمور ذات المغـزى العميق ، التى تـدل على وجـود تراكمات عـديـدة سـابقـة أدت إلى وقوعـه فى هـذه الفترة بالـذات، وكأن أحدهما كـان نتيجة مباشرة لـلآخر . فإذا رجعنـا القهقرى بعض الشيء - إلى بـدء ظهـور الإدريسى فى عسير (حوالى سنـة ١٩٠٧) - نجـد أن الإمـام قد بـدأ يهتم بأمره ، ويتحـالف معه على أسـاس أن الإدريسى يمكن أن يحمى ظهـر الإمام عنـدما يزحـف نحو الجنـوب ، مهاجما المراكـز العثمانية ، أو زاحفًا نحو صنعاء وتوطـدت العلاقة بينهما على أساس أن الهدف عند كل منهما واحـد ، وهو محاربـة الـدولة العثمانيـة . ولكن الإمام كـان بعيـد النظر ذا آمـال واسعـة، يطمع فى حكم اليمن كله بمعنـاه الـواسع ، ولهذا كان يـرى أن أمامـه أمرين : أولهما : العثمانيون وكـان يرى أن نهايتهم قـد قربت ، فلماذا لا يعمل فى التـو على أن يـرثهم ، ويعمل على تثبيـت مـركـزه فى اليمن ، ولهذا أسرع بعقـد الصلح . وثانيهما : الإدريسى ، وكان الإمـام يهتم بمراقبتـه وتطور نفـوذه ، وكان يرى أن نجمـه فى صعود ، وأن نفوذه ينتشر بدرجـة قوية بين القبـائل العسيرية ، لـذلك خاف مـن هذا المنـافس الصـاعد وأحس بخطـورتـه ، وفكـر جديًـا فى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 121, Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 77.
وكان الإدريسى يتخذ « صبيا » عاصمة له أيضًا .

التخلص منه والقضاء عليه . وكان الأتراك يقـومون بهذه المهمة دون أن يشعروا أنهم يخدمون بذلك قضية الإمام . لهذا كله انحاز الإمام إلى جانب الأتراك وتخلى عن حليفه السـابق . وبنـاء على هـذا ، قلنا إن تجدد الحرب فى عسير لم يكن مصادفة فلا شك أن الإدريسى قد فهم أيضًا ما ذهبنا إليه ، لـذلك بادر بقطع الأسلاك التلغرافية ومحاصرة « أبها » . وهنـاك من يذهب أبعد من ذلك - وأهمية هذا الرأى أنـه سابق زمنيًّا للصلح ومقدمـاته - فيذكر أنـه ليس ببعيد أن يكون الإدريسى ، الذى كان على اتفاق مع الإمام يحيى ، قد شعر بأن الدولة ستعطى الإمام يحيى من الحقوق ما لا ترتضيه له هو ، فأظهر الجفاء وتحرش بجندها[١] .

وقد أكد أحد الأتراك الرسميين لجيكوب ، عندما تقابلا فى يناير ١٩١٣ - وكان هـذا التركى قائمقامًـا لمدينة « إب » فى وقت من الأوقات - المفهـوم الذى عرضنـاه عند الإمام ، وغرضـه من عقد الاتفاق ، فقال « إن الإمـام كان يتصرف لمدى كبير تبعًا لخطـة فى ذهنه ، وكـان يعمل هذا طـالما كان خصمـه الإدريسى موجوداً دون أن يقهر ، ولكن بعـد أن ينهار الإدريسى فإن الأمور ينبغى أن تتغير، ما دام كل من الترك والإمام لا يثق كل منهما فى الآخر فكلاهما - على أية حال - كانـا متفقين (يشير إلى صلح سنـة ١٩١١) تحت ضغـط ضـرورة القضـاء على البيت الإدريسى »[٢] والحقيقـة أن جميع أفراد البيـت الإدريسـى قد اشتهـروا بالتقـوى والصلاح ، وكـانوا مـوضع إجلال اليمنيين واحترامهـم ، وكان يـرجع إليهم فى كثير من الشئـون المهمـة ، وهذا هـو أهـم سـبيل مهـد للسـيد محمـد الإدريسـى - صاحـب هذه الأحـداث كلهـا - الـظهـور بمظهـر السـيادة والإمـارة فى عسير . وقد لجأ السيـد محمد إلى

---

(١) Rev, du Bonde Musulm, V. Ix, Sept, 1909, p.173.

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 50 .

الدين لجذب القبائل إليه « فكان يخاطب الناس بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ويحثهم على اتباع قواعد الدين ، والرجوع إلى الإسلام فى أصوله وبساطته ، كما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ومنع الغزو ، وأزال الشقاق والاختلافات القديمة بين القبائل والعشائر ، وطبق العدالة والمساواة بين الجميع ولم يستملهم ، كما اتهمه البعض باستعمال الفسفور ، والكهرباء ، وغير ذلك من الاختراعات العصرية الجديدة ، التى لم ترها عربان اليمن بعد بقصد إقناعهم بولايته أو نبوته ، وكانوا يحبونه لدرجة العبادة والتقديس وينفذون أوامره بكل طاعة وارتياح ، والسعيد منهم هو الذى يتشرف بمقابلته ويتبارك بتقبيل يده وركبته »[1] . وهم محقون فى ذلك كل الحق ، فكم قاست هذه القبائل العسيرية من اضطراب الأمن وطول المنازعات التى تقع بينهم . وقد عبر هو نفسه فى خطاب سابق له إلى أحد أصدقائه فى مصر عن حالة الفوضى التى وجدها فى عسير - وقد أوردنا هذا الخطاب قبل ذلك - وأنه ما أن قدم عسير حتى تغيرت الحال ، وأنه قام بمجهودات قوية فى سبيل تدعيم الأمن، وخاصة بعد أن جمع حوله كثيراً من الأنصار .

كما قال إنه أعدم حوالى المائتين قصاصًا ، وقطع أيد كثيرة إقامة لحد السرقة، وأحل الأمن مكان الفوضى والاضطراب . بل اتجه اتجاها أكثر عمقًا ، فعمل على تنظيم حياة هؤلاء البدو من الناحية الإدارية والقضائية والاقتصادية . وأنه وسع نفوذه ، فوضع على رأس كل قبيلة من قبائل عسير قاضيا وأميرا من قبله ، فالأول ينظر فى الشئون القانونية ، والثانى ينظر فى الشئون الإدارية والحربية ، ويجمع الزكاة الشرعية للسيد . وكانت الصلات بين المركز والبقاع الأخرى قائمة بكل دقة . كما نظم الموانى التى كان يحتلها ، فجعل فى كل ميناء جمركا له « عمال » وموظفون من قبله لاستيفاء الرسوم

(١) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء السادس ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ (الصادر فى ٣٠ جمادى الآخر ١٢٣١هـ) يونية ١٩١٣ .

الجمركية من الواردات والصادرات ، وكانت الرسوم التى يتقاضاها أقل من الرسوم التى تجبيها الدولة . وقد نشطت التجارة بين هذ الموانى (ميدى ، وشفيق ، وحبل ، وبركة ، والغور) وبين عدن ومصوع فكانت السفن الشراعية[1] تحمل الضائع محليًا بين هذه الثغور المتقاربة . وكان عند السيد وكيل ، يسمى « يحيى زكريا » وهو بمثابة « رئيس الحجاب » أو « الصدر الأعظم » وآخر أمين لبيت المال واسمه « محمد يحيى » وهو بمثابة وزير للمالية . كما كان له كثير من القواد ، وكانوا يحملون شارات خاصة كل بحسب رتبته[2].وقد أزعج هذا كله كل من الأتراك والإمام ، بقدر ما أسعد أهالى عسير الذين تمسكوا بالإدريسى ، وحاربوا وراءه بكل ما لديهم من قوة .

علاقة الإدريسى بالعثمانيين :

وقد قاسى الإدريسى من العثمانيين كثيراً ، فكم حاولوا الاتفاق معه ، ولكنهم سرعان ما كانوا ينقضون وعودهم ويعلنوا الحرب عليه ، لأنهم كانوا يؤمنون فى أعماقهم - تطبيقًا لرغبتهم فى تدعيم « مركزية الحكم » فى إمبراطوريتهم - بأنه لا بد من القضاء على هذه القوى المحلية التى تحاول رفع رأسها ، وتطالب بالكيان الخاص داخل الامبراطورية .

وكانت الدولة - تحت ضغط ظروف قاهرة - تقبل أن تتفاوض مع الإدريسى والإمام ، ولكن كانت هذه المقابلات إلى حين فقط ، ثم تعود الدولة إلى الحرب وليس أمام عينيها إلا « المركزية والتتريك » . وفى خطاب طويل من الإدريسى إلى الإمام ، وكان الأخير يدعوه فيه إلى الصلح مع الدولة والتراضى معها « خدمة للإسلام » ويحثه على البعد عن الإيطاليين « أعداء

---

(١) تسمى هناك سنابك .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء السادس ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

الدين » - وكتاب الإدريسى مؤرخ فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ (مارس سنة ١٩١٢) أى بعد أن عقد الإمام الصلح مع الدولة - أخذ الإدريسى يعدد للإمام كيف أنه يرغب فى الصلح مع الدولة ولكنها لا تصدق وعدها معه، فيقول : « أما مادة الصلح بيننا وبين الحكومة، فمن أول يوم وما ندعو إليه هو الوفاق، وكلما أرادوا عقد ذلك نقضوه. وكفى بها كان فى المدة الأخيرة، فإن المذاكرة حصلت بيننا وبينهم فى هذا الموضوع ثلاث مرات، بل أربع مرات، بعد وصول رسلهم إلينا، فإذا أجبنا بها فيه الوفاق، أعرضوا تيها وكيداً واحتقاراً لنا. فأولى المرات بواسطة محمد توفيق فى مجيئه الأخير. فأجبناهم ذاكرين مواد بسيطة، لأن فى ذلك الوقت لم يكن قد وقع بيننا وبينهم سفك دماء. وتلك المواد هى أن نكون فى جهاتنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، ضابطين للبلاد من الفساد، مع بقاء مراكزهم، وإليهم تساق الحاصلات، وعليهم القيام بما يلزم من معاش القضاة والمترددين فى مصالح البريات، وأن لا يحدثوا زيادة من القوة فى البلاد وأن يفك أمير مكة صالح بن حسن وصاحبه من الحجاج. وهذه المواد مما يضحك منها، لأنها لبساطتها لا تكاد أن تكون مطالب، ولكن أدانا إلى ذلك حب الراحة للبلاد والعباد. فما كان الجواب إلا بنقيض ذلك، فساقوا تلك القوة التى يقدمها محمد راغب بك، ومحمد على باشا فى « جازان » وملأوه بالآلاف، وازدادوا عدوانًا على طلب الحجاج لحبسهم، كما وقع فى الحبس بعض رجال « ألمع » فى حج هذا العام، وأشعروا أن العسيرى تابع لإمارة حسين بن عوف (أمير مكة) وأرسلوا

---

(١) هو الشيخ محمد توفيق الأرنؤطى الأصل. من علماء الترك، جاور فى الأزهر. وعرف السيد محمد الإدريسى فيه. وقد أرسله إليه الاتحاديون أكثر من مرة للتفاهم معه، وكان من رأيه أن الإدريسى مخلص للدولة، ولكن الاتحاديين كانوا لا يسمعون لرأيه دائماً أو يأخذون به.

إلينا بطريق مصر فى حين وصول القوة العامـة برفق عزت (باشا) أنى إن أردت السلامـة ، أفتح لهم الطريق إلى الإمـــام التـــى تمـــر على طرف البـــلاد التى بيدينـــا ففوضنـــا الأمور إلى الله ، واســـتعنـــا به فى مدافعتـــهم ، وبحمـــد الله قد كان ما كان » .

« ثانى المرات بواسطتـكم (يقصـد الإمـام) عنـــدما وصـل إليـكم عزيز (يقصد عزيز المصرى) ووافقنا لكم ، فكـان منهم الجواب بالتعليق على ما هو فى حكم المستحيل ، وهو إجابتنا لحضور الآستانة . وقد تحقق لكم من هذا نهاية الإعراض مع أنكم قـد بذلتم الجهد ، كما أخبر عـزيز عند وصـوله مصر لبعض أصدقائنـا بذلك ، وبما كررتموه من المراجعة فيها هنـالك . ومنع عزت ، وأخذ فى تجهيز نحو تسعـة وثلاثين طابوراً ، إلى أن حال بيننـا وبينهم الله ، بما تداركنا من رحمتـه ، فكشف عنا الغمـة ، ونجانـا كما هـو سنته مع عبـادة المؤمنين ، وعكس عليهم القضية .

« ثالثها : كان بواسطة السيـد « الشراعى » مع بعض إخواننا فأجبنا فكان الجواب منهم بالسكوت .

« رابعها : مع سلميان (باشا) متصرف عسير »[١] .

هكذا استعرض الإدريسى فى خطابه للإمام ، محاولات العثمانيين معه لعقد الصلح ، وأنه كـان يرغب فى ذلك ، إلا أنهم كـانوا دائمًا يـراوغون ويـرفضون أو يسكتون . ولكنـا نحب أن نوضح هنا حقيقـة أشار إليها الإدريسى فى خطـابه ، وقـد تعمـــدهـا طبعًـا ليـذكـر الإمـــام بها ، وهى أن الـدولـة حـــاولت المرور

---

(١) المنار : المجلـد ١٦ ، جزء ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٣ (من كتاب الإدريسى إلى الإمـام ، وقد حـاولنـا أثنـــاء تنـاول النص أن نضع بعض الكلمات من عنـدنـــا بين أقـواس زيـادة فى الإيضاح.

بجيوشها عبر عسير لمهاجمة الإمـام من هذه الجهة ، ولكن الإدريسى تصدى لهم « وكان ما كان » كما جاء فى خطابه .

وهنا وبعد أن اتضح موقف كل فئة من الفئات المتنازعة فى اليمن ، نحب أن نؤكـد مرة أخرى ، أن العثمانيين رفضوا أن يعقـدوا صلحًا مع الإدريسى ، كما فعلوا مع الإمام . وكان للعثمانيين رأى خاص لابد من توضيحه هنا حتى يمكن متـابعة الأحـداث العثمانيـة العسيرية ، التـى أدت بالإدريسى إلى الانحيـاز إلى جانب الإيطاليين ثم الإنجليز .

ومـا لا شك فيـه ، أن نقطـة الانطـلاق التى حـددت لكل منهما طـريقـه واتجاهه هى صلح « دعـان » فقد أثر هذا الصلح تأثيراً أعمق بكثير ممـا يتصوره البعض وجعل كـلا من الـزعيمين يتجـه اتجاهـا مخالفًـا لاتجاه الآخـر تمام الاختلاف.

وقد شرح الأميرلاى إحسـان بك فى حديثه - سـابق الذكـر - مع مندوب جـريدة « المفيـد » البيروتيـة - والـذى نقلته المنـار - سيـاسـة عزت بـاشـا مع الإدريسى بعد عقـد الصلح مع الإمام ، فقـال : « إن فى عزم عزت بـاشا أن يجرد عليه (على الإدريسى) قوة من الجيش اليمنى (أى الذى فى اليمن) وسنبدأ عما قـريب الحركات العسكـرية فى عسير . ومـن رأى عزت بـاشا أن الإدريسى قـد ادعى «المهـدية » حـديثًا فإذا عقـد القائد معـه (مع الإدريسى) فنسبه ثـابت والإمـامة وراثيـة فى عائلتـه . فإنـه يخشى من ظهور مئـات أمثال الإدريسى أمـا الإمام يحيى ...»[1] . هـذا هو رأى الـدولـة الرسمى فى قضيـة الإدريسى ، فهم يعتبرونه من ناحية « حديث المهدويـة » ويقصدون بذلك من الناحية العملية ، أنه من الممكن القضاء عليه لأن أتباعه قليلين ، يمكن أن يقضوا عليهـم دون أن

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ٢ ص ١٥٨ (من حديـث الأميرلاى إحسان بك بجريدة المفيد البيروتية) .

يصطدموا بتراث تاريخى ، ذى جذور عميقة للإدريسى أو لأنصاره أو لدعوته ، فهم يرون أنه من الأصوب القضاء عليه حتى لا يدعى غيره بالتالى بأن له حقوقًا فى بقعة ما فى الإمبراطورية ، ويطالب الدولة بالاعتراف بوضعه الخاص ورغم أن هذا الرأى منطقى فى حد ذاته ، إلا أنه تجريدى فى جوهره ، لا يمت إلى الواقع بصلة . فما الذى يضير الدولة ، إذا اعترفت بولاة محليين ، وهم أدرى بحكم بلادهم ، كما أنهم فى نفس الوقت ، يعترفون بسيادة الدولة عليهم . ولماذا لا تستعملهم الدولة كموظفين عندها ، فهم خير من الولاة الذين يرسلونهم من الآستانة . فهم أكثر خبرة وأقرب إلى قلوب الأهالى من الولاة الغرباء .

ولكن هذا التفكير ، وهو الاستعانة بأمراء محليين مثل الإدريسى وغيره ، يصطدم مباشرة بفكرة الدولة العامة عن نظام الحكم الجديد فى الإمبراطورية الذى يعتمد على المركزية والتتريك ، لذلك كانوا يحسون دائمًا بضرورة محاربة مثل هذه الأفكار والاتجاهات .

وعلى كل حال ، لقد استعدت الدولة فعلا لمحاربة الإدريسى . فكان هناك خطوة فى سنة ١٩١٢ لتطويق الإدريسى من الجنوب ومن الشمال ، وذلك بين قوة من الحجاز تحت قيادة فيصل بن شريف « مكة » وقوتين عثمانيتين تخرج إحداهما من صنعاء ، والثانية من « اللحية » . ولكن هذه العمليات الحربية المشتركة قد فشلت ، ويرجع هذا بالدرجة الأولى ، إلى نقص الإقدام الذى أظهرته الفرقة الشريفية . ومنذئذ رابطت قوات عثمانية على طول شاطئ عسير - من لحية إلى زهران - تأمينًا للحديدة ، ومنعاً لأى اتصال محتمل بين عسير وقبيلة الزرانيق فى تهامة اليمن ، وهى « قبيلة دائمة الثورة مما يزيد متاعب الأتراك هناك »[١] . وكان الأتراك قد أغروا الأمير فيصل بن الشريف حسين ، أنهم سيولونه إمارة عسير إذا تمكن من القضاء على

---

(١) Bury; Arabia Infelix, p. 35-36 .

الإدريسى » وفعلا حاول فيصل استنفار القبائل ضد الإدريسى ومحاربته ، ولكنه فشل وعاد فى أوائل سنة ١٩١٣ بخفى حنين[١] » .

اتصال الإدريسى بالإيطاليين :

والأحداث السابقة الذكر جاءت متأخرة عن اتصال الإدريسى بالإيطاليين وقد تعمدنا تأخير بحث نشأة هذه العلاقة - بينه وبين إيطاليا - وأسبابها وتطورها لأهميتها، وحتى تأخذ حقها من البحث ولأن العلاقة العثمانية العسيرية نفسها هى التى أدت إلى التقارب بين الإدريسى وبين إيطاليا.

ذكرنا أن السيد مصطفى عم الإدريسى ، قد حاصر « أبها » بعد عقد الصلح (سنة ١٩١١) وشدد عليها الحصار ثم احتلها بعد ذلك بقليل .

وكانت فيها حامية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى وثلاث بطاريات ، وعدة مدافع كبيرة ، كما هزم شريف « مكة » الذى أسرع لإعانة « أبها » وإنقاذ حاميتها[٢] . كما هاجم العسيريون مقدمة الجيش التركى ، وكانت تعسكر على بعد ثلاثة أميال من « جيزان » . وكانت مقدمة الجيش هذه مؤلفة من أربعة مدافع ، فقتلوا منها الكثير ، وكان القتال تقريبًا وجهًا لوجه . وقد هرب باقى الجيش التركى فى حالة غير نظامية إلى « جيزان » فتبعهم العرب . وقد استولى الثوار على ٤ مدافع ومدفعى « مكسيم » وألفى بندقية ، وعلى كثير من الذخائر والمهمات . بل مما زاد الأمر سوءاً ، أن ظهرت الكوليرا فى هذه المنطقة ، وأصيب بها حوالى الثمانين وتوفى فعلا أربعة وثلاثون ، كما انتشر الوباء أيضًا فى طوابير الجيش فى مدينة قنفدة »[٣] . ولكن الإمدادات بدأت تتوالى على عسير من الخارج . وفى ٢٠ يوليو ١٩١١ ،

---

(١) المؤيد : ٦٩٦٦ فى ٢١/٤/١٩١٣ ، ص ٦ .

(٢) المؤيد : ٦٣٨٠ فى السبت ٣/٦/١٩١١ (٦ جمادى الثانى ١٣٢٩هـ) ص ٦

Bremond; Yemen et Saoudia , p. 77.

(٣) المؤيد : ٦٣٩٨ فى ٢٤/٦/١٩١١ ، ص ٦ .

استطاع الأتراك بمعاونة القبائل الموالية زحزحة ستة آلاف بدوى من شيعة الإدريسى كانوا حول « اللحية » ولكن الثوار كانوا لا يزالون يحتلون آبار «جيزان» مما كان يجبر الجنود على أن تجلب مياه الشرب إليها من عدن [١] . وبعد لأى استطاعت الدولة استرجاع مدينة « أبها » فتبع ذلك فرار الإدريسى إلى المرتفعات الجنوبية فى عسير[٢] . ويلخص الجرافى أحداث هذه الفترة التى دفعت بالإدريسى إلى التقارب مع إيطاليا فيقول : « وأرسل (الإدريسى) عمه السيد مصطفى سنة ١٣٢٨هـ لمحاصرة « أبها » فاستنجدت الدولة العثمانية بشريف « مكة » الحسين بن على ، فخرج من مكة فى شهر ربيع الثانى ١٣٢٩هـ وفك الحصار عن « أبها » واعتصم الإدريسى بجبال « فيفا » وفى ١٣٢٩هـ . أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، وأخذت فى احتلال طرابلس الغرب ، ثم حولت نظرها إلى البحر الأحمر ، وحاصرت ولاية اليمن ، وأطلقت مدافعها على أغلب موانئ اليمن ، ووقف الأسطول الإيطالى «بجازان» ولما بلغ الإدريسى ذلك ، نزل من « جبال فيفا » إلى « صبيا » وتخابر مع إيطاليا ، وأبدى استعداده لمساعدتها ، فأنزلت إليه كمية من المدافع والبنادق ، واستأنف هو الحرب مع الدولة العثمانية من جديد »[٣] .

ولكن لنا أن نتساءل الآن : لماذا اختارت إيطاليا اليمن وعسير مسرحًا لأعمالها الحربية ؟ ولماذا اختارت هذا الموقف بالذات ؟ ثم أخيراً لماذا تقرب كل من إيطاليا والإدريسى إلى بعضهما البعض ؟ .

ونقطة البدء للإجابة على هذه الأسئلة هى « حرب إيطاليا ضد طرابلس الغرب واحتلالها » فقد بدأت إيطاليا تأخذ أهبتها لاحتلال طرابلس الغرب

---

(١) المؤيد : ٦٤٣٢ فى ٢٧/ ٧/ ١٩١١ ، ص ٦ .

(٢) المؤيد : ٥٤٤٠ فى ١٢/ ٨/ ١٩١١، ص ٦.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٤ .

وضمها إلى ممتلكـاتها كجزء من الخطة الاستعمارية الأوروبية التى وضحت بعد مؤتمر بـرلين سنة ١٨٧٨ ، والتى تـرمى إلى تقسيم أملاك « الـرجل المريض » فيما بينها . وقد وضح هذا فى سكوت الدول الأوروبية على أعمال إيطاليا الحربية هذه ضد الدولة العثمانيـة ، ولم تثر هذه الدول الاحتجاجات التقليديـة ضد إيطاليا ، كـالمحافظـة على كيان الإمبراطـورية العثمانيـة ، أو المحافظـة على توازن القـوى الدولى وغيرها . وقد أوضحت جريدة اللواء المصرية هذا السكوت غير الحيادى من جـانب الإنجليـز على أعمال إيطـاليـا الحربيـة بقـولها إنـه « أثنـاء الحرب الطـرابلسيـة ، وكـانت إنجلترا تحتل مصر ، أعلنت إنجلترا أن مصر تبقى على الحيـاد » وكـان هذا بـدون شك ، بقصـد منع اختراق الترك لـلأراضى المصريـة للوصول إلى طرابلس ، وذلك لتأمين جـانب الطليان من ناحية مصر فى الحقيقة «ولكن الإنجليز فى نفس الوقت كانـوا يسمحون للطليان بشراء الجمال من عدن على يـد وكيل لهم فيهـا . وهذا الـوكيل يبتـاع الجمال من العـرب ، دون أن يعلم العرب إلى أين ترسل تلك الجمال ، وكانت الحكومة المحلية فى عدن تغض النظر عن شراء الطليان الجمال ، وتأذن لهم بشحنها . فهل يعد هذا خرقًا للحياد أم لا؟ وهل يصح أن يضيق الخنـاق على العثمانيين فى مصر لحفظ الحيـاد ثم تسكت الحكومة الإنجليزيـة عن اختراق الطليان للحياد فى عدن »[١] . وإن كانت هذه الأحـداث خارجـة عن نطاق بحثنـا ، إلا أننـا يجب أن نقول إن إيطـاليا ، وقـد خافت من سريان نار الحرب ضدها إلى باقى العالم العربى تلبية لدعوة الخلافـة العثمانية وإشغـالا منها للقـوى العثمانية المنهكـة فى باقـى أجزاء إمبراطـوريتها أسرعت إلى فتح جبهة حربية أخـرى فى اليمن وعسير لإشغال الدولة العثمانية وإضعاف مقاومتها بتشتيت مجهوداتهـا الحربيـة. ويعبر الواسـعى عن هذا بقوله « وفى هـذه السنـة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) حاصرت إيطاليا سواحل اليمن

---

(١) اللواء : ٣٨٢٢ فى ٥-٣-١٩١٢ (١٦ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ) ص ٤ .

من جهة البحر الأحمر ، وحصل لتجار الحديدة ضيق شديد ، ورميت الحديدة من البحر ، وقصدت إيطاليا بذلك إشغال الدولة عن طرابلس لئلا تحصل غارة، لأنه لما حصل حرب طرابلس ، ورد تلغراف لعزت باشا إلى صنعاء بذلك»[1] . ولكن فى الحقيقة لم يجد الإيطاليون ما يتطلب منهم عملا كثيراً فى البحر الأحمر ، فقد حاصروا الموانئ ، ما عدا تلك التى فى قبضة الإدريسى ، كما أنهم ضربوا مدينة الشيخ سعيد ، المقابلة لبريم ، بقليل من القنابل وإن لم يحدث هذا خسائر كبيرة[2] . كما أن فى خطاب الإدريسى للإمام سالف الذكر ، أنهم أغرقوا بعض سفن خفر السواحل العثمانية .

ولكنا نحب أن نقول هنا ، إن هجوم إيطاليا على السواحل العربية لم يكن إلا جزء من خطة عامة ترمى إلى تقليم أظافر الدولة العثمانية ، وذلك لتسهيل عملية احتلال طرابلس الغرب ، فقد أطلقت إيطاليا النيران على ميناء بيروت ، وذلك بحجة وجود سفينتين حربيتين صغيرتين فى الميناء ، وأغرقتهما فعلا ، ولكن الدول الأوروبية كلها احتجت على هذا العمل لأهمية ميناء بيروت التجارية[3] .

أما لماذا تقربت إيطاليا من الإدريسى فى هذه الآونة ، واستطاعت استغلاله دون الإمام فهذا ما يجب توضيحه . عرفنا أن الإدريسى بعد أن نشر الأمن فى عسير نظم موانيها وشجع تجارتها ، وانتظمت هذه التجارة مع «مصوع» و « عدن » . فكانت موانيه ، لعدة سنوات ، على علاقات وطيدة مع « عصب » و « مصوع » - الميناءان الإيطاليان على الشاطئ الأفريقى المواجه لعسير - فليس غريبًا حينذاك أن كانت إيطاليا تتطلع فى لهفة إلى الوثوب

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 126.

(٣) اللواء : ١٨٣٢ فى ٥/ ٣/ ١٩١٢ (١٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ) ص ٤ .

إلى الشواطئ الآسيوية العربية المواجهة لأريتريا ، مستعمرتها الأفريقية .

وقد ذكر جيكوب عن كاتب ألمانى فى سنة ١٩١٣ ، معبراً عن هذه الرغبات الإيطالية فقال : « منذ قرن مضى استطاع الإنجليز أن يجعلوا أنفسهم أسياداً فى عدن .. والآن ترمى إيطاليا نظراتها المتطلعة إلى شاطئ العربية الأخضر»[١] . فكأن رغبة إيطاليا فى الوصول إلى هذا الشاطئ كانت رغبة قديمة ، ولها جذورها وأسبابها ، وبناء عليه ، قامت باستغلال هذه الفرصة للتقرب من الإدريسى للاستفادة من موانيه ، ومن منتجات بلاده . ولكن إيطاليا اختارت هذه اللحظة بالذات - لهذا التقرب - لسبب حربى أكثر منه تجارى . حقيقة أنها خافت على التجارة من الضياع ، إذا ضاعت هذه الموانئ من أيدى الإدريسى واحتلتها تركيا ، ولكن إيطاليا خافت فى المقام الأول من أن تستعمل تركيا هذه الموانئ - إذا احتلتها - ضدها ، وتثير لها المتاعب فى مستعمرتها «أريتريا » فبادرت هى بالاتصال بالإدريسى .

أسباب الاتصال :

وهنا يجب أن نعرف أيضًا : لماذا قبل الإدريسى الاتصال بإيطاليا ، رغم اتجاهه الدينى ، وطبقًا لرأيه الخاص ؟

وفى رأينا أن الدولة العثمانية هى السبب فى هذا التقارب بين إيطاليا والإدريسى ، ولا نؤكد هذا الشيء إلا لأن « الدولة تركته خارج الحلقة الإسلامية»[٢] . فقد عقدت الدولة صلحًا مع الإمام ، ولم تقبل أن تفعل نفس الشيء مع الإدريسى ، بل كان رأيها هو القضاء عليه نهائيًا ، وما كانت المفاوضات أو التقارب الذى كان يحدث بينها إلا كسبًا للوقت ، أو تمييعًا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 127 .

(٢) Ibid ; p. 152

للثورات العنيفة التى كان يعلنها ضد الدولة . لذلك وجد الرجل نفسه وحيداً فى الميدان . فالإمام - صديقة القديم - أصبح عدوًّا له بعد عقده الصلح (سنة ١٩١١) . والشريف حسين من الشمال يعاود الكرة بعد الأخرى فى الهجوم عليه، هذا فضلا عن موقف الدولة منه . لذلك كان الإدريسى لا يرى حرجًا فى الاستعانة « بالشيطان » لإنقاذ نفسه من هذا الموقف الصعب ، وضد هذا الحصار المضروب حوله من جميع الجهات . وهذا ما حدث فعلا ، وقد عبر جيكوب عن هذا بقوله « إن الإدريسى كان يتحين الفرصة للحصول على مساعدة إيطاليا[١] » .

ولندع الرجل يدافع عن نفسه ، وذلك بما جاء فى كتابه - السابق الذكر - للإمام يحيى الذى يدعوه إلى الاتفاق مع الدولة ومنابذة الأجانب ، وهو فى حديثه هذا يذكر أنه حاول الاتصال بالدولة ، والاتفاق معها ، ولكنها كانت تصده دائماً ، أو تحاول المكر به . فيقول بعد ذكر المرات الأربع التى اتصلت به الدولة للمفاوضة ، وفشل هذه المحاولات « .. ثم فى هذه المدة مع ما رأينا من فتك الطليان بهم ، أخذنا العطف فأمسكنا كل حركة ، وكتبنا لمن فى مفرزه «ميدى »[٢] إن دهمكم شيء فلكم منا عون ، فكان منهم أن محمد على(باشا) مر بطريق « القنفدة » .. وأخذ يحرق ما وجد فى طريقه من بيوت السادات العلماء ، لأن هذا الرجل أكبر عداوته لأهل الدين ، لأن ما ناله من شرف فى الآستانة (كان) بسبب شنقه لعالم فى «أطنة » أيام تنازع وقع بين المسلمين والنصارى هناك ، ولما قدم « جازان » بالعساكر لم يختر لهم (خسته خانه) إلا جامع تلك البلدة ، ولا يهمه أن تلوث بالنجاسة ، وتعطلت إقامة الجمعة فيه ، وكانه يظن أن هذه الأسباب فى ارتزاقة النياشين والرتب من

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, d. 127.

(٢) « مفرزة » تعنى حامية صغيرة ، و« مبدى » ميناء يقع على حدود اليمن الشمالية حالياً .

باب « من رزق من شيء فليلزمه » وهذا هو السبب فى تجهيز ما وجهناه من الجند إلى الشام[1] ، لأجل مدافعة هذا الطغيان ، والمحافظة على مراكز أهل الدين والإيمان » .

« وقد حصلت المذاكرة بيننا وبين هؤلاء الإخوان فى هذه الأحوال ، إلى أن ساق بنا الكلام إلى مفرزة « ميدى » وأخبرناهم أن الطليان قد ضرب (كذا) قلاع الدولة ومراكزها من باب المندب إلى جدة ، وهد (كذا) تلك الحصون بمدافعه المسلطة ولم يبق إلا هذه القلعة ، مع أن شيخ البلد التى فيها قد سبقت له جناية من الطليان بواسطة شهادة سنبوك (سفينة شراعية) طال الخلاف بين الترك والطليان فيه ، وتوقف الأمر على شهادة هذا الشيخ وتهددته الدولة بالشهادة لها فشهد . فإذا قصد الطليان هذه المفرزة ، لا يقتصر عليها بل يتعداها إلى تلك البلد لما جناه شيخها عليهم ، وسابقًا قد ضربوا هذه البلدة كما عرفته ، ومن المشاهد أن هذه العساكر ، كجملة من فى كل موضع ، إذا ضرب الطليان المواقع هربوا من مواقعهم تلك إلى محلات العامة ، ولم يدافعوا ولا يضرب مدفع واحد . وقد ضربت هذه القلعة من نحو شهـــر ، وخرجوا منها كما ذكرنا ، وهذا مما أوقع الناس فى العجب ، فإن الدولة كما عجزت عن إصلاح الداخلية كما يرجى منها ، عجزت عن حفظ الخارجية والقيام بالمدافعة على الرعايـــا ممن قصدهـــم بسوء ، فعجزت الدولـــة الآن عن هذا وهذا فما بقى لهـــم إلا أن يسعـــوا الناس بحسن الخلق لو كانوا يعقلـــون . ثم إنه قد اشتـــد الخطـــب من الطليـــان بمحاصرتهم للحديدة إلى حالـــة يخشـــى معهـــا أن تحتـــل الحـــديدة ، فتكلمنـــا مع العسكر الذين فى القلعة بأن فى بقائهم بها ضرر

---

(١) يقصد بها هنا الحدود الشمالية ، والشام تعنى الشمال .

(٢) يقد رسل الإمام الذين حملوا الرسالة إليه ، وإنه قد تحدث إليهم فى كل هذه الشئون .

على الإسلام والمسلمين لأن الحديدة إذا احتلت يتبعها ملحقاتها ، من ذلك هذه القلعة ومن المعلوم حسب أصولهم أنه إذا احتلت الحديدة وجاء المحتلون ببوابيرهم لاستلام هذه النقطة تبعًا للمركز ، ومعهم الإذن بالتسليم من كبراء الترك، فإن من هذه النقطة لا يلتفت إلى الإسلام ولا إلى المسلمين ، ولا يهتمون بأمر الوطن بل حالا يعملون الترتيب اللازم فى التسليم إلى المحتلين ، ولو بطريق الحرب مع أهل الوطن بأن يضربوا من القلاع ، وتضرب البوابير من الساحل حتى يتصلوا بالمحتلين ، ويدفعوا لهم موقع الحرب ويسلموا أهل الوطن إلى الأسر ، كما فعلوا فى بنى غازى إحدى متصرفيات طرابلس فإن أهلها عشية احتلال الطليان لما رأوا بوابير الطليان بالساحل أسرعوا إلى مركز الحكومة ليستعدوا للقتال ويودعوا أهاليهم وأموالهم فى مكان أمين فمنعهم الأتراك ، وألزموهم الطمأنينة فرجعوا إلى بيوتهم فلما جن الليل لم يشعروا إلا والمتصرفية بأجمعها صارت عساكر طليانية فقاموا للدفاع ، ولم يمكن الخروج من المنازل إلا للرجال دون النساء والذرية ، وهم الآن تحت قبضة الطليان ، واشتهر أن هذه المعاملة من العساكر بأسباب ما أخذه كبراؤهم من الطليان خفية وبأسباب ذلك استقال الصدر (يقصد رئيس الوزراء) فتبين أن بقاءهم حينئذ فى المواقع الحربية ، لا للدفاع وحماية الثغور ، كما هو اللازم لمن يتولى إمارة المسلمين ، بل للأغراض الفانية ، وبيع البلاد للمصلحة الشخصية فمن ينع الإسلام فلينعه من الترك .. فلما خاطبناهم فى النزول معنا ليبقوا مع العساكر العربية جنبًا بجنب حتى إذا احتلت « الحديدة » ويكون موقع المفرزه « الميديه » بأيدى المسلمين ، يؤدون فيه ما أوجب الله عليهم ، وإن امتنعوا فلا إلزام ، وإن أرادوا اللحاق بكبرائهم فلهم ذلك ، فأبوا هذا وهذا ﴿ **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله** ﴾ . والعجب من هؤلاء الناس يذكرون أننا السبب فى تركهم للمدافعة ، كما روى عنهم السادة الواصلون ، فليت شعرى من أى وجه . وأى قرب بيننا وبينهم فى المسافة أن يقولوا نخشى أن نصلى بنارين ، إذ فى الأقل بيننا وبين « الحديدة » ثمانية أيام ،

ولو سلـم هذا فما يكون جـوابهم فى احتلال الطليـان لطرابلس . ومـا المانع من المدافعة هنـاك ، مع أن أهل تلك الجهة من المخلصين للحكومة بل هم قـائمون بـالقتال للمحتلين من (حتى) الآن . ومن العجـاب أن الحكومـة قبل أن يحتل المحتلون ، رفعت الأسلحـة والوالى والعسكـر إلا شيئًا قليـلا ، وبعد ذلك لم تمد المجاهدين ولا بدرهم أو نفر »[1] .

بعد عـرض هذا الخطاب الهام ، نقـول إن الإدريسى تعرض فيـه لأمرين : محاولته التقـرب من الترك ، وإسداء النصح لهم من ناحيـة ، ومهاجمته الشـديدة لسيـاستهم ، ولعجزهـم أمام القـوى الأجنبيـة ، بل ما اعتبره خيـانتهم القضيـة الإسلامية مقابل « أغراض فانية » كما قـال ، من ناحية ثانية - تلك القضية التى يدعون أنه خانها لأنه اتصل بالإيطاليين .

وقد أعجبنا فعلا للباقته وذكائه وسعة اطلاعه السياسى . فمن المعروف أن الصدر الأعظم (رئيس وزراء تركيا) كان قد استقال بسبب الحرب الطرابلسية ، وأنه اتهم بأنه متواطئ مع الإيطاليين . هذا فضلا عن أن الأتراك كانوا قد سحبوا كثيراً من حامية طرابلس ، وأرسلوها لليمن ، لمحاربة الإمام والإدريسى .

كيفية الاتصال ونتائجه :

بقى أن نعـرف كيف اتصل الإدريسى بـإيطـاليـا ، وذلك بعـد أن درسنـا أسباب هذا الاتصال ودوافعه . ويشرح الواسعى هـذه الكيفية ، ونذكر هنا نص ما قـاله لأن لنـا بعض التعليقـات على قوله إلى جـانب أهميتـه : « وعند إقـامته (يقصد الإدريسى) بمصر كان له صلة بمحمـد على علوى بك ، مترجم إيطاليا فى دار المفـوضيـة الإيطـالى بـالقـاهـرة ، وهـذه الصلـة والصـداقـة

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، جزء ٤ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ (من رسالة الإدريسى إلى الإمام) .

كانت هى السبب فى ظهور نجمه فى عالم السياسة . وفى هذا التاريخ سنة ١٣٢٣هـ (كذا) كانت الدولة العثمانية مشتبكة بحرب مع إيطاليا لأجل طرابلس الغرب ، ولما كانت حكومة إيطاليا أرادت إشغال الدولة عنها ، رغبت فى إشعال نار جديدة فى جهة من الجهات التابعة للدولة ، فسعى رئيس وزرائها فى إضرام نار فى تهامة ، وقام محمد على علوى بك بمذاكرة السيد محمد الإدريسى فقبل تنفيذ هذا المشروع ، خصوصًا وأن تهامة تخضع لهذه العائلة (الإدريسية) لما لجده السيد أحمد من الاعتقاد المشهور لديهم ، ومع كون أهل تلك البلاد نافرة غاضبة على المأمورين من الدولة العثمانية من الظلم والجور والفسق وارتكاب المنكرات وترك الواجبات ، فمن هنا عرف السيد محمد سنوح هذه الفرصة ، فوافق القيام بمنابذة الدولة فى تهامة ، بعد أن كفلت له الحكومة الإيطالية كل ما يحتاجه من مال وذخيرة وسلاح ومؤازرة ومناصرة فى البر والبحر. وكانت تمده من « مصوع » بواسطة بعض مسلميها كالشيخ سالم مدير الجمرك، والشيخ طاهر الشنيتى الخبير باليمن ، والصديق الحميم للأدارسة ونشبت (كذا) القتال فأخذ « ميدى » و « جيزان » وكانت الحكومة الإيطالية تساعده من البحر برمى القنابل والرصاص ، وهو يحاصر العساكر العثمانية من البر ، حتى استولى على تهامة ، والأكثر من سواحلها ، وجرت حروب كثيرة »[1].

يبين الواسعى كيف تم الاتصال بين الإدريسى وإيطاليا ، ويذكر أن ذلك كان عن طريق محمد على علوى بك ، ونحن وإن كنا لا نرفض هذه الرواية والدور الذى لعبه محمد على علوى لأنه ليس لدينا ما يمكننا من رفضها من وثائق ومراجع ، إلا أنه يمكن مناقشتها والتقليل من صحتها ، ونستطيع أن نقول إن الاتصال كان يمكن أن يتم أيضًا عن طريق أحد التجار الكثيرين (من المسلمين) أصحاب المصالح فى « مصوع » و «عسير » والذين يتصلون

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٣٤١.

- لظروف تجارتهم - بالطرفين فهذا الطريق أسهل ، لأن الإدريسى لم يقابل محمد على علوى إلا فى القاهرة أثناء وجوده بها منذ سنوات ، قبل قيام هذه الحرب ، كما أن السيد الإدريسى لم يغادر عسير ثانية بعد رجوعه من رحلته الطويلة التعليمية ، والتى تعرف فيها إلى محمد على علوى . ثم إنه عند قيام الحرب الطرابلسية ، ومحاصرة إيطاليا لسواحل عسير واليمن كان الإدريسى ملتجئًا إلى جبال عسير الجنوبية ، بعد أن استرجع العثمانيون ، بمعاونة الشريف حسين ، مدينة « أبها » . ولهذا كله نرجح أن الاتصال تم سرًّا عن طريق أحد التجار أو الأتباع المخلصين أصحاب الخبرة المتصلين بكلا الطرفين ، وإن كان هذا أيضًا لا يعنى أننا نرفض تمامًا رواية الواسعى كما قلنا . ونلاحظ أن الواسعى يتكلم عن الإدريسى - فى هذه الفترة - بروح التحيز ، ويظهر هذا بوضوح فى باقى النص مما يدعونا إلى التحفظ حيث إن الواسعى يحاول إظهار الإدريسى بمظهر الخارج المتمرد على الجماعة الإسلامية [٢].

بعد هذا العرض للعلاقة بين إيطاليا والإدريسى ، نستطيع أن نستخلص نتائجها ونهايتها . فواضح من طبيعة هذه العلاقة أنها مؤقتة ، تمت بين الطرفين لوحدة الغاية فقط ، وهى العداء للدولة العثمانية فى وقت معين . ولكن سرعان ما تمكنت إيطاليا من احتلال طرابلس الغرب ، وأجبرت العثمانيين على الاعتراف باحتلالها هذا فى صلح مهين ، لم يقبله الوطنيون هناك وواصلوا الحرب ضد إيطاليا تحت زعامة السنوسيين . وأدى هذا الصلح إلى انتفاء الغرض من ارتباطهم بالإدريسى ، فتخلوا عنه ، وتركوه وحيداً مما دعاه إلى التلاقى مع قوة أجنبية أخرى، هى إنجلترا ، قوة بدأت أغراضها تتحد مع

---

(١) فى النص السابق خطأ - لعله مطبعى - فى تاريخ قيام الحرب الطرابلسية إذ يذكر أنها قامت سنة ١٣٢٣ والمعروف أنها كانت فى أواخر سنة ١٣٢٩هـ .

أغراضه ، واتفقت معه بالنسبة لموقفهما الواحد من الترك . وحدث ذلك التقارب لأن انتهاء النزاع الإيطالى العثمانى لم يكن يعنى نهاية النزاع العثمانى الإدريسى ، وكان معنى هذا أن بدأ الإدريسى حلقة جديدة من تاريخه كانت انجلترا هى المساعد الخارجى له فيها . وقد عبر الواسعى عن هذه النهاية فقال كانت إيطاليا قد شدت أزره (الإدريسى) وعضدته إبان « حرب الدولة العثمانية مع طرابلس الغرب[١]، فلما انتهت الحرب قلبت إيطاليا للإدريسى ظهر المجن ، فانتهت تلك الصداقة بانتهاء الحرب المذكورة .فلما رأى حرج موقفه ، وليس له مساعد ولا معاضد ، والبلاد تخرج من يده التجأ إلى الإنقليز (كذا) وصادقها وبقى حتى آخر حياته وانكلترى تمده بالذخيرة والمال ، للغرض السياسى الذى لا يخفى » . ويؤكد جيكوب نفس هذه النتيجة ، فيقول إنه ناقش أمر الإدريسى سنة ١٩١٨ مع حاكم أريتريا ، فقال له إنهم استعانوا بالإدريسى لإشغال الترك فى هذه الجهات ، وإنه عندما عقد الصلح لم يعد لهم فائدة كبيرة مع هذا المغامر الذى قام بعمل مفيد فى وقت معين[٣]. ولكن جيكوب نفسه يقول فى مكان آخر قبل ذلك : إن الإدريسى لم يساعد الإيطاليين مساعدة فعالة حيث كان مشغولا بمحاربة العثمانيين فى « أبها » عاصمة عسير ، وكان يحاصر حاميتها . وأن القوات المكية والتركية أتت لرفع هذا الحصار ، وأنها عند وصولها إلى « حالى» (بالقرب من أبها) وجدوا كمية كبيرة من الأسلحة مما حصل عليها من إنجلترا وإيطاليا، أو من « الحكومات التى يهمها انهيار الحكومة التركية » كما

---

(١) المقصود هو « الدولة العثمانية مع إيطاليا فى طرابلس الغرب » .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 134 .

قال المكيون حينئذ[1] ولكننا نخالف جيكوب فى تقييمه لمساعدة الإدريسى للإيطاليين ، فلا ندرى لماذا قال إن مساعدته كانت غير فعالة ، وما الذى كان يطلب منه عمله . فنحن نعتقد أن محاربته للأتراك ، وإشغالهم داخل عسير كانت أكبر مساعدة ، أو هى الغرض الأوحد المطلوب منه ، والذى يستطيع أن يقوم به هو .

اختلاف موقف الإمام :

أما الإمام فقد اتخذ موقفًا مخالفًا - كما قلنا - عما اتخذه الإدريسى ، من مسألة الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية أو ضدها . وقد قلنا كذلك إن صلح «دعان» كان نقطة الإنطلاق التى اختلف عندها كل من الزعيمين بالنسبة لهذه المسألة . وقد اتخذ الإمام موقفًا إسلاميًّا فى مظهره ، وانحاز إلى جانب الدولة العثمانية . وكانت الحرب الإيطاليه العثمانية هى المحك الأول الذى أوضح هذا الموقف عند الإمام . وقد عبر هو عن هذا الموقف فى كتابه إلى السلطان أحمد - سلطان لحج - عن الصلح ، فقال : « إن الصلح هو ثمرة مجهود أجدادنا العظام » ثم أضاف « إننا وخلفاءنا سنحافظ على عظمة السلطان ، وسنقدم كل تعاون لازم .. وشملت الاتفاقية بصرف النظر عن الاختلافات النظرية ، إننا نعمل على وحدة الإسلام ، وإننا نقاوم عدوان الأجانب ، كما فى حالة اعتداءات إيطاليا على طرابلس »[2] . وقد اتخذ الإمام موقفًا إيجابيًّا ، أو بالأحرى هناك رواية تدل على أنه استعد لاتخاذ موقف إيجابى ، وهى التى سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة قبل ذلك . فيقول الواسعى بعد أن يذكر قيام الحرب الطرابلسية واصفًا موقف الإمام ، بأن الإمام كتب إلى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 124.

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .

الباب العالى يقـول : « إنى مستعد بإرسال مائة ألف كاملـة العدة والعدد»[١] .
وقد ردد البعض هذه القصة ، ففى رسالة الضـابط العثمانى السالفة الذكر ، إلى جـريدة « الحقيقـة » البيروتية التى يصف فيهـا الصلح جـاء فيها : « إنـه لما بلغ الإمام إعـلان إيطاليـا الحرب على الدولـة ، أرسل نبأ بـرقيًّا إلى مقـــام الخلافة العظمى ، يقول إنه مستعد لتقديم مائة ألف مقاتل ، كاملى العدة والعدد »[٢] .

وهذه الـرواية على كثرة ترديـدها وشيوعها ، إلا أن لنـا بعض الاعتراضات عليها . نستطيع أن نقول إن الإمام قد يكون حسن النية فعلا تجاه الدولة العثمانية وأنه تمنى أن يساعدها فى محنتهـا ، إلا أنه كان هناك بعض الظروف التى تعترض تنفيذ أمنيتـه . فمن نـاحية كانـت سلطة الإمامـة الفعلية لا تمتـد إلا على بعض القبـائل الزيـدية ، وحتى هـذه القبـائل كان يشك فى تحمسهـا للحرب خـارج اليمن، وهذا ممـا يجعلنا نشك فى قيمة العدد الـوارد فى هذه الرواية . ومن نـاحية أخـرى . كانت السفـن الإيطاليـة الحربيـة ، تحاصر الشواطئ اليمنيـة ، كما أنها حطمت بعض السفن العثمانيـة التى تخفر هـذه السواحل . ومن نـاحية ثـالثة ، كانت الدولة العثمانية لا تملك السفن الكـافية لنقل مثل هذا العدد من الجنود ، إذ إننا نذكر أنها كانت تستأجـر بعض السفن الأجنبية لنقل جنودها إلى اليمن . وقد عبر عما ذهبنا إليـه كاتب إنكليزى - كان فى اليمن أثنـــاء حصار صنعاء ، وشهـد الأحداث التى تلتهـا - فى مقالـة له فى التيمس بعـد رجوعـه إلى إنجلترا ونقلتها المنـار - فقال : « ولا يستطيع الـواقف على حقيقـــة أحوال اليمن ، أن يقابـــل الأنباء التى وردت من الآستانة عن استـــعداد الإمـــام لتقـديم مائـة ألف مقـــاتـل ليحاربـوا الإيطاليين فى طرابلس الغرب إلا بـالابتسام ، وذلك

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ، ص ١٤٢ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٠٦ .

لأن سلطة الإمام اسمية أكثر مما هى فعلية ولأن الحكومة العثمانية تعجز عن نقل هؤلاء المتطوعين إلى ساحة الحرب » . ولكن هذا لا يؤثر فى بيان موقف الإمام على كل حال ، وأنه متعاطف مع العثمانية فى هذه القضية ، وإن كنا نؤمن مع جيكوب ، الذى يقول عن تعاطف الإمام مع الدولة أنه كان سلبيًا ، وأنه ظل كالمتفرج ، بينما كان يحاول تدعيم أغراضه فى اليمن[1] ، وهذا التعاطف إلى جانب الدولة يظهر فى موقف آخر ، فقد حاولت إيطاليا الاتصال بالإمام عن طريق سلطان لحج ، ولكن هذا لم يجد نفعًا ، إذ صدهم الإمام ، واتضح هذا فى رده على سلطان لحج ، وكان يرى أن فى تقدم الإيطاليين محاولة من جانب القوى الأوروبية لضرب الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم قال « إنهم (الإيطاليون) يتخيلون أن كل ما هو أبيض أمامهم قطعة من الدهن »[2] وهو يشير بذلك إلى أنه شخصية قوية لا يمكن استهواؤها كما فعل الإيطاليون بالإدريسى .

ونحن لا نستغرب هذا الموقف عن الإمام ، فهو فضلا عن تعاهده مع الدولة العثمانية فى صلح « دعان » سنة ١٩١١ ، فإن كل مصالحه الخاصة ، وكل إمكانيات تحقيقها ، تتمثل فى بقائه إلى جانب الدولة العثمانية ، فهى تدفع له مرتبًا شهريًا عاليًا ، يساعده على مواجهة أعبائه المتزايدة ، وتحقيق أغراضه فى اليمن ، كما أنها تقوم بمحاربة الإدريسى فى عسير . هذا بالإضافة إلى أن إيطاليا دولة أجنبية ، غير إسلامية ، فالتحالف معها إضعاف لمركزه بصفته زعيما دينيًا إسلاميًا . ومن المعروف أن إيطاليا كانت أقوى وأكثر تنظيما وحيوية من الدولة العثمانية ، لذلك كان يخشى أن يؤدى التحالف معها ، ومناصرتها على الدولة العثمانية ، إلى سيطرتها عليه بالتالى ، مما لا يدع له مجالا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p. 141-142.

(٢) Ibid ; p. 128 .

لتحقيق أغراضه التوسعيـة الاستقلالية فى اليمن ، والتى يمكن أن يحققها فى ظل الدولة العثمانية المنهارة الآيلة إلى السقوط .

موقف الإدريسى من الإمام والعثمانيين بعد الصلح :

بعد أن عـرضنا الكثير من الملابسات والظـروف التى أحاطت العـلاقات العثمانيـة الإماميـة الإدريسية بعـد عقد الصلح ، يمكننـا أن نتتبع الخط الـذى سارت فيه هذه العلاقات .

عرفنا أن الإدريسى أسرع بإعلان الثورة على الدولة ، فى نفس الشهر الذى عقد فيه الإمـام الصلح معها ، وأنه نجح فى احتـلال « أبها » عاصمة العثمانيين فى عسير ، وإن كانوا قد استردوها بعـد ذلك بمعونة الشريف حسين . وتعددت الحرب بينهما واشتدت ، إلا أن الإدريسى - وقد أخـرجه العثمانيون من « أبها » - لجأ إلى جبـال عسير الجنـوبيـة ، واتخذهـا حصنًـا لـه ، وكـان ذلك فى شعبـان ١٣٢٩هـ (أغسطس ١٩١١) . وظل الحال هكذا مجمـداً حتى قـامت الحرب الإيطـاليــة العثمانيـة فى طـرابلس الغـــرب ، فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ (٦ شـوال ١٣٢٩هـ) فبـدأت إيطاليا أعمالها الحربية على سـواحل اليمن وعسير ، وعندئذ أرسل سليمان بـاشا متصرف عسير خطـابـا طـويلا إلى الإدريسى مـؤرخ فى ٢١ شـوال ١٣٢٩هـ (١٤ أكتـوبر ١٩١١) يـدعـوه فيه إلى « التصـالح مع الدولـة العثمانيـة ضد أعـداء الدين » . وقـد جـاء فيه بعـد البسملة ، وبعض الألقـاب والتحيات ، وبعض الآيات الدينية التى تحثه على الاتفاق مع الدولة :

« ولا نزيدكم علماً بهذه العجالـة فأنتم لستم كغيركم بل أنتم بدرجة العلم فهلم أيها الأخ فى الـدين ، نسعى بما فيـه صـلاح المسلمين ، وقـد بلغنـا مـا حل بإخواننا المسلمين فى الجهات ، فواجب علينا معشر الإسلام ، الذب عن الوطن، الذب عن العرض ، عن النفس ، عن الدين .

« ويعفو الله عما سلف ، فبادر لندفع هذه البلية ، ونكون يداً واحدة على حفظ حقوق المسلمين . إن الأمة الإسلامية فى أقطار الدنيا ناظرة إلينا ، وعندها الظن الجميل بتعاوننا وتناصرنا ، وها أنا انتظر منك الجواب الشافى الذى يكون فيه حفظ شرف الإسلام ، فإن أجبت فأرسل لنا بسرعة هيئة تعتمدون عليها لنتخابر معها بما يصلح ، وإن شئت بين لنا معا لمكم لدفع أعداء الدين ، فيجتمع الرأى المصيب بما فيه الصلاح إن شاء الله . وإنى عازم بحول الله على مدافعة أعداء الدين ، والجهاد أمام المسلمين مع ما لدى من قوة تزيد عن عشرين ألفًا . ونحن بهذا العزم ، ولو فنى منا الصغير والكبير ، وعلى الله توكلنا وإليه المصير ، فأسرعوا إلينا بالجواب وفقنا وإياكم للصواب ، والسلام »[1]

ويلاحظ على هذا الخطاب الصيغة الدينية الواضحة ، فقد اعتمد سلميان باشا على هذا الميل عند الإدريسى وخاطبه به ، مع تذكيره دائمًا بأن الإسلام فى خطر ، وأنه لا بد من الاتحاد أو التعاون لخدمة هذه القضية الواحدة . عندئذ رد الإدريسى ، دون أن يتوانى ، بكتاب طويل أيضًا مؤرخ فى آخر شوال عام ١٣٢٩هـ - أى فى نفس الشهر - وبدأه كذلك بالبداية الإسلامية التقليدية ، وتكلم كثيراً عن حزنه وأسفه لما بين المسلمين من تنازع وشقاق ، كما ذكر فى كتابه أيضا الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ضرورة التآخى والتحابب بين المسلمين بأنفسهم ، إذ ورد كتابكم الكريم ، مسفراً عما تحدو إليه الرغائب من الدعوة للاتحاد فانشرح البال وأسرعت إلى داعيك .. وما ذكرتم من الهيئة ، فقد أرسلنا إليكم أخانا محمد بن يحيى ، ومعه جماعة يتوجهون إلى « رجال ألمع » ولا تطمئن نفسه بالدخول إلى

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٣٨٨-٣٨٩ ، (من كتاب متصرف عسير إلى الإدريسى) .

« أبها » فيتفق بجانبكم بأطراف « ألمع الشام » وتحصل المذاكرة .. وإن شرفتم بالقدوم فأهلا وسهلا وغيرنا وغيركم لا يكاد بهذه المقاصد أن يقوم ، ولعلنا أن نكون السبب فى كشف هذه المشاكل من جميع الوجود فى أقرب وقت عاجل ، فترتاح الدولة لا فى هذه الديار بل فى جميع الأقطار والأمصار ، والأمور وإن تشعبت فإن مرجعها إلى الله وبيده الحركة والسكون(١) .. » . وهكذا اتصل الطرفان واتحدت رغبتهم على أساس « خدمة الدين والاتحاد ضد أعداء الإسلام» وهذا يعنى بالتالى أن الحرب الطرابلسية كانت - عند قيامها على الأقل - دافعًا لتلاقى الطرفين ، وتقابلهما للمفاوضة والصلح لمواجهة هذا الخطر الإيطالى.

ويؤكد هذه الرغبة ويثبتها ، وخاصة عند الإدريسى ، أو قل عند الطرفين أن الإدريسى أرسل فعلا إلى قائد حامية « ميدى » كتابًا يعرض فيه التعاون ، مؤرخ فى ٢٣ شوال عام ١٣٢٩ هـ(٢) ، فرد عليه القائد يخبره أنه أرسل صورة من كتابه إلى الآستانة ، وأنه سيخبره بردها عند وروده .

كما ختم هذا القائد كتابه بقوله « وربنا يؤلف بين القلوب ويصلح ذات البين ويعيد الإسلام »(٣) .

لكن يبدو أن تلك الرغبات الأكيدة فى الصلح ، التى حملتها وعبرت عنها تلك الخطابات المتبادلة ، لم تجد نفعًا ، ولم يصل الطرفان إلى الصلح المطلوب . وهذا ما يشير إليه الإدريسى نفسه فى كتابه سالف الذكر إلى الإمام ، وهو مؤرخ فى ١٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ (مارس ١٩١٢) . قال وهو يشير إلى مفاوضات الدولة معه بخصوص التفاهم وعقد الصلح :

---

(١) المنار : المجلد ١٦، الجزء ٥ ، ص ٣٨٩-٣٩١ .
(٢) أى فى حوالى الوقت الذى تبادل فيه الخطابات مع سلميان باشا .
(٣) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٩١ .

« ورابعها مع سليمان متصرف عسير لما أتانا جوابه بعد أن قامت عليهم فتنة الطليان ، يدعونا فيه إلى الوفاق ، وأن نكون إخوانًا ونهجر الشقاق ، فأجبنا عليه بالترحيب والتسهيل فأرسلنا بعض خلص أصحابنا ، فكان يساجل إلى أن تمكن من أرزاق ومعاش[1]، لأن فى ذلك الوقت كان عادمًا . فلما رأى أنه استغنى تكبر ، وأجاب بالغلظة وإعداد الطوابير للمخالفين ، فرجع صاحبنا بذلك »[2] فكأن العثمانيين كانوا يقصدون من وراء الاتصال بالإدريسى كسب الوقت ، وتمييع موقفه ، خوفًا من قيامه بأية حركات عدائية وذلك حتى يصل إلى متصرف « عسير » الإمدادات اللازمة . ويكمل الإدريسى فى خطابه هذا تتابع الأحداث أيضًا فجاء فيه : « فلما جاء جواب سليمان لذلك الأخ (يقصد مندوبه) بالتهديد وإعداد الطوابير للتربية ، تعجبنا من ذلك ، وما زلنا نتوقف عن عمل أية حركة رجاء أن يهتدوا إلى الصواب فما كان إلا مرور محمد على (باشا) فى شهر ذى الحجة (١٣٢٩هـ) يحرق بيوت السادات والعلماء وأفاضل الناس ، كما قد ذكرنا لكم أول الكتاب ، فليت شعرى ما نصنع بعد هذا . وهل فيه إنصاف أعظم من هذا الإنصاف حتى من كان لنا بالأمس عدوًّا لدوداً أصبحنا نتقرب إليه بالمودة ، لا لشىء بل كان حبًّا للصلاح مزيداً ، وهل من العقل بعد ذلك لنا أن نرمى بأنفسنا إليه ولو على المهالك ؟ وهل هذا من الدين؟ كلا وأصدق القائلين يقول : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾[3] .

وتتابع الأحداث هكذا ، هو الذى أدى إلى لجوء الإدريسى إلى جانب إيطاليا ليدافع عن نفسه . وقد يكون الإدريسى تحرج كثيراً أمام نفسه ، وهو يتفق مع الإيطاليين ، ولكنه كان مدفوعًا بصورة أقوى من هذا الحرج ، فالدفاع عن النفس أولا وأخيراً ، هو الذى دفعه إلى جانب إيطاليا .

(١) يشير بذلك إلى وصول الإمدادات لسليمان باشا .
(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٤ ، ص ٣٠٣ .
(٣) نفس المرجع : ص ٣٠٧

وقد أخذ الإدريسى من إيطاليا - بناء على هذا التحالف - أسلحة صغيرة (بنادق) وذخيرة وذهب[١] ، بما يعنى استعداده لمحاربة العثمانيين . بل أدى مجرى الأحداث العسكرية - بين إيطاليا وقوات الدولة - فى عسير ، إلى زيادة قوته ، وحصوله على المزيد من الأسلحة والذخائر . فعندما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، أسرعت حامية « جيزان » بالهرب إلى الحديدة ، وتركت وراءها السلاح والمؤونة والذخائر والخيام وغيرها ، وذلك « لضيق الوقت وقلة وسائل النقل »[٢] . وهنا أسرع الإدريسى بدخول المدينة ، والاستيلاء على هذه الغنائم كلها ، مما زاد قوته ، وجعله يهاجم الحاميات العثمانية فى تهامة وعسير .

وكان الإدريسى يجد المبررات الكافية لموقفه هذا من الدولة ، وكان يهاجمها بالحجج والبراهين ، كما كان يهاجمها بالقوات الحربية . ففى كتابه للإمام سالف الذكر ، أخذ يذكر تهاون الدولة العثمانية فى أيامها الأخيرة ، وأنها هى المسئولة عن ضياع ممتلكاتهم ، وطمع الأجانب فيها ، ثم قال : « قد عرفناكم بمنشأ هذه الأحوال ، لتعرفوا من هم السبب فى محاق البلاد الإسلامية والاضمحلال ، فهم الأحق بالملامة والتقريع والتوبيخ وسلب الكرامة . ويا ليت شعرى ما المراد منا فى الرابطة التى أشرتم إليها ، فإن كان لقصد التسكين المجرد إلى أن توافق معهم الأمور ثم يثبوا كأن لم يكن بيننا وبينهم صداقة كما كان بالعام الماضى ، إذ قدمنا لهم عشرة آلاف عود للسلك (يقصد أعمدة التلغراف) وأمنا لهم الطرق ، وتعهدنا لهم بالإصلاح حتى صاروا دولة حقيقية ، يروحون ويغدون بكل شرف ، فما كان منهم إلا تدبير الحيلة فى الهجوم للقبض علينا فنجانا الله ، وآل الأمر إلى ما هم فيه من الإهانة والحيرة ،

---

(١) Jacob : Kings of Arabia, p. 125.

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٧ .

ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١] . وهو هنا يبرز أن العثمانيين لا يصدقون وعودهم أبداً ، ويشير إلى فترة السلام بينه وبين الدولة ، عندما كان سعيد باشا متصرفًا لعسير ، وتهادن مع الإدريسى ، ووعده بتحقيق مطالبه على لسان الباب العالى ، فساعده الإدريسى على استتباب الأمن وتهدئة الحال فى عسير .

وعلى كل حال لقد عظم شأن الإدريسى ، وقوى مركزه فى عسير ، وأصبح لديه الكثير من الأسلحة والذخائر والمدافع .. ويجدر أن نحدد قوة الإدريسى فى هذه الفترة ، فهذا يمكننا من فهم المواقف والأحداث التى جاءت بعد ذلك . عبر أحد اليمنيين عن زيادة قوة الإدريسى بقوله : « ولقد تمكن السيد الإدريسى، منذ نشبت الحرب بين الحكومة العثمانية وإيطاليا إلى الآن (المقالة مؤرخة فى ٧/ ٥/ ١٩١٣) من جلب أكثر من مائة ألف بندقية وخمسين مدفعًا ، لأن الطليان كانوا أغرقوا وأسروا بواخر خفر السواحل العثمانية كلها ، فخلا للسيد الجو ، وانتهز الفرصة الثمينة ، واستعد استعداداً عظيما . ولديه الآن أكثر من عشرين مدفعًا من المدافع الكبيرة (مرماها يتراوح بين ١٢-١٤ ك . م .) وهى موضوعة فى الحصون التى أنشأها فى السواحل والثغور التى بيده . وقد تعلمت الجنود العربية استعمال المدافع واستخدامها فى الحروب . ولا يزال عند السيد عشرات من أسرى العثمانيين ، أو الذين التجأوا إليه ، ومعظمهم من المدفعية»[٢]

بقى الإدريسى على موقفه العدائى من الإمام والعثمانيين ، وأخذ ينظم

---

(١) المنار : المجلد ١٦، الجزء ٤ ، ص ٣٠٩-٣١٠ .

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٧-٤٦٨ ..

شئون عسير ، ويهتم بالموانئ التى تحت يـده ، فنظمها إداريًا ، وحصنها بالمدافع كما نشط تجارتها ، وبقيت هذه الحالة العدائية على أشدها ، إلى أن حاولت الدولة الاتصال بـالإدريسى مرة أخـرى عندما أرسل قـائمقام « اللحيـة » إبراهيم بك خليل بتـاريخ ١٠ مـارس ١٩١٣ ، كتـابًـا لــلإدريسى يطلب فيـه أن يأذن لـه بمقابلتـه . وعندمـا أذن له ، أخبره القـائمقام بأن الـوالى محمود نديـم بك (تولى ولاية اليمن فى جمادى الأول سنة ١٣٣٠هـ - مـايو ١٩١٢) قد تلقى من الباب العال أوامره التى تقضى بالاتصـال به للتفاوض فى الصلح ، و « حسم المشاكل وفض الاختــلافــات التى بينـه وبين الــدولــة » . وقبل الإدريسى فتح بــاب المفـاوضات ، فـأسرع القائمقـام إلى اللحيـة ، وأبـرق إلى اللحية فى ٢٧ مـارس ١٩١٣ ، وعندئذ أرسـلا كتابًا إلى السيد الإدريسى ، يطلبـان فيه حضـوره لثغر «ميدى » ليقترب منها ، فأرسل الإدريسى من قبله هيئـة من رجاله لمخاطبتها ، وعلى رأسها أمينه « محمــد يحيى » وأرسل معه خطابًا يطلب فيـه من نديم بك ، أن يبلغـوا كل مـا يــريـدون لهذا الأمين ، وهـو يـوصلـه إليــه « حتى أعلم مـا تريدون»[١] .

وقد لخص الـواسعى هـذا اللقاء فى قولـه « وفى هذا الشهـر (ربيع الأول ١٣٣١ - مارس ١٩١٣) عـزم المذكورون إلى السيـد محمد الإدريسـى لنصحه وإجراء الصلح بينه وبين الإمام ، ويكون رئيسًا على تلك الجهات ، بماهية كافية شهريـة ويكون تحت طـاعة الإمام يحيى ، وكـان الإمام قـد أرسل مع هذا الـوفد رسولا من « السـودة » - شمال صنعاء - التى كان يقيم بها حينئـذ - فلما وصلوا إلى « جيـزان » اعتـذر الإدريسى عن مقـابلتهـم ثم لما لم يجد بـدًا من مقـابلتهم قابلهـم ، ولم يساعد بالصلح »[٢] .

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٩ .
(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ٢٥١ .

والواسعي هنا يوضح بعض الأمور الهامة التي لا بد من الإشارة إليها .

أولها : أنه ذكر المبادئ التي على أساسها يقبل العثمانيون الصلح مع الإدريسي ، وهي الاعتراف بوضع الإدريسي الخاص في عسير ، مقابل مرتب شهري يتقاضاه من الدولة ، على أن يقدم الطاعة للإمام يحيى ، وأن يتخلى عن محالفة الأجانب . ثانيها : أن المفاوضة لم تؤد إلى شيء ، ولم يتم الاتفاق المطلوب . ثالثها : أن الإدريسي لم يقابل الوفد إلا بعد تردد ، ونعتقد أن هذا ناتج عن خوفه الشخصي من غدر العثمانيين به .

ولنا أن نتساءل ، لماذا فشلت المفاوضات مع أن هذه العروض التي عرضتها الدولة ليست مجحفة للإدريسي ، فهي متشابهة لما حصل عليه الإمام يحيى نفسه ؟ الحقيقة أن سبب الفشل ، يرجع إلى تغير الأحوال والظروف التي تمت فيها هذه المفاوضات ، ورفضه الخضوع للإمام يحيى . فالإدريسي حينئذ أصبح في وضع مخالف لما كان عليه قبل ذلك بعامين أو ثلاثة على الأكثر ، وكان من الممكن أن يقبل هذه الشروط أو أقل منها في الماضي ، ولكنه الآن أصبح في مركز قوي ، وصاحب نفوذ ثابت متين في هذه البقاع « لأن نفوذه خلال هذه المدة انتشر بين القبائل انتشاراً هائلا ، وأحواله انتظمت ، ورجاله تسلحت ، وقبائله استعدت »[1] .

لذلك كان من المتوقع أن تتغير مطالبه ، ويساعده على ذلك أن هذه الفترة بالذات ، كانت قاسية حرجة بالنسبة للإمبراطورية ، لقيام الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ . ولهذا كله ، لا نستغرب ما يقوله أحد اليمنيين - في مقالة له كتبها في « مصوع » ونشرتها « المنار » المصرية - بأنه علم من رجل كبير من رجال الإدريسي ، أن الإدريسي في مفاوضاته

---

(١) المنار : المجلد ١٩ ، الجزء ٦ ، ص ٤٧٠ .

« الجارية » سيتمسك بالمطالب الآتية :

١- الاستقلال الإدارى التام تحت سيادة الدولة .

٢- أن لا تتدخل الدولة فى شئون موظفى البلاد التى فى قبضة يده ، والتى سيبين حدودها فى المعاهدة .

٣- أن تكون الراية الهلال والنجم مع كلمة التوحيد من جهة ، ومحمد رسول الله من الجهة الأخرى .

٤- أن تكون الجنود محلية ، وعددها كاف لحماية البلاد فى زمن السلم والحرب .

٥- أن تكون الجمارك فى الثغور راجعة إلى الإمارة الإدريسية ، والمعاهدات التجارية مع الدول من حقها أيضًا .

٦- أن تكون الأحكام طبق الشريعة الغراء ، واللغة الرسمية هى اللغة العربية فقط ، بحيث لا تعرف لغة سواها فى التعليم والقضاء والإدارة ، وفى المخابرات الرسمية مع الآستانة .

٧- كل ما ينشأ من المنافع العمومية كالسكك الحديدية والتلغراف فى جهات عسير ، يجب أن تكون لمنفعة الإمارة ، وخاصة بها وخاضعة لها.

٨- أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطانى ، قبل أن يجتمع مجلس المبعوثين العثمانى ، يؤتى به من الآستانة على يد مندوب عال ، وعلى سفينة حربية ، ويقرأ باحتفال عام فى المكان الذى يختاره الأمير الإدريسى .

كما كان هناك أيضًا مسائل أخرى خصوصية وفرعية[1] .

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٧٠ .

وقد علقت المنار نفسها على هذه الشروط تعليقًا واقعيًا معقـولا ، فقالت :

« لم يبق للـدولة مع هـذه المطالب إلا اسم السيـادة ، فلا يعقل أن تقبلهـا ، فإن كـانت تعجـز عنه (عن الإدريسى) الآن ، فإنها تفضـل السكوت على إعطـائه فرمـانًا تقيد نفسها بـه . والمعقول أن يكون للدولـة مع الاستقلال الإدارى بعض الحقوق العامـة ، كاشتراط موافقتها على العهود التجاريـة مع الدول وأخذ شىء مما يزيد على نفقات البلاد من دخلها »[1] . لهذا فنحن نرى أنـه من الطبيعى أن تفشل هذه المفـاوضات ، وتستمر حالـة العداء قائمـة لتمسك كل من الطرفين بمطالبـه . وهذه المطالب قـاسية بالنسبـة للدولـة العثمانية كدولـة ، فالإدريسى يشترط رفض أيـة سيـادة فعليـة للعثمانيين على عسير ، وإن كـان يعترف ببقـاء السيادة الاسمية . ويتأكد هذا من مطالبتـه بخضوع موظفى الإمارة له لا للدولة العثمانيـة ، وكـذلك خضوع مـا ينشأ من المنـافع العـامـة كالسكك الحديـديـة والتلغراف والتليفون . بل كان المطلب الأكثر قسوة على الدولة ، هو ما يريده من استقلال تـام فى علاقاتـه الخارجية ، ومعاهـداته التجـارية ، فهذا أمـر لا تقبله الدولـة مطلقًا . وظهـر هذا أيضًـا فى اشتراط محلية الجنـود ، سواء زمن الحرب أو السلـم . ولكننا نبـدى إعجابًا به ، لأنـه اشترط أن تكون اللغة العربيـة هى اللغة الرسمية ، وإن كـان هذا الشرط مما ترفضه الدولـة أيضًا ، سواء من الإدريسى أو من القوميين العرب ، فى باقى البلاد العربية .

كانت هذه المقابلة بين الإدريسى من ناحية ، وبين محمود نديم بك ورجاله ومندوب الإمام من ناحيـة ثانية ، آخر محاولة التقاء بين هـذه الأطراف المتنازعة . وبقيت الحال على ما هى عليه من حـرب ومناوشات « واشتعلت نار الحرب بين أصحـاب الإمـام والأدارسـة فى بـلاد « حجـور » و « خـولان الشـام »

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ١ ، ص ٤٨٠ .

و« رازح » وغيرها »[1]، وهذا يعنى بالتالى أن فشل المفاوضات ، قد أدى إلى العداء الصريح ، والحرب المباشرة ، بين الإدريسى والإمام ، حلفاء الأمس . فقد انقلبت الآن صداقتهما القديمة على أساس المنفعة الذاتية والغرض الواحد ، إلى عداء مستحكم علنى استمر حتى بعد انهيار الدولة العثمانية نفسها .

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٤ .

الفصل الرابع
جنوب غرب الجزيرة العربية
أثنـــاء الحـــرب العـــالمية الأولى

موقف تركيا وإنجلترا من الجزيرة العربية عند قيام الحرب :

كانت الفترة التي تلت عقد الصلح ، بين الأتراك والإمام (١٩١١) فترة عصيبة بالنسبة للدولة العثمانية . فقد تلى ذلك الحرب الطرابلسية ، ثم سرعان ما قامت الحرب البلقانية التي أخرجت الولايات البلقانية من ممتلكات الدولة . وقبل أن تجف الدماء التي أريقت في هذه الحرب ، كانت الدولة مجبرة على القيام ببعض الاستعدادات لقيام الحرب العالمية الأولى .

وارتابت إنجلترا من هذه الاستعدادات التي يجريها العثمانيون ، وخاصة أنها كانت تحس بخطورة التغلغل الألماني في شئون الدولة العثمانية على مصالحها في الإمبراطورية المريضة ، وعلى مواصلاتها إلى الهند . وقد توج هذا التغلغل الألماني في شئون تركيا عقد معاهدة دفاعية سرية بينهما في ٢ أغسطس ١٩١٤ .

وكانت المصالح العثمانية الإنجليزية متضاربة بوضوح في الجزيرة العربية ، إذ تماست هذه المصالح بشكل يثير الاحتكاك والتنازع دائمًا ، لذلك كان من الواضح منذ البداية أن تركيا إذا دخلت الحرب فستكون حتما إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، وأن الجزيرة العربية ستكون ميدانًا هامًا لأحداث الحرب العثمانية الإنجليزية . وهذا ما حدث إذ بالفعل أعلنت تركيا الحرب على إنجلترا وفرنسا في ١١ نوفمبر ١٩١٤ (٢٢ ذو الحجة ١٣٣٢هـ)[١] ، وأعلنت انضمامها إلى ألمانيا ، فأصبح العداء صريحًا بينها وبين الحلفاء ، وأسرع كل منهما في اتخاذ الخطوات الحربية والدبلوماسية لكسب معركة العالم العربي .

---

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 78.

وازدادات أهمية العالم العربى - كميدان للنزاع العثمانى الإنجليزى - بعد أن دخلت تركيا الحرب . وأصبح موقف العرب أمراً ذا أهمية مباشرة للحلفاء ، وبصورة خاصة لبريطانيا ، لأن تركيا كانت فى مركز تستطيع معه أن تهدد المصالح البريطانية فى نقطتين هامتين ، وذلك بفضل استيلائها على الشام والعراق . أما النقطتان فهما : قناة السويس ، ورأس الخليج الفارسى ، حيث تقع آبار النفط الهامة التابعة للشركة الإنجليزية الفارسية . ولا يجوز إنكار الخطر الذى يهدد بريطانيا فى الجزيرة العربية نفسها ، فإن الأتراك كانوا يستطيعون استعمال ساحل البحر الأحمر الطويل لاتخاذ مراكز عديدة خفية فيه لبث الألغام، أو لإرسال الرسل إلى مصر والسودان وداخل أفريقيا لتوزيع السلاح وإثارة الشعور . وكان فى اليمن حامية - مؤلفة من فرقتين - تستطيع تهديد عدن . أما فى الحقل السياسى « فإن الخليفة السلطان إذا أعلن الجهاد ، ونال تأييد شريف مكة له ، تمكن من تحويل الحجاز إلى مركز لبث الدعاية المهيجة ، لا لتثير البلاد العربية فحسب ، بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الإسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء ، أو على أطراف المناطق التابعة لهم »[(١)] .
ولهذه الأهمية الكبيرة ، كانت الجزيرة العربية مسرحًا للنزاع الدبلوماسى ، كما كانت ميدانًا للحرب ، إذ قامت كل من تركيا وإنجلترا تسعيان لاستمالة أمراء الجزيرة العربية إلى جانبه واستمات الطرفان فى كسب هؤلاء الأمراء سواء لأهميتهم العامة ، مثل الشريف حسين ، أو لأهميتهم المحلية كالإدريسى وابن السعود . ومما زاد الصراع قوة وعنفًا ، أن كلا من الطرفين المتنازعين كان له نفوذه داخل الجزيرة ، فتركيا لها نفوذها المعنوى فضلا عن حامياتها الموزعة هنا وهناك ، كما كان لإنجلترا مناطق نفوذها ومستعمراتها أيضًا وخاصة فى السواحل .

كان النفوذ العثمانى يمتد - فى الجزيرة العربية - على مساحات أوسع

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٤٨-١٤٩ .

من النفوذ البريطانى ، إذ كانت بريطانيا ، تختار النقط الاستراتيجية ويهمها الاستيلاء عليها دون أن تهتم كثيراً بضيق الرقعة المحتلة أو اتساعها . وهذا الفارق المساحى الذى يعتمد على أساس تاريخى ، مع ما كان يصاحبه من نفوذ معنوى للخليفة العثمانى فى الجزيرة ، يجعلنا نقول إن الجزيرة كانت تخضع للنفوذ العثمانى أساسًا ، وأن النفوذ البريطانى كان لا يمثل إلا منافسًا زاحفًا يحتل نقطًا معينة لحماية خطوط مواصلات الإمبراطورية .

أما النفوذ المادى للعثمانيين فكان ضعيفًا بوجه عام ، ولا يتضح إلا حيث توجد القوات العثمانية . وكانت الحامية التركية الموجودة فى الجزيرة مؤلفة من أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . كانت سلطة الحسين على القبائل فى الحجاز ، كافية لتشكيل قوة كبيرة من بينها تشترك فى الهجوم على مصر إذا شاء الحسين . وكان باستطاعته أن يجند من البدو ما لا يقل عن الأربعين ألفًا ببنادقهم ، بينما كان يستحيل على الترك أن يتوصلوا إلى إثارة البدو بدون مساعدته . وكانت الحامية التركية فى الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين ، ولكن تمرد القبائل هناك كان قد وصل حدًّا لم يتجرأ معه الجند التوغل فى داخل البلاد ، بل ظلوا محصنين فى قلاعهم ومراكزهم البعيدة . لهذا ، ولكى يتوصل الترك إلى تجنيد العشائر ، كان لا بد لهم أولا من الحصول على مؤازرة الحسين ، فإن أيدهم وساعدهم استطاعوا توجيه حامياتهم المحصورة كيفما شاءوا ، بالإضافة إلى تشكيل قوة كبيرة من رجال العشائر يمدون بها القوى التى تتألف منها الحملة المتوجهة إلى قناة السويس . أما الإدريسى فلم يكن له قيمة عسكرية إلا ضمن حدوده المحلية ، فقد كان باستطاعته أن يعطل خطوط المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وأن يهدد مؤخرة الترك إذا هاجموا عدن . على أن فائدته الكبرى للحلفاء

كـانت فى السـاحل ، حيث يتمكن من الحيلـولـة دون استعمال الترك لشـواطئ عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية .

أما موقف الإمام يحيى بالنسبـة للطرفين المتنازعين فكان من أخطر المسائل التى أثارت اهتمام أولى الأمر فى عـدن . وذلك لأن الصلات الظاهريـة للحامية التركيـة فى اليمن - المؤلفـة من فـرقتين - بـالسكـان ، كـانت وديـة على عكس زملائهم فى الحجـاز . وكان هجـوم الأتراك على عـدن أمراً محتمل الـوقوع ، فإذا وقف الإمام موقفًا مؤيداً منه ، أو اشترك فيه أتباعه قوى الأمل فى نجاحه .

أما فى الجهات المتاخمة للخليج الفارسى ، فإن موقف ابن الرشيد فى شمر ، وابن السعـود فى نجد ، كـان يتوقف بـالدرجـة الأولى على النزاع القـائم بينهما ، وكـان من المسلم به أن ابن الـرشيد سيقف فى صف الترك حـالما تعلن الحرب . إزاء ذلك ، وعندما انضمت تـركيا إلى ألمانيا فى الحرب ، أسرعت إنجلترا تفاوض أمراء العرب لدخول الحرب إلى جانبها ، أو لتضمن على الأقل حيادهم . وكانت المفـاوضـات مستمرة فى سنـة ١٩١٥ مع الإدريسى ، والشريف حسين ، وعبـد العـزيـز آل سعـود . وكان الغـرض من ذلك محاربـة الترك فى الجزيـرة نفسهـا ، وصدهم عـن تأليف كتلة عربيـة يقفون بها فى وجـه بريطـانيا هنـاك ، فيقطعون عليها الطريق إلى الهند .

كـان السيد محمـد الإدريسى أول من لبى الـدعـوة ، فحالف الإنجليـز فى أبريل ١٩١٥ ، ثم ابن السعود ، فعقد معهم معاهدة بعد ستة أشهر تقريبًا أى فى ديسمبر ١٩١٥ ، ثم الشريف حسين فى ينـايـر ١٩١٦[1] . وقـد اختلفت

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٢٢٩ .

هذه الاتفـاقيات عن بعضهـا البعض وإن اتحدت المعاهـدة مع الإدريسى وابن السعـود فى الغـرض ، إذ لم يكن فى وسع الاثنين القيام بـدور كبير ، عسكـرى أو روحى ، ضـد الأتـراك . وكـانت قيمـة الاتفـاقيتين مبنية بـالـدرجـة الأولى على نتائجها السلبيـة ، إذ قضيا نهائيًّا على أى أمل فى التحـالف بين هذين الأميرين والـدولة العثمانيـة . أما التحـالف مع الشريف حسين فكـان له أهميتـه الكبرى بالنسبة لإنجلترا ، لما للحسين من مركز كبير ومكانة دينية .

كـذلك قـام الترك بـدورهم - بالمجهـودات الضروريـة - لجذب الأمـراء إليهم، فأرسلوا الـرسل إلى داخل الجزيرة ، يحملون الهدايا والعبـارات المعسولة ، إلى أمراء العرب . وقد أثمرت المفاوضات مع ابن الرشيد فوراً ، لأنه كان تواقًا إلى التحـالف مع الترك ، وإن لم يـؤد ذلك إلى نتيجـة سـوى تأييـدهم لـه ضـد ابن السعود ، الذى كـان يخشى بأسه . وقد فضل الإمام يحيى البقاء على الحياد ، فى هذا التنازع الدائر بين القوتين الكبيرتين. أما الإدريسى فكان عدو الترك اللدود، كما عـرفنـا مـن قبل . وكـذلك كـان الحال مع الشيخ مبـارك بن الصبـاح أمير الكويت ، الـذى كان مرتبطًـا بمعاهدة مع بريطـانيا سنة ١٨٩٩ ، وعقـد معها معاهدة ثـانية عندما قامت الحرب تقضى بقيـام التحالف الفعلى بين الطرفين ، وذلك فى ٣ نوفمبر ١٩١٤ . ولم يفز الرسل الذين زاروا ابن سعود بأى وعد قاطع منه ، وكانت حجته فى ذلك ، ادعاءه الخوف من هجوم بريطانيا على سواحله فى الخليج الفـارسى . وكان فى ذلك الحين يتفـاوض - فى واقع الأمر - مع حكـومة الهند، وقد أدت هذه المفاوضات إلى عقد المعاهدة بينهما فى ديسمبر سنة ١٩١٥ . وكـان الترك يأملـون فى انضمام الحسين إلى جانبهم لما لمركـزه من الأهمية فى الجزيرة

---

(١) J, C, Hurewitz ; Diplomacv in th Near and Middle East, Vol, II,

العربية إلا أن هذه العلاقات كانت تتحدد دائمًا برغبته الشخصية فى الاستقلال، وباتصالاته السرية بينه وبين الإنجليز فى القاهرة ، مما أدى إلى ثورته عليهم فى يناير سنة ١٩١٦ . وعلى هذا فإذا نظرنا إلى كبار أمراء الجزيرة العربية الخمسة وجدنا أن ابن الرشيد والإمام يحيى[١] ، انحازا إلى جانب تركيا ، بينما وقف الشريف حسين وابن السعود والإدريسى ، ينتظرون أن تحقق بريطانيا وعودها المغرية حتى يقوموا بإعلان الثورة[٢] .

هذه هى الصورة الخاصة بالجزيرة العربية ، عند قيام الحرب العالمية ، ويجدر بنا هنا تخصيص البحث عن الحالة فى جنوب غرب الجزيرة ، حيث تقع اليمن ، وعسير ، وعدن ومحمياتها ، أو بالأحرى يجب الاقتصار على تتبع العلاقات - عند قيام الحرب وأثناءها - بين العثمانيين ، والإمام ، والإدريسى والإنجليز ، تلك العلاقات التى شكلت سير الأحداث فى هذه الفترة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبالتالى معرفة ما ستتمخض عنه هذه الأحداث من نتائج عملية شكلت أحداث هذه المنطقة فيما بعد .

القوى المختلفة فى جنوب غرب الجزيرة وعلاقة بعضها ببعض :

كان إعلان تركيا الحرب وانضمامها إلى دول الوسط ، دافعًا جديداً لهذه الأطراف القائمة فى هذه المنطقة - الترك ، الإنجليز ، الإمام ، الإدريسى - إلى أن يتخذ كل منهم موقفًا معينًا حيال باقى هذه القوى ، سواء كان موقفًا سلبيًّا أو إيجابيًّا . فمن ناحية كان الأتراك قد بدأوا يستعدون لهذه الحرب منذ فبراير سنة ١٩١٤ ، فاشتروا أسلحة وذخيرة من جيبوتى ، ونقل وكيلهم فى عدن هذه الذخائر على إحدى السفن المحلية فى عدن إلى الحديدة ، هذا بالإضافة إلى أن اليمن كانت مكتظة بالأسلحة والجنود ، لكثرة الحروب التى قاموا

---

(١) لم يكن موقف الإمام هو الانحياز التام كما فعل ابن الرشيد بل سيتضح فيما بعد موقفه الخاص .

(٢) جورج أنطونيوس : يقظه العرب ، ص ١٦٣ .

بها هنا وهناك[١] . وكانت قوة الجيش التركى فى اليمن ، كما قدرت فى أبريل سنة ١٩١٤ حوالى ٥٠٠٠ رجل ، وذلك بعد أن نقلت قوات كبيرة منها إلى الميادين الأخرى فى أوروبا وآسيا الصغرى ، بعد عقد صلح « دعان » سنة ١٩١١ مع الإمام. وكان توزيع القوة الموجودة فى اليمن يتغير حسب الأحوال السياسية والأحداث المحلية ، وكان جزء كبير منها موجودا فى صنعاء ، ومع الإمام . وتأتى الحديدة فى المرتبة الثانية من ناحية الأهمية كمركز حربى ، وكانت تخرج منها فرق للمحافظة على اللحية ، وعن مراكز خط اللحية - زهران على طول الحدود العسيرية . وهناك طابور فى « مناخة » موزع بين القلاع والمراكز ، ومنها تخرج السرايا إلى كل منطقة « حراز » و « حجلة » . وقد وضعت باقى الفرق فى المدن الرئيسية ، فى تهامة وفى وسط الهضبة ، وكان هناك مركز تركى قوى فى « الشيخ سعيد » كما كان هناك خط دفاع من « المخا » عبر « تعز » و « ماوية » إلى «قعطبة » وكانت هذه المراكز مرتبطة بعضها البعض بواسطة طرق سهلة[٢] .

لكن هذه القوة زادت عند قيام الحرب ، فيقول جيكوب على لسان أحد الضباط الأتراك : إنه كان باليمن ٣٥ طابوراً تركيًا ، أى حوالى ١٤٫٠٠٠ رجلا ، وكان أغلبهم من السوريين[٣] . بل زاد الاستعداد ، ووفد كثير من الضباط الأتراك إلى الحديدة ، ومعهم المعدات الحربية . كما قام بعض الضباط من أركان الحرب ، مع بعض مشايخ اليمن ، بالطواف بالحدود الجنوبية لليمن ، وعلم أن الأتراك أرسلوا رسلهم إلى « لحج » للاستطلاع ومعرفة الأخبار ، كما أرسلت المدافع من «صنعاء » إلى « تعز » فى الجنوب . وقام الترك إلى جانب هذه الاستعدادات الحربية ، بمحاولة سلمية لجذب سلطان لحج إليهم ، إذ طلب محمود نديم بك والى اليمن من الإمام يحيى ، أن يسعى فى استمالة سلطان لحج إلى جانب الأتراك ، وأن يكفل لهم وفاء الأتراك بالوعود

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 158-159 .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, pp. 178-179.

(٣) Jacob ; Ibid , p. 168.

والتعهدات التى سيقطعونها للسلطان على بن أحمد . وكان السلطان على ، قد كتب إلى الإمام قبل ذلك يخبره أن الدولة العثمانية خاطرت بكيانها بسبب دخولها هذه الحرب (!؟) وأن معظم أهل الإسلام يكرهون ذلك ، لأن مصالح المسلمين والاسلام مرتبطة بمصالح بريطانيا ، أو على الأقل فليس للمسلمين فى هذه الحرب ناقة ولا جمل » . وقد قام الإمام بمراسلة السلطان على بما طلبه منه محمود نديم بك ، وأرسل هذا الكتاب مع مندوبه السيد محمد على الشريف ، الذى كلفه أن « يكتشف الأحوال فى هذه الجهة[1] . وقد قامت الحكومة التركية فى اليمن بالضغط ثانية على سلطان لحج - لمحاربة الإنجليز - بالوعد والوعيد . فأرسلوا له وفداً فى جمادى الآخر سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) كان من بين رجاله محمد ناصر باشا قائمقام « القاهرة » وكان باقى الوفد من لواء « تعز » . وكانت قد تمت قبل ذلك مقابلة بين مندوب سلطان لحج ، وهو السيد على بن محمد الجفرى ، ومندوب محمد ناصر باشا بهذا الخصوص أيضًا . فيقول السيد الجفرى : وبعد أن تخابرت مع الحاج على الكمرانى (مندوب محمد ناصر) اتفقنا جميعًا على أن نزول الأتراك لمحاربة عدن سيكون ضرراً عائداً على أهل بر اليمن ، بسبب الحصر البحرى ، الذى تضربه بريطانيا العظمى على سواحل اليمن . والأولى أن يسعى مشايخ اليمن فى تسكين حركات الأتراك ، ويقنع السلطان حكومة عدن أن لا تحصر سواحل اليمن ، وتعتبر ولاية اليمن أرضًا عربية محايدة ، وختمنا المقابلة باستصواب هذاالتدبير »[2] .

ويوضح هذا الاتجاه العربى الشكل أمرين : (أولا) أن إنجلترا تتوقع هجوم تركيا على عدن ، وأنها تخشى هذا الهجوم ... و (ثانيًا) أن إنجلترا

---

(١) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٠٩ .

استطاعت أن تحرك بعض العناصر العربية الموالية لها فى المنطقة - مثل لحج - لخدمة مصالحها بطريق غير مباشر .

أما العلاقة بين العثمانيين والإمام فكانت سلمية فى الغاية ، فلم يستغل الإمام الفرصة للتخلص من حكمهم ، كما أنه فى نفس الوقت لم يناصب الإنجليز العداء ، بل تميز موقفه مع الطرفين بالمصالحة واللجوء إلى الهدوء ، دون أن يقوم بعمل إيجابى واضح لمساعدة أية قوة منها ، وإنما كان يتصرف بحذر ودقة لتحقيق مصالحه الخاصة . وهذا الموقف يحتاج أن نتناوله بمزيد من التفصيل .

يعبر سلفاتور أبونتى عن موقف الإمام يحيى من تركيا وإنجلترا بقوله « وفى أثناء الحرب العظمى الأولى ، رفض الإمام يحيى بشمم وإباء (!؟) كل محالفة اقترحها عليه الإنجليز ، ورغم أنه حارب الأتراك لضمان استقلال بلاده ، إلا أنه آثر أن تقطع رقبته ورقاب أولاده على أن يحالف الكفار[1] » . ولكن هذا الرأى - المنحاز - نفسه يحتاج إلى تفسير ، فقد عبر سلفاتور عن موقف الإمام فقط دون أن يوضح سببه أو يشرح دوافعه المادية أو حتى الروحية . والحقيقة ، أنه عند قيام الحرب ، قام الإمام باتخاذ خطوات عملية بالنسبة للعثمانيين ، توضح حقيقة موقفه منهم . فقد كان صلح دعان سنة ١٩١١ ، يقضى بأن يدفعوا مرتبًا شهريًا له ولبعض كبار رجال قبائله واستمروا يدفعون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وعندئذ لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به ، وهذا معناه أنهم أخلوا بأحد شروط الهدنة المعقودة بينهما ، ورغم ذلك لم يحاول الانقلاب عليهم .. كما أنه فى نفس الوقت - وهذا ما ميز موقفه منهم - لم يساعدهم ضد الإدريسى فى تهامة ، ولا ضد الإنجليز فى عدن ، بل كانت المفاوضات جارية بينه وبين الإنجليز فى عدن

---

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٧ .

عن طـريق غير رسمى ، وذلك لأن رسـوله ذهب إلى لحج لا إلى عـدن[١] . وقد حاول العثمانيـون فى اليمن تعويـض الإمام عن عـدم دفعهم المرتبات الشهـرية وإرضائه حتى ينحاز إليهم ، فاقترحوا عليـه أن يخلوا له صنعاء وضواحيها ، وأن ينقلوا مركزهم إلى تعـز فى الجنوب ، ولكن الإمام رفض هذا الاقتراح وسبب ذلك أنـه كان يـرى أن انتقالـه من « شهـارة » - مركـزه المذهبى الحصين بين قبائلـه وأتباعـه - إلى صنعاء ، سيبعده عن هـذه القبائل ، مما قـد يـؤدى إلى إضعاف مـركزه ، أو يـؤدى إلى خروجهـا من قبضـة يده . وهـذا الخروج كان يخشـاه كثيراً وخاصة لأن العثمانيين كانوا يدفعون « المشـاهرات » إلى هـذه القبـائل مباشرة - لا عن طريق الإمام - « مما كان يبعدهم عن سيدهم الأصلى »[٢] . كما نرى أن الإمـام كان يخجلـه الانتقـال إلى صنعـاء بهذه الكيفية لأن فى ذلـك حطًّا لمركـزه وكرامته أمـام أتباعه ، ويعنى أنه حصـل على صنعاء كمنحة من العثمانيين مما لا يليق بمركـزه وتاريخه . هذا فضلا عـن أن انتقاله إلى صنعاء يعنى مبـاشرة أنه سيكـون تحت قبضة العثمانيين ، فى الـوقت الـذى يكون فيـه بعيـداً عن مراكـزه الـزيديـة الحصينة فى الشمال . ولكن رفضـه الانتقـال إلى صنعاء كـذلك لم يكن دليلا على غضبه ، أو تخاصمه مع العثمانيين ، إذ ظل على مسالمته معهم .

أما سبب موقف الإمام المتهادن هـذا مع الأتراك ، فيمكن إرجاعه إلى عدة أسباب هامة ، تبدأ كلها تقريبًا من الصلح المعقود بينهما سنة ١٩١١ .

فقد تمسك به الإمام، وتذرع به لدى الإنجليز عندما ضغطوا علية للانضمام إليهم عن طريق سلطان لحج ، ولكننا نـرى أن الصلح لم يكن هو كل شىء عند الإمام ، أو أنه كان عائقًـا كبيراً إذا أراد أن يقوم بعمل ما ضد العثمانيين. فالإمام حقيقـة كـان يـرى أن الأتـراك ليسـوا هم أعـداءه ، بل عـدوه اللـدود هـو

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ص ١٤٦ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 154.

الإدريسى ، ذلك المنافس الخطير الذى يزاحم الإمام فى جزء من ممتلكاته - طبقًا لوجهة نظره - لذلك كان يرى أن الإدريسى هو الأولى بالمخاصمة والعداء . ومن ناحية ثانية كان يهمه معرفة موقف الإنجليز وما سيتمخض عنه الصراع بينهم وبين العثمانيين ، ويهمه أن يراقب سير هذه الأحداث ، وهو بعيد عنها ينظر إليها باعتباره متفرجًا فقط ، دون أن يشارك فى أحداثها مشاركة فعالة تؤدى به إلى ضرورة تحمل نتائجها ، سواء كانت هذه النتيجة لمصلحته أو ضده . لهذا كله ، رأى أن من مصلحته الانتظار المشوب بالحذر والاستعداد فهذه هى فرصته لحل مشكلاته ومشكلات مستقبله ، تلك التى تتمثل فى وجود الإدريسى والعثمانيين داخل أراضيه الخاصة ووجود الإنجليز على حدوده .

وهذا المفهوم - وهو الحرص على تحقيق مصالحه الخاصة - كما أنه حدد علاقته مع الدولة العثمانية فهو الذى حدد علاقته مع الإنجليز أيضًا - كما سبق أن أشرنا - فى هذه الفترة الحرجة ، وحدد سير المفاوضات بين الطرفين . وكان يهم الإمام أن يقوم باتصالات سريعة مع لحج والإنجليز لمعرفة موقفهما ورأيهما فى الحرب عن كثب فقد قام الإنجليز بضرب الشيخ سعيد من البحر فى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وذلك ردًّا على ما أقامه العثمانيون هناك من تحصينات وتجميع للجنود . وكانوا يرون فى هذه الاستعدادات تهديداً مباشراً لمركزهم الهام الحيوى فى « بريم » وكان غرضهم حربيًّا أكثر منه سياسيًّا . وقد أزعج هذا الإمام ، ولكنهم أسرعوا بالاعتذار له ، وأكدوا له أن هذا العمل ضرورة عسكرية فقط ، دون أن يكون لهم من ورائه أية أغراض توسعية . وقد أجاب الإمام عليهم بأنه متأكد من عدم رغبتهم فى التدخل فى شئون العرب ، ولكنه يأسف لما حدث فى الشيخ سعيد ، كما قال إن هذا قد أثار شعور العرب فى كل مكان[١] . وذهب مندوب الإمام بعد ذلك إلى لحج فى يناير ١٩١٥ ليتعرف على الحقيقة

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 159.

هناك ، فقابل السلطان على ، وحضر هارولد جيكوب هذه المقابلة . وقد عبر المندوب عن اعتذار الإمام لعدم إمكانه الخروج على تعهده مع الترك ، الذين عقد معهم هدنة لمدة عشر سنوات فى سنة ١٩١١[١] . ونحن نرى أن هذه المفاوضات كانت استطلاعية لا تستهدف الوصول إلى شروط أو نصوص معينة ، إذ كان يهم الإمام أساسًا معرفة ما سيقوم به الإنجليز من أعمال حربية ضد العثمانيين فى اليمن ، لأن هذا سيؤثر بالضرورة على مركزه ونفوذه هناك . فهو من ناحية يعرف تصميم الأتراك على ضم لحج إليهم ، ويعرف بالتالى أن هذا ما لا يقبله السلطان على أو الانجليز ، وأنه سيؤدى إلى وقوع الحرب بينهما فى هذه المنطقة . وكان يخشى كثيراً أن يؤدى هذا إلى دخول الإنجليز أراضٍ يمنية يعتبرها ملكا له ، فالحدود مشتركة ، والخطر قريب متوقع فى كل لحظة . وكان ينظر فى نفس الوقت إلى الفرق العثمانية الجاثمة فوق أراضيه بعين الخوف والريبة ، فالحرب بينه وبين العثمانيين لن تؤدى إلا إلى انكماشه وانكماش نفوذه أكثر فأكثر ، ولن يكون ذلك إلا لمصلحه عدوه ومنافسة الإدريسى . ويتضح موقف الإمام الحرج إذا قارنا بينه وبين موقف ابن السعود فى الحرب . فالإمام كان يخاف أن يصبح حاكمًا تحت رعاية إنجلترا كما هو الحال فى المحميات مثلا ، بعكس ابن السعود الذى كان ذكيًّا بدرجة كافية مكنته من استغلال إمكانيات بريطانيا، وخاصة المساعدات المالية ، لبناء مملكته العربية دون أن يكون - فى نفس الوقت مثار شك أنصاره الوهابيين فى أن يكون حليفًا « لغير المؤمنين » . ولكن موقع اليمن هو الذى أدى فى الحقيقة إلى اختلاف موقف الزعيمين العربيين فمحمية عدن تقع على حدود الإمام مباشرة ، كما أنها كذلك تشمل أقاليم يعتقد الإمام أنها ملك أجداده ، لذلك كان على الإمام أن يكون يقظًا لحرج موقفه ، وحتى لا يلقى باقى اليمن مصير المحميات[٢] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia p. 159 .

(٢) Hans Helfritz ; The Yemen, p. 124.

وهكذا نستطيع معرفة حقيقة الموقف فى الميدان الحربى الصغير فى الجنوب العربى . فتركيا أعلنت الحرب وانضمت إلى دول الوسط ، وبذلك أصبحت عدوة لبريطانيا . وكان لتركيا نفوذها وقواتها فى اليمن ، كما كان لإنجلترا نفوذها وقواتها أيضًا فى عدن والمحميات . هكذا تحدد قطبا المعركة هناك ، وانقسمت باقى القوى الموجودة بين هذين القطبين . فالإمام يحيى وقف موقفًا له طبيعته الخاصة الذى سبق أن أوضحناه ، وإن كان الكثير من المؤرخين وخاصة الأوروبيين يذكرون أنه انحاز إلى جانب تركيا فى الحرب[1] ولكنا نؤيد رأى العبدلى فى هذا الصدد فيقول : « .. أما سياسة الحضرة الإمامية آنئذ فكانت التأنى والتظاهر بالحياد المشرب بالعطف والميل إلى حكومة محمود بك نديم والى اليمن ، دون أن يتعرض لعداء بريطانيا العظمى وحلفائها ، وانتظار الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الأحوال ومساعدة الظروف»[2]. أما الإدريسى فكانت عداوته التقليدية للترك معروفة ، ولا ينتظر منه إلا الوقوف إلى جانب إنجلترا وهو ما حدث بالفعل . وكان موقف سلطان لحج معروف كذلك ، فهو حليف بريطانيا منذ أمد بعيد ، وهى تمنحه مشاهرة كبيرة ، وتعترف به سلطانًا فى لحج ، كذلك كان أجداده من قبله ، ولهذا كان انحيازه إلى صف انجلترا أمراً متوقعًا بديهيًا . وقد رأينا أنه كتب للإمام يستميله إلى جانب إنجلترا « لاعنًا العثمانيين الذين زجوا بأنفسهم فى هذه الحرب ضد بريطانيا الصديقة » . (!؟) .

هجوم الأتراك على المحميات :

كان على العثمانيين أن يقوموا بعمل ما ، فقوتهم فى اليمن فى أوائل الحرب تعتبرشبه محصورة وأصبحت محصورة تماما فيما بعد ، وخاصة عندما أعلن

---

(١) Lenczowski ; The Middle East in the World Affairs, p. 455.

(٢) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٠٨ .

الشريف حسين ثـورتــه عليهم ، وبعـد أن تحالف ابـن السعـود مع إنجلترا فى ديسمبر سنـة ١٩١٥ . ففى أوائل الحرب - بعـد أن أعلنت تـركيـا الحرب ضـد إنجلترا - قامت الأخيرة بمحـاصرة السواحل اليمنيـة ، وقطعت المواصلات بين باقى الإمبراطوريـة العثمانية ، فلم يكن أمام القوة العثمانيـة فى اليمن إلا الطريق الصحراوى الطويل عبر الحجاز أو نجد ، الذى سد فى وجهها أيضًا بعد ذلك . وهكـذا وجدت نفسهـا محاصرة فى نطاق ضيق لا يحتملهم كثيراً ، فمـوارد اليمن محدودة أنهكتها الثـورات والحروب الطويلـة ، كما أن إقامتهم طـويلا فى اليمن ، واعتمادهم اعتماداً كليًا على مـوارده ، يثير بالضرورة الأهـالى الذين لم ينسـوا تماما منـازعـاتهم السـابقـة مع الأتـراك . فـالعثمانيـون إذن من النـاحيـة النفسيـة والاقتصادية، لا بد لهم أن يبحثـوا عن مخرج وعن متسع يتنفسون فيه الصعداء ، لأنهم توقعوا حدوث ضائقة تطيـح بهم إذا استمرت الحرب طويلا ، وخاصة أن أعداءهم يحيطون بهم من كل جانب . لـذلك قرروا مهاجمة المحميات بل وعدن نفسها ، وكانوا يرمون من وراء ذلك حلا لضائقتهم الاقتصادية المتوقعة . ويؤكد هـذا ما قـاموا بـه من استيـلاء على المحاصيل والأغنـام - كما عبر العبدلى عنـد دخولهم لحج[1] . أما السبب الثـانى فهو عسكـرى محض بناء على خطة الـدولة العثمانيـة عامـة ومن ورائهـا ألمانيا ، وهى طـرد الإنجليـز من عدن واحتـلالها ، واحتـلال جزيـرة بـريم ، وهما مفتاح البحـر الأحمر الجنـوبى ، وبذلك يعطلـون مواصلات بـريطانيا . وكانت مهـاجمة عدن جزءا من خطـة مهاجمة الإنجليز فى مصر والاستيلاء على قناة السويس حتى يحرموا بريطانيا من أهم طريق حيوى فى مواصلاتها الإمبراطورية[2] . والواقع أنهم لم يستطيعوا إكمال المهمـة المنوطة بهم،

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١١ .

(٢) Lenczowski, The Middl East in the Word Affairs, p. 61.

فلم يصلوا إلى عدن ، مما دعا أمين الريحانى أن يكتب فيها بعد قائلا : « فعول على سعيد باشا الجركسى قائد القوات العثمانية فى اليمن على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير إشغال الانجليز هناك »[١] .

وعلى كل حال سواء أكان غرض سعيد باشا - من تحركه ومهاجمته لحج - الوصول إلى عدن نفسها وطرد الإنجليز منها ، أو « مشاغلتهم » فقط هناك ، فقد كان هذا الغرض العسكرى ، هو الذى حدد الجهة التى يزحف إليها . لذلك اتجه سعيد باشا إلى لحج دون عسير مثلا ، وإن كانت كل منهما تعتبر أرض حرب ، وكان من الممكن أن يهاجم عسير ، ليحرم الإنجليز من التحالف مع الإدريسى أولا ، وليمنعهم من استعمالهم لموانيه فى محاصرتهم ثانيًا ، ولكنه فضل الميدان الثانى فى الجنوب حتى يهاجم عدوته هجومًا مباشراً .

بعث على سعيد باشا إلى السلطان على سلطان لحج ، يستأذنه بالمرور عبر بلاده ، ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه ، فأبى السلطان لأنه كان حليفًا لبريطانيا وخاضعًا لحمايتها .

وكانت بريطانيا وراء موقف لحج ، فهى بدون شك ترى لحج خط دفاع أول لعدن ، وأن على لحج أن تعرقل تقدم الترك . وكان نتيجة هذا أن بدأ العثمانيون زحفهم إلى لحج فوصلوا إلى « الضالع » فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ (فبراير ١٩١٥) . وقد كتب الأمير نصر إلى السلطان على يصف له الحملة العثمانية قائلا : « إن الحركة قوية وجيوشًا تركية وإمامية ويمانية لا لها قدر (كذا !!) جهزت عساكرها من طريق اليمن ، وواصلين إلى « قعطبة » و«ماوية » و « الراهدة » و طريقهم « الدريجة » و « الراهدة »[٢] .

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠١ .

(٢) المبدلى : هدية الزمن ، ص ٣١٣ .

وقد بدأ الجيش بقيادةعلى سعيد من « ماوية » وقد ضم إلى جيوشه بعض العرب « من قبائل القماعرة » و « تعز » و « جبل صبر » و « العدين » و « جبلة » و«إب» و « الحجرية » و « الحواشب »[1]. ولكنا نشك فى قول الأمير نصر بأن جنود الإمام اشتركت فى الحملة العثمانية على لحج، حيث كان الإمام يعارض بشدة مهاجمة لحج، وأن سعيد باشا قام بهذا العمل دون إرادته بناء على الضرورة العسكرية[3]. وإن كنا نرجح فى نفس الوقت أن بعض أتباع الأمام، أو بعض الذين حاربوا العثمانيين تحت لوائه، اشتركوا فى الهجوم على لحج ولكن بصفتهم الشخصية لا بصفتهم ممثلين للإمام حيث إن ذلك كان يخالف خطته المرسومة، التى ترمى إلى الامتناع عن الاشتراك فى الحرب. ومن ناحية ثانية، كان هناك أمران هامان بالنسبة لهذه الحملة يمكن الإشارة إليهما. فقد صاحبها - من ناحية - حملة دعاية ضخمة، حيث أعلن الأتراك أنهم قد استولوا على قناة السويس، و « جميع الإقليم المصرى وأقفلوا باب المندب » وذلك ليوهموا العرب أن عدن هى المحصورة[4]. ومن ناحية ثانية، فإن العثمانيين استطاعوا أن يركنوا إلى الإمام فى ضبط جانب من بلاد اليمن، واحتمال جملة من المهام بصفته مفوضًا من طرف الخليفة وهى خدمة ثمينة مكنتهم من أن يتفرغوا لمحاربة أعدائهم، كما تمكنوا من أن يقترضوا منه ما احتاجوا إليه من الغلال والنقد.

بدأ سعيد باشا - وكانت قواته تبلغ ألفى جندى بالإضافة إلى أربعة آلاف يمنى - زحفه داخل لحج، ولكن لم تحدث معارك ما حتى ٥ يولية سنة ١٩١٥م (٢١ شعبان ١٣٣٣هـ) حيث وقعت معركة « الدكيم » فكان

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢٢٤.

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 164.

(٣) العبدلى : هدية الزمن، ص ٢١٢.

(٤) نفس المرجع : ص ٢١١.

الانتصار حليف سعيد باشا[١] . ويرجع ذلك إلى ضخامة استعداد سعيد باشا من ناحية العدد والعدة ، فى الوقت الذى لم يجمع فيه سلطان لحج إلا حوالى ٢٠٠٠ عربى ، وكانت تكاليف الاحتفاظ بهم إلى جانبه ضخمة لا تتحملها ميزانيته الصغيرة[٢] . ويمكن إرجاع الهزيمة أيضًا إلى قلة عتاد جند لحج ، وعدم نظامهم وتأخر النجدة الإنجليزية التى لم تحضر إلا بعد وقوع الهزيمة باللحجيين فعلا . وقد ساعدت بعض العوامل غير المنتظرة فى تأخر وصول الحملة الإنجليزية ، ووقوع الهزيمة . فقد اشتد القيظ وتعذر الحصول على الماء ، كما هربت جنود إنجلترا من الهجانة ، إذ يقول الريحانى : إنه سمع فى عدن أن الجنود الهندية قد عصت ضباطها لأنهم كرهوا أن يحاربوا إخوانهم المسلمين[٣] . وسواء صح هذا الخبر أم لا فقد تأخرت النجدة وتم انتصار الترك . وقد زحف الترك بعد ذلك إلى « الحوطة » واستولوا عليها . وهنا خرج السلطان على قبل الفجر من المدينة ، فمر بكمين من الجنود الإنجليز « فظنوه من الأعداء وأطلقوا عليه وعلى من معه الرصاص ، فأصابوه بسبع رصاصات وقتل فرسه ، وأعيد مجروحًا إلى القصر ، محمولا على الأكتاف . وكان الأتراك يرمونهم بالبنادق من أطراف المدينة فأصابوا بعض الذين يحملونه بجروح خفيفة ، ووصل السلطان وهو على تلك الحال إلى قرب « الرباط » حيث حملته سيارة إلى عدن »[٤] . وهنا دخل الأتراك لحج ، وفر إلى عدن عدد كبير من أفراد الأسرة المالكة وكثيرون من الأهالى . وقد نودى بالسلطان عبد الكريم خلفًا للسلطان

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١٦ ، Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 80 .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p. 165.

(٣) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠١ .

(٤) العبدلى : نفس المرجع ، ص ٢١٧ .

على الـذى تـوفى متأثـراً بجـراحه بعـد وصـولـه إلى عـدن . كـان من أول أعمال السلطان عبد الكريم أنه وجه احتجاجًا شديداً إلى حكومة إنجلترا ، لأنها لم تقم بـواجب المعاهـدة التى بينهـا وبين أجداده ، فقبلت حكـومـة لندن الاحتجـاج وعزلت حاكم عدن ، وقائد الحامية فيها[1] . وفى ميدان آخر كان الإنجليز تحت ضغط القـوات العثمانية الـزاحفة قـد اضطروا إلى إخـلاء « الشيخ عثمان » وهى تعتبر ضاحية لعـدن نفسها - فاحتلها الترك والعـرب فى الحال ، ولكن الإنجليز تمكنوا ثانيـة من احتلالها فى ٢١ يوليو سنـة ١٩١٥ ، بعد أن وصلت إليهم نجدة عسكرية من مصر لإنقاذ عدن ، وللمحافظة على مركزها الهام . ومن المعروف أن حكومـة عدن أرسلت - فى هـذا الوقت الحرج - تستنجـد بفرنسـا فى جيبوتى ، فأمدتها بحوالى ٨٠٠ جندى من مدغشقر ، كما أرسل الجنرال مكسويل - القائد العام فى القـاهرة - فرقة هنـدية للمساعـدة أيضًا[2] . وبعـد استرجـاع إنجلترا «للشيخ عثمان » يمكن أن نقـول إن العمليات الحربيـة أمـام المدينة (عـدن) لم تتعد المناوشـات بين الجانبين والانسحاب ثانية إلى المراكز الإضـافية . ورغم قلة أهميـة هذه العمليـات فى حد ذاتها إلا أنها اضطـرت الجانبين أن يبقى كل منهما قـوات لا بأس بها أمام القـوة الأخرى ، ممـا عطل العثمانيين مثلا عن الاستفـادة بهذه القوات فى ميـدان آخر كعسير[3] . وقد استمـرت هذه الحالـة حتى إعلان الهدنـة العـامة سنـة ١٩١٨ لا أمـام الشيخ عثمان فحسب ، بل فى كل الجنـوب العربى[4] .

وهنـا يمكن القول أن الـوضع كـان قـد تحدد إلى درجة كبيرة ، فقـد دخل الأتـراك لحج واحتلوهـا ، ووقف الإنجليـز من هـذه الحرب العثمانية اللحجيـة موقفًا سلبيًـا باستثناء الحملة الهزيلة التى وصلت متأخرة لمسـاعدة سلطان لحج

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٢ .

(٢) Jacob; Kings of Arabia, p. 169 .

(٣، ٤) Bremond; Yemen et Saoudia p. 80 .

أمام القوات العثمانية الضخمة الزاحفة . ولم يحرص الإنجليز إلا على الدفاع عن عدن و « الشيخ عثمان » لأهميتها الحربية وتركوا لحج للعثمانيين . ولو استثنينا معركة « الدكيم » في (٥ يوليو ١٩١٥) التي أدت إلى الاستيلاء على مدينة «الحوطة » - عاصمة لحج ، لوجدنا أن المعارك التي دارت حول عدن إنما هي معارك محلية وغزوات صغيرة ، إذ لم يحاول الأتراك مهاجمة « عدن » أو « الشيخ عثمان » إلا عند بدء زحفهم ثم سكنوا بعد ذلك عندما ردوا عنها - وكذلك لم ير الإنجليز في إخراج الأتراك من لحج بالقوة فائدة بالنسبة للحرب العظمى ، وهذا ما عبر الجنرال « وليم ولتن » قائد الجيش البريطاني في عدن في منشوره في مايو سنة ١٩١٦ لتسكين المحميات ، وتفسير سبب تقاعدهم عن مساعدتهم ، فقال « ليس لضعفنا امتنعنا عن حرب الأتراك الذين في لحج ، ولكن مملكة الدولة الإنجليزية واسعة جدًّا . ويلزمنا معاملة الميادين التي فيها العدو واحداً بعد آخر بالتعاقب بحسب الخطط التي وضعتها .. وعلى كل حال لن تكون الموقعة الفاصلة في أرض العرب بل هي في فرنسا[١] . بل إن الموقف من العثمانيين هو الذي دفع العبدلي - وهو أحد أمراء بيت سلاطين لحج - إلى القول إن الترك كانوا يقصدون من حربهم احتلال لحج فقط لا مهاجمة عدن فقال : « جاء هؤلاء الأتراك من أعالي جبال اليمن متيقنين بعجزهم عن أن يمسوا عدن الحصينة بسوء ، فلا يقصدون غير أذيتنا في بلادنا »[٢] ، ولكننا نعتبر أن هذا القول يعبر فقط عن رأي مواطن لحجي أحزنه وقوع الحرب في بلاده .

موقف السلاطين والمشايخ من القوى المحاربة :

ويحتاج بيان حالة الجمود الحربي هذه بين الترك والإنجليز طول مدة الحرب العالمية إلى توضيح أمرين هامين :

---

(١) العبدلي : هدية الزمن ص ٢٢٩ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٣٨ .

أولا : موقف المحميات والمشايخ ورؤساء القبائل فى هذه المنطقة من كل من القوتين .

ثانيًا : سير العلاقة بين الطرفين المتحاربين فى هذا الميدان ، بعد استقرار العثمانيين فى لحج طوال مدة الحرب حتى إعلان الهدنة العامة .

عندما أعلنت تركيا الحرب وانضمت إلى دول الوسط ، وقف سلاطين المحميات - وهم مرتبطون مع الإنجليز بمعاهدات تحالف - إلى جانب إنجلترا، وتمنوا انتصارها وخاصة لأنها تدفع لهم المرتبات الشهرية . وقد حاول الإنجليز من جانبهم كذلك تأكيد انحياز هؤلاء المشايخ والرؤساء إلى جانبهم ، فكانوا يتصلون بهم ويذكرون لهم أن دخول تركيا الحرب ضدهم عمل خاطئ ، وأن بريطانيا ليس لها أغراض ضد العرب ، وقد أشرنا إلى منشورهم الذى أصدروه ليؤكدوا احترامهم للحرمين الشريفين وجدة ، وقد ساعدهم كثيراً «السير » على سلطان لحج بما لـه وبما لبيته من هيبة واحترام داخل المحميات وخارجها ، بل كان لصداقته مع الإمام دخل كبير فى موقف الإمام غير المعادى لبريطانيا . وساعد الإنجليز على نشر دعايتهم فى المحميات موقف أهالى عدن منهم ، فقد اتصف بالهدوء والسكينة ، بل الانحياز والدعاية لهم . فقد هاجم السيد عبد الله عيدروس قاضى عدن وشيخها الأكبر تركيا ، وهاجم الخطأ الجسيم الذى ارتكبته - وهو دخول الحرب ضد بريطانيا - « ضد الصديق الحميم للمسلمين، الصديق الذى طالما أعان الباب العالى » كما يصف إنجلترا فى عدن بأنها أحسن وأعدل حكومة عملت من أجل الإسلام وأنهم أصدقاؤها منذ احتلالها لعدن سنة ١٨٣٩[١] .

أما بعد دخول تركيا لحج فقد تغير موقف بعض هؤلاء السلاطين من إنجلترا ، نتيجة موقفها المتميع ، وعدم مساعدتها لهم ضد العثمانيين ، ونتيجة

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 161-162 .

ضغط الأتراك عليهم المتمثل فى قوتهم الحربية الجاثمة فوق أراضيهم . حقًا كان موقف الإنجليز بعد دخول تركيا لحج حرجا للغياة ، فهم بتحالفهم مع هؤلاء المشايخ والسلاطين ، كانوا ملزمين بتقديم المساعدة لهم ، ولكنهم وقفوا منهم موقفًا نسبيا هزيلا ، فلم يكن فى عدن من القوات ما يكفى لتقديم هذه المساعدات . وقد وضح عجز إنجلترا فى أنها لم تستطع البقاء فى « الشيخ عثمان» والعودة إليها ثانية ، إلا بعد أن وصلتهم النجدة من الخارج . وسبب عجزهم هذا أنهم - كما عبر قائدهم - لم يكونوا يهتمون كثيراً بميدان الجنوب العربى إذ كانوا لا يرون له أثراً فى سير العمليات الحربية فى الحرب العامة ، بل كانوا يرونه من الميادين الجانبية الصغيرة ، التى يعالج أمرها بسرعة وبسهولة بعد ضمان رجحان كفتهم فى أوروبا ، ولذلك فضلوا السكون والانتظار على الدخول فى معارك خاسرة لا يرجى منها فائدة كبيرة ، وخاصة أنهم كانوا يسيطرون على البحار . وكانوا واثقين من حصانة عدن الذاتية من ناحية ، ومن أن القوات العثمانية الموجودة فى لحج كانت محاصرة من ناحية ثانية ، وإنها بالتالى لا تملك القيام بعمل ذى قيمة . لهذا لم يخافوا خطر هذه القوات بل نعتقد أنهم كانوا ينظرون إليها وكأنها قوة لا بد من الإجهاز عليها ، ولكن لا بأس من تأجيل هذا الإجهاز حتى يتفرغوا لها . وقد يبدو أن هذا الموقف كان على جانب من المعقولية - من وجهة نظرهم - ولكنه لا يروق للأمراء والمشايخ فى هذه المنطقة . فقد كان انتصار الترك فى هذا الميدان الضيق واحتلالهم لبلادهم ، يؤلمهم معنويًا وماديًا ويؤذيهم فى حياتهم ، فهم لم ينظروا إلا إلى هذه البقعة الصغيرة من ميدان الحرب العالمية وكأنها هى الوجود كله . ومحقون فى ذلك ، فهى مسرح حياتهم ، ومصدر وجودهم وعالمهم الصغير والكبير فى نفس الوقت ، ولذلك فهم لا يؤمنون إلا بأن بريطانيا تقف موقفًا متخاذلا بالنسبة لقضيتهم مع الترك . لهذا كله ، فقد « اضطر بعض أمراء المحميات مثل الأمير نصر ، والأمير على ابن مانع الحوشبى إلى منافقة الأتراك والتحالف معهم ، وذلك عندما

خذلتهم بريطانيا ، وبقى الباقى على ولائه ، وخاصة أمير لحج »[1] . وكان كل من هؤلاء الأمراء واقعيًّا مع نفسه ، ومع ظروفه ، فمن وقع منهم تحت وطأة الترك، كان لا بد له من إعلان ولائه لهم ، أما من استطاع الفرار أو كان بعيداً عنهم ، فكان من الطبيعى أن يظل على ولائه لإنجلترا التى تمنحه المال كما تمنحهم جميعًا الأمل فى رجوعهم إلى حياتهم العادية . فأين يذهب سلطان لحج مثلا - ما دام لم يقبل الخضوع للعثمانيين ما لم يذهب إلى عدن ؟ وبالتالى لماذا لا يرحب به الإنجليز ، وهو سليل البيت العبدلى صاحب الهيبة والمركز المحترم داخل المحميات وخارجها ؟ وكذلك كان الحال بالنسبة للذين وقفوا إلى جانب الترك .

ويمكن هنا أن نذكر بعض الأمثلة على موقف أمراء ومشايخ المحميات من كل من إنجلترا وتركيا . فالسلطان الفضلى مثلا اضطر للإذعان للترك ، وحضر إلى لحج بعد أن رفض الإنجليز مده بالسلاح ، وكذلك فعلت عشيرة يافع . أما أمير الضالع فقد اتخذ موقفًا أكثر جرأة بالنسبة لإنجلترا ، فعندما لم يمنح أية مساعدة من إنجلترا ، أصدر منشوراً فى ديسمبر سنة ١٩١٥ ، يعلن فيه أن الحكومة الإسلامية هى حكومته ، وأن السلطان هو خليفته - يشير إلى السلطان العثمانى - وأنه سيطيع من (كانت) طاعته من طاعة الله ورسوله . وقد برز موقف السلطان على مانع الحوشبى والأمير نصر فى إعلان عدائهما للإنجليز ، عندما تخلوا عنهما واضطرهما الترك للإذعان لهم . وقد نصب سعيد باشا على مانع سلطانًا للحج ، ولكن الأخير لم يقم بدور ما ، بل سرعان ما رجع إلى عاصمة الحواشب وهى « المسيمر » . أما الأمير نصر فقد أعلن أن مبدأه هو مجاراة التيار ، فتمثل بالمثل القائل « أينما دارت الزجاجة درنا » . إذ كان يرى أن وطأة أقدام الأتراك أقسى من طائرات إنجلترا[2] . أما السلطان العوذلى فقد سره المنشور الذى أصدره الإنجليز

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١٣ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 170 .

بخصوص احترام الإمام ويؤكد أن الإنجليز أحسن أصدقاء العرب . وقد صرح قاضى « بيحان » أن العرب جميعا مدينون لإنجلترا ، وأنه يجب أن يمدوها بالعون ، وكان يعلن مثل تلك الأقوال فى المساجد والأسواق العامة . ولكن الإدريسى فى عسير - وقد ضايقة انتصار الترك - وصف موقف إنجلترا بأنه ليس ضعفًا بل تراخيًا منها . وقد نصح شيخ يافعى « الإنجليز بضرورة القيام بعمل أى شيء فهذا سيجبر الترك على الخروج من لحج ، بل إن المبعوث المكى الذى زار عدن فى نوفمبر سنة ١٩١٦ ، قد عبر عن ضيقة لسكون الإنجليز وهدوئهم فى هذه الآونة ضد اعتداء العثمانيين على لحج ، والتمس منهم راجيًا أن يقوموا بعمل فعال فهذا يؤدى إلى جذب العرب الذين هم خارج المنطقة إليهم ، كما يؤدى إلى مواجهة الدعاية التركية الألمانية »(١) . وكان هذا المبعوث المكى يخدم بذلك قضية أميره الشريف حسين ، الذى كان قد أعلن الثورة على الترك ، وكان يضره طبعًا هزيمة الإنجليز فى داخل البلاد العربية أو سكوتهم بهذا الشكل ، فذلك على الأقل يضعف ثقة أنصاره فى حليفته بريطانيا ، ويفقده الأمل فى كسب أنصار جدد ، خاصة وأن حملات الدعاية التركية الألمانية قد استغلت هذا الموقف لصالحها .

أما حالة هذه المنطقة ، والعلاقة بين هاتين القوتين فى تلك الفترة فكانت أمراً ملفتًا للنظر .

فقد دفع تجمد الأوضاع جميع هذه الهيئات والفئات إلى الالتفات والبحث عن مطالب الحياة الضرورية ، والعمل على الحصول على مستلزماتها . فبدأت الحالة تعود إلى مجراها الطبيعى ، وبدأ الناس يعودون إلى الزراعة والتجارة ، واستئناف الحياة العادية « لأن الأهالى والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون فازدهرت بالاخضرار والثمار ، تلك البقعة الخصبة ، التى تستقى من فرعى وادى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 171-172,

« دين »[١] . بل الأكثر من ذلك أن القائد التركى سمح للقوافل بالمرور حرة إلى عدن ، لأنه يحصل بذلك على ضرائب انتقال ، وكان الإنجليز يسمحون بذلك أيضًا ، وذلك بناء على ما قاله جيكوب : « لمصالح أصدقائنا الذين يعتمدون على عدن فى الحصول على احتياجاتهم حتى لا تحدث كارثة »[٢] . وكان غرض الطرفين من ذلك لا يخلو من هدف عسكرى ، وهو الحصول على معلومات عسكرية مفيدة من حيث تحركات كل منهما وقوته وعدد جنوده أو آلاته الحربية ، وكان رجال القوافل يقومون بذلك خير قيام . وعلى كل حال فقد عاد سير القوافل مرة ثانية قبل أن تنتهى الحرب رسميًا ، واستفاد الطرفان من ذلك اقتصاديًا وعسكريًا .

وكذلك - كما قال الريحانى - تم الصلح بين الحلفاء ودول الوسط ، أو بالأحرى بين ممثليهم فى عدن وفى لحج قبل أن تنتهى الحرب بسنتين[٣] .

الأوضاع فى عسير بعد قيام الحرب :

لم يكن الميدان الجنوبى هو الميدان الوحيد الذى كان موضع صدام بين العثمانيين والإنجليز فى اليمن ، بل كانت عسير وسواحل اليمن هى الميدان الثانى . ويمكن أن نفهم لماذا كانت سواحل اليمن ميدانًا حربيًا بين الطرفين المتحاربين ، فإنجلترا دولة بحرية وكانت عظمتها تقوم على أساس سيطرتها على البحار ، ولهذا نراها تحاصر الساحل اليمنى وتضرب بعض مدنه من البحر ، ولكن الذى يجب شرحه ، هو كيف تطورت الأحداث فى عسير ؟ ولماذا أدى هذا التطور إلى انحياز عسير إلى جانب إنجلترا ضد الدولة العثمانية ؟ وكيف سارت أحداث هذه البقعة فى هذه الفترة إلى نهاية الحرب ؟ وما هى النتائج التى ترتبت على ذلك ؟

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٣ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p. 169,

(٣) الريحانى : نفس المرجع والصفحة .

عرفنا كيف أن عزت باشا نجح فى التفريق بين الإمام والإدريسى ، كما رأينا كيف أن صلح دعان سنة ١٩١١ كان بداية الخصام بينهما ، وكان هذا دافعًا لأن يتحالف الإدريسى مع إيطاليا أثناء اشتعال الحرب الطرابلسية . وبعد أن انتهت هذه الحرب تم التقارب بينه وبين إنجلترا ، ورأينا كيف أن الإمام كان يسره محاربة العثمانيين للإدريسى ، وكان يأمل أن يتمكنوا من القضاء عليه قبل خروجهم من اليمن حتى يخلو له الجو حينئذ تماما . وقد أدى موقف العثمانين من الإدريسى إلى منابذتهم له وإعلانهم الحرب ضده ، واستمر هذا الموقف حتى إعلان الحرب العالمية الأولى . فكان الإدريسى أول من لبى نداء الإنجليز ، فعقد معهم معاهدة فى ٣٠ إبريل ١٩١٥ ، وكان أول أمراء الجزيرة الذين أعلن انضمامه إليهم . وعلى كل حال لقد كانت علاقة الإدريسى بالإمام فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، أى عند إعلان الحرب العالمية الأولى ، متوترة جدًّا لتعارض مطالب كل منهما . وكان الإدريسى يرى أن تكون له حقوق السيادة فى منطقته الخاصة ، وكان الإمام يرفض ذلك[1] . وقد أبرزت الحرب العالمية الخلاف بين كل من الأميرين العربيين ، ودفعت كل منهما إلى اتخاذ موقفه الخاص . فانضم الإدريسى إلى الإنجليز علانية ، بينما ظل الإمام على ولائه للعثمانيين ، وفى نفس الوقت عمل ألا يعلن عداءه للإنجليز ، وألا يكسب عداء الإنجليز له . ويذكر أن الإمام أرسل فى أواخر سنة ١٩١٥ رسالة إلى الكولونيل جيكوب - المعاون الأول فى عدن - يلتزم فيها بمواقف معينة تجاه إنجلترا ، ويؤكد فى نفس الوقت إخلاصه لتركيا[2] . ويرجع الاختلاف بين موقف الإمام والإدريسى - من الناحية العملية - إلى أسباب جوهرية . فمن ناحية ، كان وضع الإمام الدينى يمنعه أمام أنصاره من أن ينضم للقوى غير الإسلامية ضد العثمانين المسلمين وكذلك تحالفه مع العثمانيين فى سنة ١٩١١ ، كان يفيده ولو نظريًّا فى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 160 .

(٢) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 81.

الوقوف ضـدهم ، بعكس الإدريسى الذى لم يكن ملتزمًـا باتخاذ موقف إسلامى معين ، وقد سبق له أن تحالف مع الإيطالين كما لم يكن متحالفًا مع العثمانيين بل كان معاديًا لهم . ومن ناحية ثانية ، أن نفوذ الإدريسى يتركز أساسًا على الشاطئ فسهل بذلك اتصالـه بالقوى المختلفة ، وخاصـة التى تسيطر على البحر ، مثل إيطـاليا وإنجلترا . أمـا الإمام فكـان نفوذه يتركـز على الهضبة فى الـداخل ، على مسافة تبلغ ١٥٠ ميلا من البحر ، فهو محاط بسياج ضخم من الفرق العثمانية ، وكذلك يقع تحت تأثير الدعاية التركية الألمانية[١] . ولكن هذا السبب أو ذاك ، كـانت أسبابًـا ثانـوية فقط ، فكـان موقفهما - أثنـاء الحرب - ينبثق أساسًـا من رغبتهما فى تحقيق أغراضهما الذاتية ، ويدل على إدراكهما الواعى بكيفية الاستفادة من ظروف الحرب الدائرة .

اتجه الإدريسى إلى نـاحية الإنجليـز ، يرحب بـالمفاوضـة مع حكام عـدن ويسرع بالتحالف معهم ، فعقد معهم معاهدة فى ٣٠ أبريل ١٩١٥ .

ورحب الإنجليز من نـاحيتهم به لضمانه إلى جـانبهم ضد العثمانيين ، كما عدوا تحالفهم مـع الإدريسى عملا وقائيًـا ضد أيـة محاولة معـادية يبـديها الإمام ضدهم[٢] .

وكـانت المعاهـدة المعقـودة بينهما تعكس بوضـوح مطـالب كل منهما من الآخر ، وموقفهما من العثمانيين ومن الإمام يحيـى ، وموقف كل منهما أيضًا حيال الآخر . ويزيد لنا هذه الأمور اتضحاحًا عرض بعض مواد المعاهدة :

المادة الثـانيـة : المقصـود من هذه المعـاهـدة هـو إعلان الحرب على الأتـراك ، وتوطيـد عرى الصـداقة بين حكـومة بـريطانيـا والسيد الإدريسى المذكور آنفًا ، وأعضاء قبيلته .

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p,

(٢) J,C, Hurewitz ; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol , 11, p, 12,

المـــادة الثـالثـــة : يتعهد الإدريسى بقتال الترك ، وأنه سيجتهد لطردهم من مـواقعهم فى اليمن ، وأن يتعقبهم ، ولـه أن يوسع أراضيـه على حساب الأتراك .

المـــادة الرابعـــة : عمل السيد الأساسى يتجه ضد الترك فقط ، ويمتنع عن كل حركة عدائية ضـد الإمام يحيى ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك .

المـــادة الخامسـة : تتعهد الحكـومة البريطـانية بـالمحافظـةعلى أراضى السيد الإدريسى من كل اعتـداء يقع من قبل أى عدو كـان على السـواحل ، وبضمان استقـلالـه فى أراضيـه الخاصـة ، وباستعمال كل الـوسائط السيـاسية عنـد ختام الحرب فى سبيل تأليف مطالب السيـد الإدريسى مع الإمام يحيى أو أى خصم آخر .

المـــادة السادســـة : كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للأعمال التى سيقوم بها السيد الإدريسى فهى ستعاونه بالمال والمؤونة ، وتستمر فى معاونته طول الحرب ، وستكون هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به السيد الإدريسى من أعمال .

المـادة السابعـــة : تسمح الحكومة البريطانية للإدريسى أثناء الحصار البحرى المضروب على سواحل تركيا فى البحـر الأحمر أن يتاجر مع عـدن وسـواحلهـا ، وهى تضمـن استمـرار هـذه الحالـة مادامت العلاقة حسنة وموجودة بين الطرفين .

المـــادة الثامنـــــة: تكون هذه المعاهدة نافذة المفعول على أثر موافقة الحكومة الهندية (الإنجليزية) عليها :

وقـد أرخت هـذه المعاهـدة فى يـوم الجمعة ٣٠ أبـريل سنـة ١٩١٥ (١٤ جمادى الثـانى ١٣٣٣هـــ) ووقعها السيـد مصطفى بن السيـد عبـد العلى عـن

الإدريسى ، والميجر جنـرال « شو » عن بريطـانيا - وهو المعتمـد البريطانى فى عدن - كما وقعها « هاردنج » حاكم الهند العام[1] . وتضم هذه المعاهدة بعض الحقـائق والمواقف التـاريخيـة التى يمكن أن نشير إليها . فهـى بوجـه عـام تبرز غرض إنجلترا من تحالفهـا مع الإدريسى ، وهو غرض محدود يحدد الـدور الذى سيلعبـه الإدريسى فى الحرب . وهــو دور محلى بحت ، يتمثل فى دفع الإدريسى لمحاربة الترك ، وإشغالهم فى هذه المنطقة ، ومنعهم من استخدام موانيه ضدها . وناحية أخرى يمكن الإشـارة إليها أيضًا ، هى أن إنجلترا لم تمنح الإدريسى - فى هذه المعاهدة - سلطة مطلقة ، أو إمكانيات عريضة يمكن استغلالها لصالحه ، ولكنها حددت لـه ميدان حربه ، كما جـاء بالمادة الثالثة « ولـه أن يوسع أراضيه على حساب الأتراك » . ثم جاء التحديد التام فى المادة الرابعة « ويمتنع عن كل حركـة عدائيـة ضد الإمـام يحيى ما دام هـذا لا يضع يده بيـد الأتراك » فكأنها بذلك حرمت عليه محاربة الإمام يحيى .

والواقع أن الإمام عدو للإدريسى ، كما هو حال الدولة العثمانية إن لم يكن أكثر خطورة ، ولكن إنجلترا تحرمه من استعمال ما سيحصل عليه بمقتضى هذه المعاهـدة ضد الإمـام ، حيث إن هذا يخالـف سياستها العـامة التـى حددتها فى المادة السادسـة . والناحية الثالثـة فى المعاهدة هى أن إنجلترا تعهـدت - مقابل مجهودات الإدريسى وخـدماتـه - أن تمده بالمال والمؤونة طـوال مدة الحرب ، كما تعهدت بالمحافظـة على أراضيه وعلى استقلاله من أى اعتداء كـان . وبالإضافة إلى ذلك ، تعهـدت له بفتح مـوانيه دائمًا مـع عدن ، وهى خـدمة جليلـة اتضح أثرهـا أثناء الحرب ، إذ كانت موانيـه هى الموانئ الوحيدة المفتوحـة فى وقت كان الحصار البريطـانى البحرى لسـواحل اليمن يخنق الجميع.والنـاحية الـرابعة أن بـريطـانيـا فى هـذه المعـاهــدة تـرسم سيـاستهـا بـالنسبـة لـلأمـراء

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

العرب بدون استثناء ، تريد أن ترى كل هؤلاء الأمراء فى « حالة سلمية وأخوية ، كل منهم فى منطقته ، وكل موال للحكومة البريطانية » كما جاء فى المادة السادسة .

قدمت بريطانيا للإدريسى - بناء على هذه المعاهدة - مساعدات مادية حددها « جيكوب » بقوله إن إنجلترا مدته بالأسلحة الصغيرة والذخائر ، كما أعطته أربعة مدافع حصار وثلاثين مدفع هاون ، ولكنه ظل يفضل استعمال المدافع التى منحتها له إيطاليا سنة ١٩١١[١] ، ولعل هذا يرجع إلى تمرن رجاله عليها . بناء على هذا كله ، أسرع الإدريسى وهاجم « اللحية » فى مايو سنة ١٩١٥ بجيش غير منظم ، ولكنه لم يستطع التغلغل إلى مراكزها الدفاعية الأصلية[٢] . وهنا قامت بريطانيا فى يونية سنة ١٩١٥ بضرب هذه المدينة من البحر . وكانت تقصد بذلك - إلى جانب ضرب القوة العثمانية - ترضية الإدريسى ، الذى لم يجف مداد معاهدتها معه بعد ، وإن لم تكن تقصد فى نفس الوقت ، توسيع هذه العمليات الحربية على ساحل اليمن لنفس الأسباب التى جعلتها تستكين فى الميدان الجنوبى . ولكن ضرب « اللحية » فى يونية لحقه مباشرة - فى أوائل يولية - زحف على سعيد باشا إلى لحج واحتلالها كما ذكرنا قبل ذلك .

ويبدو أن الترك أحسوا بقوة إنجلترا بحريًا ، وأنها ستكسب لا محالة معركة الساحل ، فالبحر طوع أمرهم ، والإدريسى حليفهم ، فاتجهوا باستعداد كبير إلى لحج يقصدون به غزو عدن من ناحية البر . وكانت نظرة القائد العثمانى صائبة فعلا ، فقد بعد هو عن مناطق قوة الإنجليز - الساحل وعسير وهى مناطق بحرية - وضربهم فى نقطة ضعفهم - وهى المناطق البرية - حيث ينقصهم الجيوش والاستعدادات . وقد أثار ضرب إنجلترا لميناء

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 176

(٢) Hogarth ; Arabia, p. 127

« اللحية » غضب الإدريسى نفسه - وهذا أمر جدير بالملاحظة - إذ كتب إليهم يعبر عن أسفه وألم شعبه لضرب هذه المدينة العربية بالقنابل[١] . ومن الجائز أن يكون الإدريسى حسن النية وأساءه هذا فعلا ، فهو يكره العثمانيين فقط ، ولكن ضرب المدينة قد تناول الجميع بما فيهم الأهالى العرب .

أما ما تلا ذلك من أعمال حربية فى هذه المنطقة فليست ذات قيمة تذكر ، فما هى إلا تحركات ضيقة للمحافظة على المراكز . وكان للعثمانيين عدد ضخم من الجنود فى هذه الجهة على نحو ما أشرنا عند ذكر توزيع الجيش العثمانى فى اليمن . ولكن رغم ذلك لم يقم العثمانيون أو الإدريسى ، على السواء ومن الناحية العملية ، بنشاط حربى يذكر . وعادت بريطانيا فعقدت مع الإدريسى معاهدة أخرى فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ ، اعترفت فيها بأن السيد الإدريسى قد استولى على جزر « فرسان » من الأتراك ، وأنها أصبحت جزء من ممتلكاته « كما أكدت استقلاله فى جميع هذه الممتلكات » لأنها كانت تعتبره حليفًا لا أميراً محميًا[٢] .

ويمكن تفسير قلة النشاط الحربى فى هذه المنطقة - أو بالأحرى بين الإدريسى والعثمانيين - بخوف كل منهما من الآخر . فالعثمانيون كانوا يقدرون تحالف الإدريسى مع الإنجليز حق قدره ، ويعرفون نتائج اعتدائهم على الإدريسى كما كانوا يدركون قوة الأسطول الإنجليزى ، لذلك لم يفكروا إلا فى الدفاع فقط ، وكانوا يرصون بذلك تمام الرضى أما من ناحية الإدريسى فيمكن القول أيضًا إنه كان يخاف العثمانيين ويخشاهم ، حقًا لقد كان مركزه قويا بتحالفه مع الإنجليز ، وكان يمكنه مضايقة الأتراك على الساحل ما دام الأسطول يساعده من البحر ، ولكن الإدريسى بعد حركاته الأولى ارتاب فى موقف إنجلترا منه ، وخاف من انتقام الأتراك بعد ذلك . فهو يعرف أن

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 164.

(٢) Hurewitz ; Diplomrcy in the Near and Middle East, Vol.II, p. 12.

بريطانيا كانت دائماً حليفة السلطان العثمانى ، كما أكدت له الأحداث أن ألمانيا ستهزم فى هذه الحرب ، ولكنه كان لا يعرف موقف بريطانيا من تركيا فى حالة انتصار الأولى الذى كان مؤكداً . هل سترجع إلى صداقتها الأولى مع تركيا ؟ وهل ستتركها فى اليمن كما كان الحال قبل ذلك ؟ وقد أقلقه هذا بشدة فهو يخاف أن ينتهى تحالفه مع إنجلترا بنهاية الحرب ، فى نفس الوقت الذى تبقى فيه تركيا فى اليمن فتنتقم منه انتقاماً شديداً ، وخاصة إذا تمادى فى جرأته عليها الآن. وقد أثار ارتيابه هذا ، سكوت الإنجليز على هجوم الأتراك على لحج ، ورأيناه يعبر عن هذا بأنه « تراخيًا وكسلا من إنجلترا لا ضعفًا » أى إنها تقصد التراخى أو الكسل ، وهذا ما يخيفه . لهذا كله ، نرى أن وجهة نظره بدأت تتحدد بشكل واضح ، فكان يرى أن على إنجلترا أن تعمل على طرد العثمانيين أولا من اليمن ، وعندئذ يخلص هو لإنجلترا تمام الإخلاص . وقد اتضح خوفه وتردده فى موقف له دلالته ، وهو أنه بعد أن استولى على جزر « فرسان » من يد الأتراك خاف أن يرفع عليها علمه هو ، فيزيد بذلك ثائرة الترك عليه ، كما خاف أن يرفع العلم البريطانى عليها لأن هذا سيجر عليه اللعنة والسخط ، كما أنه سيتهم بأنه باع هذه الجزر[١] وعلى كل حال لقد ظل التحالف الإدريسى الإنجليزى قائماً حتى نهاية الحرب وخروج الترك من اليمن ، بل إلى ما بعد ذلك ، كما سنرى فيما بعد.

استفاد السيد الإدريسى من تحالفه مع إنجلترا استفادة ضخمة من الناحية الاقتصادية ، لأن موانيه ظلت مفتوحة فى وقت حوصرت فيه باقى الموانى اليمنية كلها . وقد أفاده هذا كثيراً ، إذ أصبح المحتكر الوحيد فى المنطقة وتحكم فى التجارة والأسعار ، كما خلصه ذلك من الاختناق والضيق الذى أحس به باقى سكان اليمن ، حتى سكان السواحل منهم .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 176-177 .

ويبرز شدة الفاقة والحاجة التى سببها الحصار البحرى للأهالى ، وما ترتب على ذلك من نتائج ، من أن بعض مشايخ القبائل التى تعيش على ساحل البحر الأحمر عرضوا خدماتهم على إنجلترا . بل ذهب شيخ « خوخة »[١] إلى عدن يشكو عدم اهتمام بريطانيا به وبقبيلته ، وعرض استعداده لتقديم الخدمات لها . ولم يقتصر الأمر على القبائل أو المدن الصغيرة ، بل وصل الأمر إلى أن قبيلة الزرانيق - وهى أكبر وأقوى قبيلة على الساحل اليمنى وكثيراً ما كانت تثير القلاقل والاضطرابات للعثمانيين - تقربت كذلك للإنجليز ، وعرضت عليها موانيها لاستغلالها ، وكان الحصار قد أضناهم ، وأوقف تجارتهم، ورفع الأسعار أضعاف المرات ، مما جعلهم غير قادرين على الشراء أو حتى على بيع ما لديهم . ولكن انجلترا فى كل الحالات ، كانت ترفض بلباقة كل هذه العروض لكثرة مشاغلها ، وعدم رغبتها فى توسيع التزاماتها فى هذا الوقت العصيب . وقد أدى هذا الانشغال ، بالإضافة إلى شدة ضغط الحصار ، إلى التجاء الزرانيق إلى فرنسا فى جيبوتى على الساحل الأفريقى المواجه لها ، ولكن هذه رفضت خدماتهم كذلك ، وأحالتهم إلى عدن[٢] .

وقد أصيب العثمانيون والإمام كذلك بوطأة الحصار ، وكانوا يحاولون الحصول على احتياجاتهم من مصادر مختلفة ، وكانت الأرض نفسها من المصادر الهامة مما دفع العثمانيين إلى احتلال لحج ، ثم اتخاذ موقف مسالم فيما بعد ذلك .

وقد عبر الواسعى عن هذه الحالة بقوله : « ودخلت سنة ١٣٣٣هـ (نوفمبر ١٩١٤) واشتدت الحرب العظمى وامتنعت البوابير البرية والبحرية وأصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك ، ومكثت الحرب خمس سنين إلى

---

(١) وهى من الموانى الهامة على الساحل من ناحية التصدير والاستيراد وما تقدمه من خدمات للسفن .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 173-174

نهاية سنة سبعة وثلاثين . واليمن فى الزراعة والثمار هذه المدة قد تحسنت حالها ، ولم ينقطع عنه إلا الغاز والسكر وسائر الأشياء من الزراعة والمأكولات واليمن استغنى بنفسه مع وجود وفرة الفواكه والثمار والعسل الكثير »[١] .

والواسعى هنا لا يعبر عن الضيق المادى الذى أحسه اليمن فحسب ، بل يعبر أيضًا عن لجوء الأهالى هناك إلى العناية بالأرض ، مما زاد من منتجاتها حتى يستطيعوا الاكتفاء ذاتيًا[٢] .

إنسحاب الأتراك العثمانيين من المنطقة :

استمر الوضع هكذا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حتى أعلنت الهدنة (١٩١٨) وفرض الحلفاء شروطهم ، التى تقضى بتسليم الجنود العثمانيين باليمن والمدينة المنورة وعسير ، مع معداتهم وأسلحتهم . وعندئذ كان على العثمانيين فى اليمن أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم للإنجليز ، وكان ذلك أمراً حتميًّا تفرضه ظروف الحرب العالمية العامة . وهنا ذهب على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج إلى عدن وسلم نفسه ، وكان معه حوالى ألف جندى فاستقبل فيها استقبالا طيبًا ، و « دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور»[٣] . وقد شهد له « جيكوب » وهو يعتبر عدوًّا له بذلك فقال :

« وقد دخل على سعيد باشا عدن دخول المنتصر ، فقد قابلته الجماهير هاتفة له ، وذلك لأنه حارب بيدين نظيفتين . وكان جنديًّا ممتازاً ، وكذلك إداريًّا من الدرجة الأولى ، وقد أكسبته شخصيته عند زحفه إلى الجنوب كثيراً من الأصدقاء »[٤] . وذهبت الجنود العثمانية فى لحج إلى عدن ، وتجمعت

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٥٨ .

(٢) هذا الحديث يعبر كذلك - غير مباشرة - عن إمكانيات اليمن الواسعة وعن ثرائه الطبيعى مما يؤدى إلى رفاهية شعبه ورفع مستواه .

(٣) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٣ .

Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 86 .

(٤) Jacob ; Kings of Arabia, p. 182 .

الجنود العثمانية فى اليمن ، والتى كانت على ساحل البحر الأحمر فى « اللحية » و«الحديدة» . وهنا حملهم الإنجليز إلى عدن كأسرى فمكثوا بها أيامًا ثم نقلوا إلى جزيرة مالطة ثم إلى الأناضول ، وكان تسليم الأتراك هذا بناء على أوامر الآستانة(١) .

ولكن هذه الصورة العامة ، لخروج العثمانيين من اليمن عمومًا ، كانت تحمل فى طياتها تيارات كثيرة من الأحداث ، وتخفى وراءها اختلافات كثيرة وهذه الأحداث لم تكن مفاجئة أو غير متوقعة ، فإن تطور الأحداث اليمنية فى السنوات الأخيرة كانت كلها تتجمع بصورة سريعة ومرتبة للوصول إلى هذه النتيجة الحتمية الهامة ، ألا وهى خروج الأتراك من هذا الجزء العربى وما نتج عن ذلك من نتائج .

وكانت هناك أكثر من قوة لا تعمل على إخراجهم فحسب بل كانت تحرص على أن يكون خروجهم غنيمة لها ، أو كان البعض يحرص على الأقل على ألا يترتب أية أضرار على خروجهم . وكان الإنجليز من النوع الأخير الذين يهتمون أشد الاهتمام بخروج العثمانيين من اليمن ، وكانوا حريصين على ترقب الأحداث التى تتمخض عن ذلك ، إذ كان الأمر يهمهم مباشرة فاليمن يقع على حدود محمياتهم ، ولذلك فهم يهتمون باستقرار الحال هناك كما يهمهم أن يطمئنوا على اتجاه الحاكم فى هذه البقعة المجاورة. وكان اهتمامهم هذا يتركز فى أمرين :

أولا : أنهم كانوا يتوقعون أن يخلف الإمام العثمانيين ، وهو حاكم عربى ومن الإقليم نفسه ، وله شيعته القوية ، وتاريخه المعروف ، وبيته الذى يمتد إلى عدة قرون . هم يعرفون أن الإمام هو الحاكم التالى ، كما يعرفون أن له أطماعه وآماله الخاصة ، وأنه يعتبر أن كل مناطق الجنوب هى أملاكه

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

وأملاك أجداده ، ولذلك كانوا يترقبون بحذر ما ستتمخض عنه الأحداث . وكان الإمـام ينظر إليهم بحـذر وتريث ، على نحـو ما أوضحنـا ، وزاد هذا الحذر وهذا التريث بعد أن عقد الإدريسى معهم معاهـدته المعروفة ، وكان هذا أشـد ما يخشـاه ، فالإدريسى منـافسه الكبير فى اليمن ، وكـان يهمه أن يقضى عليه بـأى حال من الأحوال ، ولا سيما قبـل أن يخرج العثمانيون من اليمن . ولكن وقوف إنجلترا إلى جانبه بهذا الشكـل التعاهدى ، إلى جانب ما كانت تمده به من المال والسلاح ، كـان يعنى مباشرة تعقيد الأمر بالنسبة له ، وإطالة وجود الإدريسى فى هذه المنطقة كمنافس قوى ، له كيانه ونفوذه الخاص . وقد أدى هذا كلـه إلى توتر العلاقـات بين الإمام والإنجليز ، وإن لم يفصح كل منهما لـلآخـر عن شىء ، كما لم يظهـر أى منهما أى سلـوك عدائى ضد الآخر يعبر عن هذا التوتر القائم فعلا .

ثانيًا : كانت إنجلترا تهتم كثيراً بمسألـة الحدود بينها وبين اليمن ، وقـد حددت الحدود بين محميات الجنوب وبين اليمن ، أو بمعنى آخـر بين منطقة نفوذ إنجلترا ومنطقة نفوذ تركيا فى الجنوب العربى فى سنة ١٩٠٢ - ١٩٠٤ وقد أدى هـذا الاهتمام إلى التفكير فى ضرورة رجـوعهـم إلى هـذا الخط ، كأول عمل يقومون به بعد خروج الأتراك العثمانيين[١] .

كان الإدريسى هو القوة الثانيـة التى كانت تهتم بخروج العثمانيين . وكان يـرمى إلى أن يستفيـد من هـذا الخروج ، فيعمل على تحقيق أغـراضـه . وفى واقع الأمر لقـد تلاقـت مصالحه مع مصـالح انجلترا ، فكلاهما كـان يضايقـه وجود الأتراك فى اليمن ، وكـذلك كان كـلاهما يخاف أن يرث الإمـام الأتراك ، ويخشى قـوة الإمام ونفـوذه ، وخاصـة بعـد أن يصبح مستقلا فى بـلاده . وقد أدى هـذا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp . 172-173 .

الالتقاء ، إلى أن قام الإنجليز بضرب الحديدة بالقنابل من البحر ، واحتلالها ، ثم تسليمها للإدريسى بعد ذلك . وكان الإدريسى يقصد باحتلال تهامة اليمن بما فيها الحديدة ، حرمان الإمام من الاتصال بالبحر ، وبذلك يضعف قوته ويكسر شوكته .

أما القوة الثالثة ، فهى قوة « الإمام يحيى » الذى كان يعتبر نفسه الوارث الطبيعى لليمن بعد خروج الأتراك منه . وكان قد بدأ تنفيذ خطته - للوصول إلى أغراضه - بمهارة وحذر منذ صلح دعان سنة ١٩١١ - بل منذ توليه الإمامة عام ١٩٠٤ - ولقد قلنا إن موافقته على هذا الصلح ، كانت جزءاً من خطته ليرث الترك .

وعلى الجملة يمكن القول إن التاريخ الذى ورثه الإمام ، وتاريخ الإمام نفسه ، يجعلنا نقول إن توليه الأمر فى اليمن كان أمراً متوقعًا فى هذه الفترة .

موقف الإمام عند الانسحاب :

وقف الإمام موقفًا محايداً أثناء الحرب العالمية - بينا من قبل حقيقة هذا الحياد - وقد تمسك الإنجليز بهذا الموقف بعد انتهاء الحرب ، فبنوا سياستهم على هذا الأساس بالنسبة له . أما العثمانيون فكان لهم موقف آخر ، فمن ناحية ، اعتمدوا على الإمام فى بعض النواحى ، وقد سبق أن بيناها ، كما ضمنوا من ناحية ثانية - وهذا هو الأهم - عدم قيامه بأى عمل عدائى ضدهم ، مما شجعهم على الزحف إلى لحج ، وقد أرضاهم هذا الموقف من الإمام تمام الرضى . ولكن هذا الرضى كان من ناحية الوالى فى الغالب ، أما القائد العسكرى لحملة لحج ، وهو على سعيد باشا ، فكان له رأيه المخالف سواء فى الإمام أو فى موقفه . وكان سبب هذا - كما نعتقد - هو أن سعيد باشا بصفته رجلا عسكريا ، كان لا يشغله إلا الانتصار وإمكانياته ، فكان يود أن ينضم إليه الإمام فى مهاجمة لحج ، أو يوافق على مهاجمتها على الأقل ، ويدفع

بعض أنصاره لمصاحبة سعيد باشا . ولكن الإمام كان قد عارض مهاجمة لحج بشدة ، ووقف موقفًا سلبيًّا من الحرب ، مما أغاظ سعيد باشا لأنه كان يدرك أن وقوف الإمام إلى جانبه يعنى الانتصار . هذا التفكير العسكرى أدى بسعيد باشا إلى عدم الموافقة على القيام بأعمال إيجابية لمصلحة الإمام عند انتهاء الحرب . بل أعلن أنه سيسلم البلاد التى تحت يده إلى الإنجليز ، إذا لم يسارع من يهمه أمر الجنوب فى الذهاب إليه ليتسلمها منه . وقد اتهم سعيد باشا فى أنه خان وطنه ، وسلم البلاد للأعداء نتيجة ارتشائه وسعيه وراء المال ، ولكنه رد هذه التهم إلى أصحابها ورماهم بالجبن والتقاعس ، وذلك فى الخطابين اللذين وجههما إلى القوات العثمانية فى صنعاء ردًّا على هذه التهم[1] . (انظر ملحق ٣-٤) .

ويوضح على سعيد باشا فى هذين الخطابين لا تقاعس الإمام عن الاشتراك فى محاربة الإنجليز لإخراجهم من عدن فحسب - وهم فى تلك الفترة العصيبة- بل أكد فيهما تقاعس الإمام عن الإسراع إليه عند نهاية الحرب العالمية الأولى ، ليتسلم منه الأراضى التى تحت سيطرته قبل أن يسلمها مضطرًّا إلى إنجلترا .

أما الإدارة العثمانية التى فى صنعاء فقامت بأعمال تخدم قضية الإمام . فقد رأى الوالى محمود نديم ، والقومندان أحمد توفيق ، أن يدخل الإمام

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٤ .

ذكر العبدلى فى كتابه (ص ٢٥١-٢٥٥) ترجمة لكتابى سعيد باشا اللذين أرسلهما فى نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى أحمد توفيق باشا القائد العام فى صنعاء وإلى حسين باشا المتقاعد الذى كان فى صنعاء أيضًا ، يدافع فيهما عن نفسه ويوضح الخدمات التى قام بها لليمن وأهله .

وقد ذكر العبدلى بين ملاحق كتابه الأصل التركى لهذين الخطابين وهما وثيقتان هامتان يوضحان حقيقة القوى المختلفة - وموقف الإمام بالذات - حيال الأحداث الجارية فى هذه المنطقة . وهما كذلك يلقيان أضواء هامة على سير العلاقات الإمامية الإنجليزية التى سنتناولها فيما بعد .

صنعاء ، وأن يستلم قصر « غمـدان » و ما فيه من المعـدات . كما أمر القومندان بتسليم الأسلحـة والمدافع وكل ممتلكـاتهم الحربيـة لـلإمام مقـابل - كما قـالـوا حينئذ- ما كان له من ديون عليهـم[١] .

وحاول محمود نديم بك - أكثر من ذلك وقرب خروج العثمانيين - أن يبرز شخصية الإمام ، وأن يمنحه مظاهر السيادة والسلطات . ويتضح هذا من كتابه إلى والى عدن المؤرخ ١٦ تشريـن ثان سنة ١٩١٨ فقـد جاء فيـه : « اطلعت على شروط الهدنة المطـوية بكتابكم ، وقـد أمرتنا حكـومتنا قبل الحرب أن تجرى جميع الحركات فى اليمـن بالمشـاورة مع حضرة الإمام ، وبنـاء عليه فقد تـواجدنـا مع حضرته للمذاكرة بخصوص الهدنة ، وكانت نتيجة المذاكرة كما يأتى :

١ - لم يصل إلينـا ولا إلى حضرة الإمـام أمـر من حكـومتنـا فى حركـة العسـاكـر العثمانية بهذه الصورة مع ترك السـلاح بموجب المادة ١٦ من شروط الهدنة ، ومع اعتمادنا على صحـة تبليغكم العالى فإنكـم تسلمون معنا بأنـه لا يمكن تحركنا من دون أن يبلغنا أمر .

٢- من حيث إن أمر البلاد فى يد حضرة الإمام فالأمر الوارد إلينا المنقول صورته أعلاه والتلغـراف المرسل منه إلى جنـابكم العالى المؤرخ ١٠ صفـر ١٣٣٧هـ يضمن عدم إمكان خروج فرد واحد من العثمانيين من هنا ذكر أم أنثى فضلا عن العسكر .

٣- فى المادة ١٦ من شروط الهدنـــة وفى المادة (٥) المصرح بها وفى عمـوم شروط الهدنة لا يوجد إيضاح ولا حتى إشارة أن تترك الحكومة الملكية أمور الإدارة .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

٤- بالنظر إلى أن حقوق إلغاء الهدنة اليوم هذا فى يد حضرة الإمام لا أرى وسيلة لتنفيذ ذلك سوى وصول مأمور مخصوص من دار السعادة وجلب أمر تلغرافى واضح بالشفرة التى بينه وبين الصدارة .

٥- إذا وجب خروج الحكومة الملكية من هنا سواء كان فى أثناء الهدنة أو فى خلال عقد الصلح يتوقف نقل المأمورين وعائلاتهم على تسوية مطلوبات حضرة الإمام ، وينحصر على استحصال رضاة القطعى وعلى تأمين داخلية البلاد . وهذا لا يتأتى إلا بالقوة العسكرية والقوة المعاونة التى يضاف عليهم من طرف حضرة الإمام برضاه واختياره ومع أنى مقتنع بهذه النظرية أرجو استحصال رضاء حضرة الإمام وإبقاء العساكر الموجودة هنا لتأمين داخلية البلاد بموجب المادة (٥) من شروط الهدنة .

٦- حيث إن المادة (١٢) من شروط الهدنة تسمح بالمخابرة الرسمية ، أطلب حق المخابرة مع حكومتى للقيام بواجبى بحكم منصبى المودع فى عهدتى[١].

وهكذا يظهر بوضوح محاولات محمود نديم بك لإبراز أهمية الإمام ، وتمهيده له بكل إخلاص ليخلفهم فى حكم اليمن ، وإخلاصه هذا هو الذى دفعنا إلى أن نذكر نص الخطاب لنرى جميعًا اللهجة التى كان يعبر بها . ففى هذا الخطاب، يظهر بجلاء كيف يحاول أن يثبت للإنجليز ، شخصية الإمام التاريخية، وأنه أصبح الوارث الطبيعى لهم والحاكم الشرعى لليمن بعد خروجهم. ويصل أحيانًا فى خطابة ، إلى أن يوحى إليهم أو يدفعهم إلى أن يتصلوا أو يتفاهموا مع الإمام حاكم البلاد - من وجهة نظره الخاصة - الفعلى والشرعى .

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وهذا الموقف يختلف تمامًا مع موقف سعيد باشا الذى رفض أن يتحمس للإمام ، كما امتنع عن أن يساهم أية مساهمة فى رفع شأنه - عند انسحاب الأتراك - أو توريثه تركتهم. وهذا الاختلاف فى موقفهما هو الذى أدى إلى اختلاف مجرى حياة كل منهما ، فبينما سافر على سعيد باشا إلى الأناضول كجندى انتهى من مهمته فى بقعة من بقاع الإمبراطورية ، نجد أن محمود نديم بك فعل العكس ، إذ آثر البقاء فى اليمن هو وبعض الموظفين الآخرين من العثمانيين - بلغ عددهم حوالى تسعمائة - تحت ظل حكومة الإمام « المتوكل على الله » . فأقاموا هناك ، وقد أعطاهم الإمام « الرواتب والمعاشات اللازمة » وقد عين بعضًا منهم فى المناصب الحكومية »[١] . ولمعت فعلا بعض الأسماء التركية ممن بقيت فى اليمن ، مثل نديم بك وراغب بك حيث استعان الإمام بخبرتهم فى إدارة مملكته الناشئة .

وعلى كل حال لقد كان للإنجليز موقف آخر يغاير موقف محمود نديم من الإمام . فقد اعتبروا الإمام محايداً ، وبالتالى لا يمكن الاتصال به لأنه لم يكن طرفًا فى الحرب ، وأن أحكام الحرب مرجعها للقوة فقط ، وأن على الترك أن يخضعوا فقط دون شروط ، فهم لا يملكون غير ذلك ما داموا قد انهزموا فى الحرب . وهذا ما حمله كتاب والى عدن ردًا على كتاب نديم بك فقد جاء فيه : « أخذت تلغرافكم المؤرخ ١٦ تشرين ثان سنة ١٩١٨ ، فليكن معلومًا لدى أصالتكم أن قوة النفوذ العسكرى فى زمان الحرب مرجحة على كل القوى ، وكذلك عموم شرائط « المتاركة » (شروط الهدنة) التى من طرف العسكرية ليست على تركيا وحدها فقط ، فألمانيا أيضًا قد قبلت تلك « المتاركة » جبراً ، ولذلك لم نرفع الكيفية لأصالتكم ، فلا نرى لزوم أن نذكر أمراً آخر بخصوص الإدارة الملكية ليتوقف أمرها وتابعيتها

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 87,

للعسكرية ، وبما أن حكومة إنجلترا وحلفاءها لا ترى لزومًا لإجراء مقاولة أخرى مع الإمام لكونها لا تعده متفقًا مع تركيا بل تعده محايداً إلى الآن . فقبول تركيا لشروط الهدنة جبر ، وبما أن بين حكومة إنجلترا والإمام وداد قديم ، كنت قد أخبرته بشروط الهدنة من طرف الحكومة ، وبينت له أن الحكومة تنتظر منه بذل المعاونة الكلية بخصوص جلاء الإدارة الملكية وقوة الأتراك العسكرية . وأخبرته أيضًا أن الحكومة الإنجليزية قررت أنها ستحل المسائل المالية والأرضية فى المستقبل . أما الأمر الذى أخذته من نظارتنا الحربية فى لوندرة فيتضمن إرسال عموم المخابرات التلغرافية التى نأخذها منكم من اليمن بواسطتها لأجل نقلها إلى استنبول ومع هذا أعرض احتراماتى الخاصة »[١] .

وقد كان اختلاف وجهات نظر الإنجليز مع الوالى نديم بك بالنسبة لقضية الإمام ، هو سبب ما ثار من مشكلات بعد ذلك بين الإمام والإنجليز على الحدود والممتلكات ، ودافعًا على احتلالهم الحديدة ، ثم تسليمها إلى الإدريسى دون الإمام ، وبالرغم مما أشاروا إليه فى الخطاب السابق من علاقات ودية معه . وسنوضح فيما بعد حقيقة هذه العلاقات ، ونفسر ما قد يبدو من تناقضات هنا .

وإذا حاولنا ترتيب أحداث هذه اللحظة التاريخية الهامة ، نجد أن الإمام دخل صنعاء بناء على دعوة محمود نديم بك فى صفر سنة ١٣٣٧ هـ[٢] . (نوفمبر سنة ١٩١٨) وفى الشهر التالى مباشرة أى فى ربيع الأول سنة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

١٣٣٧هـ قام على سعيد باشا بتسليم نفسه وعساكره لوالى عدن[١] ، وفى نفس الوقت تقريبًا كانت الحديدة هدفًا لقنابل الإنجليز من البحر - لأنها حاولت المقاومة ، ونتيجة لتردد نديم بك فى التسليم - ثم احتلتها الجنود الإنجليزية بعد ضربهامباشرة[٢] ، وهكذا تمت أكثر من حادثة تاريخية فى خلال مدة وجيزة . وهى حوادث كان لها أثرها فيما بعد ، فدخول الإمام صنعاء ، كان يعنى أنه صمم على أن يلعب الدور الذى رسمه لنفسه منذ أمد بعيد . وضرب الإنجليز للحديدة ، كانوا يرمون من ورائه وضع أقدامهم فى اليمن ، لمواجهة الإمام بالأمر الواقع حتى يستطيعوا أن يساوموه على الحديدة . وكانوا يعرفون مدى أهميتها له ، وقد انتهزوا هذه الفرصة لوضع يدهم عليها حتى لا يتهموا بالاعتداء بعد ذلك . وادعوا أن الفرق الإنجليزية دخلت الحديدة للمحافظة على السلام والنظام ، وأن المدينة سوف تعود للإمام ثانية ، وذلك كما جاء فى رد والى عدن على الإمام ، الذى احتج على ضرب المدينة وأرسل لهم معبراً عن ذلك[٣] .

وقد وصف الواسعى حادثة ضرب الحديدة بالقنابل واحتلالها بقوله :

« وفى هذه السنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) هجم الإنجليز على الحديدة بإحدى عشرة (سفينة) على حين غفلة بعد طلوع الفجر من غير إعلان ولا استعداد ، وضربوها بالمدافع وخربوها ، وذهبت أموال كثيرة ، وفر

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٦٠ .

(٢) Ameen Rihani ; Arabian Peak and Desert , p, 228.

(٣) Ibid ; p, 229,

أهلها إلى التهـايم فى حالة يـؤسف لها ، ولم يأخذوا معهم شيئًـا ، وكل أحد نجا بنفسه ، والمدافع تطلق قنـابلها ، ثم احتل الإنجليـز الحديدة ، وتـراجع الناس ، وصار أكثر الناس يسكنون الخرائب وفى البيوت القش ، وبعضهم صلح منـزله بما يقدر عليه »[1] .

وهكذا انتهى الحكم العثمانى فى اليمن ليبدأ اليمن عهده كدولة مستقلة .

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٢ .



القسم الثالث

اليمن بعد الاستقلال

١٩١٩ - ١٩٤٨



الباب الأول

تدعيم الاستقلال

١٩١٩ - ١٩٣٤

الفصل الأول

نتائج الحرب العالمية الأولى فى الجزيرة العربية

أحوال الجزيرة بعد جلاء الترك :

قبل الترك شروط هدنة مندروس فى ٢٠ أكتـوبر سنة ١٩١٨ ، وقبلوا الجلاء عن مراكزهم فى الجزيرة العربيـة بناء على هذه الشروط ، وقد تم انسحاب قواتهم من اليمن وعسير فى أوائل عام ١٩١٩[١] .

وأدى خروج الأتـراك عن الجزيرة العـربية إلى الكشف عن وجـود أكثر من سيد وزعيـم عربى ، عمل كل منهم على تـدعيم مركـزه وسيادته.ولم يكـن ظهور هذه الـزعامات المحليـة فى الجزيرة العربيـة - بعد الحرب العالميـة الأولى - وليد المصادفة ، بل كان نتيجة وجود كيـانات صغيرة متفرقة ، كانت تحاول أن تتنفس الصعـداء تحت الحكم التركى ، وكـانت تعمل حينئـذ على تـأكيـد وتـدعيم شخصيـاتها المستقلـة ، وقـد اتضح فى القسم الثـانى أغلب هـذه المحـاولات الفردية ضد الحكم التركى صـاحب السيادة ، واتضح اختلاف وسيلة كل منهم عن الآخر من أجل تحقيق غـاياته الخاصة ، وإن اختلفت كـذلك وسائلهم بين سلام وحرب ، أو بين مجاهرة بالعداء ومراوغة فى العلاقات . وهكذا فكأن انتهاء العهد التركى لم يكشف عن وجود هـذه الكيانات المستقلة التى ظهـرت معالمها أثنـاء وجوده فحسب ، بل إنـه أتـاح الفـرصة أيضًـا لهذه الـزعامـات أن تعمل بحرية، دون تأثـر بالنفوذ التركى بل تدفعها فقط مصالحهـا الخاصة ، ورغبتها فى البقاء والنمو .

---

(١) Bremond ; Yeman et Saoudia, p. 84 .

ومن أجل هذه المعركة الحيوية التقليدية ، اصطبغت علاقة هؤلاء الزعماء الجدد - بعضهم ببعض - بصبغة التنافس والعداء . لهذا كله يمكن القول إن هذه السيادات الصغيرة دخلت الآن - بعد خروج الترك مباشرة - مرحلة تاريخية جديدة ، اتسمت بمظاهر جديدة تلائم عصر استقلالها .

بعد زوال الحكم التركى من الجزيرة العربية ، برز فى الجزيرة يومئذ خمس إمارات ، أو حكومات تتنازع السيادة والفوز ، هى إمارتا نجد وشمر فى الشمال، ودولة الحجاز فى الوسط ، وعسير واليمن فى الجنوب . وإلى جانب تلك السيادات كانت توجد إمارتان صغيرتان ، الأولى فى الجوف شرقى الشام يسيطر عليها آل الشعلان ، وكانت فى الأصل خاضعة لآل الرشيد فى « حائل » ، فلما ضعف شأنهم جاهرت بالانفصال عنهم ، والثانية إمارة آل عايض فى أبها (وشرق نجد وغربى إمارة صبيا) وقد استقل هؤلاء فى أبها ، وتسلموها من الترك حين جلائهم سنة ١٩١٩[١] .

وكانت مملكة الحجاز هى أبرز هذه الحكومات وأهمها ، وذلك لما لعبته من دور هام إلى جانب الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما يرجع ذلك أيضًا إلى أهمية الأشراف فى مكة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، لما يحتلوه من مكانة قدسية فى قلوب المسلمين باعتبارهم حماة للمدينتين المقدستين . وقد عبر ابن السعود عن هذا المركز المعنوى الممتاز للملك حسين فى خطبة له فى جمع من علماء مكة بعد دخولها ، وبعد هزيمة الحسين .

---

(١) المقتطف : الجزء ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١-٦٠٢- من مقالة لأمين سعيد (الجزء الصادر فى أول مايو ١٩٣٥) .

وسـواء كانت هـذه الكلمات السعودية لغـاية سيـاسية ، وهى تهدئة بـال الحجازيين ، أو لكسبهم إلى جانب الفتح الجديـد ، فإنها تدل على ما كان يتمتع به الحسين من شهرة ومكـانة سامية . ولكن هذه الكلمات الـودية لا تنفى وجود العـداء المستحكم - لا بين هـذين الحاكمين فحسـب - بل بين أمـراء الجزيـرة العـربية كلهـا . وقد فشل الحسين - وكـان المأمول أن يلعب الـدور الأهم - فى تدبر الأمر بحكمة ، ورفض الاعتراف بوجود الكيانات العربية الأخرى المستقلة، كما رفض أن يتعامل معها إلا كتوابع له .

فقد أوهمته الأحـداث التاريخية السابقـة لإعلانه ملكًا على الحجـاز ، ومنها وعـود إنجلترا أثنـاء الحرب ، أنه ملك على العـرب ، بل خليفـة للمسلمين . كما سيعلن ذلك فيما بعد بقليل .

وقـد تـوقعت إنجلترا بعد الاعتراف بـه ملكًـا على الحجـاز ، اعتراف جميع الأمراء بتفوقه الاسمى هذا ، ولكنهـا لم تكن تعرف كيف سيقبل هؤلاء « النظراء» هذه السيـادة الاسمية ، وإن كـانت مجرد اسمية . فلم يستطع الحسين أن يمارس أيـة سيادة - كما كـان يظن - على ابن السعود ، أو الإمـام يحيى ، أو الإدريسى ، سواء مباشرة أو غير مباشرة . بل إن الذين كانوا يؤمنون بسيادته ولو كانت سيادة اسمية ، كانوا لا يعرفون معنى الزعامة عند العرب ، فكل ما كان محتمل وجوده ، هو وجود شكـل دويلات متساوية متعادلـة ، فلا توجد ولايـة متغلبة ، وينطبق على الشريف حسين وصف جيكـوب أنه الأول بين نظـرائه فى الجزيـرة العربيـة « Primus Inter Pares» كما مضى يقول :

« حقيقة أن بعض الشـوافع فى محمياتنا أرسلوا الكتب لتهنئـة الحسين بعد قراءتهم إعلانه للحرب ضد تركيا ، ودعوه فى هذه الخطابات « مولانا - سيدنا - أمير المؤمنين - حـــامى حمى الحرمين » ولكن هـــذه الألقــاب لم تكـن تعنى شيئًا»(١).

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 226-227 .

واضح إذن التناقض البين فى أوضاع الجزيرة العربية ، نتيجة وجود حكام يسعون أساسًا وراء مصالحهم الخاصة فقط ، ونتيجة عدم استفادة الحسين من مركزه الاعتبارى الهام بالنسبة لباقى الأمراء . ومن هنا نشأ الصراع بين الحسين وبين باقى الأمراء ، وبين الأمراء جميعًا فيما بينهم دون استثناء ، فقد كان لكل منهم وجهة نظره الخاصة بالنسبة لجيرانه الأمراء . فإن جانب العداء العنيف بين الإدريسى والإمام ، الذى اتضح من قبل ، فإن الشريف حسين كان ينفر من وجود الإمارة الإدريسية على حدوده الجنوبية ، ويعد صاحبها مغتصبًا ، ويرى أن عسير جزء لا يتجزأ من الحجاز فيجب أن تعاد إليه . وكان هذا يتعارض طبعًا مع رغبة الإمام يحيى فى ضم عسير لليمن ، ومعنى ذلك أن الإدريسى كان بين عدوين قويين فى الشمال وفى الجنوب ، يتربصان الفرص للانقضاض عليه ، وإلى جانب هذا كان هناك عداء مستحكم فى الشمال بين ابن السعود وآل الرشيد فى شمر[1] .

وكان الحسين يتحدث عن الإدريسى بطريقة متعالية متكبرة ، فقال عنه ذات مرة « إن الإدريسى رجل لم يعترف به أحد ليكون شيئًا على الإطلاق ، وقد ادعى نفسه شيخًا واستقر فى مكان لا يحكمه أحد » . كما أنه إلى جانب إشادته بالدور القيادى الذى لعبه اليمن فى التاريخ الإسلامى ، وإعرابه عن حبه للإمام، إلا أن هذا كان مشروطًا بألا يمتدحكم الإمام إلا على الزيديين فقط . ومن ناحية أخرى كان الحسين لا يتوانى عن أن يصب جام غضبه على ابن السعود ، كما كان يغار من نجاح أى أمير عربى . وقد عبر ابنا الحسين - فيصل وعبد الله - عن وجهة نظر أبيهما ، وكان فيصل من ناحية يرغب فى أن يوحد أهل الجزيرة تحت راية أبيه « وبذلك يموت المتهرطقين (يقصد الوهابيين) خنقًا فى صحرائهم الداخلية الجرداء » ، وكان يرى أنهم إذا فشلوا فى هذه الخطة ،

---

(١) المقتطف: الجزء ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١ .

فإن كل انتصاراتهم ضد الترك ستذهب هباء . وكان عبد الله من ناحية ثانية ، رغم أنه يكره امتداد الإدريسى نحو الحديدة ، يشك أيضًا فى أغراض الإمام يحيى ، فكان ينظر شزراً ناحية اليمن ، ويعتقد أنه ما دامت انجلترا لم تعقد مع الإمام أية معاهدة ، فإن عليها ألا تظهر أى اعتراض أمام أبيه فى الهجوم على الإمام إذا أظهر هذا أى تمرد . وكان الإمام بدوره لا يعتبر الشريف حسين بطلا تاريخيًا ، فقد سبقه فى الثورة ضد الأتراك ، كما كان يرى أن لقب أمير المؤمنين خاص به وحده دون منازع[1] .

وقد زاد من تناقض الأوضاع فى الجزيرة العربية وجود النفوذ البريطانى فيها بصورتين مختلفتين : الأولى عن طريق عقد المعاهدات ، فكان بين الإنجليز وبين ثلاثة من أمراء الجزيرة معاهدات تنظم علاقاتهم بهم وكان الإدريسى متحالفًا معهم ، منذ أبريل سنة ١٩١٥ ، كما عقدوا مع ابن السعود معاهدة «العقير » فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، وقد اعترفت فيها إنجلترا بأن « نجداً » و« الأحساء » و « القطيف » و « جبيلا » وتوابعها هى بلاد ابن السعود ، كما اعترفت به حاكما عليها ، وتعهد هو بأن لا يسلم ولا يرهن ولا يؤجر الأقطار المذكورة ولا قسما منها ، ولا يتنازل عنها بطريقة ما ، ولا يمنح امتيازاً لدولة أجنبية أو لرعايا دولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية ، وأن يتبع مشورتها دائمًا بلا استثناء على شرط ألا يكون ذلك مجحفًا بمصالحه ، كما تعهدت له بريطانيا بالمساعدة . أما الإمارة الثالثة فهى إمارة الأشراف فى مكة ، التى انضمت إلى الحلفاء نتيجة المحادثات المعروفة بمحادثات الحسين -

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 228-230 .

مكماهون « وقد اعترفوا بالحسين وباستقلاله التام بدون قيد ، وعاملوه معاملة الند للند »[1] .

أما الصورة الثانية للنفوذ البريطاني في الجزيرة ، فكان النفوذ المادي المباشر في جنوب الجزيرة وإمارات الخليج الفارسي .

ونحن لا نشير إلى خطورة النفوذ البريطاني - بصورتيه - في زيادة التناقضات في الجزيرة لتدخلهم المباشر العلني في شئونها فحسب ، بل إلى تأثير هذه العلاقات غير المباشر أيضًا . فقد كانت تمنح المعونة المالية والسلاح لكل من تعاهد معها ، وكان هذا بالتالي يقوي ساعد هذا الأمير أو ذاك ، مما يؤدي إلى تعصبه في مطالبته بحقه ، وإلى استعماله القوة ، إذا لزم الأمر ، في تحقيق مصالحه الخاصة ، أو في محافظته على هذه المصالح ضد أطماع الآخرين . ومعنى هذا وجود عامل خارجي إلى جانب العامل الداخلي ، عملا معًا على تنمية التناقضات في الجزيرة العربية ، تلك التناقضات التي حددت مجرى أحداث الفترة القصيرة التالية التي ازدحمت بالأحداث والنتائج . وقد تبلور الصراع المحلي الداخلي ، بين أمراء الجزيرة إلى أن أصبح محصوراً في ميدانين : في شمالها بين الملك حسين وابن السعود ، وفي جنوبها بين الإمام يحيى والأدارسة .

الحرب في شمال الجزيرة العربية ونتائجها :

اتخذ الصراع سواء في الشمال أو في الجنوب الصورة الحربية .

وكان النزاع قد وصل في أوائل سنة ١٩١٤ إلى قمته من حيث توتر العلاقة بين الملك حسين وسلطان نجد ابن السعود . وكان الانفجار متوقعًا بين لحظة وأخرى ، إذا لم يحدث أية تسويات بينهما . وكان على بريطانيا أن تقوم بعمل

---

(١) المقتطف : ج ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١-٦٠٢ .

هـذه التسويـات إذ كـان الطرفـان من حلفـائها ، كما أنها تمنح كـلا منهما المال والتأييد ، ولكنهـا كانت مشغولـة حينذاك فى تسويـات الصلح فى أوروبا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وكـانت نقطة الاحتكاك الأولى بين الطرفين ، التى حولت الحرب من باردة إلى ساخنة ، هى واحة « الخرمة »[1] . وكان ابن السعود يستولى على الواحـة فعلا بعد أن تنازع حـاكمها الهاشمى مع الحسين وانضم إلى الوهابيين . وقـد حاول الشريـف أن يستولى عليهـا بالقوة ثلاث مـرات أثناء سنة ١٩١٨ ، ولكنه فشل فى كل هذه المرات . وأعاد الكرة سنة ١٩١٩ ، واستطاع أن يحصل على تأييد بـريطانيا هذه المرة ، واعتقد أنها تستطيع أن تصـد ابن السعود عن تقديم أية مساعدة « للخرمة » إذا هاجمها هو . وقد علم ابن السعود بالتأييد البريطـانى للملك حسين من الحاكـم المدنى فى بغـداد ، وحـذر من أن يخالف رغبة صـاحب الجلالة ملك بـريطانيا وإلا سيفقـد الإعانة البريطـانية الشهـرية وهى حوالى ٥٠٠٠ جنيـه . وكون الملك حسين قـوة ذات شأن من ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة ابنـه عبد الله . وجهـزها بـا لمدافع والبنادق الآليـة . وتجمعت القوة فى نهاية أبـريل سنة ١٩١٩ عنـد « الطائف » وتقـدمت إلى « الخرمة » عن طـريق «تـربـة » وهنا أسرع ابن سعـود - مخالفًـا رغبـة بـريطانيـا - ليقف إلى جـانب «الخرمة» وبقى خارجهـا على الحدود النجدية . وكان الأمير عبد الله قـد أرسـل تحذيراً إلى حـاكم « الخرمـة » فرد عليه هـذا بما طمأنه وجعـل جنـده يطمئنون ويـركنـون إلى الراحـة ، ونـام معسكـره فى هـدوء ، إلا أن الوهـابيين قـد باغتوهـم بالليـل ، فتفـرق شمـل الجيش الحجازى ، وفرَّ من استـطاع إلى ذلك سبيـلا ، وهـرب عبـد الله نفســه عنـدمـا أحس بـالخطـر مع أركـان

---

(١) وهى تقع على الحدود الحجازية النجدية على طريق الرياض - مكة .

حربه إلى الطائف ومنها إلى مكة[١] . وقد أدى هذا إلى الاستيلاء على « تربة » أيضًا حيث كانت مسرح هذه المأساة ، وبذلك أصبح الطريق إلى مكة مفتوحًا أمام الوهابيين[٢] . ولكن ابن السعود لم يشأ التقدم بل احتفظ بالمدينتين (خربة- تربة) فقط ، وتجمدت الأوضاع على هذا الشكل إلى حين . وكان هناك أكثر من دافع ، أهمها أنه لا يريد إغضاب بريطانيا أكثر من ذلك ، كما أنه لا يريد إثارة العواطف الإسلامية ضده بمهاجمة المدينتين المقدستين . وكان الشريف حسين فى تدهور مستمر ، فإنه بثورته عام ١٩١٦ ضد الأتراك قد فقد الإعانة المالية التى كانوا يقدمونها له ، كما سحبت بريطانيا إعانتها فى فبراير سنة ١٩٢٠ . وحل به ضيق آخر عام ١٩٢٣ عندما منعت الحكومة المصرية محمل هذا العام من السفر إلى مكة . أما علاقته ببريطانيا فقد ساءت للغاية ، وذلك لأنه رفض إبرام معاهدة فرساى لما جاء فى نص المادة ٢٢ منها ، الذى كان ينص على الانتداب فى البلاد العربية . وهكذا فعندما تجددت الحرب سنة ١٩٢٤ بين الملك حسين وابن السعود ، كان الملك حسين يقف وحده دون معونة خارجية[٣] ، فضلا عن أنه كان واقعًا تحت ضغط الضائقة المالية . وكان من بين أسباب تجدد الحرب المباشرة - بين الحسين وابن السعود - فشل مؤتمر الكويت ، الذى استمر من ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ إلى ٢٦ يناير سنة ١٩٢٤ ، والذى دعت إليه إنجلترا لتسوية منازعات الطرفين . وقد فشل المؤتمر نتيجة إصرار الحسين على ألا يرسل مبعوثين عنه للمؤتمر إلا إذا رد ابن سعود « الحائل » و« الخرمة » إلى الحجاز ، ولأن كل

---

(١) Philby ; Arabia, pp. 268-270 .

(٢) Ibid ; p. 271 .

(٣) M. V. Seton-williams ; Britain and The Arab States, p, 185 .

منهما كان يلقى مسئولية الاضطراب على الآخر[١] . وأعقب هذا ، حدث آخر عجل بمصير الحسين ، فقد أعلن نفسه خليفة للمسلمين ، وذلك فى شرق الأردن فى ٧ مارس سنة ١٩٢٤ ، واعترف به شرق الأردن ، وفلسطين ، وسوريا ، والعراق ، ولكن باقى البلاد العربية احتجت على ذلك[٢] .

أما من ناحية ابن السعود فلم يجد نفسه فى موقف يحسد عليه ، وخاصة بعد فشل مؤتمر الكويت ، فقد كان - أمام ضغط أنصاره الوهابيين - مطالبًا بأن يقوم بعمل إيجابى حاسم ، وقد ساعد على ذلك ، أن بريطانيا ألغت معونتها له فى أبريل سنة ١٩٢٤ ، فوجد نفسه حينئذ فى موقف الحر الذى عليه أن يعمل دون أن يحس بضغط بريطانيا . ولكن إلغاء المعونة أدى إلى نتيجة أخرى ، لعب فيها العامل الاقتصادى الدور الأول . كان ابن السعود يعلم أن موارد « نجد » لا تفى بحاجاته الضرورية فى سبيل إقامة إمارة أو سلطنة مستقلة ، تكتفى بنفسها اكتفاءً ذاتيًا ، لذلك كان عليه أن يبحث عن مصادر أخرى يحصل منها على المال اللازم لدولته الفتية . وهكذا وجد ابن السعود نفسه مدفوعًا - للحرب - تحت ضغط اقتصادى إلى جانب ضغط أنصاره الذين يرغبون فى اتباع سياسة أكثر نشاطًا وإيجابية[٣] . لذلك ففى صيف ١٩٢٤ ، هاجمت قواته بعنف حدود شرق الأردن والعراق ، كما ظهر جزء من قواته أمام الطائف فى سبتمبر ١٩٢٤ ، وعندئذ انسحب الأمير على بن الحسين إلى مكة أمام ضغط الوهابيين عليه ، فدخلها أنصار عبد العزيز بعد وقوع أعمال النهب والسلب والقتل فيها[٤] .

---

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 92.

(٢) Seton-Wolliams ; Ibid, p. 186,

(٣) philby ; Arabia, pp. 303-304 .

(٤) Ibid ; p. 267.

وقبل أن نتتبع خطوات ابن السعود فى فتح الحجاز ، يجب أن نذكر أن ما لقيه أنصاره من نصر فى « تربة » (ليلة ١٧ مايو ١٩١٩) وما غنموه من مال وسلاح قد شجعه على أن يهاجم آل الرشيد ، الذين يشكلون خطراً دائماً بالنسبة له ، وأن يستولى على عاصمتهم فى ٢ نوفمبر ١٩٢١ . وتبع هذا هجومه على إمارة آل الشعلان فى الجوف فاستولى عليها وضمها إلى أملاكه فى سنة ١٩٢٢[١] . كما أن هجوم الشريف على « خرمة » سنة ١٨ و ١٩١٩ ، ثم ما حدث فى « تربة » للجيش الحجازى ، قد أدى إلى خلق حالة اضطراب بين القبائل الموجودة على الحدود الحجازية اليمنية العسيرية ، كما أدى إلى انتشار الدعوة الوهابية بسرعة فى بقاع جديدة ، وكان آل عايض - حكام أبها - فى خصام مع الأدارسة ، منذ أرسل الحسين الحمله التأديبية إليهم فى سنة ١٩١٢م ، لذلك مال هؤلاء إلى جانب السعوديين « - كما تردد الروايات السعودية - وطالبوا بوجود حامية سعودية بينهم على الرغم من أنه لم يكن للسعوديين نفوذ فى عسير منذ أكثر من قرن ، وكان نتيجة هذا المطلب الأخير قيام حملة فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، التى وصلت إلى شاطئ الحجاز ، واحتلت ميناء « القنفدة » واستطاعت إقامة حكم سعودى دائم فى الجهات الجبلية الداخلية»[٢] .

أما من ناحية الحرب النجدية الحجازية ، فقد كان دخول القوات السعودية الطائف بداية نهاية هذه الحرب ، إذ وجد الملك حسين نفسه فى مركز حرج ، خاصة وأن احتلال ابن السعود لحائل ، قد قطع الصلة بين الحجاز والعراق وشرق الأردن ، لذلك تنازل الحسين مضطرًّا عن عرشه فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٥ وخرج من « جدة » فى يخته الخاص ومعه أسرته إلى العقبة ، وأعلن ابنه الأكبر « على » نفسه ملكا على الحجاز فى جدة . وقد كان هذا الأخير يرى أن الموقف جد خطير ، مما دعاه إلى طلب مساعدة الدول الأوروبية ،

---

(١) المقتطف ، الجزء ٤ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠٣ .

(٢) Philby ; Arabia, p. 304-305 .

ولكنها أصمت أذنيها عن مطالبه ، وتركت حكومة الحجاز تدافع عن نفسها . وقد ذهب « على » بعد ذلك إلى مكة لدراسة الموقف ، ولكنه رأى أن ينسحب منها فى حوالى منتصف أكتوبر نظراً لقدسيتها ، ليركز دفاعه فى جدة والشواطئ ، وفى المدينة أيضًا ، حيث توجد حامية حجازية قوية . وهكذا دخلت القوات السعودية مكة دون مقاومة للمرة الثانية فى التاريخ[1] . بدأ زحف الوهابيين إلى جدة ، وبدأ حصارها فى ٦ يناير سنة ١٩٢٥ ، واستمر الحصار لعدة أشهر استطاع الوهابيون أثناءها احتلال المدن والجهات التى حولها . فسلمت « ينبع » فى أول ديسمبر ، والمدينة فى ٥ ديسمبر ١٩٢٥ ، وفى ١٨ ديسمبر تنازل « على » وانسحب إلى العراق للانضمام إلى أخيه فيصل[2] .

ومن الجدير بالذكر ، أن الإمام يحيى أرسل برقيتين بواسطة قنصل إيطاليا فى جدة ، إلى الملك على وإلى السلطان عبد العزيز آل سعود - أثناء الحرب بينهما - يطلب منهما إيقاف القتال ، واحترام الأراضى المقدسة ، وقبوله حكمًا بينهما ، وأجاب الملك على بالإيجاب ، بينما أرسل ابن السعود يفيد أنه دعا المسلمين لمؤتمر يبحث أمر الحجاز ، وطلب من الإمام أن يرسل مندوبيه للمؤتمر [3] .

وهكذا انتهت الحروب فى شمال الجزيرة العربية إلى نتيجتها الطبيعية ، فتوحدت هذه المشيخات والإمارات المتفرقة تحت حاكم واحد . وكان لا بد من توحيد هذه الأجزاء المتناثرة لإقامة دولة لها كيان ذاتى ، يمكنها أن تعتمد على نفسها دون حاجة إلى معونات خارجية ودون الالتجاء إلى الحروب الداخلية المحلية . وهكذا استطاع ابن السعود أن يضم إلى نجد كل من الحجاز

---

(١) Philby ; Arabia, pp. 307-308

(٢) Seton-Williams ; Britain and The Arab States, p. 186.

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٩٢ .

وشمر والجوف وأجزاء من عسير فضلا عن ممتلكاته الشرقية ، فأصبح بذلك سيداً لأغلب جهات الجزيرة .

القوى فى الجنوب وطبيعة العلاقة بينهم :

أما الميدان الثانى ، فهو جنوب الجزيرة ، وكان مسرح هذه الأحداث ، عسير واليمن والمحميات . وهو ميدان ينطبق عليه نفس ما ذهبنا إليه عند التحدث عن أحداث الشمال . فقد خلف الترك أوضاعا مضطربة غير مستقرة ، كما كان يوجد أيضًا أكثر من زعيم فى هذه المنطقة ، وكان كل منهم يحاول تثبيت أقدامه ، وتعيين حدوده ، وتدعيم مركزه . وكان العامل الخارجى موجوداً أيضًا - ولكن بصورة أقوى - متمثلا فى وجود بريطانيا . وكان وجودها فى هذا الميدان ذا صورتين ، فهى متحالفة مع أحد زعماء المنطقة وهو الإدريسى ، إذ تنظم علاقاتها معاهدة سنة ١٩١٥ ، كما أن لها وجوداً ماديًّا ملموسًا فى عدن ومحمياتها . وقد شكل هذا العامل الخارجى إلى جانب العامل الداخلى أحداث الفترة التى تلت انتهاء الحرب العالمية ، تشكيلا جعل تاريخها يتجه اتجاهًا خاصًّا ويؤدى إلى نتائج معينة - كما حدث فى شمال الجزيرة - وقد صبغ هذا كله الأعمال الحربية أيضًا . وكان الوضع فى الجنوب أكثر تعقيداً وأشد عنفًا منه فى الشمال ، فعند إعلان الهدنة بين الترك والحلفاء فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، كان فى الجنوب ثلاث قوى متصارعة وكان لكل منها ظروفها وأوضاعها الخاصة .

أولا : من الشمال إلى الجنوب - الإدريسى ، وكان فى نزاع عنيف علنى حول تقرير المصير مع الإمام يحيى . وكانت قد زادت قوته إلى حد كبير نتيجة تحالفه مع إيطاليا سنة ١٩١٢ ، وحروبه المستمرة مع الحاميات العثمانية فى عسير واليمن ، ثم تحالفه مع إنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى .

ثانيًا : الإمام ، وكان يعمل منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، على تدعيم مركزه كأحد الأئمة الزيديين الذين يعتقدون أن لهم الحق المطلق فى اليمن

وفى كل الجنوب العربى أيضًا . وكان اتفاقه مع العثمانيين سنة ١٩١١ جزءاً من هذه الخطة ، فقد أعطاه هذا الاتفاق فرصة سليمة هادئة لتدعيم مركزه وتقوية قبضته ، واستمر الإمام يحافظ على حالة السلام هذه أثناء الحرب العالمية الأولى . وظل هذا الموقف السلبى للإمام طوال فترة الحرب العالمية حتى شارفت على نهايتها ، فسلم له الأتراك صنعاء ، وسلموا له الذخائر والمعدات التى معهم قبل رحيلهم ، أو بالأحرى سلموا له كل ما تحت أيديهم إذ كانوا - وخاصة الوالى محمود نديم - يؤمنون بأن الإمام هو الوارث الطبيعى لهم .

ثالثًا : إنجلترا فى عدن ومحمياتها ، وكانت منذ احتلالها عدن سنة ١٨٣٩ ، وإنشاء مستعمرة لها فيها ، تعتبر نفسها صاحبة حق فى هذه المنطقة ، وفى المحميات التى ربطتها بمعاهدات حماية .. وقد عملت على تنظيم حدود المحميات الشمالية مع اليمن خلال عدة بروتوكولات توجت سنة ١٩١٤ باتفاقهم مع العثمانيين أصحاب السلطة فى اليمن حينئذ . أما عند قيام الحرب العالمية فقد انتهى العمل بهذه الاتفاقيات ، وهاجم الأتراك المحميات ، ولم يخرجوا منها إلا عند إعلان الهدنة فى أكتوبر سنة ١٩١٨ .

هذه هى أوضاع القوى الثلاث فى المنطقة ، وقد أدت طبيعة العلاقات بينهم إلى تشكيل الأحداث التالية .

فعند إعلان الهدنة بين الأتراك والحلفاء ، تولت بريطانيا باسم الحلفاء إخراج الأتراك من الجهات التى كانوا يحتلونها . وكان خروجهم يهم بريطانيا مباشرة لحرصهم على الاطمئنان على مستقبل مستعمرة عدن ، ولرغبتهم فى تأمين حدود المحميات .

وقد أسرعت إنجلترا إلى احتلال « اللحية » و « الحديدة » لإجبار العثمانيين - عندما اتضح تباطؤهم - على الخروج[1] .

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٤١٨ .

كان الإمام يحيى وقتئذ - بعد أن وصل صنعاء وتسلم زمام الحكم فى اليمن أو بالأحرى تسلم ما كان فى حوزة الترك - تحدوه آمال عراض ، ويعتقد أن الآمال التى عمل لها قد حان تحقيقها ، أو قد تحققت فعلا . ولما كانت الحديدة - التى تعتبر جزءاً من ممتلكات العثمانيين التى يجب أن يسلموها للإمام - قد احتلها الإنجليز فى ذلك الوقت ، فقد كتب الإمام إلى المعتمد البريطانى فى عدن يحتج على احتلال « الحديدة » فجاء الرد قائلا : « إننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الأمن والنظام وسنعيدها إليكم »[١] . وهذا الوعد هو حجة الإمام السياسية فى مسألة استرجاع الحديدة ، وخاصة عندما تعقدت مسألتها بعد أن سلموها للإدريسى . ونحن نرى أن فى الرد البريطانى بعض المراوغة ، فلم يكن غرضهم المحافظة على الأمن والنظام كما يدعون ، ولا إخراج الأتراك فحسب ، بل نرى أن احتلالهم للحديدة كان نتيجة خطة سياسية بعيدة المدى . فهم فى حقيقة الأمر لم يكونوا يريدون التوسع فى اليمن ولا يطمعون فى توسيع ممتلكاتهم فى الجنوب العربى أكثر من المحميات ولكنهم كانوا فى نفس الوقت لا يأمنون كثيراً للإمام ، ويرمون إلى اعتبار « الحديدة » ورقة فى أيديهم يساومون بها الإمام أو الحاكم الجديد لهذا الإقليم المجاور ، فهم يحرصون على سلامة وأمن حدود المحميات ، وبالتالى على الأمن والنظام فى اليمن نفسه ، لذلك كان شخص الحاكم وسير علاقاته معهم ، هو أول شىء يريدون الاطمئنان عليه بعد خروج الأتراك . ومعنى هذا أنهم كانوا يؤمنون بأن الحديدة وسيلة لا غاية . وقد عبر جيكوب أكثر من مرة عن ارتياح إنجلترا لوجود تركيا فى اليمن ، وقلقها من المستقبل إذا خرجت تركيا من هذه المنطقة .

فهى قد تعاقدت معهم على حدود معينة لا يضمنون أن يقبلها حاكم آخر يخلفهم ، كما أن سيادة تركيا ، سيادة واحدة فى المنطقة يمكن الاتصال

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ١٩٢-١٩٣ .

بها مباشرة للتفاهم معها ، ولكن خروجها من اليمن يتيح الفرصة لظهور أكثر من سيد ، وأكثر من زعيم ، مما يثير المتاعب لإنجلترا ، ويجعل من الصعب عليها الحصول على اتفاق جديد بشأن حدود محمياتها .

بعثة جيكوب إلى اليمن :

وهذا التفكير لدى حكومة عدن هو الذى دفعها لإرسال بعثة سياسية برئاسة جيكوب لمقابلة الإمام . ويعبر جيكوب نفسه عن غرض بعثته بقوله: «وكان غرضنا هو بحث مستقبل البلاد بعد هزيمة الترك ولم يكن هناك ما يدعو إلى عقد معاهدة مع الإمام بل نريد معرفة آرائه »[١] .

وهذا ما ذهب إليه نزيه العظم أيضًا فيقول عن بعثة جيكوب : « كانت غايته من الزيارة الأولى أن يتعرف إلى الإمام ويدرس أحواله ويحاول أن يتفق معه على حدود بعض المحميات »[٢] .

وإلى جانب هذه الأقوال الصريحة فإن اختيار جيكوب لطريق « الحديدة » عند سفره إلى صنعاء دون طريق « ماوية » لأكبر دليل على أن هذه البعثة كانت ترمى إلى الدراسة والتعرف أكثر منها للوصول إلى اتفاقات أو حلول .

والغرض من هذه البعثة يتضح بصورة أكبر عند تتبع أحداث البعثة ، كما يظهر من إصرار جيكوب على اختيار طريق الحديدة دون غيره « فوقع اختيار الكولونيل جيكوب على أن يكون السفر من طريق الحديدة رغمًا من نصح أصدقائه بأن يسير من طريق ماوية »[٣] . واختيار طريق الحديدة دون الآخر - رغم ما يحيطه من صعاب ومخاطر - كان نتيجة وجهة نظر

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, 202.

(٢) نزية العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ١٠٧ . (يقول عن جيكوب إنه قام بزيارتين لليمن ، ولكن الحقيقة أن الزيارة الثانية قام بها جلبرت كلايتون وليس جيكوب).

(٣) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٦٨ .

معينة ، فطريق الحديدة - صنعاء يتيح الفرصة للبعثة بالمرور بأكثر من جهة وبأكثر من طائفة أو جماعة .

فالمعروف ، أن الشوافع يسكنون تهامة ، وهى عناصر لا تتبع الإمام مذهبيًّا، فضلا عن أنه لم يكن قد مد نفوذه على هذه الجهات بعد . ومعنى ذلك أن جيكوب كان يريد الاتصال بالقبائل والجماعات التى لم تكن تخضع لسيادة الإمام المادية أو المعنوية ، مما يفيده فى معرفة إمكانية إنجلترا فى الاستفادة من الأوضاع المتخلفة عن خروج الحكم التركى ، وفى تحديد مدى استفادتها من وجود اختلافات مذهبية بين أهالى هذه البقاع المجاورة . أما طريق « ماوية »[١]، فلن يتيح للبعثة هذه الفرصة ، فهو يمر بقبائل وجهات ، إما تخضع للإمام فعلا - ولو من الناحية المذهبية والمعنوية فقط - وكما أنها لا تعارض فى ممارسة هذا الخضوع لسيادة الإمام ، فهى أميل إلى الارتباط بالأرض والاهتمام بشئون حياتهم الخاصة .

وصلت البعثة الحديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٩ ، تريد التقدم إلى صنعاء ، وهى على بعد ١٥٠ ميلا شمال شرقى الحديدة إلى الداخل[٢] . وكان يحدد الأمر أمام البعثة بعض نقاط معينة ، فالإدريسى يقبض بقوة على عسير ، ويتحفز للاستيلاء على أرض أوسع فى تهامة اليمن . والإمام قد تسلم فعلا ما كان بأيدى الترك من أملاك ، وبسط نفوذه على بعض جهات الهضبة ، أو بالأحرى على بعض الجهات التى تقطنها جماعات زيدية تتبعه فى المذهب ، وتقبل سيادته الزمنية ، ويريد بسط نفوذه على باقى بقاع اليمن دون النظر إلى أنها شافعية أو زيدية .

وقد دفعه الوضع الجديد فى اليمن- بعد خروج الترك - إلى تقوية قبضته على ما بين أيديه من أرض ونفوذ ، وسعى إلى تقوية إمكانياته الجديدة بالتالى

---

(١) على الحدود الجنوبية لليمن على الهضبة .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p.202.

« فشجع بعض القوات التركية والموظفين المدنيين على البقاء فى اليمن ومن بينهم الوالى التركى السابق محمود نديم بك وذلك للاستعانة بخدماتهم »[(١)] .

أما الوضع فى تهامة فكان متروكًا لسكانها من القبائل الشافعية القوية التى كانت تتمتع بالاستقلال والحرية ، ولا تقبل عليها أية سلطات مهما كانت نوعها أو مصدرها ، وكان أهم هذه القبائل الزرانيق والقحرى . وكان الإنجليز إلى جانب ذلك كله يحتلون « الحديدة » و « اللحية » . وقد حاول الإمام أن ينشر نفوذه بطريق سلمى فى الجهات الشافعية ، وكان يهمه أولا وقبل كل شىء ، تأمين طريق تجارته إلى البحر ، فدارت بينه وبين القبائل الواقعة بين « الحجيلة » والبحر - وبوجه خاص قبيلة القحرى ، وهى أقواها - مفاوضات لتأمين مرور الزيديين عبر الإقليم إلى البحر وقد نجح الإمام فى أن يعين له حاكما أو مندوبا فى « باجل »[(٢)] من بين شيوخ قبيلة القحرى ، إذا كان من عادة الإمام فى أوائل حكمه أن يعين له حكامًا شافعيين فى المناطق الشافعية لكى لا يجرح شعور هذه المجموعات الدينى[(٣)] .

ويعترف جيكوب بأمر هام يتعلق بهذه المفاوضات ، ومحاولات الإمام لتثبيت أقدامه فى هذه المنطقة فيقول : « لقد كانت رحلتى السابقة لأوانها سببًا فى إقلاق الإمام ، فقد قطعت رحلتى المفاوضات التى كانت دائرة بين الإمام والجماعات الشافعية »[(٤)] .

وصلت البعثة الحديدة فى هذه الظروف ، وواصلت سيرها إلى صنعاء ، فوصلت مدينة « باجل » فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٩ ، وهنا قبضت عليها

---

(١) Survey of International Affairs , 1925; Vol. I, p. 321.

(٢) وكانت مركزاً للترك على بعد ٣٥ ميل إلى الداخل من الحديدة .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 202 .

(٤) Ibid ; p. 203.

قبيلة القحرى ، واعتقلتهـا فى هذه المدينة . ويثير هذا الحادث فى حـد ذاته كثيراً من التساؤل :

كيف أسرت هذه البعثة ، وما سبب الأسر ؟ ومـا موقف الإمام من الأسر ؟ وما هى مجهـوداته فى سبيل إنقـاذ البعثة لمواصلة سيرهـا إلى صنعاء ؟ مـا موقف عدن من هذه الحادثة ؟ وما هى حالـة البعثة أثناء الأسر ؟ وما هو عملها فى هذه المدة ؟ وما هى نتيجة هذا الأسر ؟

والحقيقة أن الإجابـة على هذه المسائل كلها تعتبر - فى حـد ذاتها توضيحًا لموقف كل من إنجلترا والإمام والإدريسى والقبائل الشافعية فى تهامة من مشكلة « المصير » بعد خروج الترك من اليمن.

كان الإمـام يرحـب بقدوم البعثة إلى صنعـاء للتفاهـم معها ، وخـاصة فى مسألـة الحديدة ، فـوعـد البعثـة أن يمدهـا بـالحرس الخاص بها أثناء رحلتهـا . واعتمدت البعثـة على هذا الوعد ، فلم يكن معهـا من الحرس إلا خمسة وعشرون جنديًـا تحت قيادة أحـد الضباط كـانوا مكلفين فقط بحـراسة ممتلكـات البعثة الخاصـة ، بل استطاع الإمـام تأمينًـا لسلامـة البعثـة أيضًا أن يحصل على تعهـد كتابى من رجال قبيلة القحرى - وذلك قبل وصول البعثة إلى الحديدة - يتضمن ضرورة وصول البعثة بسلام إلى « الحجيلة » حيث يبدأ النفوذ الزيدى[١] . ولكن « القحـرى » نقضت العهد ، وقـامت بأسر البعثـة . وقد عبر أحـد شيوخ هـذه القبيلة فى قـوله الموجـه إلى جيكوب عن كيفيـة أسر البعثة وسببـه فقال : « سلم هذه الأسلحــة .. أنت سجيننــا ، فقـــد ساقك الله إلى المصيدة .. قـــل لى أيهـا المندوب.. هل أنت ذاهب لتسليمنا .. ؟ من البديهـى أنـه يقصـد فى كلامه أن جيكوب متوجـه إلى صنعاء لتسلـم البـلاد للإمـام . وجيكوب من ناحيتـــه ، يكـرر أكثر مـن مـرة - أثنـاء حـديثـه عن بعثتـه - أن دوافع

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 203,

أسره تتمثل فى خوف قبيلة القحرى من أن يسلم البلاد للإمام ، وهم الذين يتعلقون بحريتهم ويضحون من أجلها بكل شىء . وقد ذكر هو على لسان أحدهم - ليدلل على مدى علاقة هذه القبائل بالإمام ومدى حرصها على حريتها - فيقول إن أحد مشايخ هذه القبيلة قال موجهًا حديثه له وهو يصرخ بشدة : « بالله .. من هو الإمام ... نحن القحرى رجال القبائل ، لقد منحنا الله الحرية .. نحن وافرو العدد ، وحبوبنا أكثر من الكفاية وبيوتنا آمنة ، ونحصل على « قاتنا » بانتظام من جبل « ريمة » . نحن لا نريد أكثر من ذلك »[١] .

ويؤيد العبدلى رأى جيكوب فيقول : « إن من شروط « القحرى » لفك أسر البعثة أن لا يكون للإمام يحيى سيطرة عليهم ولا على بلادهم »[٢] . والغريب أيضًا أن يذكر جيكوب أن قبيلة « القحرى » رفضت أن تأخذ رشوة مقابل أن تفك أسر البعثة ، فيذكر أنهم قالوا : « لا نريد شيئًا من هذا المال الحرام الدنس» ثم يعقب على ذلك مباشرة بقوله : « كنت لا ألوم القحرى لأنهم أسرونا ، فقد كانوا يعتقدون أننى ذاهب لأسلم البلاد للإمام »[٣] . ولم توضح المصادر العربية ، مثل الواسعى أو الجرافى أو نزيه العظم ، الدافع الذى جعل القحرى تقوم بهذا العمل ، غير أنهم - وإن لم يعبروا عن ذلك صراحة - يعتبرون هذا العمل نتيجة الطبيعة القبلية البحتة وهى طبيعة السطو والتمرد وعدم إطاعة الأوامر ، وإن كان نزيه العظم يروى قصة طويلة لا تعبر عن الحقيقة كثيراً ، بل ليؤكد رأيه سابق الذكر . فقد قابل اثنين من شيوخ القحرى بعد هذا الحادث بكثير عند زيارته الحديدة - وكان فى زيارة لمدير شرطتها - فلما سألهما عن سبب القبض على بعثة جيكوب وهو ضيف الإمام ، فأجاباه بقولهما : « اتصل بنا أن هذا الرجل جاسوس إنجليزى أتى لبلادنا ليتآمر علينا وعليها ، فخيفة من شره ، وحرصًا على

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 214 .

(٢) Ibid ; p. 206.

(٣) العبدلى ، هدية الزمن فى أخباره ملوك لحج وعدن . ص ٦٢٩ .

البلاد والعباد ، أبقيناه عندنا رهينة ريثما تفاهمنا مع جلالة الإمام عن حقيقة أمره ، ولما جاءنا رسول الإمام ينبئنا بأنه ضيف أتى للمشاورة والمخابرة مع جلالته ، أطلقنا سراحه فى الحال »(١) . ولكن هذا الجواب يعتبر تبريراً لموقفهم فقط ، وكان يمكن تصديقه ، إذا كانت البعثة قد واصلت سيرها إلى صنعاء ولم تعد إلى الحديدة كما سيتضح فيما بعد . ويؤكد الواسعى عودة البعثة ، فيقول : «... ثم بعد مدة نحو أربعة أشهر ، ووسائط ، أطلقوا سراحهم نحو الحديدة راجعين ، وسلموا ما معهم من الأمتعة ، وأصحبتهم قبيلة القحرى بألفين من رجالها يشيعونهم إلى الحديدة »(٢) . ولكن رغم قول الواسعى ، فإن القصة سالفة الذكر تثير بعض الشك ، فقد يكون الشيخان صادقين فى كلامهما أن القحرى أطلقت سراح هؤلاء الأسرى ، ولكن أعضاء البعثة هم الذين فضلوا العودة إلى الحديدة دون أن يواصلوا سيرهم إلى صنعاء . وقد أثرنا نحن هذا الشك لما سيظهر من نتائج بعد ذلك .

قام الإمام بمجهود كبير لتخليص البعثة من الأسر ، وكان يعقد آمالا واسعة على مقابلة الإنجليز وجهًا لوجه للتفاهم معهم ، ففى ذلك تحقيق لآماله وآمال أسرته . فكتب عدة خطابات احتجاج ، وكان يرسل برقيات يومية لشيوخ القحرى يهددهم بالإبادة إذا لم تصل البعثة إلى غرضها الذى تنشده . وكان يعيب عملهم « بأنهم انتهكوا الحرمات ، وأنهم بذلك وصموا الإسلام بالعار » كما أرسل الإمام أخيراً الوالى محمود نديم بك حوالى شهرين فى «باجل » ليبذل كل جهده فى تخليص البعثة من الأسر ، وقد أعطى « أبو هادى » ٤٠٠ جنيه تركى - وهو أحد مشايخ القحرى ، ومندوب الإمام فى باجل - ولكن أبا هادى لم يكن الوحيد الذى يملك الفصل فى

---

(١) نزية العظم . رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٢٣ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, 210.

مصير البعثة . وقد ضايق الإمام طول إقامة نديم بك فى باجل ، واعتقد أنه يلعب دوراً مزدوجًا ، وكانت القحرى لا تثق فيه أيضًا بصفته مندوبًا للإمام[١]. ويؤكد العبدلى مسألة الشك فى إخلاص نديم بك للإمام فيقول : « أخبرنى من أثق به أن أولى الحل والعقد فى صنعاء » يؤكدون عدم إخلاص الوالى محمود نديم للحضرة الإمامية هذه المرة ، ويتهمونه بالاتفاق سرًا مع قبائل « القحرى » لمنع الوفد من الوصول إلى صنعاء »[٢] ولكن العبدلى نفسه يذكر قبل ذلك أن القحرى أسرت نديم بك مع البعثة[٣] .

وقد قامت عدن بمجهود كبير كذلك لتخليص بعثتها من الأسر ، وأرسلت أحد موظفيها السياسيين إلى الحديدة ، وأنفق هذا مالا كثيراً فى محاولاته لكسب الشيوخ المجاورين إلى جانب إنجلترا . وكانت خطته ترمى إلى عزل القحرى عن جيرانها . ولكنه باء بالفشل . وقد ذهب بعض هؤلاء الشيوخ الموالين لإنجلترا إلى « باجل » لمقابلة شيوخها ، فقابلتهم القحرى على شكل مؤتمر ، ولكن كان ردها عليهم عنيفًا ، وعادوا خائبين . ومن أقوال الشيخ يحيى على ، وزميله محمد زيد (من زعماء القحرى) لهؤلاء الشيوخ : « نحن لا يهمنا كم من النقود قد أعطتكم الحكومة البريطانية ... »[٤] . وأرسلت عدن كذلك طائرة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، لتتعرف على مركز البعثة وأحوالها فقط ، دون أن تلقى أية قنابل[٥] ، وأخيرا تم فك أسر البعثة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، بعد ، صلاة الجمعة[٦] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , ; p . 212 .

(٢) و (٣) العبدلى ، هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٦٣ .

(٤) Ibid p. 214 .

(٥) Ibid ; p8 223 .

(٦) Ibid ; p, 234 .

نتائج البعثة وآثارها :

ويمكن أن نجمل باقى الحديث عن هذه البعثة ، وعن حالتها أثناء الأسر، ثم نتائج رحلتها ، فى الإجابة على الأسئلة التالية : ما مدى استفادة كل من إنجلترا والإمام من هذه الأحداث ؟ بل وما مدى استفادة الإدريسى منها كذلك؟ ثم ما هو رد فعل هذه النتائج عند كل من الأطراف المعنية ؟

فبالنسبة لإنجلترا ، نرى أنها لم تخسر شيئًا لعدم إتمام هذه الرحلة ، بل إنها حققت كل أغراضها من إرسال هذه البعثة إلى اليمن . ونحن لا نلقى الكلام على عواهنه ، إذ يمكننا الرجوع إلى نص حديث جيكوب عن غرضه من الرحلة لنتكلم على ضوئه . يقول عن سبب تفضيله طريق الحديدة عن الآخر : « وقد فضلت طريق الحديدة لأقيس نفوذ الإمام ، وقد كان من السهل الحضور عن طريق عدن (يقصد الطريق البرى الداخلى) إذ إن الشيوخ - على طول هذا الطريق - معروفين شخصيًا ، كما كان الطريق نفسه معروفًا ، أما معرفتى بطريق « باجل » (الذى سار فيه) فكانت أقل »(١) ، وهكذا يؤكد جيكوب ما ذهبنا إليه ، وهو أنه استطاع تحقيق ما يريده من الرحلة ، فهو من ناحية كان متروكا فى المدينة - هو وأفراد بعثته - يتمتعون بالتجول داخلها كما يشاءون ، وكانت تصلهم بعض المجلات المصورة من الساحل ، كما أن بريدهم كان منتظما بينهم وبين الساحل .

ومن ناحية ثانية ، كان جيكوب يقوم بنشاط سرى خاص لمعرفة ما يدور حوله ، ومعرفة أسرار الحوادث والتيارات المختلفة ، إذ يذكر أنه كان يغرى عامل التلغراف فى باجل - وكان من أصل تركى - ببعض النقود أو السجائر أو زجاجات البراندى ، لكى يعطيه نصوص الرسائل التى تصل إليه من صنعاء أو التى يصدرها هو إليها . كما يقول إنه كان يتجسس على الاجتماعات اليومية

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p, 204 .

التى كان يعقدها شيوخ قبيلة القحرى فى المنزل المجاور للمنزل الذى خصص له[١] . هذا الاطلاع الواعى على الأحداث وعلى الآراء ، كان هو كل ما يبغيه جيكوب من بعثته ، وقد حققه بطريقة أو بأخرى ، وعاد وهو يستطيع أن يعطى تقريراً كاملا - أو قريبًا من ذلك - عن الحالة فى اليمن أو فى تهامة بالذات حيث تتصارع القوى المختلفة .

حقيقة كانت تتضاعف فائدة إنجلترا ، إذا استطاعت البعثة الوصول إلى صنعاء لتقابل الإمام وتعرف آراءه . ولكن ما دامت الأحداث قد حالت دون ذلك فلم يكن هناك ضرر من رجوع البعثة إلى عدن . وبناء على ذلك يمكن القول : إن وجهة النظر السابقة ، هى التفسير الأهم لعدم محاولة بريطانيا إنقاذ البعثة بالقوة . ومن الجدير بالذكر ، أن نقول إنه إلى جانب أن جيكوب نفسه كان العامل فى تهدئة عدن من ناحية البعثة ، فقد كان - كذلك - عاملا فى تهدئة الإمام ، فقد كتب إليه يطلب منه الامتناع عن استعمال القوة فى إنقاده ، لأن ذلك - حسب تفسيره - سيؤدى إلى سفك الدماء ، وأن قدوم الإمام إلى «باجل» سيجعل الإدريسى ينتهز الفرصة للهجوم أيضًا على هذه الجهة والاستيلاء عليها ، وقد شكره الإمام « على هذه النصيحة الأخوية »[٢] . وكانت - هذه النصيحة - فى الحقيقة لا تخدم إلا أغراض جيكوب نفسه ، الذى لا يريد أن يثير المتاعب فى الوقت الذى تأكد فيه على سلامته ، وأنه يتمكن فعلا من فك أسره فى أى وقت إذا وافق على العودة إلى الحديدة لا أن يذهب إلى صنعاء . فهو - للأسباب التى ذكرناها - لم يكن يتعجل الحوادث ، ولا يرغب فى العودة بسرعة أو إنهاء مهمته حالا[٣] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 210 .

(٢) Ibid ; p. 210 .

(٣) Ibid ; p. 204 .

أمـا رد الفعل بالنسبـة لإنجلترا فهى لم تشعـر بـه حينئذ ، إذ لم يكن هنـاك شىء يذكر ، وإن كنا نعتبر أن قلقهـا وحيرتها بين القوى المختلفة فى اليمن حتى تسليمها الحديدة لحليفها الإدريسى ، كان مظهـراً من مظاهر رد الفعل لأحداث بعثة جيكوب .

أمـا الإدريسى فقد كـان أكثر حظًـا من الإمام . فهـو من ناحيـة ، حليف إنجلترا التى تحتل « اللحيـة » و« الحديدة » كما أنه سنى المذهـب كـأهل تهامة ، وقـريب الاتصـال بهم ، ولهذا كلـه كـان الإدريسى يسعى جـاهـداً لـلاتصـال والتقـرب من قبـائل تهامـة ، فهى العنـاصر القـويـة الفعـالـة فى تـاريخ هـذه المنطقة[1]. وقـد عبر جيكوب عن محاولات الإدريسى هـذه - عنـد حديثـه عن عملـه أثناء وجـوده فى الأسر - فقال إنـه كان يقـاوم زحف الإدريسى الخفى فى تهامه ، الذى كـان يحاول أن يستولى على أكبر قدر ممكن من البـلاد ، بعد خروج الترك من اليمن . وليس بمستغرب أن تتـم اتصالات بين الإدريسى ، وبين تلك القبـائل الشافعيـة ، فهم لا يخضعـون لسياسـة واحـــدة أو زعيـــم واحـد كما يفعـــل الـزيود ، بل تتنازعهم الطبيعة القبليـــة ، ويعيشون بطريقـــة ذاتيـــة ، ويرعـــــون مصـالحهم وحـــريتهم فقط ، ولا يخضعـــــون إلا لرؤسائهـــــم وتقاليدهـــم . وكانت القحـرى ، التى أثرت فى مجـــرى العـلاقات الإماميـــة العدنيـــة هى إحـــدى تلك القبائـــل . وهناك أيضًـــا قبيلـــة الزرانيـــق التى تسكـــــن بين « الحديـــــدة » و « زبيد » - وأهـــــم مـدنها « بيت الفقيـه » -

---

(١) نعتقد أن هـذا هو الـذى دفع توفيق مفرج ، إلى أن يـذكر فى مقالتـه « بريطـانيا العظمى والعـرب فى « المقتطف » أن أتبـاع الإدريسى هـم الـذين اعترضـوا سير بعثـة جيكـوب وأرجعوها إلى الحديدة » .

المقتطف : المجلد ٥٩ ، الجزء ٣ ، ص ٢٧٠ (عدد أول سبتمبر ١٩٢١ ، ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٣٩ هـ) .

والتى لم تستطع الدولة العثمانية إخضاعها طوال مدة حكمها لليمن لشدة بأسها « وكانت الدولـة تضطر كثيراً إلى التساهل معها حتى لا تعترض طـريق القوافل والمسافرين ، وتقـدم لكبار شيوخها المال والهدايا باسم الأخـوة والصداقة»[1] . ويقول عنهـا الريحانى : « والزرانيق أشد القبـائل التهامية بأسًـا ، هم لا يطيعون الإمام ، ولا يطيعون السيد الإدريسى ، ولا يأبهون بـالإنجليز ، فهم مستقلون عن كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيـادة ، غير ما لشيوخهم منها . وكـانوا أيام الترك يأخذون المشاهـرات من الدولة ويقطعون مع ذلك أسلاك التلغـراف ، ويقومون بالتخريب .. وهم دائمًا يمثلـون فى رواية تهامة السياسيـة دورين وثلاثة أدوار فى وقت واحد ، ثم يميلون فى النهاية إلى من يزيد فى المال أو فى السلاح »[2] .

ومن هذا يتضح أن تهامـة كانت تتجاذبها أكثر من جهـة ، فالإدريسى بل والإمام يعمـلان على الاتصال بقبائلها ، والتقـرب منها ، والإنجليز يـرقبون سير الأحداث فيهـا ، ولكنهم كانوا يـرفضون - إلى ذلك الـوقت - العمل إلى جانب دون الآخـر ، ويعملون على تأجيل الانفجـار ، أو قيـام الحرب ، إلى أطول مـدة ممكنة . أما أهل تهامة نفسها فهم قبائل قوية متفرقة ، تحاول الاستفادة بأكبر قدر ممكن من المنـازعـات التى تـدور حـولها ، وهكـذا كـان الجو الـذى يعمل فيـه الإدريسى ، والذى كان عليه أن ينتهـز كل الفرص صغيرها وكبيرها حتى يتمكن من الوقوف أمام عدوه الخطير ، وهو الإمام يحيى . وجـدير بالذكر أنه أشيع عند اعتقال بعثة جيكـوب أن للإدريسى دخلا فى هذا الاعتقال ، لأنه كـان يضايقه حدوث أى تقارب بين الإمام وإنجلترا[3] .

---

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٦ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٣) أمين سعيد ، اليمن ، ص ٦٢ .

أما بالنسبة للإمام ، فقد كان لنتائج هذه البعثة ورد فعلها أثر كبير عنده ، فلم يقف مكتوف الأيدى إزاء هذا الفشل - من وجهة نظره - بل فسره تفسيراً خاصاً يعبر عن وجهة نظره . وكان الإمام حريصًا على أن يتم التقابل بينه وبين حكومة عدن ، فمطالبه كثيرة ورغباته ملحة ، والإنجليز فى عدن يمثلون له الطرف الآخر فى تحقيق هذه المطالب والرغبات .

وقد تبلورت عنده نتائج رجوع بعثة جيكوب فى أمر هام خطير ، ألا وهو الشك فى نوايا إنجلترا نحوه ، وخاصة لأنه كان يرى أن بعثة جيكوب هذه كانت أول محاولة إنجليزية للتفاهم معه بصفته الحاكم الجديد لليمن ، فكان الأولى بها أن تصر على أن يتم هذا التقابل ، بأى ثمن ، وبسرعة لإقرار الأوضاع بينهما . وقد أثارت عودة البعثة شك الإمام ورجاله فى صنعاء ، إذ دهشوا لما حدث لها واستغربوا موقف إنجلترا السلبى فقالوا : « أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا العظمى ؟ الأرجح أنها انقلبت علينا ، فإنها تستطيع أن تبيد «القحرى»[1] .

ساءت العلاقات بين الإمام والإنجليز نتيجة لذلك ، وانهارت تلك الصلات الطيبة التى استمرت بين الطرفين طوال مدة الحرب ، والتى أدت إلى أن الإمام لم يلب دعوة سعيد باشا التى طالب فيها كل من فى صنعاء عند نهاية الحرب العالمية الأولى - ممن يهمه أمر الجنوب - إلى الذهاب إلى لحج ليتسلم منه الجهات التى كانت تحت سلطته قبل أن يسلم نفسه للإنجليز فى عدن[2] . وكان الإمام - من ناحية أخرى - يعتقد أنه سيحصل

---

(١) أمين الريحانى ، ملوك العرب ، ج١ ص ، ١٩٧ .

(٢) نعتقد أن من بين أسباب تقاعد الإمام عن تلبيه نداء سعيد باشا خوفه الشديد الدائم من الإدريسى ، فهو يدرك قوة الإدريسى وسر نشاطه فى تهامة اليمن . لذلك تقاعد عن المحميات من أجل تهامة التى لم يتقرر مصيرها بعد ، وكان يهمه للغاية ضمها إليه . ولكن من الجدير بالذكر أن نقول إن موقف إنجلترا فى المحميات عقب الحرب - وهو موقف مضاد لمطالب الإمام - أفقد الإمام تهامة والمحميات معًا .

على أغراضه فى الجنـوب بطرق سهلة ، ولكن توالى الأحـداث بعد انتهاء الحرب أتت بما لا يشتهى الإمام - أو مما لا يتوقعه - فقد بدأ موقف إنجلترا نحوه يتضح على حقيقته . إذ بدأت تـرسم سياستها بما يتفق ومصالحهـا فى الجنوب - وبنظرة واقعية بحتـة - دون مراعاة لتمنيـات الإمام أو آمـاله فى هذه الجهـات . وكانت عودة بعثة جيكوب دون وصولها إلى صنعاء أولى مظاهر السياسة الإنجليزية تجاه الإمام بعـد الحرب ، لهذا - وقد تأكـد من إهمالها لـه ولأغراضه فى الجنـوب - بل وتأكد من ضرورة تصـادم أغراضه مع أغراض الإنجليز هنـاك - بدأ التطلع إلى المحميات ، وهاجم « الضالع » ، فـرد عليه الإنجليز بالجلاء عن الحديدة فى ٣١ ينـايـر سنـة ١٩٢١ ، وبتسلميهـا إلى الإدريسى رغم إدراكهم أنها منفـذ اليمن الطبيعى على البحر الأحمر[١] .

اختلفت المصادر فى تحديد تاريخ هجوم الإمام على المحميات ، وهل كان بعد فشل بعثة جيكـوب مباشرة ، أم إنه كان بعـد أن سلم الإنجليز « الحديدة » للإدريسى ، والمصـادر التى بين أيدينـا - سواء العـربية أو الأفـرنجية - تختلف حول هـذا الشأن اختلافًـا بينًا ، فبعضها يـذكر أن تسليم الحديـدة حدث أولا ، والبعض الآخـر يذكـر أن هجـوم الإمام سبق تسليـم الحديدة لـلإدريسى ، بل ويذكر طرف ثالث أن هـذا وذاك حدثا فى وقت واحد . ولكن يلاحظ أن الجميع يتفقون على أن حركات الإمام الحربية فى « الضالع » كانت نتيجة طبيعية لموقف الإنجليـز منه ، سـواء لفشل بعثة جيكـوب أو لتسليمهم الحديدة لـلإدريسى ، ويـدل هذا الإجماع دلالـة واضحة على أن الإنجليـز لم يكونـوا مخلصين أو حتى مطمئنين للإمام ، يقول الجرافى : « ولقد جاء مـن جراء دخول الأدارسة فى مدينة الحديدة ، بمسـاعدة الإنجليز ، أن فتح الإمام المتـوكل على الله بلاد « الضالع » و« بـلاد الشعيب » و « بتريس » وبـلاد « الأجعـود » وغيرهـا من

---

(١) Survey of International Affairs, 1925 ; Vol , I, p. 321 .

النواحى المجاورة لعدن »[1] . أما الـواسعى فيقول : « ثم بعد رجـوع هذه البعثة وعـد الإنجليـز الإمام يحيـى أن يسلموا لـه الحديـدة ، ثم انقلب الإنجليـز عن وعدهم ، وسلمت الحديدة إلى صديقهـا الإدريسى ، فغضب من خلفها الوعد ، ثم بادرهم الإمام بمثل معاملتهم ، وأصدر أمره إلى جيش الجنوب بالزحف نحو عدن ، وزحفت الجنود وأخذت أربع جهات من تلك النواحى وهى : «الضالع» و« الشعيب » و « الأجعود » و « القطيب »[2] .

ويظهر من النصين السابقين أن تسليم الحديدة لـلإدريسى هو الذى دفع الإمام إلى الهجوم على المحميات ، ولكن جيكوب يـذكر غير ذلك فيقول مهاجمًا الإمام - ولكنه فى نفس الوقت كان يدافع عنه - إن هجوم الإمام على المحميات كـان على أثر فشل البعثـة فى « باجـل » فيقول : « يجب أن نقـول إن الإمام كـان معتديًا عنـدما عبرت جيوشه حـدودنا القديمة ودخلت « الضـالع » . وقد فعل ذلك عنـدمـا أحس بوجـود تغير فى سيـاستنـا نحـوه ، عندمـا كـانت بعثتى فى «بـاجل». وأنـا لا أدافع عن عملـه فى « الضـــالع » ولكن من السهل أن نعـرف الدوافع التى اضطرته إلى ذلك »[3] . وهذا قول معتـدل هادئ ، فيه اعتراف بأن عمل الإمـام كـان رد فعل لعمل سـابق من جـانب إنجلترا ، وليس اعتـداء مع سبق الإصرار . ورأى جيكوب رأى رجل إنجليزى مخلص لوطنه ولوظيفته - كان يشغل فى ذلك الوقت وظيفـة المعاون الأول لحكومة عدن - فـلا بد إذن أن نقبل منه - بالرغم من عدم موافقتنا عليـه - قوله إن هجوم الإمام على المحميات كان اعتـداء على ممتلكات الإنجليـز . ويؤيـد الريحانى رأى جيكـوب من ناحيـة أن هجوم الإمـام كان نتيجـة فشل بعثة جيكـوب ، وشك الإمام فى نيـات الإنجليز نحوه ، إذ يقول (الـريحانى) متابعًا الحديث عن دهشة الإمـام من سلبية إنجلترا

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p, 251.

نحو فشل هذه البعثة : « وكانت النتيجة أن الإمام - وقد رجح انقلاب الإنجليز- بادرهم إلى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم إلى ذلك فلجأ بعد أن نفذ درع السياسة إلى السيف إذا أصدر أمره إلى جيش الجنوب بالزحف على النواحى التسع المحمية ، وكان الإمام فى هذه السياسة أو الخطة الحربية يقتدى بالإنجليز، فقد ضربهم فى ناحية هى قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه إليها ، ضربهم فى نواحى المحمية ليخرجهم من « الحديدة » أو ليضطرهم أن يسلموها إليه»[1]. وهذا الرأى - وهو ما نميل إليه - يتمشى مع الأحداث ، فقد عادت البعثة دون أن تتصل به ، وأثار هذا شك الإمام ، وهو فى نفس الوقت حريص على أن يستولى على الحديدة ، ولكن الوصول إلى الحديدة - عن طريق الحرب لإخراج الإنجليز بالقوة - يقابله عقبات كبيرة صعبة . فهو لم يمد نفوذه بعد على قبائل تهامة ، بل وهناك الإدريسى يسعى نشيطًا فى سبيل السيطرة على تهامة ، بما فيها الحديدة ، ليضعف من شأن الإمام وقوته ، لذلك فالوصول إلى الحديدة بالقوة أمر يكاد يصبح مستحيلا فى هذه الظروف ، فهذا يتطلب خطة معينة وظروف أخرى لم تكن قد واتت الإمام بعد . لذلك نراه يفضل مهاجمة الإنجليز فى إقليم يهمها ليتخذه ركيزة يساوم بها الإنجليز للخروج من « الحديدة » التى تهمه كذلك ، هذا فضلا عن أنه يعتبر هذا الإقليم - الذى هاجمه - ملكا له ولأجداده . ولكن هذه الخطة قد باءت بالفشل ، لأن الإنجليز من جانبهم قاموا بعمل مضاد عكس ما كان يريده الإمام ، إذ سمحوا للإدريسى بدخول الحديدة وتركوها له . ولكن كان هناك رد فعل فى عدن نتيجة هجوم الإمام هذا على المحميات فقد قامت لندن بتغيير معتمدها فى عدن ، وبتغيير الخطة تجاه الإمام[2] .

وتدلنا طريقة تسليم الحديدة للإدريسى على أن الإنجليز كانوا ينوون ذلك، وأنه كان بناء على سياسة معينة . فقد قام الانجليز قبل تسليم الحديدة

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ص ١٩٧ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٩٨ ، الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ .

باستفتاء الأهالى رسميًا لاختيار حاكمهم فطلبوا الترك[١] ، فلما أجيبوا بأن هذا مستحيل ، قالوا « نبغى إذاً الحكومة المصرية ، نبغى الانضمام إلى مصر »[٢] ، ثم جاء أحد أعوان المعتمد فى عدن يمثل آخر فصل فى رواية الاستفتاء ، ودعا إليه تجار المدينة وأعيانها ، فسألهم ثانية فأجابوا كما أجابوا سابقًا ، فأفهمهم أن رجوع الترك إلى « الحديدة » أمر مستحيل وكذلك حكم المصريين ، وفى تلك الأثناء - أى قبل انتهاء الفصل الأخير - دخل المدينة نائب السيد الإدريسى على رأس طابور من العساكر الإدريسية ، فختمت الرواية فى الشهر الأول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الإدريسى . وقد استطاع الإدريسى أن يقبض على خمسة من التجار الذين تزعموا الاستفتاء ، ونفاهم إلى « جيزان » وأسرهم سبعة أشهر فيها ، وبعد ذلك دفع بعضهم مالا فداء لنفسه ، والبعض قدم ابنه رهينة . وكان أهل الحديدة فى حيرة من أمرهم « وكانوا يخشون إبداء رأيهم أو رغبتهم فهم لا يبغون الإنجليز كمحتلين ، وإذا قاموا يطالبون الإمام قبل أن يقرر الإنجليز أن يعيدوا الحديدة إليه ، فيضربهم الإدريسى ويستنفر عليهم « القحراء » وقد يغرى بهم «الزرانيق » وإذا قاموا يثبتون حكم الإدريسى فيها ويعلنون رغبتهم رسميًا، فقد يحرك الإمام عليهم إما زيوده وإما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق[٣] . وعلى كل ، لقد سلم البريطانيون الحديدة للإدريسى على كره من أهلها « الذين كانوا لا يرغبون فى حكم إمام صنعاء ولا إمام صبيا[٤] . ونحن نعزو ذلك إلى أن أهل الحديدة تجار بطبيعتهم ، لذلك يفضلون العمل فى هدوء بعيداً عن ضوضاء السياسة وخطر المنافسة بين الزعيمين المتنازعين عليها . والحقيقة أن « الحديدة » لم تستفد شيئا من هذه المنازعات ،

---

(١) كانوا يؤمنون لهم الحياة ، وهذا ما يريدونه من الحاكم ، إذ إن الحديدة مدينة تجارية لا سياسية .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٦٢ -٢٦٣ .

(٤) العبدلى : هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن ، ص ٢١٩ .

فقد كانت فى موقف لا تحسد عليه ، فأهلها من ناحية كانوا يميلون إلى الإمام ، ولكنهم لا يرون فى حكم الإدريسى ما يعيد إلى البلد شيئًا من تجارتها وبهائها . كما أن الإدريسى - بعد دخولها - لم يقدم على عمل إدارى أو اقتصادى لتحسين حالها ، وكانت حجته فى ذلك ، أنه لا يضمن أنها ستكون دائمًا فى حوزته ، كما كان الإنجليز لا يهمهم إلا حفظ الأمن والنظام بها .

وكان هناك بعض التجار الذين يبغون الإمام ولا يرضون بالإدريسى ، أو بالإنجليز ، لأنهم لم ينالوا من أحدهما أية تعويضات عن خسائرهم الناتجة من ضرب الإنجليز لها ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى . وكان الإنجليز يتملصون من دفع التعويضات بقولهم ، إن ذلك هو واجب صاحب الحديدة يعنون الإدريسى - ولكن صاحب الحديدة كان بحتاج - هو نفسه - للمال ، فمن أين يدفع التعويضات عن الإنجليز ، وهو لا يجمع من أهلها ما يكفى لإدارة شئونها[١] .

وقد فشل الإدريسى فى إدارة المدينة ، أو جذب أهلها إليه ، فقد استبد موظفوه بالسكان ، كما أن المكوس التى فرضت على التجارة كانت باهظة ، لذلك هاجر كثير من التجار إلى عدن ، كما تم القبض على بعض التجار الكبار البارزين وأسروا فى « ميدى » . ونتيجة لعدم الاستقرار الذى لا يتناسب مع مدينة تجارية كهذه ، فإن بعض تجار عدن الذين يعتبرون الحديدة ميدانًا لنشاطهم كانوا يفضلون الإمام الزيدى - رغم اتفاقهم مع الإدريسى من ناحية المذهب الدينى - لأنه « حاكم عادل ازدهرت تجارة اليمن الداخلية تحت سيادته كما أن طرق تجارته آمنة سالمة »[٢] . وذلك بسبب حرص الإمام على نشر الأمن والنظام فى البلاد التى تحت سيطرته .

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) Jacon ; Kings of Arabia, p. 249.

لقد تعقد الوضع حينئذ فى الجنوب العربى أشـــد التعقيد ، فإنجلترا لا ترضى مطلقًا للإمام أن يمد نفوذه ناحية المحميات ، ولا تقبل أن يبقى فى المحميات التى احتلها فعلا « والتى كان دافعه الأساسى للاستيلاء عليها أن يتخذها رهينة مقابل ميناءى اللحية والحديدة »[1] . وأصبح الإدريسى الآن يمتلك « اللحية » و « الحديدة » وباقى موانى تهامة الهامة » كما أنه يمارس بعض النفوذ على قبائل تهامة القوية ، وبذلك عزل الإمام فوق هضبته . وكان الإمام لا يقبل بقاء الإدريسى فى تهامة أو ثغورها ، هذا فضلا عن رغبته فى عسير نفسها ، وفى المحميات . وقد سبب هذا التعقيد ، وصعب الوصول إلى حلول ترضى هذه الأطراف المتنازعة ، تسليم إنجلترا الحديدة للإدريسى . وكانت عدن تقف موقفًا جامداً من الإمام ، فإنها كانت تعتبر الإمام عدوًا لها ، لأنه لم يساعدها أثناء الحرب ، وتعتبر الإدريسى صديقًا لها ، لما قام به من مساعدات نحوها أثناء الحرب ، وهذا ما كان يعيبه جيكوب نفسه على حكومة عدن[2] . وكان جيكوب يرى رأيًا آخر بالنسبة لأحقية الإمام فى الحديدة - ميناء صنعاء - كما يرى أن عدن ناقضت نفسها بهذا العمل لأنها تدخلت فى توزيع الأراضى والحدود بين الحاكمين المتنافسين رغم أنها وعدت بعدم التدخل ، فيقول : « إن الحديدة لم تكن ملكنا حتى نعطيها لأحد ، كما لم يغنمها الإدريسى من الترك أثناء الحرب ، وكان أول واجب علينا بعد عقد الهدنة مع تركيا أن نبعد الإدريسى عن منطقة أصبحت بالاكتساب للإمام وحده ، إذ إن الحديدة هى الميناء الطبيعى لصنعاء »[3] .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 311 .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia . p.248.

(٣) Ibid, p. 241.

الفصل الثانى

العلاقة بين الإمام والأدارسة وإنجلترا حتى ١٩٢٧

العلاقة بين قوى الجنوب بعد تسليم الحديدة للإدريسى :

كان الوضع المعقد فى الجنوب لا يحتمل البقاء كما هو طويلا ، فنلاحظ أن هذا الوضع قد تبلور آنذاك إلى جبهتين : الأولى تضم الإدريسى وحكومة عدن ، ويمثل الإمام الجبهة الثانية ، وكان لكل منهما مطالب معينة لا توافق عليها الجبهة الأخرى ، بما يعنى بالتالى ضرورة قيام الصراع بينهما . وقد اتخذ هذا الصراع صورتين : صورة حربية وصورة سلمية ، وتمثلت الأخيرة - بعض الشىء - فى علاقات الإمام بعدن .

ذكرنا أن الدوائر السياسية فى لندن ، قد اهتزت لهجوم الإمام على المحميات وقامت بتغيير معتمدها فى عدن ، وبتغيير السياسة تجاه الإمام ، وقد نتج عن هذا التغيير استئناف المفاوضات بين الإمام والإنجليز ، وتبادلا الهدايا ، وعين الإمام معتمداً له فى عدن ، وهو القاضى « عبد الله العرشى »[1] وقد أقام مبعوث الإمام فى عدن بصفة دائمة فى عامى ٢٢ و ١٩٢٣[2] ، ولكن هذه المفاوضات لم تأت بنتيجة ما ، فالإمام تزعجه قوة الإدريسى وسيطرته ، ويريد استرداد الحديدة أولا وقبل كل شىء ، والإنجليز أصبحوا لا يملكون الحديدة ، ولا يعرفون كيف يستعيدونها ، ويطالبون الإمام فى

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ ، الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٢) Survey of International Affairs , 1925, p . 321.

نفس الوقت بالخروج من المحميات . وفى نهاية العامين ، كتب الإمام إلى مندوبه فى عدن قائلا « إذا استطعت أن تعيد فتح طرق التجارة ، وأن تتخلص من الإدريسى فخيراً وحسنًا ، وإذا لم تستطع فعد إلى صنعاء »[1] .

والصورة الحربية بين هاتين الجبهتين تمثلت أساسًا بين الإمام والإدريسى ، فكلاهما منافس للآخر ، وكلاهما يعتبر تهامة - والحديدة بالذات - مسألة حيوية بالغة الأهمية بالنسبة له . فكانت تهامة - بالنسبة للإدريسى - خط دفاع أول وهام بالنسبة لإمارته فى عسير ، وبالنسبة للإمام جزء لا بد منه مكمل لدولته ، إذا أراد أن يدعم كيانه ويرسى قواعد هذه الدولة الناشئة .

ويجب ملاحظة أن جبهة الإمام تعتبر ذات شق واحد يمثلها هو بنفسه . أما الجبهة الثانية فهى ذات شقين : الإدريسى من ناحية والإنجليز من ناحية ثانية . حقيقة أن اتحادهما فى جبهة واحدة ضد الإمام كان وليداً لظروف تاريخية تمتد لعدة سنوات ، إلا أن أحداث كل منهما فى الفترة القصيرة التالية سارت فى اتجاه - لا يخالف الآخر - بل ينفصل عنه ، فعلاقة الإمام بالإدريسى سارت منفصلة تمامًا عن علاقة الإمام بالإنجليز فى عدن ومحمياتها ، بل وتميزت كل منهما بطبيعة وظروف خاصة بها ، فبينما صبغت الأولى بالصبغة الحربية المحضة بين الإمامين المتنافسين ، نجد أن العلاقات بين الإمام وعدن قد اختلفت بين السلام والحرب ، بين المفاوضات للوصول إلى تسويات ودية ، وبين التوتر الذى يؤدى إلى الاعتداء الحربى العنيف .

قام أمين الريحانى عند زيارة هذه البقاع - صنعاء ، جيزان ، عدن ، على التوالى - بعدة محاولات لتقريب وجهات النظر بين تلك الأطراف المتنازعة ، وأرسل من عدن عدة خطابات إلى الإمام ، يخبره بما توصل إليه من نتائج ،

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, , p. 248 .

وكـان يرى أن يقصر الإمـام مطالبـه على استرجاع الحديـدة فقط ، دون الإصرار على طرد الإدريسى من عسير كليـة ، وكذلك طلب الريحانى من الإمـام الموافقة على عقد مـؤتمر فى الحديدة ، أو فى عدن ، يجمع الأطراف الثـلاث ، ولكن الإمام رفض كل هذه الأقـوال والمقترحات ، بحجة أن الإدريسى دخيل ، وليس لـه أية حقوق فى اليمـن - بمعناه الواسـع - ولا يحق لـه بالتـالى أن يتفاوض بشـأن شيء ما[١] .

قيام الحرب بين الإمام والأدارسة :

لكن رغم هـذه المحـاولات الجديـة من جانـب الريحانى لم تخف حـدة الموقف ، واستمرت العـلاقات بين الـزعيمين العربيين قـاسية حتى تـوفى السيد محمـد الإدريسى فى ٢٠ مارس ١٩٢٣ ، وحل محلـه ابنه على . وكـان الأمير على صغير السن لا يقدر على تسيير دفة الأمـور كما كان يفعـل أبـوه ، وخاصـة أن الإمارة الإدريسيـة كانت قد بلغت ذروتهـا منذ احتـلال الحـديدة أوائل سنة ١٩٢١[٢] .

وكانت وفاة محمـد الإدريسى بداية نهاية الأسرة الإدريسيـة كعامل قوى فى سير أحـداث هذه المنطقـة من الجزيرة العـربيـة ففى الوقت الـذى كان الإمـام يواصل فيه مجهوداته الحربية ضد القبائل والجهات تدعيما لسيادته وسلطته ، كان الانهيار قـد بدأ يـدب فى كيان الإمـارة الإدريسية . وكـان من أكبر أسبـاب هذه الظـاهرة الجديـدة هو صغـر سن الحاكم الجديد فهـو من ناحيـة قد عجـز عن الإدارة فسيطر عليه البعض بسهولة ، وأدى هـذا إلى أنه « أقصى رؤساء الحكومة التى أسسهـا والده »[٣] . فبـدأ هؤلاء يعملـون بـالتـالى على تحطيمه ، واتصلـوا بالجهات المعاديـة له تنفيذاً لرغباتهم ، ومن ناحية ثـانية أدى صغر سنه وضعف

---

(١) Ameen Rihani ; Peak and Desert, 239-241.

(٢) Sruvey of International Affairs,1925, V ol, I, p. 322.

(٣) الجراف : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٣ .

شخصيتـه أيضًا إلى المنـازعـات الشخصية داخل الأسرة الإدريسيـة ، ففى ربيع سنة ١٩٢٤ استقـل السيد مصطفى بالحديـدة - وهو ابن عـم الأمير الجديد - وأبعد الأمير على مـؤقتًا عن الإمـارة ، ولكن الأخير تمكن فى أكتوبـر سنة ١٩٢٤ من استعادة « صبيا » عاصمة الإمارة و « الحديدة » . وقد استمرت هذه القلاقل كما هى ، فقد قام السيـد حسن - عم الأمير على - فى أوائل سنة ١٩٢٦ بإقصاء ابن أخية عن الإمارة . وكانت الهزائم تتوالى حينئذ عليها ، فخرجت الحديدة من أيديها ، مما أدى بالأمير على إلى الهرب نهائيًا فى مارس من هذه السنة إلى عدن[١] وقد أعطت هذه الانقسـامات الداخلية[٢] الفرصـة لأعداء الإمارة لـلإغارة على ممتلكاتها من جميع الجهات . فاحتل الحجازيون عدة جهات من عسير الداخلية كما نقلت الأهرام عن التيمس أن الـوهابيين احتلوا « الحقوة » التى تبعـد ثلاثين ميـلا إلى الشمال الشرقى من «صبيـا » وأطلقـوا سراح الـرهائن الـذين كـان قـد اعتقلهم الإدريسى ضمانًا للسكينـة ، كما احتـلوا أيضًـا « البيشة » الـواقعة على بعد ٢٥ ميـلا شمال صبيا[٣] . وفى نفس الـوقت اشتد نشاط أعمال الإمـام يحيى الحربية فى تهامة ، فيقـال إن أحد كبار قواد الأمير على وهـو الشريف الحزمى قد انضم للإمام يحيى ، وأخذ يقاتل الأمير على الإدريسى قرب باجل ، كما أثار عليه أحـد كبار شيـوخ « ألمع » والشيخ « هـادى هيج » رئيس العشـائر النازلـة على طريق المواصـلات بين « أبو عريش » والحديـدة » وبالإضـافة إلى ذلك رفضت عشائر « صبيـا » أيضًا تعضيـد الأمـير على ، وهـذا فى الوقـت الـذى كان الإمام يحيـى يواصل انتصاراتـه شمالا وجنوبًا ضد قبـائله المتمـردة عليـه ، والتى لم تقبـل الخضوع للنظم الجديدة[٤] واصل الإمـام زحفه فى تهامة مصمما على القضـاء على الإمـارة الإدريسيـة واسترداد أمـلاكـه منهـا[٥] ، فـأرسـل

(١و٢) Survey of International Affairs, 1925, Vol. I, p. 322.

(٣) الأهرام : العدد ١٤٥٨٠ فى ٢٨/ ١/ ١٩٢٥ ، ص ١ .

(٤) الأهرام ، ١٤٦١٦ فى ١٨/ ٣/ ١٩٢٥ (١٦ شعبان ١٣٤٣ هـ) ، ص ٢ .

(٥) فى كتاب Philby ; Arabain Hiahlands.

ويسجل فيه زيارته لعسير ونجران بعد انضمامهما نهائيا سنة ١٩٣٤ إلى العربية السعودية وصف لثروة عسيرة الزراعيـة ووفرة منتجاتها الغذائيـة ، ولعل هذا هو السبب الأول - إلى جـانب الأسبـاب الأخرى - التى جعلـت الإمام يتمسك بها عن المحميـات ودفعتـه إلى مهاجمتها أولا قبل مهاجمة المحميات .

قسما من جيشه إلى « باجل » وزحف قسم آخر من جبل « برع » واحتل «الحمرة» . وكانت نتيجة هذا التوتر واضطراب الأحوال أن تلقى تجار عدن تلغرافات كثيرة من عملائهم فى الحديدة عن طريق جزيرة « قمران » يحذرونهم فيها من إرسال بضائع إلى الحديدة[١] .

أدت انتصارات الإمام المستمرة فى تهامة إلى عزل الحديدة وحاميتها مما اضطر القائد الإدريسى إلى إخلاء الحديدة هو وحاكمها المدنى ، وترك المدينة مؤقتًا فى عهدة رئيس عشيرة « عبس » ريثما يصل ممثل الإمام يحيى من «باجل». وقبل خروج القائد من المدينة أرسل سبعين ألف ريال فضة من دخل الحكومة إلى «جيزان » بحراً .. وكما روى مصدر موثوق به أن رئيس عشيرة «الوعيدات » المحالف للإمام قد احتل « سوق سبل » التى تبعد عشرين ميلا عن « ميدى» إلى الداخل[٢] . وقد أغرت هذه الانتصارات الإمام على مواصلة الزحف والاستعداد ، فقام بتجنيد عدد كبير من الرجال فى منطقة باجل والحديدة ليزحف بهم نحو عسير التى انسحب إليها الإدريسى بعد ضياع الحديدة . ومن الجدير بالذكر أن نقول إن شيوخ قبيلة الزرانيق العتية قد دخلوا الحديدة ، وعقدوا الصلح مع حاكمها الجديد من قبل الإمام يحيى[٣] . وقد أجمل الواسعى الحديث عن هذه الانتصارات فقال : « ثم وصل السيد عبد الله بن أحمد الوزير واستلم باجل ثم الحديدة من دون حرب ، واستلم الموانئ التى على ساحل البحر الأحمر : « ابن عباس » و « الصليف » و « اللحية » و « ميدى » ثم مدن : « الضحى » والزهراء » و « المغيرة » و « الزيدية » و « المراوعة » وغيرها، وعين الإمام لهذه عمالا وحكامًا ومعلمين »[٤] .

---

(١) الأهرام ، العدد ١٤٦٢٨ فى ٢٥/ ٣/ ١٩٢٥ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام . العدد ١٤٦٤٦ فى ٥/ ٤/ ١٩٢٥ (٢١ رمضان سنة ١٣٤٣هـ) ص ٣ .

(٣) الأهرام ، العدد ١٤٦٨٠ فى ٢٧/ ٥/ ١٩٢٥ (ذو القعدة سنة ١٣٤٣هـ) ص ٣ .

(٤) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٤ .

اتجاه الأدارسة إلى ابن السعود :

وهكـذا استطاع الإمـام يحيى أن يخرج الأدارسة من الأراضى اليمنيـة التى كانت تحت يـد الترك قبـل خـروجهم ، وأن يحصرهـم فى عسير فقط ولكـن هـذا الانتصار لم يكن يكفيه ، فهو لا يرى للأدارسة حقًا فى عسير نفسها لذلك صمم على مواصلة زحفه على طول ساحل تهامة إلى ميناء « القنفدة » الحجازى ، الذى رأى أن يرسل إلى ابن السعود بخصوصه ، يقترح عليه أن يتنازل عنه ، ومن ناحية ثانيـة ، ففى مارس ١٩٢٦ ، بعـد أن طرد الأمير حسن الإدريسى الأمير على من صبيا مبـاشرة ، اتجه الإمام إلى « صبيـا » و « جيزان » . وفى خـريف سنة ١٩٢٦ كانت هاتـان المدينتان الهامتان المركزيتان فى إمارة الأدارسـة محاصرتين بالقوات الزيديـة ، وهنا أسرع السيد حسن واتصل بابن السعـود فى فبراير ١٩٢٦ يعرض عليه اعترافه بالحماية السعودية إذا تقدم ابن السعود لإنقاذه من الهجوم المنتظر . ولكن ابن السعـود عـارض هـــــذا الاقتراح ، وأصر أن يبقى محايـداً وسحب حاميـاته ، التى ساعـدت الأمير حسن فى الوصول إلى عـرش عسير - من صبيا وجيزان إلى أبها - مركزه فى عسير وذلك عندما كـانت القوات الزيدية تتقدم إلى هاتين المدينتين[1] . وكانت سياسة ابن السعود ترمى فى هذه الأيام إلى عدم إثارة حروب توسعية أخرى ، إذ إنه لم ينته من حروبه مع الأشراف فى الحجاز ، وكذلك يريد تـوطيد حكمه فى هذه البقـاع ، ويحاول إقناع العالم الإسلامى بأنـه حريص على سلامة الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وهـذا سبب دعوته إلى عقد مؤتمر إسلامى فى مكة للنظر فى شئون هاتين المدينتين المقدستين .

فشل حسن الإدريسى فى إغـراء ابن السعود ليعلن الحمايـة على عسير كى ينقذهـا من الخطر الزيـدى ، وعندئذ أسرع إلى الزيـديين للتفاوض معهم ، على أساس أن تحتفظ الإمـارة الإدريسية بسيـاستها الـداخلية ، إلى جـانب اعترافها

---

(١) Survey of International Affairs, 1925, Vol. I, pp, 322-323 .

بالسيادة الزيدية عليها . ولكن هذه المفاوضات فشلت كذلك ، وبدلا منها عقدت اتفاقية فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، بين ابن السعود وحسن الإدريسى[١] . وهذه الاتفاقية - التى تعلن الحماية السعودية على عسير - والذى قبل فيها الأمير حسن الحماية السعودية ليتجنب بها الحماية الزيدية - تعتبر بداية وجه جديد - لا فى تاريخ عسير فحسب - بل فى تاريخ العلاقات السعودية اليمنية أيضًا ، إذ أصبحت الدولتان وجهًا لوجه ، وبدأت مصالحهما ومطالبهما تتماس عن كثب . ومن ناحية ثانية يمكن اعتبار أن مشكلة عسير بالنسبة للإمام يحيى لم تنته لصالحه رغم نجاحه السابق فى استرجاع تهامة اليمن حتى (ميدى) وذلك لدخول عنصر جديد قوى فى الميدان قبل أن يسدل الستار على الفصل الأخير منها . وهذا يذكرنا بنص التلغراف الأخير الذى أرسله الريحانى إلى الإمام وهو يغادر عدن ، الذى حذره فيه من الإصرار على طرد الأسرة الإدريسية نهائيًا من عسير ، ومن الجزيرة العربية لأن نتيجة ذلك ستكون ضده[٢] . وهذا هو ما حدث الآن ، فقد عرض عليه الأمير حسن أن يحتفظ بسيادته الداخلية تحت الحماية الزيدية فرفض الإمام ، فكانت النتيجة أن تم إعلان الحماية السعودية على عسير .

بداية العلاقة المباشرة بين الإمام وإنجلترا :

لم تكن هناك علاقات رسمية بين الإمام يحيى والإنجليز فى عدن ، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وكانت العلاقة بين اليمن وعدن ، تتم بين العثمانيين أصحاب السلطة فى اليمن ، والإنجليز أصحاب السلطة فى عدن ومحمياتها . ولكن بعد خروج الترك من اليمن بدأت العلاقات المباشرة بين صاحب السلطة الجديد ، وهو الإمام يحيى وبين الإنجليز .

وقد فشلت أول محاولة إنجليزية التى تمثلت فى بعثة جيكوب ، وكانت هذه البداية السيئة وما ثار حولها من شكوك ومشاكل بداية أحداث هامة شكلت تاريخ العلاقات اليمنية الإنجليزية حتى وقتنا الحاضر .

---

(١) Sruvey of International Affairs, 1928, p. 319 .

(٢) Ameen Rihani ; Arabian Peak and Desert , pp. 240-241 .

ولا جدال فى أن هذه البداية السيئة ليست وليدة المصادفة ، بل لها جذورها التاريخية ، وتدل دون شك على اختلاف وجهات النظر بين الطرفين ، وأن هذا الاختلاف كان له أعماقه أيضًا .

ينظر اليمنيون إلى حدود اليمن نظرة خاصة واسعة ، فهم يعتبرون كل ما هو « يمين » الكعبة يدخل فى حدود « اليمن » وترسبت هذه النظرة الإسلامية التقليدية عندهم طوال التاريخ الإسلامى ، وتبلورت هذه الفكرة عبر الزمان ، تغذيها الطبيعة الواحدة التى تجمع أجزاء المنطقة ، ويتناقلها الحكام فى «صعدة» وفى « صنعاء » وفى غيرهما حتى وصلت إلى الإمام يحيى وكانت هذه النظرة تتحقق أحيانًا من الناحية العملية - وتخرج من النطاق النظرى - فيستطيع بعض الأئمة الزيديين ، أو غيرهم من الحكام السنيين الأقوياء - الذين تمكنوا من إقامة دول مختلفة متعاقبة - بسط سيادتهم على عسير ، واليمن ، ومنطقة المحميات ، وكانت هذه الحدود التاريخية فى مخيلة الشعب اليمنى دائمًا وما زالت . فلما حقق استقلاله بعد خروج العثمانيين نهائيًا من اليمن ، رأى أن هذا بداية استرجاع الأملاك المسلوبة . وقد عبر الإمام عن أمانى الشعب هذه فى حديث له مع الريحانى فى مقابلة خاصة ، تكلما فيها كثيراً ، وتناولا هذه المسألة وغيرها ، فيقول الريحانى إنه سأل الإمام قائلاً : « أتعلمون يا مولاى كم عدد سكان اليمن ؟ فقال بالتقريب لا بالتحقيق خمسة ملايين » فقلت : « وكم منهم تحكمون؟ فأجاب وهو يبتسم ويضم أنامله إلى كفه : اليسير ، حفنة منهم فقط » ويستطرد الريحانى قائلا : « أما حدود اليمن ، فالإمام لا يعرف منها غير الحدود القديمة التى كانت تشمل عمان وحضرموت . فإذا اعتبرنا هذا التحديد، وفهمنا إشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية بأجلى مظاهرها»(١).

وكان هذا المفهوم لحدود اليمن يؤثر فى سلوك الإمام الشخصى ، فقد ذكرنا قبل ذلك أنه كان مشهوراً بالبخل والتقتير ، ولكنه كان من ناحيته

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ١٣٣ .

يعتبر أن هذه الظاهرة لا تعيبه كثيراً أو قليلا ، فهذه الأموال التى يكتنزها إنما يحتفظ بها لليوم الكبير - كما كان يقول - وكان يفسر دائماً هذا اليوم أنه يوم إرجاع حدود اليمن إلى طبيعتها المعروفة . وقد قدر جيكوب هذا التاريخ الطويل للإمام وأسرته ، فعبر عن الأهمية التاريخية التى يحملها الإمام فوق كتفيه والتى كانت بالتالى أكبر دافع له فى سياسته طوال حياته بقوله : « والحقيقة أن شخصية الإمام ليست هى التى أدافع عنها - بالرغم من عدم ظهور حاكم من بيته له قدرته الإدارية منذ سنوات طوال - ولكنى أدافع عن مركزه ونسبه الطويل ، أو مبعنى آخر « إن الرداء هو الذى أحييه »(١) .

هكذا وكان رأى اليمنيين فى حدود بلادهم هو العامل الأول والأهم فى موقف الإمام بالنسبة لعلاقاته مع إنجلترا فى عدن ومحمياتها . أما العامل الثانى فكان شكه فى نواياهم نحوه إثر فشل بعثة جيكوب . أما العامل الثالث فهو دخول عوامل خارجية فى الميدان سنشير إليها فى حينها أثرت دون شك فى سير العلاقات بينه وبين إنجلترا .

علاقة إنجلترا بمنطقة الجنوب :

أما تاريخ إنجلترا فى جنوب الجزيرة العربية ، فله أساس آخر ، فهو يبدأ بشكل خاص باحتلال الإنجليز ميناء عدن عام ١٨٣٩ ، وما تبع ذلك من المعاهدات والاتفاقيات بين السلطات البريطانية فى عدن وحكام الإمارات خلال القرنين ١٩ ، ٢٠ ، وكانت حوالى التسعين حتى ذلك الوقت . وكان الغرض من هذه الاتفاقيات والمعاهدات ، إيجاد مساحة برية خلف مستعمرة عدن متحررة من تدخل أية دولة أجنبية ومرتبطة بعلاقات ودية مع إنجلترا .

وكان هذا الغرض هو دافع الكابتن هينس-الذى احتل عدن سنة ١٨٣٩ ،

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 247.

وأصبح أول وكيل سياسى لها - فى عقد معاهدة مع سلطان لحج بعد دخوله ميناء عدن ، ثم اتفاقه مع رؤساء قبائل « الصبيحة » و « الفضلى » و « يافع السفلى » و « الحوشبى » . وتعتبر هذه الصكوك النواة التى نمت حولها بالتدريج محمية عدن ، بالرغم من أن معاهدات الحماية الرسمية لم تعقد إلا بعد ذلك بكثير ، وكان أولها مع سلطان « سقطرة » فى سنة ١٨٨٦ م . وكانت بريطانيا تعنى من إقامة هذه العلاقات مع القبائل العربية التى تقطن حول عدن ، سلامة عدن نفسها ، وسلامة الطريق البحرى إلى الهند والشرق . والمعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع هذه المحميات تتحد معظمها فى جوهر واحد ، وهى معاهدات بسيطة ذات مواد محدودة ، تنحصر فى أن حماية بريطانيا ستمتد على حاكم الولاية مقابل أن يتعهد هذا بألا يقيم أية علاقات مع أية دولة أجنبية ، وهى فى نفس الوقت تلقى على الحكومة البريطانية مسئولية الدفاع عن هذه المناطق المحمية ضد الاعتداء الخارجى وحمايتهم ضد العدوان أو التدخل ، وظلت هذه الحماية قائمة حتى بدأت الحرب العالمية الأولى ، ففقدت فعاليتها إذ لم تكن هناك فرق عسكرية لصد الهجوم التركى على المحميات حيث كانت إنجلترا مشغولة عن هذا الميدان المحلى بما هو أهم فى مجال العمليات الحربية العالمية . وقد أتاح خروج العثمانيين - كما رأينا - الفرصة للإمام يحيى لأن يجدد مطالبه فى هذه المنطقة فوجد الإنجليز وأهالى المحميات أنفسهم أمام حاكم جديد أكثر عنفًا وأصعب مراسًا مما كان عليه الترك »[1] .

أما وضع هذ المحميات تحت الحكم البريطانى فيصفه الواسعى - وهو يعبر عن وجهة نظر يمنية عربية بحتة - فيقول : « أما المراد بالنواحى التسع ، فهى الإمارات والمشيخات الكائنة فى سفلى اليمن ، وهى التى دخلت شيئًا فشيئاً تحت حماية الحكومة البريطانية على يد والى (عدن) أو بواسطة

(١) Sir Bernard Reilly ; Aden and the Yemen , pp. 15-17 .

إليه[1] التى تشرف على الإمارات والمشيخات الآتى ذكرها : لحج ، أبين ، الحواشب ، الصبيحة ، القطيب ، الضالع ، يافع العليا والسفلى ، العوالق ، حضرموت . على أن موقف هذه الإمارات تختلف عن بعضها البعض من حيث وطىء الحماية ونفوذ الحكومة البريطانية وسيطرتها : ولرؤساء الإمارات والمشيخات رواتب شهرية مقررة يتناولونها من خزانة عدن ، على أنها فى حد ذاتها حقيرة لا أهمية لها بالنسبة لسيطرة الإنجليز ولبسط الحماية وما يتفرع عنها من الخنوع والخضوع ، وليس للإنجليز فى هذه الإمارات من احتلال مسلح أو سيطرة عسكرية ، ولكن لها نفوذ أدبى وسياسى لا يحتاج إلى الالتجاء للقوة والاحتلال . ولا يغرب عنك أن رؤساء هذه الإمارات صادقون ومخلصون لحكومة عدن ، ولحج ، والحواشب ، والمكلا ، وأبين ، والضالع معدودات من الإمارات ، ويخاطب رؤساءها بفخر الأمراء ويسمى بعض الرؤساء بلقب السلطان والباقى من الإمارات رؤساء ومشايخ لهم احترام خاص من حكومة عدن . وكانت هذه المحميات التسع سابقًا فى الدولة العثمانية ، وأئمة اليمن تعتبرها نواحى من حيث التقسيمات الإدارية »[2] .

والحقيقة أنه يمكن التعبير عن سياسة إنجلترا فى المحميات - منذ احتلالها عدن سنة ١٨٣٩ - بأنها غير ثابتة أو محددة ، بل كان للولاة المختلفين من الإنجليز طرقهم المختلفة فى معاملة حكام العرب هناك . ولكن هذه السياسات المختلفة كانت تنحصر فى صفة واحدة ، وهى اتباع سياسة « أقل ما يمكن من التدخل »[3]. فكانت سياستهم مرنة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وكان لهذه المرونة مظاهر شتى ، مثل المعاهدات الولائية والمشاهرات المالية ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجىء إلى عدن

(١) هكذا كما ورد فى النص ، ونظن أنه يشير إلى مندوبى الوالى فى المحميات أو إلى المعاهدات التى تربط هذه الأقاليم بالوالى .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٣٣٦-٣٣٧ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 252.

من السلاطين ، أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشين ، والتحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك ، أو عكس ذلك . وأهم من ذلك كله حرصهم على استغلال كل أمير ، أو سلطان ، أو شيخ قبيلة كل على حدة . وكانت مصالح إنجلترا توافق تمامًا رغبات هؤلاء ، فكل أمير ، أو شيخ يريد الاستقلال ، وهذا يعطى لها الفرصة فى تنفيذ أغراضها وأطماعها بين أمراء منقسمين ، لا بين جسم له كيان واحد . ورغم تعدد معاهداتهم مع الحكام العرب ، إلا أنهم كانوا حريصين على مطلب معين تكرر فى جميع المعاهدات ، وهو « لا يحق للأمير ، أو السلطان ، أو الشيخ أن يفاوض ، أو يراسل دولة أخرى ، أو يعاهدها أو يقبل مساعدات مالية منها بدون معرفة بريطانيا العظمى وإجازتها . كما لا يحق لهذا المتعاقد معهم أو ذاك ، أن يبيع أو يؤجر ، أو يهب ، أو يرهن شيئًا من أرضه ، أو ملكه لغير الحكومة البريطانية »[1] . ومقابل هذا القيد الخانق كانوا لا يبخلون على هؤلاء السادة العرب بأية أموال أو مظاهر تبجيل ، أو غيره .

ولكن هل هذا التعبير الذى ذهبنا إليه - وهو « القيد الخانق » تعبير صحيح ؟ وما مدى صحته ؟ والإجابة - إذا دققنا النظر - أنه غير صحيح تمامًا إلا من وجهة نظرنا نحن ، إذ كان السلاطين فى هذه المنطقة لا يحسون بهذا الضغط ، كما نشعر به نحن . نعرف أن هذه الجهات تقطنها عشائر قبلية تتصف بالحرص الشديد على الاستقلال الذاتى ، و« المحلية » الشديدة فى التفكير ، والخضوع المطلق لرئيس القبيلة ، أو شيخها فقط ، ثم فقر الأهالى وقناعتهم بالقليل . وقد أدركت إنجلترا هذه الطبيعة ، وعاملت سكان المحميات بمقتضاها وعلى أساسها ، فتركتهم يعيشون فى حرية ذاتية ، ومنحتهم المال والتبجيل وتركتهم يصرفون حياتهم كما يريدون ، ولم تطالبهم إلا بعدم الارتباط بغيرها ،

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ٤١٧ .

وهذا لا يضيرهم فى كثير أو قليل ما دامت إنجلترا تحقق لهم ما يريدون من الحياة وأكثر من ذلك أن إنجلترا حرصت على هذه الأوضاع وعلى بقائها ، وذلك حتى تتمكن من تحقيق أغراضها من خلال هذا التفتيت .

ويتضح الموقف فى المحميات من حديث اثنين من الرحالة العرب - اللذين زارا هذه الجهات - مع سلطان الحواشب . والأول هو أمين الريحانى والثانى هو نزيه مؤيد العظم ، وقد زارا تلك السلطنة - بالترتيب السابق - فى العشرينيات والثلاثينيات من قرننا الحالى . ففى حديث السلطان على بن مانع الحوشبى مع أمين الريحانى أثناء العشاء عند الأول ، قال السلطان يوضح للريحانى أحواله : « أنا بين أربعة يا أمين ، والأربعة يقصرون حياتى ، هذا ابنى وهذه لحيتى البيضاء ، هو ابنى الوحيد يا أمين ولكننى أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد . أما الأربعة فالواحد منهم فوق (أى الإمام يحيى) يشهر علينا الحرب لأننا هادئون ساكتون لا نعتدى على أحد ، والآخر تحت (قبيلة الصبيحة وهى إحدى المحميات أيضًا) يغزونا لأنه يظن أننا أغنياء وأن خزانة الإنجليز تحت أمرنا ، والثالث هناك (قبيلة الضالع المحمية أيضًا ، وهى إلى الشرق من الحواشب) ، والرابع (سلطان لحج) عدونا اليوم صديقنا غداً لا نعرف والله متى ينقلب ولم ينقلب ؟ وعلينا أن نحاربهم كلهم ، وإننا والله نحاربهم يا أمين حتى نفنيهم أو يفنونا . لا والله لا نأخذ من القوافل إلا مجيديًّا واحداً على كل جمل ، والإمام يأخذ مجيديين، وصاحب لحج يأخذ ثلاثة . فسأله الريحانى ، وكم تأخذ مشاهرة من الإنجليز؟ فنظر السلطان على إليه ، ويده على لحيته وثلاثة أصابع من الأخرى مرفوعة وقال: ثلاثمائة روبية ، وهى والله غير كاملة يدفعونها كل ستة أشهر .. ونحن علينا أن نؤمن للقوافل الطرق ، وأن نطعم أهلنا ورجالنا .. الإنجليز ضرورة يا أمين . فقال له

الريحانى ثانية : ولو دفع لك الإمام مشاهرة مثل الإنجليز أتتركهم وتواليه ؟ فأجاب على الفور : لا والله أنا متعاهد والإنجليز فلا أخلف ، وسأبقى صديقهم دائماً . الإنجليز يا أمين يعقلون ، عندهم حكمة كما عندهم مال . نعلم أنهم غير مسلمين ، والمسلمون إخوان ، ولكن القلب يعرف الأخ يا أمين ، والسياسة لا تعرف غير الضرورة »[1] .

وهنا عدة ملاحظات يمكن الإشارة إليها ، فهذا الحديث عاصر زحف الإمام نحو المحميات - كما عرفنا قبل ذلك - وهذا يفسر تحامل السلطان على الإمام ، فهو يعتبره معتد على هذه الأقاليم . ومن ناحية ثانية ، هذا الحديث صورة حية للعلاقات بين هذه القبائل بعضها ببعض فهى فى نزاع قبلى وحروب محلية ، ولكن كان هذا لا يهم إنجلترا كثيراً ولا يشكل خطراً على مصالحها ، بل يفيدها من ناحية أنه يعطيها الفرصة للتدخل وفرض نفوذها . ومن ناحية ثالثة ، يتضح هنا حرص السلطان على ولائه للإنجليز . وقد عبر فى حديثه أن هذا الحرص كان مجرد تقليد تاريخى ، وذلك لارتباط آبائه بالإنجليز ، وأنه لا بد أن يتبع نفس الخطة . ولكن الواقع أن الظروف التى عاش فيها آباؤه ، لا تخالف كثيراً الظروف التى يعيشها هو فى ذلك الوقت ، وهذا هو سبب تمسكه بنفس عناصر هذه الظروف . وهو يعبر صراحة عن ذلك بقوله : إن الإنجليز ضرورة» ونعتقد أنه لو تغيرت الظروف لتغير الموقف أو لتخلخل تمسكه بهذا الولاء . ومن ناحية رابعة ، يشير السلطان إلى النقطة الهامة التى تنفر هذه القبائل من الإمام ، وهى حرصه على أخذ الرهائن من أقرب الناس إلى الحاكم كرهينة لضمان موقفه منه وعدم تمرده عليه . هذه الظاهرة قاسية فى الحقيقة بالنسبة لأناس يحرصون على حريتهم واستقلالهم من ناحية ، ويرون التعظيم والتبجيل من الطرف الآخر،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ٩٧ .

أى من الإنجليز ، دون أن تمس كرامتهم بإعطاء رهينة أو غيره من ناحية ثانية . وإلى جانب هذا كله ، كان الإنجليز يمنحونهم المال ، فهذه الجهات فقيرة الموارد وتعتمد على جباية الأموال من القوافل عندما تمر بأراضيهم فقط ، وهى لا تفى بحاجاتهم ، لذلك نراهم يحتاجون فعلا إلى النقود الإنجليزية .

أما الحديث الثانى ، فكان بين نزيه العظم وبين ابن السلطان السابق وهو السلطان محسن بن على بن مانع ، الذى تولى السلطنة بعد وفاة أبيه ، وسترى فى أحاديثه دلالات عميقة لحقيقة موقف هؤلاء من الإمام ومن الإنجليز .

ويروى نزيه العظم الحديث التالى الذى دار بينهما على شكل سؤال وجواب :

س- كيف أنتم والإنجليز ؟

ج- الإنجليز أصحاب أبينا من قبلنا ، ونحن وإياهم أصحاب ، وهم يدفعون لنا معاشًا كل شهر ، وإذا ذهبنا إلى عدن يطلقون المدافع حين وصولنا ، وذلك للترحيب بنا .

س- كيف حالكم مع الإمام ؟

ج- حالنا حسنة لا أخذ ولا عطاء ، نحن فى أرضنا وعمال الإمام فى أرضه فإذا تجاوزوا على حدودنا ، نحاربهم والله ، نحاربهم حتى نفنى جميعًا .

س- هل يجوز لكم وأنتم مسلمون أن تحاربوا إخوانكم المسلمين ؟ ألا تخافون الله ومن يوم الله ؟

ج- والله نخاف من الله ومن يومه ، ولكن عمال الإمـام قوم ، ونحن لا نريد أن نعاملهم بشيء .

س- ألا تفضلون عمال العرب المسلمين على الأجانب الإنجليز ؟

ج- نحن لا نفضل واحداً على واحـد ، وقـد عقـد آبـاؤنـا مع الإنجليـز اتفاقات ، وما دام الإنجليز محافظين على هذه الاتفاقات فنحن معهم .

س- وإذا إتفق الإمام معكم ، ألا ترغبون أن تتفقـوا معه ، وهو أفضل من الإنجليز ؟

ج- والله نتفق معه ونحارب الإنجليز أيضًا ، لأننـا لسنا قبيلة أحد ، وليس علينا سلطان ، فمن يملأ كفنا قروشًا فهو سلطاننا الحقيقى » .

وأهم ما يلفت النظر فى هـذا الحديث ، هو اختفاء النغمة المعاديـة للإمام تقـريبًـا ، وهذا يـرجع أسـاسًـا إلى تغير الظـروف التـاريخية التى عـاصرت هـذا الحديث. فقد أخرج الإنجليـز الإمام من المحميات وسويت المشكـلات تقريبًا بينهما ، وخاصـة بعد عقد المعـاهدة سنة ١٩٣٤ ، لـذلك تكلم السلطان محسن عن الإمام كشيء بعيد عنـه ، ويناقش الوضع معه دون أن تكـون بينهما علاقات أو احتكـاك فعلى . أمـا ما دون ذلك فـالحديث يحمل نفـس معانى الحـديث السابق ، وكـلاهما يؤيد وجهة نظـرنا السالفة الـذكر ، ويوضحا حقيقـة سياسة إنجلترا فى هذه المنطقة على مـر الأيام ، ويوضحا حقيقـة الوضع فى المحميات ، وموقف أهلها من السلطات المختلفة .

ظهور مشكلة الحدود الجنوبية لليمن :

وضح إذن الأسـاس التـاريخى لكل من الإمـام فى اليمـن ، والإنجليـز فى المحميات ، ووضح كذلك أن للإمامة جـذوراً تمتد لعدة قرون فى تاريخ اليمن ، غير التى لـلإنجليـز الـذين يـرجع وجـودهم فى الجنـوب إلى سنـة ١٨٣٩ ،

أى منذ احتلال عدن فقط . كما عرفنا وضع كل منهما فى منطقته ، بل الأكثر من ذلك نظرة كل منهما للآخر . وهكذا نرى أن البداية السيئة للعلاقات اليمنية - الإنجليزية بعد خروج الترك ، كانت بداية طبيعية رغم الثوب الذى ظهرت فيه ، وبغض النظر عن كونه طيبًا أو سيئًا .

وكان الإمام يريد أن يتقابل مع إنجلترا وجهًا لوجه للتفاهم على هذه الأوضاع المعلقة ، ولكن إنجلترا لم تكن تطمئن إليه كثيراً ، وتفضل عليه الإدريسى . كما أنها لم تكن تتعجل التفاهم مع الإمام أو الاتفاق معه ، على أساس أنها كانت تعتقد أن حقوقها فى عدن والمحميات شىء مقرر لا يمكن مناقضته أو مسه .

وقد اتخذت مشكلة الحدود مظهرها العملى قبل ظهور الإمام ، وكان النزاع من أجلها يتم بين الأتراك والإنجليز ، وهو النزاع الذى بدأ يتضح عندما بدأت مصالحهما فى الاحتكاك . فقد احتلت إنجلترا عدن سنة ١٨٣٩ ، وعاد الأتراك إلى احتلال تهامة اليمن سنة ١٨٤٩ ثم وصلوا صنعاء سنة ١٨٧٢ ، وجعلوا من اليمن ولاية عثمانية . ومنذ سنة ١٨٧٣ حتى بداية سنة ١٩٠٢ ، كانت الحدود تتذبذب بين النفوذ البريطانى والنفوذ التركى فى اليمن . ولكن بين يناير ١٩٠٢ ومايو ١٩٠٤ ، حددت الحدود بواسطة لجنة مختلطة إنجلو - تركية ، وفى إتفاقية ١٩١٣ الإنجليزية - التركية أرسيت الحدود بينهما . وهكذا ، فإنه عند بداية حرب ١٩١٤-١٩١٨ ، كان داخل شبه الجزيرة العربية مقسما من الناحية النظرية بين قوتين غير عربيتين ، هما بريطانيا والإمبراطورية العثمانية . ولكن هذا التقسيم النظرى - الذى وضع على الخريطة - تجاهل الحقيقة الواقعة ، وهى أن الجزء الأعظم فى كل من مجالى النفوذ ، كان فى يد الحكام العرب والقبائل العربية . فمثلا كان نفوذ السلطات البريطانية لا يمتد أبعد من ١٠ ميل من مدينة عدن

نفسها ، فكان حوالى ٤٢٠٠ ميل مربع خارج ٨٠ ميل مربع (وهى مساحة المستعمرة) مقسمة بين عدد من الزعامات القبلية المحلية ، وهذا بالرغم من وجود معاهدات حماية مع بريطانيا . وكذلك الوضع بالنسبة للعثمانيين ،فلم يكن لهم نفوذ فعلى فى كل ممتلكاتهم ، ولكن لهم مجال نفوذ فقط تعترف به الحكومة البريطانية[1] . وعلى كل حال فإن اتفاقية الحدود الأنجلو - تركية (أبرمت فى مارس ١٩١٤) قد عملت على تسوية مشكلات الحدود بين الدولتين وبالرغم من أنه كان للعثمانيين مطالب نظرية على كل الجزيرة العربية، إلا أنهم كانوا يعترفون من الناحية العملية بوجود الحماية البريطانية على تسع قبائل متاخمة لعدن ، أصبحت تعرف فى المعاملات الدبلوماسية بالمحميات التسع . وقد عاش هذا الاسم طويلا رغم أن عدد القبائل التى أصبح لها علاقات تعاهدية مع الحكومة البريطانية قد زادت بمرور الوقت كثيراً عن التسع الأصليين[2]. وهكذا ارتضى الطرفان حدوداً معينة تنظمها معاهدة معترف بها ، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد خروج الترك ، كتب الإمام إلى « عدن » يخبرها أنه لا يعترف باحتلال الترك لليمن ، وبالتالى لا يعترف بالمعاهدات التى عقدوها . وذكر أن أسلافه كانت تحكم كل هذه الأقاليم قبل مجىء الترك والإنجليز[3] . وكان الإمام يرى أن احتلال بريطانيا وتركيا لهذه الأقاليم فى القرن ١٩ كان اغتصابًا ، وأن الحدود تم تخطيطها بين اثنين مغتصبين لا يملكون الصلاحية القانونية ، وأنه باحتلاله أجزاء من محمية عدن إنما يسترجع أملاكا سلبت منه . ولكن إنجلترا كانت لها وجهة نظر مخالفة وتقدم حججًا مقابل حجج الإمام ، فكانوا يرون أن أملاك الأئمة الزيديين - قبل القرن ١٧ -

---

(١) Survey of International Af airs, 1928, p. 309-310.

(٢) Sir Bernard Reilly ; Aden and Yemen , p. 16.

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 242.

كانت محصورة فى « صعدة » فى الطرف الشمالى لمرتفعات اليمن . وثانيًا : أن سلطة الأئمة على كل أجزاء اليمن - أثناء القرنين ١٧ و ١٨ - عندما كان الميدان كله خاليًا أمامهم - لم تكن فعالة مطلقًا . وثالثًا : أن السلطة التى أسسها الأئمة كانت قد انهارت قبل ظهور بريطانيا لأول مرة فى هذه المنطقة عام ١٨٣٩ ، وقبل ظهور الأتراك للمرة الثانية فى سنة ١٨٤٩ ، الذى كان بناء على دعوة السكان أنفسهم . وأخيراً كان الإنجليز يحتجون دائمًا بأن المذهب الزيدى ليس منتشراً فى كل جهات اليمن ، وأن الزيديين فقط هم الذين يقبلون حكم الأئمة الزيديين[1] . وقد أكمل السير برنالد رايلى أحد حكام عدن (١٩٣١-١٩٤٠) وجهة نظر إنجلترا هذه ، فهو يعتبر أن الإمام بصفته وريثًا للإمبراطورية العثمانية فى اليمن عليه أن يلتزم بالاتفاق التركى -الإنجليزى بخصوص المحميات ، وذلك طبقًا للقانون الدولى . ويعتبر الإمام معتد عندما هاجم « الضالع » فى سنة ١٩٢٠ « والبيضاء » فى سنة ١٩٢٣ « والعوذلى السفلى» فى سنة ١٩٢٦[2] .

ومما لا شك فيه أن وجود تركيا فى اليمن ، ثم اتفاقها على حدود معينة بينها وبين انجلترا ، أعطى الأخيرة سنداً لأن تتمسك بهذه الحدود بالذات . وكانت إنجلترا حريصة كل الحرص على إيجاد منطقة خلفية لعدن ، خالية من كل نفوذ أجنبى ، وذلك حماية لعدن نفسها . وكانت تعتبر النفوذ العربى الذى يمتد من اليمن نفوذاً أجنبيًا ، وخاصة بعد التجربة المريرة التى مرت بها أثناء الحرب العالمية الأولى ، عندما هاجم الترك المحميات وطرقوا باب عدن نفسها .

وبناء على ما أوضحناه من مفهومات وأوضاع ، أصبح من اليسير

---

(١) Sruvey of International Affairs, 1928, p. 311.

(٢) Sir Bernard Reilly ; Aden the Yemen , p. 17.

فهم سبب سير الأحداث فى الجنوب فى الطريق الذى اختطته لنفسها . وقد سبق أن أوضحنا أنه كان للإمام عند بدء عهد استقلاله جبهتان : إحداهما فى تهامة مع الإدريسى ، والثانية فى المحميات مع الإنجليز ، ورأينا أن كلا الجبهتين كانتا مرتبطتين ومنفصلتين فى آن واحد ، هذا فضلا عن الجبهة الداخلية .

لعل أول توجيه عملى لنظر الإمام ناحية المحميات - غير ما كان للإمام من مطالب نظرية ، هما الخطابان - سبق الإشارة إليهما - اللذان أرسلهما اللواء على سعيد باشا قائد القوات التركية للإمام ، ولكن الإمام كان قد رأى حينئذ أنه لا يستطيع أن يلبى نداء سعيد باشا ، فيرسل قواته لاستلام لحج وغيرها قبل أن يسلمها سعيد باشا للإنجليز ، إذ لم تكن ظروفه مواتية بعد . فأوضاعه فى اليمن نفسه لم تكن قد استقرت ، هذا إلى جانب أنه كان غير راغب فى إثارة الإنجليز ضده فى أول عهد استقلاله بل كان يطمع أن تسير الأمور فى سلام ، ويأمل أن يساعده الإنجليز فى تحقيق آماله . وكانت أحواله الداخلية من الأسباب المعوقة له فى أن يفكر فى امتداد خارجى يؤدى به إلى اصطدام مباشر مع الإنجليز ، هذا فضلا عن وجود الإدريسى فى عسير . وكان نجاحه فى تهامة اليمن بعد دخوله الحديدة فى أبريل سنة ١٩٢٥ نصرا كبيرا له . فعبر تهامة سيصل الإمام إلى العالم الخارجى حيث تزدهر تجارته ، وحيث يحصل على السلاح لتحقيق باقى أغراضه . وكانت إيطاليا فى أريتريا على الشاطئ الثانى للبحر الأحمر ، تنظر بشغف إلى أن تمد نفوذها إلى الشاطئ العربى الآسيوى المقابل ، وهكذا كان وصول الإمام إلى الشاطئ العربى الآسيوى المقابل ، وهكذا كان وصول الإمام إلى الشاطئ بداية عهد جديد فى تاريخ حياته وحياة أمته .

ولكن جبهة عسير كانت تمثل جانبًا واحداً ، وكان الجانب الثانى هو جبهة المحميات ، حيث يوجد الإنجليز . وقد فضل هؤلاء طريق المسالمة (إجراء المفاوضات) على طريق الحرب ، نظراً لكثرة مشكلاتهم التى تخلفت

عن الحرب العالمية الأولى ، والتى جذبت انتباههم بعيداً عن قضية اليمن. وكانوا يعتمدون على وجود الإدريسى فى المنطقة ، ويرون أنه قادر على الوقوف ضد الإمام ، كما كانوا يعتمدون على وجود الخلافات المذهبية عند القبائل التهامية الشافعية ، التى كان الإنجليز يحاولون بث روح التمرد والانفصال بينهم وبين الإمام . ورحب الإمام بالمفاوضة ، فأرسل كما قلنا عبد الله العرشى ، مندوبًا له فى عدن ، لإجراء المفاوضات ، ولكنه فشل فى الوصول إلى حل ، وعاد إلى صنعاء سنة ١٩٢٣ بأمر الإمام . ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى حديث الريحانى عن مندوب الإمام فى عدن - عبد الله العرشى - فقد سمع عنه : « أنه كان يتقاضى مرتبه الشهرى من الإمام ، وقيل إنه يقبض من الإنجليز ، وقيل إنه يقبض من الاثنين معًا ، وهذا يدل على عدم وضوح موقفه ، أو عدم نجاحه فى المفاوضات التى يقوم بها ، كما يدل على كثرة المؤامرات والدسائس والجواسيس فى عدن »[١]. وكان الإنجليز على عادتهم يتبعون طرق المماطلة والتسويف مع الإمام « ويحاولون إضعاف نفوذه بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه»[٢] .

فشل طريق المسالمة والمفاوضات ، وبدا أن العلاقة بين الإمام والإنجليز بدأت تأخذ وجهًا آخر بعد أن أخضع الإمام الحديدة لحكمه ، وبعد أن بدأ فى الاتصال بإيطاليا فى أريتريا . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد نقلت الأهرام عن التيمس خبراً هاما له دلالته ، يعبر بوضوح عن آثار نجاح الإمام فى وصوله إلى البحر جاء فيه : « يؤخذ من الأنباء الواردة من الحديدة أن رسل

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ج١ ، ص ٨٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٠١ -٢٠٢ .

الإمام يحيى عـادوا من مهمة خاصـة من مصوع (كـانت تحت النفوذ الايطالى) وأحضروا معهم جهازاً للتلغراف اللا سلكـى ، وبعض أطباء إيطاليين ، وقنصلا إيطاليًا »[1] . ولا شك أن المهمة الخاصـة المشار إليهـا هنا كـانت الحصول على السـلاح ، ولكن الأهم من ذلك هـو أن الاتصـال اليمنى الإيطـالى - وهـو مـا نقصـد الإشارة إليه - كان بداية لعلاقات طويلة هامة أثرت فى تاريخ اليمن ، وكان هـذا يعنى بـالتالى ظهور منـافس قوى دخـل الميدان أمـام إنجلترا . وهذا الخبر يعنـى فى ذاته ، أن الإمام كان على استعـداد للتعاون مع دولة جديدة ، أو الاستعانة بقـوة جديدة ، ضد قوة أخـرى عـدوة ، أو هى تعاديـه حتى الآن . وقـد شعـرت إنجلـترا بالخطـر فعـلا ، وبدأ بعض العـارفين بأمور الجنـوب العربى من الإنجليز ، يقـدمون النصائح لحكومتهم لاتباع السيـاسة الصحيحة فى هذا المجال ، فى ضـوء الظروف الجديدة . وقد نشرت جريـدة التيمس مقـالا للكولونيـل جيكوب نفسـه - وهـو من أشـد الإنجليـز إحسـاسًا وفهمًا لمشكلات الجنوب العربـى - نقلتـه الأهرام كذلك ، جـاء فيه : « إن أغراض الإمام يحيى سلميـة ، وهو يتـوق منذ عقد الهدنـة إلى الاتفاق مع الحكـومة البريطـانية ، ولكن العقبـة الكؤود كـانت تسـليم الحديدة ، التى هى مفتـاح اليمن ، إلى منافسه السيـد الإدريسـى ، وقـد أعرب الإمام يحيـى منذ أعوام عديـدة عن تفضيلـه الحكومـة البريطـانية على جميع حكـومـات الدولـة الأخـرى ، وهو يعمل لترقيـة التجارة فى بـلاده ، وبـلاد اليمن أغنى ولاية فى الجزيـرة العـربية وقد استولى الإمام يحيى فى الأيام الأخـيرة على الحديدة . نعم أنـه من المحتمل أن يكـون زمـن المعـاهدات قـد مضـى ، ولكن الحاجـة تدعـو - كما أبلغنـى الإمـام يحيى نفسـه بصريح العبـارة - إلى الاعتراف

---

(١) الأهرام : ١٤٦٨٠ فى ٢٨ مايو ١٩٢٥ م (ذى القعدة ١٣٤٣ هـ) ص ٣ .

باستقـلاله ، وإظهـار حسن نيتنا نحـو أمانيـه ، ولا يمكن أن يصـدق أحد أننا نتلكأ عن ذلك بعد الآن لا سيما أن هنـاك مصالح نرعـاها وهى عرضـة للخطر، فإذا اتفقنا مع الإمـام يحيى فإنه لا يعامل إلا البريطـانيين فقط ، وفى ذلك فائدة متبادلة تعود على الفريقين »[1] .

وجيكـوب هنـا يعبر عن روح إنجليـزى مخلص لإنجليـزيتـه ، فهـو يحث حكومتـه على الإسراع فى التفاهم مع الإمـام ، ويؤكـد أن الإمام لا يمانع فى ذلك بل إنه حريص على إتمامه ، ثم يحذر حكومتـه ولو بطريق غير مباشر من خطورة تـرك الإمام ، أو إهمال مطـالبه ، حتى لا يتم الاتفـاق بينه وبين أيـة قوة أخـرى وخاصة إيطاليا .

بعثة كلايتون إلى الإمام ونتائجها:

وعلى كل حال لقد اتخذت انجلترا موقفًا إيجابيًّـا رسميًّا إزاء الوضع الجديد فى اليمن . فقد ذهب سير جلبرت كلايتون إلى صنعاء فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، بعد أن نجحت مفاوضـاته مع ابن السعـود من أجل مشكلات حـدوده الشمالية مع العـراق وشرق الأردن . ونجـاحـه مع ابن السعـود هـو الـذى شجع المسئـولين الإنجليز على إرسـاله للتفاوض مع الإمـام يحيى من أجل حل مشكلات الحدود أيضًا[2] . وكانت بعثة كلايتـون فى صنعاء محط اهتمام حكومة إنجلترا ، ويتضح هـذا من حـديث اللـورد كليردون ردًّا على سـؤال اللـورد لامنجتـون فى مجلس اللوردات بخصوص الوضع فى جنوب الجزيرة العربية ، وقد أخذ اللورد كليردون يشرح تطور الوضع فى الجنوب ، ووصول الإمام للحكم بعد خروج الأتراك ، ثم

---

(١) الأهرام : العدد ١٤٧٢٨ فى ١٤/ ٧/ ١٩٢٥ (٣ محرم ١٣٣٤هـ) ص ٢ .

(٢) H, St, J, B, Philby. Arapia, p.

احتلالـه لبعض أجزاء من محمية عـــدن ، وأن إنجلترا تـرفض الإعتراف بذلك حتى قال : « وتدور المفاوضات منـذ مدة طويلة بين الإمام يحيى والسير جلبرت كلايتـون الذى قابلـه الإمام بمظاهـر الحفاوة ، وكرر لـه رغبته فى توطيـد دعائم الصداقـة بينه وبين بـريطانيـا ، وأعرب عن رجـائه فى أن تسفر المفـاوضات عن تسوية مرضيـة فى النهاية . وتهتم الحكومة البريطانيـة اهتمامًا عظيما بتقرير السير جلبرت كلايتـون لأنها تتوق إلى عقـد اتفاق مـرضٍ فى أقرب وقت »[١] . إلا أن المفـاوضات فشلت ، وعـادت بعثـه كلايتـون دون أن تصل إلى حلـول مرضيـة لمشكلـة الحدود فقـد تشـدد الإمـام فى مفـاوضـاتـه ، وكـان يصر على أن يحتفظ بمطـالبه فى المحميـات ، إذ كان يـرى أنها جـزء من اليمن طبقًا لمفهـوم اليمنيين التقليدى عن الحدود ، ولأنـه هو وأجداده من قبلـه لم يعترفوا بالمعـاهدات التى عقدها الإنجليز مع أمراء وشيوخ المحميات ، فضلا عن عدم اعترافه باتفاقيات العثمانيين مع إنجلترا بشأن حدود اليمن الجنوبية . وقد قال جورج أنطونيوس - صاحب كتـاب يقظة العـرب - وكان أحد أفـراد بعثة كلايتـون للإمـام : « لقد لاحظنا فى الإمام عدم الرغبة فى التفاهم ، وبعدما أقمنا ستة وعشرين يومًا لديه ، نفاوضـه ونسعى لإقناعه بفـائدة الاتفاق والتعاون ، غادرنـا صنعاء لأننا شعـرنا بأنه لا فائدة ترجى من إطـالة الإقامة »[١] وقد كان هناك أكثـر من دافع للإمام للوقوف هـذا الموقف ، فهو فى نشوة الانتصار على الأدارسة ، وأقنعه هـذا بقدرته على أن يحصل عل حقـوقـه بالقـوة ، وزاد يقينـه بهذا أن إنجلترا لم تكن صاحبـه فضل عليه حتى الآن ، وأنه قد توصل إلى مـا وصل إليه من كيان مستقل ووجود مـادى ظاهـر ، يفضل جهوده الخاصـة المستقلة عن مسـاعدة إنجلترا . وهنـاك دافع آخر للإمام ، فقد كان بعض مستشـاريه يشجعونه على أن يتجه إلى إيطاليا فى أريتريا ، فوضعها أكثر أمانًا بالنسبة للإمام ، كما أن تاريخها مازال نظيفًا معه . وكـان وضـع إيطـاليـا ، إلى جـانبـه على الشـاطئ الآخـر مـن البحـر الأحمر ،

---

(١) أمين سعيد ، اليمن ، ص ٦٤ .

يشجعه على أن يجرب المساومة مع إنجلترا ، ويشجعه على التمسك بمطالبه[١] والحقيقة أن وضع إيطاليا بالنسبة للإمام كان أفضل من وضع إنجلترا بالنسبة له ، فلم تكن العلاقات اليمنية الإيطالية تعانى وجود مشكلة حدود ، كما كانت العلاقات مع انجلترا تقع تحت ضغط معاهدات حماية مع المناطق المحمية[٢] . هذا فضلا عن أن إنجلترا كانت تفكر دائمًا - أو كان يهمها تمامًا - أن تحتفظ بالمنطقة الخلفية لعدن تحت نفوذها أو على ولاء لها على الأقل . ولكن إيطاليا كانت تتظاهر - فى ذلك الوقت على الأقل - بأن علاقاتها غاية فى البراءة مع الإمام ، وأنها فقط تريد مساعدته ، ومدة بما يحتاج إليه من سلاح وآلات .

وكان لفشل بعثة كلايتون آثار عملية ظهرت عند كل من الطرفين المتفاوضين . فبدأت إنجلترا تفكر فى اتخاذ موقف أكثر تشدداً مع الإمام ، ستتضح معالمه بعد ذلك بقليل ، وخاصة بعد أن تقربت إيطاليا من الإمام بصورة أقوى ، وعقدت معه معاهدة صداقة وتجارة فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ . كما ظهرت فى بريطانيا دعوات صريحة لإصلاح وتعديل سياسة بريطانيا فى الجزيرة العربية ، فقد نقلت الأهرام عن التيمس مقالة لورد لامنجتون التى يعبر فيها عن استيائه من احتلال الإمام للمحميات ، وخزى بريطانيا أمام القبائل المحمية ، ثم قال : « ... إن العلة الأساسية لوجودنا فى هذا الموقف المهين ، هو أن تلك البلاد تابعة لوزارة المستعمرات ، ولكن حكومة الهند هى التى تعين الوالى البريطانى فيها وهو خاضع لحكومة بومباى ، فيجب أن تكون البلاد والوالى فيها تابعين لإدارة خاصة تنشأ للإشراف على شئون الشرق الأدنى ، أو لوزارة الخارجية ، ولا بد من أمرين لبلوغ النجاح فى معالجة شئون الشرق الأدنى : الأول ، أن تترك وزارة المستعمرات بلدانا كان يجب أن لا يكون لها شأن فيها . والثانى . أن ينظم سلك خاص من الموظفين للخدمة

---

(١) Philby ; Arabia, p. 333.

(٢) Survey of International Affairs, 1928 , p. 313 .

فى أية ناحية من جزيرة العـرب ، ويشترط فيهم أن يحسنوا اللغة العربية وليس فى هذا القول ما يشين موظفى وزارات المستعمرات ، بل هو موجه إلى سوء النظام . إن شبـه جزيـرة العرب قطعـة عظيمـة يسكنها عنصر واحـد يتكلم لغة واحـدة ويديـن بدين واحـد ، ولكن شئونـه تعالجهـا ثلاث سلطـات مختلفة »[1] . كما ظهرت أيضا وجهات نظرية إنجليـزية تقلل من شأن الفشل ، وفيها دعوة خفية إلى التسـاهل مع الإمـام ، ولكنها فى الحقيقـة تعبر عن الـرغبـة فى التمسك فقط بالمصـالح الجوهريـة لإنجلترا فى شبه الجزيـرة مع التخفف من الأعبـاء الأخرى الداخلية بقدر المستطاع . فهى تعتبر « أن اليمن من الـوجهة السياسية لا يحتوى على أقل خطر يهدد الإمبراطوريـة ، وما دامت بريطانيا تحتل عدن وجـزيرة بريم فـلا يمكن أن يهدد الإمام طـريق المواصـلات فى الإمبراطوريـة ». ثم تدعـو إلى التخلى عن حقـوق إنجلترا فى المحميات لـلإمـام ما دام الأمـر كـذلك بالنسبـة للمواصـلات الإمبراطوريـة ، فبهذا يخفف من أعبـاء الإمبراطوريـة التى يقلقها الخوف من التدخـل الأجنبى ، كما أن هذا يمكن إنجلترا من الحصـول على نفوذ سياسى وتجارى أكثر . « وكان أكبر دوافع هذا الـرأى هو أن حكومات ومشايخ القبائل المحمية لا تعير المقيم البريطانـى فى عدن إلا اهتماما ضئيلا وأنها تصرف أمورها وفقا لتقاليدها القديمة »[2]. وكان جيكوب يرى مثـل هذا الرأى ، ونادى به قبل فشل بعثة كلايتون هذه (نشر كتابه سنة ١٩٢٣) . وكان يرى أن إنجلترا تدفع آلاف الروبيـات الهندية سنويًّا لرؤساء المحميـات على شكل مشاهرات أو هـدايا ، ولكنهـا لا تحصل على مقابل منـاسب لهذه المصروفات . فهم يأخـذون هـدايـاهم بكلتـا يـديهم ولكنهم لا يشكـرونها على ذلك ، فهم لا يـريـدونها فى بلادهم ، كما أنهم يذهبـون إلى عدن فى حرية تـامة ولكن لا يجذبهم إلى هناك إلا المنح والهبـات . وقد كتب جيكوب كثيراً عـن عداء أتباع المذاهـب والمعتقدات

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٠٧٠ فى ٢٠/٨/١٩٢٦ (١٢ صفر ١٣٤٥ هـ) ص ٣ .

(٢) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٦٤ فى ١٣/٨/ ١٩٢٦ (٥ صفر ١٣٤٥هـ) ص٣.

لبعضهم البعض ، ولكنه كـان يرى أنهم « سوف يتجمعـون حول حـاكم عربى قوى يستطيع أن يعيـد ويدعـم المملكة اليمنية السـابقة ، حيث كانت الحكـومة العادلة المنصفة تمتد - ذات مرة - على كل الـزيديين والشافعيين معاً » . أما من الناحية العمليـة فيقول : « إن مصالح إنجلترا فى هذا الإقليم يمكـن أن تركز فى تدعيم مركزنا فى عدن ، وترك الداخل يتطور فى خط عربى ، وأن إنجلترا يمكنها أن تنجح فى بسط نفوذهـا وفى بسط نفوذها إنجاح لتجـارتها فى المنطقة ، فهى لم تستطع استغلال كل طـاقتها التجاريـة بعد فيها » . وأخيراً قال : « إن سيـاستنا يجب أن تكـون : الربح دون الاستيـلاء ، العمل بـدون إثبات وجـودنا ، التطـور بدون السيطرة ، فوقـت تدخلنا قد مضى وسياسة فـرق تسد لا قيمة لها بالنسـبة لنا . كما أن الاحتفـاظ بالعرب الذين يأخـذون المشاهرات فى وجه حـاكم عربى نـاهض ، معناه أننـا نـدفع الإسـلام ضد الإسـلام .. فعـدن فقط هى الأراضى البريطانيـة ، وهى معزولة فى ركن واحـــد ، لذلك فإن تجزئة الـداخل لا يهمنا كثيراً »[١] .

أما أثر بعثة كـلايتون بالنسبة للإمام ، فكان ذا آثـار عكسية عنيفة : « فقد أرسل الإمـام إلى حاكم أريتريـا الإيطالى ليبعـث بمندوبيـه ليقتطفوا ثمـرة فشل بريطانيا »[٢] . وقد لبيت هذه الدعوة بحـرارة دون شك فقد « وصلت الحـــديدة (أوائل سبتمبر ١٩٢٦) بعثـة إيطاليـة بـرئاسة حـاكم أسمـرة (غاسبـاريتى) وسـافرت إلى صنعـاء لمقابلـة الإمام يحيـى . وكان من جملـة الهدايا التى تحملهـا للإمام سيارة وطيارة »[٣] . ويبدو أن البعثـة الإيطالية هـذه قد قـوبلت بحفاوة بالغة إذ يقول الواسـعى عن زيارتها لصنعاء « وفى هذه الســـنة (١٢٤٥ هـ - ١٩٢٦م) وصل إلى صنعـــاء سعـادة الـــوالى الفخيم حـاكم المستعمـــرات فى

(١) Jacob : Kinqs of Arabia, p. 245.

(٢) Phtlby : Arabia, p. 334.

(٣) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٨٥ فى ١٩٢٦/٩/٧ (٣٠ صفر ١٣٤٥هـ) ص٣.

أريتريا غسباريني لمقابلة الإمام ، وقد حصل له الاستقبال الباهر من يوم خروجه من « الحديدة » إلى « صنعاء » . وكان في كل محطة يستقبل قبائل تلك الجهات ، وفي صنعاء خرج لاستقباله أكابر « صنعاء » وسائر الطبقات وثلة من العسكر والموسيقى في ساحة المنزل الذي أعد لنزوله فيه للضيافة في « بئر العزب »[١] . وكان معه جملة من أكابر رجاله ، منهم وكيله القومنداتوري تلامونتي »[٢] .

ويبدو أن هذا الاهتمام الزائد بالبعثة الإيطالية كان يعبر عن موقف اليمن حينئذ لا من إيطاليا فحسب بل من إنجلترا أيضاً ، إذ كان الإمام يرى أن تقربه لإيطاليا هو الأمل الكبير لتحقيق مطالبه في الجنوب العربي فهي قوة يستمد منها السلاح ويساوم بها إنجلترا حتى تقبل مطالبه .

---

(١) أرقى وأفخم أحياء صنعاء ، ويوجد فيه قصر الإمام .

(٢) الواسعي : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

العلاقة بين الإمام وإيطاليا

عقد المعاهدة اليمنية الإيطالية :

نجحت بعثة غاسبارينى فى عقد معاهدة مع الإمام يحيى ، وهى تعتبر قمة علاقات حرص الإيطاليون على إقامتها مع الإمام (انظر ملحق ٥) .

وقد نشرت جريدة الإيمان هذه المعاهدة - وهى جريدة رسمية تصدر فى صنعاء - كان الإمام ينشر فيها الأخبار الرسمية ، وكانت كذلك الجريدة الوحيدة فى كل اليمن . وقد نقل الواسعى عنها نص هذه المعاهدة (العدد الأول منها - الصفحة الثانية) هذا فضلا عن أنها نشرت فى الجرائد المصرية والسورية والأوروبية حيث كانت مثار حديث وتعليق العالم حينئذ ، لأنها كانت أول معاهدة تعقدها اليمن فى تاريخها الحديث .

وهذه المعاهدة فى الحقيقة وبالرغم من أهميتها فإنها محدودة فى نصوصها،محددة فى أغراضها ، وهى تنصب فى أغلبها على الاهتمام بتنظيم الناحية التجارية بين البلدين وهذا ما يهمها فى المرتبة الأولى ، ولكنها لا تغفل الجانب السياسى فى نفس الوقت ، وقد تركز فى المادة الأولى الاعترف باستقلال اليمن وملكها الإمام يحيى . ويتضح حرص الإمام على الاستفادة اقتصاديًّا من هذه المعاهدة إلى أقصى الحدود بما جاء فى نص المادة الثالثة ، فهذا النص يعنى مباشرة اهتمام الإمام بأشياء معينة يركز عليها ، ويحددها فى نص المعاهدة وهذا لا يدل على أهمية هذه الأشياء بالنسبة له فحسب بل على أنها من أكبر أغراض هذه المعاهدة أيضًا ، كما تنص المادة الرابعة على حرية الطرفين التجارية دون أن تقيدها هذه المعاهدة .

ويلاحظ أنه قد حدد العمل بالمعاهدة لمدة عشر سنوات ، كما اعتمد النص العربى للرجوع إليه إذا نشب خلاف بين الطرفين المتعاقدين من ناحية تفسير إحدى المواد . وهاتان النقطتان جديرتان بالإشارة إليهما ؛ إذ سنلاحظ فى كل معاهدات الإمام التالية بينه وبين الدول الأوروبية ، أنه يحرص على اعتماد النص العربى للرجوع إليه ، كما أنه يحرص على تحديد مدة معينة للعمل بتلك المعاهدات . وهما يعبران فى الحقيقة عن اهتمام الإمام بأن يكون دائمًا فى الجانب الأسلم ، وهذا بالتالى يدل على تخوفه من الدخول فى علاقات خارجية لا يأمن نتائجها تمامًا ، وهو ما سيتضح طوال مدة حكمه .

تطور العلاقات اليمنية الإيطالية حتى عقد المعاهدة :

وملاحظة أخرى هى أن هذه المعاهدة لم تكن وليدة الظروف القريبة القائمة بل كان لها أساسها فى تاريخ اليمن ، وكانت - كما يدل نصها المحدد - تعبر بصراحة وبالتحديد عن أغراض الطرفين منها . فالإمام يحتاج الاعتراف به وباستقلال اليمن تحت حكمه ، ويحتاج إلى من يبيعه الأسلحة والآلات الفنية التى تعينه فى بدء الإصلاحات الداخلية فى اليمن مما عبرت عنه المعاهدة . وكانت إيطاليا لا يضيرها أن تعترف به واستقلاله بل إنها تعتبر ذلك نصرًا لها، وأن هذا سيمنحها فوزًا سياسيًا بصفتها الدولة الأولى التى سيشكر لها الإمام هذا العمل ، وقد شكر الإمام اعترافها به بالفعل ، وأسعده هذا كثيرًا . ويلاحظ أنها أول وثيقة دولية تطلق عليه لقب ملك ، وكان يهمه هذا بالرغم من أنه ظل يحتفظ بلقب إمام ويعتز به لحرصه دائمًا على أن يكون له الزعامة الدينية . كما كانت إيطاليا تريد فتح أسواق تجارية أمام بضائعها وهذا ما سهلته لها المعاهدة . وهى بهذا الفوز السياسى والكسب الاقتصادى ، تحقق غاية أخرى هى بداية التوسع فى مجالات جديدة مثل الشاطئ العربى المواجه لمستعمراتها الأفريقية . وبالأحرى - ومن وجهة نظرها - فإن عقد المعاهدة مع الإمام يعتبر الخطوة الأولى الهامة فى تاريخ توسعها فى جنوب غرب الجزيرة العربية حيث تعمل من أجل ذلك منذ أمد بعيد . وقد علقت جريدة

الديلى تلجراف تعليقًا هامًّا نقلته الأهـرام عند عقد هـذه المعاهـدة جـاء فيه :
« إن السـنيور جاسباريني تمكن من عقد معـاهدة اقتصادية مهمـة مع الإمام يحيى حصلت بها إيطاليا على مـزايا اقتصادية مهمة . وعقد هـذه المعاهدة يتوج المساعـى العديـدة التى جعلت إيطاليـا تبذلها بصبر وتـؤدة منذ ثـلاث سنوات للحصـول على مـوطئ قـدم فى اليمن ، فهذا العمـل جزء من سيـاسـة التـوسع الإيطالى فى البحر الأحمر وفى غيره »[1] . ورغم عمق هذا التعليق ودلالته إلا أننا نحب أن نـوضح أن محاولات إيطاليا لـوضع القدم الثـانى على الشاطئ الثـانى للبحـر الأحمر - ألا وهـو الشـاطئ الآسيـوى - للتحكم فى المدخـل الجنـوبى للبحـر الأحمـر ، كانت منـذ مدة أطول من « ثلاث سـنوات » - المشار إليها فى التعليق - إذ كـانت تحـاول منـذ أوائل هـذا القرن ولعـدة مرات ، القفـز من الشـاطئ الأفـريقى للوصـول إلى الآخـر الأسيـوى . وكان أول نجـاح لهـذه المحـاولات عنـدما عقدت معـاهدتها مع الإدريسى ضد الأتـراك سنة ١٩١١ ، وكانت قبل ذلك على علاقات تجـارية بموانئ تهامة فى عسير واليمن بل وحتى فى محميـة عـدن ، كما كـان لها مـركزًا تجاريًّـا فى صنعـاء يقيم فيـه أحـد التجـار الإيطاليين بصفـة مستمرة تقـريبًا . وقـد حاول الإيطـاليون التقـرب للإمـام عن طريق سلطان لحج لإثارته ضد الأتـراك أثناء الحرب الطرابلسية ولكنهم فشـلوا فى تحريكـه . وقـد رفض الإمام لأنـه كـان يعتقـد أن تقدم إيطاليـا فى الجزيـرة العـربية كما قـال : « ما هو إلا محـاولة غربيـة لتحطيم الإسـلام فى الجـزيرة » بل كان لـلإيطاليين محاولـة أجرأ من ذلك وفى بقعـة أخرى من هـذه الجهـات ، فقـد اعتقـدوا أن شـاطئ حضرمـوت ميـدانٌ خـالٍ خصب لنشـاطهم ، ولكن إنجـلترا صدتهم عنها حيث إن حضرموت كانـت إحـدى محميـاتها . وقد أقام

---

(١) الأهـرام : (عن الـديلى تلغـراف) العـدد ١٥١٠٦ فى ١٩٢٦/٩/٣٠ (٢٣ ربيع الأول ١٣٤٥هـ) ص ٣ .

الإيطاليون مستشفى فى « الحديدة » كانت تقدم المساعدات الطبية لليمنيين ، ولكن قيام الحرب العالمية الأولى أدى إلى إنهاء نشاطها . وكانت مستعمراتهم فى شرق أفريقيا من ناحية أخرى ، مجالاً لهجرة العرب من اليمن وباقى جهات جنوب غرب الجزيرة العربية وذلك لفقر أهالى هذه البقاع . وحوالى سنة ١٩٠٦، قاموا بتجنيد الآلاف من عرب اليمن لاستخدامهم فى حروبهم . وكانت إيطاليا تسمح لهؤلاء المجندين بالاشتغال بالتجارة فى غير أوقات قيامهم بالخدمة ، كما كانت تستخدمهم فى الأحراش وفى تعبيد الطرق ، وكانت تدفع لهم المرتبات العالية ، وكان لهؤلاء حق ترك الخدمة بعد عامين(١) .

ومهما كان الأمر ، فقد كانت هذه المعاهدة حقيقة نتيجة تطور طبيعى للعلاقات اليمنية الإيطالية ، كما كانت تمثل حاجة كل منهما إلى الآخر . هذا فضلاً عن أنها كانت - فى حد ذاتها - بداية لعلاقات من نوع جديد فى مظهرها وأغراضها . وقد عبر نزيه العظم تعبيرًا صريحًا عن الدوافع المباشرة العاجلة لعقد هذه المعاهدة فقال : « وقد علمت بصورة خاصة أن جلالة الإمام ما كان ليعقد معاهدة مع إيطاليا لولا حرصه الشديد على جلب سلاح وعتاد من إيطاليا ، ولم توافق إيطاليا بادئ الأمر على أن تجلب له ما يطلبه من السلاح إلا إذا عقد معها معاهدة ولذلك اضطر جلالته إلى عقد المعاهدة . وعلاوة على ذلك منح الحكومة الإيطالية امتيازًا باحتكار بيع الكاز فى اليمن لمدة خمس سنوات ، ولكن لما مضت الخمس سنوات أبى جلالته أن يمد مدة هذه الاتفاقية ، وأصبحت ملغاة ، وعادت تجارة الكاز فصارت حرة، وارتفع عنها الحصر ، وأراد الكثيرون من إنجليز وألمان وروس أن يحصلوا على اتفاقية جديدة بسبب حصر الكاز فرفض جلالة الإمام جميع

(١) Jacob : Kings of Arabia, pp 127 - 129.

طلباتهم لأنه شعر بضرر الاحتكار وضرر الأجانب »[1] . ويتضح من النص السابق حاجة الإمام إلى السلاح فاستغلت إيطاليا هذه الحاجة لتصل إلى موقف إيجابى أكثر تحديدًا . لذلك نرى أنها لم تشترط عقد معاهدة فحسب ، بل استطاعت الحصول على موافقة الإمام على احتكار تجارة الكيروسين فى اليمن . فكانت هذه المعاهدة - فى حد ذاتها - فتحًا جديدًا لنوع من العلاقات بين البلدين ، إذ إنها بصورة عامة - فتحت اليمن - أمام النشاط الإيطالى وأنها - كما يبدو للناظر العادى فى تاريخ اليمن - قد أعطت للإمام وضعًا جديدًا وفرصًا أحسن للقيام بسياسة داخلية وخارجية أكثر فعالية . وقد كان هذا هو المنتظر عند عقد المعاهدة ، ولكننا سنناقش هذا كله عند تتبع العلاقات اليمنية الإيطالية فيما بعد .

أثر المعاهدة على علاقة الإمام بالأدارسة :

وقد كان لعقد هذه المعاهدة آثار مباشرة واضحة فى سياسة الإمام وأعماله سواء الداخلية أو الخارجية . ففى المجال الخارجى نرى أن علاقة الإمام الجديدة مع إيطاليا قد أثرت فى سياسته مع جيرانه سواء فى الشمال أو فى الجنوب .

نذكر أن السيد حسن الإدريسى عندما رأى القوات الزيدية تزحف منتصرة على الإمارة الإدريسية تلتهم أملاكها جزءًا بعد جزء ، عرض على الزيديين أن يعترفوا له باستقلاله الداخلى على أن يعترف بسيادتهم عليه ، ولكنهم رفضوا ذلك مما اضطر هذا السيد أن يلجأ لابن السعود مرة ثانية يعرض عليه نفس هذا العرض ، فقبله ابن السعود بعد أن رفضه فى نفس السنة (١٩٢٦) وعقدت بينهما معاهدة الحماية فى أكتوبر ١٩٢٦ ويبدو أن هناك صلة بين رفض الإمام للعرض الإدريسى وبين عقده معاهدة مع

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

إيطاليا ، إذ كانت « مفاوضات الصلح مستمرة بين الإمام يحيى والأمير الإدريسي »[1] ، في نفس الوقت الذي تمت فيه زيارة غاسباريني للإمام يحيى في صنعاء ، تلك الزيارة التي أدت إلى عقد المعاهدة . وهذا الترابط الزمني بين الحادثين هو الذي يجعلنا نرجح وجود أثر مباشر لعقد المعاهدة على علاقة الإمام بالأدارسة . حقيقة كان الإمام يكره الأدارسة كرهًا عميقًا ، ويود أن يخرجهم كلية من الجزيرة العربية ، ويقول عنهم إنهم أدعياء في جزء من أملاكه . وكان هذا يخالف ما يذهب إليه سابقًا - قبل الحرب العالمية الأولى - من أنه لا يريد منهم إلا الاعتراف بخضوعهم لسيادته ، وهذا ما رفضه السيد محمد الإدريسي ، ثم عاد فقبله السيد حسن الإدريسي الآن ورفضه الإمام . وحقيقة أن الإمام الآن (سبتمبر ١٩٢٦) كان نشوانًا بانتصاراته على هؤلاء الأدارسة ، وبإخراجهم من تهامة اليمن حتى ميناء «ميدى» ومحاصرته للمدينتين المركزيتين لهذه الإمارة ، وهما « صبيا » و «جيزان ». وحقيقة أن كرهه لهم وانتصاره عليهم ، يؤديان طبيعيًا إلى أن يرفض أن يكون لهم أى وجود في الجزيرة العربية مهما كان نوعه . ولكن يبدو أن علاقته مع إيطاليا وزيارة غاسباريني له كان لهما أكبر الأثر في رفضه هذا ، إذ كان يرى أن بداية العلاقة مع إيطاليا بصورة تعاهدية فعالة ستؤدى حتمًا إلى زيادة قوته ، وأن هذه المعاهدة ستمكنه من الحصول على ما يريد من السلاح ، وأن هذا بالتالي يجعله في مركز أقوى يساعده على أن يرفض مطلب الأدارسة ويطمح في تحقيق انتصارات أكبر . ولكن هذه الآمال اهتزت كلية وانقلبت على عقبيها ، وذلك عند إعلان معاهدة الحماية السعودية على ما تبقى من الإمارة الإدريسية في أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، أى عقب عقد المعاهدة الإيطالية

---

(١) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٨٥ ، في ١٩٢٦/٩/٧ (٣ صفر ١٣٤٥هـ) ص ٣. (وجاء في نفس العدد والصفحة خبر زيارة غاسباريني للإمام يحيى في صنعاء) .

اليمنيـة مباشـرة . وضـــياع آمـال الإمـام هنـا يتضـح فى أمـرين هامـين :

أولاً : كان دخـول الأدارسة تحت حماية ابن السعـود يعنى بالتـالى أن الإمام لن يستطيع أن يمد نظره مـرة أخرى إلى هذه البقاع التى كـانت قاب قوسين أو أدنى من يـديـه ، إذ لم يكن الإمـام يأمل حتى فى القيـام بمناوشـة ابن السعـود وخاصة بعد أن أصبح هذا الأخير ، الحاكم الأقوى والأهم فى كل أرجائها .

ثانيًا : الخسارة الاقتصادية التى تمثلت فى فقده - إلى الأبد - حقول البترول فى جزر « فرسـان » التى أجرها الإدريسى قبيل ذلك لشركـة البترول الآسيوية إذ أصبحت الآن تحت الحمايـة السعوديـة[1] ، هـذا فضـلاً عن ضيـاع ثـروة عسير الزراعية التى سبق الإشـارة إليها . وكان ابن السعود قد أرسل بعد عقـد معاهدة الحماية مبـاشرة صورا منها إلى الإمـام يحيى ليخبره بها ، بل تبع ذلك أنه أرسل فى صيف سنة ١٩٢٧ مندوبًا عنه إلى « صبيا » لمراقبة تنفيذها[2] .

أثر المعاهدة على علاقة الإمام بإنجلترا :

أمـا بـالنسبـة لجيران الإمام فى الجنـوب - أى إنجلترا - فقـد كـان لعقـد المعاهـدة الإيطاليـة اليمنية معـان ونتائج كثيرة كـذلك . فمما لا شـــك فيه أن الإمام كـان يرمى من وراء عقـد معاهـدة مع إيطاليـــا ، تدعيم مـوقفه أمـــام إنجلترا التى تقف منه موقفـاً معانداً بالنسبة لمطالبـه فى المحميات . فإلى جانب أن هـذه المعاهـدة ستمده بـالسـلاح ، إلا أنها كانت عـونـاً أدبيًا لـه فى معركتـه الـدبلومـاسية مع إنجلترا ، أو بـالأحرى اعتقـد الإمـام أن تعاهـده مع إيطاليـا سيساعـده على التمسك بمطالبـه فى المحميات ، وأن من حقـه الآن التشدد مع إنجلترا للـوصول إلى أغـراضه . وقـد يعبر « فيلبى » عن هـــذا المعنى ولكن فى صيغـة تعبر عـن وجهـة نظـر إنجليـــزيـة إذ قـال : « ومن المحتمـل أن يكـون

(١) H, St,Philby : Arabia,PP . 335 _ 336,

(٢) Survey of Internatioal Affairs,1928, P. 320,

الإمام قد قبل هذه المعـاهدة ليثير شعور إنجـلترا نحوه »[١]، فالإمام فى الحقيقة لا يود أن يثير مشاعر إنجلترا نحوه بـا لمفهوم الذى ذهب إليه فيلبى ، ولكنه رأى أنه فى هذا تدعيما وتقوية لمركزه أمام إنجلترا .

كان فشل مفاوضات كلايتون وعقـد معاهدة مع إيطاليا بعد ذلك بقليل ، حـدثين سياسيين فى غير صـالح إنجلترا ولو مـن الناحيـة التجاريـة على الأقل فضـلا عن الناحيـة السياسيـة ، وخـاصة وأن إنجلترا كـانت تنظر إلى كل شبـه جزيرة العـرب وكأنها « مجال نفوذ خاص » وتدعـى عليها ما يشبه « مبـدأ مونرو بريطانى »[٢] .وقد حرصت بريطانيا على إبراز هذا المبدأ ، فى المحادثات السرية بين الحـــلفاء - أثنـاء الحرب العالميـة الأولى - لتقسيم الإمبراطوريـة العثمانية بينهم ، إذ كانت سياستها حينئذ هى ضمان موافقـة حلفائها على هذا المبدأ[٣] . ولكن رغم ذلك فإنـه من النـاحية العمليـة ، نرى أنـه عنـدما عقـدت إيطاليـا معاهدتها مع الإمام ، فإنها لم تفعل ما يجعـل بـريطانيا تعترض عليه سواء مـــن الناحية القانونية أو من الناحية الأدبية ، وهـــذا ما اعترفت به إنجلترا صراحة فى محادثات ينايـر سنة ١٩٢٧ ، التى اعتبرت أنها استطلاعية بحتـه ، وأنها تتعلـــق إلى حد كبير با لمسائل الاقتصاديـــة ، فيما يخص المصـالح البريطانية الإيطالية فى البحـر الأحمر وبوجه خاص فى السواحل العربية[٤] . وفى ٥ يوليو سنـة ١٩٢٨ ، أعلن نائب وزيـر الدولـة لشئون المستعمـرات البرلمانى فى مجلس اللوردات ، أن المعاهدة الإيطالية اليمنية لم تؤثر على مفاوضات الحكومة البريطانية مع الإمام ، وأن هناك اختـلافاً كبيراً ، فى وجهات النظـر بين إيطاليا وبـريطانيا ، من نـاحية

---

(١) H, St,J . B.Philby : Arabia,P . 33 4.

(٢) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs , 466,

(٣) Survey of International Affairs, 1928, p, 313,

(٤) Ibid : p, 314,

مثل الجانب البريطـانى فى هـذه المحـادثـات سير جلبرت كـلايتـون ومثل الجانب الإيطالى المندوب السامى الإيطالى فى أريتريا « « غاسبارينى » :

المصالح ذات الأهمية فى هـذا الجزء من العالم ، وأنـه ليس هناك حاجـة إلى الخـوف من المصالح البريطـانية القـانونيـة ستعاكسهـا السـياسة أو الأعمال الإيطالية[١] . ولكن يبدو أن محادثات يناير وتصريح يوليو سـنة ١٩٢٧ ، يدلان صـراحة على قلـق إنجـلترا ، وخوفهـا الناتج من عقـد المعاهـدة اليمنية لا العكس . فمجـرد حرص إنجلترا على التفـاهم مع إيطـاليـا على مصـالحها فى السـواحل العربيـة ، دليل قوى على أن هذه المعاهدة قد أثـارت قلق إنجـلترا وانتبـاههـا لهذا الخطـر الـوافـد عبر البحـر الأحمر ، لـذلك سـارعت لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين هذا الخطر .

نتائج المعاهدة بالنسبة لإيطاليا واليمن :

ولكن ما مـدى استـفادة إيطاليا من عقـد هـذه المعاهـدة مع الإمـام ؟ وما مدى استفادة اليمن داخليًّا من هذه المعـاهدة كذلك ؟ والإجابة على هذين السـؤالين ، تحتاج إلى تتبع آثـارها على مـر التاريخ ، وهـذا سيتضح طوال عهـد الإمام يحيى . ولكن يمكن الاكتفاء الآن بـالإشارة إلى آثـار المعاهدة مـن هاتين الناحيتين .

يبدو أن اسـتفادة إيطاليـا من وراء هـذه المعـاهدة ، كانت لا تتناسـب مع أهمية المعاهدة التـاريخية باعتبارها أول معاهدة لـلإمام مع دولة أجنبية ، ومع مـا كانت إيطاليـا تنتظره من ورائهـا . فقـد كـانت إيطاليـا تعتقـد أن اليمن سـتكون مستعمرتها الهامة فى شـبه الجزيرة - كما كانت أريتريـا على الشاطئ الإفريقى - ولكنهـا لم تلق نجـاحًا يـذكر فى هـذا المجـال ، ويرجـع هـذا إلى عـدم ثقـة الإمام وخـوفه من وجـود أى نفـوذ أجنبى فى بـلاده[٢] . فـلم يفتـح الإمام فى الحقيقـة اليمن أمام النفـوذ الإيطـالى ليتغلغل بالصـورة التى أرادتهـا إيطاليا ، ولم يتح لها الفـرصة للقيام بتوسـع استعمارى أو اسـتغلالى فى بلاده .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 314.

(٢) Hans Helfritz : The Yemen, p. 125.

وكانت نية إيطاليا الاستعمارية والاستغلالية واضحة ، وتوقع العالم ظهور نتائج بعيدة المدى ، ولكن كان لموقف الإمام من الدول الأجنبية الذى اتصف بالعزلة عمومًا أكبر الأثر فى إحباطها . وقد وضحت هذه التيارات التى صاحبت عقد المعاهدة فى إشارة قصيرة جاءت فى مقالة طويلة للسيد على رضا العلوى اليمنى نشرتها له الأهرام ؛ إذ يقول : « وأما المعاهدة الإيطالية فهى معاهدة تجارية شريفة ، لا مساس فيها لاستقلال البلاد ، كما يشيعون فى بعض الجرائد . فإن المعاهدة التى عقدت هى فى مصلحة اليمن إذ تساهلت إيطاليا كثيرًا بالقياس على غيرها ، وهى معاهدة تعامل اليمن معاملة الدولة المستقلة كل الاستقلال »[1] . وقد ظل الشعور بأن هذه المعاهدة قد فتحت المجال للنفوذ الإيطالى قائمًا حتى وقت متأخر ، ففى مقالة « للمنار » عن الحرب اليمنية السعودية - عام ١٩٣٤ - إشارة إلى أثر هذه المعاهدة فقالت : ومعروف عنه (الإمام) الحذر الشديد فى فتح أصغر المنافذ للنفوذ الأجنبى فهو لم يتورط إلا فى الاتفاق المعلوم مع دولة إيطاليا ، ولكن هذا الاتفاق علمه ما لم يكن يعلم »[2] . وهذا الحديث لا يشير إلى رأى صاحبه ، ووجهة نظره من ناحية المعاهدة فحسب ، بل يشير بوضوح إلى وجود نفوذ إيطالى فى اليمن أيضًا .

وهذه الحقيقة لا يمكن إنكارها ، فمما لا شك فيه ، أن إيطاليا أصبحت بعد عقد المعاهدة أقرب الدول إلى قلب الإمام ، وأصبح لها النصيب الأكبر من تجارته ، واستفادت هى من هذه الناحية التجارية ، كما استفادت من الناحية السياسية كذلك ، وخاصة فى ميدان التنافس الاستعمارى بينها وبين إنجلترا فى جنوب البحر الأحمر .

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٥٤٦ فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٨ (١٢ شعبان ١٣٤٦هـ) .

(٢) المنار : المجلد ٣٣ ، الجزء ٥ ، ص ٣٨٥ (الصادر فى أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ -سبتمبر ١٩٣٣) .

ويعبر السيد على رضا فى مقاله سالف الذكر عن النشاط التجارى الذى دب بين الطرفين المتعاهدين فيقول : « علائق الطليان التجارية بحكومة اليمن على أحسن ما يرام ؛ والأدوات الفنية التى وردت من إيطاليا ، مثل المعامل وآلات الطحين والتلغراف والتليفونات اللا سلكية ، توزعت فى جميع أنحاء المملكة ، غير أن الطيارات التى وردت سابقًا من نوع طرز طيارات التعليم للمدرسة . والمأمول أن يأتى فى وقت قريب عدد وافر من أحسن وأعظم طراز من طيارات إيطاليا المشهورة ، مع رجال اليمن الطيارين الذين كانوا قد توجهوا لتعليم فن الطيران « برومة » وهم من خيرة شبان اليمن وأبناء أكبر علمائها »[1] . ولكن يبدو أنه حتى الناحية التجارية من المعاهدة لم تكن مفيدة تمامًا بالنسبة لليمن ، فلم يكسب كل ما كان يرجوه من المعاهدة اقتصاديًّا ، وهذا يرجع إلى غرض إيطاليا الاستعمارى من وراء المعاهدة ، وإن كان هذا لا ينفى أيضًا أنه حصل على ما يريد من السلاح ووصلته بعض الآلات ، وكذلك الفنيين والأطباء .

وهناك رأيان مختلفان فى عدم استفادة اليمن من الناحية التجارية . أما الأول فيرى أن عدم الاستفادة ناتج من عدم استعداد اليمن لاستخدام الآلات أو الأخذ بأسباب الحضارة . والرأى الآخر يرجع عدم الاستفادة إلى عدم صدق نية إيطاليا فى المعاونة ، وعدم إخلاصها تجاه حليفها . ويرجع عدم الإخلاص إلى أنه كان تحالفًا غير متكافئ من ناحية القوة ، وإلى خوف إيطاليا من نتائج المعاونة المخلصة وتعارضها مع أغراضها الاستعمارية . ويلاحظ أن كلا الرأيين ذكرا بعد ١٩٣٠ ، وأنهما لأجنبيين

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى البلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) الأهرام : (من مقالة السيد على رضا) العدد ١٥٥٤٦ فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٨ ، ص ١ .

عن اليمن ، وأن رأييها يعبرا عن مشاهدتها لآثار هذه المعاهدة . وصاحب الرأى الأول هو هانز هلفرتز ، وهو رحالة ألمانى زار اليمن لمشاهدة آثاره فيقول : «..أرسلت إيطاليا الأطباء ، والفنيين ، والميكانيكيين ، ورجال الطيران .. ولكن الأطباء لم يجدوا مجالاً لهم فى اليمن فاختفوا الواحد وراء الآخر ، وكان نفس الشيء بالنسبة للفنيين لأن البلاد لم تكن معدة بعد للأعمال الميكانيكية . كما أن أغلب الآلات لم تصل للعاصمة ، فإنه من الممكن رؤية صناديق كبيرة نصف مفتوحة ، ومعها أجزاء ميكانيكية وعليها علامات إيطالية ما زالت ملقاة على طول الطريق من صنعاء إلى الحديدة ، حيث كانت القوافل تتخلص من هذه الأحمال الثقيلة غير العادية على طول الطريق . وقد استولى البدو على هذه الصناديق المهجورة ، وبقيت فقط الأجزاء الحديدية التى لا يمكن الاستفادة منها . وعلى كل حال لقد استقبل الإمام هذه المخترعات الحديثة التى وصلت صنعاء بشغف ، فقد كان من بينها الأسلحة التى يريدها . وقد أرسل الإمام بعض الشباب اليمنى إلى مصر ، لدراسة الطيران . كما أسس مدرسة فى صنعاء لتدريس بعض أمور الطيران ، ولكن لسوء الحظ كان الله ضد هذا التجديد (يعبر هنا عن وجهة نظره فى موقف الإمام الدينى ، فيرى أن الإمام اعتقد أن التجديد ضد رغبة الله) فقد سقطت إحدى الطيارات ذات يوم قرب صنعاء ، وكان بها أحد أفراد الأسرة المالكة ، فمنع جلالة الإمام الطيران من اليمن »[١].

ثم يواصل « هانز » كلامه فى تحليل آثار المعاهدة ، وأنه راجع إلى عدم إمكان نقل دولة شرقية متخلفة حضاريًا مثل اليمن طفرة واحدة ، لتعيش فى مستوى أو بمفهوم دولة أوروبية مثل إيطاليا ، أى أنه يرجع عدم استفادة اليمن بمعاهدتها مع إيطاليا إلى وجود فوارق حضارية بين الدولتين

(١) Hans Heltritz : The Yemen p. 125 - 126.

المتحالفتين ، ثم يعقب على ذلك بأن الإمام كان يقيم دعائم حكمه على أساس ديني ، ويخاف دائمًا الاصطدام بين الدين والتجديد ، حرصًا على القاعدة التي يقوم عليها حكمه من أن تهتز أو تختل .

أما الرأى الآخر في عدم استفادة اليمن اقتصاديًا من عقد المعاهدة فكان لنزيه العظم فيقول : « لم تف إيطاليا بما جاء في نص المعاهدة التي عقدتها مع جلالة الإمام ، وهذا دائمًا شأن تعاقد الضعيف مع القوى . ومثالاً على ذلك أن جلالة الإمام يحيى طلب منها بنية سليمة صافية شراء بعض الطيارات الحديثة ، والمدافع الضخمة والرشاشات والبنادق إلى غير ذلك من العتاد الحربي . فما كان من الحليفة الغيورة على مصالح حليفها ، إلا أن جلبت له طيارات قديمة وغير قابلة للاستعمال ، ولما طار بها أحد الطيارين في صنعاء ، بصحبة واحد من السادة رجال الإمام سقطت الطيارة فورًا ، وقتل السيد والسائق ، وكان لهذه الحادثة أسوأ وقع في نفوس اليمنيين ، وجعلهم يتخوفون من الطيران والطائرات ، فلا يقدمون على المجازفة بجلب الطيارات ، ومنع جلالة الإمام بعثة الطلبة اليمنية التي ذهبت إلى إيطاليا لدرس فن الطيران ، والتي عادت إلى اليمن أثناء العطلة المدرسية ، من العودة إلى إيطاليا ثانية . ويغلب على ظني أن الطليان تعمدوا بيع طائرات قديمة إلى اليمن أولاً حتى لا تستفيد حكومة اليمن منها شيئًا ، وثانيًا حتى لا تجازف هذه الحكومة الفتية في المستقبل بشراء الطائرات ؛ إذ من البديهي أن إيطاليا الطامعة في هذا الجزء من البلاد العربية لا ترغب أن توجد فيه حكومة قوية لديها معدات حربية صالحة للنزال والقتال .. »[1] ، ويواصل نزيه العظم إعطاء الأمثلة فيقول : « إن البنادق كانت غير صالحة للاستعمال ، وأنها من طرز قديمة غنمتها إيطاليا من النمسا في الحرب العالمية الأولى ، وكان يجب إعدامها ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العربية السعيدة جـ ١ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وحتى إذا كانت البنـادق جديدة ، فإنها من النوع الـردىء » . ويعطى مثلا آخر على استغلال إيطاليا ، فقد « باعت معملاً ميكـانيكيًا قديماً للإمام جلبته له من مصوع ، وكلفتـه الكثير جدًا على تـركيبه وتصليحـه وترميمـه ولكن دون فائدة ، وذهبت أموال الإمام جزافًا » .

كما يشير فى حديثه إلى البعثـة الفنية الإيطالية لليمـن ، وأنها غير فنية أيضًا فضـلاً عن أنها كانت تسىء معـاملـة الأهالى ، فيقـول عنها : « وقـد شاهـدت بعضهم (الفنيين) وضعـوا مضخة ميكـانيكية على غيل (مجرى المـاء الصغير يسمونه فى اليمن « غيل ») بالقرب من صنعاء ، ليرفعوا ماء هذا الغيل من منبعه إلى مجراه الذى يعلوا عن النبع أيام القيظ لقلـة المـاء ، ولشدة جهلهم رفعوا المـاء إلى علو خمسة أمتـار ، ثم حدروه إلى مجرى المـاء أربعة أمتـار ، وكان بوسعهم أن يرفعوه مترًا واحـدًا ، ويصبوه فى مجرى المـاء ، وبذلك يوفرون عمـلا ووقوداً . وقد لفت نظـر واحد من اليمانيين القـائمين على سير هـذا الأمر ، فأجـابنى أن الحق بيدك ، وقد لفت نظر المهندس الطليـانى غير واحد منا إلى هذه العملية الخاسرة فكان نصيبنا التوبيخ »[1] .

ورغم أن كلا الـرجلين - صاحبا الـرأيين السـابقين - يعـبر عن وجهـة نظره الخاصـة أولاً وأخيرًا ، إلا أننا نرى أن كلا الـرأيين يحمل كثيرًا من الصحة . ويتضـح ذلك من مـوقف الطرفين المتحـالفين من المعاهـدة ، فإيطاليـا تنظـر لليمن وكأنه « مجال نفـوذ » و « موطئ قدم على الشـاطئ العربى » و « ميـدانًا لمنافسـة إنجلترا فى جنـوب البحـر الأحمـر » و « سـوقًا تجاريًا » و « توسـع جديد » وهـذه الأغراض كلها لا تحمـل أقل إشـارة إلى أن إيطاليـا ترغب فى

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة جـ ١ ، ص ٢١٦ .

خدمة الإمام ، ورفع مستوى اليمن ، بل هى إن فعلت ذلك فلن يكون أكثر من وسيلة إلى غايتها .

أما نظرة الإمام فكانت تختلف ، فهو يرى فى إيطاليا : « حليفًا قويًا » و « سندًا أمام عدو عنيد » و « مصدرًا للحصول على الأسلحة » و « ورقة يلوح بها أمام إنجلترا » وأخيرًا « معينًا لتنفيذ الإصلاحات الداخلية » . وكان اليمن يحتاج إلى كثير للنهوض وللسير فى ركب العالم المتحضر ، ولكنه كان فى نفس الوقت يحمل فوق كتفيه تراثًا خاصًا ، وآثارًا تاريخية تزيد من أعبائه ، وكانت تقاليده وتاريخه وتراثه - التى تمسك بها الإمام يحيى - من أكبر العقبات فى سبيل التقدم السريع ، أو تقبل مظاهر الحضارة بالسرعة التى تمكنه من اللحاق بالركب المتحضر حتى فى بقية بلاد الشرق الأوسط .

ونحن لا ننفى ما للمظاهر الداخلية والظروف الخاصة باليمن ، من أثر فى عدم الاستفادة من المعاهدة ، بل نقدر ما لها من آثار على تحديد مدى الاستفادة ، ولكننا لا ننكر فى نفس الوقت نوايا إيطاليا وأغراضها من التحالف ، وأنها السبب الأول فى تحديد مدى الاستفادة أيضًا . ويذهب نزيه العظم نفسه هذا المذهب ، فهو يعيب على المستشفى التى أسستها إيطاليا فى صنعاء ، وأنها كانت فى حالة بدائية ومهملة ، ويهاجم الأطباء الإيطاليين كثيرًا ، ويحملهم مسئولية فساد هذه المستشفى ، وغيرها فى باقى اليمن ، ولكنه فى نفس الوقت لا ينكر أن اليمنيين كانوا لا يؤمنون كثيرًا بالطب والتطبيب ، وخاصة الحديث . إلا أنه يعود للدفاع عن هؤلاء بقوله : « إن هذه الظاهرة منتشرة ، عند كل العرب فى الجزيرة لا عند اليمنيين فقط » . كما يرجع نفور اليمنيين من الطب إلى: « أن الأطباء إيطاليين وليسوا من جنسهم أو دينهم »[1] . ويمكن أن نخلص من هذا كله بنتيجة هامة ،

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة جـ ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

وهى أن الإمـام – وليس شعـب اليمن – هـو الـذى استفـاد بعقـد المعـاهـدة مع إيطاليا .

وكيفما كان الأمـر فقد كـانت هذه المعاهـدة بداية عهـد جديـد فى تاريخ العلاقـات اليمنية الإيطـالية ، وقـد قام « سيف الإسـلام محمد ابن أمير المؤمنين الإمام يحيى للسياحة إلى إيطاليا ، لمشاهدة تلك الأصقاع والاطلاع على تنظيمها، وكان بصحبتـه جملة من السادة والعلماء والأفـاضل . وبعد شهر رجعـوا ، وكان صحبتهم سعادة الوالى غسبارينى حـاكم الأريتريا ، وقد حصل لهم الاحتفالات والاستقبـالات مما يطـول شرحـه »[1] . وكـانت هذه الـزيارة تتـويجًا للعلاقـات الجديدة ، وتدعيماً إيجابياً لها فى دورها الجديد . وقد استمرت هذه الزيارة من ٢٤ يـونية – إلى ١٣ يـوليو سنـة ١٩٢٧ ، وقد أعطيت البعثـة فرصـة كبيرة لمشاهـدة بعض نـواحى الحياة الإيطـالية ، وزيـارة المنشآت الصنـاعية فى مختلف نـواحى إيطاليا كما استقبلها كل من ملك إيطـاليا ، وكذلك موسيلينى »[2] . وكان لهذه الزيارة نتيجة اقتصادية هامة ، فقد أبرم الطـرفان اتفاقية تجارية إضافية ، خاصة بشراء اليمن للأسلحة من إيطاليا[3] .

حوادث سنة ١٩٢٨ على الحدود الجنوبية :

بينما كانت علاقـات الإمام بإيطاليا قد بـدأت تسير فى إطار ودى ، كانت علاقـاته مع بـاقى المجالات يسـودها التـوتر بل والفشل . ففى الجنـوب كانت علاقـاته مع بريطانيـا – لاحتـلاله جزءًا من المحميـات – قلقـة مضـطربة ، وخاصة بعد أن فشلـت بعثة كلايتون ، وما تلا ذلك من تقـرب نحـو إيطاليـا ، فى علاقـة تعاهـدية إيجـابية . وكانت إنجـلترا تتخذ موقفًـا معينًـا ، هو رفض مطالب الإمـام فى المحميـات وتـردد أنه بـالرغم من حـرصها على الـوصول إلى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٦ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928 pp. 314 - 315.

(٣) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 457.

تســـوية ودية للأمور المختلـف عليها ، إلا أنها لا تســـتطيع أن تعترف لـلإمام بأى حقـوق فى محمية عـدن ، مهما كانت هـذه الحقوق ، وكـانت تحذره دائمًا بأن اســـتمرار احتلالـه لأجزاء من المحميـة ستجعله مسـئولاً عن مقابلتهـا لموقفه هـذا بالقوة[١] .

وكانت بريطانيا تستند فى موقفها هذا إلى رغبة القبائل المحمية - كما كانت تـردد دائمًا - إذ كـانت تـذهب إلى أن قبـائل محمية عـدن ورؤسـاءهـا المحليين يرفضـــون مطـالب الإمـام فى أقاليمهم ، وبـالتـالى فإن بريطـانيـا ترفض هـذه المطالب لأن قبـولها إياها نقضًا لمحالفتهـا مع هؤلاء[٢] . ويعبر العبدلى - وهـو أحد أفـراد أسرة العبادلـة سلاطين لحج - عن وجهـة النظر الإنجليـزية هـــذه بمثال عملى فيقول : « وكان قد نفـد صبر الردفانيين (من آل القطيب) من سوء معـاملـة أمير جيش « قعطبة » السيـد يحيى (من أتبـاع الإمـام) فكتب الشيخ حســن على[٣] إلى والى عـــدن بـــذلك ، وأن آل قطيب مـا زالـــوا يتمســكون بـالحمايـة ، مخلصين للـدولـة ، ثـم جـاء الشيخ حسن على وزعماء آل قطيب إلى عـدن فأكـــرمهم والى عـدن وأمـرهم بأن يعـــودوا إلى بـلادهم ، وأن لا يحـدثوا أى اعتـداء على الحاميـــة الإماميـة التى فى بلاد البـكرى . بل يبـــلغوا الحـكومة عن أى اعتداء جديد حالا . وفى شهر ربيع الثانى، من تلك السنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م) ألقت الطيـارات البريطانيـة على مدن اليمـن منشـــورًا أنذرت فيـه الزيود بأنـه عند حـدوث أى تعدٍّ جديـد من العسـاكر الزيديـة سـيقابل بإلقاء القنابل »[٤] .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928 p. 315.

(٢) Railly : Aden and the Yemen, p. 18.

(٣) تـولى الشياخـة بعد وفـاة جـدة فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ - حوالى سبتمبر سنـة ١٩٢٧.

(٤) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٧٣ .

وقد حدث فى ٨ فبراير سنة ١٩٢٨ ، ما حول التوتر القائم بين الإمام وبريطانيا إلى حرب فعلية ، فقد هاجم فريق من جيش الإمام « بلاد آل قطيب واختطفوا الشيخ مقبل عبد الله عم شيخ آل قطيب ، والشيخ آل على فأنذرت الطيارات أمير جيش قعطبة ، أن يرفع النساء والأطفال فى ظرف ٢٤ ساعة ، وابتدأ إلقاء القنابل بعد انتهاء تلك المدة فعلا ، واستمرت ثلاثة أيام »[1] .

وقد أجمل شرح تطور العلاقات بين البلدين فى الفترة الأخيرة ، تصريح المستر إمرى وزير المستعمرات فى مجلس العموم البريطانى فى ١٢ من مارس سنة ١٩٢٨ ، فقال : « إن إمام صنعاء احتل أجزاء من بلاد عدن الواقعة تحت الحماية ، وقد جرت مساوضات منذ بضعة سنوات لتسوية هذه المسألة . ففى سنة ١٩٢٦ ، أرسلت الحكومة البريطانية بعثة إلى صنعاء لهذا الغرض ، ولكن الإمام رفض الانسحاب ، فأبلغ أن الحكومة البريطانية مع رغبتها فى الوصول إلى تسوية ودية للمسائل المختلف بينها وبينه ، لا تستطيع أن تعترف بأن له أى حق فى بلاد عدن المحمية ، وحذرته بأنه إذا ظل يحتل أجزاء منها فإنه يتعرض للمقابلة بالقوة . وعلى الرغم من هذا التحذير توسعت قوات من الزيديين فى تقدمها إلى الأمام فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٧ ، ولم تنسحب إلا عندما أنذرتها الطيارات بضربها ، وعند ذلك ألقت الطيارات أيضاً تنبيهات على أهالى مدن مختلفة فى اليمن بأنه إذا هوجمت البلاد المحمية ، فإن الطيارات تضرب تلك المدن . وفى ٨ فبراير اختطف الزيديون شيخ علوى وأحد أقارب شيخ « قطيبى » وكلاهما يحق لهما بموجب معاهدة أن يتمتعا بحماية الحكومة البريطانية ، وبعد ٤٨ ساعة أرسل تحذير بأن الطيارات ستضرب « قعطبة »

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٣٨٣ .

المعروفة بأنها المركز الرئيسى للقوات الزيدية المسئولة عن الاعتداء »[١] . وكانت بريطانيا حريصة دائماً على تأكيـد المعنى الأخير وهو أنهـا ما كانت لتضرب « قعطبـة » بالقنـابل لولا أنها مـركز رئيسى لتجمع القـوات الزيـدية ، وأن هـذا التجمع هو المسئول المباشر عن انتهاك حرمتها[٢] . وكيفما كان الأمر فقد حدث الضرب بـالقنابل فعـلا . وقد عبر عن ذلك السير صمـويل هور وزيـر الطيران البريطانى فى رده على سؤال فى مجلس العموم البريطـانى وجه إليه فى ١٤ مارس سنـة ١٩٢٨ ، فقال : « إن الطـائرات ألقت القنـابل على معسكـر الزيـديين فى قعطبة خمسـة أيام متفرقـة ، وعلى مركزهـم فى الضالع يومـاً واحداً ، وأن الأعمال الحربية ما زالت مستمرة »[٣] . وسواء كان الإنذار بالضرب لمدة ٢٤ ساعة أو ٤٨ سـاعة ، أو استمـر مدة ثـلاثة أيـام أو خمسة أيـام أو أكثر ، فقـد تحولت الحرب البـاردة بين اليمن وإنجلترا إلى حرب سـاخنة . وبـديهى أن نتصور أن القـوات الجوية البريطانية لم تكن فى معركة جـوية أو ما يشبه ذلك ، فهى لم تعان شيئاً فى هـذه العمليات ؛ إذ لم تكن اليمن تمتلك سـلاحاً قـويًّا ممـاثلا ، أو حتى مـدافع مضادة للطـائرات ، فكان الجو خالياً تمامـاً أمام الطائرات البريطانيـة لتلقى ما تشاء ، سـواء قنابل أو منشورات أو حتى زهـوراً جميلة . ويذكـر عبد الله الجرافى سبباً - يعبر عن وجهـة نظر عـربية بحتة - لهذه العمليـات الحربية ، فلم يـذكر قصة خطف هـذين الشيخين المحميين ، بل قال : « وفى سنـة ١٣٤٧ (التاريخ خطأ وصحته ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) على أثر التجاء بعض أمراء قبائل النواحى الواقعة بجوار عدن إلى حكومة الإنجليز فراراً من أداء بعض الواجبات الزكوية ، ومنهم أمير الضـالع نصر بن شـائف الحالى ، وبعض آل قطيـب ، أرسلت حكـومة عـدن طـائراتها التى ألقت قنـابلها على بعض مـدن اليمن »[٤] ، فهـو

(١) الأهرام العدد ١٥٥٨ فى ١٣/٣/١٩٢٨ (٢١ رمضان ١٣٤٦هـ) ص ٣ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp, 315-316.

(٣) الأهرام : العدد ١٥٥٨٤ فى ١٥/٣/١٩٢٨ (٢٣ رمضان ١٣٤٦هـ) ص ٣ .

(٤) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٧ .

يرجع السبب إلى فرار بعض أمراء المحميات الخاضعين للإمام حينذاك من الواجبات المالية المفروضة عليهم ، ولكن إنجلترا كانت تعبر عن ذلك دائماً بأن هؤلاء الأمراء يرفضون حكم الإمام فى أقاليمهم ، وهذا ما يجعلهم دائماً يستحثون الإنجليز للدفاع عنهم .

وقد ألقت الطائرات البريطانية منشوراً فى ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٦هـ ١٧ مارس سنة ١٩٢٨ (يمكن أن نعرض نصه ليتضح الأسلوب الإنجليزى فى هذه الفترة ، وبالنسبة لتلك المشكلة ، ونعمق الصورة التاريخية بعرض جوانبها المختلفة ، قالت فيه :

« إلى أهل المذهب الشافعى فى اليمن وفى المحمية البريطانية » .

بعد السلام :

أولاً : لقد علمتم أنه بناء على انتهاك حرمة المحمية البريطانية من الإمام والزيود وتعديهم عليها أجبرنا على إلقاء القنابل على حامية الزيود .

ثانياً : بما أن هذه الحاميات أقامت نفسها بينكم ، فلعلكم قاسيتم من تأثير هذه القذائف ما قاسيتم ، فذلكم ذنب الزيود لا ذنبنا حسبما قد علمتم بذلك بدون شك .

ثالثاً : كل محل ليس فيه حامية زيدية لن يصير عليه رمى القذائف من طياراتنا إلا إذا أعان سكان ذلك المحل الزيود بأى وجه من الوجوه .

رابعاً : لكى تعيدوا (تحتفلوا بالعيد) فى أمان نعلمكم أن طياراتنا لن ترمى القذائف فى أيام العيد ، وذلك بتاريخ ٢٩ ، ٣٠ رمضان ، وتاريخ ١ ، ٢ شوال سنة ١٣٤٦هـ الموافق ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ مارس سنة ١٩٢٨ إلا إذا حصل شيء من الزيود يؤدى إلى لزوم الضرب ، فإذا حصل رمى بالقذائف فى تلك الأيام ستعرفون أن الزيود هم المسئولون بذلك .

خامساً : وبما أن طياراتنا ستطير فى تلك الأيام ، ولكن ما لم يحصل شىء من الزيود ، كما ذكرنا أعلاه ، فإن طيرانها سيكون للكشف لا لرمى القذائف . والسلام »[1] .

وقد أردنا ذكر نص المنشور هنا لملاحظة أن بريطانيا تحرص على إبراز أمرين :

أولاً : وجود جماعتين مختلفتين متنافرتين فى اليمن وفى الجنوب العربى بوجه عام هما الشوافع والزيود ، وتحب دائماً تأكيد الخلاف بينهما وإبرازه ، وذلك للاعتماد عليه طبقاً لسياستها « فرق تسد » فهى لذلك توجه المنشور « إلى أهل المذهب الشافعى فى اليمن وفى المحمية البريطانية » وكان يمكنها أن توجه المنشور إلى « أهالى اليمن والمحميات » عموماً دون التخصيص ، لولا هذا الغرض الخاص الذى تسعى إليه دائماً .

ثانياً : تحب بريطانيا - وهذا واضح من نص المنشور كذلك - إلقاء مسئولية قذف القنابل على الإمام وقواته ، وتبرئة نفسها من هذا العمل الوحشى . فتوضح هنا أنها مدفوعة ، ومجبرة ، ومضطرة لإلقاء القنابل ، وأن الزيود هم المسئولون . ولتأكيد ذلك تقول إنها لن تقوم بأعمال حربية جديدة فى أيام عيد الفطر إلا إذا تحرك الزيود بعمل عدائى جديد ، وكأنها بذلك تلبس ثوباً إنسانيًّا جميلا .

ونعتقد أن غرض بريطانيا السياسى من إلقاء مثل هذه المنشورات أهم عندها من غرضها الحربى ، فهى تستغل هذه المناسبات لتأكيد نفوذها بين هذه القبائل ولتعطى نفسها صورة معينة ، وهى أنها الحامية لهم ، الساهرة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

على مصالحهم وحمايتهم ضد الإمام وجنده المعتدين . وكان الإمام بسياسته العتيقة مع قبائل المحميات يعطى بريطانيا هذه الفرصة . فسياسته – سواء مع هذه الجهات أو مع القبائل التى تخضع له فى داخل اليمن – كانت تقوم على القهر التام وأخذ الرهائن ، مما كان يجبر سلاطين المحميات إلى الالتجاء إلى عدن .

وقد كان من جراء هذه العمليات الحربية التى لا قدرة للإمام حيالها أن طلب هدنة لمدة ثلاثين يوماً لإجراء مفاوضات عامة ، فقبلت بريطانيا هذا الطلب بعد أن أفرج الإمام عن الشيخين المحميين ، وبدأت الهدنة فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨[1] .

« وفى شوال سنة ١٣٤٦هـ (١٢ أبريل ١٩٢٨) توجه السلطان عبد الكريم فضل (سلطان لحج) والميجر فاول معاون والى عدن ، والسيد علوى بن حسن الجفرى إلى تعز للمفاوضة ، ولم تسفر المفاوضة عن نتيجة ، فقد كان أمير جيش تعز لا يملك التفويض للبت فى الأمر ، بل رفع مضمون المخابرة للحضرة الإمامية وعاد السلطان من طريق ماوية برا ، والمعاون عن طريق المخا فكمران فعدن »[2] . حقيقة كان من عادة الإمام ألا يوافق على أن يعطى مندوبيه أية سلطات لازمة لتمثيله ، بل كان يحرص دائماً على أن يرجع إليه فى كل صغيرة وكبيرة قبل البت فى الأمور ، ولذلك سارت المحادثات فى « تعز » غير رسمية . وقد عرض وفد عدن آراءه واستعداد حكومة « جلالة ملك بريطانيا » لعقد معاهدة محدودة فى أقرب وقت ، وتشمل الاعتراف باستقلال الإمام فى اليمن ، على أن يعترف الإمام بحدود محمية عدن كما كانت ، مع تعديل محدود لصالحه . وتعهدت بريطانيا فيها أيضاً بتقديم المساعدات التى يمكن أن

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p, 316.

(٢) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٣٨٤ .

تقدمها فى حدود ارتباطاتها الدولية . هـذا وقد مدت الهدنة إلى أول يونية لإعطاء الإمام الفرصة للتفكير فى هذا الاقتراح ، ولكن الإمـام عاد وطلب مد الهدنة أكثر من ذلك أى إلى ١٧ يوليـه ١٩٢٨ فوافقت بريطانيـا على هذا المد بشرط أن يخلى الإمام مدينة الضـالع فى ٢٠ يونية[1] . وعندئذ أسرعت بـريطانيا بتـوزيع منشور بـالموقف القـائم بينهـا وبين الإمام على جميع الأمـراء والمشـايخ والسـلاطين فى المحمية – وذلك على عادتها – حتى توضح سلامة نيتها أمامهم ، ونص المنشور هو : « إن الحالـة الحاضرة بين الحكومة البريطانيـة وسعادة الإمام ، هى أنـه بناء على طلب الإمام ، فحكومـة جلالة ملك بريطانيا سمحت بـامتداد أجل الهدنة إلى تاريخ ١٧ شهر جولاى (يولية) سنة ١٩٢٨ الموافق ٢٩ محرم سنة ١٣٤٧هـ على شرط أن سعادة الإمـام يخلى مدينة « الضـالع » فى تاريخ ٢٠ جون (يـونية) سنة ١٩٢٨ الموافق ٢ محرم سنة ١٣٤٧هـ ، كفالة لحسن نيته » حرر فى يونية سنة ١٩٢٨ ، ووقعه الميجر « فاول » قائمقام والى عدن[2] .

وتحاول إنجلترا فى هذا المنشور أيضاً إحراج الإمام أمام أهالى المحميات مع إظهار أنها فى وداعـة الحمل ، فقد ألقت التبعة كلها على الإمـام ، وطلبت منه أن يظهـر حسن نيته بإخـلاء (الضـــالع) . هـــذا فى الوقت الـذى كان الإمـــام يعتبر (الضـالع) جزءاً مـن أراضيه ، وأنهـم مغتصبـون ، وأن احتـلاله لها كلفـه الكثير من الرجـال والأموال ، إذ إنه قـام باحتلالها فى سنـة ١٩١٩ ، واستمر بها حتى سنة ١٩٢٨[3] .

لهذا كان الإمـام يرى أنـه من الصعب عليه أن يخلى هـذه البقاع بسهـولة ، وهـــذا ما حـدث بـالفعل ، فقـد تجددت الحرب ثانيـة ، وألقت الطـائرات أولاً

---

(١) Survey of International Affairs, p, 316.

(٢) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٥ .

(٣) Survey of International Affairs, p, 317.

منشوراً تحذر بأنها ستلقى القنابل على بعض المدن اليمنية لإخراج القوات الإمامية من المحمية ، ثم بدأت العمليات الحربية - بعد إعطاء فرصة أربعة أيام - فى ٢٥ يونية ، واستمرت حوالى ١٤ يوماً ، ولكنها كانت مدة غير متصلة ، وكان من بينها يوم هوجمت فيه « تعز » نفسها . وقد أدت هذه العمليات إلى أن سحب الإمام قواته من الضالع فى ١٤ يولية سنة ١٩٢٨ . وقبل نهاية نوفمبر من نفس السنة ، كان قد تم إخلاء كل البلاد المحمية . عدا جزء من يافع ، وحوالى نصف إقليم العوذلى ، كانا لم يتم الاتفاق عليهما بعد . وكان الإمام قد أرسل خطاباً إلى عدن ، فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ ، يطلب إعادة فتح باب المفاوضات فوافقت إنجلترا ، وطلبت منه إرسال مندوب لعدن لبحث مراحل الاتفاق التمهيدى[١] .

وقد أدى إلقاء القنابل على جنوب اليمن ، وفى المحميات ، إلى مآسٍ كثيرة . وقد وصف هذه الأحداث الأليمة ، رجل تركى الأصل يدعى محمود مصطفى ، بقى فى اليمن بعد خروج الأتراك منه ، وكان معاصراً لما حدث - وقد روى لنزيه العظم وصحبه صورة منها ، حيث كان فى تعز ، وفى المنطقة التى ألقى عليها البريطانيون قنابلهم - فقال : « طلب البريطانيون من الإمام أن يتخلى لهم عن « الضالع » و « جليلة » و « قعطبة » وألقوا بعض المناشير على « تعز » و « ماوية » و « إب » ، فيقولون فيها إنهم سيلقون قنابلهم على هذه البلاد إن لم تخل جنود الإمام « الضالع » و « جليلة » و « قعطبة » . وحددوا يوماً للضرب ، ومن البديهى أن جنود الإمام ما أخلت هذه الأماكن ، لذلك جاءت فى اليوم المذكور أسراب كثيرة من الطائرات ، وألقت قنابلها على جميع البلاد التى ذكرتها ، وألقت القنابل أيضاً

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٦٨١ فى ٣ يولية سنة ١٩٢٨ (١٥ محرم سنة ١٣٤٧هـ) ص ٣ .

على قرية « شهاب » الواقعة بالقرب من « ماوية » فقتلت ولدين ، وضربت قرية « عمر الصعدة » فجرحت أربعة من الجنود . وأما فى « تعز » المدينة الكبيرة الآهلة بالسكان ، فقد كانت الخسارة جسيمة جدًّا ، إذ بلغت نحو ٣٠٠ شخص بين قتيل وجريح ، ومعظمهم من الأولاد والنساء ، وفى « يريم » قتلت امرأتين ورجلين ، وفى قرية « النادرة » امرأتين . ومعظم هذه القرى التى ألقت الطائرات قنابلها عليها ، لم تكن داخلة فى الإنذار ، وعلاوة على إلقاء القنابل كانت الطائرات تمطر الناس فى الطرقات العامة ، وابلاً من رصاص رشاشاتها ، وقد أحدث الرصاص ضرراً جسيماً بأبناء السبيل ، كما هدمت القنابل كثيراً من المنازل والدور فى البلاد التى أنذرت ، والتى لم تنذر ... إن أهالى اليمن من أقصاه إلى أقصاه جزعوا جزعاً عظيماً من الطائرات ، وكانوا حينما يرونها يعدون أمامها ذات اليمن وذات اليسار ، واستولى الخوف والذعر على قلوبهم ونفوسهم »[١] . والغريب أن هناك من كان ينظر إلى أحداث إلقاء القنابل وما يترتب عليها نظرة أخرى ، تتركز أساساً حول نتائج النصر التى أحرزتها هذه الطائرات ، وما نتج عنها من تسوية للمشاكل القائمة ، دون النظر إلى أى اعتبارات إنسانية أخرى .

فيصف العبدلى هذه الأعمال الحربية بطريقة أخرى ، ليقول : إنها ساعدت أمراء المحميات على دخول أراضيهم ، وطرد الحاميات الإمامية ، وإن بعض الضباط الإنجليز كانوا يشاركون هؤلاء الأمراء فى زحفهم على المحميات الإمامية وكذلك ضباط اللا سلكى (لمخابرة الطائرات) .

ثم يذكر أنه لم يكن هناك خسائر كثيرة فى الأرواح بين الجيوش المتحاربة ويرجع ذلك إلى فضل الطائرات ، فيقول : « وكان هذا الاقتصاد

---

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فى سفك الـدماء من فعل الطـائرات التى جـاءت بالعجب ، وروعت الطـرفين المتخاصمين من العرب ، وأعـادت للبلاد الطمأنينة المفقودة منذ انحـدر الباشا على سعيد ... »[١] .

ولكن العبدلى نفسه يصور فى لقطة أخرى ؛ مدى ما أصاب الجنود الزيدية من رعب وخوف من أعمال الطائرات ، فيقول يصور حـالة الحامية الزيدية التى كانت فى الضالع ، وما أصابها من رعـب « وثبت لعـامل الضالع (الزيدى) أن مـا يملك جنده مـن عدد وعـدة وشجـاعة ، لا يجدى نفعـاً فى مقـاومة سـلاح الطيران البريطانى والقـذائف الجهنمية المهلكة ، حتـى سمع من غير واحد من رجـاله مـن يقول لـه : نحن لا نحـارب من فى الأرض ومن فى السماء »[٢] . وقد سجلت هـذه الأحداث فى شعـر عربـى ، وأجمل ما فيـه فى الحقيقة ظهـور تلك الروح العربية القديمة ذات المفهوم الخاص عن الحرب ، وأن الشجاعة هى نزال وجهـاً لـوجه ، كما يظهـر أيضـاً الإحسـاس المرير بـالنقص فى وسـائل الحرب ، وبالذات فى امتلاك الطائرات ، ويتضح هـذا بجــلاء فى قصيدة للقاضى يحيى ابن محمد الاريانى[٣] .

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٦ .

(٣) الجرافى : المتقطف فى تاريخ اليمن ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

يـا بـريطـانيـا رويـداً رويـداً ... إن بطش الإلـه كـان شـديـدا
إن بطش الإلـه أهلـك فـرعـو ... ن وعـاد من قبلكم وثمـودا
إن هـذا الفسـاد فى الأرض والهدم ... لهذه البيـوت ليس سـديـدا
لا تظنـوا هـدم المدائن يـوهى ... عـزمنـا أو يلين بـاسـاً صلـودا
إن هـذا هـو التـوحـش إذا جئـ ... ـتم بما ليس عنـدنـا مـوجـودا
فـالنـزال النـزال إن كنتم ممـ ... ـن لدى الحرب لا يهاب الجنـودا
لتروا مـن يبيت منـا ومنكـم ... مـوثقـا عنـد خصمـه مصفـودا
إنكم لـو نـزلتمـو لـرأيتم ... كل ذى شـدة تـذيب الحديـدا
ورأيتم منـا بكـم فتكـات ... صادقـات عظمى تشيب الـوليدا

« قالها القاضى يحيى بن محمد الاريانى فى قصيدته »

وعلى كل حال لقد وصل الأمر فى نهاية عام ١٩٢٨ ، إلى حالة أكثر استقراراً وهدوءا ولو من الناحية الشكلية ، وهنا اتفق الطرفان على المفاوضة ولكن يجب ملاحظة أن هذا الاستقرار ، وبدء المفاوضات ، كان مفروضاً من جانب بريطانيا فرضاً ، فقد نجحت فعلا - بواسطة طائراتها - فى حل المشكلة القائمة بينها وبين الإمام ، وهى تتمثل أساسا - من وجهة نظرها - فى إخراجه من المحميات أولا وقبل كل شيء . وقد عبر عن ذلك ، فى رد ممثل الحكومة على سؤال فى مجلس اللوردات فقال :«حتى الآن أسفرت المساعى التى بذلت للوصول إلى تسوية مع الإمام يحيى عن نجاح عظيم ، وقد جعلت قاعدة المفاوضات معه ، على أن تعترف الحكومة البريطانية باستقلال اليمن استقلالا تاما ، وأن أى اتفاق يبرم معه يجب أن يتضمن مادة تعين حدود اليمن بلاد الإمام . وقد خول المعتمد السياسى فى عدن سلطة تامة للمفاوضة معه ، وقد سحب الإمام قواته إلى ما وراء الحدود التى كانت الحد الفاصل بين عدن والأراضى العثمانية ، فإذا تسنى الاعتراف بذلك الحد واجتناب مشاكل أخرى بشأن الحدود يصبح فى الإمكان معالجة المسائل الأخرى بين بريطانيا واليمن . وتؤمل الحكومة البريطانية أن تنتهى المفاوضات مع الإمام بتسوية مرضية بعد مدة معقولة »[1] . وجاء فى نفس التصريح «وينبغى أن أقول إن عمليات الحصاد الآن تتم فى هدوء ، وأن السوق الأسبوعى فى «الضالع» فى ازدحام تام ، وأنه يجذب الناس من جهات مختلفة عبر الحدود »[2].

وهذا التصريح يعبر عن وجهة نظر بريطانيا بصراحة ، فهى قد استطاعت إخراج الإمام من المحميات ، وهذا كل ما يهمها ، ويهمها

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٨٢٦ فى ١٩٢٨/١١/٢٩ (١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٤٧هـ) ص ٣.

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp. 316-317,

بالتالى إقرار هذه الأوضاع التى وصلت إليها وليكن عن طريق المفاوضة ، وهى فى حاجة إلى هذا الاستقرار ، فهو يحقق مصالحها اقتصاديًا وسياسيًا .

ومن البديهى القول إن هذا الخط الإنجليزى اليمنى من الأحداث لم يكن منفصلا عن باقى مجالات الإمام السياسية . وقد قلنا قبل ذلك إن المعاهدة الإيطالية اليمنية كانت من أكبر العوامل فى توجيه هذا الخط فى الاتجاه الذى سار فيه ، وهذا فعلا ما كان يتردد دائما فى الأوساط الإنجليزية ، بل إنا نعتقد - وقد أكدنا هذا من قبل ذلك - أن المعاهدة اليمنية الإيطالية هى التى فرضت على العلاقات اليمنية الإنجليزية الصبغة العنيفة ، إلى جانب العوامل الأخرى . ففى مقالة نقلتها الأهرام عن جريدة «رفرى» اللندنية فى العدد الصادر بتاريخ ٩ يولية سنة ١٩٢٨ - أى أثناء وقوع أحداث إلقاء القنابل بالذات - جاء فيها : « إن إصرار اليمن على رفض قبول مقترحات الصداقة التى تعرضها عليها بريطانيا يعزى إلى النفوذ الإيطالى فى تلك البلاد» ووصفت توغل إيطاليا السلمى فى اليمن فقالت :« إن إيطاليا هى الدولة التى تنافس إنجلترا فى البحر الأحمر ، وترغب فى ترسيخ قدميها فى بلاد الإمام يحيى لكى يتحقق حلمها فى تأسيس إمبراطورية رومانية شرقية عظيمة الشأن . ومعلوم أن البحر الأحمر هو حلقة مهمة فى المواصلات بين الغرب والشرق ؛ ويلوح أن طلاب التوسع الإيطالى فى روما مصممون على الاستيلاء عليه ، وهذا لا يتسنى لهم على حساب الإمبراطورية البريطانية »[١].

وإلى جانب النفوذ الإيطالى المتغلغل - وأثره فى السياسة اليمنية بوجه عام وخاصة تجاه بريطانيا - كان هناك عامل الأهالى فى الجنوب العربى ، إذ كان لهم مفهومهم الخاص فى الحياة وفى نظم الحكم وطرق المعيشة ، وكانت

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٦٨٦ ، فى ١٠/ ٧/ ١٩٢٨ (٢٢محرم سنة ١٣٤٧ هـ) .

كلهـا تؤثـر تأثيراً بالغـاً فى سياسـة الدولتين المتنـازعتين . فقد استعـرضنا كـلام سلطانـى الحواشب وموقفهما من الإنجليـز واليمن ؛ وأهمية القـروش « عندهما » وأن « الأمـراء يخضعـون لمن يمـلأ جيـوبهم بـالمال » ولن يحقق لهم استقـلالهم الخاص ، ويشعـرهم بـاحترامـه لمظاهـر هـذا الاستقـلال ، دون أن يأخـذ منهم رهائن مثـلا لضمان خضوعهم ، أو يقيم بينهم حـاميات لتأكيد هـذا الخضوع . وقـد حرص الإنجليـز - دون الإمـام - على تفهم الـروح القبلية فى المحميـات ، وحـرصوا تمامـاً على أن يرضـوا هؤلاء الأمـراء بالمنح السنـوية وإظهـار التبجيل والتعظيم لهم ، وتـرك الحرية لهم فى تنظيم حياتهم الخاصـة ، بل حتى فى تسـوية منـازعاتهم المحليـة ، ما دامت هـذه المنـازعات لن تخرج عن حـدودها المحليـة ولن تؤثـر على النفوذ البريطـانى فى هذه الجهـات ، بل قد يستغلـونها لصالحهم فى أحيـان كثيرة . وكـان هـؤلاء الأمـراء والمشـايخ يـرضـون من إنجلترا هـذه المعاملـة ، ويحرصون عليهـا ، بل كانـوا يعتبرون مجرد تركهم وشأنهم فى أمـورهم الـداخلية الخاصـة هـو النظام الأمثل للحكـم ، وكانـوا لا يضنـون مقابل هـذا كلـه بـالاعتراف لإنجلترا بـالجميل والخضـوع . أمـا الإمـام فكـان يعتبر هـذه الجهات ملكـاً خاصًا لـه ولآبائه من قبله ، وبـالتالى لا حق لأمرائهـا فيها إلا إذا أرادوا أن يكـونـوا مـوظفين عنـد الإمـام يقـدمـون « رهـائن » دليـلاً على ولائهم لـه ولحكمه ، وهـذا مـا كان يـرفضـه هـؤلاء الأمراء والمشـايخ المتمتعين بـاستقلالهم الخاص وحيـاتهم المحـدودة المطالب والغـايـات ، والذين كـانت بريطـانيا ترضى لهم هـذه الحيـاة وتحققها لهم . وقـد عبر العبـدلى ، وهـو أحد أفـراد أسرة سـلاطين لحج ، عن مفهـوم المحميـات هـذا ، فيقـول معقبـاً على الأحـداث التى أدت إلى خـروج الحامية الإمـاميـة من « الضـالع » : « فليحكم الضالع أميرها مستقـلا عن صنعاء ، وساعة الوحـدة العربيـة وإن بعـدت آتية لا ريب فيها ؛ وما من العرب إلا واردها كان ذلك عليهم أمرا مقضيًّا . ولن يحول تعـدد ملوك العرب وأمرائهم دون الوحدة العربية ، وإنما يحول دونها طمع قويهم بضعيفهم ونفور بعضهم من بعض ، ولا لوم على الضعيف إذا استعـان لسلامته

بأيـة قوة من الخارج بل اللـوم على ذلك القـوى ، يخنق أخاه فى الـدار ؛ ويهضم حقه لكى يدخل جارهم القوى بصفته فاعل خير ليرفع الخناق عن الرقبة ويفوز بالأجـر والشكر والصـداقة ، ولا يكسب الإخوان إلا المنـافرة والتفـرقة ، فلماذا لم يتسن للسيـد يحيى عامل الضـالع (الإمـامى) أن يـرجع إلى « قعطبة » بكـامل الرضى لا مذموماً ولا مدحوراً لكى يحكم « الضالع » أميرها الحق أخوه الشافعى نصر بن شايـف الحالمى الحميرى القحطانى »[1] . فهو هنـا يعبر - ولكن بنظرة عـربيـة محليـة - تمسكـه الأكيـد بـالاستقـلال الخاص أولا وأخيراً ، ويعطى للمحميات الحق فى الاستعـانة بـالأجنبى فى سبيل حماية هـذا الاستقلال ، وإن كان فى نفس الوقت يدافع عن الوحـدة العربية ، وأنها آتية لا ريب فيها . وهو لم يعط صورة معينـة لهذه الوحدة أو كيفيـةِ إتمامها إذ لم يكن لمفكرى وكتَّـاب هذه الفترة أن يفكروا فى هذه الصورة . فنحن إلى الآن رغم دعوتنا الحارة لفكرة تدعيم القوميـة العربيـة ، لم نصل بعد إلى كيفيـة التدعيم ، وهل يكون ذلك عـن طريق الـوحـدة أو الاتحاد ، أو حتى عن طـريق الإخـلاص لجامعة الـدول العـربيـة ، والعمل بكل الوسائل على تدعيمها وتأكيد نفوذها كمنظمة إقليمية ، أو بالتخلى عنها لعدم قـدرتها على خدمة القضية العـربية . والعامل الثالـث الذى أثر على سير العلاقـات البريطانيـة اليمنية ، هـو مركـز الإمام فى اليمن ذاتـه ، إذ كانت أوضاعه غير مستقرة تماماً ، كما لم تتمكن سياستـه من جذب القبائل إليه . وكان الإمـام يبذل مجهـوداً متـواصلاً لتـدعيم مـركـزه ، فيرسل الحملات التأديبيـة إلى القبـائل المختلفة لإخضـاعها ، وأخـذ الرهـائن منها . ولم يكن أمـر التمرد هـذا متوقفاً على فئة دون أخرى ، فقد تمردت قبائل زيدية على الإمام ، كما كانت تفعل

---

(١) العبـدلى : هديـة الـزمن فى أخبار ملـوك لحج وعـدن ، ص ٢٨٧ (ذكر اسم هـذا الأمير بالكـامل ونسبة إلى قحطـان تأكيداً لعـروبته ، وأنـه ليس غريبـاً ، بل أخاً لا بـد أن ينال حقوقه) .

بعض القبائل الشافعية . كما لم ترفض القبائل الشافعية حكم الإمام ، بل اعترف بعضها بحكمه ، وخاصة بعد طرد الأدارسة من تهامة . فيذكر الجــرافى أنه فى : « رجب سنة ١٩٤٥ هـ (يناير سنة ١٩٢٧) قدم سيف الإسلام أحمد ولى العهد إذ ذاك إلى صنعاء ، ومعــه جمع وافر من رؤساء عشائر تهــامة « كالواعضات » و « عبس » و « بنى نشر » و « حجـــور » و « بنى قيس » و « الخميســين » و « بنى مروان » و « المسـارحة » وأنزلهم فى ضيـافة الإمام . وقـد قدم هذا الـوفد فروض الطاعة باسم البلاد التهامية »[١] . ومعروف أن هذه القبائل شافعية . وفى نفس الـوقت كـانت حـاشـد وبكيل الـزيـديتين - أو بعض بطـونها - تثيران المتـاعب له فى شمال صنعـاء ، إذ كان من طبـاع هذه القبـائل القويـة الميل إلى الحرب لمـا فيه من غنائم وأسـلاب . وكان يدفعهم إلى ذلك طبيعتهم الجبلية من ناحية ، وفقر مناطقهم من ناحية ثـانية . وبالإضافة إلى ذلك لم يتمكن الإمام من استغـلال طاقتهـم وتوجيههـا لصـالحه . وغلب على الإمام حـرصـه على تحقيق أطماعه الخاصة التى بدت متعارضـة مع مصالح هؤلاء ، فنكل بهم بعد أن تمكن من الوصول إلى أغـراضه على أكتافهم . ولكنهم لم يقدروا ظـروف الإمام الجديدة وحاجته إلى الهدوء والأمن إقراراً لأوضاع الدولـة الجديدة ، كما كانوا أكثر تعصباً من الإمام نفســه ، ولم يسامحوا له اتفـاقه مع العثمانيين سنة ١٩١١ ، لـذلك فقد كانتا كثيراً ما تعلنان تمردهما عليه[٢].

وهذا ما ذكره أيضاً الجرافى فيقول : « وفى سنة ١٣٤٣هـ (٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ إلى ٢١ يـوليو سنـة ١٩٢٥) أخمدت ثـورة قبـائل حاشـد ، وتم قهـرهم وإجبارهـم على الخضوع لأمر أحكـام الشريعة وتـوريث النساء . وفيهـا تم فتح بـلاد الجوف ، وأخـذ رهـائن الطاعـة والإخـلاص . وفى سنـة ١٣٤٦هـــ (أول

---

(١) عبد الله الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp. 318.

يولية سنة ١٩٢٧ إلى ١٩ يونية سنة ١٩٢٨) سار سيف الإسلام ولى العهد من « حجة » إلى « قفلة عذر » وجمع جيشاً من « حجور » و « بنى عبد » و « جبل عيال يزيد » و « بنى صُريم » وغيرهم ، وطالب قبائل « العصيمات » من « حاشد » بتسليم رهائن الطاعة فامتنعوا ، فحاربهم حتى أذعنوا وسلموا الرهائن »[1] .

والذى يلاحظ تاريخ تلك الثورات ، ويقارنه بتاريخ حرب الإمام مع الإنجليز فى المحميات ، يجد أنهما فى فترة واحدة أو متقاربة مما كان يحرج موقف الإمام ، ويضعف من قوته أمام الإنجليز خصومه الأقوياء ، الذين كانوا لا يعانون من تمرد القبائل المحمية عليهم مثلا .

واستغلت إنجلترا أوضاع اليمن القلقة ، فيقال إنها حاولت الاتصال ببعض القبائل ، وهى بذلك لم تخلق شيئاً بذاته ، بل إنها أثارت وحركت أشياء موجودة يمكن إخمادها لو تركت وشأنها .

ويذكر الإمام أن ثورة قبيلة الزرانيق سنة ١٩٢٨ ، دليل واضح على تدخل الإنجليز . وتوجد هذه القبيلة على الساحل بين الحديدة وحدود محمية عدن ، وكان خطر تمردهم يتمثل فى موقعهم هذا ، إذ كانوا يستطيعون قطع طريق التجارة بين الحديدة وصنعاء .

وقد أثار الإمام قوة هذه القبيلة وميولها الاستقلالية وامتناعها عن إعطائه الرهائن ، فأرسل إليهم حملة تأديبية فى مايو سنة ١٩٢٨[٢] لإخضاعهم[٣] . ولم يكن أمر هذه الثورة هيناً ، فلم يتمكن الإمام من القضاء عليها بسهولة مما اضطره أن يرسل ابنه سيف الإسلام أحمد على رأس قوة كبيرة ، زحفت

---

(١) عبد الله الجرافى : نفس المرجع ، ص ٢٣٧ .

(٢) أى أثناء الهدنة اليمنية الإنجليزية التى بدأت فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨ .

(٣) Survey of International Affairs, 1928, p. 318.

على الزرانيق عن طريق الحديدة ، من مركزه فى حجة ، فاحتل بعض مراكزهم مثل « المراوعة » و « الدريهمة » بعد مصادمات عنيفة . وقد شعر سيف الإسلام حينئذ من خلال أحداث الحرب ووقائعها ، أن الزرانيق متصلون بدول أجنبية عن طريق البحر ، وأنهم يجلبون منها العتاد والسلاح . فبدأ فى توجيه مجهوداته ناحية البحر ، واستولى على الساحل ، واحتل « الجاح » و « الطائف » وميناء « غليفقة » وأقام الحصون وشدد الحراسة على الساحل ، كما استولى على سفن الزرانيق الشراعية ، وأرسلها إلى الحديدة ليمنع أى اتصال ؛ وبذلك استطاع تضييق الخناق عليهم ، ومنع كل مدد خارجى عنهم . فأحس الزرانيق بخطورة الموقف ، ففر شيخهم الأكبر الشيخ أحمد الفتينى ، والتجأ إلى الإنجليز فى جزيرة « قمران » كما استسلم بعض الشيوخ الآخرين لسيف الإسلام دون قيد أو شرط ، وأسر هو كثيراً من هذه القبيلة ، وساقهم مكبلين بالأغلال إلى صنعاء حيث أعدموا هناك . وقد اضطر باقى أمراء القبيلة إلى الالتجاء إلى « بيت الفقيه » التى تعتبر عاصمة الزرانيق – وقام سيف الإسلام أحمد بحصارها فقط – بناء على أمر الإمام – دون أن يهاجمها ، حتى اضطرت إلى التسليم بعد أن عانوا من قسوة الحصار وغلاء الأسعار ، ونقص الغذاء ، وأعطوه الرهائن أسوة بغيرهم من القبائل »[١] .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٦٨ و ٦٩ .

الفصل الرابع

تطور العلاقة بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بن سعود بعد معاهدة مكة سنة ١٩٢٦

بداية العلاقة بين الملكين :

لم يكن الإمام مشغولاً بثورته الداخلية ، أو بحروبه مع إنجلترا فى المحميات ، أو بعلاقة الجديدة مع إيطاليا فحسب ، بل كانت حدوده الشمالية تشكل جانبًا هامًّا من مشاغله أيضًا . وقد لاحظنا ارتباطًا تاريخيًّا هامًّا بين حادثتين كبيرتين ، إذ ذكرنا أنه فى نفس الوقت الذى كان الإمام يتوج علاقته مع إيطاليا بعقد معاهدة فى سبتمبر ١٩٢٦ ، كان الأدارسة يسارعون بالدخول فى حماية السعوديين ، ويعقدون معهم اتفاقية مكة المكرمة فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦[١] ، (ملحق - ٦) . وقد كان هذا الارتباط الزمنى ذا أهمية كبيرة ، إذ إن الإمام عندما أخذ فى عقد المعاهدة مع إيطاليا حتى يستطيع أن يأخذ منها ما يشاء من الأسلحة لمواصلة انتصاراته فى تهامة ضد الأدارسة ، ظهر له فى نفس الوقت جار جديد قوى بدأ يواجه الإمام وجهًا لوجه .

ومن الصعب تحديد وقت معين أو حادثة معينة تعتبر بداية للعلاقة بين الملكين ، ولكن من الممكن فى نفس الوقت توضيح تطور العلاقات - بوجه عام - قبل الوصول إلى نقطة وقوفهما وجهًا لوجه . يبدو أنه لم يكن هناك أية اتصالات بين ابن السعود والإمام يحيى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد ذلك بقليل ، إذ كان كل منهما مشغولاً بمشكلاته الداخلية ، الأول فى نجد والثانى فى اليمن ، وكانت متاعبهما تنحصر أساسًا فى علاقاتهما بالعثمانيين

---

(١) المنار : جـ١ ، المجلد ٢٧ ، ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

إلا أن نهاية الحرب وخروج العثمانيين من العالم العربى أديا - كما أوضحنا قبل ذلك - إلى الاحتكاك سلميًا أو حربيًا . فبدأ التصادم الحربى بين الشريف حسين وابن السعود يحتدم ، مما أدى إلى انتباه باقى أمراء الجزيرة - فضلاً عن باقى الشعوب العربية - إلى ابن السعود ، تلك الشخصية الجديدة التى بدأت تفرض نفسها بقوة على كيان الجزيرة العربية . وكان هذا فى نفس الوقت ، بداية علاقات ابن السعود بالإمام يحيى ، فالأول استطاع أن يستولى على الحجاز - وهذا معناه الاستيلاء على المدينتين المقدستين اللتين تهمان كل الشعوب الإسلامية - فكان لا بد من تنظيم العلاقة بين ابن السعود وبين الإمام من أجل الحج . وكان ابن السعود يعلم ضروريات ومقتضيات موقفه الجديد بعد استيلائه على هاتين المدينتين ، ويعلم أن العالم الإسلامى يحتاج بالضرورة إلى أن يطمئن على مصير المدينتين بعد دخولهما فى حوزته . لذلك أسرع إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامى فى مكة وأرسل دعوات إلى جميع ملوك وأمراء وسلاطين العالم الإسلامى وبعض رؤساء الهيئات الإسلامية المختلفة ،وذلك للتفاهم حول المسائل التى تخص الحرمين . وكان من بين هذه الدعوات دعوة للإمام يحيى .

وقد تعمدت المنار[1] ذكر نص الخطاب المرسل للإمام يحيى ، وذلك ردًا على «المقطم» الذى أنكر أن ابن السعود أرسله للإمام ، وكانت ديباجة هذا الخطاب تحمل كثيرًا من عبارات التبجيل والمودة .

ولكن لم تكن هذه الدعوة هى أول اتصال بين ابن السعود والإمام يحيى ، بل سبق ذلك بعض الاتصالات حدثت قبل قضاء ابن السعود على الشريف حسين . ولكنها كانت اتصالات غير مباشرة ، أو أنها لم تأخذ شكل الدعوة سالفة الذكر .

---

(١) المنار : المجلد ٢٦ ، الجزء ٧ ، الصادر فى ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٤ يناير سنة ١٩٢٦) ص ٥٤٠ .

ذكرنا قبل ذلك عند استعراض علاقات الملك حسين مع باقى أمراء الجزيرة العربية ، أن علاقاته مع الإمام كانت طيبة بالنسبة لعلاقاته مع باقى الأمراء . فقد كان يعترف له بالإمامة ، ويكره توسع الإدريسى فى تهامة ، ولكنه كان يرى أن نفوذ الإمام لا يمتد إلا إلى الطوائف والجهات الزيدية فقط . وقد حدث فى أواخر سنة ١٩٢١ وأوائل سنة ١٩٢٢ بعض التقارب ، فيذكر الجرافى أنه : « فى سنة ١٣٤٠هـ بعث ملك الحجاز الشريف حسين ابن على مندوبًا إلى الإمام وهو رئيس الأشراف بمكة ، فنزل ضيفًا على الإمام ، ولما أزمع الرحيل رأى الإمام أن يوفد معه بعض أصحابه ردًّا للزيارة ، وأرسل معهم قصيدة أنشأها السيد العلامة الأديب يحيى بن على الذارى ، وهى تحث على الوفاق بين الأمة العربية »[1] . بل ويذكر أمين الريحانى نص معاهدة حررت فى صنعاء فى ١٨ رمضان سنة ١٣٤٠هـ (أوائل يونية سنة ١٩٢٢م) بين الشريف حسين والإمام يحيى وكان قسطنطين يني[2] هو الذى عمل على إتمامها[3] . وقد عاد قسطنطين ينى بالمعاهدة إلى الملك حسين ليعرضها عليه ، ولكن يبدو أنه لم يتم توقيع المعاهدة ، وأنها كانت غير نافذة المفعول لما تلا ذلك من أحداث داخل الجزيرة العربية أدت إلى القضاء على دولة الملك حسين .

ويجب أن نلاحظ أن سبب هذا التقارب هو انتهاء البيتين الحاكمين فى مكة وصنعاء ، إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا مما أدى أيضًا إلى التقارب بين الإمام يحيى والعراق فيما بعد . وقد نظمت هذه المعاهدة « المأمولة » العلاقات بين الطرفين وقربت بينهما ، ودعت إلى التعاون والسلام بين البلدين . وهناك مادة خاصة بالتعاون فى حالة وجود عدوان

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

(٢) زميل الريحانى فى رحلته إلى صنعاء ومبعوث الملك حسين إلى الإمام وأحد ضباط جيشه ، وله قصيدة فى ذم القات ومضغه أرسلها للإمام يحيى .

(٣) أمين الريحانى: ملوك العرب ، ص ٢١٠ - ٢١٤ .

خارجى على أحد الطرفين (المادة الخامسة) وتنص على أنه : « عند ظهور عدو مشاق للطرفين إذا لزم لأحدهما إمداد من الثانى فعلى من تطلب منه الإعانة إعانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت إمكانه من مال أو رجال أو سلاح أو معدات حربية ، وعلى الطالب للإمداد بالرجال ، لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة »[1] . وهذه المادة هى التى تهمنا فى حديثنا عن علاقات الإمام يحيى مع ابن السعود إذ يمكن القول إنها كانت ذات أثر مباشر فى سيرة هذه العلاقات .

أدى تغيير الأوضاع فى الجزيرة العربية بعد ذلك ، إلى توسع علاقات ابن السعود مع باقى أمراء الجزيرة ، سواء كانت علاقات سلمية أو منازعات حربية . وقد نشأت أول علاقة بين الإمام وبين ابن السعود أثناء الحرب بين الشريف حسين وابن السعود عندما اعتدت جماعة من الوهابيين على الحجاج اليمنيين فى وادى « تنومة » جنوب الحجاز ، ظنًّا منهم أن هؤلاء الحجاج كانوا نجدة للشريف حسين ضد ابن السعود[2] . وهى حادثة معروفة يرويها كثير من اليمنيين ، ولا خلاف بينهم إلا حول عدد هؤلاء الحجاج وعدد الذين استطاعوا الفرار . فالبعض كان يذهب إلى أنهم كانوا حوالى ثمانية آلاف غير ألفى حضرمى وغيرهم من البلاد القريبة من اليمن، والبعض الآخر يذكر أنهم كانوا حوالى ستة آلاف أو خمسة آلاف . أما الذين سلموا من القتل فقد قيل إنهم سبعة أو خمسة أشخاص فقط . ويذكر الجرافى أنها وقعت أثناء موسم حج سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) أما نزيه العظم فيذكر أنها وقعت سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م) . وعلى كل حال فقصة هذه الحادثة هى أن الحجاج « ذهبوا برًّا من اليمن لتأدية فريضة الحج ويذكر أنهم كانوا جميعًا عزلاً من السلاح ، ولما وصلوا إلى « تنومة » اعترضهم

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ٢١٣ .

(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

كمين من الإخوان الوهـابيين ، وأصلوهـم نارًا حامية فلم يسـلم منهم إلا سبعة أو خمسة أشخاص كـانوا متأخـرين قليـلاً عن رفقائهم . وسلب الإخـوان جميع أمتعة هؤلاء النـاس وتركوهم ممددين على الأرض ، وعـادوا بغنائمهم فائزين » .

ويواصل نـزيه العظم حديثه عـن هذه الحادثة ، وأنه حـاول التحرى عن سبب هـذا الاعتـداء فى مختلف الجهـات والبلاد ، وبعـد الاتصـال بالمسئولين وغير المسئولين تحقق : «أن لبعض الأجـانب ضلعًـا فى هـذه المؤامرة ، وقـد كـانـوا يتوخـون منها إثارة الفتنة بين السلـطان عبـد العزيز والإمـام يحيى ، وامتداد نار الحرب من الحجاز إلى اليمن . فقد ذكـر عند ابن السـعود بأسـاليب شـتى ، وعن طـرق عـديدة، أن الملك حسين استنجد بـالإمام يحيى ليقاتل معـه ضد ابن السعود، فاعتـذر الإمام عن الدخـول فى الحـرب بصـورة رسمية علنية ، ولكنـه أوفـد هـذا الجمع الغفـير بصـورة حجاج لكى يتطوعـوا فى الجيش الحجـازى . ويبـدو أن ابن السـعود أخـذ بهـذه الدعايـة ، وأمر جنـده أن يبيـدوا هـذا الوفـد . وكان أول نتـائج هـذه الحادثة توتـر العـلاقات بين الإمـام وبين السـلطان عبـد العـزيز وامتنع الحجـاج اليمنيين عن تـأدية فريضـة الحج بعـد ذلك ، إلا أن هـذه النتـائج سـويت فيما بعـد عنـدما عـادت بينهما العلاقات لتسـوية الحـدود المشـتركة ، وقـد قيـل إن ابن السـعود دفع دية الحجـاج الذيت قتـلوا[١] .

ومن مظـاهر الاتصـال الأولى أيضًـا ، أن الإمام يحيـى حـاول التـدخل فى نهاية الحـرب النجـدية الحجـازية ، فأبرق للملـك الحسـين بـن على والسطان عبد العـزيز يعرض عليهما وساطتـه لإنهاء الخلافات القائمة . وكـذلك بدت أن حـدودهما تتقـارب عنـدما كـان ابن السعـود يتـوسع جنـوبـًا إلى حـدود اليمن

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيد .

أثناء حربه مع الحجاز ، فاستولى ابنه فيصل على إمارة آل عائض داخل عسير ، مما أدى إلى ظهور هذا الجار القوى المنتصر على مشارف حدود اليمن الشمالية ليشكل خطرًا جديدًا بالنسبة للإمام يحيى ، أو على الأقل لتصبح مسألة جديدة تشغل بال الإمام .

وتوضح كل تلك الأحداث السياسية السابقة نشأة وتطور العلاقات بين صنعاء والرياض ، وتعتبر كلها مقدمات لوقوف هذين العاهلين أمام بعضهما وجهًا لوجه بعد أن تماست حدودهما . وقد كان دخول الأدارسة تحت الحماية السعودية هى النقطة التى بدأت العلاقات عندها تأخذ شكل خلاف ، ثم نزاع ثم اشتباك .

إعلان الحماية السعوية على عسير وأثر ذلك على العلاقات :

عندما تم عقد معاهدة مكة المكرمة بين ابن السعود وحسن الإدريسى ، أرسل الأول على الفور نسخة من نصها الكامل مع كتاب منه إلى الإمام يحيى ، يرجوه أن يصدر الأمر إلى قواده بالكف عن مهاجمة الأدارسة لأنهم أصبحوا تحت حمايته . وقد كانت قوات الإمام فى ذلك الوقت بالذات ، تحاصر - أو هى قاب قوسين أو أدنى من احتلال - مدينتى صبيا وجيزان ، أهم مركزين للأدارسة . وكانت مفاجأة عنيفة فوجئ بها الإمام ، فلم يكن أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يقر المعاهدة ويعترف بها ، وبذلك تفلت الإمارة من يده ، وإما أن يأمر قائد جنده فى تهامة عبد الله بن الوزير بمواصلة الزحف ، فيصطدم بابن السعود ويدور القتال بينهما . ولكنه رأى أن يقر الأمر الواقع ، وأبلغ قائده بإيقاف الحرب ، ثم لبى دعوة ابن السعود إلى المؤتمر الإسلامى فى مكة[1] . وكان الإمام يرى أنه يجب تسوية مشكلة عسير هذه مع ابن السعود تسوية سلمية، وذلك لأن باقى

(١) المقتطف : المجلد ٨٤، الجزء ، عدد أول مايو سنة ١٩٣٣ (١٧ محرم سنة ١٣٥١) من مقالة لأمين سيد ، ص: ٦٠٤ .

ظروفه السياسية والحربية لم تكن تساعده على مواجهة ابن السعود بالقوة . حقيقة كان مداد معاهدته مع إيطاليا لم يكن قد جف بعد ؛ وكان يأمل أن تكون المعاهدة عضدًا له فى مواجهة مشكلاته السياسية والحربية ، لكن لم يكن قد أتيحت له الفرصة بعد للاستفادة منها . كما أنه لم يكن ينتظر مطلقًا أن تنزل إيطاليا قواتا لمساعدته فى حروبه المختلفة ؛ بل كان كل ما ينتظره منها هو إمداده بالسلاح والعتاد . وقد أشرنا قبل ذلك إلى أن الإمام كان مشغولاً بإخماد الثورات التى كانت تظهر هنا وهناك داخل اليمن نفسه بين الجماعات الشافعية أو الزيدية . فضلا عن مشكلاته مع إنجلترا فى المحميات ، وتوترالعلاقات بينهما كما رأينا .

تبادل الوفود بين البلدين :

اتخذ الطريق السلمى بين العاهلين مظهرًا خاصًا ، هو المفاوضات عن طريق إرسال المندوبين . وكان أول هذه الوفود هو الوفد السعودى الذى حمل نص معاهدة الحماية إلى صنعاء لعرضها على الإمام ، وقد وصل إلى صنعاء فى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٥ هـ (يونية ١٩٢٧م) وبقى فيها إلى أواخر المحرم سنة ١٣٤٦هـ (يولية ١٩٢٧م) .

وقد دارت بين الوفد وبين الإمام يحيى من ناحية ، وبينه وبين مندوبى الإمام من ناحية أخرى مباحثات طويلة خلال جلسات عديدة بلغت سبع عشرة جلسة . كان موقف الجانب اليمنى أنه يعتبر عسير جزءًا من اليمن ، وأن الأدارسة غاصبون ودخلاء فى هذه المنطقة ، وأنه لا يعترف بما كان من انضمام بلاد آل عائض إلى نجد ، ولا بما كان من بسط الحماية على المقاطعة الإدريسية[1] . وقد جاء فى تقرير الوفد السعودى - بعد عودته إلى بلاده - المؤرخ فى أول ربيع أول سنة ١٣٤٦ هـ (سبتمبر ١٩٢٨) ما يوضح

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص ١ - ٢ .

وجهة النظر السعودية فى أمر عسير : « وخلاصة مطالب المندوبين اليمنيين التى لم يحيدوا عنها ، ولم يتحولوا عن إبدائها طيلة مدة المفاوضات ، أن بلاد عسير ونجد جزء من بلاد اليمن . فأوضحنا للمندوبين أن بلاد الأدارسة قسم من تهامة عسير ، وأن عسير ليس من اليمن وأنه ليس لأئمة الزيود أى حق من الحقوق فيه ببراهين تاريخية علمية ، وأن حدود هذه المقاطعة تمتد من « مخا » إلى « زبيد » إلى مركز « باجل » من جهة الجبال ، وأن هذه القطعة بحدودها المبينة قسم واحد لا يتجزأ ، وكانت خاضعة للسيد محمد على الإدريسى أيام حكمه وهى داخلة ضمن الحدود التى شملتها معاهدة جلالة الملك (عبد العزيز) مع السيد حسن ، ولذلك فإننا نعتبرها من حقوق جلالة الملك كلها ونطالب بإعادة ما هو منها تحت حكم الإمام يحيى إلى المقاطعة الإدريسية .. »[1] وتبدو المغالاة فى التقرير ، إذ ليس من المعقول أن يوافق الإمام على التنازل عما حارب من أجله سنوات - ونقصد تهامة اليمن التى يريد منه الوفد السعودى أن يعيدها للأدارسة - كما أنه من الناحية الجغرافية لا يمكن تصور وجود دولة كاليمن تبقى معلقة فوق الهضبة فى الداخل دون أن يكون لها منافذ على البحر تطل منها على العالم الخارجى ، أى أن تهامة اليمن كانت تمثل لباقى أجزاء اليمن ، تكاملا عضويًا لا بد منه لقيام دولة مستقلة يمكن أن تعيش . ولكن يبدو أن هذا المطلب السعودى ، كان من باب المحاورات الدبلوماسية فقط حتى يجبر الإمام على قبول الوضع الجديد .

وعاد الوفد السعودى - دون اتفاق - إلى مكة المكرمة ، وعرض على الملك عبد العزيز خلاصة أعماله ، فصدر إليه الأمر بالرجوع إلى صنعاء للاتفاق على إبقاء الحالة الراهنة ، ووضع الترتيبات التى تؤدى إلى تعيين حدود فعلية بين المقاطعة الإدريسية وعسير ونجران من جهة ، وبين اليمن من

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص ٣ .

جهة أخرى . وقد عاد الوفد السعودى مرة ثانية إلى صنعاء ، واستمرت جلساته خلال شهرى ديسمبر سنة ١٩٢٧ . ويناير سنة ١٩٢٨ . وكانت الحدود التى يعرضها للاتفاق عليها تدل على تغير أساسى فى حديث الوفد ، فقد كان يعمل فعلاً على إقرار الوضع الراهن . إلا أن تركى ابن ماضى (أحد رجال الوفد السعودى) أرسل خطابًا إلى الملك عبد العزيز ، فى صنعاء مؤرخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٦هـ (أبريل سنة ١٩٢٨) يشرح له بعض الأمور ، جاء فيه : « توجهنا إلى صنعاء اليمن لتجديد المفاوضات مع الإمام يحيى وزعمائه فبموجب مطالعة خادمكم حول تلكم المفاوضات أحببت أن أشرح لكم بعض ما يحسن ذكره منها : الإمام يحيى ذو مطامع غريبة ومراميه بعيدة ، كلما تكلمنا معه فى النقطة الممكنة لحل المشكل زاغ عنها ، وإن كان يقول قولاً بأنه يطلب الائتلاف فله مقاصد بعيدة . فتحقق لدى خادمكم أنه متربص للدوائر عن مقصد ، وله آمال لا سمح الله بتحقيقها ، وليس له مقصد عدوان فى الوقت الحاضر ، ولا يريد حسم المادة والاعتراف بحدود معلومة له وعليه، بل يريدها مسالمة ومكاتبة بغير نتيجة . ولا يزال يطلب فى حل عقد اتفاقية مكة ، وكم أوضحنا له ، وأفدناه أن الإدريسى فى قطعة من بلاد عسير ، وأنه مسلم استجار بأخيه فأجاره سابقًا ولاحقًا حتى طالت المحاورات بيننا وبينه ، ثم بيننا وبين مندوبه إلى نهاية أربعة وخمسين يومًا . ونحن مقيمون فى صنعاء فلم يكن له عذر عن إرسال مندوبين من طرفه لجلالتكم ، ونرجو الله أن ينهى الأمور على ما يرام . . »[1] .وقد انتهت مفاوضات الوفد الثانى بالاتفاق على أن يرسل الإمام يحيى مندوبين عنه إلى الملك ابن السعود ، لشرح وجهة نظر اليمن . وقد أرسل الإمام لابن السعود رسالتين ، يخبره بأنه سيرسل مندوبين عنه لهذا الغرض ، كما ذكر فيها رغبته فى توطيد العلاقة بين البلدين ورد كيد الداسين »[2] .

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص٩ - ١٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ١١.

وعاد الوفد السعودى إلى مكة المكرمة ، ومعه ثلاثة من اليمنيين يمثلون الإمام فى رمضان سنة ١٣٤٦هـ (مارس سنة ١٩٢٨) ، وقاموا بمفاوضات هناك ولكنها كانت قصيرة وغير منتجة ، وذلك لأن أفراد الوفد اليمنى كانوا مختلفين على الرئاسة من جهة ، وعلى مدى صلاحية الوفد من جهة ثانية ، وذلك لأنه لم يكن له من الصلاحية ما يجيز له البت فى أى موضوع من المواضيع[١] .

وقد حدثت فى هذه الأثناء أن أرسل الملك ابن السعود إلى الإمام يحيى كتابًا مؤرخًا فى ٤ محرم سنة ١٣٤٧هـ (٢٤ يونية سنة ١٩٢٨) يخبره بأخبار المحادثات بين الوفدين السعودى واليمنى ، ويجدد علاقات الصداقة بين البلدين ، إلى أن يقول : « .. وإنى قبل أن أختم كتابى هذا ، يحب أخوكم أن يشرح لكم الثلاث مواد الآتية لأنها هى المحور الذى سيدور عليه كل اتفاق فى المستقبل .

أولا : إننا نحب الاتفاق مع حضرتكم ، ونرى أن ذلك أنكى للعدو وأسرُّ للصديق .

ثانيًا : إنه ليس لنا أغراض أو مطامع سواء فيما يتعلق بشخصكم أو بوطنكم وكل ما نرمى إليه هو السعى للاتفاق وراحة وطنكم ورعيتكم .

ثالثًا : إننا بقدر ما نستطيع سنمنع كل ما يوجب سوء التفاهم أو يحدث المشكلات بيننا وبينكم ، وإننا سنبذل جهدنا فى توطيد السلام إلا ما يوجبه الدفاع عن الكرامة والشرف . . . وكل ما لدينا قد أبديناه شفاها لمندوبيكم »[٢] .

---

(١) هذه هى عادة الإمام دائمًا إذ لم يكن يجعل لمندوبيه - فى أية مفاوضات - الصلاحيات اللازمة للبت فى الأمور . وكان يحتم عليهم دائمًا الرجوع إليه فى كل شىء ، وقد يرجع هذا إلى رغبته الشخصية فى البت فى كل صغيرة وكبيرة بنفسه - وهذا ما كان يتبعه فى جميع شئون دولته - وإلى عدم ثقته بأحد .

(٢) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص٥ - ٦ .

وهكذا عـاد الوفد اليمني من مكة دون أن يحـقق شـيئًا يذكـر ، ولـكن كان هنـاك أمر أصـبح شـيئًا واقعيًا إلى حـد كبير ولبعض الـوقت ، هـو أنـه بـدا على الطرفين أنهمـا اعـترفا ولو مؤقتـا بـاتباع سيـاسة المحافظـة على «الوضـع الراهن » وأخـذ كل منهمـا يعمل على تقـوية قبضـته على ما تحت يـده من القبـائل والجهات ، وينظم سـياسته وإدارته في هـذه الجهـات . وقد استمر هذا الوضع حوالى ثلاث سنوات أى حتى سنة ١٩٣١ حين ثارت حادثة جبل « العَـرو » مما أدى مـرة أخرى إلى تجديـد المنازعـات و المفاوضـات حتى قـامت بين البلدين حـرب « السـبع أسـابيع » التى انتهت بمعـاهدة سـنة ١٩٣٤م بين البلدين .

ولكن هنـاك بعض الأمـور التى نـريـد أن نشير إليهـا ، أهمهـا أن بـدايـة العلاقات بين البلدين ، وسيرها فى هذا الخط بالتحديد ، لم يكونا وليدى الصدفة بل كانت بدايـة طبيعية فى صورتها وجوهرها . ويتبلور هـذا فى أنها كانت نتيجة توسع كل مـن الحاكمين فى بقاع الجزيرة العـربية تماست حـدودهما ، وتشابكت مصالحهما ، مما أدى إلى التصـادم . وفرضت هذه البداية بالتـالى خطًّا معينًا تسير فيه العـلاقات الفتية المتوتـرة ، اتصف بالشد والجذب حول بقـاع معينة ، ادعى ملكيتها كل من الطرفين .

ومن ناحية ثـانية ، كانت علاقة الطرفين بعضهما ببعض تتأثـر تأثرًا مباشرًا بعلاقة كل من الطـرفين بانجلـترا، وكانت للأخـيرة عـلاقات خاصـة بكل من صنعاء والرياض كل على حدة . وقد لعبت هذه العلاقات دورًا هامًّا فى سير علاقات اليمن مع السـعودية . ولم يكن هـا الأمر غريبـًا فلإنجلترا مصـالح فى كل من جنـوب اليمن وشمال السعـوديـة ، كما يهمهـا أن تحافظ على عـلاقـاتها ومصالحها لدى هذين العاهلين . وقد بـدأت العلاقات السعودية الإنجليزية فى التوتر بعـدما أقامت إنجلترا دولتين هاشميتين على حـدود ابن السعود الشمالية وأخذت ترعاهما . وبفضل العداء التقليدي بين السعوديين والهاشميين ، ونتيجة

لقيام منازعات وحروب قبلية على حدود هاتين الدولتين مع السعودية ، رأت إنجلترا نفسها - لخدمة مصالحها الخاصة - مضطرة إلى التدخل دفاعًا عن مصالح العراق وشرق الأردن وتدعيماً لمركزيها . وقد اضطرت إلى استعمال الطائرات فى فض التجمعات القبلية الوهابية على حدود هاتين الدولتين ، إلا أن هذا النزاع لم يستمر طويلاً ، وتمكنت إنجلترا بفضل مجهودات ومفاوضات سير جالبرت كلايتون من أن تعقد معاهدة مع ابن السعود فى مايو سنة ١٩٢٧ . وقد قضت هذه المعاهدة على المنازعات المحلية ، وأدت إلى اعتراف انجلترا باستقلال الدولة السعودية الجديدة ، كما عملت على تسوية جميع الأمور المعلقة بين البلدين وكانت انجلترا تهتم اهتمامًا واضحًا بعقد هذه المعاهدة لوجود مصالح عديدة لها فى الجزيرة العربية ، كان لابد من الاطمئنان عليها بعد التوسع السعودى العريض ، الذى وصل إلى مناطق النفوذ الإنجليزى فى الجزيرة وخارجها وقد وقعت المعاهدة بجدة فى مايو ١٩٢٧ ، وتبودل الإبرام فى سبتمبر سنة ١٩٢٧ (ملحق ٧) . والذى نريد أن نصل إليه هنا ، هو أن العربية السعودية كانت قد سوت مشكلاتها مع إنجلترا ، وأنهت حروبها فى الشمال ، قبل التصادم مع اليمن ، أو قبل أن تدخل فى علاقات جديدة مع اليمن . فقد حضر الوفد السعودى الأول إلى صنعاء فى يونيو سنة ١٩٢٧ ، أى بعد توقيع المعاهدة الإنجليزية السعودية بشهر ، وبعد الاطمئنان على استقرار باقى مشكلات ابن السعود ، وبالأحرى لقد فرغ ابن السعود من المشكلات المحيطة به قبل أن يلتفت إلى الإمام يحيى .

ولكن الأمر كان عكس ذلك بالنسبة لليمن ، فقد واجه الإمام ابن السعود عندما كان مشغولاً باشتباكاته مع جارته انجلترا فى الجنوب . ويتضح هذا بالنظر فى تاريخ سير كل من علاقات الإمام مع جارتيه فى الشمال وفى الجنوب . ففى الوقت الذى كان الوفد السعودى الأول والثانى فى صنعاء يفاوض الإمام ومندوبيه كانت الطائرات البريطانية تلقى بقنابلها على جيوش الإمام فى المحميات حتى إنه اضطر أن يسعى للهدنة مع إنجلترا وأعلنت

فعلا فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨ ، وهو نفس الشهر الذى توجه فيه وفده هو إلى مكة المكرمة مع الوفد السعودى الثانى .

ولا شك أن هذه الوحدة الزمنية هى التى أثرت فى علاقات الإمام مع ابن السعود ، وفى سير المحادثات والنقط التى تناولتها هذه المحادثات . وانشغال الإمام فى أحداث حدوده الجنوبية - التى كانت ملتهبة بالصورة التى عرضناها - يجعلنا نؤمن بصحة بعض ما جاء بتقرير « تركى بن ماضى » إلى مليكه ابن السعود حيث يقول عن الإمام « ... وليس له مقصد عدوان فى الوقت الحاضر ، ولا يريد حسم المادة والاعتراف بحدود معلومة له أو عليه ، بل يريدها مسالمة ومكاتبة بغير نتيجة » . فقد يكون سبب موقف الإمام هذا الذى وصفه « تركى » هو عدم رغبة الإمام فى البت فى مشكلة حيوية تخص حدوده الشمالية عندما كان يحارب عند حدوده الجنوبية ، فكأنه بذلك أراد أن يكسب وقتًا ، ويسوف فى حل قضيته مع الجنوب . وكان هذا هو نفس الأمر مع إنجلترا ، فموقف الإمام بالنسبة لها تأثر بطبيعة علاقته مع ابن السعود .

وقد شعر الإنجليز أنفسهم بهذه الحقيقة ، واعتقدوا في هذه الفترة « أن نتيجة مفاوضات الإمام مع ابن السعود ستكون العامل الهام فى رسم سياسته فى المستقبل تجاه بريطانيا »[١] .

---

(١) Survey of International Affairs : 1928, P 319 .

الفصل الخامس
موقف الإمام بالنسبة لمشاكل الحدود

الإمام والاتحاد السوفيتى :

لم يكن لإنجلترا تأثير مباشر على سياسة الإمام تجاه جاره فى الشمال فحسب ، بل كان أيضًا لها تأثير كبير على سياسته تجاه القوى الخارجية الأخرى . ويتضح هذا فى تعاهده مع الدول الأجنبية المختلفة ، وإن كان سرعان ما يحرص على أن تكون هذه المعاهدات ، محدودة للغاية فى أغراض معينة ، ويخضع موادها – عند التنفيذ – لوجهة نظره هو ، وطبقًا لما يراه فقط مما يقلل فى النهاية من أهمية هذه المعاهدات ، ويضعف بالتالى مدى استفادة اليمن منها . وكانت علاقته مع إنجلترا من أسباب موقفه هذا ، فهو يخاف النفوذ الأجنبى والقوى الأجنبية بكل صورها وأشكالها – وكانت إنجلترا صورة حية تمثل أمام عينيه كل ما هو أجنبى – ولكنه فى نفس الوقت ، كان يحتاج إلى قوى أجنبية تسانده فى مقاومته لإنجلترا وفى نيل مطالبه منها . فكأنه فى الحقيقة كان يخاف النفوذ الأجنبى ولكنه كان يشعر بالحاجة إليه فى نفس الوقت .

وهذا هو الدافع الأساسى الذى أدى به إلى عقد معاهدة « صنعاء » مع الاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٨[١] ، أي عند اشتداد المنازعات الحربية مع إنجلترا ، وهذا ما جعل البعض يذهب إلى القول إن هذه المعاهدة أدت إلى ازدياد شعور الإمام بالقوة أمام تهديد إنجلترا ، مما جعلها تصر على

---

(١) Survey of International Affairs, 1930, PP. 170_ 171,

استعمال طائراتها ضده لإخراج قواته من المحميات[1] . ولكن كانت هناك عوامل أخرى أدت إلى هذا التقارب اليمنى السوفيتى ، فمن الناحية الدولية كان عام ١٩٢٨ ، هو عام انعقاد المؤتمر السادس للكومنترن[2] ، والذي بدأ به الاتحاد السوفيتى ما سمى العهد الثالث الذى واجهت موسكو الشرق فيه بشكل يائس بعض الشيء . وكان الاتحاد السوفيتى يرى أن بريطانيا هى التى تمثل رأس الاستعمار فى العالم ، ولكنه كان يشعر فى نفس الوقت - ومن وجهة نظره « النظرية » البحتة - أن الشرق الأوسط ليس معدًّا إعدادًا كافيًا لنشر نفوذه فى ربوعه ، إذ كانت هذه البقاع ، إما واقعة تحت النفوذ البريطانى أو الفرنسى مباشرة وهذا الأغلب الأعم ، أو متأثرة سياسيًّا وحضاريًّا بوجود هذا النفوذ فى أقاليم مجاورة قريبة . وكان يرى أن حالة هذه المنطقة عمومًا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتصف بالتخلف والتأخر ، مما جعل الاتحاد السوفيتى يشعر بأنه أمام وضع معين من الصعب عليه التوغل فيه ، ولكنه حاول فى نفس الوقت ، إقامة علاقات تجارية وسياسية مع اليمن والسعودية ، وذلك لأنهما كانتا الدولتين الوحيدتين العربيتين اللتين خرجتا من الحرب العالمية الأولى وهما متمتعتان بالاستقلال التام . وقد أمد الاتحاد السوفيتى العربية السعودية بكثير من البضائع اللازمة ، وأنشأ له قنصلية فى جدة ، وعمل على إغراق الأسواق بالبضائع المختلفة ، مما أثار ضده باقى تجار وقنصليات جدة ، وهذا اضطر بالتالى الحكومة السعودية إلى الحد من نشاط التجار السوفييت[3] وهكذا كان اختيار السوفييت للعربية السعودية ولليمن كمجالى نشاط لهم أمرًا طبيعيًّا ، إذ لم يتمكنوا من إيجاد أية فرصة

---

(١) Philby : Saudi Arabia, P. 334,

(٢) والترلاكور : الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط (ترجمة لجنة) الطبعة الأولى -بيروت- أغسطس سنة ١٩٥٩ ص ٩٨ .

(٣) Philby : Ibid, P. 334,

لمد نفوذهم إلى البلاد العربية الأخرى . وقد عبر أحد أفراد الوفد إلى اليمن فقال : « نرغب أن نعقد معاهدة تجارية مع الإمام يحيى ، إذ لا يخفى عليكم أن بلادنا واسعة ومحصولاتنا كثيرة وأبواب العالم الخارجي مغلقة في وجوهنا ، فنحن نسعى لإيجاد أسواق جديدة ، وهذه البلاد من جملة البلاد التي يمكننا أن نعمل معها، ونجد فيها أسواقًا تجارية »[١] .

وقد تمكن الوفد السوفيتي من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع الإمام سميت بمعاهدة « صنعاء » ، وذلك في أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ (١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧) . (انظر ملحق ٨) .

ويعتبر الإمام أول من أقام علاقات سياسية مع الاتحاد السوفيتي ، فعقد معه هذه المعاهدة التي عقدت في وقت مبكر جدًّا بالنسبة لبلدان الشرق الأوسط . وقد حقق الإمام من ورائها أغراضه السياسية والاقتصادية ، فاعترف به الاتحاد السوفيتي وباستقلاله وباستقلال بلاده كما نظم معه التبادل التجاري والعلاقات السياسية .

وكانت مدة سريان المعاهدة عشر سنوات ولكنها لم تجدد بعد مرور هذه المدة ، فقد سحب الاتحاد السوفيتي كل هيئاته الدبلوماسية التي تعمل في المجال العربي سنة ١٩٣٨[٣] .

وكان دافع الاتحاد السوفيتي الجديد ، هو فشلة أمام النفوذ الإيطالي والألماني اللذين تغلغلا في المنطقة العربية بوجه عام . فقد كانا يمثلان أمام الشعب العربي المنقذ والمحرر من الاستعمار الإنجليزي الفرنسي ، فقد تغلغل النفوذ الإيطالي في اليمن واستطاعت إيطاليا تجديد معاهدة سنة ١٩٢٦ مع الإمام ، في الوقت الذي سحب فيه الاتحاد السوفيتي دبلوماسييه ، واختفى نشاطه تقريبًا في اليمن إلى أن تجدد ثانية بعد ذلك بمدة طويلة في سنة ١٩٥٥ .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٨ .

(٢) Philby : Saudi Arabia, P. 334,

وكيفما كان الأمر فقد كان للبعثة التجارية السوفيتية نشاط كبير فى اليمن ، وقد أثبتت وجودها إلى حد كبير ، ونافست بشدة باقى الفئات التجارية فى الحديدة مما كان له أثره السيئ على تلك الفئات . فكانت هناك مثلا جماعة من اليونانيين يعرفون بـ« إخوان ليفراتو » تشترى البن بأرخص الأثمان من الأهالى ، ثم تبيعه فى الأسواق الخارجية بالسعر الذى تريده ، وهكذا كانت تتحكم فى سعر البن اليمنى سواء فى الداخل أو الخارج ، وذلك لقلة رأسمال التجار الوطنيين وعدم درايتهم بالعالم الخارجى وأسواقه ، ولكن « الشركة التجارية الروسية » - هكذا كان يدعى الوفد السوفيتى فى اليمن - أخذت تضارب تجار البن وغيرهم من التجار بشتى البضائع . ويصف نزيه العظم هذا النشاط التجارى للشركة التجارية الروسية فيقول : « وقد رأيت سماسرتها فى الطريق يبتاعون البن رأساً من القرويين ، وقد جلبت شيئاً من السلع المختلفة كالسكر والأرز والدقيق والكاز والخشب والكبريت والأقمشة إلى غير ذلك من البضائع الكثيرة ، واستولت على الأسواق التجارية ، وثبتت أثمان الحاجيات بعدما كان التجار يتلاعبون بها كيفما شاءوا . وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد فى اليمن ، وأخذ بها معظم التجار وصاروا يمتدحون هذه الشركة ، ويثنون عليها أطيب الثناء . وقد اهتمت الحكومة الروسية كثيراً بأمر اليمن ، وصارت تسير بواخرها من أوديسا فى البحر الأسود إلى خليج فارس فى العجم ، فتمر هذه البواخر بالبحر الأحمر وتقف بالحديدة فى ذهابها وإيابها ، وتنقل البضائع والحجاج بأثمان بخسة لا تزاحم . وقد ضربت بعملها هذا ، السفن التجارية الصغيرة التى تسير بين شواطئ البحر الأحمر ضربة قاضية لأن أصحاب هذه السفن كانوا يستنزفون أموال التجار ، ويتقاضون منهم أجوراً غير معقولة لنقل بضائعهم ، ولذلك لما أتت هذه الشركة الروسية حول التجار نظرهم نحوها ، وانصرفوا عن غيرها ، ولا تأتى سفينة روسية إلى الحديدة إلا وهى ملأى بشتى البضائع والحاجيات ، وتعود من الحديدة ملأى بالجلود والبن »[1] .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

وفى حقيقة الأمر كان التقارب اليمنى السوفيتى يمثل جانباً من الصراع الدولى بين الاتحاد السوفيتى وبين الدول الغربية وخاصة إنجلترا ، وقد بدأ هذا التنافس الدولى قبل ذلك بسنوات . فمن المعروف أن الاتحاد السوفيتى قد اعتمد له قنصلا فى جدة فى ١٩٢٤ لدى بلاط الملك حسين ، كما كان الاتحاد السوفيتى أول دولة اعترفت بابن السعود ملكاً على الحجاز بعد طرد الأسرة الهاشمية سنة ١٩٢٥ . وقد حاول هذا القنصل أن يعمل من مقره فى جدة ، على الاتصال بالعناصر المتمردة غير الراضية فى حوض البحر الأحمر ، ونشر النفوذ السوفيتى . وبناء على اقتراحه ، بدأت السفن السوفيتية تبحر بانتظام سنة ١٩٢٧ فى البحر الأحمر وغيره لخدمة أغراض الحج ، كما عرضت البضائع السوفيتية فى الأسواق بحوالى نصف تكاليفها ، وفى سنة ١٩٢٧ افتتح فرع الشركة « التركية الروسية » فى جدة ، لكن سرعان ما عطل ابن السعود نشاطها كما ذكرنا . وقد أدى هذا النشاط إلى عقد المعاهدة مع السوفييت فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ ، وتعيين قنصل تجارى فى صنعاء . ولكن إنجلترا إنقاذاً لمصالحها فى الجزيرة العربية ، ومنافسة للنفوذ السوفيتى الممتد هناك ، سارعت إلى رفع مفوضيتها فى جدة إلى درجة سفارة ، وقد قامت بهذه الحركة حتى تضمن لوزيرها المفوض هناك مركز عمادة الهيئة الدبلوماسية فى بلاط الملك ابن السعود[١] .

أحوال الإمام بعد حوادث سنة ١٩٢٨ :

فى نهاية عام ١٩٢٨ ، أصبح وضع الإمام السياسى محدوداً إلى درجة كبيرة ولكن لم يكن هذا التحديد يعنى الاستقرار أو الوصول إلى حلول وأوضاع مرضية . فقد وصلت العلاقات اليمنية الإنجليزية حينئذ إلى حالة أكثر وضوحاً ، إذ أعادت إنجلترا حدود محمياتها إلى ما كانت عليه أيام الحكم العثمانى لليمن وذلك بقوة طائراتها . وقد أرضاها هذا الوضع الذى وصلت

---

(١) Survey of International Affairs, 1939 - 1946 : pp. 488 - 489

إليـه ، فمما لا شك فيه أن دخـول الإمـام المحميات أثـر على النشاط التجـارى البريطانى مع الحديدة ومع الـداخل - سواء فى المحميات أو فى اليمن - وذلك منذ ١٩١٩ حتى ١٩٢٨ - ممـا أعطى الفرصـة لازدهار نشاط قـوى أخرى مثل النشاط الإيطالى والأمريكى[١].وكانت هذه المنافسـات تضايقها كثيراً فهى دولة تجاريـة أساسـاً ، كما كانت تعتبر تلـك الجهات مجالا لنفـوذها الخاص ، لـذلك كانت تطمع فى إقرار الأوضاع ، ولكن بما لا يتعارض مع مصالحها ونفوذها . أما الإمام فقـد كان مجبراً - أمـام الهزائم الحربية على حـدود المحميات - على طلب فتح بـاب المفـاوضـات مع إنجلترا ، وذلك فى سبتمبر سنـة ١٩٢٨ لتسـويـة الأوضاع بين الدولتين[٢] .

وفى نفس الوقت كـان وفد الإمام إلى مكـة قد عاد دون الوصـول إلى نتائج حاسمة ، وظل الوضع معلقاً بين الدولتين - اليمنية والسعودية - منذ أواخر عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣١ ، عندما وقعت حادثة جبـل « العَرو » . وظل الطرفان - خـلال هـذه الفترة - يحـــاولان تقـويـة قبضتهما على مـا تحت أيـديهما من الممتلكات ، وقد ارتضيا بقـاء الوضع الراهن على ما هو عليـه ، أملا فى الوصول إلى وضع نهائى مستقر .

أما من الناحية الدولية ، فقـد أصبح للإمام معاهدتان مع دولتين كبيرتين : مع إيطـاليـا سنـة ١٩٢٦ ، ومـع الاتحاد السـوفيتى سنـة ١٩٢٨ . ونحب بهذه المناسبـة أن نؤكـد أن الإمـــام لم يكن يهتم بـالناحية الـدولية إلا اهتمامـاً ضئيلا للغاية ، ولم يكن ينظر إليها إلا كوسيلة لحل مشاكله وتدعيم مركزه دون أن يؤمن بفوائدها الأخرى فى تطـوير بلاده . وهذا يعنى أنه لم يعقـد هاتين المعاهدتين إلا تحت ضغط ظروف معينـة دون إيمان منه بضرورة إقامة عـلاقات دبلومـاسية مع البلاد الأخرى .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 312.

(٢) Ibid : 1928, p. 317.

ولم تكن أحداث اليمن الداخلية منفصلة عن باقى أحداث حياة الإمام السياسية ، بل لا يمكن فهم سياسة الإمام الخارجية إلا إذا تتبعنا الأحداث الداخلية جنباً إلى جنب مع باقى أحداث الإمام ، ذلك أن كلا من الناحيتين يتبادل التأثير فى الأخرى ، فذبذبات الوضع الداخلى هى تعبير عن أحداث السياسة الخارجية ، التى تؤثر بالتالى فى ظهور الذبذبات نفسها .

ويتضح هذا التأثير المتبادل والفهم الخاص له ، إذا تتبعنا أحداث اليمن بعد استقرار الأوضاع مؤقتاً على الحدود الجنوبية عام ١٩٢٨ ، ودققنا النظر فى ملاحظة التوافق الزمنى بين أحداث الداخل والخارج . ففى أواخر سنة ١٩٢٩ ، أى بعد إخماد ثورة الزرانيق ، أرسل الإمام حملة لإخضاع الجهات شرقى صنعاء . وكانت هذه البلاد لم تخضع بعد لحكمه ، وكانت تتمتع باستقلالها تحت حكم رؤسائها . ويقول الجرافى عن هذه الحملة : « وفى سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩) تم فتح بلاد « الجوبة » و « حريب بيحان » من مشارق اليمن ، وقد سار إليها الشريف عبد الله الحمزى الذى رتب أحوالها ، وقد وظف الإمام بها العمال والحكام »[1] . واستمرت محاولات الإمام هذه « ففى سنة ١٣٥١ هـ (أواخر سنة ١٩٣١) سار عبد الله الوزير وعبد الله الحمزى وعدد كبير من رجال الجيش النظامى لفتح « مأرب » فدخلوا من بلاد « خولان » وكانت طريقهم من «صرواح » . وقد استولى الجيش المظفر على « مأرب » بعد معارك دامية اشتبك فيها الجيش اليمنى مع قبائل « عبيدة » بوادى « ذنقة » وقد احتل الجيش الإمامى المراكز الرئيسية »[2] .

ولم يقتصر أمر هذه الحملات على بلاد الشرق لإتمام فتحها وإخضاعها لحكم الإمام ، بل أرسل بعضاً منها إلى جهات أخرى حتى يضمن خضوعها لحكمه « ففى ١٣٥١ هـ (أواخر سنة ١٩٣٢) سار سيف الإسلام أحمد

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٤١ .

لتأديب قبائل « دهم » الذين لم يدخلوا فيما دخل فيه قبائل اليمن من تسليم رهائن الطاعة ، ولا أمنت بلادهم من طغيان أهل الفساد ، ولما وصل إلى الجبل الأسود الذى وراءه أرض قفر تمتد حتى الجوف ويحصل فيها السلب والنهب ، أمر ببناء ثكنات للجنود يقيمون فيها لحفظ الأمن ، ولضمان استقرار الحالة ، ومنع أرباب الفساد من ارتكاب الإجرام .. وسرعان ما وصل إليه أشراف الجوف ورؤساء « ذى حسين » وغيرهم ، فأخبرهم أن الغاية والغرض من مجيئه ما هو إلا إصلاح أهل البلاد ، وتأمين الطرقات ، وإقامة الشريعة المطهرة . وطلب منهم الرهائن المختارة فأذعنوا لما طلب ، ثم ظهر الخلاف من « ذى حسين » أهل جبل « برط » فزحف عليهم الجيش المتوكلى وهزمهم شر هزيمة ، وقد مثل بين يدى ولى العهد أكابر « ذى نوف » الذين ليس لهم عمل إلا غزو قبائل المشرق ، وقد تمتد غزواتهم فى بعض الأحيان إلى نجد ، ولهم فى ذلك حكايات غريبة .. وبلغت الرهائن من « ذى محمد » و « ذى حسين » و « بنى نوف » نحو ٣٠٠ شخص ، وأرسل ولى العهد بعض من يثق بهم من أفراد الجيش لحصر عدد المواشى والنخيل فلم يعترضهم أحد. وفى ذى القعدة سنة ١٣٥١هـ (مارس ١٩٣٢) بلغ سيف الإسلام ولى العهد أن شرذمة من « وائلة » التابعين لذى محمد لم يسلكوا مسلك الطاعة فأمر عامل « برط » بالزحف عليهم ، فتقدم على رأس قوة إلى محل « الفرع » فاستنجدوا بقبائل « يام » وخرجوا إلى أطراف « الفرع » واشتعلت نار الحرب بين الفريقين . وواصل ولى العهد إرسال الإمدادات فانهزمت « يام » وفر رجالها ، ولم يقفوا إلا فى « نجران » . ثم أعد سيف الإسلام ولى العهد الجيوش الجرارة وأمر بالزحف على وادى « نجران » وفى محرم سنة ١٣٥٢ هـ (أبريل - مايو ١٩٣٣) تقدم الجيش المتوكلى على نجران ودخلها عنوة ، وفرت قبائل « يام » منها لا تلوى على شىء وغنم الجيش كثيراً من أموال المكارمة »[١] .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

ورغم أن الجـــرافى - يمنى الأصــل - مؤرخ نصب نفســـه للدفـاع عن الإمام يحيى ، إلا أننـا حرصنا على ذكـر روايته نفســها عن محـــــاولات الإمام لإقرار السلام وفـرض سيطرته داخـــل اليمن ، وهى محاولات ذات صفـة حربية عنيفـــة .

ورغم أنه يبدو من هــذه الرواية أن هذه الجهات متمـردة ثائرة ، وأن الإمام يقـوم بواجبـه الشرعى ويلجأ إلى العنف لإخضـاعها لسيطـرتـه ، إلا أن الروايـة نفسهـا توضح بين طيـاتها حالـة هذه القبـائل وسبب ثوراتها ، وسيـاسة الإمـام تجاهها واستيلائه على الغنائم والرهائن منها .

حادثة جبل « العرو » سنة ١٩٣١ على الحدود اليمنية السعودية :

تجددت الأزمـات الحادة بين الإمـام يحيى والملك ابـن السعـود بعـد فشل البعثة اليمنيـة إلى مكة سنة ١٩٢٨ ، عندمـا وقعت حادثة العـرو فى صيف سنة ١٩٣١ . فقد حدث أن احتلت قوات الإمـام جبل « العرو » على حدود عسير ، وأخذت بعض الرهائن ، كما حـرضت القبائل على التخلى عن ارتباطهـم مع ابن السعود(١) .

وهــذه الحــــادثة فى حد ذاتها تعبر عن أمـور بـالغة الأهميـة ، فحتى ذلك الـوقت لم تكن هناك حـدود معينة ثـابتة يمكن أن يقف عنـدها نشـاط كل من الطرفين ، كما لم تكن هنـــاك كذلك خرائط معتمـــدة يمكن الرجـــوع إليهــــا عـــند وقـوع اخـــتلاف أو تعـدّ(٢) . وتدل هـــذه الحـادثة كذلك على أن أهـالى هذه المنــــاطق لم يكونوا قـــد استقروا بعــــــد على وضــــع معين سواء تحت حــــكم الريـاض أو صنعاء ، ممـا كان يتيح الفـرصة لكـلا العاهلين أن يـدعى

---

(١) Survey of International Affairs, 1939 - 1934, p.313.

(٢) Philby O Saudia Arabia, p. 322.

لنفسه حكم هذه الجهات . وكان لكل منهما حججه وبراهينه ، وكانا ينظران إلى هذه البقاع التى تقع على الحدود المشتركة وكأنها ملك مستباح فلا مالك لها ، وبالتالى فعلى الطرفين أن يتسابقا فى وضع أيديهما عليها ليضع كل منهما الآخر أمام « الأمر الواقع » خاصة وأن كلا الطرفين كان يؤمن ضمنيًّا بسياسة بقاء الوضع الراهن على ما هو عليه إلى أن تتم تسوية نهائية . ونتيجة لهذا كله وقعت حادثة « العرو » وكان من الصعب حينئذ تحديد الجانب المعتدى ، وإن كان قد اتضح فيما بعد أن اللوم يقع على القائد السعودى الذى انتهك حرمة الحدود اليمنية على غير قصد منه[1] . فقد حدث أن أرسل أمير « جيزان » السعودى إلى مليكه يخبره أن قوات الإمام يحيى قد تقدمت إلى جبل « العرو » التابع للمنطقة الإدريسية ، وأخذت الرهائن من أهله ، وأن عمال الإمام يحيى يرسلون الكتب إلى رؤساء قبائل المقاطعة يدعونهم فيه إلى الطاعة للإمام يحيى ، ونقض عهدهم مع الملك ابن السعود وذلك بصورة صريحة .

وهنا بدأ الملك ابن السعود يراسل الإمام ، وأخبره أنه يستبعد أن يكون هذا التعدى نتيجة صدور أوامره بالزحف إلى جبل « العرو » فأجابه الإمام بأن أهالى العرو هم الذين طالبوه بالتقدم إليهم (لتعليمهم الدين) ويستسمحه إذا كان قد حدث تعدٍّ على المناطق المشمولة بالحماية السعودية .

وهنا اقترح الملك ابن السعود عقد مؤتمر من مندوبى الطرفين لتسوية المشكلة . وبدأت الاجتماعات بالفعل ، وجرت المفاوضات ، ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة قاطعة ، مما دفع الإمام إلى أن يرسل للملك ابن السعود ،

---

(١) Philby : Saudi Arabia, P. 322.

بأنه يترك حل النزاع بين يديه ، وذلك بعد فشل المندوبين فى الوصول إلى حل حاسم مقبول[١] .

وبعد هذه الاتصالات والمفاوضات الطويلة التى امتدت إلى نهاية العام (١٩٣١) وافق الملك ابن السعود على التخلى عن مطالبه فى هذه البقعة ، وتنازل عنها للإمام يحيى . وتلا ذلك عقد عدة اجتماعات بين مندوبى الطرفين مرة أخرى لعقد معاهدة صداقة وحسن جوار ، وقعت فى ١٥ ديسمبر ١٩٣١[٢] . (انظر ملحق ٩) .

وقد عبر العاهلان عن فرحهما وتقبلهما لمواد المعاهدة ، وأبرق الإمام يحيى بموافقته للملك ابن السعود الذى رد عليه فى ١٥ رمضان سنة ١٣٥٠ (يناير سنة ١٩٣٢) بالموافقة أيضاً ، إلا أنه طلب منه أن يرسل مندوبين للتفاوض معهم بشأن بعض الملاحظات على المعاهدة ، فقبل الإمام ولكنه طلب تأجيل سفرهم إلى موسم الحج أى فى ذى الحجة سنة ١٣٥٠ هـ (أوائل أبريل سنة ١٩٣٢) . وقد كانت هذه المراسلات تحمل روح الود والصداقة وتدل على التفاهم التام[٣] . ويتضح من قيام هذه المشكلة وما انتهت إليه ، عدم رغبة كل من الإمام والملك فى توسيع المشكلة وأخذها مأخذ الجد ؛ إذ سرعان ما وافق الملك ابن السعود على التنازل عنها كما رأينا ، كما وقف الإمام منها نفس الموقف إذ ترك حل الأمر بين يدى الملك ابن السعود ، وكان لا يفعل ذلك أبداً إذا كان الأمر ذا أهمية بالنسبة له ، أو إذا كان قادراً على الوقوف موقفاً أكثر إيجابية وحزماً . وإننا نرجع سبب وقوف

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان العلاقات اليمنية السعودية (الكتاب الأخضر) ص ١٦ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 313.

(٣) وزارة الخارجية السعودية : الكتاب الأخضر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

الملكين هذا الموقف المتهادن السلمى إلى أنهما لم يريدا الدخول فى حرب غير مضمونة من أجل بقعة أرض صغيرة غير ذات أهمية كبيرة على الحدود ، إلى جانب ما كان لكل منهما من مشكلات خاصة . فابن السعود لم يكن - كما يذكر فيلبى - بالحاكم الذى يندفع من أجل تحديد دقيق لحدود أرض بلا مالك ، حيث إنه كان يؤمن بضرورة ترك مثل هذه الأماكن لاستقلالها الواقعى -الفوضوى بعض الشيء - حتى تؤدى أوضاعها الداخلية الخاصة إلى وقوعها تحت سلطته ليتمكن من مباشرة سلطاته فيها كاملة[1] . لذلك لم يتحمس كثيرًا للتشدد مع الإمام يحيى . أما بالنسبة للإمام فلم يكن أمامه كذلك إلا أن يكون مسالماً غير متحمس للدخول فى توتر جديد مع ابن السعود من أجل جبل « العرو » فضلاً عن مشكلاته فى الجنوب مع إنجلترا .

مفاوضات اليمن مع إنجلترا والسعودية :

كانت إنجلترا قد نجحت فى هذه الأثناء فى العمل على جمع هذه الجهات مرة أخرى تحت سيطرتها ونفوذها ، بعد أن تخلخل هذا النفوذ خلال السنوات السابقة التى تلت الحرب العالمية الأولى . فعملت على عقد مؤتمرين فى خلال ١٩٢٩ ، ١٩٣٠م ، فى لحج حضرها سلاطين وأمراء ومشايخ هذه المحميات ، ووقع المجتمعون ميثاق التضامن « على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وتشكيل مجلس تحكيم لحل مشكلاتهم بصورة ودية . وقد افتتح المؤتمرين والى عدن ، ولكن رأس جلساتها سلطان لحج . كما كان والى عدن ورجال حكومته وضباط الطيران البريطانى على رأس المدعوين فى الحفل الذى أقامه سلطان لحج فى حديقة قصره بهذه المناسبة .

---

(١) Phiby : Saudi Arabia, P. 321.

وكانت انجلترا كذلك قد أجبرت الإمام على إخلاء سبيل رهائن المحميات حسب تعهداته السابقة فى « يوم ٢٠ رجب ١٣٤٩هـ (أكتوبر سنة ١٩٣٠) وكان يومًا تاريخيًا فى لحج »[١] .

وقد اتصفت علاقة الإمام مع انجلترا -بعد حوادث سنة ١٩٢٨ العنيفة- بالهدوء وسلوك طريق المفاوضات ، فقد اقترح الإمام فتح باب المفاوضات بين الطرفين وذلك فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ . وقد أدت هذه المفاوضات إلى اقتراح عقد معاهدة،وعهد إلى بريطانيا « أن تضع الأسس المناسبة للتعاقد بشأنها » وذلك فى أكتوبر سنة ١٩٣١ . ولكن الإمام قام باحتلال جزء من إقليم « العوذلى » مرة أخرى ، بعد أن كان قد خرج منه أثناء أحداث ١٩٢٨ . وقبض الإمام على حوالى أربعين رهينًا ، إلا أن هذا لم يمنع من استمرار المفاوضات بين البلدين . وقد صرح نائب وزير المستعمرات فى مجلس العموم فى ٢٨ يونية سنة ١٩٣٣ . بأن هناك ثلاثة شروط لعقد المعاهدة هى :

أولاً : الجلاء عن كل إقليم المحمية .

ثانيًا : الإفراج عن رجال قبائل المحمية .

ثالثًا : رفع القيود عن التجارة بين اليمن ومحمية عدن[٢] .

وقد أدى الوصول إلى تسوية مرضية ، واتفاق على هذه النقط ، إلى عقد المعاهدة بينهما فى فبراير سنة ١٩٣٤ ، وهو ما ستتناوله بالتفصيل فيما بعد .

صاحبت هذه العلاقات اليمنية الإنجليزية علاقات أخرى بين اليمن والسعودية ، واتخذت كذلك شكل المفاوضات فى هذه الفترة بالذات .

فبعد أن انتهت حادثة جبل العرو إلى النتيجة التى رأيناها ، رأى الملك ابن السعود استئناف المفاوضات حتى يصل الطرفان إلى تسوية نهائية بالنسبة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p.309 .

للحدود . وقبل أن يرسل للإمام مندوبين للتفاوض معه فى هذا الشأن ، قام « ابن رفادة » بثورة داخلية فى شمال الحجاز فى مايو سنة ١٩٣١ ، مما عطل إرساله المندوبين . وقد انشغل ابن السعود فى إخمادها ، وزاد الطين بلة أنه اكتشف أن بعض ثوار الشمال سالفى الذكر ، وجدوا فى اليمن ملجأ سياسيًّا يساعدهم على استمرار القيام بأعمال الثورة ، واتخذوا ميناء «اللحية» اليمنى القريب من الحدود السعودية مركزًا لنشاطهم ضد الملك ابن السعود[1] . وقد خوطب الإمام فى أمر هؤلاء الثوار فكان رده غير قاطع ، بل طلب من الملك ابن السعود الموافقة على أن يجير هؤلاء اللاجئين ، وأعرب عن عدم قدرته على منع هؤلاء من القيام بأعمالهم العدائية ، وبث الدعاية ضد ابن السعود . وقد زاد هذا من ضيق الملك ابن السعود إذ كان يعتبر ذلك ضد معاهدة « العرو » (١٩٣١) التى تنص على تسليم اللاجئين إلى حكومتهم، لهذا أرسل إلى الإمام خطابًا مؤرخًا ٨ جمادى الثانى ١٣٤١ هـ (نوفمبر سنة ١٩٣١) يقترح فيه وضع تسوية قاطعة لهذه المشكلات جاء فيه .. « إن أكبر ما نخشاه بقاء الحال على حالها الحاضر ، وهذا ليس فيه مصلحة عاجلة ولا آجلة لنا ولكم ، ولا للعرب ولا للإسلام ولا المسلمين . ومن أجل هذا أوفدت الذين يحملون كتابى هذا لأعرض على الأخ وضع اتفاق بيّن يثبت: **أولاً** : الحدود فيه بيننا وبينكم ، بشكل بيّن واضح لا يحتمل التأويل والشك . **ثانيًا** : أن نتفق على التساعد والتعاضد فى سائر المواقف العدوانية التى تكون علينا وعليكم سواء من الداخل أو الخارج ، وذلك على شروط أساسات بيّنه وفى حالات معينة نبينها . **ثالثًا** : نبين موقف صلات أمراء حدودنا وحدودكم ، وصلاحيتهم فى المخابرات ، ومساعدة بعضهم بعضا فى الأمور التى هى من صلاحياتهم ، ويكون الرجوع إلينا وإليكم فيما فوق ذلك من الأعمال . **رابعًا** : يسرى هذا التعاقد بيننا وبينكم ونتعهد عليه نحن وإياكم

---

(١) Survey of International Affairs, P. 314, Brémond 0 Yémen et Saoudia, P. 104,

على أنفسنا وأنفسكم وبلادنا وبلادكم وورثائنا وورثائكم ويصبح أمرنا واحدا وكلمتنا واحدة وعائلتينا كأنها عائلة واحدة مصداقًا لقوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ . وهذه أهم الأسس التى نرى أن يتم الاتفاق بيننا وبين الأخ عليها »[1] . وقد وافق الإمام على حضور المندوبين ، كما رحب بهذه النقاط الأربع وأرسل إليه خطابًا فى ٧ رمضان ١٣٥١ هـ جاء فيه : « وكل ما لديكم من الإحساسات التى أثارتها الحمية الإسلامية فذلك هو عين ما لدينا.. ونحن نوافق على ما أوضحتموه من الأربع مواد مع إلحاق ما يلزم ، إنما الذى فى النفس مسألة الحدود فهى المفتقرة إلى حسن النظر ، فالمرجو من حضرتكم عطف النظر إلى ذلك .. »[2] . وهكذا قبل الطرفان أن يتقابل مندوبهما للتفاوض فى وضع تسوية نهائية للمشكلات القائمة بينهما ، إلا أنه حدث ما لم يكن فى الحسبان مما عطل هذا التقابل وأخره إلى حين ، فقد قام الأدارسة بثورة ضد الحكم السعودى في نوفمبر سنة ١٩٣٣ . وهنا يحسن الوقوف قليلاً لبحث أسباب هذه الثورة .

ثورة الأدارسة :

عرفنا أن الإمارة الإدريسية قد شملت فى حياة محمد الإدريسى(١٨٧٦ - ١٩٢٣م) عسير وتهامة اليمن إلى جنوب ميناء الحديدة ، ولكن الإمام استطاع استرداد تهامة حتى « ميدى » ولم يستطع التقدم أكثر من ذلك لدخول حسن الإدريسى فى حماية ابن السعود حفاظًا على ما تبقى له من الإمارة وذلك فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ . إلا أن ابن السعود قام بخطوة أكثر إيجابية فى سبيل تقوية قبضته على الإمارة الإدريسية التى تحت حمايته حتى يأمن سلامة حدوده . فقام فى نوفمبر ١٩٣٠ بتحويل حمايته على الإمارة الإدريسية إلى نظام أصبح حسن الإدريسى فيه مجرد رمز فقط ، ووضعت

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص٣١ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢ .

الإمارة تحت إدارة موظفى ابن السعود مباشرة . وقد ضايق هذا السيد حسن الإدريسى ، فقام بتحريض القبائل العسيرية على الثورة ، واستطاع بمساعدتها أن يهاجم ميناء جيزان فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٢ .

وفى ١٧ نوفمبر دخل الإدريسى المدينة وقبض على الأمير السعودى وسجنه ، وأرسل فى نفس الوقت إلى الملك ابن السعود يعترف له بما حدث ، ويتهم أمير جيزان السعودى فهد بن زعير ، ويعلن شكه فى ولائه . فاقترح ابن السعود إرسال لجنة للتحقيق فوافق الإدريسى ، ولكن اللجنة رأت فى تقريرها أن الإدريسى مستعد للمقاومة ومتحفز لها . وهنا قامت القوات السعودية بمهاجمة « جيزان » وتمكن من احتلالها ثانية ، فتقهقر الإدريسى إلى صبيا ، ولكن القوات السعودية أخرجته منها قبل نهاية فبراير سنة ١٩٣٣ ، ففر حسن الإدريسى عبر الحدود إلى اليمن والتجأ به . وفرار الإدريسى لا يجعل دخول ابن السعود « جيزان » و « صبيا » مرة أخرى انتصارًا حاسمًا على الثورة الإدريسية ، لأن قائد الثورة أصبح بعيدًا عن متناول يده ، كما هربت بقايا القبائل الثائرة إلى جبال جنوب عسير على الحدود . أى التجأوا إلى معاقل من الصعب مطاردتهم فيها حيث إنهم أكثر خبرة بمسالك هذه الجبال ، وأكثر تمرنا على الحرب فيها من الجيش السعودى ، لهذا ظلت الثورة الإدريسية مسألة شائكة أمام الملك ابن السعود ، وكان لا بد من القضاء على عناصرها حتى يأمن شرها ، لذلك احتل تسليم الإدريسى جانبًا كبيرًا من المفاوضات اليمنية السعودية .

طالب ابن السعود الإمام يحيى بتسليم اللاجئين من الأدارسة ، وبدأت المراسلات بينهما بهذا الخصوص ، ولكن الإمام كان دائمًا يطلب العفو لهؤلاء اللاجئين ، فاتفق الطرفان أخيرًا على عقد مؤتمر بين مندوبيهما فى « ميدى » . وظهر فى هذه الأثناء تسوية - رفضها الأدارسة وبالتالي الإمام - ترمى إلى بقاء الوضع كما كان عليه قبل نوفمبر سنة ١٩٣٠ ، عندئذ أعلنت الحكومة

السعودية من ناحيتها فى ١٤ أبريل سنة ١٩٣٣ ، أن الملك ابن السعود وافق - دون أن يتعارض ذلك مع معاهدة العرو - على بقاء السيد الإدريسى فى إقليم من أقاليم الإمارة بشرط أن يقدم الإمام ضمانًا لحسن سلوك الإدريسى وتصرفاته ، على أن يدفع ابن السعود مرتبًا شهريًا للإدريسى[1] .
وكانت هذه التسوية نتيجة موقف الإمام ، فقد أظهر رغبته فى التوسط لهؤلاء اللاجئين ، وكان الملك ابن السعود يهمه أولاً وقبل كل شىء أمرين ذواتىْ أهمية بالغة : أولهما : المحافظة على صداقة الإمام ، أو بمعنى أدق عدم إثارة مشكلات جديدة على حدوده مع الإمام حتى يتفرغ لمشكلاته الخاصة ، وثانيهما، عدم قيام الإدريسى بأعمال عدائية ضده ، ويهمه - حتى يضمن ذلك - أن يكون الإدريسى تحت قبضة يده ولكن إزاء رفض الإمام قبل ابن السعود وجود الإدريسى لدى الإمام بشرط ضمان عدم قيامه بنشاط عدائى ضده . أما من ناحية الإمام فكان يرى أن وجود الإدريسى تحت قبضته فرصة ذهبية ومكسبًا كبيرًا بالنسبة لعلاقاته مع ابن السعود ، إذ يمكنه أن يساوم ابن السعود دائمًا بالأدارسة ، كما يمكنه أن يهدد بدفعهم إلى إثارة متاعب للسعودية على الحدود فى عسير ؛ وبالأحرى كان الإمام يرى بقاء الأدارسة فى اليمن تهديدًا مباشرًا لجاره الملك ابن السعود ، وأنهم ورقة رابحة فى يديه يمكن أن يلوح بها للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب .

انتهت أزمة الإدريسى بالصورة التى أوضحناها ، ولكن هذا لم يكن يعنى الوصول إلى عقد تسوية نهائية ، فأرسل ابن السعود إلى الإمام يسأله عما إذا كان قد غير رأيه بالنسبة لإرسال وفد إلى صنعاء لعقد اتفاق نهائى ؛ فأجاب الإمام بالنفى ، ورحب بقدوم الوفد السعودى إلى صنعاء ، بل

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 315.

عبر عن رأية فى أن يطلق الملك ابن السعود العنان لوفده لحل كافة الأمور بين الجانبين خاصة مسائل الحدود[1] . وقد وافق ابن السعود على إرسال الوفد بالرغم من أن مشكلة نجران كانت قد بدت فى الأفق ؛ بل كان الإمام قد بدأ فى احتلالها فعلاً .

النزاع حول نجران :

بدأت مشكلة « نجران » كمشكلة قائمة بذاتها عندما تقاربت الحدود بين الدولتين سنة ١٩٢٦ ، وعندما دخلت عسير فى حماية الملك ابن السعود ، ولكن وضعها ظل شائكًا مضطربًا منذ ذلك الوقت ؛ إذ تمسك أهلها باستقلالهم . ورأى ابن السعود - بالرغم من أنه كان يرى أنها جزء من نجد أن تظل متمتعة باستقلالها الذاتى حتى تظل حاجزًا بين أملاكه وأملاك الإمام ، ولكنه كان فى نفس الوقت لا يقبل أن تقع « نجران » تحت نفوذ منافسة الإمام . إلا أن أحداث اليمن الداخلية أدت إلى التوسع فى نجران نفسها ؛ أو هكذا يحب المؤرخون اليمنيون تفسير دخول القوات الإمامية نجران ، بعكس السعوديين الذين رأوا أن دخول القوات الإمامية نجران كان اعتداء واضحًا على الأملاك السعودية ، فقد ذكر الجرافى - كما رأينا - أن ولى العهد سيف الإسلام أحمد ذهب إلى حدود بلاده الشمالية لإقرار الأمن هناك وتنظيم أمورها ، ولكن أعماله الحربية هناك أدت إلى فرار إحدى القبائل إلى نجران واستنجادها بقبائل « يام » التى انهزمت وفرت إلى (نجران) نفسها ، مما دفع سيف الإسلام إلى ملاحقتها حتى هناك بجيوش جرارة فهزمها وغنم منها الكثير وذلك فى محرم سنة ١٣٥٢هـ (مايو سنة ١٩٣٣) . « وفى شهر جمادى الأولى من هذه السنة (أكتوبر سنة ١٩٣٣) أرسل ولى العهد فرق

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ؛ ص ٣٣ .

الجيش المتوكلى إلى وادى (نشـــور) ثم أصـدر أمره إليها بـالزحف على مـدينة (بدر) (وهى المدينـــة الثـانية الهـامة في نجـران) فوســع ذو الأغــراض الخــلاف بـين حـكومتى اليمن ونجـد ، وكان ما كان من إرســال البعوث بين الطـرفين ، حتى تفاقم الشر وبـدأت الحرب بين الحكـومتين العربيتين فى تهامـة وجبال عســير ونجران ... »[1] . وهكذا أظهر الجرافى - اليمنـى - أن دخــول القـوات اليمنية كـان نتيجـــة وجـــود اضطـرابات داخليـة فى اليمن أدت إلى مطاردة المتمـردين - ومن استنجـدوا بهم - فى نجـران نفسهـا . كما ذكر الجرافى أيضًا - وهـذا يتضح فى أثنـاء المفاوضـات - أن دخول نجران كـان بحجة إقرار السـلام ، وتعليم أهلها أصـول الـدين الإســلامى . وقبـائل (يام) هـذه التى تقطن نجـران ، تقـع بـلادهم على مسـافـــة ١٨٠ ك.م. من (أبها) فى الجنـوب الشرقى ، وعلى مسافة ٧٠ ك.م. من صعدة في الشمال الشرقى .

وتعـد نجران من القطـاعـات الهـامة في الجـــزيرة العـــربية ، ومن أهـم مـدنهـا (نجـــران) و (بدر) وتقع مدينـة نجـــران على وادى نجـــران الذى تنحدر إليه ســيول بلاد قحطان وجبـال نجـــران فى الشـــرق . وقبائل (يام) تدين بالمذهب الإسماعيلى ، وهـو من المذاهب الباطنية ، وشــيخ مشـايخ هذه القبائل يسمى (هبـة الله) وهو ذو شخصية هـامة ، ويجمع بين رياســـة قبائل (يام) الإداريـة والدينية ، ومنهم قبـائل تسكن مقاطعـة (حـــراز) و (منـاخة) داخل اليمن ، ولهم فيها أملاك ونفوذ ، ويسمى رؤساؤهـم هناك باسم « الداعى» وهم على طرف نقيض مع الزيـدية . ويعيشـــون على ذرى الجبـــال المنيعـــة ، وللدعـاة منازل ضخمة البناء ذات طبقـات متعددة ، مقـامة فى مواقع منيعـــة وعليها أبراج قوية للدفاع عنهـــا . والدعـاة فى اليمن يتبعـــون مشـــيخة (يام) فى عســـير ، ويأتون بربع أمـوالهم إلى الشـــيخ هبـة الله . وقـد حـاول الإدريسى

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٤ .

ذات مرة أن يتفق مع قبائل « يام » ضد الدولة العثمانية فلم يوافقه هؤلاء على ذلك خوفًا على مصالحهم فى جبل (حراز)[١] .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت وجهة النظر اليمنية فى دخول نجران تخالف وجهة النظر السعودية ، التى كانت ترى أن دخول الواحة عبارة عن اعتداء يمنى عليها . وكان لوجهة النظر الأخيرة صدى فى بعض الجرائد المصرية حينذاك ، فذهب المنار إلى أن « دخول نجران ومحاولة تحريض القبائل فى عسير والهجوم عليها سببه الرئيسى هو ولى العهد الشاب العسكرى المتوثب (هو الإمام أحمد فيما بعد) وأنه هو الذى قد يكون يزين لأبيه أن الفرصة سانحة للتحريض ، وأن على الجيش المتوكلى احتلال ما يريد احتلاله من البلاد لوضع الملك عبد العزيز أمام الأمر الواقع كما حدث فى جبل العرو ، فيضطر للاعتراف به لما هو عليه من العسرة المالية التى تحول دون تجهيز جيش عرمرم يكافح به الثورة الجديدة ، وما وراءها من الجيش اليمنى مع شدة حرصه على اتفاق الحكومتين »[٢] .

ولكن دخول نجران كان مثارًا لتوتر جديد على كل حال ، فقد دفعت شكوى أهالى نجران ابن السعود إلى اتخاذ موقف حازم ، فأرسل قائده خالد بن لؤى - بطل معركة « تربة » - إلى هناك بجيش كبير من الإخوان ، ولم يثبت الجيش اليمنى فعاليته أمام هذا الهجوم السعودى ؛ إذ انسحب بعد قتال خاطف[٣] .

---

(١) الأهرام : العدد الصادر فى ٢٤/ ١/ ١٩٢٥ ، ص ٢ (من مقالة بعنوان مذكراتى عن بلاد العرب للفريق سليمان شفيق كمال باشا أحد نظار وزارة الحربية العثمانية) .

(٢) المنار : الجزء ٥ ، المجلد ٢٣ ، فى جمادى الأولى ١٣٥٢ هـ (سبتمبر ١٩٢٣) .

(٣) Philby : Arabian Jubilee, , P. 185.

أما الوفد السعودى إلى صنعاء ، الذى حضر إليها فى مايو سنة ١٩٣٣ ، واستمر بها حتى الأسبوع الأول من أغسطس سنة ١٩٣٣ ، فلم يتوصل إلى شيء بل لاقى صعوبات كثيرة ، طوال هذه الفترة[١] . فتذكر التقارير السعودية ، أن الوفد السعودى ما كان يدخل الحدود اليمنية من جهة « ميدى » حتى « شاهد معالم الزينة والفرح تعلنها الحكومة اليمنية رسميًا ابتهاجًا باحتلال نجران ، غير ناظرة إلى ما فى ذلك من عدم اللياقة والإنصاف ، وإلى أنه قد يقف عثرة فى سبيل الصداقة التى تعمل حكومة جلالة الملك على غرسها »[٢] .

المفاوضات اليمنية السعودية فى صنعاء :

وجدير بنا هنا أن نستعرض بعض ما جاء بمحاضر جلسات هذه المفاوضات بين الوفدين اليمنى والسعودى حتى نقف على حقيقة وجهة نظر كل من الطرفين ، ونعرف سير هذه الحر ب الدبلوماسية التى تحولت فيما بعد إلى حرب ساخنة .

عبر الوفد اليمنى فى الجلسة الأولى عن سبب موقفه السابق من ثورة الإدريسى ، فقال : « إن الحكومة اليمنية كان لا يمكنها السكوت إزاء هذه الثورة خوفًا من أن يلجأ الإدريسى إلى الأجانب ليستعين بهم فمن المعروف أن الأدارسة أعداء الإمام الألداء ، ولكنه قبل أن يلتجئوا إليه خوفًا من تدخل الأجانب ، على أن يفتح بعد ذلك باب المفاوضات بخصوصهم مع الملك ابن السعود » . ولكن الوفد السعودى كان له وجهة نظر أخرى ، فكان يرى أن الإدريسى فى حالته هذه يعتبر بؤرة فساد ومصدر خطر : « لأنه بمقدار رمية سهم من حدودنا (السعوديين) وعنده رجال مفسدون يعملون لإثارة الفتنة ، وهو عدونا وعدوكم ، ولا يتورع من إلقاء

---

(١) Survey of International Affairs, 1934,. P 316.

(٢) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٣٣ .

الفساد بين البلدين . وربما يقال إن بقاءه هناك نافع لكم ومؤيد لسياستكم فهذا قول عدو ، فنحن نجلب دقة نظركم (نظر الوفد اليمنى) فى هذا الخصوص اتفقنا أو لم نتفق فى المسائل الأخرى ، لأن بقاء الإدريسى فى هذا المحل خطر على السلم بيننا وبينكم . ولذلك نقترح عليكم إما أن يكون عندنا فى المدينة تحت ضمانة جلالة الملك أو يجلب إلى صنعاء ، فإن كان قصدكم إكرام الضيف فصنعاء بها الهواء العليل والماء السلسبيل فتحلونه محل الضيف الكريم . . »[1] . وقد كان الطرفان متفقين على أن الإدريسى مصدر خطر على البلدين ، وأنهما يخافا اتصاله بالأجانب ، ولكن الوفد اليمنى من ناحيته طمأن الوفد السعودى بأن الإدريسى لا يقوم بأى نشاط فى ذلك الوقت ، وأن الإمام أخذ عليه تعهد بذلك .

أما فى الجلسة الثانية وكانت خاصة بالحدود ، فكان الوفد السعودى يرى «أن مسألة الحدود لم تعد مشكلة بعد ، فمعاهدة العرو قد ثبتتها ، إذ لم يكن معقولاً أن تعقد معاهدة بين دولتين قبل الإقرار بالحدود » . وأننا نعتقد أن الوفد السعودى كان يعنى بحديثه هذا حرصه على بقاء الحدود القائمة كما هى ، وأن كل ما يريده هو عقد معاهدة يعترف بها الطرفان لتأكيد وتثبيت الوضع الراهن . ولكن الوفد اليمنى كان يرى غير ذلك ، فهو لم يعترف بعد بأن تكون عسير جزءا من السعودية ، بل يريدها لليمن ، ويرى أن الملك ابن السعود لم يعتبر عسير جزءًا من بلاده إلا لأن الإدريسى لجأ إليه ، بالرغم من أن الإدريسى أصلاً يعتبر غاصبًا لحقوق الإمام . أما وقد تغير الوضع الآن ، واختفى الإدريسى من المنطقة فلا بد أن ترجع الحقوق إلى أربابها ، أى إن على الملك عبد العزيز أن يعيد عسير إلى الإمام . ولكن الوفد السعودى قطع كل أمل أو طريق أمام الوفد اليمنى فى رجوع هذه البلاد إلى اليمن ، إذ كان يرى أنها ليست جزءًا من اليمن ، وعرض

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٣٨ - ٤٠ .

تاريخ اليمن وعسير ، وأثبت أن عسير كانت مستقلة تحت سلطة رؤسائها المحليين طوال تاريخها الإسلامى حتى قال : « . . هذه حقائق ثابتة لا نريد أن نبحث فيها ، ومع ذلك فالبلاد التي تحت يدنا هى اليوم فى يد حكومة عربية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أخذتها بتضحيات جسيمة من مال ورجال ، وليست بأجنبية عنها لا فى اللغة ، ولا فى الأصل ولا فى الديانة ، ولا فى العقيدة ، فمتى تكلمنا فى هذا الباب لم نصل إلى فائدة معكم ، ولذلك لا نريد الخوض فى هذا . ومع هذا فنحن مستعدون - لرفع المشاكل بيننا - بأن ننظر إذا كان لكم اقتراح فى مبادلة وادٍ أو شعيب أو بعض قبيلة منقسمة تضم إلى أحد الطرفين فى مقابلة الشطر الآخر على الحدود ، فلا بأس أن نبحث فى ذلك ، وبعد درسنا الموضوع نفيدكم بالجواب ، إما سلبًا أو إيجابًا ، وغير هذا لا يمكن البحث فيه »[1] . وهذا يؤكد وجهة النظر السعودية ، ورغبتهم فى إقرار الوضع الراهن على الحدود كما هو ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة لمنع أى اضطراب فى المستقبل . وقد طلب الوفد السعودى فى الجلسات التالية إيجاد حل قطعى بالنسبة لمسألة الإدريسى، ومسألة نجران ، إلا أن رد الإمام على لسان وفده لم يكن قاطعًا .

وفى الجلسة الثالثة بالذات ، أخبر الوفد السعودى أن بعض القوات اليمنية دخلت « نجران » لضبط « بعض المواقع وتعليم الناس أمور الدين » لذلك بدأ الوفد السعودى يصر على الحصول على معلومات كافية عما حدث فى نجران ، كما أصر على أن يظهر الوفد اليمنى موقفه بصراحة فى مسألة نجران هذه . وقد أوضح الإمام غرضه من دخول نجران فى خطابه إلى الوفد السعودى والذى قرأه الوفد اليمنى فى الجلسة الثالثة وجاء فيه :

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٤٤ - ٤٥ .

« . . . وأى حكمة أو مصلحة دينية أو دستورية بإهمال أمر « يام » وتركهم يعيثون فساداً . وأى ضرر من إصلاحهم وارشادهم ورفع فسادهم وعدوانهم ، وأملنا أننا لو نحتاج إعانة لإكمال إخضاعهم لكان منا الاستمداد من حضرة جلالة الملك (يقصد ابن السعود) ... »[1] .

وأخيراً عاد الوفد السعودى إلى مكة بعد فشله فى المفاوضات ، وأرسل معه الإمام خطاباً إلى الملك ابن السعود يشرح فيه وجهة نظره فى مسألة الإدريسى ودخول نجران . فرد عليه الملك ابن السعود وطلب منه توضيح موقفه بصراحة ، وكان رداً قاسياً بعض الشىء ، مخالفاً قليلاً للروح الودية التى كانت تسود المراسلات السابقة بينهما . وسبب هذه اللهجة الجديدة هو طول المفاوضات - من ناحية - دون الوصول إلى نتيجة ، فى نفس الوقت الذى تقوم فيه الاضطرابات على الحدود - من وجهة النظر السعودية - نتيجة عدم وجود معاهدة نهائية لتسوية هذه الأمور كلها . ومن ناحية ثانية فإن تقرير الوفد السعودى الأخير الذى فشل فى مفاوضاته مع الإمام أثار ابن السعود ، وجعله يطالب الإمام باتخاذ موقف حاسم إزاء النقط المعلقة بينهما. فقد جاء فى تقرير هذا الوفد - وكانت لهجته كلها هجومية على الإمام - « ... ومع شديد أسفنا لعدم وصولنا إلى ما تمنيناه ، فإننا نعلن رضاء ضمائرنا من شىء واحد ، وهو أننا وفقنا إلى إزالة تلك الحال المبهمة بيننا وبين الإمام يحيى ، وأزلنا قناع الريب والنفاق بصورة لا تترك للشك مجالاً ، ولحكومتنا بعد الوقوف على الحقائق أن تختط منهاجاً ثابتاً تسير عليه فى المستقبل لأجل صيانة منافعها وحفظ أملاكها إلى أن تتبدل ذهنية القابضين على زمام الأمر فى اليمن ، وتأتى طوارق الحدثان بها تجبرهم على مصالحتنا ومسالمتنا ، ومعرفة أن هناك أمة عربية تتطلع إلينا وإليهم ،

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٤٧ .

وتطلب منا ومنهم الاتفـاق والاتحاد على مـا فيه عـز للعـرب والإسـلام وكبت للأعـــداء والاخصـام .. » وواصل التقـرير هجـومـاً قـاسياً على الإمـام يحيى ، وأظهــره أنه حـاسد طامع فى الأملاك السعودية . ثـم أخذ يشرح أسلوب الإمام فى سياسته نحو السعودية : « ... إن الإمام يحيـى يكرهنا ويخافنا ، ولكنه يحـترز من محاربتنـا ومجابهتنـا وجهـاً لوجـه وخطتـه التى يسير عليهـا تتلخص فى أنـه يعمــــل على إفساد القبـائل والأهـالى التابعين لنـا ، ويستعمل من أجل ذلك الغرض وسائل عديدة منها إثارة بعض اللاجئين إليـه من رعايانا ، ومنهـا دعاة المذهب الزيدى الـذين لهم صـلات مع أشخاص فى بلادنا ، ثم إذا اعتقــد أن الفرصــة سانحـة أجهــز على قطعـة من أملاكنـا ســواء بالحـــرب أو بالدس أو بالتظـاهر بتحكيم جلالتكم - كما حصــل له فى مســألة العــرو - والمماطلة والمراوغـة والتسـويف من الـوسائل الفعـالة التى يلجـأ إليها ، غير أن غايتـه القصــوى مـرتكزة على انتظار فـرصة الفتن الداخليـة ، أو الاشتباك مع إحدى الـدول ، للوصــول إلى ما يتمنـاه من أغراض »[1] . وكانت قسـوة هذا التقرير ، بـالإضافة إلى تقارير ولاة الملك ابن السعـود على الحدود ، التى تفيــد بأن هنـــاك تحركات مريبة من جـانب القــوات اليمنية على الحـــدود ، وأنهم يكتشفون بـاستمرار مـؤامرات واتصـالات عديـدة بين القوات اليمنيـة ورجال القبائل فى الجانب السعـودى ، وأنهم يحرضونهم ضـد الحـكم السعـودى ، كان هذا كلـه دافعاً لابن السعـود لإصدار أوامـره فى ١٤ نوفمبر سنـة ١٩٣٣ بحشد الفرق على حدود اليمن[2] . وقد لجأ إلى ذلك خـوفاً من قيـام أية مفـاجآت غير منتظـرة . ولكـن المراسـلات بين الملكين استمـرت كما كـانت - بـالـرغم من حشــــد الجيــوش - وإن كانت قـد اتخذت طابعاً أكثر حـزماً ، وذلك لأن الملك ابن السعود كان حـريصاً على الوصــول إلى تســوية نهائيـة من ناحية ، ولأن الإمـام رأى أن حشـد الجيـوش السعـوديــة على الحـــدود اليمنيـة يعنى

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) Survey of International Affairs, p. 316.

ضرورة اتخاذ موقف حاسم لإنهاء المشكلات المعلقة بينه وبين الملك ابن السعود ، إذ كان الإمام يشكو دائماً من أن بعض الفرق السعودية تتجاوز الحدود ، وكان الملك عبد العزيز يرد بالنفى ، ويطلب منه فى نفس الوقت توضيح موقفه فى النقاط الثلاث المعلقة . وقد أوضح ابن السعود فى رسالة مؤرخة فى ١٥ شعبان سنة ١٣٥٢ هـ (٢ ديسمبر ١٩٣٣) :

« هناك أمور ثلاثة عرضناها على سيادتكم مراراً ونكررها الآن وهى :

أولاً : أن تحددوا الحدود بيننا وبينكم بصورة قطعية ، وتكتب بعهد مكتوب .

ثانياً : نجران تنازلنا فى أمره وقلنا أن تكون قطعة محايدة .

ثالثاً : طلبنا إعادة الإدريسى طبق المعاهدة ، وأفدناكم إن كان ذلك صعباً فتكون إقامتهم فى صنعاء تساهلاً منا ومحبة فى الراحة ... والسلم والحرب متوقف على كلمة تقولونها إما نعم وإما لا ، وهذا يوضح الموقف ويحل المشكل »[1] . وقد وافق الإمام فى خطاب له رداً على خطاب ابن السعود على نقل الإدريسى إلى صنعاء ، ولكنه طلب من ابن السعود أن يوافق على نقله إلى « زبيد » حيث إن برد الأولى شديد ، فوافق ابن السعود على ذلك . وقد أوضح الأخير - رداً على سؤال الإمام عن كيفية تحديد الحدود - أن الحدود يجب أن تكون كما وضعها الوفد السعودى الأول بالإضافة إلى ما لحق ذلك من التعديل عند وقوع أحداث « العرو » . وقد أدت هذه الاتصالات إلى أن الإمام اقترح حلاً لمسألة الحدود هو : (ربط معاهدة حبية سلمية دينية لمدة عشرين سنة يثبت فيها كل من

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٨٥ - ٩٦ .

الطرفين على ما بيده فعلا من البلاد) . فوافقه ابن السعود قائلا : (وإنا نقبل ونؤيد اقتراحكم ، ونقبل أن تثبت الحدود التى بين الطرفين ، ويكون لكل فريق ما تحت يده من البلاد ، وأن تعقد بيننا وبينكم معاهدة صداقة »[١] . وكان اقتراح الإمام هذا فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . إلا أننا نريد أن نشير إلى خطورة هذا الاقتراح ، فهو من ناحية يعتبر تسليما وتنازلا من الإمام عن حقوقه فى عسير ، ومن ناحية أخرى يفتح الباب ولو سرًا لمؤامرات ودسائس كثيرة للحصول على أكبر قدر ممكن من النفوذ والبقاع حتى يمكن المطالبة بالسيطرة عليها ، وهذا يفتح الباب بالتالى للمباغتة وإثارة القبائل وتحريضها لكسب أرض جديدة ومواجهة الطرف الآخر بالأمر الواقع . وهذا ما حدث بالفعل ، ففى أثناء تبادل الخطابات بين ابن السعود والإمام كان حاكم عسير السعودى الجديد « حمد الشويعر » يبرق للملك باستمرار عن تحركات الفرق اليمنية على الحدود ، وأنها بدأت تتقدم إلى جنوب جبال عسير ، وتحرض رجال القبائل على التخلى عن معاهداتهم مع ابن السعود ، وتأخذ الرهائن والجزية لحساب الإمام[٢] .

وقد تعددت برقيات حمد الشويعر التى تصف نشاط القوات الإمامية على الحدود وفى جنوب عسير ، فيذكر فى إحدى برقياته أن الإمام حرض آل خالد و « آل سلمة » للهجوم على « بنى مالك » وهم جميعاً من أتباع ابن السعود . وقد رهنت القبيلتان المذكورتان عند سيف الإسلام عشرة أنفار وأعطاهم عشرة صناديق مؤونة حربية وأوعدهم بعسكر ، ثم علق على هذه العمليات بأن الإمام يقصد من ذلك : « تحريض الجبال لكى توقع بهم ، ويكونون أعداء لنا من جهة ، ومن جهة ثانية يريد أن يشغلنا بهم عن نفسه » . وفى برقيات أخرى ذكر « الشويعر » للملك ابن السعود أنه قبض على كتب

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٩٠ - ٩٣ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 316.

من السيد حسن الإدريسي إلى مشايخ القبائل في عسير يحرضهم على الثورة ، كما ذكر له أنه قد وصل جبل « العبادل » أربعمائة من جند الإمام غير الذين حضروا من قبل ، وأن قصدهم مهاجمة « صامطة » وذكر له غير ذلك من الأمثلة. وكان الملك ابن السعود يرد دائماً على واليه « حمد الشويعر » باتخاذ التدابير اللازمة ، على أن يكون ذلك دون تَعَدٍّ ، خوفاً من الوقوع فى الخطأ والتسرع فى الهجوم ، وكان الملك فى نفس الوقت يعده بوصول الإمدادات الكبيرة لتقوية مركزه فى هذه الجهات . وكان الملك ابن السعود يراسل الإمام يحيى فى نفس الوقت بخصوص هذه التحركات المريبة ، وكان الإمام يرد عليه بما لا ينفى وقوع مثل هذه الحوادث ، بل يذكر أنها رد على تحركات القوات السعودية ، وتطمين للأهالى الذين أصابهم الفزع من هذه التحركات . ثم أخبره فى خطاب قال إنه أمر ابنه سيف الإسلام « بالكف عن كل تحرك وعدوان وتجاوز » وطلب من الملك ابن السعود اتخاذ خطوة مشابهة ، وإصدار أمره إلى قواده بالكف عن القيام بأية حركة ..

واستمرت هذه الاتصالات البرقية بين الملكين رغبة فى القضاء على حالة التوتر السائدة على الحدود ، وتمهيداً لعقد مؤتمر لوضع التسوية النهائية . وقد رأى الملك ابن السعود أن يكون المؤتمر فى « أبها » وذلك لأمرين كما قال : « نظراً لوجود ولدنا ولى العهد فيها ، والثانى نظراً لتوفير المواصلات البرقية فى « أبها » مع الوفد ، فنرجوكم قبول اقتراحنا »[1] . وقبل الإمام الاقتراح فعلاً وعقد فى أبها فى ١٦ فبراير سنة ١٩٣٤ ولكنه فشل وعاد التوتر من جديد[2] .

مؤتمر « أبها » :

عقد مؤتمر « أبها » (فى عسير) بين مندوبى الطرفين فى ١٦ فبراير ١٩٣٤ ، إلا أنه لم ينته إلى شىء . ففى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ أعلنت الحكومة السعودية

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٩٤ - ١١٧ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 316-317.

فشل المفاوضات وأنه قد صدر الأمر لولى العهد بالتحرك لاسترجاع إقليم عسير التى توغلت فيه الفرق الزيدية (اليمنية)[١] . والحقيقة أن المقدمات التى سبقت عقد المؤتمر كانت تنبئ بفشله . رغم أن الأمل فى نجاحه كان كبيراً . فقد صرح الوزير المفوض السعودى فى لندن فى وزارة الخارجية الإنجليزية ، أن الملك ابن السعود سيحافظ على سياسته السلمية فيما يتعلق بإمام اليمن ، وأنه من جانبه مصمم على ألا يتخذ سياسة عدائية ، وكان المعروف فى دوائر لندن أن ابن السعود كان موجوداً حينئذ فى الرياض ، وأنه خطب فى نحو عشرة آلاف من جنوده فحتم عليهم التذرع بالصبر والابتعاد عن جميع الأعمال العدائية[٢] .

إلا أن الملك عبد العزيز كان قد أصدر أمره بتعيين ولى عهده الأمير سعود قائداً فى الجنوب ، كما أصدر أمره إلى ابنه الثانى الأمير فيصل - نائب الملك فى الحجاز ووزير الخارجية السعودية - بالسفر إلى السواحل والإشراف عليها وكانت الاستعدادات والحركات الحربية مستمرة كذلك على الحدود من الناحية اليمنية ، فقد قيل حينئذ إن قسماً من قوات الإمام قد اجتاز حدود تهامة عسير لمهاجمة قبائل « بنى مالك » و « العبادلة »[٣] . هذا فى الوقت الذى كان جيش ابن السعود يقف متأهباً على طول الحدود بين عسير ونجران مزوداً بكميات وافرة من الأسلحة والذخائر[٤] .

وهكذا انعقد مؤتمر أبها وسط جو مشحون بالآمال ولكنه محوط بالتحرش والاستعدادات فى نفس الوقت . وكان سبب فشل هذا المؤتمر ، هو

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 316-317.

(٢) الأهرام : العدد ١٧٦٤٧ فى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٤ (٨ شوال ١٣٥٢ هـ) ص ٤ .

(٣) الأهرام : العدد ١٧٦٤٠ فى ١٦ يناير سنة ١٩٣٤ (٣٠ رمضان ١٣٥٢ هـ) ص ٦ .

(٤) الأهرام : العدد ١٧٦٤٧ فى ٢٤/ ١/ ١٩٣٤ (شوال ١٣٥٢ هـ) ، ص ٤ .

اختـلاف وجهتى نظـر الوفـدين المجتمعين حـول النقط التى يجب بحثهـا دون غيرها ، اعتقاداً منهم بأن الملكين قد تـوصلا إلى حل بعض المسائل دون البعض الآخر ، وأنه يجب بحث النقاط التى لم تحل بعد فقط .

وكان الوفد السعودى يريد أن يبـدأ المؤتمر مباشرة مناقشة مسألة (نجران) أما باقى الحدود فكان الـوفد يرى أنها محددة باتفاقية مكـة المكرمة (سنة ١٩٢٦ بين السعـودية والأدارسـة) ثم ثبتت هـــذه الحدود فى الاجتماع الذى عقـد من أجل مســـألة (العرو) . وكان يرى أن هذه الحــــدود كانت مرعية من الجانبين إلى أن هـاجم الإمـام (نجـران) . ولكن الـوفـد اليمنى رفض فـكرة أن هنـــاك اتفاقا عقـــد بخصوص مســـألة الحـــدود ، ورأى أن تسويـة (العرو) لم تحـل إلا مسألة معينة .

وقد استمر الحال هكذا فى الجلسات الخمس التالية ، وفيها نوقشت مسألة نجران مناقشة غير مجدية ، إذ كـان كل من الطرفين متمسكاً بأحقيته فيها ، وأنها جزء من بلاده ، وكان كل مـن الطرفين يقدم الحجج والبراهين لإثبات ذلك[1] .

---

(١) ذكـر صلاح الـدين المختار فى كتـابه « تـاريخ المملكـة العربيـة السعوديـة فى ماضيهـا وحاضرهـا » « الجزء الثانى – ص ٩٦ – ٤٠٠ » بعض الـوثائق ليثبت تبعيـة « نجران » للمملكة العربية السعـودية ، منها : « عهد سعـود الكبير إلى أهالى نجـران وسائر « يام » بأنه متبع لدين الله وليس بمبتدع ويدعوهم إلى التمسك بمبادئ الإسلام » . ومنها أيضاً عهد الإمام فيصل بن تركى – جد الملك عبـد العزيز – لأهالى نجران بناء على طلبهـم – وهو بتجـديد عهـد الإمام سعـود الكبير وتأكيده ، وبإعـلان ولائهم لآل سعـود . ومنها أخيراً عهـود الملك عبد العـزيز – لضمان ولائهـم له . ولكنـا نرى أنـه لا يمكن الاعتماد عليهـا كثيراً فى إثبات تبعيـة هذه الجهـات للسعوديـة – وإن كنا لا ننفيهـا أو لا نعترف بوجودها وأهميتها ، بل نعتقد أن الولاء المشـــار إليــه كان دينيا أكثر منـــه سياسيا ، وأن « نجران » كـان يهمها أن تعيش مستقلـة بذاتها على أن تعلن – دون أن تجد غضـاضة فى ذلك – ولاءها للحـاكم الأقوى فى الجزيرة العـربية لتتمتع بحمايته . ويتضح هـذا الرأى الأخير فى عهد فيصل بن تـركى لهم إذ جاء فيه : « ومن بغى عليهم وطلبوا منـا المساعدة ما ندخرها عنهم بجنود المسلمين » .

وقد تضمن رد الوفد السعودى دائماً الناحية العملية ، إذ كان يذكر أن الإمام لم يدخل نجران إلا منذ أشهر ، وأن أهالى نجران استنجدوا بابن السعود وقاموا يحاربون جند الإمام مما يدل على عدم تبعية نجران لليمن . وكان الوفد السعودى يميل إلى جانب (حياد نجران) .

لكن الوفد اليمنى رفض هذا الاقتراح أيضاً رغم أن الوفد السعودى كان يهدد دائماً بأن السلم أو الحرب متوقف على قضية نجران .

وكان الوفد اليمنى على وجه العموم لا يرى ضرورة فى تحديد الحدود ، الأمر الذى يصر عليه الوفد السعودى ، إذ كان الأول يرى - على لسان رئيسه عبد الله الوزير « أن البلدين كالجسم الواحد ولا لزوم لتعيين الحدود لأن كل من تحت يده شيء فهو معلوم أنه له » إلا أن الوفد السعودى هدد بقطع المفاوضات إذا لم توضح الحدود توضيحاً تاماً ، مع ذكر النقط التى يمر بها خط الحدود المقترح . وقد انتهت الجلسة السادسة والأخيرة دون الوصول إلى نتيجة ما ، فتبادل الملكان المكاتبات مرة أخرى - وكان الوفدان ما زالا فى (أبها) وتشدد ابن السعود فى كتبه للإمام يطلب التوضيح والصراحة . فطلب أن يقابل ابن الوزير الملك ابن السعود ، إلا أن الأخير رفض وأصر على إخلاء جبال عسير ، والبت فى مسألة الأدارسة ونجران . ولما لم تؤد المكاتبات كذلك إلى نتيجة ، أمر ابن السعود بعودة الوفد السعودى[1] .

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية (من تقارير الوفد السعودى إلى ابن سعود) ص ١٤٢ - ١٤٥ .

الفصل السادس
الحـــرب اليمنيــة السعودية

قيام الحرب والعوامل التى أثرت فى سيرها :

أشـــاع إعلان الحكـومة السعـودية فى ٢٢ مـارس ١٩٣٤ فشل محادثات مؤتمر (أبهـــا) ذعراً كبيراً فى كـل الأوســـاط المهتمة بـالأمر ، كما شـــاع حينئذ خـبر قيام الحرب بين الـدولتين . فقد ذكرت الأهـرام أن وكـالة رويتر أذاعت فى ليـلة ٢٢ مـــارس أن رحى القتـــال قـد دارت بين الدولتين على طـــول خـــط الحـــدود . وأيدت المفوضيـــة الســـعودية فى لنــدن هـذا النبـــأ[١] ، إلا أن الحـــرب لم تنشـــب عشية فشـــل المؤتمر ، بل دارت محـــادثات لا ســـلكية بين الملكين ، حتى وجه الملك ابن السعود إنـذارًا نهائيًّا للإمام أيـده بتعبئة الجيـوش على الحدود ، وحـــدد فى إنذاره يومًـا معينًا لقبول شروطـه وهـو يوم ٥ أبريـــل (ســـنة ١٩٣٤) . وأصـــدر فى نفس الـــوقت أمـره إلى ابنيـــه – فيصـــل فى تهـامة عســـير ، وســـعود فى نجـــران – بأن يعبروا الحدود فى ذلك اليوم إذا لم يصدر أيـة تعليمات أخرى ، ويبـدو أن القدر تـدخل فى اللحظات الأخيرة ، إذ هبت عاصفة رملية هائلة استمرت ثلاثة أيام ، عطلت الاتصالات اللا سلكية ، فبـدأ القائدان الحـــرب دون انتظـار أوامـر أخـــرى ، وذلك فى الموعـد المحدد ، أى فى ٥ أبريـــل[٢] . ويبـدو أن هــــذا التاريخ هـو التاريخ الصحيح لقيـــام الحرب ، فقد أصدرت المفـوضية السعودية فى لنـدن مرة أخرى بيانًـا رسميًّا فى ٥ أبـر يل (١٩٣٤) قالت فيـه : « إن جـلالة الملك ابـن السعود بعـد أن يئس من الوصول إلى اتفاق مرضٍ مع الإمام يحيى أصـدر أمره إلى ولى عهده الأمير سعود

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٠٥ ؛ فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣٤ (٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٢) ص ٦ .

(٢) Philby : Saoudi Arabia, P. 322 - 323,

بأن يزحف بجنوده لمهاجمة القوات الأماميــة للإمام يحيى ، وقد تقدم الأمير فيصل بن سـعود ابن أخى الملك إلى « باقم » وأطرافها ، كما تقدم ابن أخيه الأمير خالد بن محمد إلى « نجران » و « صعدة » وتقدم حمد الشـويعر أمير تهامة عسير إلى « حرض » واحتلها ، وتقدم الأمير فيصل ، ثانى أنجال الملك عبد العزيز على شاطئ تهامة لتولى القيادة فيها ، على حين أن الأمير محمد النجل الأصغر للملك قد زحف من نجد بقوة احتياطية لإمداد أخيه الأمير سعود[1] . وهذا التصريح فضلاً عن أنه يؤكد إعلان الحرب حينئذ ، إلا أنه - إلى جانب ذلك - يوضح الاستعدادات التى اتخذها ابن السعود ، ويشرح تحرك قواته . ويثير هذا كله بعض التساؤل ، ويدفعنا إلى عرض أوضاع كل من الطرفين ، ونقط قوته وضعفه .

هناك بعض النقاط تدل على اختلاف البلدين وتناقض أوضاعهما مما قد يؤدى إلى الحرب ، ولكن هناك مسـائل أخرى متشابهة تجبرهما على الجنوح إلى السـلم . فمن المعروف أن الزيديين في اليمن شـيعة ، والسعوديين فى نجد من أهل السـنة ، بل من الوهابيين الغلاة فى هذا المذهب . وكان غالبية أهالى اليمن جبليين وزراعا مستقرين ، بينما كانت غالبية أهالى نجد يقطنون البرارى ، كما أنهم بدو . وبينما كان نفوذ ابن السعود موزعًا فى منطقة واسعة ذات أرض فقيرة ، فإن إقليم الإمام - وهو أقل مساحة إذا قارناه بالسعودية - كان يتميز بتركز سـكانه . وهذه المتناقضات قد تؤدى الدينية منها إلى الحرب ، على حين تؤدى الأخرى إلى السلم . فالاختلافات الجغرافية مضافًا إليها الاختلافات فى كثافة السكان يترتب عليها مساواة مادية فى قوة الرجلين ، إذ ستكون نتيجة الحرب دائمًا غير قاطعة بين قوتين إحداهما جبلية والأخرى بدوية. وإلى جانب ذلك كان هناك بعض التشابه فى ظروف الملكين ، مما يدفعهما إلى

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧١٧ فى ٦ أبريل سنة ١٩٣٤ (٢١ ذو الحجة سنة ١٣٥٢) ص ٤ .

السلم ، فمثلاً لم يكن الزيديون أو الوهابيون فى بلديهما أكثر من العنصر الحاكم ، وأن كلاً من الإمام يحيى والملك عبد العزيز يعملان حساب الأجنبى ، ويخشيان عناصر الثورة - فى داخل بلديهما - التى تتحين الفرص . فمثلاً رأينا أن الإمام يحيى واجه سنة ١٩٢٨ ثورة الزرانيق ، وكذلك ظهر من يتحدى حكم الملك عبد العزيز ، فظهرت عدة ثورات ، وبلغ التمرد منتهاه فى ثورة « فيصل الدويش » و « فرحان بن مشهور » فى الإحساء ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، وابن رفادة فى شمال الحجاز فى سنة ١٩٣٢ . وهذا بالإضافة إلى علاقات كل منهما الخارجية وخاصة مع بريطانيا ، تلك العلاقات التى تجبر كل منهما على أن يتريث قبل الدخول فى معارك أخرى[١] . وقد عقدت عدة مقارنات بين كل من الطرفين وظروفهما ، فنقلت الأهرام عن (التيمس) من مقال افتتاحى بها إشارة إلى هذه الناحية فقالت : « . . لقد انتصر الوهابيون بسهولة على جميع الأعداء الذين التقوا بهم حتى الآن ، غير أن الجنود اليمانيون الذين يواجهونهم الآن لأول مرة ، خصوم معروفون بالإقدام والبسالة والنشاط ، كما عرف ذلك التراث عنهم بما تكبدوه من الخسائر فى حرب سنة ١٩٠٤ وما بعدها ، وقد جمع الإمام ثروة كبيرة من المال ، ففى وسعه أن يدفع مرتبات رجاله وهم مسلحون تسليحًا حسنًا »[٢] . . . وقد جاء فى نفس عدد الأهرام نقلاً عن « المانشستر جارديان » مقالاً جاء فيه : « إن معظم الموظفين البريطانيين الذين لهم خبرة بشئون بلاد العرب يعتقدون أن الجنود اليمانيين الذين يعيشون فى الجبال لا يمكن قهرهم فى بلادهم ، .. والواقع أن اليمانيين والوهابيين أشبه شىء بالزيت والماء ، وهما مختلفان »[٣] . وقد تكررت هذه المقارنة بين قوة البلدين أكثر من مرة فى الجرائد الإنجليزية ، حتى بعد أن بدأت الحرب فعلاً بينهما فنقلت الأهرام عن « المانشستر جارديان » مقالاً

---

(١) Survey of International Affairs, 1934,pp. 311 - 313.

(٢) ، (٣) الأهرام : العدد ١٧٧٠٧ فى ٢٥/ ٣/ ١٩٣٤ (٩ ذو الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

هامًّا تناول هذه النقطة جاء فيــه : « إنه من الصـعب التكهن بنتيجة الحـرب في بـلاد العـرب (كانت الحـرب قـد بدأت قبـل ذلك بأيام) فـالملك ابن السـعود مقـاتل بارع ، ولكن موارد بلاد اليمن غنيـة جـدًّا ، وفوق ذلك فإنه إذا كانت « نجـران » تبعـد أكثر مـن أربعمائة ميـل عن مكة فإنها لا تبعـد إلا مائتى ميـل عن عاصمـة اليمن ، وعلى ذلك فمواصـلات ابن السـعود معها أصعب من مواصـلات الإمام . ووراء أسـباب النزاع الظاهرية متاعب تتعلق بالمذاهب، وبـوسائل الحياة الحديثـة . فالمسـلمون المتعنتـون من أنصار الملك ابن السـعود يكرهون اليمانيين لأنهم يعدونهم من المبتدعة ؛ كما يحتقرونهم لاختلافهم عن بدو الصحـراء وعلى الأرجح سـتكون هـذه الحرب الصغيرة حاميـة الوطيس »[1] . وكـانت هذه التعليقـات كلهـا تـدعو البعض إلى التنبـؤ بمصـير هـذه الحـرب ، ومـتى سـتنتهى ، فقد نقـلت الأهـرام عـن جـريدة « المورننج بوسـت » تعليقًا صغيرًا لكنـه يدل على الفهم العميق للوضع هناك ، إذ قـالت : « إن النزاع سينتهى متى بسط الملك ابن السعـود نفوذه على المنـاطق الصحـراويـة السهلـة ، وإن كـان هنـاك من يعتقـد أنـه لا يقنع بأقل من بسط سلطاته على كل بلاد اليمن »[2] . وقد بنت هذه الجريدة تعليقها على أساس أن الوهـابيين حقيقة محاربون أقـوياء ممتازون ؛ ولكن فى الصحـراء فقط ، لأنهم بدو أساسًـا ، ولهذا سيضطرون إلى وقف القتال عنـد احتلالهم السهل السـاحلى لأنه لن يكـون أمـامهم بعـد ذلك إلا الجبـال الـوعـرة التى سيلجأ إليهـا اليمنيـون بالضرورة دفاعًا عن أنفسهم وبلادهم ، وبالتالى فإن الاختلاف الموجود فعلاً بين طبيعة الفـريقين المتحـاربين هو الذى سـيحدد نهـاية هـذه الحـرب كما سـنرى فيما بعـد .

ولـكن قبل أن نواصـل تتبعنـا لأحـداث هـذه الحرب ، نحب أن نشير إلى

---

(١) الأهرام : الصادر فى ٨ أبريل سنة ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٢) الأهرام : العدد ١٧٧٢٤ فى ١٥/ ٤/ ١٩٣٤ (أول محرم ١٣٥٣هـ) ص ٥ .

نقطة هامة كثيرًا ما تثير عدة تساؤلات : فكيف تقوم حـرب عنيفـة بين دولتين عربيتين إسـلاميتين تدعى كل منهمـا أنها راغبـة فى السـلام . ولا ترحب بزج المسـلمين فى حـرب ضـد بعضهم البعض ؟ ولماذا قـامت هـذه الحـرب فى هـذا الوقت بـالـذات؟ ولمـاذا لم تنشـب حـرب بين اليمن وإنجـلترا فى عـدن بدلاً مـن الحـر ب اليمنيـة - السـعودية بالرغم مـن وجود مشكلات حـدود فى جنوب اليمن أيضًا ؟ وما هو موقف إنجلترا من هـذه الحرب وكذلك موقف باقى الدول العربية الإسلامية ؟

معاهدة صنعاء سنة ١٩٣٤ بين الإمام وإنجلترا :

وللإجابـة على كل هـذه الأسـئلة لا بـد أن نوضح أولا الموقف بين الإمـام وإإجلترا حينئذ . نذكر أن الإمام قـد طلب بعـد أحداث سـنة ١٩٢٨ العنيفة ، فتح باب المفاوضات مع إنجـلترا . وقد اسـتمرت المفاوضات رغبة فى الوصول إلى اتفاق نهـائى بينهمـا ، ورغم أن الإمام - كما ذكرنا - قـد دخـل أجـزاء من إقليم العـوذلى خـلال سـنة ١٩٣١ ، وقبض على بعض الرهـائن منهـا ، إلا أن انجلترا آثرث استمرار التفاوض ، ثم وضعت شروطًا لإتمام الاتفاق النهائى ، وكان مـن الطبيعى أن يتضمن هذا الاتفـاق خـروج الإمام من كـل المحميات ، وإعادة الرهائن ، وقبول الحدود السابقة .

وهكذا استمـرت المفاوضـات وطالت حتى أوائل سـنة ١٩٣٤ ، حيث عقـدت معاهـدة أنجـلو - يمنيـة فى صـنعاء فى ١١ فـبراير سـنة ١٩٣٤[١]. وتطور هـذه الأحداث على هـذا المنوال يثير التساؤل كـذلك ، فالطرفـان قبلا التفاوض ، وحرصًا عليه للوصـول إلى الاتفاق النهائى دون أن يميلا إلى الدخول فى معـارك حـربية عنيفـة . وكانت حجتهمـا فى اتخـاذ هـذ الخـط بالذات أن

(١) Survey of International Affairs, 1934, p, 312.

الإمام كان مشغولاً بمشكلات أخرى داخلية وخارجية لا تقل أهمية عن مشكلته مع إنجلترا ، لذلك فهو بالتالى غير مستعد لفتح جبهة جديدة فى الجنوب . وكان يدرك من ناحية أخرى أن إنجلترا ليست لها أطماع خاصة داخل اليمن ، إذ أن إنجلترا كانت لا ترغب فى التوسع أو الدخول فى معارك حربية ضد الإمام لأنها إذا فعلت فستثير ضدها باقى الدول الأوروبية ذات المصالح فى هذا الإقليم .

وكان اليمن نفسه من وجهة نظر إنجلترا إقليمًا لا يثير طمعها فيه ، لا لأنه إقليم فقير بل للمشكلات الخاصة سواء أكانت خارجية - وقد أوضحناها - أم داخلية ، فهى لم تنس بعد ما لاقاه الترك من متاعب أثناء وجودهم فى اليمن . لهذا كله كانت إنجلترا حقيقة لا تطمع فى احتلال اليمن ، بل كان كل ما يهمنا ألا يثير اليمن أية متاعب لها فى المحميات ، كما يهمها فى نفس الوقت أن تحتفظ بالمحميات تحت سيطرتها باعتبارها منطقة خلفية تحمى ظهر مستعمرة عدن ، وكان كل ما تريده من الإمام هو أن يتخلى عن مطالبه فى هذه المحميات ؛ وكان الإمام من ناحيته يتمنى لو تقبل إنجلترا عقد معاهدة لتسوية هذه المشكلات على نحو يرضى الطرفين ؛ وكان يدفعه لهذا ، إمكانياته المحدودة القليلة التى لا تقوى على مواجهة جميع مشكلاته مع الجهات المختلفة حتى يتفرغ لمعالجة الشئون الداخلية ، وكانت انجلترا ترى هذا أيضًا بالنسبة لوضعها فى المحميات حتى تقوى قبضتها ونفوذها هناك . لذلك تلاقت الرغبتان فى السلم ، إلا أن مشكلة تخطيط الحدود بينهما كانت كما هى ، وكان لا يؤمل فى معالجتها بسهولة ، أو فى وقت قريب . لذلك نرى الطرفين يميلان إلى عقد معاهدة تعلق فيها مشكلة الحدود إلى حين ، يمكن حلها بطريقة مرضية ، دون أن يعطل ذلك إقامة علاقات ودية - سياسية واقتصادية - بين البلدين على أساس وجود

معاهدة تنظم هذه العلاقات . وقد حققت معاهد صنعاء فى فبراير سنة ١٩٣٤ هذه الرغبة . وكيفما كان الأمر فقد كانت المعاهدة إقرارًا للوضع القائم - على الأقل من ناحية الحدود - أكثر منها تسوية لهذه المشكلة، هذا وقد شملت المعاهدة أيضًا بعض النقاط الأخرى التى لا بد من وجودها بين بلدين أو حكومتين متجاورتين إقليميًا ، مثل حسن الجوار والتبادل التجارى .

وقد توصل إلى عقد هذه المعاهدة الكولونيل « رايلى » المقيم البريطانى فى عدن حينئذ (انظر ملحق ١٠) .

ولم يصدق على هذه المعاهدة إلا فى ٤ سبتمبر ١٩٣٤ ، بالرغم من أن التوقيع عليها كان فى ١١ فى فبراير من هذا العام وكان أهم شروط التصديق إتمام جلاء قوات الإمام عن ٦٤ قرية فى إقليم العوذلى وثمانية قرى فى إمارة الضالع والإفراج عن الأسرى والرهائن من أهالى المحميات ، وإعادة فتح طريق التجارة بين المحميات البريطانية واليمن . وقد أتم ، كما يقول « رايلى » «خط حدود سنة ١٩٣٤ - الذى اتفق على أن يكون كما هو موجود على الطبيعة Status quo - حرية بلاد العوذلى والضالع وهى بلاد تربطها بريطانيا معاهدات حماية ، ولكنه لم يحرر سلطنة « البيضاء » بالرغم من وقوعها فى الجانب البريطانى من خط الحدود الأنجلو - تركى ، وذلك لأنها لم ترتبط بمعاهدة حماية مع بريطانيا »[1] . ولذلك يعتبر إقليم « البيضاء » هو الإقليم الوحيد الذى استطاع الإمام أثناء كل منازعاته مع بريطانيا أن يضمه إلى بلاده كما يعتبر التعديل الوحيد الذى أدخل على الحدود الأنجلو - تركية بالرغم من الحروب الطويلة بين الطرفين .

---

(١) Sir Bernard Reilly : Aden and The Yemen, p.18.

اعتبر الإنجليز أن معاهدة صنعاء هذه أهم حدث محلى بعد الاستيلاء على عدن سنة ١٨٣٩ . وقد أقيمت حفلة كبيرة لاستقبال المستر رايلى عند عودته إلى عدن اشترك فيها الأهالى العرب ، وتقدمهم عدد كبير من الشيوخ والرؤساء[١] . كما جاء فى تصريح رسمى صرح به السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية حينئذ ردًا على الأسئلة التى وجهت إليه بمناسبة عقد المعاهدة ، أن حكومته تعدها مرضية للغاية ، ثم أثنى على الجهود التى بذلها الكولونيل رايلى المقيم البريطانى فى عدن الذى رأس الوفد البريطانى إلى صنعاء[٢] .

وهذه المواقف والتعليقات تجذب انتباهنا ، وتدفعنا دفعًا إلى التعليق على مواد هذه المعاهدة بعد استعراض موادها ، وتجعلنا نتساءل عن أهمية هذه المعاهدة ، وهل هى حقًا تحقيق للآمال المرجوة ؟

يمكن اعتبار عقد هذه المعاهدة تحقيقًا لآمال معلقة ، وإن كنا نقول هذا بكثير من التحفظ الذى سيتضح فيها بعد . كانت إنجلترا تطلب من الإمام الابتعاد عن المحميات والتخلى عن مطالبه فيها ، وفتح طريق التجارة بين المحميات واليمن ، وهذا كله فى جو يسوده السلام وحسن الجوار بين البلدين .

وكانت إنجلترا ترغب جادة فى عقد معاهدة مثل تلك التى عقدها الإمام مع إيطاليا أو الاتحاد السوفيتى ؛ إذ كان يضايقها دخول منافسين لها فى الجزيرة . لذلك حرصت على أن تنص فى المعاهدة على أن تعامل معاملة الدول الأكثر رعاية ، وذلك حتى لا تسبقها إيطاليا فى هذا المضمار. و كان الإمام يحتاج فى نفس الوقت ، إلى اعتراف إنجلترا به وباستقلاله

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٦٧٢ فى ١٨/ ٢/ ١٩٣٤ ، ص ٥ .
(٢) الأهرام : العدد الصادر فى ٢٧/ ٢/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

واستقلال بلاده ، فهو يهمه تأكيد هذا الأمر دوليًا ، وإن كان يبدى تخوفه من الدخول فى علاقات خارجية ، كما كان يشعر أن ذلك يدعم مركزه فى الداخل . وكانت انجلترا تشعر برغبة الإمام هذه ، وكانت تلوح له دائمًا بأنها مستعدة للاعتراف به وباستقلاله إذا وافق على عقد معاهدة معها . وقد نصت المادة الأولى على ذلك لأن إنجلترا لم تكن قد اعترفت بعد بالإمام أو باستقلاله .

وهناك أخيرًا ملاحظة هامة خطيرة على هذه المعاهدة ، وهى أنها تركت موضوع الحدود مفتوحًا فلم تبت فيه ، بل تركت أمرها حتى يتم التفاوض بشأنها فى خلال مدة العمل بهذه المعاهدة التى حددت بأربعين عامًا .

وهذه المدة طويلة تخالف فى الحقيقة عادة الإمام فى تحديده مدة معاهداته مع الدول الأجنبية بعشر سنوات فقط فى الغالب . وليست الخطورة فى طول المدة فحسب ، بل فى ارتباط هذا الطول بحل مشكلة الحدود ، أى فى أن تظل مشكلة الحدود معلقة دون حل طوال هذه المدة الطويلة . وتنبثق هذه الخطورة من نقطة هامة يجب ملاحظتها ، وهى أن الأجزاء المتنازع عليها من المحميات كلها ، ستبقى تحت نفوذ إنجلترا طوال هذه المدة أو حتى يعقد بشأنها حلاً مرضيًا . وهذا هو الخطر ، إذ أن ذلك سيعطى إنجلترا أكبر فرصة لتثبيت أقدامها فى المحميات ، وتنظيم وتدعيم الداخل بشكل يبعده تمامًا عن باقى أجزاء اليمن .

وستتمكن هى خلال هذه المدة من كسب سلاطين هذه الجهات إلى جانبها ، بالدعاية المغرضة الطويلة الهادئة دون أن يكون لليمن حق الاتصال بهم من الناحية الرسمية وذلك بناء على شروط المعاهدة .

وهـذا يجعلنـا نقول إن إنجـلترا هي التى فـازت بعقـد هـذه المعاهـدة وليس الإمـام . كما يجعلنـا نقول إن الكسـب ليس متبـادلاً أو متسـاويًا ، فانجـلترا وصـلت إلى بغيتهـا التى حـاربت من أجلهـا من سـنة ١٩١٩ إلى ١٩٣٤ ، وهى عـدم السماح للإمـام بدخـول المحميـات أو التنـازل له عن شيء منهـا .

كانت إنجـلترا طوال المدة السابقة تعتبر مدعية ، ومغتصبـة ، ومعتدية، أي دولة بدون وجود شرعى فى هـذه البـلاد - على الأقل من وجهة نظر الإمام - أمـا الآن (١٩٣٤) فقـد أصـبحت دولـة لهـا حقوقهـا ، وأصـبح وجودهـا شـرعيًا ، وذلك لأنها انتزعت اعتراف الإمام بـوجودهـا فى المحميات حتى تتم تسوية مرضية بينهما . وكان هذا هـو كل ما تطلبه وترتضيه ، وهو أن يبقى الإمام خارج حـدود المحميات - على أسـاس وجود معـاهدة - وألا يثير لهـا فى هذه الجهات من المتاعب ما يعطل نشاطها هناك . وهى إذ تضمن ذلك فمن السهل عليها كسب أهالى المحميات إلى جانبها ، إذ ستكون بمفردها فى الميدان ، فتقول ما تشـاء ، وتغفـل مـا تريـد ، وتعمـل جـاهدة على المبـاعدة بين اليمن والمحميـات . وإلى جانـب ذلك فلا ضير عليها من الدخـول فى مفاوضـات طويلـة غير مجدية كسبًا للـوقت ، وللأهـالى ، وللنتائج المفيـدة المؤكدة . وعلى هـذا فـلا نبالغ إذا اعتبرنـا أن معاهدة ١٩٣٤ كـانت بداية النهـاية بالنسـبة لمطالب أو حقوق الإمام فى المحميات ، وذلـك لأنه سـلم لإنجلترا بحقوق جمة عندما وقع هـذه المعاهدة ، و إن ظل الإمام لا يؤمن بـذلك ، بل كان يعتقد أن تـوقيع المعـاهدة لا يعنـى أكثر من تأجيـل البت فى مشكلة الحدود أو مـوضـوع ملكية المحميات .

وستتضح آثار هـذه المعاهـدة على مر الأيام ، فقـد عملت بريطـانيا على تنظيم المحميات وتقوية قبضتها عليها ، حتى إذا أحس الإمام بخطورة الموقف، كانت إنجلترا قـد أصبحت هى صاحبـة اليد العليـا فى كل المواقف وأصبح لها الانتصار دائمًا فى معارك المحميات سواء كانت هذه المعارك سـاخنة أو باردة ،

بل واسـتمرت انجـلترا فى تقـوية قبضتهـا هنـاك حتى خـرجت علينا بعـدة مشروعات لتنظيـم خضوع هـذه المحميات لهـا ، كان آخـرها إعـلان قيام اتحاد الجنـوب العربى ، وذلك قبل أن يصل الطـرفـان إلى تسويـة مرضيـة ، وقبل أن تنقضى مدة سريان المعاهدة .

وهـذا هو موضع الخطورة فى هـذه المعاهـدة ، وهى خطـورة قد يقـال إنه لا يشـعر بهـا تمامًا إلا بعد أن توضـع المعـاهدة موضـع التنفيذ ، ويمـر عليها بعض الوقت ، فتظهـر نوايـا إنجـلترا بوضـوح . ولكن هـذا الحديث مردود عليـه ، إذ إن الخطـر نابع أسـاسًا من ترك المحميات لإنجـلترا تتصرف فيها كما تشاء ،ومن الاعتماد على حسن نية إنجلترا ورغبتها فى الوصول إلى حل مرضٍ للطـرفين ، إذ كان لا يجب الـركون إلى ذلك ، أو على الأقل كـان لا يجب إتاحـة الفرصة لهـا فى هدوء لتنظيم أمورها ، ولتقوى قبضتها عليهـا دون إثارة المتاعب لهـا فى هذه البقاع .

و لكن هـذا الحديث يجعلنـا نتسـاءل : ألم يكن أمام الإمـام إلا أن يقبـل ذلك سـواء أكـان مجبرًا أو مختـارًا ؟ وهل قبولـه هـذا الـوضع تعتبر أحسـن موقف يمكن لأى سـياسى أن يقفـه فى هـذه اللحظـة بالذات ، وتحت نفس ظروف الإمام حينئذ ؟

الحقيقة أنه لا يمكن الإجـابة على هـذه الأسئلة بسهـولة ، بل الأفضـل أن نوضح الظروف والمقتضـيات بقـدر الإمكان قبـل الإجابة على هـذه الأسـئلة ، إذ من الصـعب وضـع أجابات قاطعـة نهائية بالنسـبة للمسـائل التاريخيـة بوجه عـام .

وضحنـا قبل ذلك مشـاكل الإمام الـداخليـة ، وكانـت تحتاج منـه - من وجهـة نظـر الإمام - أن يكون حـذرًا متنبهـًا دائمًا ، فليس له أن يغمض عينيه عنها ، حتى وهو يعـالج باقى مشكلاته الأخرى . ووضحنـا كذلك مشكلته مع الملك ابن السعود ، وفصلنا فى عـرض تطور أحداثها ومفاوضـاتها غير المجدية ، وذكرنـا كذلك أن ابن السـعود ، كان يلح على الإمـام فى الوصـول إلى حـل

بالنسبة لهذه المشكلات المعلقة ، إلا أن الإمام كان لا يقبل الوصول إلى حل على حساب أن يتنازل عما يطالب به فى عسير أو نجران ، وكانت الأمور فى فبراير سنة ١٩٣٤ - أى عند عقد المعاهدة الأنجلو - يمنية - قد وصلت بين الملكين إلى قيام تحركات وتحرشات على الحدود . وإزاء هذا كله كان الإمام فى حاجة فعلاً إلى إصلاح علاقاته وأوضاعه مع أى من هذه الجهات المختلفة الكثيرة . وهنا أسرعت إنجلترا باستغلال الفرصة ، فالإمام فى وضع حرج ، ومشكلاته كثيرة متعددة متناثرة ، وإمكانياته محدودة لا تمكنه من مواجهتها كلها فى آن واحد . ففكرت عندئذ فى أن تعرض عليه السلام والهدوء من ناحية حدوده الجنوبية ، مع تأجيل البت فى مسألة الحدود المعلقة بينهما . وكان هذا أحسن عرض يمكن أن تعرضه بريطانيا عليه ، ولم يكن أمامه ما هو أحسن من هذا العرض نفسه - إذا افترضنا أنه كان يريد أن يواجه مشكلاته منفردة الواحدة تلو الأخرى- وإذا نظرنا إلى الأمور بمنظاره هو - لذلك نجده يقبل العرض السلمى الذى عرضته إنجلترا عليه حتى يتفرغ لمشكلة حدوده الشمالية مع السعودية ، وينتهى فيها إلى حل حتى يعود مرة أخرى لإنهاء مشكلته مع إنجلترا ، ويكون قد أصبح أكثر تفرغًا وأكثر قوة . ومن ناحية أخرى فقد جرب الإمام قوة بريطانيا وفعل طائراتها السحرى ، وأنه لا قبل له بها ، فكان لا يأمل إلا فى الطريق السلمى فى حل مشكلاته معها ، أو فى القيام بأعمال سرية خاصة ضدها لإثارة المتاعب فى وجهها ، وكلا الطريقين يحتاجان وقتًا ، وهو يفتقد الوقت ، لذلك رأى أن يكسب من إنجلترا كل ما يستطيع حتى يتفرغ لها . وناحية ثالثة قد تثور عند البعض ، وهى أن وضع المحميات الداخلى واختلافها المذهبى مع الإمام هى التى دفعته يائسًا للتسليم أمام إنجلترا هكذا ، ولو بصورة وقتية وإلى حين ، كما حدث بالفعل ، ولكن الحقيقة - كما نعتقد - وكما ذكرنا أنه إذا كان هناك موقف خاص للمحميات معاد للإمام ، فهو ليس نتيجة الاختلاف المذهبى بل كان نتيجة

سياسة الإمام وسلوكه إزاء الأوضاع الخاصة لهذه الجهات ، إذ كانت تحتاج نوعاً من الحكم والمعاملة - سبق الكلام عنه - اتبعته إنجلترا ولم يقبله الإمام . أما القول بأنهم شوافع وهذا يتعارض مع خضوعهم للإمام ، فهذا قول مردود عليه ، فهناك أكثرية شافعية تعيش داخل اليمن ، قبل البعض حكم الإمام كراهية والبعض الآخر قبله طواعية ، وأصبح الزمن كفيل بصهر كل هذه المجموعة في بوتقة الدولة الواحدة ، بل أصبح الشوافع فى اليمن أسلس قيادة من جماعات زيدية جبلية كثيرة تمردت على حكم الإمام وأثارت له المتاعب .

وهكذا يمكن القول - من وجهة نظر الإمام أيضاً - إن الظروف التى أحاطت بالإمام حينئذ ، والأحداث المتزاحمة أمامه فى ذلك الوقت ، كانت كفيلة بأن تجعله يقبل عرض إنجلترا لأنها ستمنحه السلام من ناحية ، ومن ناحية ثانية ستؤجل له البت فى مسألة الحدود ، وكان هذا كل ما يتمناه فى هذه اللحظة .

ولكن هنا يثور سؤال ملح طالما راود من تعرض لتاريخ اليمن فى هذه الفترة ، كما ظهر فى الصحف المعاصرة حينئذ : وهو لماذا لم يتفق الإمام مع السعودية بدلا من إنجلترا ، حتى يتفرغ للأخيرة ؟ ومن الصعب الإجابة عن هذا التساؤل ، دون بسط بعض النقاط لعلها تستطيع توضيح جوانب الإجابة المطلوبة .

فمن الناحية الأولى ، كانت كل من إنجلترا والسعودية - من وجهة نظر الإمام - تمثل عدوًّا له ، فكلتاهما طامعة فى بلاده - كما يعتقد - وكلتاهما تغتصب فعلا جزءاً من اليمن الكبير كما يتصوره هو . وهذا هو أول اعتبار يجب أن نضعه أمامنا عند الإجابة على السؤال سالف الذكر . وهذا الاعتبار نفسه قلل بدون شك من الوضع الخاص للسعودية

- بالنسبة للإمام - وأنها دولة عربية إسلامية شقيقة ، فهى قد تساوت - أو هكذا اعتقد الإمام - مع إنجلترا فى كونها معتدية على أملاكه وبلاده . ومعنى هذا أن الإمام استطاع أن يبعد - عند النظر فى ملكية الأقاليم المختلف عليها - أثر عروبة السعودية وإسلاميتها على علاقات البلدين . وهذا ليس دفاعاً عن موقف اليمن ، أو هجوماً على موقف السعودية ، بل هو تعبير عن الواقع فقط .

ومن ناحية ثانية كان وضع السعودية بالنسبة للإمام مختلفاً عن وضع إنجلترا بالنسبة له ، وهذا يتضح باستعراض الأوضاع حينئذ على حدود اليمن . كانت إنجلترا قد توصلت فى هذه الأثناء إلى استتباب فعلى بالنسبة إلى حدودها ومصالحها ، فقد أجبرت الإمام على الخروج من المحميات وكان هذا هو كل ما يهمها ، فكأن الوضع فى جنوب اليمن فى الحقيقة كان مستقرًّا من الناحية العملية - نظراً لقوة إنجلترا وأعمالها الحربية السابقة - ولا ينقصه إلا شكلٌ شرعيٌّ من الناحية النظرية ينظم العلاقات والأوضاع القائمة . أما بالنسبة للحدود الشمالية ، فكان الوضع غير مستقر من الناحية العملية أو النظرية ؛ إذ كان كلا العاهلين ينادى بحقوقه فى هذه المناطق ، ولكنهما لم يتمكنا - كما فعلت إنجلترا - من أن يضع كل منهما الآخر أمام الأمر الواقع فيحتل إقليماً معيناً ويجبر الآخر على الاعتراف به ، ولهذا ظل الأمر معلقاً دون الوصول إلى نتائج نهائية .

ومن ناحية ثالثة ، كانت الأقاليم المختلف عليها فى الشمال ، أكثر غنى من الناحية الإنتاجية - كما ذكرنا قبل ذلك - عن المحميات فى الجنوب ، وقد يكون هذا هو الذى أشعل الصراع ، وجعل كلا من الملكين يحرص على أن تكون تحت سيادته .

وهكذا يمكن اعتبار النقاط السابقة ، هى الأساس الذى تعتمد عليها إجابة السؤال ، أو أنها - دون وضع إجابة نهائية قاطعة - توضح جوانب الموضوع دون البت فيه .

وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه النقطة بالذات مثار تعليق ، فقد نقلت الأهرام عن « الديلى تلغراف » الإنجليزية رسالة لأحد محرريها جاء فيها : « لقد انتهى الإمام الآن من توقيع المعاهد مع بريطانيا ، وتسوية المسائل التى كانت موضوع النزاع ، لذلك فقد يرى أن الفرصة سانحة الآن ، لمحاولة البت فى الأمور المعلقة بينه وبين الملك ابن السعود »[(١)] . ورغم أن هذا التعليق يوضح النقطة الهامة التى سبق الإشارة إليها ، إلا أنه فى الحقيقة لا يعنى تماماً الدعوة إلى قيام حرب ، بل يذكر أن الفرصة - ونرى نحن أن الفرصة هنا تعنى التفرغ - أصبحت أكثر ملاءمة ليتخذ خطوة أكثر جرأة لإقرار الأوضاع على حدوده الشمالية . ولكن لا مناص من الاعتراف بأن التحسين النسبى فى علاقات كل من الإمام يحيى مع بريطانيا ، وكذلك الملك عبد العزيز مع الدولتين الهاشميتين على حدوده الشمالية فى هذه الأثناء (سنة ١٩٣٤) قد جعل التوتر بينهما أكثر حدة ، ومعنى هذا بالتالى أن توقيع المعاهدة الأنجلو - يمنية فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ ، أدى إلى زيادة الحدة بين اليمن والسعودية »[(٢)] .

أحداث الحرب اليمنية السعودية :

بدأت الحرب عنيفة قوية وخاصة من الجانب السعودى الذى كان مدفوعاً بشدة ، ولم تحاول القوات السعودية القيام بأى هجوم مباشر على

---

(١) الأهرام : الصادر فى ٥/ ٤/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 312.

جنوب جبال عسير ، حيث أثبت رجال القبائل - التابعة للإدريسى - قدرتهم على الثبات حتى قبل أن تصل إليهم الإمدادات اليمنية ، وأصبحوا أكثر قدرة على المقاومة والحرب بعد أن وصلتهم هذه القوات . وقد ركز الوهابيون جهودهم أساساً على قطع الاتصال بين جبال عسير وبين اليمن ، وقاموا بحركة التفاف من ناحية تهامة وكذلك من ناحية الداخل ، وفى النهاية ركزوا عملهم فى تهامة نفسها من جانب وفى نجران من جانب آخر . وقد تجنبوا بوجه عام الحرب فى الجبال لأن اليمنين جبليو الأصل ، أو بمعنى آخر أكثر دربة على الحرب فى الجبال[1] .

عرفنا قبل ذلك أن الأمير فيصل كان على رأس القوات التى عليها أن تحارب فى تهامة ، أما الأمير سعود فكان عليه الحرب فى جبهة نجران . وكانت تحركات الأول وانتصاراته أسرع بكثير من الثانى ، وذلك راجع إلى طبيعة ميدانى الحرب فى كل جهة . فكان تقدم الأمير سعود بطيئاً نظراً لوعورة الإقليم ، وخوفاً من أن تقطع خطوط مواصلاته مع مراكزه الأصلية فيهاجمه العدو من الخلف ، إلا أنه على كل حال ، استطاع أن يصل بسهولة إلى « باقم» أول قرية يمنية هامة على الطريق الرئيسي إلى صنعاء[2] . ورغم انتصارات الأمير سعود فى جبهة نجران ، إلا أن نزيه العظم يذكر أن القوات اليمنية قد انتصرت تحت قيادة سيف الإسلام أحمد على جيوش الأمير سعود فى معركة جبل «باقم » المشهورة على حدود نجران ، وأن هذه المعركة كانت السبب الحقيقى فى توقف القتال وعقد الهدنة ثم المعاهدة[3] . وقد عقب نزيه العظم حديثه عن المعركة بقوله : « إنه لا يجب الدخول فى تفاصيل الحرب ، فإن ذلك ليس فى مصلحة أحد ، وأنه

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 317.

(٢) Philby O Saudi Arabia, p. 323.

(٣) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى البلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

حريص على تقريب وجهتى نظر العاهلين العظيمين » . هذا التعقيب لا يجعلنا نعتمد على روايته - انتصار سيف الإسلام - كثيراً بالرغم من أهمية دلالتها عند تتبع سير أحداث هذه الحرب . ورغم أننا لا نحب أيضاً الدخول فى تفاصيل الحرب - لا لما ذهب إليه نزيه العظم ، بل لقلة الوثائق والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها - إلا أننا نرى أنه من الأفضل رسم اتجاهاته بوجه عام .

كان النصر حليف القوات السعودية فى هذه الحرب السعودية اليمنية ، ففى ٩ أبريل ١٩٣٤ أعلنت الحكومة السعودية أن حركة التطويق حول جنوب جبال عسير قد توجت بالنجاح . وفى ١٢ أبريل من نفس العام أبرق الإمام إلى الملك عبد العزيز آل السعود يطلب الهدنة ، وذكر أنه قد أصدر أوامره لقواته بالجلاء عن نجران ، وعندئذ وضع ابن السعود أربعة شروط لإعلان الهدنة ، وهى : الجلاء عن نجران ، تسليم الرهائن التى أخذها الإمام من القبائل الخاضعة لابن السعود ، قطع العلاقات بين اليمنيين وبين هذه القبائل ، تسليم السيد حسن الإدريسى طبقاً لمعاهدة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ . ولضمان تنفيذ هذه الشروط لم يتوقف ابن السعود عن الحرب بل واصلت قواته زحفها ، بل أصبح تقدمها أسرع من ذى قبل . ففى ٢٧ أبريل استطاعت الحكومة السعودية أن تعلن إتمام احتلال نجران ، ودخول ميناء « ميدى » (على الحدود) وتبع ذلك دخولهم « اللحية » فى أول مايو ، ثم دخلوا « الحديدة » فى ٤ مايو . ومن المعروف أن دخولهم المدينة الأخيرة كان بدون حرب فقد كانت قوات الإمام قد انسحبت إلى الجبال . وبعد هذه الانتصارات وجد الوهابيون أنفسهم على أبواب « صعدة » (المركز الزيدى الهام) فى جبهة نجران ، وعلى أبواب صنعاء نفسها فى جبهة تهامة . وقد كان من الممكن أن يقود هذا الانتصار العسكرى ابن السعود إلى مهاجمة قلب المملكة

اليمنيـة ، ولكنـه كـان يـدرك حقيقتين هامتين ، كـانـا فى صـالحه ، ولكنهما قـد يفقـدان أهميتهما إذا واصل زحفـه فى اليمن . فهـو قـد حـارب فى أرض سهلـة مفتـوحة ، شعـر جنده فيهـا أنهم فى أقاليم غير غـريبة عنهم . كما أن تقـدم ابن السعود كان فى وسط جهات صديقة لـه ، أو على وجه التحديد كان أهالى تهامة السنيين والعناصر الإسماعيلية فى نجران ، لا يعارضون فى تقدم الوهابيين إليهم ، أو على الأقل لا يجدون غضاضـة ما فى خضوعهم للسيادة الجديـدة التى يمثلها ابن السعود.ومن نـاحية ثانيـة ، فدخول قـواته المناطق الجبليـة - أى إذا فكر فى مهـاجمة صعدة وصنعـاء - فإن معنى ذلك أنـه سيحارب اليمنيين فى أقـاليمهم الجبلية ، وهم أكثر خبرة بالحرب فى هذه الجهات . لهذا كله فقد وافق ابن السعود على الهدنة فى ١٣ مـايو ، وفى ١٨ مايـو عقد مـؤتمر للصلح فى « الطائف »[١] . وفى ٢٠ مايو عقدت معاهـدة الصلح فى نفس المكان . وقد قبل ابن السعود مد الهدنة لعدة أيـام بعد انتهاء موعـدها فى ٢٩ مايو ، وذلك بنـاء على طلب الإمام حتى يتم تنفيذ الشروط المتفق عليها[٢] .

ولكن الحرب رغم سرعة وقائعهـا وقصر مدتها ، كانت ذات أهمية كبيرة فى سيـاسـة كل من البلـديـن . وأهميتهـا فى الحقيقـة لا تـرجع إلى الأعمال الحربيـة فحسب ، بل إلى النتائج التى ترتبت عليها ، وإلى الأحداث التى صاحبتها ولهذا يجب أن نتنـاول عدة نقـاط لتوضيح الظـروف والملابسـات التى صاحبت هـذه الحرب قبل بحث نتائجها .

ما هو سبب قصر مدة الحرب وسرعة أحداثها ؟ وما هو سبب توقفها ؟

ما هو موقف البلاد العربية من هذه الحرب ؟

---

(١) تقع فى جنوب الحديدة ، وهى غير « الطائف » الشهيرة التى فى الحجاز .

(٢) Survey..., 1934, pp. 317-318.

ما هـو موقف الـدول الأوربية الكبرى ذات المصـالح فى هذه المنطقـة من هذه الحرب ؟

تمخضت العلاقـات اليمنية السعـودية منـذ بدايتهـا عن هذه الحرب ، أو بمعنى آخـر كانت هـذه الحرب عبارة عن نهاية لنـوع من العلاقـات نشأت بين بلدين تشـابكت حدودهما على غير أساس سليـم مستقر . وقد رأينـا أن المسألة الوحيـدة المعلقة بينهما هى مسألة الحدود ، ومنهـا نشأ التوتر الـذى رأيناه ، ومن أجلها قامت الحرب أيضاً ، فلما أحرز ابن السعـود انتصاراته بما يضمن له تحقيق مشكلاتـه بالنسبة لهذه الحدود ، ولمـا سلم الإمام بكل مطالبـه وخاصة عنـدما وقعت « الحديـدة » فى يد القـوات السعوديـة ، رأى أنـه لا داعى للاستمـرار فى حـرب لا يحمد عقبـاهـا ، خـاصة وأنها كـانت على وشك الـدخـول فى مرحلـة جديـدة. أما سبب تلاحق أحداث الحرب وسرعتهـا ، فيرجع إلى استعداد جيش ابن السعود بـالمعدات اللازمـة ، وحربه فى مناطق سهلـة مفتوحة تشبـه بلاده ، وتـلائم جنـوده البـدو . هـذا غير أن الإمـام ، وقـد رأى قـوة الجيش السعـودى المهاجم ، لم يشأ - كما نعتقد - أن يدخل معه فى معارك حامية فاصلة ، لا ينتظر أن ينتصر فيهـا حيث إنها تدور فى منـاطق لا يجيـد جنـوده الحرب فيها ، لـذلك فضل الانسحاب إلى الجبـال والتحصن فيها ، بدلا من أن يفقد جيشـه فى تهامة ذات الحر الشديد . وبالأحرى نحب أن نـذكر أن العامل الجغرافى كان من أهـم العوامل فى سير أحداث هذه الحرب بالسرعة التـى رأيناها كما أنه أيضاً كان من أهم أسباب توقفها .

حقق ابن السـعود فى فترة الحـرب الوجيـزة الكثير ، واستطاع الاستيلاء على الأقاليم التى فشل فى الحصـول عليها بالطريق الدبلـوماسى ، كما استولى

على أراضٍ أكثر من ذلك بكثير . وهنا - ونتيجة العوامل الأخرى - ولأن الإمام قبل كل شروطه - فضل السلام على الاستمرار فى الحرب .

ونحن هنا لا نعتقد كثيراً أن ابن السعود كان يطمع فى احتلال اليمن ، ويرغب فى ضمه لبلاده ، فهو من ناحية يشعر بأن لليمن كيانه الخاص ، وأنه كان يحتفظ بهذا الكيان المتميز على مر التاريخ ، لذلك كان ابن السعود لا يميل إلى الدخول فى مغامرة من هذا النوع فى أجزاء تبعد عن عاصمته « الرياض » كثيراً ، وتختلف عن باقى بلاده فى عدة نواحٍ .

أما من ناحية اليمن ، فقد كان فى استطاعة الإمام أن يمد أجل هذه الحرب - رغم الهزائم الحربية - إذا رفض شروط ابن السعود . وكان بإمكان الإمام تحويل هذه الحرب إلى حرب « عصابات » - مثلا - لا تنتهى بين الجبال - كما حدث زمن العثمانيين - إذا واصل ابن السعود الحرب فيها ، أو إذا كان ابن السعود قد أصر على شروطه إذا رفضها الإمام ، إلا أن الإمام آثر السلم تحت ضغط الهزائم المتوالية . كذلك أحس الإمام أن الأقاليم المتنازع عليها فى عسير ونجران - والتى كانت شروط ابن السعود لا تتضمن إلا تسوية شئونها - لا تحمل له إخلاصاً صادقاً أو ولاءً حقيقيًّا ، لذلك كان لا يميل إلى الاستمرار فى حرب ستكلفه الكثير دون أن يتحقق من الفوز .

وقد كان لنظام جيش ابن السعود وحسن تدريبه وسرعة تقدمه فى تهامة ، أثر كبير فى إنهاء الحرب وتوقفها . فقد شاع حينئذ - عندما دخل الجيش السعودى ميناء الحديدة - أن الإمام يحيى قد توفى ، وأن نار الثورة

قد شبت فى صنعاء ، وأن سيف الإسلام أحمد لجأ إلى الفرار[١] ، ورغم خطأ هذه الإشاعات - كما اتضح فيما بعد - إلا أنها تعبر عن حدوث شيء من الفوضى والجزع فى اليمن ، وهذا هو طبعاً مما دفع الإمام إلى قبول الصلح . وكان للقوى الأجنبية أثر فى وقف الحرب سيتضح فيما بعد .

موقف العالم العربى من الحرب اليمنية السعودية :

أثارت الحرب بين اليمن والسعودية جزعاً كبيراً فى العالم العربى ، فأسرع عندئذ واتخذ موقفاً إيجابيًّا مشرفاً . ولكننا يجب أن نفرق بين جهتين فى العالم العربى : الأولى : الحكومات العربية ، والثانية : الهيئات والطوائف والمنظمات الشعبية . وكان هناك فرق بين كل من الجهتين : فالأولى ، آثرت الموقف السلبى ولم تسع للتوسط ، بل ظلت تعلن حيادها أو تدعى ذلك حتى نهاية الحرب . وقد يرجع ذلك إلى أن أغلبها كان واقعاً تحت النفوذ الغربى ، فلم يكن لها حرية العمل فى المجال الدولى . وكان الملك فؤاد - ملك مصر حينئذ وأقوى شخصية فى العالم العربى - يمكنه القيام بعمل إيجابى هام مثل التوسط - وقد طلب الإمام منه ذلك فعلا - إلا أنه آثر الحياد محتجًّا بأنه لم يعترف بالملك ابن السعود بعد[٢] . أما الهيئات والطوائف والجمعيات العربية والإسلامية فقد أخذت على عاتقها مسئولية التدخل والتوسط لإنهاء هذه الحرب . وقد كان دافع هذه الجماعات دافعاً دينيًّا قوميًّا بحتاً ، إذ أحزنها قيام الحرب بين دولتين عربيتين إسلاميتين كانتا فى ذلك الوقت هما الدولتين الوحيدتين المستقلتين بين الدول العربية . وكانت الشعوب العربية تعلق عليهما - اليمن والسعودية - آمالا عريضة

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٤٣ فى / ٥/ ١٩٣٤ (١٩ محرم ١٣٠٣ هـ) ص ٥ .

(٢) الأهرام : العدد الصادر فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ (عن جريدة الطان الفرنسية) .

فى تحرير باقى الدول العربيـة . وقد عقدت هذه الجماعات المؤتمرات ، وأصدرت البيـانات ، كما أنها أرسلت الـوفود مـن كبار الشخصيـات البارزة للتـوسط بين الملكين المتحـاربين . وبرز زيـادة التعـاطف الشعبى العـربى مع أحداث هـذه الحرب فى عـدة صور ، تمثلت فى الاجتماعـات و إصـدار التـوصيات والنـداءات و إرسال الوفود والممثلين وغيرها .

ونشرت الأهرام محضر الاجتماع الذى عقد فى دار الشبان المسلمين بالقاهرة لبحث مســـألة الحـــرب الســـعودية اليمنية فى ١٧ ذى الحجة ١٣٥٢ هـ (٢/ ٤/ ١٩٣٤) . وقـد حضر هـذا الاجتماع كثير من العلماء والصحفيين وكثير من أعضـاء الهيئات المختلفة ، مثـل جمعية الشبان المسلمين ، والاتحاد العـربى ، وجمعية الإخـوان المسلمين ، وجمعية المحافظـة على القرآن ، والجمعية العـامة لمنع المسكرات ، ولفيف كبير من السوريين والفلسطينيين والمغـاربة والأندونيسيين . وقد قرئ فى هذا الاجتماع نص التلغـراف الوارد من الإمام يحيى المؤرخ أول أبريل ١٩٣٤ الموجه إلى السكرتير العام للاتحاد العربى العام بالقاهرة ، وقد جاء فيه :

« وقد أمرنا الآن مندوبنا السيد عبـد الله الوزير ورفاقه الموجودين بـ« أبها » أن يبلغـوا جـلالـة الملك عزمنـا على التفـاهم الشفهى فالإســـــلام يسألكم إيفـــــاد رجل تعتمدون ديانته وإنصـافه إلى مكة المكرمة ، لمرافقة السيد عبد الله الوزير .. » .

وقـد انتهى هذا الاجتماع : « بعـد بحث مسألة النـزاع بين عاهلى الجزيـرة العربية » إلى :

أولاً : انتخاب الدكتور عبد الحميد سعيد للسفر إلى مكة المكرمة .

ثانياً : تأليف لجنة مركزيـة بالقاهرة للاتصال بالدكتـور عبد الحميد سعيد أثناء قيامه بمهمته ، وللعمل لتأييده بكل الوسائل المشروعة .

ثالثاً : إرسال برقية إلى كل من الإمام يحيى وابن السعود بالتماس الكف عن الحرب ، والرضا بالتحكيم حقناً لدماء المسلمين[١] .

وقد آثر الاتحاد العربى أن يرسل مندوباً عنه ضمن وفد المؤتمر الإسلامى بالقدس ، بعد أن عرف أن الهيئة الأخيرة ستوفد وفداً خاصًا بها ، لأنه رأى أن تعدد الوفود قد يؤدى إلى توزيع الجهود[٢] . وكان إلى جانب هذه الجهود الجماعية جهوداً فردية أخرى تقوم بها شخصيات بارزة فى المجتمع المصرى حينئذ ، فقد أرسل حمد الباسل باشا (أحد زعماء حزب الوفد المصرى السابق) برقيتين إلى كل من الملكين المتنازعين ، وذلك بناء على طلب رئيس المجلس الإسلامى الأعلى بفلسطين ، وقد جاء فيهما :

« فزع المسلمون لكارثة الحرب ، ويأملون وقفها ، ومن الشجاعة تجنب تناحر الإخوة . أرجو جلالتكم باسم العرب المصريين الهدنة حتى تتم مساعى وفد المؤتمر الإسلامى »[٣] .

وقد شارك الأمير عمر طوسون فى هذا المجال أيضاً ، وقد جاءه برقية من الملك سعود - ردًّا على برقيته له - يشكره فيه على غيرته الإسلامية ، ويؤكد له كرهه للحرب ، ويلقى التبعة على الإمام يحيى[٤] .

وقد أخذ المؤتمر الإسلامى بالقدس على عاتقه أكبر قدر ممكن من المسئولية ، فقد بدأ بالكتابة المطولة إلى كل من الملكين المتحاربين يدعوهما إلى السلام ، كما أخبرهما بنية تكوين وفد للتوسط بين الفريقين المتنازعين ، وأنه بدأ يعد الأسماء اللازمة لتشكيل هذا الوفد . وقد

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

(٢) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

(٣ , ٤) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

اتفق الرأى أخيراً على أن يتكون الوفد من الحاج أمين الحسينى (فلسطين) رئيس المؤتمر الإسلامى ، ومحمد على علوية باشا (مصر) والأمير شكيب أرسلان (سوريا) وأحد كبار رجال العراق العسكريين اتفق عليه فيما بعد . وقد تقرر سفر هذا الوفد بالطائرة إلى السعودية حرصاً على موعد وصوله ، وكان الوفد يحاول أن يضم إليه هاشم بك الأتاسى أو ياسين باشا الهاشمى وقد انضم الأول فيما بعد[١] . ومما يدل على نشاط المؤتمر واهتمام العالم العربى بهذه الحرب ، أن المؤتمر أبرق إلى شكيب أرسلان - وكان فى جنيف حينئذ - بالتوجه إلى مكة فأسرع بتلبية الدعوة ، وتوجه إلى مصر للسفر منها - من ميناء السويس - إلى جدة[٢] . وقد داوم وفد المؤتمر فى السعودية على مكاتبة مركزه الرئيسى فى القدس ، وموافاته بالأخبار باستمرار . والحقيقى أنه يمكن الاستدلال من هذه المكاتبات على مدى نشاط هذا الوفد واتصالاته الواسعة .

وكانت حركة المشاركة فى جهود الوفد مستمرة ، فقد سافر جميل مردم بك وعفيف الصلح بك ، وهما من الزعماء السوريين ، إلى الحجاز فى منتصف شهر مايو ، وضما مجهودهما إلى مجهود وفد المؤتمر الإسلامى . كما لم تقتصر هذه المجهودات على الناحية السياسية فحسب ، بل سافر كذلك بعض الأطباء والممرضين إلى مكة المكرمة للعناية بالجرحى والمرضى فى الجيش السعودى ، كان من بينهم الدكتور توفيق الشيشكلى نائب حماه ، والدكتور مدحت البيطار ، وقد شارك هؤلاء أحد الصحفيين هو رشيد الملوحى[٣] .

شارك هذا الوفد أحداث الحرب اليمنية السعودية حتى النهاية، فقد سافر إلى اليمن عندما أعلنت الهدنة وهدأت الحالة ، بل شارك ابن الوزير فى سفره

---

(١) الأهرام : العدد الصادر فى ٦ و ٧ أبريل ١٩٣٤ ، ص ٤ و ص ٥ .

(٢) الأهرام : ٩/ ٤/ ١٩٣٤ .

(٣) الأهرام : ٩/ ٥/ ١٩٣٤ ص ٤ .

إلى الحديدة لإتمام المفاوضات وعقد معاهدة الصلح ، وقد حضر بعض أعضائه هــذه المفــاوضــات ، وهــم أمين الحسينى وهــاشم الأتــاسى والأمير شكيب أرسلان[١] . وأخيراً عاد الوفد إلى السويس فى أواخر شهر يونية وأوائل شهر يولية ١٩٣٤[٢] . ومما لا جـدال فيه أنه كان لهذا الـوفد مجهود لا ينكـر ، فهو على أقل تقديـر ، تعبير عملى قوى عن موقف العـالم العربى إزاء هذه الحرب ، وانزعـاجه لقيامها ، ومحاولاتـه التوسط لإنهائها ووقفها . وهذا بالـرغم من أن هناك من يرى أن تأثير أعمال هذا الـوفد المباشر لم يكن كبيراً على الأحداث السيـاسية والحربية التى وقعت[٣] . ولكننا نرى أن هذا القول لا يقلل من أهميـة هذا الوفد وزيارته ، بل إننـا - على الأقل - سنرى أن معـاهدة الصلح ستعكس مـوقف هذا الـوفد وأثره من الناحية النظرية والفكرية .

ولم يكن الوفـد وأعماله أو البرقيات المختلفـة ، هى كل آثار ودلائل مـوقف العالم العـربى إزاء هذه الحرب ، فقـد شاركت الصحف مشـاركة قـوية فى إنهاء هـذه الحرب . فظهرت المقـالات الطويلة تدعـو إلى السلام والصلح ، ورغم أن بعض الصحف قد هاجمت أحـد الطرفين ، وكان البعض الآخر يـرد على هذا الهجوم ، فإن هذا كله لا يقلل من دور الصحـافة إزاء هذه المشكلة القـائمة . فقد عبأت الصحف الشعور العـربى ضد الحرب بوجـه عام ، وخاصـة بين دولتين عربيتين إسلاميتين ، بل كانت هـذه الحرب فى الحقيقة مثاراً أو محكًّا لظهور أفكـار قومية ذات أصاله بعيدة . فقــد نوقش أثناء هذه الحـرب إمكان قيــام وحـدة عربية ، وتكرر الحديث عـن إمكان قيــام علاقـات سليمة بين البـــلاد العـربية ، بل دعت « المنــــار » إلى قيام حكومة عربيـة واحــدة ، أو قيــام تنظيم عام يحقق الوحـــــدة والســـــلام بين الشعوب العـربية ، ونحب أن نذكـر هنا نص رأى المنــــار فى هذه الناحيـة ، بالرغم من أنهـــا بالـذات كانت معروفـة - حينئذ -

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٨٠ فى ٩/ ٦/ ١٩٣٤ (٢٧ صفر ١٣٥٣هـ) ص ٦ .

(٢) الأهرام : فى ٢٦/ ٤/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٣) Survey of {nternational Affairs, 1934, p. 318.

بميولها نحو السعودية ، فكانت تهاجم أحياناً الإمام يحيى ، وتصوره بأنه الداعى للحرب ومثيرها ، قالت : « يجب أن تكون للجزيرة العربية كلها حكومة واحدة، بل للأمة العربية إذا أمكن فهذه سياسة الشرع ومقتضى العقل وتجارب الأمم ، فإن لم يمكن إخضاعها لحكومة واحدة من غير فتنة ترجح فيها المفسدة على المصلحة ، فالواجب أن يكون التعدد فى الصورة والشكل ، مع الوحدة فى السياسة والقصد »[1] .

موقف الدول الأوروبية من الحرب اليمنية السعودية :

اهتمت الدول الأوروبية الكبرى بهذه الحرب كذلك ، وكان هناك مظاهر عملية لهذا الاهتمام ، كما كان للعالم العربى أيضاً ، وإن اختلف الاهتمامان - فى الشكل والغاية - بعضهما عن بعض . وقد تجلت اهتمامات الدول الغربية فى عدة مظاهر ، أهمها إرسال السفن الحربية إلى الحديدة ، وكذلك الاتصال بالملكين ، هذا فضلا عن التصريحات والتعليقات الكثيرة التى ظهرت أثناء الحرب .

أسرعت الدول الأوروبية ذات المصالح الحيوية فى البحر الأحمر ، بإرسال سفنها الحربية إلى الحديدة ، وهى إنجلترا وإيطاليا وفرنسا[2] . وكان يدفعهم ظاهرياً عدد من الحجج تذرعوا بها ، منها تهنئة القائد السعودى الأمير فيصل لانتصاره الخاطف ، ومنها تسهيل أعمال هذا القائد فى الحديدة ، بعد أن دخلها. وقد كان من المعروف أن هذا الاهتمام المفاجئ - الذى أظهرته الدول الكبرى فى اليمن - هو الذى صد الملك عبد العزيز بن السعود عن زيادة التوغل داخل اليمن[3] . ومن ناحية أخرى ، لقد صاحب هذه المظاهرة البحرية ظاهرة عامة ، وهى أن هذه الدول لم تكن متفقة فيما بينها على

---

(١) المنار : المجلد ٣٤ ، جزء أول ، فى ٢٩ المحرم ١٣٥٩ هـ (مايو ١٩٣٤) ص ٨٠ .

(٢) Bremond : Yemen et Saoudia, p. 113.

(٣) Philby : Saudi Arabia, pp. 323-324.

الإجراءات التى يجب أن تتخذها[1] . ولا شك أن سرعة زحف القوات السعودية من ناحية ، وصعوبة غزو جبال اليمن من ناحية أخرى ، إلى جانب اختلاف وتضارب مصالح هذه الدول فيما بينها ، كانت سببًا فى عدم اتخاذ الموقف الموحد إزاء هذه الحرب .

وقد كان لكل من إنجلترا و إيطاليا وفرنسا . مصالح وعلاقات ذات أهمية فى هذه المنطقة، فإنجلترا تحتل عدن ، وتفرض نفوذها على محمية عدن المتاخمة لليمن ، كما أنها قد توصلت فى فبراير سنة ١٩٣٤ إلى عقد معاهدة صلح مع الإمام يحيى ، لذلك كان يهمها كل ما يحدث من تغيرات أو أحداث على حدود محمياتها ، وكان لا بد لها من الا هتمام بالحرب اهتمامًا كبيرًا مباشرًا . أما إيطاليا فهى إلى جانب وجودها فى أريتريا، وإلى جانب أطماعها الاستعمارية فى جنوب البحر الأحمر بوجه عام ، واليمن بوجه خاص ، كانت الدولة الأولى صاحبة النفوذ الأعلى فى اليمن ، فهى ترتبط بالإمام بمعاهدة صنعاء (فى سبتمبر سنة ١٩٢٦) لمدة عشر سنوات ، ولذلك كانت تعتبر نفسها صاحبة المصالح الهامة ، وكان عليها بالتالى الاهتمام بأية أحداث أو تغيرات تحدث فيه ، كما كانت تنظر إلى هذه الحرب وكأنها مظهر من مظاهر الصراع الاستعمارى بينها وبين إنجلترا . أما فرنسا فقد كانت تهتم بالحرب لخوفها على مصالحها فى جيبوتى ، وعلى مصالح رعاياها المسلمين فى المدينتين المقدستين . ولكن هذه الأغراض الظاهرية كانت تغطى وراءها حرصها الشديد على مراقبة نشاط إنجلترا و إيطاليا فى المنطقة ؛ وكانت تخشى أن يفوزا بمكاسب استعمارية جديدة فيها .

حقًا لقد كانت الحرب السعودية اليمنية ، محكًا لتوضيح التنافس الدولى التقليدى بين كل من تلك الدول الأوروبية الثلاث .

---

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٩٦ .

كانت إنجلترا - نظرًا لأهمية وحيوية مصالحها هناك - هى السباقة فى اتخاذ المواقف العملية ، فقد انتهزت هذه الفرصة للاتصال بالملكين المتنازعين ، وأبدت نصيحتها للفريقين ، وأوصتهما بأن يتبعا خطة الاعتدال . وقد قام بهذا كل من الكولونيل « رايلى » الذى أوفدته الحكومة إلى صنعاء، والسير « أندروريان » وزيرها المفوض فى جدة . وكانت هذه الاتصالات ، عقب تقدم القوات السعودية ، وقربها من جزيرة « قمران » وهى تجاه الشاطئ اليمنى ويشرف عليها حاكم مدنى بريطانى . وكانت بريطانيا تقيم فيها محجرًا صحيًّا للحجاج الوافدين من بلدان الشرق الأقصى ، ولم يكن قد بت فى ملكية هذه الجزيرة بعد ؛ إذ كانت لا تزال تحت تصرف الدول الموقعة على معاهدة لوزان[1] . ولكن رغم اهتمام إنجلترا المبكر ، إلا أنها لم تظل الوحيدة فى هذا المجال ، فقد لحقتها باقى دول أوروبا ، المهتمة بالبحر الأحمر . فبدأت تظهر الدعوات الصريحة للتدخل بعد قيام الحرب بقليل ، وبدأت الصحف الغربية تحث حكوماتها إلى ضرورة التدخل لحماية مصالحها . فقد نقلت الأهرام مقالاً هامًّا عن جريدة « البتى باريزيان » الفرنسية تشرح فيه أسباب قيام الحرب ، كما تحدثت عن تطور علاقة الدولتين حتى قالت : « يجب أن ننتظر الحوادث القريبة التى يظهر أنها ستكون على أعظم جانب من الخطورة فى السياسة الإسلامية ، لأن السيطرة على مكة والمدينة لا تهم الدول العربية وحدها ، بل تهم أوروبا الاستعمارية أيضًا . ولذلك فإن من مصلحة فرنسا وإنجلترا وإيطاليا أن يرقبوا تطور النزاع بين الوهابيين واليمانيين عن كثب ، لأنه نزاع يمكن أن يحدث أعظم تأثير فى العالم الإسلامى »[2] . ورغم أهمية هذه الدعوة فإنها تخفى وراءها أطماعًا استعمارية أخرى ، عبرت عنه بشكل أوضح جريدة « الديلى تلغراف » فبدأت توضيح ما قد يترتب على التوسع السعودى ، واحتمالات نتائج هذه الحرب ، وكان

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٣٨ فى ١٨/ ٤/ ١٩٣٤ (٤ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ، ص ٦ .
(٢) الأهرام : العدد : ١٧٧٣٢ فى ١٢/ ٤/ ١٩٣٤ (٢٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

تصريحًا يعبر عن ضرورة الاهتمام بالحرب ، وترقب أحداثها لاتخاذ مواقف عملية ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، فقالت: « إنه إذا انتصر الملك ابن السعود انتصارًا تامًا ، وتلا ذلك ضم بلاد اليمن إلى أملاكه الحالية ، فإنه ينشأ إذ ذاك موقف على أعظم جانب من الأهمية ، لأنه سيكون سيدًا على الجزء الأكبر من شبه الجزيرة ، ومن المحتمل أن يشتعل شعبه حماسة بفكرة الجامعة العربية ، ومعنى هذا إيجاد اتحاد من جميع البلاد العربية الحالية ، عدا مصر تحت زعامته الأدبية على الأقل . وقد يكون تأثير هذه الفكرة فى سوريا وشرق الأردن عظيمًا ، فعلى الدول الأوروبية التى لها علاقات بالعرب مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تفكر فى هذا تفكيرًا جديًا »[1] . وتواصل الأهرام نقل آراء الصحف الإنجليزية فذكرت أن جريدة « التيمس » أخذت فى شرح الآثار المترتبة على التوسع السعودى - وخاصة فيما يهم إنجلترا بالذات - فقالت : « هناك فى الشمال ثلاثة بلدان ارتبطت معها بريطانيا بالتزامات وتعهدات وهى العراق وفلسطين وشرق الأردن ، وفى الجنوب توجد ولاية عدن الواقعة تحت الحماية البريطانية . وإلى جانب ذلك ستقوم دولة عربية جديدة يحكمها ملك يتسلط على جميع الطرق المؤدية إلى مكة مع طرق القوافل العظيمة للحجاج ، ويمكنه جباية الضرائب فى نقط كثيرة منها ، وستدخل كذلك الخطوط الحديدية الموجودة والتى فى النية مدها تحت سيطرته . على حين توجد فى الشمال - ضمن حدود العراق - منابع الزيت العراقية التى يطمع فى الاستيلاء عليها[2] » . وكان لوصول الأخبار الرسمية بانتصارات الملك ابن السعود فى تهامة اليمن إلى لندن والعواصم الأوروبية ، أثر كبير فى إثارة المناقشات حول مستقبل مصالح هذه الدول فى جنوب غرب الجزيرة العربية على ضوء الأوضاع الجديدة المترتبة على انتصارات ابن السعود . وقد أرسل مراسل الأهرام الخاص برقية من لندن فى

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٤ فى ٤/ ٥/ ١٩٣٤ (٢٠ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٥ .
(٢) الأهرام : نفس العدد والصفحة .

٤/ ٥/ ١٩٣٤ إلى جـريدته ، تصور لنا الهمسات والمناقشات التى تدور فى الأوساط الدبلوماسية هناك . ورغم أنه ذكر أن المسئولين الرسميين فى لندن لا يصرحون بموقف معين انتظارًا للأحداث ، واعتمادًا على علاقاتهم الودية مع الملك ابن السعود ، إلا أن هذا لا ينفى وجود اهتمام كبير بهذه الحرب ونتائجها وآثارها ، فيقول : « . . فالمقامات السياسية تكثر من البحث والمناقشة فيما قد يكون لهذه الصدمة (انتصار السعودية) التى أصابت المطامع الإيطالية فى البلاد العرب من الأثر فى خطة السنيور موسولينى ، كما أنها تشير (الدوائر السياسية فى لندن) إلى ما قد يكون لانتصارات القوات السعودية من الأثر فى مصالح فرنسا فى سوريا . ولكن المصالح البريطانية هى أكثر عرضة للتأثر ، إذا رعينا صلات بريطانيا بشرق الأردن وفلسطين والعراق والمحميات البريطانية فى عدن . والواقع أن بعضهم يقول ، إن ازدياد هيبة الملك ابن السعود ونفوذه من شأنه أن يشجع عرب فلسطين على التطلع إليه ، لمعاونتهم فى موقفهم ضد اليهود . أما إمارة شرق الأردن الضعيفة ، فلا تعد سدًّا قويًّا فى وجه امتداد نفوذ الملك ابن السعود ، بل تعد على كل حال بمثابة وسيلة اتصال صالحة بين الزعماء السعوديين والوطنيين العرب فى فلسطين ، الذين قد تعززت بطبيعة الحال آمالهم بهذه الزيادة فى هيبة العرب ، وفوق ذلك لا يبعد أن تكون منابع الزيت الغنية فى العراق من العوامل التى تغرى الجامعة العربية ، وتحملها على البحث عن موارد جديدة لملء خزانتها . وترى بعض المقامات أنه من المحتمل أيضًا تسلط القوات السعودية على شاطئ البحر الأحمر الشرقى كله ، وهذا يعد عاملاً جديدًا لا بد أن يؤثر - من وجهة النظر الحربية - فى كل بحث يجرى فى المستقبل فى العلاقات بين مصر وإنجلترا ، خصوصًا فى مسألة الأماكن التى ترابط فيها القوات البريطانية فى مصر »[1] وأهمية هذه التكهنات التى ظهرت فى الدوائر السياسية فى لندن ، أنها تبين بوضوح الاحتمالات التى تثيرها انتصارات

---

(١) الأهرام : ٥/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

ابن السعود فى اليمن ، ورغم أنها قد تكون احتمالات بعيدة المدى إلا أنها تعبر بصراحة عن موقف إنجلترا وأطماعها ومصالحها فى الشرق العربى فى تلك الفترة . فهى دون شك تخشى قيام وحدة عربية تحت لواء السعودية ، لأن ذلك يهدد مصالحها ومصالح باقى الدول الاستعمارية فى هذه المنطقة أيضًا . وخوف إنجلترا من قيام الوحدة ينبثق من خوفها على طرق مواصلاتها ومصادر البترول و المراكز العسكرية المختلفة ، وخاصة فى مصر ، بل ومن زيادة تعقيد المشكلة الفلسطينية .

ولكن هل هذا الاهتمام الكبير الذى ظهر فى عواصم الدول الأوروبية الثلاث ، سواء فى دوائرها السياسية أو فى صحفها ، يعبر بصراحة عن :

موقف حكومات هذه الدول الثلاث الرسمى إزاء هذه الحرب ؟

وعن اتفاق هذه الدول فيما بينها لاتخاذ موقف موحد بالنسبة لطرفى الحرب مادامت الحرب قد هددت أطماعها جميعًا ؟

وهل اهتمت هذه الدول بتلك الحرب لأنها ظاهرة تهدد السلام فى المنطقة ؟ أم لأنها خطر مباشر على مصالح وأوضاع هذه الدولة أو تلك ؟

وما دامت دوافع اهتمام هذه الدول واحدة ، وهى المحافظة على مصالحها ، فهل تشابه موقفها بالنسبة لطرفى الحرب - السعودية واليمن - ؟ أم إن هذه الدول اختلفت فيما بينها فى موقفها من كل هذين الملكين لاختلاف مصالحها ؟

مثل هذه الأسئلة الكثيرة ، تحتاج إلى بحث طويل لمعرفة مواقف تلك الدول من هذه الحرب ، التى تعتبرها فرصة عملية لإظهار أطماع ومواقف كل من الدول الثلاث من الشرق العربى فى تلك الفترة ، ولتوضيح مظاهر التنافس الاستعمارى فى بلاد العرب حينئذ ..

رغم أن فرنسا كانت أقل الدول الثلاث من ناحية مصالحها فى الجنوب غرب الجزيرة بوجه عام ، إلا أنها كانت ترقب باهتمام شديد - للأسباب التى ذكرناها - مجرى الأحداث فى بلاد العرب . ولكن وزارة الخارجية الفرنسية لم تحرك ساكنًا حتى أرسلت إيطاليا وإنجلترا السفن الحربية إلى الحديدة ، ففكرت هذه فى حذو حذوهما[1] .

أما انجلترا فقد كانت أكثر اهتمامًا لحيوية مصالحها هناك ، وانعكس آثار هذا الاهتمام فى صحفها وفى دوائرها السياسية ، لذلك كان موقفها الرسمى أكثر تحديدًا . فقد أدلى وزير خارجيتها فى مجلس العموم فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٤ ، بحديث هام يعبر عن موقف إنجلترا الرسمى ، فقال إن الحكومة البريطانية تراعى فى خطتها الحياد الدقيق بإزاء النزاع القائم ، الذى من أجله تتخذ الحكومة البريطانية التدابير التى تراها ضرورية لحماية أرواح الرعايا البريطانيين وأملاكهم والأشخاص الذين تحت حمايتها فى المنطقة التى يتناولها القتال[2] .

وكان الأمر يهم إيطاليا كما يهم انجلترا تمامًا ، فقد بعث مراسل الديلى تلغراف فى روما يقول أنه علم أن إيطاليا لا توافق على سقوط اليمن فى أيد أخرى ، وهى تنظر بعين القلق ولا سيما إذا طال أمد الحرب أو اشتد وطأتها[3] . كما يذكر مراسل الأهرام فى روما أن الدوائر السياسية هناك ، تذهب إلى أن إرسال ثلاث بوارج إلى مياه الحديدة ناشئ عن وجود كثير من الإيطاليين فى هذه المنطقة ، حيث توجد مستودعات كثيرة للبن ، وعدد من المستشفيات الإيطالية . وترى هذه الدوائر أن إيطاليا لا يمكن أن تقف موقفًا من شأنه إيجاد سوء التفاهم مع انجلترا ، التى لها أيضًا مصالح

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٧ فى ٧/ ٤/ ١٩٣٤ (٢٤ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٤ .
(٢) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٨ فى ٨/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٣) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٦ فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ (٢٣/ ١/ ١٣٥٣هـ) ص ٤ .

عظيمــة فى تلك عظيمــة فى تلك المنطقــة ، وأنه يحســن بالدول العظمى أن تتفق على انتهــاج خطــة واحــــدة بـإزاء الأحــــوال الحاضرة فى جــــزيرة العــرب[١] . وقد نقلت الأهــــرام تعبـير جـريدة الـديلى تلغـــراف عن هــذا الموقف المحـــدد لكل من الدولتين ، فقالت إنـه : « لما للحكومتين البريطانية والإيطالية من المســـتعمرات القريبة من منطقــة الحـــرب فى جزيـرة العـــرب ، فقد كانتا على اتصــال وثيق فيما يتعلــق بهـذه المســألة منذ نشــوب الحـرب . وليس معنى هــذا أن إحـدى الدولتين تنوى التـدخل فى النزاع ، إن كل ما يهمها هو حمـاية مصــالحهما فقط »[٢] .

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى قـوة أخرى رابعة اهتمت بالحـــرب الدائرة هناك اهتمامًا كبيرًا أيضًا ، ألا وهـو الاتحاد السوفيتى . فقد نبهت جـريدة إيفننج ستاندرد إلى وجـــود هـــذا الاهتمام ، وإلى مصــالح الاتحاد السوفيتى فى الجزيرة العر بيـة . وقد نقلت الأهرام هـذا التنبيه عن تلك الجريـدة ، التى استدلت على ذلك بأن روسيا كــانت أولى البلاد التى رفعت قنصليتهــا فى جدة إلى مفـوضية ، وأن السوفييت كــانوا قد أرسلوا إلى اليمــن أكثر من بعثة علمية وتجاريـة ، يعتقد البعض أنها لا تخلوا من أغراض سياسية[٣] .

مظاهر التنافس بين انجلترا وإيطاليا :

وعلى كل حــــال لقـد ترجمت هــــذه المواقف المختلفة - وخاصـــة من جـانب إنجـــلترا وإيطـاليـا - إلى عمــــل إيجـابى هـام . فقـد أرســـلت كل من الدولتين ســـفنها الحــربية إلى مينـــاء الحــديدة ، إذ لم تشـأ كل منهمــا أن تقفـا مكتوفتى اليـدين إزاء هـــذا الحرب ، لأنها تهدد مصالحهما فى المنطقـــة من ناحيـة ، ولتضــارب هـذه المصـــالح والأطماع فيما بينهما من ناحيـة ثانيـة . وقـد

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٨ فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٢ ,٣) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٩ فى ٩/ ٩٣٥ ، ص ٤ .

اتخذتا موقفًا أكثر إيجابية وجرأة ، فعندما اقتربت قوات الأمير فيصل من الحديدة ، أنزلت كل من الدولتين بعض جنودها إلى المدينة نفسها لحماية رعاياها كما ذكرنا . ولكن استتباب الأمن بسرعة فى المدينة ، وإعلان الملك ابن السعود أنه كفيل بالمحافظة على أرواح رعاياهما وممتلكاتهم اضطرتا إلى سحب جنودهما مرة أخرى إلى السفن ، مع بقائها أمام الحديدة . وقد نشرت جميع صحف روما فى ١١/ ٥/ ١٩٤٣ بيانًا شبه رسمى عن الحالة فى الجزيرة العربية ، يعرض مصالح إيطاليا هناك ، وأن لها علاوة على بعض المنشئات الصحية التى يدبرها أطباء إيطاليون ، مصالح اقتصادية لشركات الملاحة الإيطالية ، وأن هذه المصالح تعلل التدابير الاحتياطية التى اتخذتها - كما اتخذتها انجلترا - بعد انسحاب القوات اليمنية من تهامة . وأخذ البيان يعدد التدابير الحربية البحرية التى اتخذتها إيطاليا ، وعدد السفن التى أرسلتها إلى هناك ، ثم استطرد قائلاً إن إيطاليا أنزلت - كما أنزلت إنجلترا - فصيلة من بحاراتها لحماية الرعايا الإيطاليين فى الحديدة، ولكنه ذكر أخيرًا أن دخول القوات السعودية فى الحديدة ، بقيادة الأمير فيصل الذى كفل حياة الأجانب وأملاكهم ، وتحسن الحالة فى المنطقة إلى حد لا يبعث على القلق ، حملا إنجلترا وإيطاليا على استرجاع قواتهما[1] . وهذا البيان ، فضلاً عما يذكره من التدابير التى اتخذت ، فإنه يصور بصراحة روح المنافسة الموجودة بين إنجلترا وإيطاليا ، وأن كل منهما كانت حريصة على ألا تنفرد أيهما بعمل ما دون الأخرى .

وهنا يتضح أمر هام بالنسبة لهذه المنافسة الاستعمارية التى تخفى وراءها أغراضًا متناقضة ، فمن المعروف أن إنجلترا وإيطاليا حاولتا اتخاذ مواقف عملية متشابهة ، وأن كل منهما حاولت ألا تنفرد الأخرى بعمل ما ، كما امتنعا عن

(١) الأهرام : فى ١٢/ ٥/ ١٩٣٤ .

الانحياز إلى أحد طرف الحرب دون الآخر ، ولكن بعد أن تقدمت أحداث الحرب ، وبعد أن أصبح الأمر أكثر وضوحا ، بدأت كل من الدولتين الكبيرتين تظهر ميلها إلى جانب - اليمن أو السعودية - دون الآخر ، وزاد هذا وضوحًا بعد دخول القوات السعودية « الحديدة » .

ولتوضيح ذلك يمكن القيام باستعراض تاريخى سريع لعلاقة كل من الدولتين الأوروبيتين بكل من الملك عبد العزيز والإمام يحيى . فإيطاليا كان لها معاهدة مع الإمام من سنة ١٩٢٦ ، ورفع هذا من شأنها وقوى نفوذها فى اليمن ، ولكنها لم يكن لها إلا قنصلية عادية فى جدة كباقى الدول المختلفة . أما إنجلترا فكانت لها - من ناحية - معاهدات مع كل من الملكين العربيين ، ولكنها لم تكن تنسى طبيعة علاقتها مع كل منهما من ناحية ثانية . إذ كانت ترى أن الملك ابن السعود أسلس قيادة وأقل عنادًا من الإمام يحيى ، كما أن الأول ليس له مطالب الثانى فى منطقة عدن المحمية. وهنا نستطيع أن نقول إن إنجلترا قد بدأت تنحاز أو تميل إلى جانب السعودية ، بينما مالت إيطاليا إلى جانب اليمن . وكان كل من الملكين العربيين يمثل - من وجهة نظر إنجلترا وإيطاليا - قناعًا للمنافسة بين هاتين الدولتين فى حقيقة الأمر .

ويجب ملاحظة أن هذا كله لا يتناقض مع ما سبق أن ذكرناه من أن موقف كل من هاتين الدولتين الأوربيتين الرسمى كان الحياد ، وعدم التدخل أو الانحياز ، لأن ميل كل من الدولتين إلى جانب دون الآخر لم يترتب عليه أية مواقف عملية تدل عليه .

بدأت الصحف الإنجليزية تكيل التهم إلى إيطاليا وإلى نواياها وأعمالها، وكانت الصحف الإيطالية تقوم بنفس العمل كذلك . فقد حدث بعد قيام الحرب بحوالى شهر - وقد اتضح هزيمة القوات اليمنية - أن أشارت جريدة

«مورننج بـوست » الإنجـليزية ، إلى أن هنـاك بعض الأجانب بـاليمن يعملون لحســـاب دولة أجنبية - وكانـت تقصد إيطاليا بطبيعـة الحال - وأنهم شجعوا الإمام يحيى على خطته التى تنطوى على التحـرش وإثارة العـــداء مع جــاره القـوى الملك ابـن السـعود . وأشـــارت الجريدة إلى أن مـا يعزز هــذه الأقوال الشائعة ، هو وجـود عـدد من الأوروبيين أسروا مع اليمنيين فى المعـارك الأخـيرة بل تتابع الجــريدة بعـد ذلك تهكمها على محـاولات إيطاليــا فى مد نفـوذها فى الجـــزيرة العربية ، وذلك بـالاعتماد على الإمام يحيى فتقول إن : « الـرهان وضع على جـواد خاسر »[1] . ولـكن جـريدة « الطــان » الفرنســية كانـت ترى رأيًا آخر عكس ذلك تمامًا ، فقـالت إن هذه الأحاديث من قبيل الحدس والتخمين : « فـكون المصـــالح الإيطـالية التي وجـدت فى عهد الإمـــــام ، وكون الجيش المتوكل يتـدرب على أيدى مدربين إيطاليين ، كل ذلك لا يكفى لجعـــل المـلك ابن السعود والإمـام يحيى موضوعـا لاصطدام نفـوذين عظيمين يحاولان التزاحم فى بلاد مسيطـرة على مدخـل البحر الأحمر »[2] . ولكن بـريطانيا كـانت تحسب ألف حساب لمـا ستقوم به إيطاليـا ، إذا تمت هزيمة الإمام نهائيًّا ، وكانت تخشى نتائج ذلك ، فقد جـاء فى جريدة « المـانشستر جارديان » فى مقـــالة طويلة عن هذه الحرب ، أنـه : « إذا كان السنيـور موسولينـى قد راهن على الجواد الخاسر ، فليس معنى هـــذا أنـه سيتحمل خســـارته بســـــهولة ، وإن كان ليس لدينا ما يدعونـا إلى الزعم بأن إيطـــاليا ستتدخل فى شئون بـلاد العـــرب »[3] . ولم تكن الصحف الإيطـاليـة أقل نشـاطـاً من الصحف الإنجليـزيـة ، بل كـانت

---

(١) الأهرام : فى ٥/ ٥/ ١٩٣٤، ص ٥ .
(٢) الأهرام : فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(١) الأهرام : العدد : ١٣١٧٧٥٣ فى ١٣/ ٥/ ١٩٣٤ (آخر محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٦ .

تكيل التهم لإنجلترا كذلك ، وتصفها بالطمع ، فقد ذهبت جريدة « رستودل كارلينو » الإيطالية ، إلى أن إنجلترا تبذل للملك عبد العزيز معاونة عظيمة فنية وعسكرية ، كما تقول إن فى اليمن ثروة معدنية مهمة - وخصوصاً منابع بترول غزيرة - وهى التى تسعى إنجلترا إلى وضع يدها عليها ، وذلك بمساعدتها الحاضرة للملك ابن السعود[١] .

ولم يقتصر الاتهام على كل من الدولتين الاستعماريتين بعضهما لبعض ، بل تحول الأمر إلى أبعد من ذلك بكثير . فقد بدأت كل منهما - وقد اتضح ميل كل منهما إلى جانب أحد الملكين المتحاربين - تقذف بالسباب والتهم إلى الملك الذى تنحاز إليه منافستها . فبدأت صحف إيطاليا - بعد أن تأكدت انتصارات ابن السعود وبعد أن أظهرت إنجلترا ميلها إليه - تهاجم ابن السعود نفسه ، وتصفه بأنه طامع فى امتلاك الجزيرة العربية ، وأن اليمنيين يقاومون بشدة هذه الأطماع . هذا بالرغم من أنها كانت تلتزم - بوجه عام - خطة الحياد بين الملكين المتحاربين[٢] . وكانت صحف إنجلترا أكثر جرأة بالنسبة للصحف الإيطالية بالرغم من موقف الحكومة الإنجليزية التى كانت تعلن الحياد دائماً . وقد سارت الصحف الإنجليزية فى تعليقاتها فى خط يتمشى تماماً مع سير الأحداث ، فعندما بدأت الحرب ، كانت تعبر دائماً عن قلقها ، وتناقش أوضاعها فى الجزيرة العربية ، وتثير التكهنات حول نتائج انتصارات ابن السعود . إلا أنه بتطور أحداث الحرب ، فقد بدأت نغمة جديدة تظهر فى تعليقاتها ، فبدأت تقارن بين شخصية كل من الملكين العربيين ، ثم تقارن بين علاقة إنجلترا بالملك ابن السعود وعلاقتها بالإمام يحيى . وأخذت أخيراً تجاهر

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٥٣ فى ١٣/ ٥/ ١٩٣٤ (آخر المحرم ١٣٥٣ هـ) ، ص ٦ .

(٢) الأهرام : العدد ١٧٧٥١ فى ٢١/ ٥/ ١٩٣٤ ؛ ص ٦ .

- عندما تم انتصار الملك ابن السعود ودخل الحديدة - بتفضيل ابن السعود على الإمام ، وبتفضيل تعامل إنجلترا مع الأول عن تعاملها مع الآخر .

وأعلنت صراحة عندما تم إعلان الهدنة ، بأنه من الأحسن والخير لإنجلترا ، أن يحكم ابن السعود اليمن ، وأن عليه أن يواصل حربه حتى يستولى على اليمن كلية . وهذا الخط الواضح لموقف الصحف ، وبالتالى الرأى العام الإنجليزى ، ينبثق أساساً من موقف إنجلترا التاريخى السابق من كل من الملكين العربيين . وقد تساءلت جريدة « الأوبزرفر » الإنجليزية فى مقال لها هام ، عما يحدث لو تمكن الملك ابن السعود من اجتياح اليمن وضمه إلى ملكه الواسع ، فأجابت على تساؤلها هذا : بأن ولاية عدن المحمية ستكون جارته من الجنوب بدلا من اليمن ، وفى مثل هذه الحالة لا تقع متاعب لأن العلاقات بين بريطانيا والمملكة السعودية حسنة ، فعلاقات الملك ابن السعود الدبلوماسية مع العراق المستقل ، وإمارة شرق الأردن التى تحت الانتداب البريطانى ، علاقات مرضية ، وقد رحب البريطانيون بقيام مملكته المزدوجة من نجد والحجاز - وهى المعروفة الآن بالمملكة السعودية - ولم يتبرموا منها .. فإذا تمكن الزعيم العربى (ابن السعود) من أن يشيد لنفسه مملكة ثلاثية بإدخال اليمن إلى ملكه ، فإن العلاقات بين إنجلترا وبلاد العرب لا تزداد صعوبة ، لأنه أسهل على المرء أن يتعامل مع شخص واحد من أن يتعامل مع بضعة أشخاص »[1] . وأكدت مجلة « سبكتيتور » الإنجليزية هذا المفهوم ، فقالت : « إن الملك ابن السعود صديق إنجلترا ، ويدل تاريخه المجيد فى فتح بلاد العرب على أن الرعايا البريطانيين يكونون دائماً تحت رعايته فى مأمن ، من أن يكونوا فى أى جزء آخر من شبه الجزيرة ... فإذا فرض

---

(١) الأهرام : فى ٧/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

واستطاع الملك ابن السعود فى النهاية أن يضم بلاد اليمن إلى أملاكه ، ويصير بذلك جاراً لمنطقة عدن ، فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن خطته نحو بريطانيا التى سارت على وتيرة واحدة منذ قبل الحرب لم يطرأ عليها أى تغيير ، أو تتحول عن خطة الصداقة والمودة »[1] . وكانت الصحف البريطانية لا تعبر عن عدم خوفها من امتداد نفوذ السعودية فحسب ، بل كانت ترحب به فى اليمن أيضاً ، وتهاجم الإمام ، وتنتقد بقسوة مواقفه السابقة منها . وقد عبرت « المانشستر جارديان » الإنجليزية عن هذا الموقف بصراحة ؛ إذ جاء فى مقال افتتاحى لها عن الحرب الدائرة إشارة هامة إلى طبيعة علاقاتها السابقة بالإمام ، وأهمية المعاهدة التى عقدتها معه ، وأن مشكلة الحدود لم تحل بعد بينها وبين اليمن ، وأن ابن السعود إذا تم انتصاره فإنه سيرث هذه المشكلة وهو شخص ترتاح إليه ، حتى قالت أخيراً : « .. ولا ريب أن وجود حاكم قوى عادل فى جوار عدن ، التى لها أهمية لا تقدر كمحطة لتموين البواخر بالفحم ، خير من رجل ضعيف طاغية محب للنزاع والمشكلات »[2] . بل ظهر أكثر من ذلك ، فعندما عقدت الهدنة فعلا بين الملكين رحبت جريدة « المورننج بوست » بها لأنها فى الحقيقة - رغم كل شىء - يهمها هدوء اليمن واستقراره ، لأنه يجاور مباشرة محمية عدن ، ولكنها قالت : « إنه من المشكوك فيه أن ابن السعود يرغب فعلا فى احتلال اليمن كله ، وهو ما كان يجب عليه عمله إذا استمرت الحرب إلى النهاية وخلع الإمام »[3] . وهى تعبر هنا بطرف خفى عما كان على ابن السعود عمله ، وهو الاستمرار فى الحرب . وتلاحقت تعليقات الغرب على أحداث الحرب اليمنية السعودية ، بالرغم من الهدنة وإجراء المفاوضات بين الطرفين المتنازعين . فترى الصحف الكبرى الإيطالية مثلا ، تجد نفسها

---

(١) الأهرام : فى ١١/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٢) الأهرام : فى ١١/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٣) الأهرام : فى ١٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٥ .

مضطـرة لإرسـال مـراسلين خصوصيين لموافـاتها بـالأنبـاء ، وذلك : « لأن أحداث الجزيـرة العربيـة كانـت تشغل بال المقـامات السيـاسية والـرأى العام الإيطالى »[١] . وكـذلك كان الـرأى العام الإنجليـزى - فضـلا عن حكومتـه - يـواصـل اهتمامـه بهذه الأحـداث ، فقـد نقلت الأهــرام عن جـريـدة « الأوبـزرفـر » مقـالا هـامـا تقـارن فيـه بين الملك ابـن السعـود والإمـام يحيى وتـوضح مـا بينهما من فـوارق . ونـلاحـظ أن هـذه المقـالـة ظهـرت بعـد وقف الحرب فعـلا بحـوالى خمسـة عشر يـومـاً ، فكـان الأجـدر بـالجريـدة ألا تحاول إثارة ضغائن كما فعلت، بل تحاول بحث النتائج التى وصلت إليها المفاوضات، وهـذا مـا يـدفعنا إلى الاعتقـاد بأن إنجلترا كـانت تـرغب فى إزاحـة الإمـام من اليمن وإحـلال ابن السعـود محلـه لأنه - مـن وجهة نظـرهم - على عـلاقـات وديـة معهم . وقـد عبرت المقـالـة عـن هـذا كلـه بصراحـة ، فقـد جـاء فيهـا : « .. ويصعب جـدًّا معـاملـة الإمـام لأنـه يمتعض من كل تجديـد ، ويكـره التقـدم الحديث والآراء الجديـدة ، ولا يمكن الاعتماد على كـلامـه لأنـه يعـد اليـوم وينكل بـوعـده غداً ، ويماطل ، ويتردد ، ويبـدل آراءه تكـراراً ولا يمكنـه أن يـوحـى بـالحماسـة إلى رجـالـه لقلـة مـا فيـه من الصفـات التى يعجب بها العـرب ، فهـو متـلاعب مكـار فى حين أن الملك ابن السعـود حـاذق بـارع ، وهـو متنـاه فى البخل وعبـد العـزيـز سخى ، أمـا إنجلترا فخير لها أن يحكم الملك عبـد العزيـز اليمن لأن الإمام يحيى كـان دائماً عدوًّا لـلإنجليز . وأثنـاء الحرب العالميـة عاون الأتـراك على مهـاجمة عدن ، وكـان فى الست عشرة سنـة الأخير يهدد دائماً حـدود عـدن ، ويأبى المسـالمة أما الملك عبـد العـزيـز فصـديق لـلإنجليـز ، وقـد نشر الأمـن والسـلام فى بـلاد العـرب بحكم قـوى عادل »[١] .

---

(١) الأهرام : فى ٢٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٦ .

(٢) الأهرام : فى ٢٨/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

ولكن لنا أن نتسـاءل الآن ، هل كان لموقف العالم الغربى من الحـرب - خاصـة إنجلترا وإيطاليـا وفرنسـا - أثر فى قيـام الحرب من نـاحية ، وفى سير أحداثها من ناحية أخرى ؟

فى الحقيقة لا يمكننا البت فى إجابـة معينة إذ من الصعب تحقيق ذلك لقلة الوثـائق فى هذا الشأن ، ولكننا فى نفس الـوقت يمكن أن نجزم بأن مـوقف هذه الدول الحربى البحرى ، كان سبباً هامًّـا فى وقف الحرب . أما من ناحية أثرها من قيـام الحرب ، فإننا نحب أن « الأسبـاب الـرئيسية لهذه الحرب نبعت محليًّـا على الحدود بين الدولتين العربيتين »[1] . وهذا الحديث ليس بغريب ، فقد ذهب إليه الكتَّاب الإنجليز أنفسهم ، فقـد نقلت الأهرام عن جريدة « إيفننـج ستاندرد » الإنجليزية مقـالا هامًّا جاء فيه : « إن بعض الدوائر السيـاسية فى أوربا تميل إلى تصويـر حرب بـلاد العرب بـأنها فى أساسهـا فوز لبريطـانيا على إيطـاليا ، لأن بريطـانيا أيـدت ابن السعود وأيـدت إيطاليـا الإمام يحيى . ولكن هـذه الأقوال ليست صحيحـة لأن الحـرب والسـلم فى بـلاد العـرب من شئـون العـرب وحدهم »[2] .ولكن رغم صحة هذا الرأى وتأييـدنا له : إلا أنه يجب أن نضيف إليـه نقطة هـامـة ، وهى أن السـلم والحرب فى بـلاد العرب من شأن العـرب وحدهم ، إلا إذا تعارض ذلك مع المصـالح الأجنبية ، فالعالم الغـربى ترك فعلا أجزاء الجزيرة العربية الداخلية تتطاحن كما تشاء ، ولكنه لم يسمح لهذا التطاحن أن يمتد إلى الأجزاء التى تحت نفوذه .

الصلح ومعاهدة « الطائف » بين اليمن والسعودية :

انتهت الحرب تقـريبـاً عندمـا دخلت القـوات السعـودية « الحديـدة » فى النصف الأول من شهر مايو سنة ١٩٣٤ ، هذا غير التوقف المؤقت عند « باقم »

---

(١) Survey of International Affairs, : 1934, p. 320.

(٢) الأهرام : فى ٢٣/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

فى جهـة « نجـران » حيـث كـان الأمير سعـود هنـاك يستعـد لهجـوم شـامل . وقـد أعلن الإمـام - عنـدمـا انسحبت قواتـه من تهامـة - قبـول شروط الهدنـة كما وضعها ابن السعـود ، وهى إخلاء جبال عسير ونجـران ، وتسليم الأدارسة ، وعقـد معاهـدة . وقـد تقابل منـدوبو الـدولتين فى « الطـائف » فى ١٨ مايـو ، ودارت المفاوضـات فى جو ودى ، وكان رئيس الـوفد اليمنى هو السيـد عبد الله ابن الـوزير ، وتمت المفـاوضة تحت رعـاية لجنـة صلح مكونـة من رجالات وفـد المؤتمر الإسلامى ، السابق الإشارة إليه ، وكان يـرأسها محمد على علوبة باشا من مصر والسيـد شكرى القـوتلى من سوريـا ، وقد أظهـر ابن الوزيـر أنه مفـاوض قدير ومسئـول ، بالرغم من أنه كان ملـزماً باستشارة الإمـام باللا سلكى فى كل مرحلـة ، وفى كل نقطة أثناء سير المفـاوضات»[1] . وقد وقع المنـدوبين نصوص المعاهـدة فى ٢٠ مايـو ، وكان موعـد انتهاء الهدنـة فى ٢٩ مايـو ، إلا أنها مدت عدة أيـام لأن الإمام يحيى لم يكن نفـذ شروط الصلح بعد»[2] . حقيقة قـد تأخر إبـرام المعـاهـدة من الملكين ، وظهـرت عـدة تكهنـات تفسر مـوقف الإمـام المتردد من عقد المعـاهدة ، فقـد ذهب فيلبى مثلا إلى أن السبب ، هـو أن الإمام كان إلى آخر لحظـة لم يكن لديه المـال الكـافى لدفع الغرامة المـالية التى فرضها ابن السعود لتغطية مصاريف الحرب[3] . وذهب مراسل الأهـرام فى روما إلى أن السبب هـو مـوقف نجـل الإمـام سيف الإسـلام أحمد ؛ إذ كـان غير راض على شروط الصلح[4] . وقـد أشيع حينئـذ - ورددت الصحف وخـاصـة الغـربيـة هذه الإشـاعات - أن سيف الإسلام أحمد كان يعمل على خلع والـده والجلوس

(١ ، ٣) H St J. B. Philby : Arabian Jubilee, p. 186.

(٢) Survey - 1934 : p. 312.

(٤) سبق أن ذكـرنا أن نـزيـه العظم قـال إن سيف الإسلام أحمد انتصر على الأمير سعـود فى معركة جبل « باقم » وأن هذا سبب وقف الحرب ، وقد يكون هذا - إذا افترضنا صحته - سبب موقف سيف الإسلام من الصلح .

مكـانه ، بحجـة ضعف قـوة الإمـام وشيخوختـه ، وكـان يدفعـه فى هـذا بعض خاصتـه الذين حولـه ، كما أن فريقاً من أنصـاره كانوا يمنونـه بوصول مسـاعدة مـن الخارج[١] . وقـد أثـار تبـاطـؤ الإمـام فى تنفيـذ الشروط التسـاؤلات ، واكفهـر الجو ثـانيـة بغيـوم الحرب ، وقيل إن الاستعـدادات للـوثـوب بـدأت من جديـد ، من الناحيتين ، بل ذهب بعض المعلقين إلى أن الجانـب اليمنى قد اتخذ الهدنـة فـرصـة للتأهب والاستعـداد ثـانيـة . وقـد شهـدت « الطـائف » عرضـاً عسكريّـا كبيراً استغرق ساعتين شـاهده الملك عبـد العزيـز آل سعود . وكان المغزى من هذا العرض ، هـو إظهار عزم الملك ابن السعود على الاستمرار فى الحرب ، إذا نكث الإمـام بـوعـده ولم ينفـذ شروط الهدنـة . وقـد أعلن ابن السعـود موعـداً نهائيًّا أخيراً فى ٢٨/ ٥/ ١٩٣٤ لتنفيـذ جميع الشروط[٢] . وكـان ابن السعـود يحرص على توضيح مـوقفه أمـام العالم ، وخـاصة بحجـة الاحتفال بتوقيع المعاهدة ، ولشرح الوضع القائم ، وموقف الإمام المتردد . ولكن فى صباح اليـوم التـالى - أى عنـد نهايـة الإنـذار - وصل رد الإمـام بقيـامـه بتنفيـذ الشروط الموضوعة[٣] . وقـد بـدأ الجانبـان بـالفعل فى تنفيـذ هـذه الشروط بعـد ذلك ، فبدأ جلاء القـوات اليمنية عن جبال عسير قبل نهاية مايـو ، وفى ٥ يونية أعلنت الحكـومـة السعـوديـة أن الأدارسـة قـد وصلـوا إلى مـركـز قيـادة الأمير فيصل فى الحديـدة ، وأنهم فى طـريقهم إلى مكة ، وقـد أبـرم الملك ابن السعـود المعـاهـدة فى ١٨ يـونيـة ، ووقعهـا الإمـام فى ١٩ يـونيـة . وفى ٢٣ يـونيـة نشر نص المعـاهـدة فى وقت واحـد ، فى مكـة وصنعـاء والقـاهـرة ودمشق . وفى ٢٧ يونية ، أعلنت الحكومة السعودية أنـه قد تم جلاء الزيديين عن الأقاليم المحتلة فى عسير ، وأن اليمن قـد وفى بكل الشروط المتفق عليها ، وأنـه تبعـاً لذلك فقـد

(١ ، ٢) الأهرام : العدد ١٧٧٥٦ فى ٢٥/ ٥/ ١٩٢٤ (١٢ صفر ١٣٥٣ هـ) ص ٤ .

(٣) Philby : Arabian Jubilee, pp. 186-187.

أفرج الملك عبد العزيز عن المسجونين اليمنيين الذين قبضت عليهم القوات السعودية فى تهامة ، وأن الملكين سيفرجان عن الأسرى الذى فى أيدى كل منهما ، والذين أخذوا من نجران . وفى ١٤ أغسطس أعلنت الحكومة السعودية أن القوات السعودية قد جلت عن الأقاليم التى خصصتها المعاهدة لليمن(٢) . (انظر ملحق ١١) .

ويلاحظ فى هذه المعاهدة الهامة ناحيتان : ناحية شكلية ، وناحية موضوعية . فمن الناحية الأولى ، نلاحظ أن هذه المعاهدة طويلة إلى حد كبير ملفت ، وهذه هى نقطة الانطلاق فى حديثنا عن ناحيتها الشكلية . فالمعاهدة قد تضمنت كثيرًا من النقاط والموضوعات التى كان يمكن وضعها فى « اتفاقيات » أو « بروتوكولات » ملحقة من غير أن تذكر فى صلب المعاهدة نفسها ، هذا إذا وضعنا فى الاعتبار الشكل « الدبلوماسى الدولى للمعاهدات . فتحديد الحدود مثلاً من الأمور الهامة التى يجب أن تنص عليها المعاهدة ، ولكنها لا يجب أن تذكر بالتفصيل فى صلب المعاهدة نفسها ، بل يجب أن يفرد لها ملحقًا أو بروتوكولاً خاصًّا توضح فيها النقاط التى يمر بها خط الحدود المشار إليه فى المعاهدة . وكذلك أيضًا التنظيم الخاص بتبادل المجرمين واللاجئين السياسيين ، وضرورة تسليمهم للدولة الفارين منها ، فيجب أن يتضمنه اتفاق خاص . ومن ناحية أخرى فهناك مواد تنظيمية بحتة لا توضع بالشكل التفصيلى التى وضعت به فى نص المعاهدة ، مثل تنظيم البريد والاتصال اللا سلكى ، وتعبيد الطرق وتنشيطها ، فهذه الأمور كان من الممكن وضعها فى شكل خاص بها كاتفاقية تجارية أو ملحقا خاصًّا بتنظيم هذه الأمور الأولية البديهية المفصلة التى وضعت بالمعاهدة . ونقيس على ذلك الكثير من مواد هذه المعاهدة ، إذ نلاحظ فيها بوجه عام التفصيل والتطويل الذى كان يمكن إنجازه فى مو اد قليلة مركزة ، على أن يكون هذا التفصيل فى مو اضع

---

(١) Survey ..,1934 : P.381.

أخرى كالملاحق أو الاتفاقيات الخاصة . ولكننا لا نعطى أهمية كبيرة لهذه الأمور الشكلية ، وخاصة أننا نعتقد أن النقص فى ناحية الشكل ، يرجع إلى عدة أمور منها أن الدولتين ليستا أعضاء فى عصبة الأمم ، كما أنهما حديثتا العهد بشئون العلاقات الخارجية والأمور الدبلوماسية ، أما المعاهدات التى سبق أن عقدتها كل منهما فكانت مع بلاد لها تاريخ طويل فى عقد المعاهدات . وقد يكون سبب التفصيل و التطويل أيضاً فى المعاهدة هو حرص البلدين على أن تتضمن المعاهدة كل الأمور الدقيقة التى تهمهما .

أما من الناحية الموضوعية - وهذا هو الأمر الهام - فقد أدت المعاهدة إلى تحقيق الشىء الكثير فى الحقيقة ، وكان على رأسها خروج نجران وعسير من حوزة اليمن . ولكن الكاتب الإيطالى « سلفاتور أبونتى » وصفها بقوله : « ومعاهدة الصلح التى أطلق عليها اسم معاهدة الطائف ، لم تكن إلا أنشودة من أناشيد الوحدة العربية »[1] . وقد كان هناك دوافع وأغراض بعيدة جعلته يصفها بهذا الوصف البعيد عن النظرة الفاحصة أو البحث الموضوعى ؛ تتبلور فى أنها أبقت اليمن أو معظمه تحت سلطة الإمام يحيى صديق إيطاليا ، وأبعدت ابن السعود صديق إنجلترا عن المنطقة ، وقد سبق أن أوضحنا هذه الأمور .

وكان يرى أن هذا الصلح كان أغرب من الحرب ، فرغم قسوة الحرب والانتصار الذى حققه ابن السعود ، إلا أن الصلح جاء بغير ما كان يتوقعه كل المراقبين أو المعلقين سواء من العرب أو الأجانب عمومًا . ولكنه لم يوضح سبب ذلك ، واقتصر على إثباته بنصوص من المعاهدة نفسها ، والشروط التى وضعتها والنظم التى أقامتها . والحقيقة أن هذه المعاهدة قد أقامت قواعد ثابتة وأسسًا متينة لعلاقات البلدين بعضها ببعض ، وهذا هو سبب أهميتها .

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٦ .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على مواد المعاهدة ، نجد أنها لم تكن معاهدة صلح خاصة فحسب ، بل كانت معاهدة عامة نظمت العلاقات بين المملكتين العربيتين المتجاورتين بشكل دقيق . وقد جاء فى تعليق خاص للأهرام ما يؤكد ما ذهبنا إليه ، إذ قالت .. « فأهمية معاهدة « الطائف » ليست فيما قد يؤدى إليه من توسع وانكماش فى أملاك إحدى الدولتين ، بل فى تعيين الحدود وتثبيتها بينهما بشكل لا يترك أقل مجال للخلاف فى المستقبل » ثم أشارت بعد ذلك إلى أهمية وحدة التمثيل الخارجى الذى كان فيها ، والاتفاق عند عقد المعاهدات ، وعدم السماح للدسائس ضد الأخرى . واستطرد التعليق بعد ذلك ينوه عن الصداقة والأخوة التى نصت عليها المعاهدة كما أخذ يدافع عنها « بأن كل ما يقال عكس ذلك فهو كيد الكائدين »[1] . وقد يكون سبب دفاع الأهرام الحار عن المعاهدة ، رغم أنها لم تكن قد أذيعت بعد ، هو مقال « المستر فيلبى » الذى نشرته « الديلى ميل » عن المعاهدة ، والذى قال فيه إنه قد حصل على موادها بطريقته الخاصة . وقد نقلت الأهرام حديثة الذى جاء فيه أن المعاهدة تدل على أن الملك عبد العزيز بن السعود قد بسط حمايته المستترة على اليمن ، واستدل على ذلك ببعض المواد ،مثل المادة التى توجب اتخاذ جبهة واحدة تجاه كل الأمور الاقتصادية المشتركة ، والمادة التى نصت على ألا يعقد أحد الطرفين معاهدة مع طرف ثالث تؤثر فى مصالح الفريق الآخر إلا بعد التشاور التمهيدئ التام بينهما ، وكذلك المادة التى تنص على أن تمثل السعودية اليمن فى الخارج وتنوب عنها فى المؤتمرات الدولية ، أو التى تنص على تبادل المعونة الحربية إذا دعت الضرورة إلى حماية المصالح السياسية المشتركة ، والدفاع عن استقلال العرب ضد كل عدوان أو خطر خارجى[2] ، ولكن نصوص المعاهدة نفسها - عندما أذيعت - كانت تكذب كل هذه الأقوال ، فالاشتراك فى التمثيل الخارجى يعتبر تفكيرا

(١ ، ٢) الأهرام : فى ١٦/٦/١٩٠٣ ، ص ٤ .

تقدميًّا من وجهة النظر العربيــة ، لأن هــذا معنـاه وحـدة السـياسة العـربية الخارجيــة ، كما أنه يـؤدى إلى تخفيض تـكاليف التمثيل الخــارجى - وخاصـة بالنسبة لبلدين مثـل السـعودية واليمن - دون أن يكون فى ذلك وصــاية ما أو حماية مقنعة . وقد أكدت هـذا المعنى ، المـادة ٢٠ التى جاء فى نهايتها : « كما أنه لا يمكن أن تفسـر بحجـز حرية أحدهما أو اضطراره لسلوك هـذه الطريقة » . أمـا ضرورة التشــاور التمهيـدى التام بين البلـدين قبـل أن تعقـد إحـداهما معاهـدة خاصـة مع طرف ثـالث ، فـلم يرد أيضًـا أية إشارة تـدل عليه ، إذ إن نص المــادة (١٥) - الخاصة بهــذا الأمر - لا يحمــل أى معنى للوصــاية أو الحما يـة بل هـو ضرورة بين بلدين عـربيين لهمــا مصــالح واحـدة ، وأغـراض سياسية واحـدة .

وقد سـارت الـدولتان فى تثبيت الحدود التى نصت عليها المعاهـدة سـيرًا حثيثًا ، حتى تقضى على أسـباب التوتر الذى ساد علاقتهما منذ سنة ١٩٢٦ إلى ١٩٣٤ . لذلك تألفت لجنـة حدود من مبعوثين مسئـولين من كلٍّ من الطرفين ، للقيام بهذا التخطيط طبقًـا للأسس التى وضعتهـا المعاهدة نفسهـا . وقد راعت اللجنة فى التنفيـذ الدقة مع مـلاحظة مصالح القبـائل المنتشرة على طول الحدود حتى لا تثار هناك أية شكوك فيما بعد ، فى ولاء أو تبعية إحدى القرى أو القبائل لأحـد الطرفين . وفى خـلال عـام ١٩٣٥ انتهى عمل اللجنـة من ناحيـة تثبيت أعمدة الحدود ، وقد بلغ عدد الأعمدة ٢٤٠ عمودًا على طول الخط الممتد ، وهو حـوالى ٤٠٠ ميل من شـاطئ البحـر شمال « ميدى » إلى حـافـة الـربع الخالى . وحـدث فى العـالم التالى بعض التغيرات الـلازمـة حتى يتـلاءم خط الحدود مع الواقع بشــكل أدق . وقد راعى الطرفان كـذلك المـادة الخاصة بتحريـم إقامة الحصون فى مسافة ٥ ك.م. فى كل ناحية من الحدود[١] .

ويتبـادر إلى الذهن هنـا سـؤال هام قد تردد عنـد إبرام المعاهــدة ، وهو :

(١) Phiby : Arabian, Jubilee, pp. 187 _ 188.

كيف ظهرت هـذه المعاهدة فى هذا الثوب الودى الأخوى مع أن هنـاك انتصارا وهزيمة ؟ ولمـاذا كان هناك ميل إلى التسامح والصـداقة من الجانبين فأسرعا إلى الاتفاق على هذا الشكل المرضى من وجهة النظر العربية على الأقل ؟

والإجابـة على هذا السـؤال لا تحتاج منا بحثًا طويـلاً ، بل تحتاج فقط أن نعود إلى أسبـاب قيام الحرب وأغـراضها ونتـائجها . وقد يتضـح من استعراض الأحداث السابقة ، أن الملك عبد العزيز قـد تمكن من تحقيق مطالبه كلها عندما تم انتصاره ، وعنـدما وافق الإمام يحيى على شروطـه لوقف الحرب . ويتضح من ناحية ثانية - وكان ابن السعود يعلم ذلك علم اليقين - أن الحرب كانت لم تبدأ بعـد ، فزحف القـوات الســعودية السريـع فى تهامة كـان نتيجـة تقهقر وفـرار القـوات اليمنيـة إلى الجبال للتحصن بها حتى تتمكـن من الدخـول فى معـارك حقيقية فـاصلة فى ميـادين تجيد الحرب فيهـا . ومن ناحيـة ثالثـة اتضح تدخـل الدول الأوروبية ، وأثر ذلك فى وقف الحرب . كـل هذه النواحى مجتمعة جعلت ابن السعود يـوافق على الصلح ما دام قد حقق أغـراضه ، وبالتـالى دفعته إلى أن ينتهز الفرصة حتى يضع المعاهدة التى يرغب فى عقدها منذ أمد طويل .

ولهذا كلـه أيضًـا فإننـا لا نعتبر هـذا الصلـح جـاء مفـاجأة ، أو أن هـذه المعاهـدة جاءت بغير مـا كان متوقعًـا ، بل كانت فى الحقيقة استجـابة صـادقة لوقائع الأحداث حينئذ وللظروف والأوضاع المحيطة بهـا .

وهكذا كـان عام ١٩٣٤ ، عـامًا متميـزًا فى تاريخ حيـاة الإمام السيـاسية حيث استطـاع تسويـة مشكلاتـه المعلقة تسـوية نسبيـة ترضيـه ، فقد تم عقـد المعاهـدة مع السعـودية فى يونيـة ١٩٣٤ ، كما عقدت معـاهدة « صــنعاء » مع إنجلترا فى فبراير من نفس العام ، ثم أبرمت فى سبتمبر .

الباب الثانى

الإمام وبناء اليمن الحديث

١٩٣٤ - ١٩٤٨

الفصل الأول
مظاهر سياسة الإمام الخارجية

علاقة الإمام بجارتيه بعد معاهدتى سنة ١٩٣٤

تعتبر الفترة التالية (١٩٣٤ - ١٩٤٨) من حكم الإمام يحيى فى اليمن ، فترة استقرار وهدوء بالنسبة للفترات السابقة من حكمه . فقد رأيناه فى سنواته الأولى (١٩٠٤ - ١٩١١) يحارب العثمانيين ليستخلص منهم اعترافًا بوضعه الخاص المتميز فى اليمن . وتلا خروج الترك من اليمن فترة سادها العنف والاضطراب أيضًا ، فقد كان عليه أن يخوض معارك جديدة من أجل توطيد حكمه ، وتأكيد استقلاله فى اليمن .

انتهت هذه المراحل القلقة المضطربة من حياة الإمام السياسية فى سنة ١٩٣٤ ، إلى حالة أكثر وضوحًا واستقرارًا فإلى جانب انتهائه من متاعبه مع الأدارسة واقتطاعه أكبر جزء ممكن من إمارتهم وضمها إلى نفوذه ، تمكن من إخضاع الجهات المختلفة فى اليمن . وفى المجال الخارجى استطاع الإمام أن يقوم ببعض الجهود التى أكدت استقلاله من ناحية ، وأدت إلى استقرار حدوده وتوضيحها من ناحية أخرى . فقد عقد المعاهدات المختلفة مع بعض الدول الأجنبية وخاصة إيطاليا والاتحاد السوفيتى تأكيدًا لاستقلاله وشخصيته الدولية ، كما توصل أخيرًا إلى عقد معاهدتين متتاليتين فى عام واحد هو عام ١٩٣٤ مع كل من إنجلترا والمملكة السعودية . وكانت هاتان المعاهدتان خاتمة المطاف بالنسبة لمشكلات الإمام الجادة العنيفة . حقيقة أنهما لم يؤديا إلى سلام أو استقرار دائمين ، وأنهما لم يكونا فى صالح اليمن ذاته ، إلا أنهما أديا إلى تميز واضح بين فترتين من حكم الإمام .

وقد اعتبر مستر رايلي الذي مثل عدن في عقد معاهدة « صنعاء » (١٩٣٤) أنها نقطة تحول في العلاقات اليمنية الإنجليزية « ولو إلى حد ما » كما قال . وقد عينت كلا الحكومتين عددًا من الموظفين لتسوية مسألة الحدود ، وكان عملهم الاتصال الدائم بعضهم ببعض لفض المنازعات والمشكلات المحلية التي تنشأ في هذه الجهات . ولهذا رأت السلطتان في صنعاء وعدن ، أن العلاقات بين البلدين سارت سيرًا حسنًا لعدة سنو ات ، وأن كلاً منهما انصرف إلى الاهتمام بأحوال بلاده الداخلية(١) .

وقد أدت المعاهدة اليمنية السعودية كذلك إلى استقرار الأمور بين الملكين ، ولم تنشأ أية مشكلات حدود أو غيرها بين البلدين حتى نهاية حكم الإمام يحيى . فقد عمل الطرفان ، بعد توقيع المعاهدة مباشرة ، على إنهاء الترتيبات اللازمة لاجتماع لجنة الحدود المشتركة ، وتم تخطيط الحدود في العام التالي (١٩٣٥) بل وتم رسم أول خريطة للحدود اليمنية السعودية ١٩٣٦ . ومنذ ذلك الوقت لم تنشأ مشكلات حدود هامة استعصى حلها بمعرفة السلطات المحلية للطرفين . وكانت المشكلة التي يمكن أن تثور ، والتي كان الإمام بالذات يتوجس خيفة من وقوعها ، هي بناء الحصون في المنطقة المحرمة -خمسة كيلومترات من الحدود على كلا الجانبين - ولكن لم تحدث مخالفات من هذا النوع . وقد ساعد على ذلك ، العلاقة الحسنة بين عبد الله بن الوزير - الذي عقد المعاهدة نيابة عن الإمام ، والذي عين حاكمًا لتهامة واتخذ الحديدة مركزًا له ، والذي كان المسئول عن الحدود الشمالية - وبين تركي بن ماضي حاكم جيزان في الجانب السعودي من الحدود . وقد هاجم ثلاثة من اليمنيين الملك عبد العزيز بن السعود بخناجرهم أثناء طوافه حول الكعبة في موسم

---

(١) Sir Bernard Reilly : Aden and the Yemen, p. 19.

حج سنة ١٩٣٥ ، إلا أن الأمير سعود ولى العهد ، استطاع أن يقى والده هذه الضربات ، ويتلقاها هو مما أدى إلى إصابته بعدة ضربات فى ظهره وكتفيه ، وقد استطاع الحرس قتل هؤلاء الثلاثة بالرصاص[١] . ولم تؤثر هذه الحادثة فى العلاقات كما كان متوقعًا ، وخاصة أنها وقعت فى العام التالى لتوقيع المعاهدة مباشرة .

وقد أثبت التحقيق أن المعتدين لم يكونوا مدفوعين من طرف حكومة اليمن ، بل كانوا يطلبون الثأر لبعض أقاربهم الذين قتلوا أثناء الحرب اليمنية السعودية السابقة . وسرعان ما أغفلت هذه الحادثة ، وتبادل أبناء البلدين الزيارة وذهب اليمنيون إلى مكة للحج . وكان ابن السعود كذلك يرسل المبعوثين إلى الإمام من آن لآخر لدراسة المسائل الهامة بين الطرفين[٢] . وكانت أهم هذه الزيارات تلك التى ذكرها الجرافى فى حولياته فقال : « وفى سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) وصل صنعاء لزيارة الإمام سمو الأمير محمد ابن الملك عبد العزيز بن السعود فى حاشية كبيرة ، وكان يرافقه فى هذه الرحلة بشير السعداوى مستشار الملك عبد العزيز ، وطاهر رضوان من كبار موظفى وزارة الخارجية للمملكة السعودية . وقد استقبل رجال الحكومة اليمنية هذا الوفد أحسن استقبال ، وكان الغرض من هذه الزيارة تقوية روابط الصداقة والأخوة بين الحكومتين العربيتين والعاهلين العظيمين . ولقد كان لهذه الزيارة شأن عظيم ، إذ دلت على ما يشعر به العاهلان العربيان من ضرورة التضامن والتفاهم ولا سيما فى هذه الأوقات »[٣] . ويبدو أن

---

(١) Philby : Saudi Arabia, pp. 324 _ 325.

(٢) Phtlby : Saudi Arabia, pp. 188 _ 189.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٣٥٢ .

الزيارة كانت خاصــة بتبـادل التفاتهم حــول موقف البـلدين أثنـاء الحــرب العالميــة الثانيــة .

أظهـر الإمـام - فى الفــترة التى تلت عقد المعاهــدتين مع إنجــلترا والمملكة السـعودية ســنة ١٩٣٤ - نشـاطًا ملحوظًا فى عقـد المعاهـدات مع مختلف الـدول . ويبدو أن ســبب هــذا النشــاط كان الهدوء والتفـرغ الذى أحس بهما الإمـام حينئذ ، وكـان دافع الإمـام لعقـد تلك المعاهـدات عـاملين : أحدهما ســياسى والآخر اقتصـادى ، فقد اشتملت جميع معاهداته دون استثناء هذين الغرضـين . ويدفعنا هــذا إلى القول بأن دافع الإمــام - فى عقـد هــذه المعاهـدات - كـان توطيـد مركزه الشخصى دوليًـا ، والحصــول على اعـتراف الدول بـه وباسـتقلاله . وكان يـدرك أن هـذا يثبت أقـدامه فى الداخــل ومن ناحيـة أخــرى كـان يهـدف إلى تنظيم علاقاتـه الاقتصــادية مع هــذه الدول للحصول على احتياجاته .

وتتضح هذه النقاط إذا استعرضنا بإيجاز المعاهدات التى أبرمتها مع الدول الأجنبية فى هذه الفترة .

كـان أولهـا - من الناحيــة الزمنيـة - معاهــدته مـع هولنـدا ، ووقعت فى ٢ مـارس ســنة ١٩٣٣ (ملحــق ١٢) . وكذلك عقـد معاهـدة مع أثيوبيا فى ٢٢ مـارس ١٩٣٥ (ملحــق ١٣) ثم معاهـدة أخـرى مع فرنســا وقعت فى ٧ ديسـمبر سنة ١٩٣٦ (ملحــق ١٤) . وكانت هـذه المعــاهـدات جميعًا تحمل فى ديباجتهـا ، فضـلاً عن مـادتها الأولى ، الاعـتراف الصـريح باسـتقلال اليمن والإمـام يحيى ، وتنص على أن المعاهــدة بين نـدين متســاويين ، وكـان هــذا هو أهم أغراض الإمام فى عقد معـاهداته . وكانت هذه المعاهدات تنص كذلك على سيادة السلم والصداقة بين البلـدين المتعاهدين . ففى المـادة الأولى من معاهـدته مع فرنســا مثلا نصــت على أن « تعــترف حـكومة الجمهــورية

الفرنســـية بـدون قيـد ولا شرط بأن مملكـــة اليمن دولـة حـرة ذات ســـيادة واســـتقلال »كما جـاء فى المادة الثانية من نفس المعاهـدة أن « يسود سلم ثابت وصداقـة دائمة بين حكومة الجمهـورية الفرنسية وصـاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته ورعاياها »[1] . وتتكرر هذه المـادة فى بـاقى هذه المعاهدات ، فنصت المـادة الأولى من معـاهدته مع بلجيكا مثـلاً (ملحق ١٥) على أن : « يسود بين المملكة البلجيكيـة وبين المملكة اليمنيـة سلام عـام ومحبة دائمـة »[2] . وهنـاك نقطة هامة تكمل الناحية السياسية فى هذه المعاهدات ، جاء ذكرها فى جميع هذه المعـاهدات دون استثنـاء ، وهى الإشـارة إلى أنه سيقـام علاقـات دبلـوماسيـة وسينشأ سفارات وقنصليـات فى البلدين المتعاقـدين دون الإشارة إلى وقت معين لإتمام ذلك . وأهميـة هذه المـادة تتضح فى أنـه من المعـروف دوليًا أن يلى عقـد المعاهدة الأولى بين بلـدين - إن لم يسبق ذلك - إقامة علاقات دبلـوماسية على مستوى سفـارات أو مفوضيات أو حتى قنصليـات ، ولكن نلاحظ عكس ذلك بالنسبة لليمن ، فلم يترتب على هذه المعـاهدات إنشاء سفارات أو قنصليات ، بل اكتفى الإمـام بالإشـارة إلى إنشائهـا فيما بعـد فقط . وهـــذه الظاهـرة التى شملت كل هـذه المعاهـــدات تشـير دون مـواربة إلى موقف الإمـام بالنســبة للأجانب عمومًـا وأنه كان لا يسمح بإقامة هيئات أو جـاليات أجنبية فى اليمن بصـــفة دائمـة ، إذا كان يخشى وجـود مثل هذه الهيئـات ، ويخاف وجودهـا فى بلاده . وتمثل هـذه النقطة التى أشرنا إليهـا المـادة الخامسة من المعاهـدة اليمنية الأثيوبية مثـلا - مع وجودها فى باقى المعـاهدات - إذ جـاء فيهـا « ســـيكون من الفـريقين الســـاميين المتعاقديـن فى الوقت المناســـب وبمـوافقتهما إنشاء سفارة وقنصليات ، وإلى أن يكون إنشاء العلاقات السياسية والقنصليات هذه ،

---

(١) الـدكتور أحمد فخـرى : اليمن ماضيهـا وحاضرهـا ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ (نص المعاهـدة اليمنية الفرنسية) .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٣٤ - ٢٣٦ (نص المعاهدة اليمنية البلجيكية) .

يتفقان على أن يعطى لرعايا كل منهما المقيمين فى بلاد الفريق الآخر المساعدة والصيانة اللازمة »[1] .

أما الناحية الاقتصادية فى معاهدات الإمام مع هذه الدول فقد برزت بوضوح أيضاً ، وتمثلت فى عدد من المواد فى كل معاهدة ، وهى مواد تنظم العلاقات التجارية بين اليمن وبين هذه البلاد ، وتوضح كيفية معاملة رعايا وتجارة هذه البلاد المتعاهدة . ومثال ذلك ما جاء فى المعاهدة اليمنية الهولندية وهى نصوص مكررة فى كل معاهدات الإمام - فقد نصت المادة الثالثة من هذه المعاهدة على أن : « كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة فى بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والأحكام المحلية ، ويستمتعون بنفس المعاملة التى يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية من كل الوجوه ، وكذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهدين وشحناتها فى موانى الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه » . كما تنص المادة الرابعة من نفس المعاهدة على أن: «حاصلات أرض كل من الفريقين المتعاهدين ومصنوعاتها تعامل فى دخولها إلى بلاد الفريق الآخر ، فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الجمركية وأخذها بنفس المعاملة التى تعامل بها حاصلات ومصنوعات الدولة الأكثر رعاية ، وكذلك تأكيدا لهذا تعامل حاصلات الأرض والمصنوعات التى تخرج من بلاد أحد الفريقين إلى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الجمركية وأخذها بنفس المعاملة التى تعامل بها حاصلات الأرض والمصنوعات التى تخرج إلى بلاد الدولة الأكثر رعاية »[2] .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٩ - ١٩١ (نص المعاهدة اليمنية الأثيوبية) .

(٢) نفس المرجع : ص ١٠٩ - ١١١ (نص المعاهدة اليمنية الهولندية) .

وهكذا يلاحظ أن هذه المعاهدات تتصف فيما بينها بالتشابه والوحدة من ناحية الشكل والغرض التى ترمى إليه . وقد تحددت مدد هذه المعاهدة كلها بخمس سنوات فقط ما عدا المعاهدة اليمنية الفرنسية فكانت مدة العمل بها عشر سنوات .

ظاهرة العزلة :

وهذا المضمون المحدد بدرجة كبيرة لهذه المعاهدات يجعلنا نسأل : لماذا ذهب الإمام إلى هذا التحديد الواضح فى معاهداته ؟ وما هى الدوافع والنتائج لهذا التحديد ؟ وهل استطاع الإمام أن يحقق أغراضه من التحديد ؟ وما الآثار التى ترتبت على هذا التحديد بالنسبة لسياسة اليمن الخارجية عموماً ؟

كانت أغراض الإمام عندما بدأ يتطلع إلى عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية أغراضاً محدودة للغاية ، لذلك جاءت هذه المعاهدات تمثل أغراضه خير تمثيل . وقد أوضحنا هذه الأغراض ، ولكننا نحب أن نشير باهتمام إلى أنه كان يتعمد تحديد هذه الأغراض ، ولا يرغب فى توسيع علاقاته الخارجية . وهذا بالتالى يجعلنا نعتقد أن هذه الدول الأربع السابق الإشارة إلى معاهداتها معه هى التى سعت إلى التعاهد ، وهى التى طلبت عقد هذه المعاهدات ، فقام هو بفرض طبيعة سياسته - فى المجال الخارجى - على هذه المعاهدات . ولا نعتقد أن الذى حدث هو العكس ، أى إن الإمام هو الذى سعى للتعاقد مع هذه الدول ، أو كان ذلك بناء على طلبه ، ولكن رغبة هذه الدول ثم موافقتها على شروط الإمام فى عقد المعاهدات هى التى أدت إلى إتمام عقد هذه المعاهدات . وسنرى أن بعض الدول قد رفضت هذه الشروط المحدودة - مثل الولايات المتحدة الأمريكية - فلم تبرم أية معاهدة مع الإمام إلا بعد ذلك بكثير . ويؤكد ما نذهب إليه من أن الإمام كان يقصد تضييق علاقاته بالخارج

أنه لم يعقـــد أية مـــــعاهدة مع الدول العـربية المستقلة مثل مصر ، فلم نـر له معـاهدة إلا مع الـــــعراق سنـة ١٩٣٠ ، والســـعودية سنـة ١٩٣٤ ، ولم يبرم معاهدة أخرى حتى وفاته سنة ١٩٤٨ . ويظهـر بوضـوح سياسة الإمام هذه إذا قارنا بينه وبين جاره الملك ابن السعود ، فنـرى الأخير قد توسع كثيراً فى علاقاته الخارجيـة ، وأبرم الكثير مـن المعاهـدات مع الـدول المختلفة ، وسمـح بوجـود الهيئات الـدبلومـاسية فى بلاده ، بل وتبـادل التمثيل السياسى مع هـذه البلاد ، بعكس الإمـام الـذى ضيق نطـاق علاقـاتـه بـالخارج ، ورفض تبـادل التمثيل السياسى مع جميع دول العـــالم ، فلم يكن هنـــاك ممثلين دبلوماسيين دائمين للـدول الأجنبية فى اليمن ، ولم يـرسل هـو كذلك ممثلين لـه إلى الخـــارج[1] . وانطبق هــذا أيضاً على جــارتيه - إنجلـترا فى عـــدن والمملكة الســعودية فى الشــمال - بعد أن ســـوى مشــكلاته معهما . وقـــد أظهـر الإمــام رأيه هذا عنـدما رفض اقتراح إنجلترا أثنـاء المفاوضـات التى سبقت عقد المعـاهدة بتعيين ممثل لها فى صنعـاء لمراقبـة تنفيذ المعـاهـدة ، وللتشـــاور والتفـــاهم بـاستمـرار مع الإمـام من جـانبه - بعـد رفض اقتراح إنجلترا هـــذا - تعيين موظفين للحـدود لحل المشكلات التى تنشــــأ محليًا دون الحــاجة إلى إقـامة ممثلين دبلومـاسيين فى صنعاء[2] . وقد كـان الضابط البريطـانى المنوط بـه حل مشكلات الحدود المحليـة يزور صنعاء من حين لآخـر لمناقشة هـذه المسائل مع الإمام ووزرائه هناك[3] .

---

(١) Journal of The Royal Central Asian Society, Vol. XXVII, 1940, p. 31.

(٢) Reilly : Aden and the Yemen, P. 19.

(٣) Journal of The Royal Central Asian Society8 Vol. XXVII, 1940, p. 31.

يتضح من هذا أن الإمام فرض صورة معينة على سياسة اليمن الخارجية ألا وهى « العزلـة » التى عاشها اليمن طوال حكمـه الطويل نتيجة طبيعة سيـاسته المتعمدة فى النواحى الخارجية .

وهذه الصفـة - وهى « العزلـة » - تتطلب منا بحث عـدة نقاط هى : هل كان الميل إلى العـزلة نتيجـة عوامل شخصيـة خاصة بـالإمام كجـزء من طبيعته ومزاجه الخاص ؟ أم إنها تمثل طبيعة شعب اليمـن ؟ أو إنها كانت تلبية لعوامل عامة وفترة زمنية معينـة ؟ وما هى طبيعة هذه العزلة ؟ ومـا هى نتائجها فى داخل اليمن وخارجها ؟

لا شك أن الإمام كـان يتحمل مسئوليـة عزلة اليمـن عن العالم الخارجى . ولكن هل كـان الإمام نفسـه نتاج ظـروف وأوضـاع معينة خـاصة بـاليمن ؟ أو بمعنى آخـر ، هل كان الإمـام يحيى لا يستطيع أن ينهج مثل هـذه السياسـة فى النواحى الخارجيـة إذا كان هذا النهج نفسـه يتعارض مع طبيعـة الشعب الذى يحكمه .

وعند منـاقشة هذا الـرأى ، نقول إننـا نعتقد أن طبيعة حكم بلـد ما ، دائماً تكون نتيجـة لظروف وأوضاع هـذه البلد ، من سيـاسية واقتصاديـة واجتماعية ، ودائماً يكون سلـوك الحاكم وسياستـه مرتبطين أشـــد الارتباط بأوضـــاع البلاد الخاصـة ، ويكون فى الحقيقـة ملبيًّا لحاجاتها فى هـذه الفـترة التاريخية أو تلك . ففى حالـة وجـــود نوع معين من الحـــكم فى بلد ما ، فإن هذا يعبر عـن طريقة معيشة شعب هذا البلد ، وعن حـاجته لقبضة قوية - فى حالـة الحــكم الفردى مثـــلا - لتنقـذه من الفوضى الضـــاربة فى بـلاده وتعمل على تطويـره بشكل سريع . وغالبـاً يستسلم الشعب راضياً لهذا النـوع من الحكم ، وغالباً مـا يستمر هـــذا الحـــكم حتى يستنفذ جميع أغـراضه ، وهنـا - إكمالاً لحديثنا هـــذا - ينقلب هـذا الحـــكم أو ذاك إلى حكم رجعى ، وتظهر عنـاصر جديـدة تطالب بتغييره وتحـل محـــله .

وهذا الحديث لا ينفى فى الحقيقة مسئولية الإمام عن فرض العزلة على اليمن ، لأننا إذا افترضنا أن طبيعة الشعب وظروف فترته التاريخية ساعدت الإمام على اتباع خطة معينة فى النواحى الخارجية ، فإن هذا لا يعنى أن يتجمد الإمام عند هذه الخطة ، بل كان عليه أن يعمل على تطوير شعبه وتوجيه طاقاته وإمكانياته إلى ما فيه فائدته ، وخاصة لأن القائد دائماً يمثل الطليعة والقدوة الحسنة بالنسبة لشعبه ، لا أن يتجمد عند موقف معين ويصبح عقبة فى سبيل تطوير شعبه وارتقائه . وهنا يجب علينا تفصيل الحديث حتى تتضح المعانى وأثر العوامل المختلفة التى طبعت اليمن فى النهاية بطابع العزلة .

اتخذ الإمام موقفاً خاصًا فى سياسته الخارجية واستطاع بذلك أن يبعد اليمن عن المجال الدولى ، وكان دافعه هو خوفه الدائم من الأجانب ، وما يتوقع حدوثه إذا سمح بالإقامة الدائمة لهم فى اليمن . وقد عبر عن خوفه هذا وعن موقفه من إقامة علاقات خارجية فى حديث له مع نزيه العظم ، فقال : « إنه يخشى كثيراً أن يعقد أية اتفاقية مع الأجانب لأن هذه الاتفاقية ستكون فى يوم ما من جملة الأسباب التى تحدو بالأجانب إلى التدخل فى شئون اليمن »[1] . وعلى الرغم من أنه رفض وجود هيئات دبلوماسية أو حتى جاليات بصفة دائمة فى بلاده ، فقد سمح بوجود أفراد من جنسيات مختلفة كانوا يفدون لليمن لقضاء أغراض مؤقتة ينصرفون بعدها مباشرة . وكان لا يأذن لهؤلاء الأجانب بدخول اليمن إلا بعد أن يتلقى عنهم معلومات طيبة ، وينزلون حين وصولهم إلى صنعاء فى منزل يختاره لهم بنفسه ، وكان يعتبرهم ضيوفاً عنده هو . وكانوا يقيمون فى صنعاء طوال المدة المسموح لهم بها شبه مأسورين ، فلا يقابلهم أحد إلا بأمر الإمام . وكانوا يعاملون نفس المعاملة

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

منـذ دخولهم حـدود اليمن حتى يصلـوا إلى صنعـاء ، إذ يظلون فى أيـدى عمال الإمـام - أى فى أيـد رسميـة - حتى وصـولهم إلى الإمـام أو حتى خـروجهم من اليمن نهائيًـا ، وكـان هؤلاء الأجـانب يقيمـون أثناء مـرورهم بـا لمدن الكبرى فى منازل الضيافة الحكـومية ، أما فى القرى فكان رؤساؤهـا ينزلون فى بعض البيوت الخاضعة للحكـومة ؛ وكان يرافقهم بعـض الجند بصفة دائمة أثنـاء وجودهم فى اليمن[١] . وكان مـوقف الإمام هذا يشمل كل من هـو أجنبى عن اليمن ، وكان يعتبر العرب والشرقيين عمومـاً أجانب أيضاً ، بل كان يتـوجس منهم خيفة ، إذ كـان يعتقـد أن العرب أو الشرقيين الـذين يفـدون إلى بـلاده جواسيسـاً للـدول الأجنبيـة ، لهذا كـان لا يسمح لأحـد منهم بـدخـول اليمن إلا بعـد التأكـد من نواياه[٢] . ولكن لم يكن هـذا الموقف العـام من الأجانب يعنى خلـو صنعـاء منهم بل العكس صحيحاً ، فقـد كانت عاصمة اليمن دائماً تمتلئ بهم بصـورة مستـديمـة ولكن كما قلنـا على شكل أفـراد أو وفـود يحضرون لأغـراض مـؤقتـة قصـيرة الأجـل ، وينصرفـون بعـد قضائها مباشرة . وكثيراً مـا كان يجتمع أكثر من وفـد من مختلف البلاد فى صنعـاء ، إما للمفـاوضة وإمـا لأغراض تجاريـة . ولكن نزيه العظم يشير إلى سبب آخر ، كـان يدفع الأجانب للحضور إلى اليمن فيقـول : « والغايـة الحقيقيـة هى التجسس ، وبـديهى أن يتخذ الأجـانب جميع الأساليـب والوسائل للمجىء إلى صنعاء ، لأن جـلالة الإمام لا يسمـح للدول الأجنبية بأن ترسـل سفـراء أو قناصل أو ممثلين دبلومـاسيين لليمن ، ولذلك ترسـل هذه الدول أنـاساً من رعايـاها بين الفينة والفينة ليشـاهدوا عن كثب حالة اليمن »[٣] . أى كانت هـذه الصـور لحضـور الأجانب رد فعـل لموقف الإمام منهم .

---

(١) Journal of The Royal Central Asian Society, Vol. XXVII, 1940, p. 29.

(٢) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، ص ٨٧ .

(٣) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

العزلة الاقتصادية ومظاهرها :

ولم يقف خوف الإمام من الأجانب عند هذا الحد ، أى عند الشكل السياسى ، بل كان يخشى وجودهم فى اليمن بشكل عام ولو كان لأغراض اقتصادية . فقد كان الإمام لا يوافق على منح الأجانب عموماً أى امتيازات للبحث والتنقيب عن مصادر الثروة المعدنية فى بلاده ، أو القيام بمشاريع اقتصادية وإقامة مؤسسات وشركات داخل اليمن ، وإن كان يعلم أن هناك بعض الفوائد ستعود عليه وعلى اليمن نتيجة هذه المجهودات الاقتصادية الأجنبية . وكان يكتفى بالمجهودات اليمنية الخالصة فى هذا المضمار ، رغم ضآلة هذه المجهودات الوطنية ، ورغم أنه لا يقوم بعمل إيجابى لتشجيعها .

ويروى نزيه العظم حادثة تدل على موقف الإمام هذا ، فيقول « إن بعض الوفود الأجنبية حاولت الحصول على امتياز استثمار مملحة « الصليف » الواقعة على مسافة ٨٠ كيلو متراً من شاطئ الحديدة ، ولكن الإمام رفض أن يعطى هذا الامتياز لأى منهم . وقد تباحثت مع جلالته فى هذا الشأن ، وسألته : لماذا ترفضون يا صاحب الجلالة إعطاء رخصة باستثمار هذه المملحة ، فقال : « ألا تعلم يا بنى أن سبب استعمار الهند والصين وغيرهما من البلاد الشرقية الضعيفة هو منح حكومات هذه البلاد للأجانب رخصا باستخراج الملح وزيت الكاز وغيرهما من المصالح إننى أفضل أن نبقى أنا وشعبى فقراء نأكل القصب (يقصد الحشائش) ولا أدخل الأجانب أو أمنحهم امتيازات مهما كان فى إدخالهم البلاد من الفائدة والثروة »[1] . ويذكر نزيه العظم نفسه فى مناسبة أخرى أنه طلب من الإمام أن يكلف ابنه سيف الإسلام محمد (ثانى أنجال الإمام وحاكم الحديدة حينئذ) الاهتمام بمملحة الصليف ، وقام سيف الإسلام محمد فعلاً بإرسال كميات من ملح « الصليف » كنماذج إلى عدن

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

والهند وغيرها للبحث عن أسواق ، إلا أن وفاة سيف الإسلام محمد المبكرة قضت على هذا الاهتمام ، وهكذا انتهى المشروع[١] .

لم يكن موقف الإمام من السياسة الخارجية وخوفه من الأجانب موقفاً منفصلا عن موقف بعض الفئات من شعبه ، فهم كانوا ذوى حساسية كبيرة ضد الأجانب عموماً حتى بالنسبة للإيطاليين الذين كانوا يعتبرون حلفاء الإمام المخلصين . وكان من بينهم من يقيم بصفة دائمة فى اليمن ، كما كان منهم الكثير من الفنيين الذين يستعين بهم الإمام ، إلا أن هؤلاء كانوا يشعرون بخوف دائم أثناء وجودهم فى اليمن ، كما كانوا يشعرون دائماً بالغربة ، بل إنهم كانوا يشكون لحكومتهم فى روما خوفهم المستمر من أن تقطع رؤوسهم وبأنهم غير مرغوب فيهم بشكل مخيف[٢] . وفى حديث لنزيه العظم أيضاً مع بستانى حديقة المنزل الذى استضافه فيه الإمام أثناء وجوده فى صنعاء ، ما يدل دلالة واضحة على تيقظ الشعب اليمنى بالنسبة لكل ما هو أجنبى ، واهتمام هذا الشعب سواء الغنى أو الفقير بهذه القضية وخاصة بالنسبة للإنجليز[٣] .

ولا شك أن هناك عدة أسباب أدت إلى هذا الخوف ، وأدى هذا بالتالى إلى العزلة كموقف متميز لاتقاء شر الأجانب . وأول هذه الأسباب هى الطبيعة الجبلية لليمن ، فباستثناء الساحل الضيق وما له من اتجاه طبيعى تجاه البحر نجد أن باقى شعب اليمن يتميز بأنه جبلى الأصل ، وهذه الطبيعة الجبلية تتميز بصفات معينة سواء فى اليمن أو فى غيره ، حقيقة أن سكان الهضبة الوسطى والجنوبية قد ارتبطوا بالأرض ومالوا إلى الاستقرار ، أى تخلوا عن كثير من الصفات الجبلية التى تحمل فى جوهرها النفور من الغريب أو الجديد ،

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

(٢) Clare Hollingworth 0 the Arabs and the West, p. 116.

(٣) نزيه مؤيد العظم : نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

إلا أن سكان الجبال المرتفعة ما زالوا يتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم الجبلية . والجبليون فى العادة يتعلقون بشدة بحرياتهم الذاتية ، ويبذلون جهدهم للدفاع عنها ، ويكرهون أى تدخل خارجى فى شئونهم سواء كان هذا التدخل من جهات إسلامية أو غير إسلامية ، ويفسر هذا موقف اليمن من العثمانيين . وهم أيضاً كثيراً ما يكتفون ذاتيًا بما تحت أيديهم ، أو أنهم يتعاملون مع السهول المجاورة تعاملا محدوداً سواء فى صورة حرب وسلب أو فى صورة تجارة وسلام . وعادة ما يكون أهل الجبال مقسمين إلى وحدات قبلية إذ إن الجبال لا تسمح بقيام وحدة اجتماعية أكبر من ذلك . وطبيعة القبيلة ، وطبيعة علاقتها الخارجية معروفة أيضاً بأنها محدودة . والجبلى بطبيعته حذر يتوجس خيفة دائماً نظراً لطبيعة موطنه المحلى غير الممتد أمام البصر ، فطبيعة المرتفعات توحى دائماً بأنها تخفى وراءها مفاجآت . وهذا الحديث ينطبق على جميع الجهات الجبلية مثل اليمن واسكتلندا ، لهذا : « كان الإمام وشعبه يخافون أى تدخل ولو من أجل البحث عن البترول أو إقامة الصناعات أو غيره »[1] .

والسبب الثانى ، هو التجارب التاريخية القاسية مع الأجانب ، فلا شك أن اليمنيين قاسوا الكثير خلال حروبهم الطويلة مع العثمانيين ، ثم تلا ذلك علاقاتهم مع إنجلترا وقد اتسمت بالعنف والوحشية فقاسوا مرارة استعمال الطائرات ضدهم . كل هذه التجارب جعلتهم يميلون إلى الانكماش والاكتفاء بأمنهم وحريتهم ، ولو أدى هذا إلى أن يعيشوا حياة فقيرة من الناحية المادية ، وخاصة أن الإمام لم يكن يعطى شعبه فرصة التطلع السلمى المفيد والاتصال العلمى الهادى . وهذا الموقف ينطبق كذلك بالنسبة للعالم العربى ، فقد كان

---

(١) Freya Stark : The Arab Island, pp. 26-28.

احتكاك الإمـــام بـا لمملكة السعودية وحربه معهـا دافعاً لأن ينفـر من العرب عموماً ، وخاصة إذا عرفنا أنه كان لا يثق بهم ، إذ كان يعتقد أن من يفد منهم إلى بـلاده إنما هو جـاسوس للبـلاد الأجنبية . وكـان الإمام أيضـاً يشعر بأن هـؤلاء العرب ليسـوا بالقوة اللازمـة التى ينبغى أن يكونوا عليها حتى يمكنهم تعضيده ضد عدوتـه التقليدية إنجلترا[١] . وكـانت إيطـاليا - حليفتـه الأولى التى كـان يعتمد عليهـا كثيراً - غير مخلصـــة لـه ، وكان يشعر بمحاولاتها للتدخـــل فى شئونه والضغط عليـه ، كما أنها لم تكن تمده بكل ما كان يشعر بالحاجة إليـــه ، كما سبق أن صـور ذلك نـزيـه العظم عنـدمـا تحدث عن طبيعـة المسـاعـدات الإيطالية له .

والسبب الثالث ، هـو المذهب الزيدى ، ولا نقصد بـذلك طبيعة المذهب حيث إنـه مذهـب مغلق ، فالمذهب الـزيـدى مـذهب مفتوح ، ويعتبر أقـرب المذاهب الشيعية إلى السنة كما أوضحنا قبل ذلك ، ولكننا نقصد أن هذا المذهب الخاص ساعد الإمام على أن يوحى إلى شيعته بـأن يشعروا بالتميز والوحدة وسط باقى المذاهب الإسلامية الأخرى وخاصة المذهب السنى . وقد رأينا أن الزيديين الأوائل قـد لجأوا إلى اليمن باعتبـاره حصناً يقيهم عـداوة الخلافة الإســـــلامية السنية ، فكانت هذه البداية الخاصة دافعاً إلى عزلتهم .

والسبب الرابع ، هو حـالة اليمن الداخلية منذ تولى الإمـام يحيى الإمامة ، فهى حالة قلقة مضطربـة ، وقع فيها كثير من الأحداث التى دعت الإمام إلى أن يحترس من وجود أجانب فى اليمن خوفاً مـن تدخلهم فى شئونه فمن المعروف أن الإمام منـذ توليه الإمـامة وهو يقـوم بحروب عديـدة ســـواء فى الداخل أو فى الخارج ، فحارب العثمانيين والإنجليـز والسعوديين ، كما حارب القبـائل اليمنية المختلفة . وهو كحاكم يحاول فرض سيطرته على بلاده اصطدم بأكثر من جهة ،

---

(١) Philby : Arabian Jubilee, p. 189.

فعندما كان يحارب العثمانيين شعر بأيديهم تدفع القبائل اليمنية ضده ، وتؤلبهم عليه ، وتعمل على إيجاد فرقة داخلية بين الشافعية والزيدية وبعد خروجهم ودخول الإمام فى حرب مع إنجلترا ، شعر بدسائسهم كذلك فى إثارة بعض القبائل ضده . وكانت هذه المنافسات والثورات تشكل خطراً كبيراً يهدد كيانه هو . وهذا التدخل الدائم غير المباشر ، جعله يفكر جديًّا فى محاربة فكرة وجود أجانب بصفة دائمة فى بلاده خوفاً من نشاطهم ، وعمل على قطع كل صلة بين شعبه وبين هؤلاء الأجانب . هذا فضلا عن أن سياسة الإمام نحو قبائل اليمن - سواء شافعية أو زيدية - ومحاولاته المستمرة فى القضاء على ثوراتها عليه ، كان عاملاً كبيراً فى جذب اهتمام الإمام نحو الداخل ، والانصراف عن المجال الخارجى .

والعامل الخامس ، هو طول مدة حكم الإمام وتقدمه فى السن ، فلا شك أنه كان يرى أنه أصبح من الصعب عليه بعد عام ١٩٣٤ ، أن يغير من طبيعته أو أن يفكر فى عمل تطوير جديد لسياسته الخارجية ، أو بالأحرى كان يخشى من أى تطوير أو الإقدام على جديد خوفاً من النتائج غير المتوقعة وهو فى هذه السن المتقدمة فيهدم بذلك كل مجهوداته السابقة . وبمعنى آخر ، وبعملية حسابية سريعة ، يمكن أن نفهم أن عمر الإمام بعد أن سمحت له الظروف الداخلية والخارجية بأن يفكر فى توسيع نشاطه فى المجال الخارجى ، لم يكن ليمكنه بأن يطمئن إلى إحداث أى جديد ، بل كان يدفعه إلى الاستكانة إلى ما أقامه من أوضاع وأشكال بالنسبة لسياسته عامة ، وخاصة أنه كان يميل إلى الجمود ويخشى التجديد .

فقد تولى الإمامة سنة ١٩٠٤ ، وكان حينئذ يبلغ من العمر حوالى ستة وثلاثين عاماً ، فإذا أضفنا إلى عمره هذا ثلاثين سنة أخرى أى حتى سنة ١٩٣٤ ، فيصبح عمره ستة وستين عاماً ، وهذا السن من الصعب معه القيام

بـالتطويـر والتجديـد وخـاصة إذا كـان سن رجل مثل الإمـام من حيث النشأة والظروف . وقـد استمر الإمام يحكم اليمن حتـى عام ١٩٤٨ ، أى حتى بلغ من العمر ثمانين عـاماً ، وهـذه الفـترة (١٩٣٤ - ١٩٤٨) التـى تجمد فيهـا الإمام على سيـاسته الثـابتة السـابقة كـانت كفيلة بأن تطبع اليمن بطـابع العزلـة التى عرفت عنه فى التاريخ الحديث ، هذا إذا سلمنا معه أن الفترة الأولى من حكمه ، كانت مليئة بالحروب والاضطراب .

كان الإمام يرمى من وراء العزلة المحـافظة على استقلاله واستقلال بلاده ، وتأمين نفسـه وبلاده من مـؤامرات الأجانـب ودسائسهم ، وكـان يرى أن لـديه الكثير من العـوامل التى تدفعـه إلى اتخاذ هذا الموقف ، كما كـان يشعر أن لـدى بعض فئات شعبـه بعض الخصائص التى يمكن أن يستغلهـا ويؤكـدها ليثبت دعائم العزلة . وهذا ما دفع بعض الـذين اضطروا أن يروا الأمور من خارجها إلى القول : « إن الإمـام كان يستنـد أساساً على عـداوة الأهالى لكل مـا هو أجنبى ، وكذلك على تعصبهم الدينى ، وعلى عدم الأمن المتفشى فى البلاد »(١) .

ولكن لنا أن نتساءل الآن : هل العزلة هى الوسيلة الطبيعية للمحافظة على الاستقـلال ؟ وهل مجرد إبعاد الأجـانب عن اليمن معنـاه إبعاد خطـرهـم ؟ وهل العزلة ظاهرة تلائم العصر الحديث ؟

وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة علينا أن نـوضح أن العوامل السابقة التى ذكرنـاها - والتى دفعت الإمام إلى اتخاذ هـذا الموقف - ليست تبريرات نذكـرها دفاعاً عن الإمام وسياستـه هذه ، بل هى تفسيرات فقط أوردناها لنبين الأسباب

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, a Secret Journey, p. 16.

والظـروف التى جعلته - من وجهـة نظره هـو - يلتـزم العزلـة حتى نكون أكثـر موضوعية عند الحكم عليه .

فمن المعـروف أن العـزلة تعنـى التخلف والجمود ، لا فى الأزمنـة الحديثـة فحسب بل طـوال التاريخ أيضـاً . فـالاتصال بين الـدول هـو السبيل الوحيـد لانتقال الحضـارة من مكان إلى آخـر ، كما أنه الدافع القـوى لتطور هـذه الدول وتسابقهـا فى مضمار الحضارة . كما أن وسائل الاتصـال الحديثة المتعـددة قربت المسـافـات إلى درجة كبيرة بين البقـاع المختلفـة مما جعل الاعتزال مـوقفاً يثير السخريـة والاشمئزاز ، لأنه يظهر الـدولة التى تقف هذا الموقف بمظهر الـدولة التى لا تعى طبيعـة العصر ، وتتشبث بتأخـرها وتخلفهـا بحجـة المحافظـة على الاستقلال .

والعزلـة التى تعنى الابتعاد عن التيـارات السياسية والحضـارية العـالمية ، والسلبية التى يقصـد منها عدم المشـاركة فى هذه التيـارات ، والتقوقع من أجل تحقيق الاستقلال الخاص بعيداً عن خطر هـذه التيارات ، كل هذه الأمور تؤدى فى حقيقة الأمر إلى التخلف والجمود ، لا إلى الاستقلال والأمن . وقد ذهب نزيه العظـم إلى مهاجمة العزلة من هذه الزاوية - رغم أنـه كان يؤيد الإمام فى أحاديثه عن العـزلة ، وفى كيفيـة موقفـه من الأجـانب لخطورتهم - فيقـول : « إن نظريـة العزلـة التى لا يزال أمـراؤنا وملوكنـا محافظين عليها ظنًّا منهـم أنها تبعدهم عن الخطر وتحمى بـلادهم من التعديات ، أصبحت فى هـذا العصر نظرية بـالية لا تسمن ولا تغنى من جـوع .. وبـديهى أن الجزيـرة ضعيفـة بـالنسبـة إلى الأمـم النصف راقيـة ، وبديهى أنها مطمـوع فيها من قبل الأجـانب والدول المعظمـة ، وليعلم سادتنا الأمراء والملوك بأن وسائط الدفاع الأولية التى يملكونها ، لا تصد

غـارة الفـاتحين عن بـلادهم ، ولا تـرد هجمات الطائرات والغـازات السـامـة ، فـلا يفل الحديـد إلا الحديـد ، فعليهم أن يعـدوا للأمـر عـدتـه »[1] . وهكـذا يشير نـزيه العظم إلى امتعـاضه من سيـاسة العـزلة ، وعـدم جدواهـا فى مختلف المجـالات ، وإن خشى أن يـوجـه الكـلام مبـاشرة إلى الإمـام ، وأعطـاه شكـلا عامًـا ، فالإمـام بهذه السياسـة حرم البـلاد من نعمة الاتصـال بالـدول الأجنبية المتحضرة ، ورفض الاستفــادة من خبراتها الفنيــة فى تطـويـر بـلاده معتمــداً على إمكـانيــات الضئيلـة المحـدودة فى قضيــة التطـويـر ، ممــا أقعـد اليمن عــامــة عن اللحــاق بـركب الحضــارة الحديثــة ، وجعلــه يعــانى النقص الشـديـد فى مختلف نـواحى حيـاتـه . وقـد انطبق أيضـاً مــوقف الإمـام هـذا - أعنى عـدم استفـادتـه من الخبرات الأخـرى - على الـدول العـربيـة الأكثـر حضارة بالنسبة لليمن مثل مصر وسـورية . وإذا كان قد استعان ببعض الخبراء العـرب مثل وصفى زكـريـا[2] ، إلا أن هـــذه الأمثلـــة كـــانـت على شكل فـردى ضعيف . وقـد يقال إن الإمـام استعـان بإيطـاليا ، وأحضر منهـا الآلات والفنيين ، ولكن لا يجب أن ننسى أن استعـانــة الإمـام بإيطـاليــا كـانت ذات صفـة سياسيـة فى المقـام الأول ، فقد تحالف مع إيطـاليـا من أجل أن تعاضـده ضـد إنجلترا . وكانت خطتـه بوجـه عام هـى : « الاستعانـة بحكومـة إفرنجيـة

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) المقتطف : عدد أول ينايـر ١٩٣٧ (سافر أحمد وصفى زكريـا إلى اليمن سنة ١٩٣٦ بناء على طلب الإمام يحيى لمدة ستة أشهـر بصفته مستشاراً زراعيًا وقام بفتح مـدرسة زراعية وجلب من مصر والشام وإيطاليا مشاتل وغرس ألـوفا منها على اختلاف أنواعها وكتب عدة عجالات ونشرات ورسائل فى الموضوعات الزراعية الحديثة مما يفيد اليمنيين ، ولكن الإمام لم يستفد من هذه المجهودات والتوصيات بل أهمل أمرها . وقد كتب عدة مقالات عن اليمن فى مجلة المقتطف بعد عودته) .

على أخرى وهى خطة فى السياسة تجـوز ، وقد تفيد إذا وقف صاحبها عند حد »[١] . ولكن هذه الصفة الأساسية فى سياسة الإمام كانت خطراً عليه ، فقد كانت إيطاليا أيضاً مثل إنجلترا ذات أغراض استعمارية . وبالرغم من أن هذه الخطة قد أفادته من الناحية السياسية إلى حد ما فإنها قد انقلبت عليه ، إذ أن إيطاليا وبريطانيا كانتا تسعيان لتحقيق مصالح خاصة من وراء منافستهما فى هذا المجال ، ولذلك نراهما تحاولان تقريب وجهات نظرهما ، وتتفقان فى سنة ١٩٣٨ على كيفية الاستفادة وعدم التصادم ، وغرض الإمام السياسى من تحالفه مع إيطاليا ، وأغراض إيطاليا الاستعمارية ، ودخولها فى منافسات دبلوماسية مع إنجلترا ، كل ذلك ضيع فوائد التحالف بين اليمن وإيطاليا من الناحية الاقتصادية .

وقد أثرت سياسة تضييق الاتصال بالعالم الخارجى على تجارة البن أيضاً ، فرغم أنه كان المحصول الرئيسى لليمن ، وكان العامل الهام فى زيادة الدخل القومى ، إلا أنه كان نهباً لاحتكار شركة يونانية فى الحديدة ، وذلك نتيجة سياسة العزلة والقناعة بأقل العلاقات الممكنة . فقد اعتمد الإمام فى تصريف البن على بعض التجار الأجانب المقيمين فى الحديدة مثل إخوان « ليفراتو » - وهم جماعة من اليونانيين - وكانوا يشترون البن من الفلاحين مباشرة ثم يبيعونه للخارج بالأسعار التى يرونها ، وكانوا بذلك يتلاعبون بالأسعار ويحققون أرباحاً باهظة . وقد ساعدهم على ذلك أنهم كانوا همزة الوصل الوحيدة بين منتجى البن داخل اليمن وبين العالم الخارجى ، وذلك لأن رأس مال التجار الوطنيين كان قليلا ، وكانت معرفتهم بالعالم الخارجى وأسواقه محدودة»[٢] . وهكذا أعطى الإمام

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

(٢) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٧٩

الفرصة لاحتكار تجارة البن وتحقيق الأرباح ، دون أن يستفيد الدخل القومى اليمنى شيئاً يذكر .

لم يكشف مدى تلاعب هؤلاء التجار ، ومدى استفادتهم من سياسة الإمام حيال العالم الخارجى ، إلا حضور الشركة الروسية إلى اليمن بعد معاهدة ١٩٢٨ ، حيث عملت على تثبيت الأسعار وتخفيضها مما أحس بفائدته صغار المنتجين .

ونقصد من هذا كله أن الإمام عندما ضيق اتصالاته بالدول الأجنبية أضاع على نفسه وعلى بلاده فرصة الاستفادة من تنافس هؤلاء الأجانب ، ومن عروضهم المختلفة لتطوير بلاده .

هكذا اتضح خطر العزلة وخطر دوامها ، إذا سلمنا أنها قد تفيد فى فترة معينة محدودة فى تاريخ دولة ما . ولكن كان من الصعب الخروج من هذه العزلة بشكل فجائى فج فتفتح أبواب البلاد للاستغلال والنفوذ الأجنبى دون حذر ودراسة لحاجات البلاد ، ودون التدرج فى إقامة علاقات دبلوماسية . ونحن نؤمن أنه لا بد من الاستعداد قبل الخروج من هذه العزلة ، من ناحية نشر التعليم والوعى القومى حتى يكون ذلك حصناً يقى البلاد خطورة علاقات خارجية ، وفتح البلاد للاستغلال الأجنبى الاقتصادى . ويوضح الريحانى هذه النقطة فيقول « إن فى العزلة قوة نأسف على دوامها ، ولكننا نأسف على زوالها إذا كان التعليم الوطنى لا يحل محلها ، فيكون فيه قوة جديدة لأهل اليمن تضاعف ما فقدوه ، ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينها بين الحضرة الإمامية وسائر العرب »[١] . وهو بهذه الجملة الأخيرة ، يحدد كذلك المجالات الخارجية

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

الآمنة التى يمكن أن يخرج إليهـا الإمام من عـزلته ، ألا وهى البلاد العـربية ، أو على الأقل يشير بأن عليه أن يبدأ بتمكين علاقـاته بها عندما يفكر فى الخروج من هـذه العزلـة حتى تكون بـداية طيبـة وخروجًـا آمنًا إلى العـالم الخارجى ، وحتى يستفيـد من خبرات وتجارب العـالم العربـى فى الميدان الـدولى ، فـلا يتخبط فى عـلاقاتـه الجديدة مع الـدول الأجنبيـة ، فيقع تحت نفوذهـا سواء السيـاسى أو الاقتصادى .

مظاهـر التنافس الدولى فى اليمن حتى نهاية الحـرب العالمية الثانية (١٩٣٤ - ١٩٤٥)

ويقـودنا الحـديث عن سـياسة الإمام الخـارجية وسياسـة العزلة التى اتخذها ، إلى بحث طبيعـة علاقتـه مع إيطـاليا وبريطانيـا . وكانت العـلاقة اليمنيـة الإيطاليـة تعتـبر مقياسـًا لطبيعة العلاقـات الإيطالية البريطـانية ، ومعنى هـذا أن أى تحسن فى العلاقـات الإيطاليـة البريطـانية مثـلا كان يؤدى مباشرة إلى تقليـل التدخـل الإيطالى فى شـئون اليمن وبالعكس[١] . وتتضـح خطـورة هـذه المنافسـة على سياسة الإمـام ؛ إذا عرفنـا أن هـذا التنـافس اسـتمر طوال فترة حكم الإمام ، وكـانت إيطاليـا فى تلك الفـترة الأخـيرة قد بلغت شـأنًا كبيرًا فى المجـال الاستعمارى ، واتضح هذا فى تحديها لعصبة الأمم وقيامها بـالحرب ضد الحبشة فى أكتوبـر سـنة ١٩٣٥ . وقد أثـارت هذه الحرب الرعب فى العـالم العربى أجمع وخاصـة الجـزيرة العربيـة ، وزادت من مخـاوف الإمام يحيى ، وخاصـة لأن جميع التعليقـات المعاصـرة كانت تشـير إلى أن اليمن سـيكون الهـدف الثـانى لإيطاليـا بعـد الحبشـة أثنـاء توسـعها الاستعمارى . ولم تـكن أحـداث الحـرب الإيطاليـة الحبشية أو التعليق عليها

---

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affair, p. 458.

قد انتهى بعـد ، عندما انتهت مـدة العشر سـنوات الخاصـة بالعمل بالمعـاهدة الإيطاليـة اليمنيـة التى عقـدت فى سـبتمبر ١٩٢٦ . وهنـا حاول الإيطـاليون تجديدها إلا أن الإمام تردد طويلاً ، ودارت مفـاوضات استمرت عامًا كاملاً فلم يتم تجديـدهـا إلا فى أكتوبـر سنـة ١٩٣٧ ، بعـد أن زارت بعثة إيطـاليـة اليمن للتفاوض مـع الإمام[١] . وكـان تـردد الإمـام وتسـويفـه ، وإلحاح الإيطـاليين وضغطهم لتجديد المعاهدة ، وخاصة وهم فى هذه اللحظة المنتصرة ، وهم أيضًا يمثلون إحـدى الـدول الكبرى فى ذلك الوقت ، كان هـذا كله دافعًا لهم على أن يرسلوا السنيـور غاسـباريني - بطـل المعاهــدة الأولى - للتفـاوض لتجـديد المعاهـدة . وكان غـاسباريني قـد نقـل من منصـبه فى أرتيريا ، وعين فى مجلس الشيوخ تقديرًا لـه ، فحضر إلى صنعاء فى صيف ١٩٣٧ يحمل كثيراً من الهدايا ، وكان بينهـا دبابتـان حربيتان للجيش اليمنى و ٢٠ ألف بنـدقية وأربعـة مدافع لمقاومة الطائرات وآلات لا سلكية[٢] . ومن البديهى أن نتوقع أنـه صاحَب هذه المحـاولات وعودًا كثيرة بـالإمـدادات الحربية والفنيـة ، كما حـدث تلويح بقـوة إيطاليا وعظمتهـا ، وبقدرتها الكبيرة على مساندة الإمـام فى قضيته مع إنجلترا ، لهذا كله رضخ الإمام ووافق على تجديد المعاهـدة . وقد سبق هذا التجديد أيضًا منـاورة دبلومـاسية قـام بها وزير إيطـاليا المفـوض فى جدة ، إذ قـابل الملك ابن السعود فى مايو سنة ١٩٣٦ ، وأخبره رسميًا بنجاح حملـة الحبشة ، وقدم له هدية كبيرة عبـارة عن ست طـائرات لستـة من الطيـارين السعــوديين الـذين أتموا تعليمهم حـديثًـا ، كما أكد لابن السعـود أن إيطـاليـا ليس لديها أيـة أغـراض عدوانيـــة تجـــاه الجـــزيرة العـــربية . وقـــد أخـبره أيضًـــا أن إيطاليـــا تنــوى تجــديد معاهـــداتها مع الإمام يحيى ، كما دافـع عن موقف إيطـاليـا من عـصبة الأمـم وتحديها لها ، بأن عصـبة الأمم عصـبة إنجليزية[٣] . وهـذه المناورة

---

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 458.

(٢) أمين سعيد : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٠٤ .

(٣) Phıby : Arabian Hiqh land, p. 82.

سبقت محاولة إيطاليا مع الإمام ، إذ من المعروف أن الملك السعودى كان يعارض النفوذ الإيطالى فى اليمن ، ودائمًا كان يحذر الإمام من تغلغل هذا النفوذ ، وكذلك كان العالم العربى يعبر كثيرًا عن خوفه مع مطامع إيطاليا فى اليمن . والواقع أن تجديد المعاهدة الإيطالية اليمنية كان يعتبر قمة النفوذ الإيطالى فى اليمن ، وقد تبع تجديد المعاهدة إرسال الكثير من الفنيين والأطباء . وكان لهم قدر كبير هناك[١] ، بالرغم من أنهم كانوا مكروهين من الشعب اليمنى بسبب عجرفتهم[٢] . وقد أثار هذا الفوز الإيطالى الكبير إنجلترا ، وكانت الدعاية العدوانية بين البلدين قد بلغت أشدها فى هذه الجهات ، لذلك رأت إنجلترا أن تغير سياستها ، وعملت على تقريب وجهات النظر مع إيطاليا . فانتهزت فرصة تغير الوزارة الإنجليزية فى أبريل سنة ١٩٣٧ وبدأت المفاوضات بين البلدين لتسوية الخلافات بينهما ، وقد نجحت فى ذلك وعقدت اتفاقية معها فى ١٦ أبريل سنة ١٩٣٨[٣] . وقد اختص ملحق هذه الاتفاقية الثالث باليمن والمملكة السعودية ، وجاء فيه أن الحكومتين توافق على ألا تعقد أى اتفاق كما لا تقومان بأى عمل من شأنه أن يمس بأى شكل من الأشكال استقلال أو سلامة المملكة العربية السعودية أو اليمن ، وألا تسعى أى منهما للحصول على مركز ممتاز ذى صفة سياسية فى هاتين الدولتين . وقد ذكرتا كذلك أن من مصلحتهما ألا تبسط أى دولة أخرى أى نفوذ خاص أو فرض مركز ممتاز لها فى هاتين الدولتين . وقد اتفقتا أيضًا على أن من مصلحتهما أن يسود السلام بين المملكة العربية السعودية واليمن ، وألا تتدخل أى دولة فى حالة وقوع نزاع بين الدولتين المذكورتين . وقد حرصت الدولتان كذلك على الاتفاق فيما بينهما على أوضاع جنوب الجزيرة العربية (أى المحميات وحضرموت) وعلى مصالحهما فيها، فتعهدت بريطانيا بألا تقوم بإنشاء تحصينات أو أعمال عسكرية ذات صبغة هجومية ، وألا تجند الأهالى إلا

---

(١) Survey, 1939 1946, p. 354,

(٢) Freya Stark 0 The Arab Islanp, 34,

(٣) Survey , 1939 1946, p.348,

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمحافظة على النظام والدفاع المحلى ، وتتعهد أيضًا بأن تحتفظ بالاستقلال الذاتى للزعماء العرب الذين تحت حمايتها . وقد صرحت الحكومة الإيطالية من جهتها بأنها لن تحاول الحصول على نفوذ سياسى فى هذه المنطقة ، كما تعهدت بريطانيا بأن تضمن للمواطنين الإيطاليين والرعايا القاطنين فى هذه الجهات حرية الإقامة والتجارة وفقًا للأحكام المرعية[1] . وهكذا استطاعت الدولتان الأوربيتان تسوية نزاعهما الطويل الخاص بالجزيرة العربية . وقد استطاعت بريطانيا أن تكسب الكثير من وراء هذه الاتفاقية ، ولم تمنح إيطاليا أى حقوق أو مكاسب فى نفس الوقت . فهى فى الحقيقة لم تتعهد بشىء يخل بنفوذها أو يتعارض مع سياستها فى الجزيرة ، بل لقد ترجمت سياستها القائمة فعلا فى الجزيرة فى شكل نصوص فى هذه الاتفاقية ، دون أن تنقص شيئًا من نفوذها،فهى مثلاً لا تريد كسب نفوذ جديد فى الجزيرة العربية ولكن يهمها الاحتفاظ بما لها فعلاً وخاصة فى جنوبها ، كما يهمها أيضًا أن توقف إيطاليا نشاطها لكسب أى نفوذ سياسى فى الجزيرة وهى عندما حرمت على نفسها وعلى إيطاليا السعى للحصول على مكاسب سياسية فى الجزيرة ، كانت فى الحقيقة تحارب المساعى الإيطالية بطريق غير مباشر دون أن تمس سياستها ومصالحها .

ويجب أن نتصور أن ما جاء بخصوص عدم إقامة تحصينات فى المحميات أو تجنيد الأهالى هو تضييق على حريتها فى العمل فى هذه المناطق ، فهى لا تنوى فعلاً إقامة تحصينات هجومية، كما أنها لا تعتمد على الأهالى فتجندهم لأغراض هجومية أيضًا ، وحتى إذا رغبت فى ذلك فإنه يمكنها إقامة هذه التحصينات باعتبار أنها ذات صفة دفاعية ، أو تجند الأهالى بحجة استخدامهم فى حفظ النظام والدفاع المحلى ، وهذا كله يبيحه لها نص الاتفاقية نفسها . ولم تؤثر هذه الاتفاقية كذلك على سياسة إنجلترا العامة فى البحر الأحمر ،

---

(١) Survey , 1939 1946, p.348,

وعلى مـا تتخـذه هنـاك من تدابير حـربية وذلك بحجـة أنهـا تدابـير دفاعيـة . ويتضـح هـذا من رد الوزير المدنى لوزارة الحـربية على سـؤال وجه إليه فى مجلس العمـوم عن أثر هـذه الاتفاقيـة فى التـدابير الخاصـة بأعمـال الدفاع فى مالطة وبور سعيد والبحـر الأحمـر ، فقال إنه لم يوقف أى تدبير من تدابير وزارة الحـربية الخاصـة بأعمال الدفاع الجـديدة فى مالطـة وبور سـعيد والبحـر الأحمـر عقب عقد الاتفاق[1] . وفضـلاً عن أن إنجـلترا لم تخسـر شـيئًا نتيجة عقـد هـذه الاتفاقية ، وخاصـة فى البحـر الأحمـر والجـزيرة العـربية - بالرغم من أن كثيرًا من سـاسة بريطانيـا اعتبروا أن هـذه الاتفاقية هى تهدئة عامة لإيطـاليا من جانب بريطانيـا ، وأنـه لا يجب الارتباط بهـا لأنها تحط من قدر بريطانيا - فإن إنجـلترا قد كسـبت الكثير . فقد ضمنت فعـلا توقف الدعاية العـدائية التى كـانت تذيعها المحطة الإيطالية «بارى» (BARI) التى كانت تذيع باللغة العربيـة ، فقـد نصـت الاتفاقية على الامتناع عن تبادل الدعاية العـدائية[2] . وفوز بريطـانيا فى هذا المجـال ذو اعتبـار كبـير ؛ إذ إن محطة « بارى » هـذه كانت تمـثل خطرًا كبيرًا على نفوذها فى الشرق العـربى الـذى كـان مهيـأ للتـأثر بأى دعـاية ضـد إنجـلترا ، نتيجـة تاريخـه التقليـدى معها وكرهه لهـا .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان التحـالف اليمنى الإيطـالى - من وجهـة النظـر الإيطـاليـة - يمثـل جـزءًا من التنافس الاسـتعمارى بين إيطـاليا وبريطانيـا ، فإننـا نجـد أن أيطاليا تؤيد وجهـة النظر البريطـانيـة - بعـد عقـد الاتفاقية (سنة ١٩٣٨) - بالنسبة لأحداث الحـدود اليمنية العـدنية المعـروفة بأحداث « شبـوة » . فقد علقت الصحف الإيطـالية حينئـذ على احتلال الإمـام لبعض أجزاء منطقـة الحـدود الشرقية الجنـوبية بقولهـا : « إنه من الغـريب أن يلجـأ

---

(١) الأهرام : العدد ١٩٥٦٤ فى ٢/ ٣/ ١٩٣٩ (محرم ١٣٥٨) ص ٨ .

(٢) Lenczowski 0 The Middle East in the World Affairs, p. 458,

الإمام يحيى إلى نقض معاهدة ١٩٣٤ بينـه وبين إنجلترا التى عقـدت لمدة أربعين سـنة ، بسـبب الخلاف حـول ملكية بعض مناطق الحدود » و ذكرت « الأهـرام » كذلك عن جـريدة إيطاليـة ، أن الجـريدة الأخـيرة بعـد أن أشـارت إلى نشـاط بعض الموظفين الإنجـليز فى هـذه الجهات اليمنيـة ، ذكرت أنه بموجب اتفاق ١٦ أبريل سنـة ١٩٣٨ تعهدت حكومة لندن لإيطاليا بألا تقـوم فى اليمن بأى عمل من شأنـه أن يعود بـالضرر على اسـتقلال هـذه البلاد وسلامة أراضيها[1] . وكأن هذه الجريدة تقصد أن نشاط مـوظفى بريطانيا هذا نشاط شريف مشروع ، وأن بـريطانيا لا يمكن أن تعتدى لوجـود اتفاق سنة ١٩٣٨ بينها وبين إيطاليا .

كانت اتفاقية ١٦ أبريل سنة ١٩٣٨ - التى لم تعرضها بريطانيا على مجلس عمـومهـا إلا متأخـرًا حيث أقـرهـا فى سبتمبر سنـة ١٩٣٨ - تسـوية عـامـة للمشكلات المعلقة بين بـريطانيا و إيطاليا فى ذلك الـوقت ، الذى تكثفت فيها سحب الحرب بين دول أوروبـا ، وليست خاصـة بمنطقة البحـر الأحمر والجزيرة العـربيـة.ولكن يمكن أن نعتبر أن الملحق الثـالث لهذه الاتفـاقيـة الخاص بهذه المنطقة رد فعل مبـاشر لتجديد إيطـاليا لمعاهـدتها مع اليمن ، التى بلغت بنفوذ إيطاليا إلى ذروته هناك . ولكن رغم هـذا كله ، فقـد ظل الإمام معاديًا لإنجلترا فى ظاهر الأمر ، وظل على سياسته التقليـدية الخاصة بميله إلى أعدائها كيدًا لها ، واستمر فى إظهار ميلـه نحو بلاد المحور . ففى سـنة ١٩٣٧ أرسل أحد أبنائه إلى « طوكيو » ليشـارك فى افتتاح مسجد جديـد هناك[2] . وكان الميـل نحو دول المحور ظـاهرة عـامة اجتـاحـت دول الشرق العربى عـامة ، إذ كانـت تمثل لدى العرب المنقذ النظيـف الذى ليس له ماض استعمارى معهم ، وبـرز هذا مثلاً فى ميل ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق إلى ألمـانيا .

---

(١) الأهرام : عدد ١٩٥٧٤ فى ١٣/ ٢/ ١٩٣٩ (٢١ محرم ١٣٤٥هـ) ص ٧ .

(٢) Lenczowskis : The Middle East in the World Affairs, p. 459,

تجددت المنازعات بين إنجلترا والإمام حول منطقة « شبوة » وذلك في أواخر سنة ١٩٣٨ . وقد نقل الجرافي عن الهمداني ، أنه قال إن : « شبوة » مدينة لحمير فيها بين « بيحان » و « حضرموت » وأحد جبلي الملح بها والآخر لأهل مأرب ، ولما اعتدت « حمير » و « مذحج » خرج أهل شبوة منها فسكنوا حضرموت ، وبه سميت « شبام » وكان الأصل في ذلك « شباه » فأبدلت « الميم من الهاء » . ويستطرد الجرافي في حديثه هو فيقول : « إنها بلاد يمنية ، وأهلها يمنيون . ولا يمترى في ذلك أحد . وقد امتد إليها أيدي أئمة اليمن كما لا يجهله التاريخ ، وهي داخلة في جغرافية اليمن الطبيعية »[1] . وقد كانت « شبوة » مدينة هامة في عصر السبئيين ، ومن الممكن أن تكون « سابوتا » عند الجغرافيين القدماء ، أو « شيبا » عاصمة الملكة « بلقيس » ملكة سبأ ، التي قامت بزيارة الملك سليمان في أورشليم . وفي هذه المدينة آثار سبئية كثيرة تحت رمال القرون الطويلة ، ويتحدث بدوها كثيرًا عن وجود أحجار منقوشة كثيرة هناك ، وهي تنتظر الكشف والتنقيب ، حتى يمكن دراسة تاريخ وحضارة هذه البقاع في أيام سليمان . وقد منع الأجانب والباحثون من زيارتها حتى ذلك الوقت للتنازع القائم بخصوصها بين الإمام وسلطات عدن . وقد استطاع الرحالة الألماني « هانز هلفرتز » التقاط بعض الصور لمعالمها إلا أن الإمام قبض عليه وسجنه ثم أطلق سراحه بعد ذلك. وكذلك زارها فيلبي في سنة ١٩٣٦ إلا أنه اصطدم بسلطات عدن ، وهو يعتبر المكتشف الحقيقي لها ، وأول من رسم معالمها الهامة . وقد زار بعض المهندسين الأمريكيين « شبوة » بعد ذلك بحثًا عن البترول ، وقد أثار هذا اهتمام الإمام ولفت نظره إليها ، فأرسل بعض جنوده إليها مما حرك بالتالي سلطات عدن . وقد تقدم الكابتن « هاملتون » بفرقة من جنوده العرب إليها مما جعل الإمام يأمر جنده بالتقهقر منعا للحرب فانسحب هاملتون

---

(١) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٣ .

كذلك ولم يمكث بها طويلاً ، واختار مدينة « عياد » على حدود « شبوة » مركزًا عسكريًا لـه لتوفر المـاء فيها . وقد أدى هـذا التحفز الواضح بين السلطتين ، إلى أن انتهى الأمـر بشبوة أن ظلت كما هى مـركزًا لتجمع بـدوى بسيط نظرًا لنـدرة مياهها ، وبقيت آثـارها القديمة مدفـونة ، وكذلك أصبح الأمر بـالنسبة لثروتها البترولية المتوقع اكتشافها هناك[١] .

وقد بدأ التنازع بين الطـرفين حـول شـبوة بعد أن بـدأت إنجـلترا تنظم شـئون محمية عـدن وإدارتها بعد معاهدتها مع الإمام سـنة ١٩٣٤ ، وعندما عينت هارولد انجرامس Ingrams أول مستشـار دائم لهـا فى محميـة عـدن الشرقيـة سـنة ١٩٣٧ ، بعـد أن اطمأنت إلى تـوقف هجوم الإمام ولو نسـبيًا على المحميات بنـاء على نصوص المعاهـدة . فقد بدأ انجـرامس يؤكـد نفوذ إنجلترا فى منطقة نفوذه - على طـريقة الإنجليز - فتدخـل بين قبائل حضرموت المتنازعة فيما بينهـا ونجح فى فض منازعاتها . إلا أن النشاط الإنجليـزى هـذا ، قـد دفع الإمام إلى توسـيع منطقة نفـوذه فى هـذه المحميات ، وبدأ يؤلب قبائل هذه الجهة ومشـايخ واحـات شـبوة . والحقيقـة أن حاكم عـدن لم يزر هـذه الجهات مطلقًا بالرغم من أن المقيم البريطانى فى عـدن أكد فى سـنة ١٩٣٦ : « أن شبوة قطعًـا جزء من محمية عدن وإن لم تـدرها حكومة عـدن قط » . وفى نهاية نوفمـبر سـنة ١٩٣٨ أرسـل حـاكم عدن قـوة من رجـال القبائل تحت قيادة الكـابتن « هاملتـون » وأجـبر القائد اليمنى أن يقبـل شروط انسحاب مشرف[٢] . حسب تعبير إنجـلترا . ويـذكر الجرافى سببًا آخر لهـذا النزاع حول شـبوة فيقول : « إن بعـض ضباط عدن دخلوا مدينة شبوة متنكـرين ، ودخـل آخرون إلى محـل « العـبر » وأغروا مشـايخ البلاد بالانتماء إلى حـكومة عدن ، وتوعدوا أهل البـلاد بالطائرات ، ثم شـغلوا بالقوة موقع « العبر » الـذى فيـه

---

(١) Meule : Aden to the Hadhramout, pp. 99 - 100.

(٢) Survey ... 1939 _ 1946, dpp. 348 _9,

آبار ينتفع بها المارون والأهلون » . وقد احتج الإمام يحيى ببلاغ رسمى جاء فيه : « بكل استغراب وتحير عظيم ، ألقى إلى مسامع الحكومة اليمنية ما أذاعته محطة الراديو بلندن فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٨ هـ الموافق ١٢ حزيران (يونية) ١٩٣٩ ، عن واقعة شبوة وموقع العبر وملحقاتها ، التى يتألف من مجموعها جانب من البلاد الشرقية الشمالية ، والتى ما زالت يمنية محضة منذ آلاف السنين لم تمسها أيدٍ غير اليمنيين » . وقد انتهت حوادث شبوة هذه ببقائها منطقة محرمة بين الطرفين المتنازعين[١] . والمؤكد أن سبب اهتمام بريطانيا بشبوة ومواجهتها للإمام فى هذه المنطقة بالقوة هو إحساسها بأهمية المنطقة من ناحية ثروتها البترولية . وكانت إنجلترا حريصة على الوصول إلى حل نهائى بالنسبة لشبوة بعد حوادث نوفمبر سنة ١٩٣٨ العنيفة ، فانتهزت فرصة وجود سيف الإسلام حسين - رابع أنجال الإمام - فى لندن فى أوائل سنة ١٩٣٩ لحضور « مؤتمر لندن » مع وفد الحكومات العربية لبحث قضية فلسطين ، وتفاوضت معه لإيجاد تقارب جديد بين البلدين ، ولحل مشكلة شبوة ، ولكن المباحثات لم تصل إلى نتيجة[٢] .

وعلى كل حال لقد ظلت إيطاليا صاحبة المقام الأول فى اليمن وخاصة بعد تجديد معاهدتها مع الإمام سنة ١٩٣٧ . وكان الأطباء هم أقوى الشخصيات الإيطالية نفوذًا وقوة بين الإيطاليين المقيمين هناك من مهندسين وفنيين . وقد ظل الأمر هكذا حتى بعد نشوب الحرب واشتراك إيطاليا فيها سنة ١٩٣٩ وقد لحق بالإيطاليين هناك قليل من ضباط الجيش الإيطالى الذين فروا من أثيوبيا بعد هزيمتهم فيها[٣] . وقد كانت المستشفيات الإيطالية هى

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) أمين سعيد : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٨٤ .

(٣) Clare Hollingworth : The Arabs and the West, p. 116.

المراكز الرئيسية للدعاية الفاشية ، وكانت توجد فى المدن الهامة ذات المراكز الاستراتيجية مثل تعز عاصمة الجنوب ، والحديدة عاصمة تهامة ، بل وفى صنعاء نفسها حيث استقرت بعثة طبية كان عددها حوالى اثنى عشر أو أكثر ، وكانت تمثل أكبر جماعة أجنبية فى المدينة . وكان النفوذ الإيطالى والدعاية الإيطالية فى اليمن تضايق الإنجليز كثيراً ، وقد حاولت القلة الإنجليزية - بالنسبة للإيطاليين - المقيمة داخل بلاد الإمام القيام بعمل دعائى يائس فى اليمن سنة ١٩٤٠ ، وحاولت إفهام اليمنيين أنه يجب على البعثة الطبية الإيطالية ألا تقوم بأى نشاط سياسى إلى جانب عملها الأصلى ، إلا أن اليمنيين كانوا أكثر استجابة للدعاية الإيطالية وكانوا يعتقدون أن الحلفاء قد خسروا الحرب ، وخاصة لأن الإيطاليون فى بداية الحرب كانوا فى الجانب الرابح « ويمسكون بأيديهم أغلب الورق »[١] .

أعلنت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وظلت إيطاليا على الحياد حتى اشتركت فيها إلى جانب ألمانيا فى ١٠ يونية سنة ١٩٤٠ . وكانت إيطاليا منذ تجديد معاهدتها مع الإمام - وبالرغم من اتفاقيتها مع إنجلترا سنة ١٩٣٨ - تعمل جاهدة على تقوية ميناء « عصب » وتنميته ، فأصبح مستودعاً ضخماً للأسلحة والذخائر وقد أشيع قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، أن هذه الاستعدادات الإيطالية تعتبر تمهيداً لغزو اليمن . وتلى اشتراك إيطاليا فى الحرب سقوط الصومال البريطانى فى أيديها فى أغسطس سنة ١٩٤٠ ، مما جعل مستقبل عدن نفسها فى خطر . ولكن انتصارات إيطاليا فى أفريقيا ، ونشاط دعايتها العدائية على حدود محمية عدن لم يؤد إلى شىء لصالحها فى جنوب الجزيرة العربية ، إذ انهارت إمبراطوريتهم فى أفريقيا قبل أن يحققوا أغراضهم فى هذه المنطقة .

---

(١) Survey ... 1939-1946, p. 354.

وقد فر بعض الفاشيين المتحمسين إلى اليمن مع قليل من الألمان الذين هربوا من إيران أو العربية السعودية ، إلا أنهم لم يقوموا بعمل فعال ، إذ كان الإمام حريص على ألا ينجرف فى تيار الصراع بين القوى الكبرى ، فقدم لهم « مجرد ملجأ غير مريح وبدون اكتراث »[١] . وكان الإمام قد أعلن الحياد منذ بداية الحرب ، ولكن هزيمة قوات « رومل » نهائيًا فى « معركة العلمين » قللت من ميله نحو المحور ، وجعلته يرضخ لضغط إنجلترا عليه ، فأمر فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٣ بالقبض على الإيطاليين والألمان الفارين إلى بلاده ، كما اعتقل جميع رعايا بلاد المحور هناك (٤٠ إيطاليًا وألمانيين) وأوقف عمل محطتى الإذاعة اللتين كانتا تعملان فى بلاده باسم المحور وقد تلا هذا أن قام الإمام بقطع كل علاقاته مع سلطات المحور . ولما كان الإمام لم يعلن الحرب على ألمانيا واليابان مثل باقى البلاد العربية ، فإنه لم يشارك فى مؤتمر سان فرنسيسكو ، ولكنه انضم إلى الأمم المتحدة بعد ذلك فى سنة ١٩٤٧ ، تحت تأثير المملكة السعودية[٢] . وكان موقف الإمام من الحرب عامة ، نتيجة لعزلته التقليدية ، وعدم رغبته فى المشاركة الفعلية فى التيارات الخارجية بوجه عام ، يعتبر موقفه هذا أيضاً ، صورة مكررة من موقفه فى الحرب العالمية الأولى . وقد أدت أحداث الحرب العالمية الثانية إلى خروجه من عزلته التقليدية ولو بصورة ضعيفة للغاية ، فدخل جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، واشترك فى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، وزارته أول بعثة أمريكية رسمية فى أبريل سنة ١٩٤٦ برئاسة الكولونيل وليم أدى Eddy وعقدت معه معاهدة تجارة وصداقة . وقد تبع هذه الزيارة إقامة علاقات دبلوماسية منظمة بينه وبين الولايات المتحدة فى ١١ مايو سنة ١٩٤٦ ، ومنحته أمريكا قرضاً بمليون دولار لشراء معدات حربية منها فى ٢٤ يناير

---

(١) Survey. 1939-1946, p. 354.

(٢) Lenczowski : the Middle East in the World Affairs, p. 459.

سنة ١٩٤٨ . وفى يولية التالى ، زار الأمير سيف الإسلام عبد الله - أحد أبناء الإمام - الولايات المتحدة ، وأجرى عدة محادثات مع عدد من رجال الصناعة هناك[١] . وهذا التقارب اليمنى الأمريكى وإن جاء متأخراً ، إلا أن الإمام كان يقصد من ورائه البحث عن معضد ومساند جديد ، ويبحث عن علاقات اقتصادية وسياسية أخرى تحل محل علاقاته السابقة مع دول المحور تلك الدول التى اختفت مؤقتا من المسرح الدولى نتيجة انهزامها فى الحرب . وكانت أمريكا قد بدأت تأخذ - أثناء فترة ما بين الحربين - طريقها إلى المجال الدولى ، بعد خروجها من عزلتها التقليدية ، وكانت قد أقامت علاقات سياسية واقتصادية مع باقى بلاد الشرق العربى ، قبل أن تصل إلى الإمام يحيى . وترجع علاقة الأمريكيين بالإمام إلى سنة ١٩٣٠ ، عندما زاره المستر شارلس كرين - المليونير الأمريكى الذى طاف بكثير من دول الشرق العربى - ومهندس المناجم المستر كارل تويتشل ، الذى طاف باليمن بحثاً عن موارده المعدنية وخاصة البترول ، وقد بنى هذا المهندس عدة جسور فى اليمن لربط صنعاء بموانئ البحر الأحمر اليمنية[٢] . وبعد هذه الزيارة - وقد توقفت أعمال تويتشل الذى انتقل إلى المملكة العربية السعودية للبحث عن البترول أيضاً - لم تقم أية علاقات بين الإمام والولايات المتحدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كما رأينا .

علاقة الإمام بسائر الدول العربية :

وهنا يبرز سؤال هام وهو : ما هو الموقف العربى للإمام يحيى ؟ أو بالأحرى ما هى علاقات الإمام يحيى بالعالم العرب وما موقفه من قضايا العرب ؟ وما هو مفهوم القومية عنده ؟

---

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 459.

(٢) Fisher: The Middle East, p. 544.

ومن الصعب الإجابة على هذه الأسئلة إلا بعد استعراض مواقف الإمام ودراسة تاريخه من هذه الناحية ، منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، حتى دخوله الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ، بل وحتى وفاته سنة ١٩٤٨ .

رأينا الإمام يثور ضد الحكم العثمانى منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن ثوراته تلك كانت ذات دافع قومى . حقيقة لقد اشتهر اليمن بأنه « مقبرة الترك » ، ولكن الصراع لم يكن صراعاً ذا طابع قومى عربى ، وبناء على أفكار قومية يدافع عنها الإمام ، فقد كانت مطالب الإمام أثناء ثوراته ضدهم ذات طابع شخصى محلى دينى محض ، دون الارتباط بقضية عامة ، بالرغم من أن ثورات الإمام قد ارتبطت زمنيًا بحركات قومية ذات مفهومات واضحة فى شمال بلاد العرب . وقد ترجم صلح دعان سنة ١٩١١ المطالب والأغراض التى ثار من أجلها الإمام ، ولم يظهر فيها مطلب قومى أو دعوة قومية يمكن الرجوع إليها . ويتضح هذا أيضاً فى كتابات الإمام وأقواله التى سبق الإشارة إليها ، ويتضح منها أنها كانت تسيطر على الإمام أفكار إسلامية ، لا قومية عربية ، وكان يسعى لتحقيق مصالح خاصة محلية إلى جانب الاعتراف بوضعه الخاص .

ولكن هذا المفهوم الإسلامى ، والمواقف العملية الخاصة ، لا تنفى وجود علاقات بين الإمام يحيى وبين القوميين العرب فى الشام ومصر واستامبول نفسها . إذ كان هؤلاء القوميون يفكرون فى الخلاص على أيدى الإمام يحيى أو ابن السعود[1] . وكان الاعتقاد السائد بين هؤلاء الشباب ،

(١) كان الشريف حسين حتى قبيل الحرب العالمية الأولى - من وجهة نظر القوميين العرب - ما زال مواليا للعثمانيين ومنفذا لسياستهم فى الجزيرة العربية . أما الدور الذى أخذه ضد العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان بعد إعلان هذه الحرب - أى متأخراً بالنسبة للفترة التى نقصدها هنا - وبعد أن اتصل ابنه فيصل بالقوميين فى دمشق ، وبعد اتصال الحسين بالإنجليز فى القاهرة .

أن أفكارهم القومية السائدة بينهم لا بد لها من قوة مسلحة ، وأن هذه القوة موجودة لدى هذين الزعيمين العربيين ، ولذلك بدأوا الاتصال بهما . وقد أرسلوا إلى الإمام يحيى ضابطا عربيا يدعى « أحمد المجاهد » - من أصل يمنى وكان يعمل بالجيش العثمانى ، ثم طرد منه لنشاطه القومى - يحمل رسالة من عبد الكريم الخليل رئيس « المنتدى الأدبى العربى » فى استامبول يسأله ، عن مدى استعداده بالاشتغال بالقضية العربية . وقد عاد هذا الضابط من اليمن يحمل رد الإمام ، وقد وعد فيه بالعمل على إحياء مجد العرب والإسلام ، وأنه مستعد لنجدة إخوانه الذين يعملون معه أينما كانوا . وقد حذف من كتاب الإمام ما كان متعلقاً بمخاطبتهم كجمعية عربية ، وأصبح الكتاب يصلح لأن يكون منشوراً يستحث الأمة العربية على التمسك بأهداف التضامن ، وأرسل للنشر فى جريدة المؤيد المصرية ، فأصبح بمثابة بيان نشره الإمام يحيى فى الأقطار العربية « وهو أول منشور نشر للدعوة العامة فى الصحف من رجل عربى صاحب سلطة فعلية »(1) . ولكن يبدو أن الإمام كان يرمى من وراء الاتصال بالقوميين العرب حينئذ إلى الاستفادة من نشاطهم ضد العثمانيين وإلى تثبيت مركزه كزعيم عربى فى داخل اليمن وخارجه لخدمة قضيته الخاصة فى بلاده . وقد قام هؤلاء بخدمة جليلة للإمام بعد ذلك ، إذ نبهوه إلى المؤامرة التى يدبرها الاتحاديون ، والتى ترمى إلى تولية أحد منافسيه - ويسمى الضحيانى - الإمامة على أن يكون مواليًا لهم . وقد أرسل الضحيانى وفداً إلى الآستانة للاتفاق على خطة المؤامرة ، وكان من غريب المصادفة أن كان أحمد المجاهد الذى يحمل رسالة الإمام يركب فى نفس الباخرة التى يركبها هذا الوفد ، واستطاع بلباقته وحسن تصرفه أن يكسب ثقة الوفد . فقد ذكر لهم أنه من اليمن ، وأنه من ضباط الجيش العثمانى دون أن يذكر لهم خروجه منه ، وعرض عليهم أن يكون مترجماً لهم

---

(1) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، جـ ٢ ، ص ٥ - ٧ .

لمعرفته التامة بالتركية ، فأطلعوه على مهمتهم وعلى تفاصيل خطتهم الحربية للقضاء على الإمام يحيى ، والتى أتوا للآستانة لعرضها على المسئولين هناك . وهكذا عرف عبد الكريم الخليل المؤامرة بالتفصيل . فكتب فى الحال إلى الإمام يحيى يخبره بأسرار الخطة ، وأرسل الكتاب أيضاً مع أحمد المجاهد(١) . ولكننا نرى أن هذه العلاقات لا تتعارض مع ما ذهبنا إليه من أن الإمام كان يحارب العثمانيين بدافع محلى مذهبى أكثر منه قومى .

استمر التفكير الدينى متغلباً على التفكير العربى عند الإمام حتى بعد استقلاله وخروج الترك من البلاد العربية كلها . وقد اتضح هذا فى حديث له مع أمين الريحانى فى العشرينيات الأولى من هذا القرن ، إذ أظهر الإمام ميله إلى الوحدة الإسلامية ، وحاول الريحانى إقناعه بأن : « الجامعة القومية أصح أساساً وأسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية ، وأن من أعز العرب أعز الإسلام ، وإننا نحن المسيحيين فى سوريا مثل العرب المسلمين ، فتجمعنا القومية ولا يجمعنا الدين »(٢) . إلا أن الإمام ظل عند رأيه ، وأظهر ميله إلى الوحدة الإسلامية . وترجع هذه الميول إلى نشأة الإمام وثقافته وتاريخ أسرته الدينى من ناحية ، وإلى عدم تبلور الأفكار القومية العربية عنده بلورة كاملة واضحة من ناحية ثانية ، وأثر هذا فى موقف الإمام من العالم العربى خلال حكمه الطويل . فإذا أضفنا ظاهرة العزلة العامة التى غلف الإمام بها اليمن ، ثم قلة ثقته بالدول العربية ، وخوفه من العرب الذين يفدون إلى اليمن لاعتقاده أنهم جواسيس يعملون لحساب الدول الأجنبية ، أو حتى لا ينقلون إلى بلاده أفكاراً تقدمية ، أمكننا فهم سبب بعده عن البلدان العربية .

---

(١) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، جـ ٢ ، ص ٨ - ٩ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد سبق الحرب اليمنية السعودية سنة ١٩٣٤ ، عقد معاهدة يمنية عراقية سنة ١٩٣٠ ، ولكنها فى الواقع محدودة فى الغاية ، من حيث موادها أو غاياتها ، فلم تشر مثلا إلى إقامة علاقات اقتصادية أو أى تنظيمات أخرى بين بلدين عربيين ، بل اقتصرت موادها على تبادل الاعتراف وسيادة الصداقة بينهما فقط[1] . (ملحق ١٦) .

وقد استمرت هذه المعاهدة القصيرة المحدودة هى كل ما يربط اليمن بالعراق حتى انضم الإمام إلى معاهدة « الأخوة العربية والتحالف » (ملحق ١٧) التى سبق عقدها بين العراق والمملكة العربية السعودية فى بغداد فى ١٠ محرم سنة ١٣٥٥ هـ (٢ أبريل ١٩٣٦) وقد حررت وثيقة الانضمام هذه - ويقال إنها كانت بخط الإمام - فى صنعاء فى ١٧ صفر سنة ١٣٥٦ هـ (مايو ١٩٣٧)[2] .

وقد تبع الانضمام إلى الحلف عقد معاهدة تسليم المجرمين بين العراق واليمن فى أول أبريل سنة ١٩٤٦[3] . ويعتبر دخول اليمن فى التحالف السعودى العراقى خطوة كبيرة بالنسبة لعزلة اليمن التقليدية ، وهو فى حد ذاته ذات صبغة تنظيمية خاصة بتنظيم العلاقات بين اليمن وكل من العراق والعربية السعودية وفضلا عن هذه المواد الهامة المنظمة للعلاقات ، فإن ميثاق انضمام اليمن نص فى خاتمته إلى أنه « قابل لمن أراد الدخول فيه من الدول العربية المستقلة » . وإننا إذا اعتبرنا أن هذا التحالف دليل على استعداد الإمام للخروج من عزلته بالنسبة للدول العربية وإقامة علاقات ودية مخلصة ، نجد أن الحذر والتقيد، الواضحين فى نص هذه الوثيقة، يناقض الاعتبار الأول ويقلل من قيمته.

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

وقد بدا أن الإمام يريد الخروج إلى العالم العربى والاستعانة به فى تطوير أحواله الداخلية قبل إعلان انضمام اليمن إلى المعاهدة العراقية السعودية بقليل. فأرسل بعثة عسكرية عبارة عن عشرة من الشباب فى أواخر عام ١٩٣٦ ، إلى بغداد للالتحاق بالمدرسة الحربية العراقية ، وقد أتمت دراستها هناك فى يولية سنة ١٩٣٨ وكانت هذه المجموعة هى نواة الجيش اليمنى الحديث بالرغم مما لاقاه أفرادها من عنت وتشتيت بعد عودتهم .

وكذلك ذهبت إلى العراق بعثة علمية التحقت بدار المعلمين فى بغداد ، وكانت الحكومة العراقية تتحمل نفقات هذه البعثات التى استمر إرسالها حتى إعلان الحرب العالمية الثانية حيث توقف ذهابها إلى هناك لصعوبة المواصلات . ولم يستفد اليمن كثيراً من هذه البعثات وغيرها - مثل التى كانت تأتى بشكل فردى أو جماعى إلى المعاهد المصرية ، وخاصة الأزهر - لموقف الإمام الحذر الخائف من الإصلاح بوجه عام ، ولأن هؤلاء العائدين كانوا يحملون أفكاراً جديدة ، كان الإمام يعارضها ويحارب أصحابها . كما أرسلت الحكومة العراقية فى سنة ١٩٤٠ بعثة عسكرية برئاسة اللواء الركن إسماعيل صفوت لتنظيم وتدريب الجيش اليمنى[٢] . وقد ذكرنا قبل ذلك أنه كان يستقدم بعض الخبراء العرب فى الشئون المختلفة لم يستفد منهم أيضاً ، مثل أحمد وصفى زكريا ، الذى زار اليمن سنة ١٩٣٦ ، ومكث بها حوالى ستة أشهر قدم خلالها كثيراً من الاستشارات الزراعية . ولكن كما ذكرنا ، كانت هذه العلاقات ذات صفة فردية ، وليست ذات طابع رسمى منظم . وكان هذا يتمشى تماماً مع نظرة الإمام نحو العالم الخارجى عامة والعالم العربى خاصة ، فكانت هذه الاتصالات تعبر عن مزيج من التمسك بالعزلة ، ومن الرغبة فى الاستعانة بالدول الأجنبية ، وتدل على تردد الإمام وحذره بين هذين المتضادين .

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ٣ (وهو أحد أفراد هذه البعثة العسكرية العراقية ، ويوضح فى كتابه أغراض البعثة وأعمالها) .

تلى الحرب العالمية الثانية انضمام الإمام إلى جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، وكانت خطوة متقدمة دون شك بالنسبة لموقف الإمام العام ، على الرغم مما عاب موقفه حينئذ من حذر وتردد . فقد تأخر ممثلوه عن حضور الجلسات التحضيرية التى عقد فيها الميثاق نفسه ، كما أنه لم يعط لممثله فى هذه الجلسات الحق فى عقد الميثاق ، أو التصديق على ما يتخذ من قرارات .

فقد دعا النحاس باشا رئيس الوزراء فى مصر حينئذ فى خطبة له فى مجلس الشيوخ فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ ، إلى ضرورة اتخاذ خطوات رسمية لإجراء مشاورات مع الدول العربية كل منها على حدة ، لمعرفة آرائها فى توحيد جهودها ، و إنشاء تحالف أو تقارب بينها . وبدأت المباحثات مع وفد العراق فى ٣١ يونية سنة١٩٤٣ ، ومع وفد إمارة شرق الأردن فى ٢٧ أغسطس من نفس السنة ، ومع وفد المملكة السعودية فى ١١ أكتوبر ، ومع الوفد السورى فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ، ومع الوفد اللبنانى فى ٩ يناير سنة ١٩٤٤ . وأخيراً دارت المشاورات مع مبعوث اليمن السيد « حسين الكبسى » ناظر الأوقاف العلمية فى ٦ فبراير سنة ١٩٤٤ واستغرقت جلستين : « وقد بحث فيها موضوع التعاون بين البلاد العربية من جميع نواحيه ؛ وانتهت المشاورات بين الجانبين مؤكدة حرص القطرين (مصر-اليمن) الشقيقين على التعاون مع باقى البلاد العربية ، والعمل على تقوية الروابط وتوثيق الصلات بينها ، وتم التفاهم بين الجانبين على الطريقة التى يمكن أن يتحقق بها هذا التعاون المرجو لخيرها جميعاً »[٢] . وقد تقرر بعد هذه المشاورات التمهيدية موعد لانعقاد لجنة تحضيرية من ممثلى هذه الدول لوضع مبادئ الميثاق ونصوصه تحدد فى يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤ وكان السيد حسين الكبسى قد وصل الإسكندرية فى أوائل سبتمبر ، واتصل بالحكومة المصرية ،

---

(١) الأهرام : العدد ١٢٤٤٦ ، فى ٢٥/ ٩/ ١٩٤٤ ، ص ٣ .

ثم أرسل إلى صنعاء بعض البيانات الخاصة بسياسة الوحدة العربية لعرضها على الإمام وأخذ رأيه فيها ، فوصل رد الإمام فى ١٣ سبتمبر ١٩٤٤ . إلا أنه حتى يوم انعقاد اللجنة التحضيرية فى ٢٥ سبتمبر ، كان أمر تمثيل المملكة العربية السعودية واليمن ما زال موضع البحث والمداولة ، وانعقدت الجلسة الأولى فى الموعد المحدد دون أن يحضر ممثلا هاتين الدولتين[1] . وقد دفع هذا باقى الوفود العربية إلى إرسال برقيتين إلى كل من الملك ابن السعود والإمام يحيى لاستعجال حضور ممثليهما ، فرد كل منهما بتعيين ممثله فى اللجنة . وقد جاء فى برقية الإمام إلى النحاس ردًّا على برقيته : « أمرنا السيد حسين الكبسى بالحضور فى المؤتمر التمهيدى مندوباً عنا بصفته مستمعاً ونسأل الله التوفيق »[2] . وقد حضر السيد الكبسى جلسات المؤتمر ، ولم يزد فى خطبته فى أول الجلسة على أنه قدم نفسه ، وأنه سيكون مستمعاً فقط لسد الفراغ الذى أشار إليه مندوبو الدول العربية المجتمعة فى برقيتهم للإمام . وموقف الإمام هذا من ممثله يدل بوضوح على حذره وتردده بالنسبة للدخول فى مثل هذا الارتباط الكبير ، فهو من ناحية لم يكن يوافق على منح ممثله حق المناقشة والمداولة حتى لا يتورط - عن طريق ممثله - فى الارتباط بمبادئ ما . ومن ناحية ثانية ، فإنه لم يعط ممثله حق التمثيل المطلق حتى يطلعه هذا الأخير على ما يدور من مناقشات واتجاهات داخل المؤتمر . ومن ناحية ثالثة ، كان يجب أن يكون المتصرف الوحيد بالنسبة لأمر هام كهذا فلا بد من الرجوع إليه فى كل شىء . والدليل على ذلك أنه على الرغم من موافقة جميع الوفود العربية فى الجلسة الثامنة والأخيرة للمؤتمر فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ على بروتوكول الجامعة (وهى الوفود السورية واللبنانية والمصرية والعراقية والأردنية)

---

(١) الأهرام : العدد ٢١٥٤٧ ، فى ٢/٩/١٩٤٤ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٥٤٩ ، فى ٢٨/٩/١٩٤٤ ، ص ٣ .

إلا أن وفـدى المملكـة العـربيـة السعـوديـة واليمن قـد أرجـآ إبـداء رأيهما إلى مـا بعـد عـرض البروتـوكـول على ملكيهما ، هـذا بـالـرغـم من أن الإمـام قد أذن للسيـد الكبسى بالاشتراك فى المداولات ، فحضر الجلسـة الأخيرة بصفته عضواً مشتركـاً فى المداولات لا مستمعاً فقط . وقـد أعلن الميثاق فى ١٧ أكتـوبر سنة ١٩٤٤[١] .

وقد تقـرر بعد ذلك إبـرام الميثاق فى القاهـرة فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ ، إلا أن ممثل اليمن لم يحضر هذه الجلسة أيضاً ، فتقرر إرسال صورة من الميثاق إلى اليمن لتـوقيعهـا وإعـادتها إلى مصر لحفظهـا فى وزارة الخارجيـة المصريـة . وقـد تلقى النقراشى بـاشا رئيس الوزارة المصرية حينئـذ برقية من الحكومـة اليمنية تتضمن موافقتها على الميثاق ، وتأييدها للقرارات التى يصدرها المؤتمر[٢] .

وقد دعت الجامعة العربية بعد ذلك أعضاءها لعقد اجتماع فى ٤ يونية سنة ١٩٤٥ خاص بالنظر فى حوادث سوريا ولبنان حينئذ ، فحضر جميع الأعضاء فى الموعد المحـدود ما عدا ممثل اليمن ، ممـا اضطر الأمين العام للجامعـة أن يرسل برقيـة للإمام يحيى يخبره بما اتخذته الـدول الأعضاء من خطوات من أجل سـوريا ولبنان ، وما بذلته هذه الدول من جهـود مشتركة ، فاكتفى الإمام يحيى بالرد عليه ببرقية شكـر وتأييد . كما أرسل الإمام كـذلك للجامعة العربيـة فى القاهرة بـرقية يخبرها بأنـه اختار نجله الأمير عبـد الله لتمثيل اليمن فى اجتماع مجلس الجامعة ، إلا أن الأمير عبـد الله لم يحضر هذه الاجتماعـات لـوصولـه متأخـراً بعد إصـدار

---

(١) الأهرام : فى ٨/ ١٠/ ١٩٤٥ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٥٩٨ ، فى ٢٣/ ٢/ ١٩٤٥ ، ص ٢ .

القرارات وحتى بعد سفر الوفود . وقد عبر الأمين العام للجامعة العربية للصحفيين عن سبب تأخر وصول ممثل اليمن لحضور هذه الجلسات ، بأن هذا يرجع إلى صعوبة المواصلات حيث إن الأمير عبد الله ممثل اليمن ، سيركب الطائرة من « قمران » وهى جزر تواجه الساحل اليمنى وتقيم فيها إنجلترا محجراً صحيًّا للحجاج[١] .

وهكذا انضم الإمام يحيى إلى الجامعة العربية ، ويمثل هذا الانضمام موقفه تجاه العالم العربى المشوب بالكثير من مظاهر التردد والخوف ويرجع هذا التردد بطبيعة الحال إلى موقفه الانعزالى العام ، وخوفه من الدخول فى علاقات خارجية بوجه عام .

وكيفما كان الأمر فقد أصبح لليمن مكان عربى ودولى معترف به ، وأصبح لليمن مقعد مثل باقى الدول المستقلة فى الأمم المتحدة وفى جامعة الدول العربية . ولا شك أن دخول اليمن جامعة الدول العربية كان من الممكن أن يعتبر نقطة تحول فى تاريخ اليمن ، إذ إن هذا قد منح الإمام مساندة هيئة دولية كانت تنقصه من أجل تحقيق مطالبه . وقد تلا ذلك توقيع ميثاق الصداقة المصرية اليمنية (٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٦) فى خلال الدورة الثالثة للجامعة حيث جرت مفاوضات بين مصر واليمن انتهت بالموافقة على إقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين ، ولكن لم تقم هذه العلاقات عمليا إلا فى عهد الإمام أحمد سنة ١٩٥١[٢] .

---

(١) الأهرام : العدد ٢١٦٦٣ ، فى ٧/ ٦/ ١٩٤٥ ، ص ٣ .

(٢) Berrby, J, J : La Pedinsula Arabique, p. 146.

الفصل الثانى

مظاهر سياسة الإمام الداخلية

النظم الإدارية :

يعتبر الإمام يحيى مؤسس الدولة اليمنية الحديثة[1] ، وأول حاكم لها بعد استقلالها ، ولهذا ارتبط تاريخ اليمن الحديث بتاريخ حياة الإمام ، واعتبر التاريخان أمراً واحداً طوال النصف الأول من القرن العشرين . وترتبط نشأة الدول عادة بنشأة مؤسسها والظروف التاريخية التى أحاطت بهذه النشأة ، فمحاولات المؤسس ومجهوداته تخضع لظروفه وظروف شعبه ، وإلى اللحظات والمؤثرات التاريخية التى احتك بها هذا المؤسس وشعبه معاً . وقد عرضنا طوال البحث أحداث وأطوار اليمن منذ كان ولاية عثمانية حتى حقق استقلاله ، وحتى أصبح عضواً فى الجامعة العربية وهيئة الأمم . وهذا التطور العام ، وهذه الأحداث التاريخية ، تعتبر إلى حد كبير مسئولة عن النهاية التى وصل إليها ، وعن الطابع الذى شكل صورته ، إذ لا يمكن عزل صورة اليمن فى عهد الإمام يحيى عن المؤثرات أو الأسباب التى أدت إلى ظهور هذه الصورة المعينة . ونحن إذ نؤمن بأثر شخصية الحاكم - وخاصة المؤسس - فى تشكيل تاريخ دولته ، فإننا نؤمن بأثر الظروف المختلفة التى أخضعت هذا الحاكم لها ، وجعلته يلجأ إلى أساليب ووسائل معينة تنتهى به فى آخر الأمر إلى تشكيل الدولة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا بما يلائم هذه الظروف والملابسات التى صاحبت حياته . وقد يسمح التاريخ للحاكم باللجوء إلى أساليب ووسائل معينة فى الحكم فى لحظة معينة ولفترة معينة ، ولكنه لا يسمح للحاكم أيضاً ، أن تستمر أساليبه

---

(١) وهى الجمهورية العربية اليمنية حالياً ، والمقصود « بالحديثة » هنا هو الإشارة إلى الحدود السياسية التى عرفت بها اليمن حديثاً وخاصة منذ إعلان استقلالها عقب الحرب العالمية الأولى .

ووسائلـه هذه إلى أمد غير محدود ، إذ إن موقف الحاكم إزاء أحـداث معينة ينشأ عنه بالضرورة مواقف وعناصر جديـدة تحتاج إلى موقف جديد ، ولذلك يجب أن تتناسب وسـائله وأساليبـه مع المواقف والعناصر الناشئـة وإلا أصبحت وسائل وأسـاليب الحاكم متخلفـة جامـدة ، ويصبح الحاكم نفسـه متخلفـاً جامـداً لا يصلح لحكم شعبـه المتطـور ، ويبـدو وكأنـه حجـر عثـرة فى سبيل تطـور هـذا الشعب .

وعلى هـذا فالارتبـاط بين تاريخى الإمـام واليمن ، يحتـاج منـا أن تـبرز بعض النقـاط حتى يتضح بصورة جليـة دور الإمام فى تـاريخ اليمن الحديث . يقـال دائماً إن حـكم الإمام يحيى أدى إلى عـزلة اليمن وتخـلفه ، وينسـب إلى الإمام صـفة الرجعيـة والجمـود ، وأنـه مسـئول عن تأخـر اليمن حتى بالنسبة لبـاقى البـلاد العـربية . ولا يمـكن الأخـذ بهـذه الصـفات والنعـوت على عـلاتها بل يجب توضـيح جـذورها وكشـف أسـبابها . وقـد قـال عنه أمين سـعيد إنه : « يعـد من غلاة المحـافظين فى آرا ئه الاجتماعية ، وهو من أنصـار القديم ودعاته والمتمسكين به مع الميل إلى الاسـتفادة من المخـترعات الحـديثة واستخدامها » ويقول عنـه أيضًا إنه : « من أنصـار الجامعة الإسـلامية وأكابر دعاتها . ولا يؤمن بمبدأ القومية ولا يـراه جـديرًا بالاهتمام ، ويفضـل عليه المبدأ الدينـي ويراه أدعى إلى القبـول والنجاح »[1]. وهـذه الآراء على الرغم من أننـا نؤمن ببعض ما جاء فيها، إلا أننا نعتبرها آراء وصفية فقط دون تعمـق أو تحليـل. وقد تكرر وصـف الإمام بالرجعيـة والجمـود فى كتـابات الصحف الإنجـليزية التى عرضناها عند تناول الحرب اليمنيـة السعودية . وكذلك وصف الإمام بأنه حاكم مطلق ، فتقول : Freya Stark أنه كان يحكم اليمن حكمًا مطلقًا ، وتقول إنهـا عنـدما تقـول مطلقـًا فإنهـا تعنى ذلك لأنه : « كـان يقبض على شـئون شـعبه الروحـية والدنيوية بين يديه كما أنه قاد جيوشـهم فى المعـارك وأرواحهم

(١) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم ، ص ١٨٩ .

فى الصـلاة طوال جيلين ، وأنه كان يعنى بأمورهم السـياسية وحياتهم الخاصة وتجـارتهم وملبسهم ورحلاتهم فوصـلت يـداه إلى كل مكـان ، وهو مقـدس وخاصـة فى الأجـزاء الجبليـة من بلاده حيث يؤمن النـاس بقدسـيته »[١] .

كما أكد Scoff أوتقراطية الحكم فى اليمن فى عهـد الإمام يحيى ، فقـال : « إن الملكية فى اليمن تعـد من أكثر الملكيـات أوتقراطيـة فى العـالم[٢] ، ولا شـك فى أن حـكم الإمـام كان مطلقًا ؛ إذ كـان يمسـك بين يـديه بزمـام الأمـور فى بلاده ، ويركـز السـلطة كلها فى يـديه ، ولا يسـمح بالتصـرف فى صـغائر الأمـور إلا بعلمـه وموافقتـه ، وكـان لا يوافـق على وجـود شـكل دسـتورى لحكم اليمن ، بل يتعمـد أن تكـون السـلطة كلها فى يـده هو دون الوزراء والأمراء أو الإداريين عمـومًا ، ولم يكن لملك اليمن « حـكومة » ولكن له « بـلاطًـا » فهو ملك أوتـوقـراطى . وكـان الإمام يعين « وزراء » ولكن هـذه الألقاب التى يخلعهـا عليهم ليسـت فى الغالب سوى ألقاب شرف ، ولا شىء غير ذلك . وكان أغلبهم من أولاده وخاصـة فى أواخـر أيامه ، وكان أحد أولاده وزيرًا للمواصـلات ، ولسنا فى حـاجة إلى القـول بأن حركـة التنقل فى اليمن كانت محدودة إلى أقصى حـد، وتقوم فى الغالب على ظهـور البغـال والإبل ، ولم يكن هنـاك طرقًا معبدة ، ولم يهتم الإمام طوال عهـده بتعبيـد الطرق . أما البريد فإنه كـان فى صـورة بدائيـة ، كما أن التلغراف لا يـدع مجـالاً للاهتمام بشـأنه .

وكان من أهم مبادئ الإمام فى المذهب الزيـدى أنه فى الظروف الاسـتثنائية إذا ما جد الجـد ، واقتضـى الأمر اتخـاذ قـرارت هامة ، يجمـع الإمـام مجلسـًا يضم وجهـاء البـلاد وعلمـاءها ، وذوى الرأى فيهـا ، ممن عـرفوا بالخـبرة والحنكة وبعـد النظر وأصالة الرأى ، لكى يبحثوا الموقف من كل نواحيه ، ولكى يشتركوا معه فى تحمل المسئولية .

---

(١) Freya Stark : The Arab Island, p. 26,

(٢) Journal of the Royal Central Asian Soc, Vol, XXVII, 1940, p, 22,

ولكن جـرت عـادة الإمام يحيى أن يعمـل فى أغلب الأحيـان ما يتراءى له ، ولم يؤثـر عنـه أنه جمـع مجلسـًا لبحث شـئون الدولة إلا عنـد إعـلان الانسـحاب من « الضـالع » عنـدما طلب الإنجـليز منـه ذلك ، حتى لا يتحمـل المسـئولية بمفـرده . فالحـكومة هى الإمام ، والإمام هـو الحـكومة ، وهو يصـدرقراراته فى كل أمر من أمـور الدولـة ، جـل أو هـان أولاً بأول ، وكـان من العبث محاولـة العثـور على وزارات للـوزراء ، ونقصـد الـدواوين ودرجـاتها البيروقراطيـة ، إلا ما نـدر أو ما يشـبه المـكاتب الخاصـة ببعض الشـئون ، مثـل تقـديم المعـلومات أو القيـام بحسابات الإمـام وهـذا ما دعى إلى القـول « أما مـراكزهم فهى وسـائد الديـوان التى يجلسون عليهـا فى حضرة مليكهم ، وأمـا سـكرتاريوهم فيؤخـذون من بين الكتـاب الـذين يتجمعـون فى أبهاء « المقام » (قصر الملك) وغـرف الانتظار فيـه »[١] . وكانت صورة الحكم فى أجزاء اليمن المختلفة صورة مصـغرة من حكم الإمام نفسه ؛ إذ كان أمـراء الوحـدات الإدارية الكبرى يتبعون نفس النظـام القائم فى العـاصمة المركـزيـة ، وكـان عـدد هـذه الوحـدات حينئـذ خمسـة وهى : تعـز ، وحجـة ، والحديـدة، وإب ، وصنعاء ، (وبلغ عـددها الآن ثمانيـة) . وكانت كل وحـدة إداريـة منها تسمى لـواء ، وكان اللـواء ينقسم إلى أقضيـة (جمع قضاء ويقـابل عندنا المركز) ، ونواحٍ (قـرى) وهذا النظام استمرار للتقسيم الإدارى فى العهد العثمانى . وكـان سيوف الإسـلام أو أنجـال الإمام وخـاصة فى العشر سنـوات الأخيرة من حكمه ، هم الـذين يديـرون الألوية ، ويعـاونهم عدد من (العمال) الموظفين ومديـرى النواحى : « وكان لهؤلاء الأمـراء صلاحيات غير محـدودة ، فهم أمراء الجيش المرابط فى مناطقهم ، وأمراء الشرطة ، والجباة ، وحكام الشرع ، ومأمورى الخـزائن ، والمسـئولون عن كل شىء أمام جـلالة الإمام والدهم ، وهم يقـلدون جـلالة الإمـام فى مظهـره ، وطريقـة حكمهم للـرعايـا ، وحلهم

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وترحالهم ، وحتى فى طريقة إصدار الرسائل والتحارير والأوامر الإدارية والجباية ومقابلة الناس »[١] .

وكما قلنا إنه نظرًا لحرص الإمام على الانفراد بالتصرف فى كل شىء ، فكان على جميع الحكام والعمال أن يرجعوا فى قراراتهم وأحكامهم - ولا سيما ما يقتضى منها الصرف من بيت المال - إلى « الحضرة الشريفة » أى إلى الإمام ، فهو الذى يشرف مباشرة على الصرف من بيت مال المسلمين مهما كان نوعه ، ويشرف حتى على أمور الموظفين الصغار : « فالمستحق لرفع درجته ولو كان نصف دينار مثلاً لا بد أن تصدر به إرادة ملكية خاصة ، وعلى هذا نقيس جميع مصروفات مرافق الدولة »[٢] .

من هذا يتضح أن نظام الحكم فى اليمن كان ذا شكل خاص مطلق فى طبيعته ، إذ كان الإمام يقبض على زمام الأمور كلها بين يديه ، ويتصرف فى كل شىء بإرادته ، ولهذا شكل نظام الحكم بالصورة التى تتفق مع آرائه ، وتنفذ أغراضه . وكان إلى جانب سيطرته على كل شىء وتصريفه لكل الأمور يستعين ببعض الكفاءات التى حوله ، ولكن فى صورة محدودة تبلورت فى الاستشارة فقط ، وفى تنفيذ أغراضه ، وإرادته كما كان هؤلاء مسئولين أمامه فقط ويستمدون سلطاتهم منه . ويرجع هذا النظام الخاص الذى خالف الصور الدستورية الأخرى القائمة فى البلاد العربية على الأقل إلى عاملين : غلبة الطابع الدينى والقبلى عند الإمام ، وملاءمة هذا النظام للظروف التاريخية التى عاشها وعمل على بقائها كما هى ، ويمكن مناقشة وتوضيح أثرهما .

فمن ناحية العامل الأول، فقد رأينا أن الإمام قد نشأ نشأة دينية بحتة ،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٥٩ .

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١١٠ - ١١١ (وكان سيف الإسلام أحمد أميرًا لتعز . وأمير الحديدة هو سيف الإسلام عبد الله مع توليه وزارتى المعارف والدفاع . وأمير إب هو سيف الإسلام الحسن . وأمير صنعاء هو سيف الإسلام الحسين) .

فهو لم يدرس إلا التاريخ الإسلامى والنظم والشرائع الإسلامية ، ولم يحدث فى حياته قط أن تعلم علومًا حديثة ، أو سافر خارج بلاده ليطالع حضارات البلاد الأخرى . وكان إذا سمع عن صورة الحياة والنظم خارج بلاده كان يقف منها موقفًا عدائيًا أو موقفًا حذرًا على الأقل . وإلى جانب هذا، فنحن نعرف أنه كان يعتنق المذهب الزيدى ، بل إنه نشأ وسط أعلى طبقات الزيدية فكان ابن إمامها ، وأصبح هو بعد ذلك الإمام نفسه . وهذا المذهب يفترض فى الإمام كما عرفنا أربعة عشر شرطًا منها أن يكون عالمًا مجتهدًا .

وانحصر العلم عند الإمام فى النواحى الإسلامية ، فكان يتمسك بصور الحياة الإسلامية الأولى فى حياته وفى طريقة حكمه حتى قيل عنه - وهذا ما كان يسعى إليه - إنه : « خلاصة الخلاصة »[1] . وقد قيل إنه كان لديه مكتبة ضخمة ولكنها كانت ذات طابع دينى . ونظرًا للنشأة الدينية وللزعامة الدينية فإن الشكل الوحيد للحكم الذى كان يتمسك به هو الشكل الإسلامى الأول ، وهو ينحصر فى وجود النبى أو الخليفة وحوله كبار المسلمين يستشيرهم ، ويكونون أدواته التنفيذية فى نفس الوقت على أن يكون له الرأى الأول فى كل شىء . وكان يؤكد هذه الصورة عند الإمام ويجعله أشد تمسكًا بها أنه كان من سلالة الرسول ، لذلك رأى أنه لا بد أن يتمسك بتعاليمه وسنته بحذافيرها دون تغيير أو تطوير حتى لا يعد ذلك خروجًا على أوامر جده الأكبر . وعمل الإمام على تثبيت هذه الصورة عند شعب اليمن وخاصة أنه شعب متشبع بالروح الدينية المذهبية كما كان يؤكدها بوجه خاص عند الزيديين ، وهم عصبة الإمام وأسباب قوته . وكان يشجع التعصب المذهبى عند بعض الزيديين ، وخاصة إذا كان ذلك لخدمة مصالحه هو ، وهؤلاء كانوا يكرهون منه الخروج على هذه الصورة الإسلامية

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ١ ، ص ١٥٩ .

التى لا يعرفون غيرها ، والتى لا يرغبون فى تطويرها لتتلاءم مع مقتضيات العصر الحديث . وموقف هؤلاء منه يرجع إلى أن الزيديين قد تربوا منذ الأئمة الأوائل على تقديس أئمتهم ، وهو ماينطبق أيضًا على الإمام يحيى ، فكان الناس يأتون إليه من أماكن بعيدة للتبرك به والتماس الشفاء عنده . وقد كان الإمام مع تركيزه السلطة كلها فى يده ، يعمل على الاتصال بالأهالى مباشرة : « فكان يجلس فى فصل الصيف فى أحد أفنية « المقام » (القصر) تحت ظل شجرة كبيرة يحيط به رجال دولته وجنوده حيث يقصده الناس لعرض شكاواهم ومظلماتهم فيستمع إلى الجميع ، ويجيب عليهم جميعًا كذلك »[1] . وكان أتباعه – وخاصة المتعصبون منهم – يكرهون من الإمام عدم التقيد الضيق بالأساليب الإسلامية الأولى ، بل وكانوا يمتعضون من استعمال الآلات الحديثة ، فقد حاول الإمام ذات مرة أن يركب سيارة ليذهب بها إلى المسجد لحضور صلاة الجمعة ، فاعترض البعض وأجبروه على عدم استعمالها . فمن المعروف أنه : « أنه كان لدى الإمام سيارة أتته كهدية، وبعد أن فحصها وتعجب من صنعها ، أمر بإيداعها فى أحد المخازن ، ولكنه تحت إلحاح راغب بك وزير خارجيته ، قرر استعمال السيارة للذهاب بها إلى المسجد ، وعندما ظهرت على باب « المقام » (القصر) تجمعت حولها الجماهير استغرابًا ودهشة ، ولكن عندما ظهر الإمام وهم بركوبها ، برز له جماعة من كبار أتباعه المتعصبين وقال أحدهم للإمام : « أتجرؤ يا أمير المؤمنين على ركوب هذه الآلة الجهنمية الممقوتة » فأجاب الإمام – وكان لا يرغب فى إثارة قلاقل دينية – قائلاً : « أنا . . حتى ولا أفكر فى ذلك » ثم وضع سيفه الذهبى على رقبته وهو ممسك به بيديه كالميزان على الطريقة البدوية وتوجه على قدميه نحو المسجد »[2] . وكان الإمام يرمى من وراء هذا

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى ص ٦٧ – ٦٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ – ٧٠ .

السلوك عدم التصادم بالشعور السائد عند بعض أتباعه ، بل وتقويته ، وذلك بالتظاهر بالرضوخ لهم.

ولم يكن موقف الإمام من الدين هو الأساس الوحيد لنظام الحكم فى اليمن ، فقد كان هناك الشكل الاجتماعى للمجتمع اليمنى ، وهو الذى يغلب عليه شكل القبيلة باعتبارها الوحدة الاجتماعية له . وقد كان نظام حياة القبيلة ونظام الحكم فيها شكلاً عامًّا يسود اليمن كله . وقد كان يمثل أمام الإمام نظام الحكم العملى المطبق فعلا . فكان على رأس القبيلة الشيخ وهو صاحب السلطة الزمنية والدينية فيها ، وهو أجل أفرادها قدرًا ، وصاحب الكلمة العليا بينهم . وكان إلى جانب شيخ القبيلة أكابر رجالها ، وهم يمثلون حاشية الشيخ وبلاطه ، أو بمعنى آخر مستشاريه ومنفذى إرادته فى نفس الوقت ، وكان يلى ذلك باقى أفراد القبيلة وهم رعية الشيخ . وكان هذا النظام الهرمى المعترف به هو أساس نظام حكم الإمام من ناحية الشكل مع وجود الفوارق فى السلطات والأجهزة الإدارية . فكان الإمام يبدو وكأنه شيخ قبيلة كبير ، ويعتبر نفسه مسئولاً عن إدارتها وسياستها بالأسلوب الذى يوافقها ، والذى تألفه بالفعل لأن هذه القبيلة الكبيرة تنقسم إلى قبائل أصغر ، وبتعبير قبلى إلى عشائر وبطون وأفخاذ . وهذه المقارنة التى ذهبنا إليها بين النظام عند القبيلة ونظام حكم الإمام نقصد منه ، **أولاً** : توضيح أن نظام الحكم عند الإمام كان امتدادًا لأفكاره القبلية ، **وثانيًا** : أن المقارنة توضح تناسب حكم الإمام يحيى مع النظم التى وجدها سائدة عند شعبه فى هذه الفترة . وأنه حافظ على الأوضاع القائمة - مهما كانت- دون تطويرها . وهذه النظم القبلية كانت تلفظ أنفاسها حينئذ أو كادت ، وكانت تغطى وراءها نظامًا إقطاعيًّا عريضًا . ولكن الإمام كان يحافظ على الروح القبلية لما فيها من عقائد ونظم اجتماعية تجبر الأهالى على الخضوع لأوضاع بالية فاسدة ، تحت شعار المحافظة على التقاليد المتوارثة .

ومن هذا يتضح نظام حكم الإمام يحيى ، والأسس التى قام عليها هذا النظام.وقد ظهر أثر هذا النظام فى مختلف قطاعات الحياة اليمنية الاجتماعية والإدارية . فمثلاً كان الإمام لا يسمح بوجود آلات موسيقية غير موسيقى الجيش لأنه يؤمن أن الموسيقى نوع من اللهو والعبث ، أما الموسيقى العسكرية فكان ولوعًا بها كثيرًا : « لأنها تنشط الجند وتخلق فيهم روح النظام والحماس والشجاعة » كما قال . ويتضح هذا من حديث لراغب بك مع نزيه العظم عندما رأى عنده « عود » يستعمله ابنه ، وقد قال راغب بك كذلك : « وهذا العود الذى تراه عندى هو عود قديم جلبه ابنى معه من الخارج وعندما يعزف عليه يسجن نفسه فى غرفة بعيدة عن الطريق ويغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يسمعه أحد »[١] . ويتضح غلبة التقاليد الإسلامية أيضًا فى باقى نواحى الحياة الاجتماعية ، إذ تمسك الإمام بالألقاب الإسلامية الفخمة التى انتشرت إلى حد كبير فى العصور الإسلامية المختلفة ، وخاصة فى عصور التأخر مثل « القاضى العلامة » و « الفقيه الفهامة » وغيرها[٢] .

وكذلك كان الحال بالنسبة للنظم المالية والإدارية ، فقد أبقى الإمام الألقاب القديمة لحكامه وموظفيه ، فكان حكام الأقاليم مثلاً يسمون «العمال» كما حرص على لفظ « الزكاة» وجمعها ، واستخدم لفظ « بيت المال » وهذه الأسماء كلها تنتسب إلى العصور الوسطى .

وكان يأخذ أعشار الأرض عينًا ، أما الثمار فتثمن ويدفع أصحابها «العشر» نقدًا ، وإلى جانب ذلك كان الإمام يأخذ « زكاة » المواشى والدواجن والدواب وزكاة التجارة والمخازن ، وكذلك زكاة رمضان وزكاة حلى

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

(٢) المقتطف : مجلد ٩١ ، جـ ٤ ، عدد أول نوفمبر ١٩٣٧ / ٧ شعبان ١٣٥٦هـ .

النساء من ذهب وفضة ، وفوق ذلك كان يأخذ إعانة الجهاد عند الحاجة . هذا إلى جانب الرسم المفروض على اليهود وكان يعتبرهم « أهل ذمة » وكانوا يدفعون الجزية ، وهى ثلاث درجات : فكان يفرض ثلاثة ريالات فى السنة على الغنى منهم ، وريالين على المتوسط الحال ، وريالا ونصف على الفقير . وكانت كل هذه الضرائب فى اليمن تدعى زكاة ، وكانت تقسم إلى قسمين : ما يدفع من الجنس وهو العشور ، وما يدفع نقدًا . وكان كل ما يجمع من « العشور » و « الأموال » يحفظ فى بيت المال وله فروع فى كل الأقضية ، ويحفظ دائمًا فى هذه المستودعات كثير من الحبوب وغيرها من لوازم العيش التى لا يصرف منها شىء إلا بأمر الإمام ، وكانت الجمارك والرسوم المفروضة على القوافل تؤلف جانبًا آخر من دخل الإمام[1] .

من هذا يتضح أثر العامل الأول على شكل نظام الحكم فى اليمن فى عهد الإمام يحيى ، أما أثر العامل الثانى - وهو الظروف التاريخية - فيمكن بيان أثرها على تطور النظم الداخلية إلى ما فيه خير البلاد .

رأينا أن الإمام بدأ حياته السياسية بالدخول فى حرب عنيفة مع الأتراك، وكان كل منهما مشغول بالحرب أو بالاستعداد للحرب ، وكان هذا يستهلك طاقة الشعب وثرواته دون أن يجد الوقت للالتفات إلى زراعته وتجارته. وهذا ما دفع نزيه العظم إلى القول عن أثر العثمانيين ونظامهم وحروبهم فى تأخر اليمن : « أن اليمانيين منذ القدم أهل جد ونشاط ، وإذا رأيناهم اليوم متأخرين عن غيرهم من الأمم فلا شك أن ذلك يعود إلى الإمبراطورية العثمانية التى أهملت شأن اليمن كما أهملت غيره من الأقطار العربية كل الإهمال . وكانت تعتبر بلاد اليمن مستعمرة حقيرة ، وتعامل أهلها معاملة سيئة ولم يكن

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

لها غير جباية الضرائب وإرسالها إلى العاصمة العثمانية إشباعًا لبطن عاهلها ورجاله . وإذا طاف المرء بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها ، لا يجد للدولة العثمانية أثرًا من آثار المدينة غير الحصون والقلاع وبعض المستشفيات العسكرية والأسلاك البرقية ومدرسة أو مدرستين صناعيتين . وكان رجال تركيا لا يرسلون إلى اليمن إلا كل مغضوب عليه من الموظفين الملكيين والعسكريين ، غير ناظرين إلى المقدرة العلمية والأهلية والشخصية ، فكان هؤلاء الموظفون يسيئون استعمال وظائفهم ، ويرتكبون الموبقات والمحرمات ويتناولون الهدايا والرشوات وهذا مما أثار خواطر اليمانيين وجعلهم فى احتراب دائم مع الحكومة العثمانية »[١] . ورغم صحة هذا الحديث فى جملته إلا أنه يحمل طابع المبالغة ومهاجمة الحكم العثمانى للدفاع عن حكم الإمام يحيى – وقد اشتهر نزيه العظم بذلك . والحقيقة أن العثمانيين قاموا ببعض الإصلاحات بقدر ما سمحت لهم ظروفهم وهذا ما أوضحناه قبل ذلك .

وكان هانز هلفرتز الألمانى له وجهة نظر أخرى ، ويرجع سبب الاضطراب فى اليمن أيام الحكم العثمانى إلى تعلق اليمنيين بفكرة الإمامة بوجه عام ، وأن المذهب الزيدى بطبيعته كان يتيح الفرصة لتنازع رجالات المذهب على الإمامة ، وأن كل قبيلة مهما صغرت أو كبرت كانت تحاول الحصول على الاستقلال بأية صورة وبأى قدر ، وأن هذا الاضطراب والتحلل الذى كان يسود الحياة اليمنية هو الذى أجبر الإمام فيما بعد على استعمال الوسائل العنيفة لتثبيت حكمه[٢] . وعلى كل حال لقد اجتمعت الظروف المختلفة سواء النابعة من الداخل أو الآتية من الخارج على أن يبدأ الإمام حياته السياسية

---

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) Hans Helfritz : The Yemen, a Sccret Journey, p. 123.

بالحرب ، واستمر فى ثوراته حتى سنة ١٩١١ عندما عقد صلح دعان مع الأتراك ، ولكن هذا الصلح لم يكن يعنى نهاية الخصومة أو هدوء الحال . وبعد الحرب العالمية الأولى وخروج الترك دخل الإمام كذلك فى حروب مستمرة مع كثير من الجهات والعناصر التى سبق أن أشرنا إليها ، وهذه الحروب لم تهدأ أوارها نسبيًّا حتى عام ١٩٣٤ . وكان هذا يعنى بالضرورة استمرار استهلاك طاقة الشعب وثرواته فى سبيل تدعيم الدولة الجديدة وتحقيق استقلالها ، فظل الشعب يئن تحت وطأة الحرب القاسية .

وقد عبر صاحب استراحة صغيرة فى الطريق بين « إب » و « يريم » لأمين الريحانى عن حالة الاضطراب السائدة فى اليمن عندما طلب الريحانى منه - فى أثناء رحلته من عدن إلى صنعاء برًّا - بعض اللبن فقال له الرجل : «لا غنم عندنا ولا بقر ولا ماعز ، ولو كان عندنا فليس من يرعاها ، شبابنا فى عسكر الإمام ، وأولادنا هاربون من التجنيد ، و « العمال » أخذوا أغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال »[1] . وهذا الحديث يبرز بوضوح الفقر الشديد والحالة القلقة وسوء نظام الحكم التى صاحبت فترة حكم الإمام بعد الاستقلال .

ونحن وإن كنا نقول إن حروب الإمام استمرت طوال عهده ، فإنما نعنى ذلك ، بالرغم من أننا قد قسمنا عهده إلى فترتين من حيث حدة هذه الحرب وقسوتها . وتتضح صفة الاستمرار فى العهد الثانى فى ناحيتين : الأولى فى محاولاته المستمرة فى تدعيم نفوذه وحكمه فى الداخل ، ومن ناحية ثانية ، فى أن معاهدة سنة ١٩٣٤ مع إنجلترا لم تكن إلا هدنة بين الطرفين ، إذ إنها لم تحل مشكلة الحدود . وقد يبرز استعداده الدائم وتحفزه بالنسبة للأوضاع الداخلية ، رواية الجرافى عن زيارة بعض زعماء قبائل تهامة للإمام سنة ١٩٤٠ للتعبير عن خضوعهم وولائهم . فيقول: «وفى شعبان من هذه السنة (١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م) وصل إلى صنعاء لزيارة الإمام وفد كبير يضم أعيان تهامة وذوى الرأى فيها ، ويرافقهم سيف الإسلام عبد الله ، وكان حينئذ أمير لواء الحديدة،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١١١ .

وقد نـزل الوفد بـدار الضيافة ، وكـان لهذه الزيارة مغـزى عظيم فى تأكيد روابط الأخوة بين الجبال والتهائم اليمنية »[1] . والجرافى نفسه - وقد عرف بميـوله نحو الإمام - يفطن لأهمية هـذه الزيارة ، فوصفها بـأنها لتأكيد روابط الأخوة رغم أنها كانت تتم بعـد حروب ومصادمات ، أو تحت التهديـد على الأقل . ويلاحظ أن هذه الـزيارات كانت تتكـرر ، فقد ذكر الجرافى نفسـه ، الزيارة التى تمت قبـــل ذلك ، بعد انتهاء الحرب اليمنية السعوديـة ، وكان سيف الإسلام أحمد هو الذى صاحب تلك الزيارة .

وعلى كل حال ، فإنه يمكن تقسيم عهد الإمام من حيث الأحداث العنيفة التى لاقته إلى فترتين : فترة حـــرب (حتى ســـنة ١٩٣٤) وفترة اســـتعداد لأى حـــرب (من ١٩٣٤ - ١٩٤٨) وكـانت الفترة الثانيـة طبعًا تتميـز عن الأولى بـالهدوء والاســـتقرار النسبى . ونحن إذا افترضنـا أن الفترة الأولى كانت مليئة بالأحداث التى شغلت الإمام عن القيام بـالإصلاحات الداخلية - رغم أن هذا افتراضًـا فقط إذ لم يكن العيب فى وجود المشـــاغل بل كان فى ســـوء النظـام الذى وضـــع للدولة - فإننـا نرى أن الفترة الأخيرة ذات أهمية كبيرة لـه من عدة نواحٍ . وتتلخص فى أن الإمام عند بدايتها ، كان إلى حد كبير قد وضع بوجه عام أسس الدولـة الجديدة ، وكان عليه أن يعمـل على تطوير هذه الأسس بما فيـــه خير البلاد بشـىء من الســـرعة حتى يعوض مـا فاتـه ، وكان عليـــه أن يعيـد النظـر - فى ضـــوء الظروف الجـــديدة - فى الأوضاع والأســـاليب التى أوجدتها حالـة الحرب لعدم تناسبهـا أو قدرتها على الاستمرار ، وكـان عليه أن يهتم بكل شىء أهمله قبل ذلك مثل الـزراعة والتجـارة وطرق المواصـــلات والنظم المـالية وغيرهـا من شئـون دولتـه . ونحن نـرجع أهميـة هـذه الفترة (١٩٣٤ - ١٩٤٨) كذلك إلى أنها مسئولـة عن تخلف اليمن وتجمده وعزلته ، لأننـــا إذا كنا نقـــدر أثـر الحروب التى خـاضهـا الإمام فى أحـــوال بـلاده الداخليـــة وأوضـاعهـا

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٥ .

العـامة ، فإننـا كذلك نقـدر أهميـة الفترة الثـانيـة من حيث إمكان القيـام بالأعمـال المفيـدة والتطـوير الـلازم خـلالها . (ولـكن يبـدو أن الإمـام كان قـد أصبح كبير السـن ومن الصـعب عليـه حينئـذ أن يـؤمن بضـرورة التغيـير والتطويـر بمـا يخالف ما جاهد من أجله خلال السـنوات الثلاثين المـاضية من حكمه) .

فالإمام كـان فى هذه الفترة وفى هـذا السن ما زال يعيش المـاضى ويجـتر حروبه وأعماله سـواء فى الداخل أو الخارج ، وما زال يؤمن بها أرسـاه وبصحته ، فكان من الصعب أن نتوقع منه أعمالاً وإصلاحات سريعة مفيدة تتطلب فى حد ذاتها همة الشـباب .

وقد انعكسـت آثار هذه العوامل المختلفة فى مظاهـر الحيـاة فى اليمن ، فإلى جانب أثـرها الواضـح الذى عـرضناه فى السـياسة الخارجية ، فقـد تأثرت مختلف نواحى الحياة الداخلية بهذه العـوامل أيضـًا . فقد ظل التعليم متخلفًا ، واقتصـر فى أغلبه على التعـليم الأولى الدينى فى المسـاجد والمدارس الصغيرة، وتولى العلماء والفقهاء تعليم النشء ، وكان أغلـب ذلك كله على نفقة الأهالى . وإن كـان الإمام كما ذكـرنا قبـل ذلك - قد أنشأ القليل من المدارس العلميـة - صناعيـة وزراعية وأرسل بعض البعثـات إلى الخارج ، إلا أن التعليم ظل متخلفًا طوال حيـاته وقـاصرًا - إلى جانب التعليم الأولى الـدينى - على تخريج وإعداد الموظفين للـدولة سـواء الفنيين أو غيرهم ، وقد أرجع الـريحانى تخلف التعليم فى اليمن وعـدم اهتمام الإمام بـه إلى أمرين : « أولهما رغبـة الإمام فى عـدم تعميمه حتى ينفـرد بـه فيصـبح أعلم قومـه ، أمـا ثانيهما ، فهـو أنه منـذ تـولى الحـكم ، وهـو وأعـداؤه فى احـتراب ، فـكيف لـه أن يهـتم بالمـدارس (! ؟) »[1] . وهـذه الإشـارة وإن كانت تنطبـق تمـامًا عـلى فـترة حـكم الإمـام الأولى حيث

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ١ ، ص ١٥٩ .

تمت زيارة الريحانى ، فهى لا تنطبق على باقى فترة حكمه حيث كان من الممكن العمل على نشر التعليم .

وقد اتضح التخلف كذلك فى اهتمام الإمام بالشئون الصحية ، فبالرغم من أن إيطاليا قد قامت بإنشاء عدد من المستشفيات بناء على طلب الإمام ، إلا أنها - كما رأينا - كانت قليلة يغلفها الإهمال . كما رأينا كذلك أنه قد أرسل قليلا من الشباب ليدرسوا الطب فى مصر وإيطاليا ، إلا أن هذه المجهودات كلها كانت ضعيفة ولا تتناسب مع احتياجات شعبه . فقد وصف طبيب إيطالى لنزيه العظم حالة شعب اليمن الصحية بقوله : « .. ولا شك أنهم أقوياء جدًّا ، وأجسامهم تقاوم جميع الأمراض مقاومة عنيفة ، لأنه لا طب عندهم ولا دواء منذ القدم ، والأمراض المتفشية فى اليمن تفشيًّا مريعاً هى الجدرى وحمى التيفود والملاريا ، والأهالى فقراء ولا يحصلون على قوتهم الضرورى إلا بشق الأنفس ، وهم يتزوجون نساء متعددة ولكن وفيات أطفالهم تبلغ ثمانية فى المائة »[1] .

وتأثرت الزراعة كذلك بالعوامل السياسية فتأخرت رغم أنها الحرفة الرئيسية لشعب اليمن ، ورغم صلاحية أجزاء واسعة للزراعة هناك ، ورغم وفرة المياه . ومن المعروف أن الزراعة فى اليمن تعتمد أساساً على الأمطار ، لذلك كان على الإمام أن : « يتغلب على عوامل القحط بالرجوع إلى وسائط الرى وخزن المياه بإعادة تشييد السدود التى برع بها اليمانيون منذ أقدم الأزمنة ، وخزن مياه الأمطار فيها بطريقة حديثة »[2] . وكان يمكن للإمام أن يستعين بالمهندسين والشركات من الدول العربية وهما متوافران ولكنه لم يفعل ، وهذا يدفعنا إلى مخالفة نزيه العظم فى إلقائه تبعة تأخر

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ٨٤ .

الزراعـة على الشعب وعلى كسله وتواكلـه ، إذ لا بد لإنهاض الزراعـة من تعاون الحكومة مع الشعب ، لأن بعض وسائل الاهتمام بـالزراعة ورفع شأنها تحتاج إلى مجهود ومـال كبيرين لا يمكن لـلأفراد وحدهم القيـام بها . ونزيـه العظم يقص رواية ذات دلالـة كبيرة لتأكيد ما ذهب إليـه ، فيقول إنه كان فى زيـارة للقاضى حسين مطهر حاكم الجوف عندمـا حضر أحد أشراف الإقليم ؛ وصاحب الغيل المعروف « بغيل مراد » فسألـه العظم عن بلاده وأحواله فقـال : « إننا ولله الحمد على أحسن حال ، ولكن بـلادنا فقيرة وجهال ، ولا نعـــــرف كيف نستفيد من أرضنـا » فقال لـه العظم ثـانية إن بـلادهم تصلح لـزراعة القطن ، وهى زراعـة رابحة ولكنهم لا يهتمـون بها ، فأعاد الـرجل قوله بـأنهم فقراء : « ولا نملك من الوسـائل الزراعية ما يسـاعدنا على تنمية زراعـة القطن وغيره من المزروعات » . وقد سأل العظم القاضى حسين عن حقيقـة هذا الرجل وعن صدق كـلامه بعد انصرافه فأجـاب القاضى بقـوله : « كلا ليس هـذا الرجل بـالفقير ، فهو يملك أرضـاً واسعـة وعنـده الخدم والحشم ، ولكـن كغيره من شيـوخ القبـائل كسـول وكسول جدًّا ، ويفضل أن ينام على الطوى على أن يبذل جهوداً فى الكد والعمل المنتج »[1] .

ويكمل العظم روايته ، فيؤيـد القاضى فى رأيه فى البدو ، وذكر أنـه شاهد كثيراً من البقاع فى اليمن أثناء رحلاته ، صالحة للـزراعة لو أعطيت قليلا من العناية ، ولكننا عنـد رأينا من أنـه لا بد من تضافـر جهود الحكـومة والشعب فى الاهتمام بالـزراعة لضخامة المشروعـات التى تحتاجها الـزراعة فى اليمن ، والتى لا يمكن للأفراد القيام بها بمفردهم .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٢٣٤ .

ويمكن بوجه عام متابعة مظاهر التخلف والجمود فى مختلف نواحى الحياة اليمنية فى عهد الإمام يحيى بشكل كبير . وهذا ما يدفع الريحانى إلى أن يقول : « وكأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة (؟ !) تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا أدوية ، ولا أطباء ، ولا مستشفيات فى اليمن. إن الإمام هو كل شىء، هو العالم، والطبيب ، والمحامى ، والكاهن »[١] . وهذا القول فيه أكثر من دلالة . فمن ناحية فإن الحياة هناك ما زالت تحتفظ بطابعها القديم ويتمسكون به جدًّا . ومن ناحية أخرى يتضح أن الإمام هو كل شىء ، وهذه حقيقة واضحة ، وهذا مما يزيد من مسئولية الإمام ، وأنه كان عليه أن يعمل على تطوير حياة شعبه ، وعلى تلبية حاجياته ، ولكن الإمام لم يستطع التغيير ، وكان يعيش الماضى دائماً ويتبع الأساليب القديمة ، وقد وضح هذا فى كثير من المظاهر التى ذكرناها وغيرها ، فالإمام مثلا حتى نهاية حياته الطويلة ، لم يقم بتغيير النظم المالية والإدارية التى وضعها العثمانيون . فإذا عرفنا مثلا أن : « حكومة اليمن لم تعن إلى هذا اليوم (أواخر أيام الإمام) بطبع أوراق خاصة بمعاملاتها وهى لا تزال تستعمل دفاتر الدولة العثمانية وأوراقها »[٢] . فإن معنى هذا أن هذه النظم ظلت على حالها حوالى أربعين عاماً ، وأن الإمام لم يقم حتى بتجديد هذه الأمور البسيطة ، بل ومما يزيد السخرية ما يقال بأن تلك الدفاتر لم تستعمل استعمالا صحيحاً بل استعمل ظهر الورق الأبيض فقط . وكذلك الحال فى تدريب الجيش بالرغم من أن الجيش كان موضع عناية الإمام واهتمامه فيقول محمد حسن : إن « تدريب هذا الجيش كما شهدناه فى بدء زيارتنا لليمن ، هو القيام بمسيرات

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٥ .

وإتقـان بعض الإيعازات والحركـاتالتركيـة ، التى كانت مـوجـودة فى الدولـة العثمانية ، ويدير هذا الجيش بقية من الرجال العثمانيين والعسكريين الذين آثروا البقـاء فى اليمن تحت ظل الـدولـة الإماميـة الحديثـة ، وهم مـا زالـوا حتى الآن يحملون الشارات والرتب العثمانيـة ويرتدون اللباس العثمانى »[1] . ويذكر بعد ذلك نظـام التجنيد ، وحيـاة الجند ، ونظـام الجيش نفسـه ، وكلها تبرز حقيقـة واحدة هى : بقـاء النظم القديمة البـالية على مـا كانت عليه بـالرغم من اعتماد الإمام على الجيش واهتمامه به ، وبالـرغم من مرور فترة طويلة على خروج الترك . ولكن يجب الإشارة إلى أهميـة خطوة الإمـام ، وهى استدعـاؤه البعثة العسكـرية العراقية لتدريب جيشه ، وعلى الرغم من أنها جاءت متأخرة فهذه الصفة وغيرها من الصفـات ، مثـل البطء الشـديـد ، والحذر ، والتردد والتريث الـذى يشبـه الخمول ، قد صبغت كل أعمال الإمام .

ويبـدو أن الإمام كـان لا يؤمن إلا بـالعنف والحرب باعتبـارهما الوسيلـة الوحيدة لتحقيق أغـراضه ، مثل الاستقلال أو المحافظة عليـه ، ويظهر هذا من حديث بين نـزيه العظم (كانت آخـر زيارة للعظم لليمن سنة ١٩٣٦ تقـريبا) وبين الإمـام يطلب فيـه الأول أن يـرد الإمـام على الدعايـات التى تنشرهـا الصـحف ، ولكـن الإمام كـان لا يريـد ذلـك ، بل يـرى أن الـرد سيـأخـذ وقتـه ويشغلـه عن الأمـور الهامـة ، فقـال العظم : « ولكن يـا مـولاى إن للجرائـد تأثيرا لا يستـهـان بـه فى الدعايـات » فقـال الإمام : « أيوجـد فى البـلاد العربيـة بلـد فيها جرائـد أكثـر من مصر » فقال العظم إن بها الكثير من الجرائد المتقنـة وإنها تفوق الجرائد فى البـلاد العربيـة وبعض البلاد الأوروبيـة ، فقـال الإمـام : « وهل حققت هـذه الجرائد الكثيرة المتقنـة لمصر استقـلالها »

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص : ١٣٦ (زارت البعثة العراقية العسكرية اليمن فى أوائل سنة ١٩٤٠) .

فقال العظم : كلا ولكنها أثارت الرأى العام فى أوروبا بأن هناك قضية مصرية وأن هذه القضية لم تحل بعد ولا تزال موضع مشادة عنيفة بين مصر والإنجليز » فقال الإمام « حسناً .. حسناً » ، ونهض فنهض العظم [1] . وهذا معناه عدم اقتناع الإمام بكلام « العظم » وعدم اقتناعه عامة بأسلوب الصحافة فى تحقيق الاستقلال ، أو حتى بأثر الصحافة فى نشر الوعى . وقد ظهر كذلك أثر الظروف التاريخية الأولى فى موقفه من العالم الخارجى عموماً ، وظلت هذه الآثار تهيمن على تفكير الإمام بالنسبة للأجانب طوال فترة حكمه ، فقد رأينا أنه رفض منح امتياز استغلال مملحة « الصليف » إلى أى شركة أجنبية لأن مثل هذه الامتيازات تعتبر بداية تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، وضرب لذلك مثلا ما حدث فى الصين والهند . ورأيناه كذلك يتردد فى دخول الجامعة العربية ، ويقف منها موقف الحذر المشاهد ، لأنه خاف أن تكون حركة إنجليزية ترمى إلى التدخل فى شئون البلاد العربية ، أو توحيدها تحت سيطرتهم عن طريق السيطرة على جامعة الدول العربية . وكان يفسر ذلك بأن النحاس باشا أشار فى خطبته المشهورة فى مجلس الشيوخ المصرى فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ إلى تصريحات المستر « إيدن » وزير خارجية إنجلترا بخصوص ترحيب وتأييد بريطانيا بكل حركة تجمع بين العرب ، لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم ، وأنه - أى النحاس باشا - يفكر منذ صدور هذه التصريحات فى كيفية اتخاذ التدابير اللازمة لتقريب وجهات نظر الحكومات العربية ، ومعرفة رأيها فى التعاون فى الأوجه المختلفة [2] .

ظاهرة الرهائن :

ونحب أن نشير أخيراً إلى ظاهرة « الرهائن » باعتبارها ظاهرة بارزة فى اليمن ، وباعتبارها وسيلة لجأ إليها الإمام لفرض سيادته ، وضمان إخلاص

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٥ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٤٤٦ ، فى ١٩٤٤/٩/٢٥ ، ص ١ .

وطاعة القبائل والجهات المختلفة اليمنية . ولا شك أن هذه الظاهرة ظاهرة قبلية قديمة ، كانت القبائل تلجأ إليها فيما بينها عند قيام الحروب ، أو عقد الاتفاقيات ، إلا أن هذه الظاهرة قد استمرت طوال عهد الإمام يحيى بالرغم من تغير الظروف التى دعت إليها ، لإيمانه بها ولاعتبارها طريقة حكيمة فى فرض نفوذه فى اليمن . ونحن إذ نشير إليها ، فإننا نقصد تأكيد حقيقة هامة ، وهى أن الإمام ظل طوال عهده يتبع الأساليب والوسائل القديمة ، وأن هذا هو ما صبغ حكمه عامة بالجمود والتأخر ، هذا إلى جانب توضيح طريقة حكمه . وقد كانت ظاهرة الرهائن موضع مناقشات كثيرة ، وتعرض الإمام بسببها للهجوم العنيف ، لذلك نحب أن نعرضها أولا قبل الحكم عليها .

رأينا أن سيادة الإمام بعد أن خرج الأتراك من اليمن كانت لا تمتد إلا على العناصر الزيدية فقط ، إلا أنه أخذ يوسع نطاق نفوذه فى الجهات المختلفة . وكان أثناء ذلك يصطدم بعناصر لا تعترف بسيادته عليها ، فكان يلجأ إلى القوة لإخضاعها ، وتبع هذا أنه كان يأخذ رهينة من شيوخ القبائل أو أصحاب النفوذ فى الجهات المختلفة ، وهى دائماً ما تكون الابن أو الأخ أو أقرب الناس إلى الشخص الذى يرغب الإمام فى إخضاعه له . وكان يحتفظ بهذه الرهينة فى صنعاء أو الحديدة أو أى مدينة بعيدة عن مركز أو وطن الشخص نفسه . وكان يعتقد أنه بهذا يضمن ولاء هؤلاء الشيوخ والرؤساء وحسن سلوكهم ، لأنه كان من غير المعقول أن تقوم هذه الشخصيات المعارضة بأية أعمال عدائية ضد الإمام ، وهى تعرف أن لديه ابناً أو أخاً أو قريباً عزيزاً يمكنه أن ينتقم منه ، ويعنى هذا أن يدفع الشخص الرهين ثمن أفعال أبيه أو أخيه ضد الإمام . ويقال إن أغلبهم : « كان من الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشرة . ويمثلون كل القبائل ، وهذه القبائل تستبدلهم كل بضعة أشهر بغيرهم من الصبية »[1] . ولكن يبدو أن تغيير شخصية الرهينة لم يكن هو

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٤ .

المتبع دائماً ، إذ يقول هانز هلفرتز : « إذا كان أحد هؤلاء الرهائن - الذين يكونون غالباً صغار السن - سعيد الحظ فإنه يقضى حياته بالقرب من الملك ، فيمكنه بذلك أن يخلق لنفسه مستقبلا باهراً »[1] . وقد اختلف الكتّاب فى عدد هؤلاء الصبية وفى طريقة حياتهم ومعاملتهم ، فيقول سلفاتور أبونتى إن عددهم بلغ أكثر من ألف ، منهم ثمانمائة فى صنعاء ، ومائتان فى الحديدة ، وكلهم من الأحداث . ويقيم هؤلاء الرهائن فى مدينة صنعاء فى « القصر » وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع ، وهذا الحصن قلعة عظيمة تكسبها مداخلها الملتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظراً قاسياً مخيفاً . وقد وضع لهم نظام وسط بين نظام الجنود ، ونظام الأيتام ، ونظام المسجونين ، فهم يشتركون أحياناً فى الاستعراضات العسكرية ، ويسيرون فى صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحاً . وفى اليمن يخجل الشاب كل الخجل إذا ما ظهر أمام الجمهور بدون أن يحمل على الأقل خنجراً فى خصره . والقبائل التى أخذت منها هذه الرهائن هى التى تتولى الإنفاق على طعامهم وملبسهم . وكذلك تفعل أسر المسجونين فى الجرائم العادية ، فهى التى ترسل إليهم المأكل والملبس : « ألا يكفى أن تقدم لهم الحكومة من عندها المسكن والقيود (! ؟) »[2] . أما محمد حسن ، فيقول : « إن الإمام خصص بيتاً سمى « بيت الرهائن » ووضع فيه ما يقرب من ٤٠٠ فتى وغلام من أولاد المتنفذين فى المملكة أو من أولاد الشيوخ ، ويوضعون تحت حراسة الجند »[3] . أما هانز هلفرتز فيقول : «إن هؤلاء الرهائن يعتقلون، إما فى العاصمة ، وإما فى مدينة أخرى ، غالباً ما تكون بعيدة عن مركزه ، وهم يتركون أحراراً فى حركاتهم داخل المدينة المختارة ، ولكن عليهم ألا يغادروها .

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, A Secret Journey, pp. 129-130.

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٤ .

(٣) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

وقد قدر عدد هؤلاء الذين يعتبرون سجناء الدولة فى سنة ١٩٣٤ ، بحوالى أربعة آلاف رهينة »[١] . واختلاف العدد مسألة غير هامة إذ كان لا يمكن حصرهم أو معرفتهم بالضبط ، أما عن حياتهم ومعاملتهم فيبدو أن المعاملة تختلف من شخص لآخر حسب أهميته وخطورته ، ولكن يلاحظ أنهم جميعاً كانوا تحت الحراسة والمراقبة سواء فى البيوت التى يوضعون فيها ، أو إذا تركوا طلقاء فى المدينة . وظاهرة تجولهم داخل المدن التى يوضعون فيها ليست ظاهرة غريبة إذ كان السجين العادى فى بعض الحالات - ولطائفة خاصة من السجناء - « يسمح لهم بالتجوال داخل المدينة وهم مقيدون بالحديد ، ليحصلوا على أرزاقهم ويعودوا بعدها إلى سجونهم » .

وهذه الظاهرة كانت دائماً موضع استغراب ، وأحياناً اشمئزاز من يرونها أو يسمعون عنها ، وهذا ما حدث بالفعل لأمين الريحانى إذ يقول : « سمعت بالرهائن (عندما كان) فى « لحج » فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت أنكر صحة ما سمعت ، إلا أن أغرب الأمور هى أقربها فى بعض الأحايين إلى الحقيقة ، فالإمام يحيى يتقاضى من كل موظف من موظفى حكومته الكبار الملكيين والعسكريين رهينة واحدة ، ابناً أو أخاً أو نسيباً عزيزاً يبقيه فى حوزته كفالة الإخلاص والاستقامة فى الخدمة وضمانة الصدق والوفاء فى التابعية . وهؤلاء الرهائن عند الإمام على ما قيل أربعة آلاف يقيمون ، فى المدن المختلفة ، كلٌّ بعيد عن أهله ومسقط رأسه فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض ، وتمنح الآخرين بكفالة أحد وجهاء المدينة حرية الجولان فيها »[٣] .

والحقيقة أن وجود هذه الظاهرة فى اليمن فى القرن العشرين تثير الدهشة ،

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, A Secret Journey, pp. 129-130.

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٢٠ .

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

فهى ظاهرة عاشت فى العصور القديمة والمتوسطة ، ولكنها لا تلائم العصور الحديثة . ورغم أنه من المعروف أن بلدان العالم لا تسير فى مراحل حضارية واحدة ، وأن الظروف التاريخية الخاصة تنشأ عنها فى العادة مظاهر اجتماعية معينة رغم اختلاف الأزمنة ، إلا أن وجود ظاهرة الرهائن فى اليمن يجعلنا نقول إن الإمام كان يعيش ظروفاً تاريخية قديمة ، ويتبع نظماً سياسية بالية بالرغم من أنه حكم اليمن فى النصف الأول من القرن العشرين . ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عنها أو الهجوم عليها ، بل إننا نحب أن نتناولها بشكل موضوعى يلائم ظروف وأوضاع اليمن الخاصة حينذاك . فمن ناحية ، نحن لا نسلم بما قاله محمد حسن عن فائدة هذا الأسلوب فى الحكم ، إذ إنه يقول : « فأنت ترى أن ما يفعله بيت الرهائن فى اليمن من نتائج تتمثل فى الأمن والهدوء والاستقرار ما لا يفعله أى قانون دستورى فى الممالك الشرقية التى منيت بالقلاقل والفتن والاضطراب »[١] . فنحن نرى أنه إذا كان هناك فتن واضطرابات فى باقى البلاد العربية التى يشير إليها ، والتى تتبع النظم الدستورية ، فإن هذا ليس ناتجاً عن النظم الدستورية بل هو ناتج من عدم استقرار هذه النظم ورسوخها ، وأن علاج هذه الفتن هو التوسع فى تطبيق النظم الدستورية وتثبيتها ، وليس ذم هذه النظم وتفضيل طريقة الرهائن عليها . فطريقة الرهائن : « ليست الطريقة المثلى التى من الممكن اتباعها لتكوين وحدة روحية متينة فى اليمن ، بل إنها على العكس تحيى الأحقاد وتجدد الخلافات القائمة[٢] . ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير ، إذ يجب أن نتذكر أن أهم أسباب نفور شيوخ المحميات من حكم الإمام يحيى وميلهم إلى الإنجليز ، هو خوفهم الشديد من أن يأخذ الإمام الرهائن منهم ، وقد اتضح ذلك من نص حديث سلطان الحواشب (إحدى المحميات) مع نزيه العظم الذى سبق أن ذكرناه .

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٣ - ٨٤ .

ونحن إذا أردنا ألا ننكر أن الإمام قد استطاع أن يضع أسس دولة - مهما كان كيانها ونظامها - فى بلد عاشت مدة طويلة فى اضطرابات وفتن ، وإذا افترضنا أن العثمانيين لم يخلفوا له إلا تركة مثقلة ، وأنه لم يكن أمامه إلا أن يتبع أسلوباً أوتوقراطيًّا دقيقاً حتى يحقق آماله ، فإننا لا نؤمن بأن تسود وسائله ونظمه الخاصة فترات حكمه كلها . فتحقيق الاستقلال السياسى - من وجود تطور اجتماعى واقتصادى وإدارى حتى تتكامل هذه النواحى كلها فتضمن بذلك بقاء الشكل السياسى دون زعزعة أو انهيار ، فمثلا إذا وضعنا فى الاعتبار ، أن نظام الرهائن - كما قيل - « لم يكن شيئاً فى حد ذاته »[1] ، أو أنه : « الطريقة الوحيدة التى تستطيع حكومة - تقوم على الشعور الدينى - أن تستعملها لكى تكون فى مأمن من دسائس أقليات تخالفها فى العقيدة الدينية » إلا أنه فى حد ذاته ليس الطريقة المثلى لاستمرار الولاء والخضوع ، ولا يجب أن يستمر باعتباره طريقة فى الحكم ، بل كان يجب أن يتطور فى شكله حتى ينتهى تماماً أو يحل محله نظاماً آخر بعد انتهاء الظروف الخاصة التى أوجبت وجوده ، إذ كيف يخضع شعب لحكومة يشعر أنها تأسر أبناءه ليستمر خضوعه لها ؟ وأخيراً نشير إلى خطأ رأى سلفاتور أبونتى السابق فى أن الإمام كان يفرق بين الزيود والشوافع عند أخذ الرهائن ، فقد أخذها من الجميع دون استثناء ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يأخذ الرهائن من القبائل الزيدية أكثر منهم من القبائل الشافعية ، لأنه كان يدرك تماماً قوة هؤلاء ويعرف مدى خطورتهم .

---

(١) قال بعض السادة اليمنيين الرسميين فى مصر بأن المقصود من نظام الرهائن هو ترغيب النشء من الرهائن فى حكم الإمام وذلك عند تربية هؤلاء بالقرب من الحكومة .

نهاية حكم الإمام :

أدت أعمال الإمام المختلفة التى ظهرت طوال عهده الطويل إلى خلق روح التذمر بين عناصر الشعب . وقامت بعض العناصر الوطنية المخلصة تطالب بالحد من سلطة الإمام ؛ واتباع النظم الدستورية ، والقيام بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة . ولكن الإمام يحيى كان يقف من كل هذه المطالب موقفاً جامداً معارضاً . وحارب دعاتها حرباً شديداً ، مما أدى بالكثير من هؤلاء إلى الهرب إلى الخارج - وخاصة إلى عدن والقاهرة - بعيداً عن قبضة الإمام . وتمكن هؤلاء - وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية - من إنشاء حزب « الأحرار اليمنيين » كما أصدروا جريدة « صوت اليمن » لنشر دعوتهم وتوضيح أغراضهم ، وقد وضعوا فيما بعد دستوراً لهم تضمن كل مطالبهم ، عرف باسم « الميثاق المقدس » وأعلنوا التمسك به والعمل على تنفيذه ، وأخذت حركة المعارضة فى الازدياد ، حتى اضطر ابن الإمام ، سيف الإسلام إبراهيم ، إلى الهرب إلى عدن وإعلان انضمامه إلى حزب الأحرار هناك ، بعد أن رفض والده الاستماع إلى نصائحه ، وسجنه عندما أعلن معارضته لنظم الحكم السائدة فى اليمن . وقد تمكن إبراهيم من الهرب من السجن ولقب نفسه فى عدن باسم « سيف الحق » إبراهيم - بدلا من « سيف الإسلام » الذى يلقب به أبناء الإمام - تعبيراً عن تمرده على تقاليد أسرته . وقد أزعج الإمام اشتداد حركة المعارضة فى عدن ، فولى ابنه سيف الإسلام أحمد أمر لواء « تعز » ليكون على مقربة من محمية عدن ، وليتمكن من القضاء على عناصر المعارضة هناك بالاتفاق مع سلطات عدن الإنجليزية . وكان اشتداد حركة اليمنيين الأحرار فى عدن مثار إزعاج لحكام الجزيرة العربية ، وخاصة ابن السعود يخاف أن تتسع هذه القلاقل أبعد من الحدود اليمنية، ويخاف أن يكون لها آثار أبعد فيما بعد»[1].

---

(١) Philby : Arabian Jubilee, pp. 180-190.

وقد وصف بعض المؤرخين الـذين كانـوا يدافعون عن حكـم الإمام يحيى - مثل الجرافى - هذه الفترة فقال : « قامت دعاية مغرضـة بمدينة عدن ضد هذا الملك العظيم الـذى أوجـد اليمن ، والـذى كان أول زعيـم عربى طـالب بـاستقـلال العرب . وتظـاهر ناشرو هذه الـدعاية ضد الإمـام وطريقة حكمه للبـلاد باسم الإصلاح . وقد بدأ بنشر هذه الدعاية جماعة من اليمنيين المقيمين بعدن ، الذين سمـوا أنفسهم « حـزب الأحـرار » وانضم إليهم آخـرون ، وأنشأوا لهم جـريـدة سموها « صوت اليمن » وأعانتهم فى دعايتهم هذه جريدة كانت تنشر فى مصر اسمها جـريدة « الصداقـة » . وقد أخـذت كلتا الجريدتين فى نشر كل مـا يشوه سمعة اليمن ، وسياسـة الحكومة اليمنية المتوكلية ، وغررا بما زخـرفاه من الأقوال كثيراً من الناس الذين اعتقدوا أنهم يطالبون حقيقة بالإصلاح »[1] .

وإلى جانب عدم اتفاقنـا مع الجرافى فى رأيه فإننا نحب أن نشير إلى حقيقة هامـة ، وهى أنه لا بـد من ظهور فئة معـارضة لأى نظـام حكم فى أى بقعة من بقاع العـالم على مر التاريخ مهما كانت صـلاحية هذا الحكم ، وهذا هـو أساس تطـور النظم السياسيـة فى التاريخ . وكـان بعض الحكام يسمحـون للمعارضـة بالظهـور ، حتى يعرفوا مطالب الـرعية واحتياجاتها ، وحتى يـوائموا بين نظمهم وبين التطورات الـدقيقة الخفيـة أولا بأول ، وبذلـك تختفى المصادمـات العنيفة المفاجئـة بين الحاكم وبين تلك المعارضة عندمـا تتسع ويشتد ساعـدها . ولكن الإمام لم يسمح بظهور معارضة ، إيماناً منه بصـلاحية نظمه وأوضاعه التى أقرها فى المـاضى وتمســك بهـــا ، ولإيمانـه أن المعارضين الـذين ظهروا فى عهـــده

اكتفينا هنا بإشارة قصيرة إلى حركة المعـارضة التى ظهرت ضد حكم الإمام يحيى ولكن عذرنا فى ذلك أننا نعد بحثاً خاصاً مستقلا مستفيضاً عن « الحركة الوطنية اليمنية » من حيث نشأتها وتطورها وأبرز ملامحها وأثرها فى تاريخ اليمن الحديث والمعاصر .

(١) الجرافى : المقتطب من تاريخ اليمن ، ص ١٥٧ .

كـانوا ينسـاقون وراء الـدعـايات الأجنبيـة ذات الأطماع الاستعمارية فى بـلاده ، ولخوفـه الشديـد أن تنهـار مجهـوداته إذا مست النظم التـى وضعها بـالتغيير أو التطوير . وقد وصف محمد حسن المعارضة فى اليمن بقوله : « لا توجد فى اليمن معـارضـة تستطيع أن تظهـر رأيها كما هـو المألـوف فى العـراق ومصر والممالك الأخرى ، فلا جـرائد ولا أحزاب ولا هيئات ولا نواد ولا تشكيـلات سياسية ولا جمعيات ثقافية »[١] .

وأدى ازدياد وطأة المعارضة وموقف الإمـام منها إلى قيام صدام مسلح كان الإمام يحيى نفسـه ضحية له . ففـى ديسمبر سنة ١٩٤٧ اشتد المرض بـالإمام ، وتـولى عبـد الله الـوزيـر زمـام الأمـور ، فـأسرع البعض بتهنئتـه ونشرت بعض الصحف المصريـة - نقلا عن أخبـار عدن - نبأ وفـاة الإمام وتـولى ابن الوزيـر الحكم : « وكذبت الرياض فى الحال فى ١٦ ينايـر سنة ١٩٤٨ ما نشر فى القاهرة وبغداد عن إغتيـال الإمام ، وقيـام حكومـة ديمقراطيـة ، وأن السيد ابن الـوزير أصبح رئيساً للوزارة وأصبح الأمير إبراهيم رئيساً للجمهورية »[٢] وعجلت هذه الكـذبـة الكبيرة بالحوادث وكـانت من أكبر أسبـاب ثـورة ١٩٤٨ ؛ إذ أدت إلى كشف عناصر الثـورة وخططها قبل إتمام الاستعدادات اللازمـة . فقد حدث أن شفى الإمام من مـرضه ، فخاف رجـال المعارضة الـذين فى صنعاء على أنفسهم وخاصة لأن الإمام شرع فى اتخاذ التدابير الـلازمة للقضاء عليهم ، فاستدعى ولى عهده سيف الإسلام أحمد للحضور من تعز إلى صنعاء . وهنا دبر الثوار أمرهـم : « فاجتمعوا فى صنعاء ، وحضر الاجتماع الفضيل الورتلانى (من الجزائر) وكان قد وصل اليمن ، ودخله باسم العمل فى إدارة الشركة التجارية اليمنية ، وكذلك

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٠٨ .

(٢) Philby : Saudi Arabia, p. 349.

الضابط العراقى الرئيس جمال جميل ، وكان قد بقى باليمن لتدريب الجيش الدفاعى[١] . وقرروا قتل الإمام غيلة عند خروجه إلى مزارعه حول صنعاء للنزهة ، وندبوا لهذا الشيخ على ناصر القردعى ومعه خمسة عشر رجلا ، واغتيل الإمام ومن كان معه فى السيارة[٢] .وقد أسرع ابن الوزير بعد ذلك فاستولى على الحكم ، وأعلن فى اليوم التالى لمقتل الإمام مبايعته بالإمامة ، وأن الأهالى انتخبوه : « إمامًا شرعيًا ، وملكًا دستوريًا منفذًا لدستور الأمة ، كما أعرب عن استعداده للاسترشاد بآراء جامعة الدول العربية فى حدود ميثاقها»[٣]. وهذا ما جاء فى الكتب الكثيرة التى أرسلها ابن الوزير لرؤساء الدول العربية وملوكها ، وإلى أمانة جامعة الدول العربية . وقد طلب ابن الوزير كذلك من جامعة الدول العربية إرسال الطائرات - فضلاً عن التأييد - لإقرار الحال واستتباب الأمن فى اليمن . ويلاحظ كذلك أن رجال الثورة أذاعوا أن الإمام مات موتة طبيعية وبالسكتة القلبية ، ولكن الحقيقة عرفت بعد ذلك . وقد طلب رجال الثورة من الأمين العام لجامعة الدول العربية زيارة اليمن حيث يشاهد - كما جاء فى برقية حسين الكبسى وزير خارجية ابن الوزير- «بناء جديدًا على قواعد جديدة ، تضعها حكومة ديموقراطية فى ظل ملك ديموقراطى »[٤] . ولكن الأمانة العامة فضلت أن ترسل بعثة تمهيدية تمثلها للاطلاع على الأحوال هناك بعد الانقلاب ، وتمهد لزيارة وفد جامعة الدول العربية لليمن . وقد قررت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية : « إيفاد لجنة تضم ستة أعضاء يمثلون الدول العربية برياسة عبد الرحمن عزام الأمين العام إلى صنعاء إجابة لدعوة ملك اليمن الجديد ،

---

(١) عضو البعثة العسكرية العراقية ثم بقى فى اليمن بعد رجوعها .
(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٣٥٩ .
(٣) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٢ ، فى ١٩٤٨/٢/٢٠ ص ١ .
(٤) الأهرام نفس العدد والصفحة .

لحل ما قد يكون هناك من مشكلات »[١] . وقد قامت البعثة الخاصة التمهيدية بالفعل بزيارة صنعاء ، فاستقلت طائرة خاصة إلى هناك لاستطلاع الأحوال ، ونزلت الطائرة بجدة لأخذ الوقود الكافى للذهاب إلى صنعاء والرجوع منها ، وقد وصلت البعثة إلى صنعاء ورأت هدوء الحال هناك ، وأبرق حسين الكبسى إلى أمانة الجامعة العربية بوصولها ، وشكر الأمانة على هذا الاهتمام . إلا أن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً إذ بدأ سيف الإسلام أحمد يعمل على استرجاع العرش ، فخرج من تعز عقب إعلان الانقلاب مباشرة إلى « حجة »[٢] . وعمل على جمع القبائل حوله مستغلاً فقرها وحاجتها ، وأغراها بالغنائم الوفيرة ، فأباح لها نهب المدن المختلفة وخاصة صنعاء بما فيها من مخازن وقصور خاصة بالحكومة ، وأحرز سيف الإسلام أحمد نجاحًا فى زحفه حتى حاصر صنعاء وأصبح مركز الحكم الجديد حرجًا للغاية ، ولم يعد نفوذه يتعدى مدينة صنعاء[٣] ، رغم أن جنوب الهضبة اليمنية ووسطها وتهامة ظلت مدة طويلة موالية للثورة .

وقد وجدت الحكومة الجديدة الصد من الدول العربية ، كما لاقت دعواتها للمساعدة آذانًا صماء ، فلم يصلها أى تأييد أو معونة ، بالرغم من أن إرسال بعثة تمهيدية من الجامعة العربية ، والتفكير فى إرسال وفد خاص لليمن كان يعتبر اعترافًا ضمنيًا بالوضع القائم هناك . وقد وقف الملك ابن السعود من الانقلاب موقفًا عدائيًا صريحًا ، فلم يرد أولاً على البرقية التى أرسلها ابن الوزير له عقب قيام الثورة ، كما قابل وفد ابن الوزير الذى زار الرياض طلبًا للمساعدة بفتور شديد . وقد كان ابن السعود يهمه الأمر كثيرًا ، ويخاف انتشار هذه الأفكار والأعمال الثورية فى بقاع الجزيرة ، لذلك وقف

---

(١) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٣ فى ٢٢/ ٢/ ١٩٤٨ .

(٢) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٢ فى ٢٠/ ٢/ ١٩٤٨ ، ص ١

(٣) Philby : Saudi Arabia, p. 350.

هذا الموقف العدائى . وقد ظهر ذكاء ابن السعود وسياسته فى أنه سمح لوفد ابن الوزير أن يتكلم أمامه كثيرًا فى اجتماع عام ، وأن يشرح أعماله وأغراضه حتى انتهى من حديثه وعرف منه كل شىء ، عندئذ صرخ فى وجه أعضاء الوفد غاضبًا : « كيف تستطيعون الحضور إلى وتطلبون معونتى وأنا صديق سيدكم » ثم أشار بأصبعه إليهم وقال : « أنتم أيها الناس قتلة . . وقد أتيتم إلى كضيوف عندى ، وأسمعتمونى ما عندكم ، وأنا لا أستطيع إلا أن أقول لكم : اتركو ا بلادى »[١] . أما وفد جامعة الدول العربية فلم يصل إلا إلى جدة ، إذ استدعاه الملك عبد العزيز إلى الرياض وأبقاه هناك للمماطلة . وقد أفهم الملك الوفد بأن : الوضع قد التهب فى اليمن بعدما بدأ ولى العهد يعمل للاستيلاء على الحكم ، وأن مطار صنعاء قد حرقه البدو وبعض العناصر الفوضوية ، لذلك فضل الوفد أن ينتظر ليرى ما يستقر عليه الأمر أخيرًا[٢] .

وكان الملك عبد العزيز يلعب بذلك دورًا خطيرًا فى تاريخ اليمن فى تلك الفترة . فقد نجحت خطته فى تعطيل وفد جامعة الدول العربية عن مواصلة سيره إلى « صنعاء » حتى لا يقوى بذلك ساعد الثورة . وأرسلت « صنعاء » وفدها إلى الرياض لتستعجل سفر وفد الجامعة إليها ، ولكن خاب مسعاه – ووفد صنعاء هذا هو الذى طرده الملك عبد العزيز بعد مقابلته – وعمل الملك كذلك بالاتفاق مع القاهرة وعمان على ألا يقابل وفد «صنعاء » أمين الجامعة فى الرياض بحجة مرض الأمين ، ففشل الوفد فى توضيح أغراض الثورة ومطالبها ، هذا فضلاً عن مساعدته لسيف الإسلام أحمد بالمال والسلاح . وفى أثناء ذلك استطاعت قوات سيف الإسلام أحمد أن تدخل صنعاء فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٨ وأخضعت ابن الوزير وأعوانه وقبضت

---

(١) Philby : Saudi Arabia, p. 101.

(٢) Philby : Arabian, Jubilee, p. 191.

عليهم وأرسلتهم مكبلين إلى « حجة » المقر المؤقت للملك الجديد الإمام أحمد ، وتم إعدامهم هناك . أما « سيف الحق إبراهيم » فقد سجن فى قصر صغير بجوار قصر الإمام فى « حجة » ولكنه مات مسمومًا بعد حوالى ٣ أشهر .

ونحب أن نشير إلى أمرين هامين بخصوص هذه الثورة وخاصة أنها تعتبر نهاية لحكم الإمام يحيى ونهاية لحياته .

الأمر الأول هو معرفة موقف الجهات المختلفة الخارجية من هذه الثورة ، ونقصد بالذات معرفة موقف البلاد العربية وإنجلترا لأن الأمر كان يهمهم بشكل مباشر . تبلور موقف الحكومات العربية من هذه الثورة فى صورة معينة ، هى الصد والحذر ، وذلك لخوفها من انتشار روح الثورة خارج حدود اليمن ، ولأن عناصر الثورة لم تكن بالقوة بحيث تستطيع أن تقنع الحكومات العربية بأهميتها ورسوخها وبقدرتها على المحافظة على الأمن داخل اليمن ، ولأن هذه الأحداث قد انتهت بسرعة على يد قوات ولى عهد الإمام يحيى ، فلم تلبث حكومة الثورة فى الحكم إلا حوالى شهر .

وقد اتضح الموقف العربى بجلاء فى موقف ابن السعود العدائى الذى شرحناه قبل ذلك ، وفى موقف جامعة الدول العربية التى فضلت اتخاذ خطوات تدريجية د ون الاندفاع لاتخاذ موقف معين . وكان موقف الجامعة يعكس بوضوح موقف الحكومات العربية من الثورة اليمنية ، ويعبر عن رغبتها فى القضاء عليها خوفًا من انتشار عدواها إلى باقى أجزاء الوطن العربى . وعلى كل حال لم تلق الثورة إلا تأييدًا أدبيًا قليلاً من ناحية الجماعات الشعبية العربية وخاصة جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، وقد ذهب بعضهم إلى صنعاء قبل الانقلاب بقليل[1] . أما إنجلترا فقد كانت تميل فى الحقيقة إلى أن تقف موقفًا حذرًا من الثورة . فهى من ناحية كانت تكره الإمام

---

(١) Philby : Saudi Arabia, p. 350.

يحيى لموقفه العدائى ودعـايته ضدها لخدمة مصالحه على الرغم مـن أنه قد عقد معهـا معاهـدة ١٩٣٤ . ولذلك كـان يهمها إزاحتـه من طريقهـا ، وجعلت من عـدن ملجأ أمينًا للعنـاصر المعاديـة للإمـام ، فتركز فيهـا نشاط تلك العنـاصر بالـرغم من أنها كانت رسميًّـا تطالبهم بألا يقـوموا بأى نشـــاط سيـاسى معادٍ لـلإمـام حيث إنها حليفة لـه ، كما تقضى معـاهـدة سنة ١٩٣٤ . وكـان قصـد إنجلترا من وراء إيـوائهم فى عدن هـو مساومـة الإمام بـاستمرار والتلـويح بهم كورقـة رابحة فى أيـديها . وكانت إنجلترا كـذلك تجبر هـؤلاء عند الضرورة على وقف نشـاطهم ، أو على الخروج من عـــدن إذا اقتضت الحاجـة ، أو إذا هـاجموا الاستعمار الإنجليـزى بعدن . ويقـال إن حاكم عـدن قد تبـادل المكاتبـات مع الأمير إبراهيم عند فراره إلى عدن ، وأن الحاكم قد طلب من الأمير بألا يقوم بأى نشاط سيـاسى ضد الإمام ، وأن الأمير إبـراهيم قد تعهد بهذا فعـلاً ، ولكن كان هذا كلـه شكلاً رسميًّا فقط ، فمن المعـروف أن كلا الطـرفين لم يراعيا مـا تعهدا به[1] . ومن ناحية ثانية ، كانت إنجـلترا تخاف أن تتهم بمسـاعدة الثورة حتى لا يقال عنهـا إنها تحاول التدخل فى شئون اليمـن الداخلية ، وبـذلك تثير ثائرة القـوى الأخـــرى المعنيـة بأمر اليمن ، ولكنهـا فى نفس الـوقت أرسلت بارجـة حربيـة رست أمام الحديدة . ومن ناحيـة ثالثة ، كانت إنجلترا تـرقب الأحداث بيقظة شـديدة ، لأنه كـان يهمها معرفـة موقف حكام اليمن الجدد منهـا . وكان رجال الثـورة على درجة من الوعى فلم يرغبـوا فى إثارة العداء معها بعـد قيامهم بالثورة مباشرة . فأرسل حسين الكبسى وزير الخارجيـة برقية إلى حاكم عدن قال فيهـا : « إن الحكومـة اليمنيـة يسرها أن تعتمـد من هـذه اللحظـة على صداقـة بريطانيا المؤسسة علىٰ علاقـات الجوار الوديَّة ، وإنى لأفضل أن تكون بيننا وبين بريطـانيا هذه العلاقـات الوديَّة ، على أن تكـون مع أية دولة غربيـة أخرى ، وأن اليمن الحرة ستقدر حسن نياتكم حق التقدير »[2] .

---

(١) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٤ فى ٢٢/٣/١٩٤٨ ، ص ١ .

(٢) الأهرام : العدد ٢٢٥٢٠ فى ٢٠/٢/١٩٤٨ ، ص ٤٠ .

والأمر الثانى الذى نحب أن نشير إليه هو : ما هى دلالة الثورة فى تاريخ اليمن الحديث ؟ وما هو تعقيبنا عليها ؟ وما هى نتيجتها وآثارها ؟

لا شك أن الثورة كانت حدثًا كبيرًا فى حد ذاته فى تاريخ اليمن ، فهى تعبر عن طبيعة الشعب هناك ، وموقفه من حكم الإمام يحيى ، وتوضح أن النظم التى وضعها الإمام كانت غير صالحة ولا يمكن أن تستمر . ولكننا إذا كنا نعتبر أن الثورة هى عمل يؤدى إلى تغير أنظمة الحكم وأشخاصه ، فإننا يمكن أن نعتبر أن هذه الثورة - بالمفهوم الذى أشرنا إليه - كان أمرًا متوقعًا ، وكان الكثير من العناصر الداخلية والقوى الخارجية تنتظر وقوعه إن عاجلاً أو آجلاً . ولكننا أيضًا نحب أن نؤكد حقيقة هامة ، وهى أن حادثة الاغتيال لم تكن الشىء المتوقع حدوثه ، بل كان الشىء الوحيد المتوقع هو حدوث تغير ما ، وأن التغيير كان أمرًا ضروريًا تقتضيه مصلحة اليمن .

ولكن أحداث ثورة ١٩٤٨ وإمكانياتها الضعيفة ، والظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت بها ، جعلتها تبدو كأنها انقلاب وسرعان ما فشل . فلم تستطع الثورة أن تعبر عن نفسها أو أن توضح أغراضها ، ولم تؤد إلى تغيير يذكر ، وإن ظلت فى نفس الوقت الشرارة الأولى ذات الدلالات الواضحة والأثر الكبير فى تاريخ اليمن الحديث . حقيقة تمكنت الثورة من قتل الإمام ، والإعلان عن وجود كيانات وطنية حرة ، ولكنها لم تتمكن - نظرًا لعمرها القصير - من أن تغير شيئًا من الأوضاع ، فبمقارنة سريعة بين عهد الإمام يحيى وعهد الإمام أحمد يبدو أن الانقلاب كان حدثًا عارضًا فى تاريخ اليمن ، إذ عادت عجلة الأحداث هناك إلى ما كانت عليه ، وسار

الإمام أحمد على نفس السياسة التى رسمها الإمام يحيى . وسبب ذلك أن التطور التـاريخى لحكم الإمام يحيى الطـويل زمنيًـا ، قـد أدى إلى رسوخ نظم وأوضـاع معينة ، ولذلك فإننا نرى أنه كـان يجب العمل على تطوير هذه النظم والأوضاع نفسها داخل الإطـار التاريخى الخاص الـذى عاشـه اليمن ، على أن يحدث هذا كله فى خطـوات سريعة منـاسبة ، ولكنها حـازمة فى نفس الـوقت ، إذ إن الأمور التى وجدهـا الإمام والتى أوجدهـا هو وعمل على تثبيتها ، كـانت قد أصبحت أوضاعًا قائمة بذاتها ، وبـالتالى كان لا يمكن حلـها أو التخلص منها مباشرة ، بل كان لا بد من تطوير يشمل هذه النواحى كلها حتى يمكن التخلص منها . وليس المقصود بالتطور هنا هو أنه كان هناك أمل فى تطوير حكم الإمام يحيى أو أنه يصلح لذلك ، بل المقصـود هو أن يعمل الوطنيون على استغـلال تناقضات هذا الحـكم لتـوسيع القـاعدة الوطنية - من الناحيـة الكمية والكيفية - حتى لا تبـدو الثـورة حينـذاك وكأنها صراع بين أسرتين - أى صراع شخصى - على الحكم ، وهما أسرة حميد الديـن وأسرة ابن الوزير ، إذ لم يكن لابن الوزيـر قاعدة شعبيـة عريضـة ، غير هـؤلاء القلة من أبنـاء اليمن - مثل النعمان والـزبيرى - الـذين آمنوا بـالطريق الإصـلاحى لإنقـاذ بلادهم ، فـالتفوا حـول ابن الوزيـر باعتباره أكثر ميلاً للإصلاح ومستنيرًا بالنسبة للإمام يحيى .

وعلى كل حـال ، فقد نجح الإمام أحمد فى اسـترداد عرش أبيه ، ولكنه سار فى نفس الطـريق الـذى سار عليـه والـده ، وبنفس الأسلـوب . فـكان عهـده امتـدادًا لعهـد أبيـه ، وهـذا يـدل على مـدى أثـر الإمـام يحيى فى تـاريخ اليمن الحديث.



الخاتمة [١] :

هكذا بدأ عهد الإمام يحيى . . وهكذا انتهى . . وقد استمر فترة طويلة .

وقد رأينا أن الإمام اتبع نظام حكم غريب لا يتلاءم مع مقتضيات العصر أو احتياجات شعبه ، فأدى هذا بالتالى إلى تخلف اليمن وانعزاله عن التيارات الحضارية العالمية المتطورة باستمرار . وقد يقال إن عناصر المجتمع اليمنى وظروفه التاريخية والسياسية وغيرها قد ألزمت الإمام بنظم معينة كان من الصعب عليه تغييرها ، ولكننا نرفض هذا الحديث ، فإن العناصر المختلفة تحمل متناقضاتها فى داخلها ، وتعمل دائماً على التطور نتيجة تفاعل تراكماتها المستمر . ولكن الإمام لم يستجب لحتمية التاريخ ، وبذل جهده فى المحافظة على كل ما وجده من نظم وأوضاع وحارب كل تطوير وتجديد ، أو كل مطالبة بذلك - ولهذا كان الإمام يحيى نفسه ضحية سياسته وأفكاره - وعاش أثر تلك السياسة فى تاريخ اليمن طويلاً هناك بعد وفاته ، واستمرت الأسس التى تدعم وجودها أو التى دعم وجودها أو التى وضعها باقية تسيطر على أحداث اليمن .

وفى نفس الوقت استمرت قوى المعارضة فى تزايد ونمو - وهى عناصر تختلف فيما بينها من حيث الطبقة التى تنتمى إليها المصالح التى تدافع عنها أو المطالب التى تنادى بها - وقامت أكثر من محاولة لتغيير نظم الحكم والإطاحة بأسرة حميد الدين - وهى أسرة الإمام يحيى - عن الحكم ، وكان أهمها انقلاب عام ١٩٥٥ الذى استمر أسبوعًا فقط ، تمكن الإمام أحمد بعده من القبض على رجاله وأعدم زعيم الانقلاب وهو « أحمد الثلايا » . واستمرت هذه المحاولات بعد ذلك حتى قامت ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، وأعلنت انتهاء حكم الأئمة وقيام الحكم الجمهورى فى اليمن .

وكما قلنا إن قتل الإمام يحيى لم يؤد إلى إحداث التغيير المطلوب - نظرًا لبقاء العناصر والنظم التى حرص عليها الإمام كما هى - فإن إعلان الجمهورية فى اليمن لا يعتبر إلا نقطة انطلاق فقط فى طريق طويل شاق . فلا شك أن بناء اليمن الحديث - بعد التأخر الذى عاناه - يحتاج مجهودًا ثوريًا بطوليًا كبيرًا للتمكن من رفع مستوى الحياة هناك ، ومواجهة المشكلات المتراكمة التى حرص الأئمة على المحافظة عليها حتى يتمكنوا فى النهاية من البقاء على السطح ، يرفعهم التخلف والمتناقضات والتحكم فى مقدرات الشعب . ولا تقتصر المشكلات التى تواجه زعماء الثورة على النواحى المادية والحضارية فحسب ، بل إنها ذات طابع معنوى أيضًا . وهى تتمثل فى حاجة اليمن إلى الوحدة الوطنية ورفع مستوى الوعى الوطنى وذلك بقيادة حكومة ثورية وبالاستعانة بقوى المثقفين ، حتى يشعر البعض المتمرد من القبائل الجبلية - التى تتستر وراء الاستقلال الذاتى أو الاختلاف المذهبى أو حتى التى يدفعها فقرها المادى إلى التمرد - بأهمية الإندماج والمشاركة فى بناء أركان الجمهورية الفتية .

ولا شك أيضًا فى أن الحكومة اليمنية تحتاج أثناء عملية البناء إلى تعاون دولى ، وخاصة من الجهات العربية ، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة ، التى أخذت - فى شكل بطولى واضح - زمام المبادرة ، ووضعت كل إمكانياتها فى خدمة الجمهورية العربية اليمنية منذ قيام الثورة .



الملاحق

---

(١) وهى مرتبة حسبما ورد الإشارة إليها فى الرسالة . وقد حرصنا على جمع هذه المجموعة من الخطابات والمعاهدات لأهميتها ولإكمال الفائدة . وهى تشمل - بوجه خاص - المعاهدات التى عقدها الإمام يحيى مع الدول المختلفة .

- ١ -

كتاب الإمام يحيى
إلى وفد مكة من قبل السلطان العثمانى [(١)]
١٨ شعبان ١٣٢٥ (أكتوبر سنة ١٩٠٧)

شرح الإمام فى خطابه الطويل هذا وجهة نظره فى كيفية استقرار الأحوال فى اليمن . وهاجم فيه الولاة والموظفين العثمانيين باعتبارهم مصدر الفساد والاضطراب ، واتهمهم بالخروج على أوامر الدين ، ولكنه كان يعلن ولاءه للسلطان العثمانى وخضوعه له وبين فيه أيضًا ضرورة الاعتراف بوضعه الخاص حتى يتمكن من مراقبة تطبيق الشريعة والسهر على حمايتها . ويتضح فى الخطاب الصبغة الدينية بشكل كبير ، كما أنه يعبر خير تعبير عن أسلوب ذلك العهد فى اليمن . وقد أشرنا إليه فى الرسالة عند الكلام عن المجهودات السلمية لإنهاء المنازعات بين الإمام يحيى والسلطات العثمانية (راجع ص ٧٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . والصلاة والسلام على القائل من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار . وعلى آله المطهرين من الأرجاس ، المصطفين على كافة الناس ، وعلى صحابته الراشدين ، أولى العفة والعزيمة فى الدين .

---

(١) الواسعى . تاريخ اليمن ، ص ٢١١ - ٢١٨ .

أما بعد ، فإنه وصل إلينا كتاب جليل من علماء مهابط التنزيل ومعارج ميكائيل وجبرائيل ، السيد الجليل عبد الله بن عباس ، ورفقائه العلماء التسعة الأكياس : وأفرغ الله عليهم سحائب الرضوان والتسليم . وأوضح بحميد سعيهم الصراط المستقيم وصرف عنهم كل شيطان رجيم ، ونزههم عن خدمة ضمير كل جبار أثيم ، ووفقهم إلى مطابقة مراده ومر اد سلطان الإسلام وحامى حمى الدين القويم . متضمنًا للنصيحة ، معرفا بما دهم الإسلام من تكالب ذوى الملل القبيحة ، ملوحا بما لم يكن من مواد ، ومن حاد الله ورسوله ، ومعرفًا بما هو المعروف من حق وقدر سلطان الإسلام أيد الله به الدين ، ونصره على الكفرة والمشركين . فنقول :

الحمد لله الذى قيض لنا من يفهم الخطاب ، ويعرف الخطأ من الصواب ، ويدرك مدارك الأحكام . ويحكم الشرع الذى ارتضاه لنا العلام . وها نحن نقدم نفثة مصدور ، وزفرة محرور . اعلموا حماكم الله تعالى أن الله ، ولله الحمد ، اختار لنا دينًا قويمًا هو أشرف الأديان ، فبعث الله به أفضل الرسل سيد ولد عدنان . وأكمل له ذلك الدين ، فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ثم قبض الله رسوله إليه ، وقد أوضح المنهج وأزال العوج عن خير القرون . فما زال الإسلام ينمو ويرتفع ، والضلال ينقص ويتضع . وكان كلما حدثت بدعة أزيلت ، أو مظلمة ارتفعت ، حتى تولى ذو الملك العضوض ، فتناقص ذلك التمام ، وتكاثر الفساد من عام لعام . واختلف على الدين الولاة ، ومدت إلى جانب أعناقها لإبتلاع الإسلام العداة . ولمعت نيران الشر ، وظهر الفحشاء والمنكر . وكان ما كان من مغلوب وغالب ، ومطلوب وطالب . ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين ، وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين .

وكانت بلاد اليمن بيد أسلافنا من آل الأكرمين من المائة الثالثة إلى التاريخ[1] ، ولم ينفك قائم الحق عنها إما متوليًا لجميعها أو بعضها ، كما هو معروف فى تواريخ اليمن . وكانت المعارك مستمرة بين أسلافنا ومن ناوأهم

---

(١) يقصد إلى الآن (أى تاريخ كتابة الخطاب) .

لرغبة أهل اليمن فى ولاية ساداتهم وأولاد نبيهم رضى الله عنهم ، واعتقادهم وجوب توليهم ونصرتهم ، وكما يعرفونه من أحوالهم وأن لا إرادة لهم غير الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر المخوف ، وإقامة الشريعة وتعديل المائل ، وإرشاد الجاهل ، وتقريب المؤمنين ، وإبعاد الظالمين . ثم لما توجه أحمد مختار باشا من الحضرة السلطانية إلى اليمن ، وكان قائمًا ذلك الوقت الإمام محسن ابن أحمد وكان بينه وبين المأمورين ملاحم . ثم بعث الإمام شرف الدين ولا زال ظلم المأمورين يتضاعف من عام إلى عام وتنوعهم فى المعاصى وارتكاب الشهوات ظاهرًا بلا حياء ولا احتشام . ولما ظهر شىء أو زاد كثرت البغضاء في قلوب أهل اليمن للمأمورين ، فالإيمان يمان والحكمة يمانية ، حتى قام والدنا رضى الله عنه ، وقد ضرب ضلال المأمورين بجرانه . وتطاردت أفراس شهواتهم فى حلبة الفجور وميدانه ، فكانت بينه وبين المأمورين ما كان حتى مضى لسبيله ، ولحق بحزب جده الأمين وجيله . فانتصبنا لذلك المقام ، حين نفر أهل اليمن من مأمورى السلطنة على الدوام . ولم نقم والله لدرهم ولا دينار ولا لطلب علو ولا فخار . ولكنه أكرهنا على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ونحوها من صرائح الكتاب والسنة .

ثم كان بين أهل اليمن و المأمورين ما كان ، وكان منا غاية الإحسان لاتباع سلطان الإسلام ، كما قد عرفه ممن له بها كان أى إلمام . وعقد الصلح بيننا وبين المأمورين مؤكدًا بذمة الله وذمة رسوله مع إغفال النظر عن إمنكان الغدر وخفر الذمم .

فلم يرغمنا إلا محررات من الحاج أحمد فيضى باشا ، مشعرًا بها تقشعر منه الجلود من نقضه تلك العقود ، وخفره لتلك الذمم والعهود . فراجعناه ونصحناه وأعلمنا ه بما فى خفر ذمة الله من التعرض للوبال والاستعجال للنكال ، فما زاده إلا شدة وثقة بها كانت فى يده غير الله من العدد والعدة ، وكان

ما كان من إخراب الدور وسفك الدماء وذهاب الأموال ، ولم يكن منا إلا مجرد الدفاع المأمور به شرعًا ، ثم أردنا لسكون والانشغال بما أماته المأمورون من إحياء العلم الشريف وإقامة شريعة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم الناس معالم الدين ، وإرسال المعلمين إلى القرى لتعليم أهلها الصلوات ، فلم يشعرنا إلا تجاوز يوسف باشا الحدود ، وتبنيد الأبناد وتجنيد الجنود ، وإدخاله إلى طرف بلاد حاشد وإلى ما هو بأيدينا فلم يسعنا السكون فكان ما كان . نعم والمأمورون لم يزالوا يثيرون غضب السلطان على أهل اليمن ، ويستنجدون منه الأجناد المترادفة والأموال اللمتكاثرة ويشيرون باستئصال أهل البيت النبوى والدين المصطفوى . وينسبونا عندهم إلى الخوارج والرافضة وربما يخرجوننا عن دائرة الملة المحمدية ولا والله ما لنا مذهب غير ما كان عليه خير القرون والسلف الصالحون ، وإنا لنبرأ إلى الله من الخوارج والروافض وأهل البدع المحدثة ، والمأمورون يعرفون ذلك منا لكنه حداهم على ذلك ما جبلوا عليه من حب جمع الأموال والتسلق لأخذها من غير الوجه الحلال ، ولم يتم ذلك إلا باستمرار القتال ، والتنقل من حال إلى حال فتراهم يحسبون على الأموال الميرية ما يأخذونه على الأهالى بيد العدوان ، ويضاعفون أجر الحيوانات على أنهم كثيرًا ما يغتصبونها ولا يعطون أهلها شيئًا وهم مع ذلك على اللذات و الشهوات عاكفون وعلى التفنن فى الفجور يتنافس منهم المتنافسون فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجحدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير ج امع . وتعرفهم الكئوس والأقداح ، وتصافيهم أرباب القدوح الملاح . وكل هذا بين واضح سترونه عيانًا إن لم يضرب عنكم الحجاب ، وتوصد الأبواب . ومع ذلك تراهم يصادقون لرابطة عداوتنا كل ضال ، حتى أنهم ليقربون الباطنية الكفرة ويعطونهم كثيرًا من الأموال . ولا وأيم الله ، ما هذا دينونتهم الجامعة غير عدواتهم آل محمد ، مع أن مصادقتهم لمثل الباطنية فيما يزيدنا إلى الناس

حبًّا ويـزيدهم إلى النـاس كراهة وبغضًـا ، واسألوا أهل الإنصـاف عن جميع ما حررنـاه . ولقد أكثـر المـأمورون على سلطـان الإسلام تـزويدات الكـلام ، حتى خيلوا إليه أن محاربتنا أقدم من محاربة الكفـار الطغام وشغلوه بمحاربة آل النبى المختار . وفى خلال المدة السابقة أرسل سلطان الإسلام ، أيد الله به شريعة سيد الأنـام ، هيئة بعـد هيئة ، ومفتشين بعـد مفتشين ، وكلما خـرج أحد منهم تلقـاه المـأمورون بالإحسان وأدخلوا عليه من يتكلم بمرادهم ، وحالوا بينه وبين ما هو مأمور بإمضائه . وسيكـون ذلك أو نوع منه معكم أو قد كـان ، حتى لقد أرسلنا كتبًـا عديـدة إلى الباب العـالى من طرق شتى لم يعـد لنا جـواب رأسًا لاحتفـال المـأمورين بردها عن ذلك الباب .

وأمـا الأحـكام الشـرعية فما كأنهم أمـروا بغـير هـدمها ومحـو اسمهـا ، وطمس رسمها . فإنا لله وإنـا إليه راجعـون . عودًا على بدء ، النصيحـة مقبولة إن شـاء الله تعالى ، غير أنَّـا نحب أن تطلعوا على مـا دار بيننا وبين الـوالى أحمد فيضى ومن كاتب إلينا من المأمورين لتعرفـوا مسلكنا فى الإنصاف . وبعدنا عن الميل والاعتسـاف . وستعرفـون حقيقة الحال وهـا نحن ننشدكم الله والإسـلام ، وهل تجدون ناسخاً لـلأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر المخوف ؟ أم هل تجدون من محرم للدفـاع على الأموال والأعراض والنفـوس والبنات والبنين ؟ أم هل من مـانع لقتال من أضـاع أركان الإسـلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتفى الأثـر بـآيات قـرناء القـرآن والحجـة على الأمة فى كل عصر وأوان ، الـذين أوجب الله محبتهم على كل بنى الإنسان ؟ أم هل من ناسخ لآيات : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ . وإنا نحـذركم من دسائس المـأمورين فإن لهم طرقـاً إلى جلب أمثالكم إلى اتباع مقاصدهم ، كما انتخبوا لخدمة أفكارهم أناساً من أهل اليمن ، وجعلوا لهم آلهة فى كل مكان حتى بلغ بهم الحال إلى أن أرسلـوهم للوفادة للبـاب العالى للتعبير عنهم بما علمـوهم كما يفعلـونـه إذا وصل مثل حضراتكم أو مفتش فهم

يمرون عليه فى كل يوم بأماكن الأمـراء ، ويدلسون بأقوال لا يعبأون ولا يبـالون بظهور الكـذب فيها والافتراء . ثم ابحثوا عن العلـة الباعثة فإن من عـرف الداء عرف الدواء .

وإنـا نمـد إلى الله أكف الابتهـال أن يجعل على أيـديكم جبر كسر اليمن الميمون ، وأن يقذف فى قلب سلطـان الإسلام الرأفة والرحمة باستـدراك حشاشة أهله فهم مؤمنون .

وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرر فى ١٨ شعبان المعظم سنة ١٣٢٥ هـ .

- ٢ -

نص شروط الاتفـاق[1]

الذى تم بين الإمام يحيى واللواء أحمد عزت باشا

(المعروف باتفاق « دعان »)

أول شهر ذى القعدة عام ١٣٢٩هـ (١٩١١ م)

يعتبر هـذا الاتفـاق تـرضيـة للطـرفين المتنـازعين - الإمـام والعثمانيين - وهو نتيجة مجهودات حربية وسلمية طويلة ، وقد اعترف العثمانيين فيه للإمام بالشخصية الخاصة وبعض النفوذ الدينى باعتباره زعيماً لطـائفة دينيـة معينة.والاتفـاق فى جملته عبـارة عن مواد تنظيميـة لتحديد العلاقة بين الإمام والعثمانيين ، ولتحـديد اختصاصات الولاة والموظفين العثمانيين ، ولتوضيـح مدى سيطـرة العاصمـة العثمانية على ولايـة اليمن . ونصت مـواد الاتفاق كـذلك على نظم الحكم هنـاك ، وطريقـة جمع الضرائب ، وسير العمل فى المحاكـم المختلفة ، ومـراعاة الشريعـة الإسـلاميـة فى المسـائل المختلفـة ، وغير ذلك من الأمـور الإدارية . (راجع ص ١٣٦) .

---

١ - ينتخب الإمام حكـاماً لمذهب الـزيديـة ، وتبلغ الولايـة ذلك ، وهذه تخبر الآستانة لتصدق المشيخة على ذلك الانتخاب .

٢ - تشكل محكمة استئنافية للنظر فى الشكوى التى يعرضها الإمام .

٣ - يكون مركز هذه المحكمة صنعاء ، وينتخب الإمام رئيسها وأعضاءها وتصدق على تعيينهم الحكومة .

(١) الواسعى . تاريخ اليمن ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٩ .

ودعان : قرية صغيرة تقع فوق قمة جبل شمال غربى مدينة عمران .

٤ - يرسل الحكم بالقصاص إلى الآستانة للتصديق عليه من المشيخة وصدور الإرادة السنية به ، وذلك بعد أن يسعى الحاكم فى التراضى ولا يفلح ، ولا ينفذ الحكم إلا بعد التصديق وصدور الإرادة بشرط أن لا يتجاوز أربعة أشـــهر .

٥ - إذا أساء أحد المـأمورين (الحكام والعمال) الاستعمال فى الوظيفة يحق للإمام أن يبين ذلك للولاية .

٦ - يحق للحكومة أن تعين حكاماً للشرع من غير اليمانيين فى البلاد التى يسكنها الذين يتمذهبون بالمذهب الشافعى والحنفى .

٧ - تتشكل محاكم مختلطة من حكام الشافعية والزيدية للنظر فى دعاوى المذاهب المختلفة .

٨ - تعين الحكومة « محافظين » تحت اسم « مباشرين » للمحاكم السيارة التى تتجول فى القرى للفصل فى الدعاوى الشرعية ، وذلك دفعاً للمشقات التى يتكبدها أرباب المصالح فى الذهاب والإياب إلى مراكز الحكومة .

٩ - تكون مسائل الأوقاف والوصايا منوطة بالإمام .

١٠ - الحكومة تنصب الحكام للشافعية والحنفية فيما عدا الجبال .

١١ - صدور عفو عام عن الجرائم السياسية والتكاليف والضرائب الأميرية التى سلفت .

١٢ - عدم جباية التكاليف الأميرية لمدة عشر سنوات من أهالى «أرحب» و « خولان » لفقرهم وخراب بلادهم وارتباطهم التام بالحكومة .

١٣ - تؤخذ التكاليف الأميرية بحسب الشرع .

١٤ - إذا حصلت الشكوى من جباة الأموال الأميرية لحكام الشرع أو للحكومة فعلى هذه أن تشترك مع الحكام فى التحقيق ، وتنفذ الحكم الذى يحكم به عليهم .

١٥ - يحق للزيدية تقديم الهدايا إما تـوًّا وإما بواسطة مشـايخ الدولة أو الحكام .

١٦ - على الإمام أن يسلم عشر حاصلاته للحكومة .

١٧ - عدم جباية الأموال من جبل الشرق[1] لمدة عشر سنوات .

١٨ - يخلى الإمام سبيـل الرهائن الموجـودين عنـده من أهالى صنعـاء وما جاورها وحراز وعمران .

١٩ - يمكن لمـأمورى الحكـومة وأتباع الإمـام أن يتجولـوا فى أنحاء اليمن بشرط أن لا يخلوا بالسكينة والأمن .

٢٠ - يجب على الفـريقين أن لا يتعـديـا الحدود المعينـة لهما بعـد صـدور الفرمان السلطانى بالتصديق على هذه الشروط .

وإكمالا لهذه الشروط عين الإمام حكـاماً وكتابـاً للمراكز والنـواحى ونظاراً للوقف الداخلى والخارجى وللوصايا .

(١) مخلاف من مخاليف آنس وأهله فى غاية الفقر وبيوتهم تخربت مما حصل من المحاربة .

- ٣ -

خطاب سعيد باشا فى لحج
إلى القائد العثمانى أحمد توفيق باشا فى صنعاء[١]

٢ نوفمبر سنة ١٩١٨

على سعيد باشا هو قائد القوات العثمانية التى زحفت جنوبا إلى المحميات أثناء الحرب العالمية الأولى، وحاولت مهاجمة عدن وفشلت؛ مما اضطرها إلى الاستقرار فى لحج وما حولها من المحميات، حتى دعا الأمر إلى الانسحاب عند إعلان الهدنة العامة وانهزام الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، أما أحمد توفيق باشا فهو قائد عثمانى آخر للقوات العثمانية التى بقيت فى اليمن. وأهمية الخطاب تتمثل فى عدة نواح: **أولها**: أنه يحدد الأراضى التى استولى عليها على سعيد باشا وظلت تحت قبضته حتى انسحب منها. **وثانيها**: أن الخطاب يحمل رد على سعيد باشا على التهم الموجهة إليه بأنه سلم ما فى حوزته للإنجليز، ويعدد المجهودات والمتاعب التى واجهها هو وقواته فى هذه الحرب، ويرد التهم إلى قائليها الذين فى صنعاء - وهم الإمام، والوالى والقادة العثمانيين - وأنهم لم يشاركوا فى هذه الحملة بمجهود يذكر إلا إلقاء التهم وإطلاق الإشاعات. **وثالثها**: أن الخطاب يحمل نداء إلى الإمام أو من يهمه أمر المحميات بالحضور إلى الجنوب لاستلام ما تحت يده، ويشير تصريحاً وتلميحاً إلى تقاعد هؤلاء فى محاربة الإنجليز. وقد كان الأحرار اليمنيون فى القاهرة يرون أن هذا الخطاب (والخطاب التالى) وثيقتان هامتان تدينان الإمام يحيى بالتقاعد عن تلبية هذا النداء، وعدم انتهازه الفرصة لاسترجاع المحميات، وطرد الإنجليز من الجنوب العربى كله، وضم هذه البقاع إلى اليمن الأم، كما كان الحال قبل دخول الإنجليز المنطقة. (راجع ص ٢٢٣).

---

(١) أحمد فضل العبدلى: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن، ص ٢٥١ - ٢٥٤.

« إن القلاع المهمة والأراضى التى استرددناها من الإنجليز مثل قلعة باب المندب والشيخ سعيد وسواحل المخاوذ باب وكذا النواحى التسع الموجودة الآن تحت أشغالنا وتأثيرنا وهى :

لحج ، والصبيحة ، والحواشب ، والضالع ، ويافع العليا والسفلى ، وبلاد الفضلى ، تلك النواحى باعتبارها أوسع من لواء تعز فى داخل جنوبى اليمن ، وعلى الساحل من باب المندب إلى شقرة ما عدا شبه جزيرة عدن ، فجميع هذه الأراضى المذكورة فى قبضتنا ونحن المحافظون عليها . وأما البلدان التى تعود تابعيتها إلينا حضرموت ، وبلاد الصومال حتى بلاد الدناكل ، وقد عقدت مقاولاتهم بتابعيتنا وأوراق المقاومة المعقودة محفوظة بأيدينا تحت أسماء كل من الأمراء والمشايخ وعقال وأهالى البلدان المذكورة . أما المواقع والخطط الحربية والنقط المهمة الموجودة فيها قواتنا العسكرية ، وعليها المدار والمقابلة لباب عدن والشيخ عثمان فهى كما سيأتى :

(الدرب . وبير ناصر . ودار هيثم المسمى دار المشايخ . والمجهالة ، وكدمة الأصلع . وبير جابر . والمحاط . وبما أن حكومتنا المتبوعة قد قبلت أساسات الصلح مع حكومة إنكلترة وحلفائها ، وعقدت الهدنة بتاريخ ١٨ تشرين أول سنة ١٣٣٤ رومى ، وبعد أن أرست مراكب الإنكليز وحلفائهم فى مراسى دار السعادة بالصورة الودية ، وسويت أمور وضع المهادنة ، فبهذه الصورة التى هى عن قواعد الهدنة المبلغة رسميًّا من حكومة إنكلترة حصل هيجان عظيم بين العساكر والأهالى وفى داخل الخطط الحربية فتلافيت الأمر مسرعاً لأجل تسكين ذلك الهيجان ، ولكى نفهم من قريب نوايا العدو ، وكان ضروريًّا أن تلاقيت مع والى وقومندان عدن لأجل هذا الغرض ، ولتأمين المخابرة بين اليمن ودار السعادة لا لغرض آخر يوجب الشك وسوء الظن . وكما ظهر لى من جواب سيادة الإمام بتعبير كلمة (لقد ساءنا) قاصداً بهذا التعبير تقبيحى ،

ومـا حملـه على ذلك إلا مقـاصـدكم وأغـراضكم الخصـوصيـة لبعض أسبـاب كاشتراككم مع والى ولاية اليمن بنشرياتكم و إشاعـاتكم غير اللائقة والمخالفة للحقيقة ، قـاصدين بـذلك إهانتى عنـد عموم أهالى اليمـن المحترمين ، الذين ليس لهم وقوف على الحقيقة لسوء تفسيركم لها .

ولكنى قانع وقـائل إن كل ذلك ليس له عنـــدى أهمية بمثقال الذرة ، لمـا لى من ســوابق الخـدم ، خصـــوصـًا فى هـذه التربة المقدسة اليمانية ، وما قمت به من المحـافظة والمدافعـة والثبـات والمحـاربة المتواصـلة ضـد العدو فى باب المنــدب وبــاب عـدن منـذ أربع ســنوات ، وكل ذلك بمسـاعدة ومظـاهرة رؤســـاء مجاهـدى وأهــالى لواء تعز ، لمـا بذلـوا من أرواحهم وأموالهم خـدمة للدين والوطن .

أما حضرة الإمـام ، ووالى الولاية ، وجنـابكم ، فـلم يكن لكم نصـيب فى شيء من المعونة المـادية أو الفعلية نحونا ســوى الكلام لا غير ، مـع حرماننا من كل شيء .

ويشهد على ذلك كل من أرباب الشرف وأصحـاب الوجـدان ، من عموم أهالى اليمن من ذكر وأنثى حتى الصبيان . وفوق كل شيء ، فالتواريخ والوثائق ستبين ذلك بـالصراحة . والحاصل أن لليمن مفتـاحين مهمين ، هما لحج وباب المندب ، اللذين هما من أهم ما يكون لسلامة ومحافظة عموم اليمن ، فكل من له علاقـة وصلاحية من الـذوات فليشرف سريعًا لـلاستلام . أما نحن فقـد أمرت حكومتنـا المتبوعة المفخمـة بإجازتنـا ، وختمت وظيفتنا ، فلسنا مأذونين بـالبقاء بصفة محاربين فى هذا الوطن الذى نعتبره وطننا الثـانى . وقد كفانا ما لقيناه نحن العسـاكـر العثمانيين والفـدائيون فى هـذه المدة الطـائلـة من المتـاعب المضنيـة لـلأجسـاد ، والمفاداة بأرواحنـا العـزيـزة ضـد العدو وتحت قـذائف الطيـارات والمدافع (والمــكاين) وبين الـرمـال والخبــوت من غير مـاء فى أيـام الصيف

الجهنمى ونحن معرضون للحميات لشدة الرطوبة فى داخل الخنادق أيام الشتاء من جهـة ، ومن الجهـة الأخـرى كل هـذه الدمـاء التى أرقنـاهـا والأرواح التى أزهقناهـا فى هذا السبيل ، إنما هى للمحـافظة على عـرض وشرف ووجدان أهل اليمن المقـدس الـذى هـو من ضمن الحرمين الشريفين من تجاوز الأعـداء . والحالة هذه مع كونى لا زلت ولم أزل مضحيًـا بروحى ليلاً ونهارًا فى سبيل الدين والوطن ، وبحسب الوظيفة مع الحرمان الكلى ، ففـوق كل هذا يرمونا من بعيد بما يسهل على طبـاعهم ، ولكنـه عنـدنـا من أغلظ القـول ، مشيعين فيي حـزم وإصرار أنى لمقابل بعض المنـافع الخسيسة سأعيد لحجـا وما حوليها لـلأعداء . فإننا نـرجوكم خاصـة ، أن تتفضلوا بـالتبليغ لمن يلزم ، ليسارع بإرسـال أء كائن يكون ممن له حمية وطنية قهرمانيـة ، بالوفود إلى باب المندب وإلى لحج لاستلامهما قبل فوات الوقت . ومع أنى لا أقبل أصلا أن أكافأ بالتهم المهينة التى يقصدون بإذاعتهـا وافترائها أن يلصقـوها بـى ، ولمن المفتريات مـردودة ومعادة لمذيعيهـا وقائليها وناشريها بتمامها » .

قائد منطقة الحركات بلحج

أمير اللواء

على سـعيد

٢ تشرين ثانى سنة ١٩٣٤ رومى

- ٤ -

الخطاب الموجه من اللواء سعيد باشا إلى اللواء حسين باشا بصنعاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٨

اللـواء حسين باشـا قـائد عثماني آخـر باليمـن ، وكان بصنعـاء حينئذ ، وهذا الخطاب يشبـه الخطاب السابق ، ويحمل نفس الدلالات والأغراض . ولـكن يـلاحظ هنا أن على سعيد باشـا يكثر من الإشادة بالجهـود التى بذلها هو وجنده ، ويحمـل اليمنيين عامة والإمام خـاصة مسئولية المحافظـة على بلادهم وحدودهم . ويذكر أنـه وقواته تحملوا هذه المسئـولية مدة أربع سنـوات أثناء اشتعال الحرب العامـة وأن هذا هو واجب عرب اليمن الآن .

وهو يستغرب فى هذا الخطاب أمر القيادة العثمانية بصنعاء الذى يقضى بضرورة البقاء فى المحميـات وعدم تسليمهـا للإنجليـز ، إذ إنه يرى أن حكم ذلك يرجع إلى السلطنة العثمانية فى استانبول فقط ، وإلى ظروف الحرب العـالمية الأولى العـامة ، بل ويشير إلى أمـر هام فى نفس الوقت - وهو أن واجب القيادة والشعب اليمنى هو مساعدة الجيوش العثمانية فى اليمن على الوصول إلى أهاليهم وأوطانهم سالمين . (راجع ص ٢٢٣) .

حضرة أمير اللواء حسين باشا المتعاقد بصنعاء .

إن إشعاركم بخصـــوص وقوع بعض مظـاهرات وطنيـة فى صنعاء كما وقع

(١) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

فى بدايـة الحرب العموميـة ، وفى حرب طـرابلس الغرب ، وإن تـأمينات حضرة الإمام القوية فى غاية الوطنية والديانة لهو موجب للسرور .

إن مثـــل هـذه المظاهـرات لم تبـد لحـد الآن فعلياتها التـامة بالمـال والرجـال لمصلحة الحكومة السـنية . نتمنى أن نسمع ونرى تحقيق وقوعها بعد الآن ، وإجرائها فعلاً وتمامًا من أصحـاب البلاد الحقيقيين ، أريد أن أؤمل بعـد هـذه المظاهـرات ، أن أولاد اليمن لا يكونون متفـرجين ، كما كان الـواقع منذ أربع سـنين ، ولسان حالهم يقول نحـن نرتاح وعســاكر الترك يحـافظون على حـدود بلادنـا ، بل يسـعى كل صـغير وكبير منهم ويتقـدم بالغيرة التى لا تعـرف الملل إلى إيفاء واجبـاتهم الدينية والوطنية . أما نحن الأغـراب ، فجهادنا المملوء بالشرف فى الدفاع داخل الخنادق مع الحرمان التام من الوسائل قد ختم. ومن الآن فإن دور الجهاد حـربيًا وسياسيًـا وإداريًا لإخواننـا العرب ، فالـوظيفة الإنسانية الأولى التى تترتـب على عموم أولاد اليمن ، أن يقوموا بالمعـونة من كل الـوجوه للعثمانيين فى إيصــالهم إلى أوطانهم وأمهـاتهم ســالمين ، وأن يبذلـوا المروءة والسـعى فى ذلك شـكرًا ومكافأة للعثمانيين للمحـافظة على وطنهـم إلى الآن ، واستشـهاد الآلاف منهـم فى سـبيل دفع العـدو من أن يسـتولى على شبر من أرضهم .

وأؤمل أن يعترف بذلك حضـرة الإمام فقبـل كل أحـد ، إن الواجبات القطعية للأحوال العمـومية ، والأوامر الصـريحة من مركـز السـلطنة ، يستلزم مع الأسـف وداع العثمانيين لإخـوانهم العـرب المحـترمين بعيـون دامعة . ولم يبق محل هناك للتفسـير والتأويل . وإنى أنتظـر وصول كتابكم الذى ذكرتموه ، ولكنى أسـتغرب التوصـية لنـا بالثبـات من جنابكم . فالتمدح بالنفس عيب . وإنمـا التلغـرافات الـواردة من كل الجهات أجـبرتنى على القول بأنـه لا ينكر أحـد ما لقيناه فى اليمن مـدة أربع سنين من دروس الثبات والغيرة والشجاعة ،

وما بعثناه فى هذا الفيلق الذى كان فى حالة العجز والجمود فى بداية الحرب ، من روح الحركة والفتح والاسترداد للبلاد ، وجعلناه مثالاً لمن يقتدى به . ويعترف لى بذلك المخالفون أهل الحسد ، وإنى وإن كنت أشكر كلمات جنابكم ، وكلمات حضرة الإمام اللطيفة ، ولكنى أحتج على مثل تلك التواصى من الذين لا عمل لهم ولا أمل منذ أربع سنين سوى إملاء رؤوسهم ومعدهم ببخار العرق (الخمر) وملء صناديقهم بذهب هو ثمن دماء أولاد العثمانيين ، إن العساكر جميعًا بلحج مراض (مرضى) ومسببو مصائبهم بصنعاء ، فإذا أمكن انتظارنا فى لحج للأمر الأخير من حكومتنا ، فسنجتهد يا حضرة الباشا المحترم » .

قائد منطقة الحركات بلحج

١٢ تشرين ثان سنة ١٣٣٤ رومى — **أمير اللواء**

على سعيد

- ٥ -

المعاهدة اليمنية الإيطالية[1]

٢ سبتمبر سنة ١٩١٨

ترجع أهمية هذه المعاهدة إلى أنها أول معاهدة يعقدها الإمام يحيى مع دولة أجنبية ، وإلى أنها أول اعتراف دولى باستقلال اليمن وبأن الإمام ملكًا مستقلاً . وتعتبر المعاهدة كذلك تتويجًا لمجهودات إيطاليا الدبلوماسية فى المنطقة ، وفى مجال منافستها الاستعمارية مع إنجلترا بالذات .

وقد أدى هذا التعاهد إلى أن إيطاليا تمتعت بالحظوة والنفوذ فى اليمن طوال عهد الإمام يحيى - بل حتى نهاية حكم أسرته . وحرصت المعاهدة على تنظيم العلاقات بين الدولتين ، كما نصت على أن تقدم إيطاليا كل مساعدة إقتصادية وفنية لليمن ، وأن تقوم بينهما علاقات تجارية . وكانت مدة سريان المعاهدة عشر سنوات وجددت فعلاً عند نهاية هذه المدة . ونظرًا لأهميتها وللظروف التى لابستها حينئذ ، فقد نشر نصها فى صحف القاهرة وبغداد ودمشق فى آن واحد . وقد تبادلت الدولتان التصديق عليها فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٦ . وقد راجعنا هذا النص على ما نشر بالأهرام يومئذ . (راجع ص ٢٩١) .

مادة ١ : تعترف حكومة جلالة ملك إيطاليا باستقلال حكومة اليمن وملكها جلالة الإمام يحيى الاستقلال المطلق الكامل . ومع هذا فلا تداخل (تتدخل) حكومة إيطاليا المشار إليها فى مملكة جلالة ملك اليمن الإمام بأى أمر من الأمور التى تناقض ما فى الفقرة الأولى من هذه المادة .

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٣٤٥ - ٣٤٨

Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle Fast, Vol. II, pp. 146 - 147.

مادة ٢ : تتعهد الدولتان بتسهيل التبادل فى التجارة بين بلاديهما .

مادة ٣ : حكومة جلالة ملك اليمن تصرح بأنها ترغب أن تجلب طلباتها من إيطاليا ، وذلك فى الأشياء والآلات الفنية التى تساعد بجلب الفائدة فى نمو اقتصاد اليمن ونفعه ، وكذلك فى الأشخاص الفنيين . والحكومة الإيطالية تصرح بأنها تبذل جهدها حتى يصير إرسال الأشخاص والآلات الفنية والأشياء بأنسب وجه فى الأنواع والأثمان والرواتب .

مادة ٤ : ما ذكر فى المادة الثانية والثالثة لا يمنع حرية الطرفين فى التجارة والمطلوبات .

مادة ٥ : ليس لأحد من تجار المملكتين أن يجلب ويتجر فيما تمنعه إحدى الدولتين فى بلادها ، ولكل من الدولتين أن تصادر ما جلب إلى بلادها مما تمنع جلبه والتجارة فيه بعد الإشعار .

مادة ٦ : هذه المعاهدة لا يكون معمولاً بها إلا من حين تصل إلى جلالة ملك اليمن الإمام يحيى مصدقة من جلالة ملك إيطاليا .

مادة ٧ : تكون هذه المعاهدة جارية ومعمول بها لمدة عشر سنوات من بعد تصديقها ، كما فى المادة السادسة ، وقبل انقضاء مدة هذه المعاهدة بستة أشهر إذا أراد الطرفان تبديلها بغيرها أو تمديدها ، كانت المذاكرة فى ذلك .

مادة ٨ : ولما حرر فى هذه المواد فجلالة ملك اليمن الإمام يحيى وسعادة كفاليرى غاسبارينى بالوكالة عن ملك إيطاليا قد أمضيا هذه المعاهدة المحررة من نسختين متطابقتين باللغة العربية والإيطالية . ولعدم وجود من يعرف الترجمة عن اللغة الإيطالية معرفة تامة لدن جلالة ملك اليمن ، ولأن المفاوضة التى تمت

بين الطرفين بعقــد الودية التجــارية كان التفاهم فيها باللغة العربية ، ولأن سـعادة كفاليرى غاسبارينى قد تأكد أن النص العربى هو مطابق للنص الإيطالى تمامًا ، لذلك اتفقنا بأنه إذا نشأت شــكوك أو اختلاف فى تفسير النصين العـربى والإيطـالى ، فـالطـرفـان يعتمـــدان النص العـــربى وتفســيره بأصــول اللغة العربية واعتبار هـذا شرطًا .



- ٦ -

معاهدة مكة المكرمة[1]

بين الملك عبد العزيز آل السعود وبين الحسن الإدريسى

١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ (٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦م)

توضح هذه المعاهدة نوع العلاقات التى كان من الممكن أن تنشأ بين الوحدات السياسية فى الجزيرة العربية حتى النصف الأول من القرن العشرين . وهى معاهدة حماية فى المقام الأول أدت إليها الظروف التاريخية الخاصة بالمنطقة ، وكانت نتيجة مباشرة لضعف الإمارة الإدريسية الذاتى بعد وفاة مؤسسها السيد محمد الإدريسى ، ومحاولة الإمام يحيى الاستيلاء على الإمارة بالقوة ، مما دفع الأدارسة إلى الالتجاء إلى ابن السعود . وتنص المعاهدة على أن يتمتع الأدارسة باستقلالهم الذاتى فى إدارة إمارتهم ، على أن يكونوا تحت حماية الملك عبد العزيز آل السعود ، ويتضح فى المعاهدة بعض القيود التى فرضت على الإمارة - وخاصة فى الشئون الخارجية .

وتعتبر المعاهدة نقطة انطلاق النزاع بين المملكة اليمنية والمملكة السعودية . الذى انتهى بحرب عام ١٩٣٤ بين الدولتين ، كما تعتبر المعاهدة بداية اندماج عسير فى المملكة السعودية. (راجع ص ٣٢٣).

« رغبة فى توحيد الكلمة ، وحفظاً لكيان البلاد العربية ، وتقوية الروابط بين أمراء الجزيرة العربية ، قد اتفق صاحب جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وصاحب السيادة إمام عسير السيد الحسن بن على الإدريسى على عقد الاتفاقية الآتية :

(١) المنار : المجلد ٢٧ ، الجزء ١٠ ، ص ٧٩٨ - ٦٩٩ .

المادة الأولى : يعترف سيادة الإمام السيد الحسن بن على الإدريسى بأن الحدود القديمة الموضحة فى اتفاقية ١٠ صفر سنة ١٣٣٩هـ المنعقدة بين سلطان نجد و بين الإمام السيد محمد بن على الإدريسى ، والتى كانت خاضعة للأدارسة فى ذلك التاريخ ، تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بموجب هذه الاتفاقية .

المادة الثانية : لا يجوز لإمام عسير أن يدخل فى مفاوضات سياسية مع أى حكومة ، وكذلك لا يجوز أن يمنح أى امتياز اقتصادى إلا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الثالثة : لا يجوز لإمام عسير إشهار الحرب ، وإبرام الصلح ، إلا بموافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الرابعة : لا يجوز لإمام عسير التنازل عن جزء من أراضى عسير المبينة فى المادة الأولى .

المادة الخامسة : يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، بحكم إمام عسير الحالى على الأراضى المبينة فى المادة الأولى مدى حياته ومن بعده لمن يتفق عليه الأدارسة وأهل العقد والحل التابعين لإمامته .

المادة السادسة : يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بأن إدرة بلاد عسير الداخلية والنظر فى شئون عشائرها ، من نصب وعزل وغير ذلك من الشئون الداخلية ، من حقوق إمام عسير ، على أن تكون الأحكام وفق الشرع والعدل كما هى فى الحكومتين .

المادة السابعة : يتعهد ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، بدفع كل تعد داخلى أو خارجى يقع على أراضى عسير المبينة فى المادة الأولى وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الأحوال ودواعى المصلحة.

المادة الثامنة : يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها .

المادة التاسعة : تكون هذه المعاهدة معمولاً بها بعد التصديق عليها من الطرفين الساميين .

المادة العاشرة : دونت هذه الاتفاقية باللغة العربية من صورتين تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين .

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة مكة المكرمة .

وقعت هذه المعاهدة فى ١٤ ربيع الآخر ١٣٤٥هـ الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٢٦م .



- ٧ -

معاهدة جدة[١]

بين بريطانيا والملك عبد العزيز آل السعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

٢١ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ (١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧م)

كان الغرض من عقد هذه المعاهدة هو الاعتراف باستقلال المملكة العربية السعودية واستقلال ملكها وهى تلغى فى نفس الوقت معاهدة الحماية التى عقدت سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وبين عبد العزيز آل سعود أمير نجد حينئذ ، ويتضح هذا من نص المادة (٩) . ويلاحظ أن بريطانيا حرصت فيها على تحقيق جميع مصالحها ، مثل قيام العلاقات الودية بين البلدين ، وتسهيل تأدية فريضة الحج للمسلمين الذين تحت حكم بريطانيا أو حمايتها ، وتعهد ابن السعود بالحرص على العلاقات الودية مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العمانى ، الذين لهم معاهدات خاصة مع بريطانيا والرجوع إلى النص الإنجليزى للمعاهدة إذا اقتضت الحاجة (راجع ص ٣٣٤) .

المادة الأولى : الاعتراف بالاستقلال المطلق لممالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية : سيادة السلم والصداقة بينهما ، والمحافظة على حسن

(١) المنار : المجلد ٢٨ ، الجزء ٨ ، ص ٦٠٢ - ٦٠٦ (العدد الصادر فى ٣٠ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ الموافق ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٧) ونقلتها جريدة المنار عن جريدة «أم القرى» السعودية الصادرة فى مكة فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ .

العلاقات ، وعدم استعمال بلد كل منهما قاعدة عدوانية ضد الأخرى ، أو للأعمال غير المشروعة .

المادة الثالثة : تسهيل أداء الحج للرعايا البريطانيين ، والأشخاص المتمتعين بالحماية البريطانية من المسلمين .

المادة الرابعة : تسليم مخلفات الحجاج إلى المعتمد البريطاني لمن لا يوجد من يخلفه معه .

المادة الخامسة : الاعتراف بجنسية رعايا كل منهما عندما يوجدون فى بلاد الآخر ، على أن تراعى قواعد القانون الدولى .

المادة السادسة : يتعهد ملك الحجاز ونجد بعلاقات الود والسلم مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العمانى ، الذين لهم معاهدات خاصة مع صاحب الجلالة البريطانية .

المادة السابعة : التعهد بالتعاون بكل الوسائل الممكنة على إبطال تجارة الرقيق .

المادة الثامنة : إبرام هذه المعاهدة ، وتعتبر نافذة من تاريخ تبادل الإبرام ويعمل بها لمدة ٧ سنوات . وتبقى نافذة إذا لم يعلن أحد الفريقين قبل انتهاء ٧ سنوات بستة أشهر رغبته فى إبطالها ، وتعتبر باطلة بعد مرور ستة أشهر من تاريخ إعلان أحدهما إبطالها للآخر .

المادة التاسعة : المعاهدة المعقودة بينهما فى ٢٦/ ١٢/ ١٩١٥ ملغاة من تاريخ إبرام المعاهدة .

المادة العاشرة : دونت باللغتين العـربية والإنجليـزية ، وعنـد الاختلاف يرجع إلى النص الإنجليزى .

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة .

وقعت فى جـدة يـوم الجمعة ١٨ ذى القعـدة ١٣٤٥هـ (٢٠ مـايو سنـة ١٩٢٧م) وتبودل الإبـرام فى ٢١ ربيع الأول سـنة ١٤٣٦هـ (١٧ سـبتمبر سـنة ١٩٢٧م) .



- ٨ -

معاهدة صنعاء[(١)]

بين المملكة المتوكلية اليمنية والاتحاد السوفيتى

١١ جمادى الأول سنة ١٣٤٧هـ (أول نوفمبر ١٩٢٧م)

أحدثت هـذه المعاهدة دويًّـا كبيرًا فى الأوساط الدولية والعـربية عند عقـدها ؛ لأنها كانت أول معاهـدة تعقدها بلـد عربى مع الاتحاد السوفيتى ، فى وقت كان الشرق العربى مغلقًا أمام السوفيت نظرًا لوقوع معظم بلـدانـه تحت الاستعمارين الإنجليـزى والفـرنسى . وقـد انتهـز الاتحاد السوفيتى الفرصة فأسرع إلى الاتصـال بالإمام يحيى والملك عبد العزيـز ، لأنهما كانـا الحاكمين العربيين المستقلين حينئـذ ، كما استغل الإمام يحيى الفرصة أيضًا ، فعقد هذه المعـاهدة لتقوية جانبه فى نزاعه مع إنجلترا ، ولإجبـارهم على التفـاهم معـه . وتحمل المعـاهـدة طـابع التودد والتعـاطف ، وتشير فى مقدمتها إلى أنها بـداية لعلاقـات أقوى وأعمق . وتنص المعـاهـدة - إلى جـانب الاعتراف بـاستقـلال اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى - تنـص على تنظيم العلاقات التجارية بين البلدين ، وعلى ترتيب إقامة رعايا كل منهما فى بلد الآخر . (راجع ص ٣٣٨).

بنـاء على الاستصـواب والاستنسـاب المتقـابل من كل من حكـومـة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشـتراكية من طرف ، ومن حضـــرة صـاحـب الجلالة ملك اليمن الإمام يحيى ابن الإمام محمـد حميد الدين وحكومتـه من طرف آخر ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .
J C. Hurewitz, : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol, II, pp. 177 _ 178.

ورغبة الطرفين فى تأسيس المناسبات الرسمية الاعتيادية ، وفتح الصلات الاقتصادية بين بلاديهما ، وترقيتها وبنائها على أساس الصدق فى تنظيم العلاقات الودية بين الحكومتين وشعوبهما ، والاعتراف بالتساوى بين الطرفين فى كافة الحقوق وأحكامها العامة المرعية بين الدول والملل .

قد اتفق الطرفان المشار إليهما على عقد معاهدة الود والصداقة والتجارة هذه ، واعتبارها كمقدمة لما تستدعيه وتقتضيه الظروف المستقبلة عند ترقى الصلات الاقتصادية بين البلدين وتوسعها من إجراء المذكرات والسعى من الحكومتين المشار إليهما فى تنظيم الاتفاقات اللازمة كمثل تجارة وغيرها ، مما يرتضيه الطرفان ، فقررا الآن ما هو آت :

المادة الأولى : تعترف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بالاستقلال الكامل المطلق لحكومة اليمن ولملكها صاحب الجلالة الإمام يحيى ابن الإمام محمد حميد الدين . ويقدر صاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته صورة الاحترام الخالص والحسيات الجميلة التى تضمرها حكومة اتحاد الجمهويات السوفيتية الاشتراكية لدولة اليمن وشعبها وسائر الشعوب الشرقية، ووفاقًا لهذا فقد تأسس بين الطرفين المتعاهدين المناسبات الرسمية بموجب المقدمة المحررة آنفًا .

المادة الثانية : يتعهد الطرفان المتعاقدان بتسهيل المبادلات التجارية بين الدولتين ، ووفقًا لهذا التعهد يكون لكل من رعايا الدولتين فى بلاد الدولة الأخرى بعد الحصول على الإذن منها الدخول والإقامة طبق نظمها ، والعمل بالتجارة وإجراء معاملاتها التى تقتضيها على شريطة أن يكون فصل القضايا التى تحدث لكل من رعايا الطرفين فى المحاكم المحلية للدولة التى يوجدون فيها وفق نظمها ، وأن ما كان ممنوع الاتجار به فى قوانين إحدى الدولتين فلكل منهما منع أو مصادرة ما وجد فى بلدها من ذلك . ويتعهد

الطرفان المتعاقدان أن يساعدا بتطبيق كل تسهيل موافق للنظم المحلية فى معاملات رعايا الدولتين فى التجارة فيما يختص بالضرائب والرسوم الجمركية .

المادة الثالثة : توضع هذه المعاهدة فى موضع التطبيق وإجراء من الحكومتين بعد إمضائها وتصديقها على مقتضى الأصول الرسمية المعتادة من طرف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اعتبارًا من يوم وصول التصريح الرسمى من الحكومة المشار إليها إلى جلالة ملك اليمن الإمام يحيى.

المادة الرابعة : معاهدة الود والصداقة والتجارة هذه معمول بها وموضوعة فى موضع العمل والتطبيق مدة عشر سنوات اعتبارًا من التاريخ الذى ذكر فى المادة الثالثة ، وعند انقضاء المدة المذكورة يمكن تمديدها أو تبديلها بغيرها راجعًا إلى رغبات الطرفين المتعاقدين وما سيتفقان عليه فى المستقبل .

المادة الخامسة : تسمى هذه المعاهدة معاهدة صنعاء ، وهى تشتمل على مقدمة وخاتمة وخمس مواد ، هذه المادة إحداها ، وقد نظمت فى نسختين باللغة العربية لتداولهما بين الطرفين المتعاقدين .

الخاتمة : لكى تكون هذه المعاهدة مهيأة لاكتسابها صفة التصديق النهائى ، حسبما نصت عليه المادة الثالثة والرابعة ، قد أمضيت فى صنعاء عاصمة اليمن من طرف معتمد حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية حضره آسناخوف بالنيابة عن حكومته المشار إليها ، ومن طرف الإمام حضرة القاضى محمد راغب المندوب عن جلالة ملك اليمن الإمام المشار إليه ، بعد اتفاقهما على ما حوته من العبارات والمعانى الدالة عليها اتفاقًا تامًّا كاملاً ، وتحريرها فى ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٧ هـ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ م .

- ٩ -

معاهدة (العرو)[١]

بين المملكة المتوكلية والمملكة العربية السعودية

(وقعت فى ١٥ ديسمبر ١٩٣١ ، ووفق عليها فى يناير ١٩٣٢)

تعتبر هذه المعاهدة محاولة لإنهاء النزاع الذى نشب بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بعد أن أعلن الأخير حمايته على الأدارسة فى عسير . وقام هذا النزاع بسبب الاختلاف بين الملكين حول ملكية جبل « عرو » فى عسير على الحدود اليمنة السعودية . وقد انتهى النزاع بتنازل الملك عبد العزيز عن ملكية هذا الجبل للإمام يحيى . والمعاهدة تقليدية فى جوهرها فهى تنص على حسن الجوار والمحافظة على العلاقات الودية بينهما ، كما تنظم إقامة رعايا كل منهما فى الأخرى ، وتسليم هؤلاء لحكومتهم إذا اقتضت الضرورة ، وغير ذلك من المسائل التى تهم بلدين متجاورين تربطهما علاقات طيبة.(راجع ص ٣٤٦).

حسب الأمر من سيادة الإمام الأعظم يحيى بن محمد حميد الدين ، وجلالة الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، قد اجتمعنا من طرف الملكين لعقدة اتفاقية بين الحكومتين بموجب المواد المبينة أدناه .

المادة الأولى : أن يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم إدخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر .

المادة الثانية : يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية، كل حكومة عند طلب حكومته له.

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية (الكتاب الأخضر) ص ٢٢ - ٢٣ .

Survey of International Affairs, 1934, p, 313.

المادة الثالثة : يكون على كل من الدولتين معاملة رعـايا الدولة الأخرى فى بلادها فى جميع الحقوق طبق الأحكام الشرعية .

المادة الرابعة : يكون على كل من الدولتين الضبط والتسليم لرعايا الدولة الأخرى فى كل الحقوق الشرعية فيما أشكل ولم ينهه الأمراء ولا العمال فمرجعه إلى الملك والإمام .

المادة الخامسة : على كل من الدولتين عدم قبول من يفـر من طاعة دولته كبيرًا أو صغيرًا مستخدمًا أو غير مستخدم وإرجاعه إلى دولته حالاً .

المادة السادسة : إذا حـدث حادث من أحـد رعايـا الحكومتين فى بـلاد الأخرى فعلى المحدث أن يحاكم فى المحاكم التى وقع فيها الحادث .

المادة السابعة : منع الأمـراء والعمال عن التـداخل بالـرعـايا مما يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين .

المادة الثامنة : أن كل من يسكن من رعـايا الطـرفين فى بـلاد الآخر بعـد هذه الاتفاقية وتطلبه حكومته فإنه يساق إلى حكومته حالا .

هذا مـا حصل به التراضى بين المنـدوبين على أن يكون العمل بهذه الثمان مواد بعـد مصادقـة وموافقـة الملكين المعظمين عليها (وتحرر مـا ذكر أعـلاه من صـورتين بين كل فـريق صـورة بتـاريخ اليـوم الخامس من شهـر شعبـان سنـة ١٣٥٠هـ - ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣١) .

صـدق على هـذه المعـاهـدة وأصبحت سـاريـة المفعـول فى ١٥ رمضـان ١٣٥٠هـ (يناير سنة ١٩٣٢) .

❋ ❋ ❋

- ١٠ -

معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل بين اليمن وبريطانيا[1]

١١ فبراير ١٩٣٤

تأخر عقد هذه المعاهدة طويلاً نظرًا للظروف الخاصة بالعلاقات اليمنية البريطانية ، فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى والدولتان على خلاف ؛ مما أعطى إيطاليا والاتحاد السوفيتي الفرصة إلى أن يسبقا بريطانيا فى عقد معاهدتيهما مع الإمام يحيى . وتعتبر المعاهدة أول اعتراف رسمى من جانب بريطانيا باستقلال اليمن ، وباستقلال ملكها الإمام يحيى .

وقد أخرت بريطانيا إبرام هذه المعاهدة إلى سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وذلك حتى ينفذ الإمام يحيى مطالبها كلها ، وهى الإفراج عن الأسرى الذين قبض عليهم الإمام من أهالى المحميات ، والجلاء عن أجزاء المحميات التى احتلها الإمام أثناء الفترات السابقة .

ويلاحظ أن إنجلترا هى التى أحرزت الكثير من وراء عقد هذه المعاهدة ، فهى تنص على تأجيل البت فى مسألة الحدود ، وإلزام الإمام بمراعاة علاقات الود وحسن الجوار ، وجعل مدة العمل بالمعاهدة أربعين عامًا - وهى مدة طويلة تلفت النظر . وقد تحدثنا عن المعاهدة كثيرًا فى الرسالة وعن مقدماتها وعواملها ونتائجها ، وذلك نظرًا لأهميتها ولآثارها فيما بعد . (راجع ص ٣٧٢) .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .
Hurewitz, : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol, II, pp. 196 _ 197 .

المقــدمة : بما أن لجلالة ملك اليمن حضــرة الإمـام من جهـة ، وملك بريطـانيا العظمى وأيرلنـدا والممالك البريطانيـــة خلف البحـار وقيصـر الهند من الجهـة الأخــرى ، رغبة فى الـوصول إلى معـاهدة على أســاس الصــداقة والتعـــاون لمنفعـة الفـريقين ، قـد قررا عقـد هــذه المعاهــدة ، وعينا بصــفة المندوبين المفوضــين .

عن جـلالة ملك اليمن حضرة الإمـام حضرة صـاحب السعادة القـاضى محمد راغب بن رفيق .

وعن جلالـة ملك بريطـانيا العظمى وأيـرلندا والممالك البريطـانية خلف البحـار وقيصر الهنـد وأيـرلنـدا الشماليـة حضرة صـاحب السعـادة اللفتيننت كولـونيل برنـارد راودون ريلى س . ى . أوب المحـــترم اللذين بعـد تبليغ أوراق تفويضهما وتحقيق صحتها على شكل حسن اتفقا على ما يأتى :

المادة الأولى : يعترف جـلالة ملك بـريطانيـا العظمى وأيرلنـدا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الإمام ومملكته استقلالاً كاملاً مطلقًا فى جميع الأمور مهما كان نوعها .

المادة الثانية : يسود السلم والصداقة بين الفـريقين المتعاهدين الساميين اللذيـن يتعهدان بالمحـافظة على حسن العـلائق (العلاقـات) بينهما من جميع الوجــوه .

المادة الثالثة : يؤجل البت فى مسألة الحدود اليمنيـة إلى أن تتم مفاوضات تجرى بينهما قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة بما يوافق الفريقان المتعاهدان الساميان عليه بصورة ودية وباتفاق كامل بدون إحداث أى منازعة أو مخالفة .

وإلى أن تتم المفاوضـات المشار إليها فى الفقـرة السالفة الـذكر فالفـريقان المتعاقـدان الساميان يـوافقان على بقاء الـوضع القائم بالنسبـة للحدود كما هى

عليه عند تاريخ توقيع هذه المعاهـدة ، وأن يمنعا بكل ما لديهما من الوسائل أى تعد مـن قواتهما فى الحدود المذكورة ، وأى تـدخل من أتباعهما أو مـن جانبهما فى شئون الأهالى القاطنين فى الجانب الآخر من الحدود المذكورة .

المـادة الرابعـة : سيعقد الفـريقان المتعـاهدان السـاميان بعـد أن تصبح المعـاهدة الحاليـة نـافـذة المفعول ، وبنـاء على الموافقـة المتبـادلة ، مـا يلـزم من المعاهـدات لتنظيم الأمور التجـارية والاقتصـادية على أسـاس المبادئ الـدولية العـامة .

المادة الخامسة :

١ - رعايـا كل من الفريقين المتعـاهدين الساميين الـذين يرغبـون فى التجارة فى أقاليم الفريق الآخـر يكونون تابعين للقوانين والأحكـام المحلية ، ويتمتعون بنفس المعاملة التى يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية .

٢ - كـذلك سفن كل من الفـريقين المتعـاقدين السـاميين وشحنـاتها تتمتع فى موانى الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها ، وتعـامل ركاب تلك السفن فى موانى بلاد الفـريق الآخر بنفس ما يعامل به من كان فى سفن الدولة الأكثر رعاية هنالك .

٣ - تنفيذا لأغـراض هذه المادة فإن مـا يتعلق بجلالـة ملك بريطـانيا العظمى وأيرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند .

(أ) كلمة (أقاليم) ينبغى أن يعد معناها مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وأيرلنـدا الشمالية والهنـد وجميع مستعمرات جـلالته والبـلاد المحمية وجميع البـلاد المنتـدب عليهـا من قبل حكـومة جـلالتـه فى المملكـة المتحدة .

(ب) كلمة (رعايا) ينبغى أن يعد معناها جميع رعايا جلالته أينما سكنوا ، وجميع أهالى البلاد التى تحت حماية جلالته ، وكذلك جميع الشركات المؤسسة فى أى بلد من بلاد جلالته تعتبر من رعايا جلالته .

(جـ) كلمة (سفن) ينبغى أن يعد معناها جميع السفن التجارية المسجلة فى أى بلد من بلاد اتحاد الشعوب البريطانية .

المادة السادسة : هذه المعاهدة تكون أساسًا لكل الاتفاقيات التى ستعقد بعد ذلك بين الفريقين المتعاهدين الساميين حاليًا ومستقبلاً بقصد تقوية الود والصداقة ، ويتعهد الفريقان المتعاهدان الساميان بعدم تقديم المساعدة لأى عمل موجه ضد الود والصداقة المخلصة القائمة بينهما أو التستر عليه .

المادة السابعة : يصدق على هذه المعاهدة بأسرع وقت ممكن بعد التوقيع، وتتبادل وثائق التصديق فى صنعاء ، ويعمل بها من تاريخ تبادل التصديق ، وتبقى معمولاً بها لمدة أربعين سنة . وتقريرًا لذلك وقع المندوبان المفوضان المشار إليهما إمضاءهما على المعاهدة الحاضرة ، وقد كتبت هذه المعاهدة من نسختين باللغتين الإنجليزية والعربية ، وإذا نشأت شكوك فى تفسير شىء من هذه المواد فالفريقان المتعاهدان الساميان يعتمدان النص العربى .

حررت فى صنعاء اليمن فى يوم ٢٦ من شهر شوال سنة ١٣٥٢هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٣٤م .

❋ ❋ ❋

- ١١ -

معاهدة الطائف[١]

بين المملكة المتوكلية اليمنية والمملكة العربية السعودية

٦ صفر سنة ١٣٥٣هـ (١٩ مايو سنة ١٩٣٤م)

أنهت هذه المعاهدة المنازعات التي كانت قائمة بين اليمن والمملكة السعودية بسبب الاختلاف على ملكية بعض مناطق الحدود ، وغيرها من المسائل المعلقة التي تنشب عادة بين بلدين تجاورت حدودهما وتشابكت مصالحهما .

وتعتبر المعاهدة نتيجة مباشرة للحرب التي دارت رحاها لمدة سبعة أسابيع ، والتي نصت المعاهدة في مادتها الأولى على وقفها . وقد اتصفت المعاهدة حينئذ بأنها « أنشودة من أناشيد الوحدة العربية » . وهي رغم المبالغة في هذا الوصف - معاهدة شاملة ، احتوت على كثير من التفصيلات مثل : تحديد نقاط الحدود والقبائل ، أو القرى التي يمر بها خط الحدود ، وكذلك تنظيم العلاقات بين حكام هذه المناطق ، وغير ذلك من الأمور الخاصة بتنظيم العلاقات بين جارتين عربيتين ، ولذلك كله فهي تعتبر أطول معاهدة عقدها الإمام يحيى . ويلاحظ أن هذه المعاهدة نصت على ضم منطقتي عسير ونجران إلى المملكة العربية السعودية كما أنها

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٩٢ - ٢٠٢ (ونظرًا لأهميتها واهتمام العالم العربي حينئذ بأحداث الحرب اليمنية السعودية ، فقد نشرت جميع الجرائد العربية في عواصم العالم العربي نص هذه المعاهدة ، انظر الأهرام في ٢٤/٦/١٩٣٤ ، ص ٢).

توضح نوع العلاقات والصلات التى ربطت بين البلدين . وقد ألحق بالمعهد نص آخر عرف « بعهد التحكيم » يبين كيفية إنهاء المشاكل التى يمكن أن تثور بين البلدين - وخاصة مشاكل الحدود - عن طريق التحكيم ، حتى لا تؤدى هذه المشاكل إلى قيام الحرب بين البلدين مرة أخرى . وقد نالت هذه المعاهدة اهتماما كثيرًا فى الرسالة . (راجع ص ٤٠٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

نحن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية ، بما أنه قد عقدت بيننا وبين حضرة صاحب الجلالة الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة السعودية ، معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية لإنهاء حالة الحرب الواقعة لسوء الحظ بيننا وبين جلالته ، ولتأسيس علاقات الصداقة الإسلامية بين بلاديهما ، ووقعها مندوب مفوض من قبلنا ومندوب مفوض من قبل جلالته وكلاهما حائزان للصلاحية التامة المتقابلة، وذلك فى مدينة جدة فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهى مدرجة مع عهد التحكيم والكتب الملحقة بها فيما يلى :

معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية
بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية

حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن من جهة.

وحضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية من جهة أخرى .

رغبة منهما فى إنهاء حالة الحرب التى كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ، ورغبة فى جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها .

ونظرًا لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة :

وحبًّا فى تثبيت الحدود بين بلاديهما وإنشاء علاقات حسن الجوار وربط الصداقة الإسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما .

ورغبة فى أن يكونا عضدًا واحدًا أمام الملمات المفاجئة وبنيانًا متراصًّا للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية قررا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما ، وانتدبا لذلك الغرض مندوبين مفوضين عنهما وهما :

عن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن حضرة صاحب السيادة السيد عبد الله بن أحمد الوزير .

وعن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية حضرة صاحب السمو الملكى الأمير خالد بن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس مجلس الوكلاء .

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الآنفى الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق . وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التى بيد كل منهما فوجداها موافقة للأصول ، قررا باسم مليكيهما الاتفاق على المواد الآتية :

المادة الأولى : تنتهى حالة الحرب القائمة بين مملكة اليمن والمملكة العربية السعودية بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة ، وتنشأ فورًا بين جلالة

الملكين وبلاديهما وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة ، وأخوة إسلامية عربية دائمة لا يمكن الإخلال بها جميعها أو بعضها . ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التى قد تقع بينهما ، وبأن يسود علاقتهما روح الإخاء الإسلامى العربى فى سائر المواقف والحالات ، ويشهدان الله على حسن نواياهما ورغبتهما الصادقة فى الوفاق ، والاتفاق سرًّا وعلنًا ، ويرجوان منه سبحانه وتعالى أن يوفقهما وخلفاءهما وورثاءهما وحكومتيهما إلى السير على هذه الخطة القويمة التى فيها رضاء الخالق وعز قومهما ودينهما .

المادة الثانية : يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين إستقلالاً تامًّا مطلقًا وبملكيته عليها ، فيعترف حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن لحضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز ولخلفائه الشرعيين ، باستقلال المملكة العربية السعودية استقلالاً تامًّا مطلقًا ، وبالملكية على المملكة العربية السعودية ، ويعترف حضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود ملك المملكة العربية السعودية لحضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ولخلفائه الشرعيين باستقلال مملكة اليمن استقلالا تامًّا ، وبالملكية على مملكة اليمن . ويسقط كل منهما أى حق يدعيه فى قسم أو أقسام من بلاد الآخر خارج الحدود القطعية المبينة فى صلب هذه المعاهدة . إن جلالة الإمام الملك يحيى يتنازل بهذه المعاهدة عن أى حق يدعيه باسم الوحدة اليمانية أو غيرها فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو آل عايض أو فى نجران وبلاد يام ، كما أن جلالة الإمام عبد العزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أى حق يدعيه من حماية واحتلال أو غيرهما فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو غيرها .

المادة الثالثة : يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على الطريقة التى تكون بها الصلات والمراجعات بما فيها حفظ مصالح الطرفين وبما لا ضرر فيه على أيهما ، على أن يكون ما يمنحه أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر أقل مما يمنحه لفريق ثالث ولا يوجب هذا على أى الفريقين أن يمنح الآخر أكثر مما يقابله بمثله .

المادة الرابعة : خط الحدود الذى يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافى فيما يلى ، ويعتبر هذا الخط خطًّا فاصلاً قطعيًّا بين البلاد التى تخضع لكل منهما :

يبدأ خط الحدود بين المملكتين اعتبارًا من النقطة الفاصلة بين «ميدى » و « الموسم » على ساحل البحر الأحمر إلى جبال تهامة فى الجهة الشرقية ، ثم يرجع شمالاً إلى أن ينتهى إلى الحدود الغربية الشمالية التى بين « بنى جماعة » ومن يقابلهم من جهة الغرب والشمال ثم ينحرف إلى جهة الشرق إلى أن ينتهى إلى ما بين حدود « نقعة » و « وعار » التابعتين لقبيلة « وائلة » وبين حدود « يام » ثم ينحرف إلى أن يبلغ مضيق «مروان » و « عقبة رفادة » ، ثم ينحرف إلى جهة الشرق حتى ينتهى من جهة الشرق إلى أطراف الحدود بين من عدا « يام » من « همدان بن زيد وائلى » وغيره وبين « يام » فكل ما عن يمين الخط المذكور الصاعد من النقطة المذكورة التى على ساحل البحر إلى منتهى الحدود فى جميع جهات الجبال فهو من المملكة اليمانية ، وكل ما هو عن يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية ، فما هو فى جهة اليمين المذكورة هو « ميدى » و « حرض » وبعض قبيلة « الحرث » و « المير » وجبال «الظاهر » و « شذا » و « الضيعة » وبعض « العبادل » وجميع بلاد وجبال « رازح » و « منبه » مع « عرو آل مشيخ » وجميع بلاد وجبال « بنى جماعة » و « سحار الشام يباد » وما يليها ومحل « مريصعة » من سحار الشام

وعمـوم « سحار » و « نقعـة » و « وعـار » و عمـــوم « وائـلة » وكذا الفـرع مـع « عقبة نهـوقة » وعمـوم من عـدا « يـام » و « وادعـة ظهـــران » من « همـدان ابن زيـــد » هؤلاء المذكـورون وبـلادهم بحـدودها المعلـومـة ، وكل ما هـو بين الجهـات المذكـورة وما يليهـا ممـا لم يـذكر اسمـه ، ممـا كان مرتبطـًا ارتباطـًا فعليًا أو تحت ثبـوت يـد المملـكة اليمـانية قبـل ســنة ١٣٥٢ هـ ، كل ذلك هـو فى جهــة اليمين فهو من المملـكة اليمانيـة ، ومـا هــو فى جهة اليســـار المـذكورة وهو « الموســـم » و « وعـلان » وأكثر « الحـرث » و « الخـــوبة » و « الجـــابرى » وأكثـر « العبـادل » وجميـع « فيفـا » و « بنى مـالك » و « بنى حـــريض » و « آل تليـد » و « قحطـــان » و « ظهـران وادعة » وجميع « وادعـة ظهـران » مع مضيق « مـروان » و « عقبـــة رفادة » ومـا خلفها من جهـة الشرق والشمال من « يام » و « نجـــران » و « الحضـــن » و « زور وادعة » وســـائر من هـو فى نجـــران من « وائـــلة » وكل مـا هـو تحت « عقبة نهوقـة » إلى أطـراف نجـــران ويام من جهة الشرق ، هؤلاء المذكـورون وبلادهم بحدودها المعلومة ، وكل ما هـو بين الجهات المذكورة ومـا يليها ممـــا لم يذكر اسمـه مما كان مـرتبطًا ارتباطاً فعليًا أو تحت ثبـوت يد المملـكة العربية السعوديـة قبل سنة ١٣٥٢ هـ ، كل ذلك هو فى جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية ، وما ذكر من يـام ونجـــران و « الحضـن » و « زور وادعة » وسائر من هـو فى نجـران من وائـلة ، فهو بنـاء على ما كـان من تحـكيم جـلالة الإمام يحيى لجـلالة الملك عبـد العزيـز فى « يام » والحكم من جـلالـة الملك عبد العـزيز بأن جميعهـا تتبع المملكة العربيـة السعودية ، وحيث إن « الحضـن » و « زور وادعـــة » ومن هـو من وائلـة فى نجـــران هم من وائلـة ، ولم يكن دخـــولهم فى المملكـة العـــربية الســـعودية إلا لمـا ذكـر ، فـذلك لا يمنعـــهم ولا يمنـع إخـــوانهم وائـــلة من التمتع بالصـــلات والمواصـلات والتعاون المعتـاد والمتعارف به . ثم يمتـد هذا

الخط من نهاية الحدوود المذكورة آنفًا بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدا « يام » من « همدان بن زيد » وسائر قبائل اليمن ، فللمملكة اليمانية كل الأطراف والبلاد اليمانية إلى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات وللمملكة العربية السعودية كل الأطراف والبلاد إلى منتهى حدودها من جميع الجهات ، وكل ما ذكر فى هذه المادة من نقط شمال وجنوب وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود فى اتجاه الجهات المذكورة ، وكثيرًا ما يميل لتداخل ما إلى كل من المملكتين . أما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على أكمل الوجوه ، فيكون إجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل .

المادة الخامسة : نظرًا لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى دوام السلم والطمأنينة والسكون وعدم إيجاد أى شىء يشوش الأفكار بين المملكتين فإنهما يتعهدان تعهدًا متقابلاً بعدم إحداث أى بناء محصن فى مسافة خمسة كيلو مترات من كل جانب من جانبى الحدود فى كل المواقع والجهات على طول خط الحدود .

المادة السادسة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يسحب جنده فورًا عن البلاد التى أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الأهلين والجند عن كل ضرر .

المادة السابعة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع كل منهما أهالى مملكته عن كل ضرر وعدوان على أهالى المملكة الأخرى فى كل جهة وطريق ، وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادى من الطرفين ، ويرد كل ما ثبت أخذه بالتحقيق الشرعى من بعد إبرام هذه المعاهدة وضمان ما تلف

وبما يلزم بـالشرع فيما وقع مع جنايـة قتل أو جرح ، بـالعقوبـة الحاسمة على من ثبت منهم العـدوان . ويظـل العمـــل بهذه المـــادة ساريًــا إلى أن يـوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق وتقدير الضرر والخسائر .

المادة الثامنة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهدًا متقابلاً بأن يمتنعا عن الرجوع للقـوة لحل المشكلات بينهما وبأن يعملا جهدهما لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من اختـلاف ، سواء كـان سببـه منشؤه هـذه المعاهـدة أو تفسير كل أو بعض مـوادهـا ، أم كان نـاشئًـا عن أى سبب آخـر بالمراجعـات الودية . وفى حـالة عدم إمكان التوفيق بهذه الطـريقة ، يتعهد كل منهما بأن يلجأ إلى التحكيم الذى تـوضح شروطه وكيفية طلبـه وحصولـه فى ملحق مرافق بهذه المعاهدة ، ولهذا الملحق نفس القوة والنفوذ اللـذين لهذه المعاهدة ويحسب جزءًا منها أو بعضًا متممًا للكل فيها .

المادة التاسعة : يتعهـد كل من الفريقين السـاميين المتعاقـدين بأن يمنع بكل ما لديه من الوســائل المـادية والمعنوية ، استعمال بلاده قاعدة ومركزًا لأى عمـل عـدوانى أو شروع فيـه أو اســـتعداد لـه ضـد بلاد الفريق الآخــر ، كما أنه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجـــرد وصول طلب خاطئ من حكومة الفريق الآخر وهى :

١ - إن كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوبة منها اتخاذ التـدابير ، فبعـد التحقيق الشرعى وثبـوت ذلك يؤدب فـورًا من قبل حكـومتـه بالأدب الرادع الذى يقضى على فعله ويمنع وقوع أمثاله .

٢ - وإن كان الســاعى فى عمل الفســاد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير ، فإنه يلقى القبض عليـه فورًا من قبل الحكومة المطلوبة منهـا ويســلم إلى حكومتـه الطالبة ، وليس للحكومـة المطلوب منها التسليم عــذر عن إنفـاذ الطلب ، وعليها اتخــاذ كافة الإجـراءات لمنع فرار الشخص المطلـوب أو تمكينه

من الهرب وفى الأحـوال التـى يتمكن فيهـا الشخص المطلـوب مـن الفـرار فإن الحكومـة التى فر من أراضيها تتعهـد بعدم السماح لـه بالعودة إلى أراضيهـا مرة أخرى ، وإن تمكن من العودة إليها يلقى القبض عليه ويسلم إلى حكومته .

٣ - وإن كـان الساعـى فى عمل الفساد من رعـايـا حكـومة ثـالثـة ، فإن الحكومة المطلوب منها والتى يوجـد الشخص على أراضيها ، تقوم فورًا وبمجرد تلقيهـا الطلب من الحكـومة الأخـرى بطـرده من بـلادها ، وعـده شخصًـا غير مرغوب فيه ، ويمنع من العودة إليها فى المستقبل .

المادة العاشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعـاقدين بعدم قبول من يفر عن طاعـة دولته كبيرًا كان أم صغيرًا ، موظفًا كـان أم غير موظف ، فردًا كـان أم جماعة ، ويتخـذ كل من الفريقين السـاميين المتعـاقدين كـافة التـدابير الفعالة من إدارية وعسكرية وغيرهـا لمنع دخول هؤلاء الفارين إلى حدود بلاده ، فإن تمكن أحدهم أو كلهم من اجتيـاز خط الحدود بالدخول فى أراضيـه فيكون عليه واجب نزع السلاح من الملتجئ وإلقـاء القبض عليه ، وتسليمه إلى حكومة بلاد الفار منهـا ، وفى حالة إمكان القبض عليـه تتخذ كافة الـوسائل لطرده من البلاد التى لجأ إليها إلى بلاد الحكومة التى يتبعها .

المادة الحادية عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الأمراء والعمال والموظفين التابعين له من الداخل بأى وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بـالذات أو بـالواسطـة ، ويتعهد بـاتخاذ كامل التدابير التـى تمنع حدوث القلق أو توقع سوء التفاهم بسبب الأعمال المذكورة .

المادة الثانية عشرة : يعترف كل من الفـريقين الساميين المتعـاقـدين بأن أهل كل جهـة من الجهات الصـائرة إلى الفريق الآخـر بموجب هـذه المعاهـدة رعيـة لذلك الفـريق الآخـــر . ويتعهـد كل منهمــا بعـدم قبـول أى شخص ، أو أشخاص من رعـايا الفريق الآخـر رعية له إلا بموافقـة ذلك الفريق ، وبأن

تكـون معاملـة رعـايا كل من الفـريقين فى بـلاد الفريق الآخـر طبقًـا للأحكـام الشرعية المحلية .

المادة الثالثة عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بإعلان العفو الشـامل الكامل ، عن سائر الإجـرام ، والأعمال العدائية ، التى يكـون قد ارتكبهـا فرد أو أفـراد من رعـايا الفـريق الآخـر المقيمين فى بلاده (أى فى بـلاد الفريق الـذى منه إصدار العفو) كما أنه يتعهـد بإصدار عفو عام شـامل كامل عن أفـراد رعـاياه الذين لجـأوا أو انحـازوا أو بأى شـكل مـن الأشـكال انضـموا إلى الفـريق الآخـر ، من كل جنايـة ، ومال أخـذوا منذ لجـأوا إلى الفريق الآخر إلى عددهم كائنًا ما كان ما بلغ ، وبعدم السماح بإجراء أى نوع من الإيـذاء أو التعقيب أو التضييق بسبب ذلك الالتجـاء ، أو الانحيـاز أو الشكل الذى انضموا بموجبه ، وإذا حصل ريب عنـد أى الفريقين بوقوع شىء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنـده الريب أو الشك من الفريقين مـراجعة الفريق الآخـر لأجل اجتماع المنـدوبين ، الموقعين على هـذه المعاهـدة ، وإن تعـذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحى ممن له كامل الرغبة والعناية بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الأمـر ، حتى لا يحصـل أى حيف ولا نـزاع ، وما يقـرره المندوبـان يـكون نافذًا .

المادة الرابعة عشرة : يتعهد كل من الفـريقين الساميين المتعاقـدين برد وتسـليم أمـلاك رعـايا الذين يعفى عنهم إليهم أو إلى ورثتهم ، عنـد رجـوعهم إلى وطنهم خاضـعين لأحـكام مملـكتهم ، وكـذلك يتعهـد الفريقـان السـاميان المتعـاقدان بعـدم حجز أى شىء من الحقـوق والأمـلاك التى تكون لرعـايا الفريق الآخـر فى بلاده ولا يعـرقل اسـتثمارها أو أى نوع من أنواع التصـرفات الشرعية فيهـا .

المادة الخامسة عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فردًا أم هيئة أم حكومة ، أو الاتفاق معه على أى أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر أو يضر ببلاده أو يكون من ورائه إحداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها ومصالحها أو كيانها للأخطار .

المادة السادسة عشرة : يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الإخوة الإسلامية ، والعنصرية العربية ، أن أمتهما أمة واحدة ، وأنهما لا يريدان بأحد شرًا ، وأنهما يعملان جهدهما لأجل ترقية شئون أمتهما فى ظل الطمأنينة والسكون ، وأن يبذلا وسعهما فى سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أية عداوة على أية أمة .

المادة السابعة عشرة : فى حالة حصول اعتداء خارجى على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الآتية:

أولاً : الوقوف على الحياد التام سرًا وعلنًا .

ثانيًا : المعاونة الأدبية والمعنوية الممكنة .

ثالثًا : الشروع فى المذاكرة مع الفريق الآخر لمعرفة أنجع الطرق لضمان سلامة بلاد ذلك الفريق الآخر ومنع الضرر عنها والوقوف فى موقف لا يمكن تأويله بأنه تعضيد للمعتدى الخارجى .

المادة الثامنة عشرة : فى حالة حصول فتن واعتداءات داخلية فى بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهدًا متقابلاً بما يأتى :

أولاً : اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين أو الثائرين من الاستفادة من أراضيه .

ثانيًا : منع التجاء اللاجئين إلى بلاده ، وتسليمهم أو طردهم إذا لجأوا إليها كما هو موضح (فى المادة التاسعة والعاشرة أعلاه) .

ثالثًا : منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين أو الثائرين وعدم تشجيعهم أو تموينهم .

رابعًا : منع الإمدادات ، والأرزاق ، والمؤن والذخائر ، عن المعتدين أو الثائرين ..

المادة التاسعة عشرة : يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما فى عمل كل ممكن لتسهيل المواصلات البريدية والبرقية وتزويد الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما . وفى إجراء مفاوضات تفصيلية ، من أجل عقد اتفاق جمركى ، يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية فى عموم البلدين ، أو بنظام خاص بصورة كاملة لمصالح الفريقين ، وليس فى هذه المادة ما يقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين فى أى شىء حتى يتم عقد الاتفاق المشار إليه .

المادة العشرون : يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لأن يأذن لممثليه ومندوبيه فى الخارج إن وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر متى أراد الفريق الآخر ذلك فى أى شىء ، وفى أى وقت ، ومن المفهوم أنه حينما يوجد فى ذلك العمل الشخصى فى كل من الطرفين ، فى مكان واحد ، فإنهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما ، للعمل العائد لمصلحة البلدين ، التى هى كلمة واحدة ، ومن المفهوم أن هذه المادة لا تقيد حرية أحد الجانبين بأية صورة كانت فى أى حق له كما أنه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو إضراره لسلوك هذه الطريقة .

المادة الحادية والعشرون : يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها فى ٥ شعبان سنة ١٣٥٠هـ على كل حال اعتبارًا من تاريخ هذه المعاهدة .

المادة الثانية والعشرون : تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل حضرة صاحبى الجلالة الملكين فى أقرب مدة ممكنة نظرًا لمصلحة الطرفين فى ذلك ،

وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات إبرامها مع استثناء ما نص عليه فى المادة الأولى من إنهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع . وتظل سارية المفعول مدة عشرين سنة قمرية تامة ، ويمكن تجديدها أو تعديلها خلال الستة الأشهر التى تسبق تاريخ انتهاء مفعولها ، فإن لم تجدد أو تعدل فى ذلك التاريخ تظل سارية المفعول إلى ما بعد ستة أشهر من إعلان أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر رغبته فى التعديل .

المادة الثالثة والعشرون : تسمى هذه المعاهدة بمعاهدة الطائف ، وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة ، وإشهادًا بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه . (٦ صفر سنة ١٣٥٣هـ - ١٩/ ٥/ ١٩٣٤) (عن اليمن عبد الله بن أحمد الوزير) ، (و عن السعودية الأمير خالد بن عبد العزيز آل سعود) .

عهد التحكيم بين مملكة اليمن وبين المملكة العربية السعودية

بما أن حضرة صاحبى الجلالة الإمامين الملك يحيى ملك اليمن . والملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ، قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة بمعاهدة « الطائف » على أن يحيلا إلى التحكيم أى نزاع أو اختلاف ، ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حله ، فإن الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان بإجراء التحكيم على الصورة المبينة فى المواد الآتية:

المادة الأولى : يتعهد كلٌّ من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل بإحالة القضية المتنازع عليها على التحكيم خلال شهر واحد من خلال استلام طلب إجراء التحكيم من الفريق الآخر إليه .

المادة الثانية : يجرى التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساوٍ من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم ، ومن حكم وازع ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين ، وإن لم يتفقا على ذلك يرشح كل منهما شخصًا ، فإن قبل أحد الفريقين المرشح الذى يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعًا ، وإن لم يكن الاتفاق على ذلك تجرى القرعة أيهما يكون وازعًا ، مع العلم بأن القرعة لا تجرى إلا على الأشخاص المقبولين من الطرفين ، فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيسًا لهيئة التحكيم ووازعًا للفصل فى القضية ، وإن لم يحصل الاتفاق على الأشخاص المقبولين من الطرفين ، تجرى المراجعات فيما بعد إلى أن يحصل الاتفاق على ذلك .

المادة الثالثة : يجب أن يتم اختيار لجنة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحد من بعد انقضاء الشهر المعين لإجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر ، وتجتمع هيئة المحكمين فى المكان الذى يتم الاتفاق عليه فى مدة لا تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين فى أول المادة ، وعلى هيئة المحكمين أن تعطى حكمها خلال مدة لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء المدة التى عينت للاجتماع كما هو مبين أعلاه . ويعطى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ، ويكون الحكم ملزمًا للفريقين ، ويصبح تنفيذه واجبًا بمجرد صدوره وتبليغه . ولكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين الشخص أو الأشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أمام هيئة التحكيم ، وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك .

المادة الرابعة : أجور محكمى كل فريق عليه ، وأجور رئيس هية التحكيم مناصفة بينهما ، وكذلك الحكم فى نفقات المحاكمة الأخرى .

المادة الخامسة : ويعتبر هذا العهد جزءًا متممًا لمعاهدة « الطائف » الموقع عليها فى هذا اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف ويظل سارى المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة .

وقد حرر هذا من نسختين باللغة العربية يكون بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة وقرارًا بذلك جرى توقيعه فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

(وقعه كذلك ابن الوزير ، وخالد بن عبد العزيز) .



- ١٢ -

المعاهدة اليمنية الهولندية[1]

١٥ ذى القعدة سنة ١٣٥١هـ (١٢ مارس ١٩٣٣م)

تعتبر هذه المعاهدة نموذجًا لعدد من المعاهدات القليلة التى عقدها الإمام يحيى طوال عهده الطويل . وهى جميعًا تنص على الاعتراف بدولة اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى - ولو ضمنيًّا - فى ديباجة كل منها وعلى سيادة السلم والصداقة بين كل منها .

وإلى جانب ذلك فهى تقضى بتبادل التجارة بين البلدين ، وتنظم إقامة رعايا كل منها فى بلد الأخرى ، وتبين كيفية معاملة تلك التجارة وهؤلاء الرعايا فى كل منها ، وهذه المعاهدة - وأمثالها - لا تزيد على أنها مفتاح لنوع من العلاقات المحددة بين البلدين ، وبداية لتبادل التجارة بينهما . وإلى جانب ذلك فهناك ملاحظة هامة ، وهى أن هذه المعاهدة - وأمثالها كذلك - تنص على أنه سيكون هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين ، ولكن لم تقم هذه العلاقات طوال عهد الإمام ؛ إذ من المعروف أنه لم يسمح بإقامة علاقة دبلوماسية أو تبادل الممثلين الدبلوماسيين مع أية دولة أجنبية . ومدة سريان هذه المعاهدة كانت خمس سنوات فقط ، وأن تجدد إذا رغب الطرفان ، وهذه هى عادة الإمام ، وهذا يدل على مدى التحديد الذى يرمى إليه عند عقد المعاهدات ، وإلى مدى الحذر الذى يواجه به العالم الخارجى عندما يبدأ فى إقامة العلاقات بينهما . (راجع ٤١٦) .

حضرة صاحب الجلالة ملك (قطعة) اليمن المستقلة وحاكمها المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المعظم .

---

(١) الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

وحضرة صاحبة الجلالة المعظمة ملكة بلاد هولندة المستقلة وحاكمتها المطلقة ويلهلمين المبجلة .

رغبة منهما فى تأسيس روابط الصداقة بين الدولتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة ولهذا عين :

من طرف جلالة ملك اليمن الإمام يحيى حضرة الكاتب الأول لعرش الدولة اليمنية صاحب السعادة القاضى محمد راغب بن رفيق .

ومن طرف جلالة ملكة هولندة حضرة مفوض جلالتها بجدة صاحب السعادة المسيو . ك . أدريانة ، مندوبين مفوضين عنهما ، وقد اتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : يسود بين دولة اليمن ودولة هولنده وبين رعايا كلتا الدولتين سلام لا يمس وصداقة خالصة مطلقة .

المادة الثانية : سيكون من كل من الفريقين الساميين المتعاهدين أثناء العلاقات السياسية والقنصلية بينهما فى الوقت الذى سيقرران تعيينه وعند ذلك يتمتع الممثلون السياسيون والقنصليون من كل منهما فى بلاد الأخرى بالمعاملة المقررة بمبادئ القانون الدولى العامة بشرط أن تكون هذه المعاملة متساوية .

المادة الثالثة : كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة فى بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والأحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التى يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية من كل الوجوه . وكذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهدين وشحناتها فى الموانى

الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الـدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه .

المادة الرابعة : حـاصـلات أرض كل مـن الفـريقين المتعـاهـدين ومصنوعـاتها تعامل فى دخـولها إلى بلاد الفـريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقـادير الرســوم والضرائب الجمركيـة وأخـذها بنفس المعـاملة التى تعامـل بهـا حاصـلات ومصنوعـات الدولة الأكثـر رعايـة ، وكذلك تأكيـدًا لهذا تعامـل حاصـلات الأرض والمصـنوعات التى تخـرج من بلاد أحد الفريقين إلى بلاد الفـريق الآخـر فيما يتعلق بتعيين مقـادير الرســوم والضـرائب الجمركيـة وأخـذها بنفس المعـاملة التى تعامل بها حاصـلات الأرض والمصـنوعات التى تخـرج إلى بلاد الدولة الأكثر رعاية .

المادة الخامسة : لقـد دونـت هـذه المعـاهـدة فى نسختين أصليتين متساويتين بـاللغة العربية واللغـة الهولندية ، وإذا نشأت شكـوك فى تفسير مادة من المواد ، أو تفسـير قسم من أى مادة كـانت ، فالطـرفان يعتمـدان النص العـربى . ومـن حيث إنهـا كـانت فى ملحقـات مملـكة هولنـدة فى خـارج أوروبا بعض قـوانين وأحكام مخـالفة لقـوانين وأحـكام بلاد هولنـدة فى أوروبا ، فقـد اتفـق الفريقـان السـاميان المتعـاقدان على أن تطبيـق هـذه المعـاهدة فيما يخص دولـة هـولنـدة سـيكون مقتصرًا على بلاد مملكـة هولنـدة الأوروبـاويـة وسيكون إبرامها وتبادل الوثائق بأقرب وقت ، وتصير نافذة المفعول بمجرد تبادل الوثائق المبرمة .

وقد اتفق الفريقـان المتعاهدان على عقد هذه المعـاهدة لمدة خمس سنوات اعتبارًا من تاريخ تبادل الوثائق المبرمة على أنه إذا أراد أحد الفريقين المتعاهدين إلغاء هذه المعـاهدة بعد انقضاء مدتها يجب أن يشعر الفـريق الآخر بمراده قبل انتهاء المدة بستـة أشهر وإلا استمرت هـذه المعاهـدة ، ولا تلغى إلا بعد مضى

ستة أشهر من حين إشعار أحد الفريقين للآخر بإرادته إلغاءها . وتبيينًا لهذا قد صار تـوقيع هذه المعـاهدة من حضرتى مفـوضى الفريقين المشـار إليهما ووضعا أختامهما عليها.

حــرر بصــنعاء اليمن بتاريخــه ١٥ ذى القعـدة سـنة ١٣٥١هـ الموافق ١٢ مارس سنة ١٩٣٣م .

محمد راغب بن رفيق　　　　　　　　كورنليس ادريانة



- ١٣ -

المعاهدة اليمنية الأثيوبية[1]

١٧ ذى الحجة سنة ١٣٥٣هـ (٢٢ مارس سنة ١٩٣٥م)

تعتبر هذ المعاهدة نموذجاً آخر مثل المعاهدة اليمنية الهولندية . وهى تنص على سيادة السلام والصداقة بين البلدين وعلى تبادل التجارة وتوسيع قاعدتها ، كما تنظم إقامة رعايا كل منهما فى البلد الأخرى . وتبرز المعاهدة أيضاً الحرص على علاقات الود والصداقة ، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا البلد الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية . ونصت المعاهدة على إقامة علاقات دبلوماسية وتبادل الدبلوماسيين بينهما ، ولكن لم يحدث شىء من هذا طوال عهد الإمام يحيى . ويلاحظ أن مدة العمل بهذه المعاهدة خمس سنوات فقط أيضاً ، على أن تجدد إذا لم ترغب إحدى الدولتين فى إنهاء العمل بها (راجع ص ٤١٦) .

إن حضرة صاحب الجلالة ملك أثيوبية قداماى هيلاسلاس الأول المعظم ، وحضرة صاحب الجلالة ملك وحاكم اليمن المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المبجل .

رغبة منهما فى تأسيس روابط الصداقة والمحبة بين الدولتين الغاليتين ، وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة وتجارة ولهذا الغرض عين :

من طرف حضرة صاحب الجلالة إمبراطور أثيوبية : حضرة صاحب السعادة ساقى تزوز مسيقل ، وصاحب العزة ليج اندراكه ماساى .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ١ ، ص١٨٩ - ١٩١ ، الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

من طرف حضرة الجلالة ملك اليمن الإمام : حضرة صاحب السعادة القاضى محمد راغب بن رفيق .

مندوبين مفوضين من الدولتين المشار إليهما . وقد اتفقوا بعد تثبت وثائق اعتمادهم ، على المواد الآتية :

المادة الأولى : يفتح بين الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمانية سلام دائم وصداقة تامة مطلقة .

المادةالثانية : يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على تقوية علاقتهما الودية والتجارية وعلى أن يسهلا تبادل المنتجات بينهما .

المادة الثالثة : لكل من رعايا الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمنية الحرية فى الدخول والإقامة للتجارة فى بلاد الفريق الآخر من المتعاقدين الساميين اللذين اتفقا على أن يعاملوهم وتجارتهم بالأحكام المحلية ، ويتمتعوا بما يتمتع به رعايا الدولة الأكثر رعاية .

المادة الرابعة : من المتفق عليه أن رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين يكونون فى كل أمورهم ومعاملاتهم خاضعين للقوانين والمحاكم المتبعة عادة فى البلاد المقيمين بها .

المادة الخامسة : سيكون من الفريقين الساميين المتعاقدين فى الوقت المناسب وبموافقتهما إنشاء سفارة وقنصليات ، وإلى أن يكون إنشاء العلاقات السياسية والقنصلية هذه يتفقان على أن يعطى لرعايا كل منهما المقيمين فى بلاد الفريق الآخر المساعدة والصيانة اللازمة .

المادة السادسة : بهذه المعاهدة لا يسمح الفريقان الساميان المتعاقدان لأى حركة ضد صداقتهما الصميمة ، ويجتهدان فى التقرب أكثر مما هما عليه الآن

فى المعاونة وفى ازدياد علاقتهما ، وعلى روح هذه المعاهدة تبنى الاتفاقات والمعاهدات التى سيكون عقدها فى المستقبل بينهما .

المادة السابعة : تكون مدة هذه المعاهدة خمس سنوات ابتداء من تاريخ تبادل حجج التصديق بينهما ، وتتجدد بنفسها كل مرة خمس سنوات أخر ، إن لم ترفض المعاملة بها إحدى الدولتين المتعاقدتين قبل ستة أشهر من انتهائها .

وتبادل حجج التصديق يكون فى صنعاء فى أقرب مدة ممكنة ، وبهذه المعاهدة يلغى كل ما قبلها .

وتقريراً لذلك وقع المفوضون المشار إليهم إمضاءاتهم على المعاهدة هذه ، ووضعوا أختامهم عليها ، ولهذه المعاهدة نسختان باللغتين الإمهارية والعربية ، وحيث إن أصل ومنبع اللسانين المشار إليهما متحد ، فعند اللزوم للتفسير يعتبر النص العربى .

وحرر فى صنعاء اليمن فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٩٣٥ .

محمد راغب بن رفيق   ليج اندركه ماساى   سافى تزوز مسيقل

- ١٤ -

المعاهدة اليمنية الفرنسية(١)

٣ صفر سنة ١٣٥٥هـ (٢٥ أبريل سنة ١٩٣٦م)

هذه المعاهدة هى أول اعتراف رسمى فرنسى باستقلال اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى ، ولذلك نصت مادتها الأولى على ذلك . وإلى جانب هذا نصت المعاهدة على سيادة السلم والصداقة بين البلدين ، وعلى تبادل التجارة بينهما والنظر فى عقد اتفاقيات خاصة بالمسائل الاقتصادية فيما بعد ، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا الدولة الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية ، ونصت المادة الثالثة منها على تبادل الممثلين الدبلوماسيين بين البلدين ، ولكن لم يحدث ذلك إلا متأخراً بعد وفاة الإمام يحيى .

ويلاحظ هنا أمران ، أولهما أن مدة العمل بهذه المعاهدة هى عشر سنوات - وهى أطول نسبيًا من المعاهدات الأخرى - ولكننا نرى أن ذلك قد يرجع إلى حرص فرنسا على ألا تقل مدة العمل بمعاهدتها مع الإمام عن مدة معاهدتى كل من إيطاليا والاتحاد السوفيتى مع الإمام . وثانيهما ، أنه بالرغم من التنافس الاستعمارى التقليدى بين إنجلترا وفرنسا ، إلا أن الأخيرة لن تعقد معاهدتها مع الإمام يحيى إلا متأخراً - بالنسبة لإيطاليا والاتحاد السوفيتى رغم وجود نفس الظروف المهيأة - وبعد أن عقدت إنجلترا معاهداتها مع الإمام يحيى . وقد يرجع ذلك إلى أن إنجلترا كانت تعتبر الجزيرة العربية مجال نفوذ خاص لها - فى فترة ما بين الحربين على الأقل - وكانت فرنسا لا تمانع فى ذلك حينئذ ، بل ويقال إن إنجلترا حرصت على الإشارة إلى هذا التخصيص أثناء مؤتمر الصلح الذى عقد عقب نهاية الحرب العالمية الأولى . ورغم عقد هذه المعاهدة (اليمنية الفرنسية) فقد ظلت علاقة البلدين بعضهما

---

(١) الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ .

ببعض محدودة للغاية حتى نهاية حكم الإمام يحيى ، ولم تستفد فرنسا من ورائها كثيراً ، ويرجع ذلك إلى سياسة الإمام يحيى الخارجية عامة . (راجع ص ٤١٦) .

حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين ملك اليمن .

ورئيس الجمهورية الفرنسية

رغبة منهما فى توطيد روابط الصداقة التى تجمعهما ، وتسهيلا للعلاقات بين الدولتين ، قد قررا لهذا الغرض عقد معاهدة بواسطة مندوبيهما المفوضين عنهما والموقعين أدناه اللذين بعد أن تبادلا أوراق اعتمادهما ، ووجداها مطابقة للأصول ، اتفقا على الأحكام الآتية :

المادة الأولى : تعترف حكومة الجمهورية الفرنسية بدون قيد ولا شرط بأن مملكة اليمن دولة حرة ذات سيادة واستقلال .

المادة الثانية : يسود سلم ثابت وصداقة دائمة بين حكومة الجمهورية الفرنسية وصاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته ورعاياهما بدون أى استثناء للأشخاص والأماكن .

المادة الثالثة : يفوض أو يعين كل من الفريقين الساميين المتعاقدين لدى الفريق الآخر وموافقته ، فى وقت يصير الاتفاق على تحديده ، ممثلين ووكلاء سياسيين أو قنصليين ينتخبهم ، ويتمتع هؤلاء فى بلاد مقرهم على أن يكون ذلك بطريقة المقابلة بالمثل بجميع الحقوق والامتيازات المصطلح عليها دوليا ، وبالمعاملة الممنوحة لممثلى ووكلاء أولى الأمم بالتفضيل .

المادة الرابعة : إن رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون بلاد الفريق الآخر للتجارة أو الصناعة أو أى غرض مباح ، يتمتعون فى ظل

القوانين والأنظمة السارية المفعول فى تلك البلاد بمطلق السلامة والصيانة فيما يتعلق بأشخاصهم وأموالهم ، كما أنهم يتمتعون أيضاً بالمعاملة الممنوحة لرعايا أولى الأمم بالتفضيل .

المادة الخامسة : تتمتع سفن وشحنات كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى مرافق الفريق الآخر بالمعاملة الممنوحة إلى سفن وشحنات أولى الأمم بالتفضيل ، على أن هذا الحكم لا يطبق على النقليات التى تجرى بين مرافئ واقعة فى بلاد خاضعة لسلطة نفس أحد الفريقين الساميين المتعاقدين .

المادة السادسة : لكل من الفريقين الساميين المتعاقدين حق النظر فى الفرصة المناسبة لهما فيما بعد لعقد اتفاقيات خاصة لترتيب جميع الأمور التى تهم علاقاتهما المتبادلة ، والتى لم يشر إليها فى هذه المعاهدة كمثل الأمور الاقتصادية .

المادة السابعة : وسيتفاوض أيضاً الفريقان الساميان المتعاقدان فيما بعد إذا قضت الحاجة بعقد اتفاقيات خاصة تتعلق بتعيين العلاقات بين مملكة اليمن من جهة ودول سوريا ولبنان من جهة أخرى ، حيث إن أحكام هذه المعاهدة لا تسرى على هذه العلاقات .

المادة الثامنة : سيجرى إبرام هذه المعاهدة ، ويجرى تبادل قرارات إبرامها فى صنعاء فى أقرب وقت مكن ، وتصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات الإبرام ، ولمدة عشر سنوات اعتباراً من هذا التاريخ الأخير وإذا لم يعلن أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للفريق الآخر عزمه قبل ستة أشهر من انتهاء السنوات العشر على إلغاء هذه المعاهدة ؛ فإنها تعتبر مجددة بطبيعتها لمدة عشر سنوات أخرى .

المادة التاسعة : لقد جرى توقيع هذه المعاهدة فى صنعاء اليمن على نسختين أصليتين باللغتين الفرنسية والعربية ، ولكل منهما قوة واحدة وقيمة واحدة ، وعند وقوع خلاف فى التفسير فالمعتبر النسخة العربية .

تحريراً فى ثالث صفر المظفر سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية الموافق خامس وعشرين أبريل سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين ميلادية .

محمد راغب بن رفيق　　　　　　　　مغره

- ١٥ -

المعاهدة اليمنية البلجيكية[1]

٢٣ رمضان سنة ١٣٥٥هـ (٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦م)

تعتبر هذه المعاهدة إحدى المعاهدات المتشابهة التى عقدها الإمام يحيى مع بعض الدول الأوروبية ، ويلاحظ أن هذه المعاهدات - الهولندية والفرنسية والبلجيكية - عقدت فى أوقات متقاربة ، كما أنها لدول تقع كلها فى منطقة غرب أوروبا .

وتدل هذه الملاحظة على تهيؤ الظروف الخارجية والداخلية الخاصة باليمن نسبيًّا لعقد هذه المعاهدات ، ويدل على هذا ، أنها كانت محدودة فى جوهرها من ناحية ، وعلى أنها كانت تنصب فى أغلبها على النواحى التجارية من ناحية أخرى . وتنص هذه المعاهدة على سيادة السلم والصداقة بين البلدين ، وعلى تبادل التجارة بينهما ، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا الدولة الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية . وأشارت المعاهدة كذلك على أنه سينظر فيما بعد فى إقامة علاقات دبلوماسية وفى تبادل الدبلوماسيين بينهما ، ولكن لم يحدث ذلك أثناء حكم الإمام يحيى . ويتأكد هنا أيضاً رغبة الإمام فى تحديد علاقاته مع الدول الأجنبية ، وحذره عند إقامة هذه العلاقات ، فقد حافظ على المدة التقليدية التى يسمح بها للعمل بالمعاهدات المختلفة ، وهى مدة خمس سنوات فقط ، على أن ينظر فى تجديدها أو إنهائها عند نهاية هذه المدة . (راجع ص ٤١٦) .

---

(١) الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

صاحب الجلالة ليوبولد الثالث ملك البلجيكا عاملا من جانبه ، ومن جانب حضرة صاحب الفخامة الملكية غراندوشس لوكسمبورغى وبناء على الاتفاق بينهما .

وصاحب الجلالة ملك البلاد اليمنية المستقلة وحاكمها المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين .

رغبة منهما فى تأسيس الروابط الودية وتقوية المناسبات التجارية بين الاتحاد البلجيكى واللوكسمبورغى الاقتصادى وبين المملكة اليمنية ، قررا عقد معاهدة تجارية وعينا لأجلها مفوضين من جانبيهما :

من صاحب الجلالة ملك بلجيكا : صاحب السعادة المندوب المفوض ليوتنان كولونيل المسيو شريف إبراهيم ديوبى المحترم .

ومن صاحب الجلالة ملك اليمن : صاحب السعادة القاضى عز الإسلام محمد راغب بن رفيق المحترم .

اللذان بعد تعاطى وثائق الصلاحية الكاملة لكل منهما وجداها موافقة لأصولها فاتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : يسود بين المملكة البلجيكية وبين المملكة اليمانية سلام عام ومحبة دائمة .

المادة الثانية : بلجيكا واليمن سيؤسسان فى الوقت الذى سيقرانه بينهما آتيًا المناسبات الدبلوماسية والقنصلية والممثلين والدبلوماسيين والقنصليين فيعاملون فى كلتا الجهتين بالمعاملة الموافقة لأساسيات الحقوق الدولية العامة المعمول بها .

المادة الثالثة : التبعية البلجيكية والتبعية اليمنية يتعاطون التجارة فى اليمن وفى بلجيكا بالمقابلة وبكل أمنية ومع تابعيتهم للقوانين والنظامات

المحليـــة سيستفيدون من كل الوجـــوه بالمعـــاملة التى تطبق على تبعـة الملـة الأكبر رعاية :

وكذلك سفن المتعاهدين السـاميين وشحناتها فى موانى المملكتين تعامل من كل الوجوه بالمعاملة التى تطبق على سفن وشحنات الملة الأكثر رعاية .

المادة الرابعة : المحصولات الأرضية والصناعيـة فى المملكتين عند إدخالها إلى بلاديها بـالمقابلـة تعامل كل الـوجوه فى رسـوم الدخـالية والأجـور المنضمة وصورة جبـايتها بعين المعـاملة التى تطبق على محصولات الملـة الأكثر رعـاية فى إدخالاتها . والمحصـولات الأرضية والصنـاعية فى المملكتين عنـد إخراجهـا من بلاديها بـالمقابلـة تعامل أيضـاً من كل الـوجوه فى رسـوم الإخراجـات والأجور المنضمة وصـورة جبايتها بعين المعـاملة التى تطبق على المحصولات الإخـراجية العائدة إلى الملة الأكثر رعاية فى إخراجاتها .

المادة الخامســة : أحكـام المادتين الثـالثـة والرابعـة المنـدرجتين فى هـذه المعاهدة لا تطبق فى قونغو البلجيكيـة وكذلك فى أملاك رواندا - أوريندى التى تحت انتداب الدولة البلجيكية .

المادة السادسة : المعاهدة هذه التى سيجرى تصديقها عقدت لمدة خمس سنوات اعتباراً من يـوم تبادل وثائق الإبرام وتنفيذ أحكامهـا اعتباراً من التاريخ المذكور . وإذا أراد أحـد المتعاهدين إلغـاء أحكام المعاهدة الحاضرة عنـد ختام مدتها فعليه أن يخبر الطـرف الثانى قبل انقضاء مدتها بستـة أشهر ، وإذا لم يكن منه الإخبار بـذلك ، استمر اعتبارها لستة أشهر أخـرى إلى أن يخبر أحد الطرفين إلى الطرف الثانى بتصميمه على إعطاء النهاية لأحكام المعاهدة .

وهـذه المعاهـدة دونت فى نسختين أصليتين متسـاويتين باللغـة الفرنسيـة

واللغة العـربية ؛ وإذا نشأت شكـوك فى تفسير مادة مـن مواد المعاهـدة أو قسم منها فالطرفان يعتمدان النص العربى .

تقريراً لـلأحكام المندرجة أعلى هذا قد أمضى المفـوضان المذكور اسميهما أولا فى هذه المعاهدة ووضعا ختميهما عليها .

حررت فى صنعاء اليمن فى ٢٣ رمضان سنة ١٣٦٥ الموافق ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ .

محمد راغب بن رفيق　　　　شريف إبراهيم الديوبى

- ١٦ -

المعاهدة اليمنية العراقية[1]

٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٤٩هـ (١٩٦٠م)

هى أول معـاهدة عقدهـا الإمام يحيـى مع دولة عـربية ، كما أنها أقصر معاهدة عقدها بوجه عام . وهذا كله يلفت الانتباه ، وإنا نعتقد أن سبب تقـاربـه مع العـراق هـو أنـه كـان على عـرش العـراق ملك هاشمى ، وكان الإمـام يعتز كثيراً بأنه من نسل الـرسول . كما نعتقد أن سبب قصرها هـى طبيعة الإمام الحذرة ، ومـوقفه العـام بالنسبـة للعالم الخارجى . وتشمل المعاهدة ثلاث مواد فقط ، وتقتصر على اعتراف كل منهما بالأخـرى (مادة ١) ، وعلى سيادة السـلم والصـداقة بين البلدين (مادة ٢) . (راجع من ٤٤٦) .

رغبة فى تأسيس علاقات صداقـة ودية بين مملكتى اليمن والعراق ، تمهيداً لتنفيذ سعى وأمنية زعماء الأمة الإسلامية لتوحيد كلمة الأمة العربية :

قرر كل من صاحبى الجلالة ملك العراق فيصل الأول ابن الملك حسين . وملك اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ، إجـراء معاهدة ، وعينا مفوضين منهما لعقدها وهما :

عن جلالة ملك العراق صاحب السعادة طه باشا الهاشمى .

وعن صـاحب الجلالـة ملك اليمن صـاحب الفضيلة القـاضى عبـد الله العمرى اللذان بعد أن اتفقا على وثائق تفويضهما ، اتفقا على ما يأتى :

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص٢٠٩ .

المادة الأولى : يعترف صاحب الجلالة ملك اليمن بالمملكة العراقية ، ويعترف صاحب الجلالة ملك العراق بالمملكة اليمنية .

المادة الثانية : يسود سلم دائم وصداقة وطيدة بين المملكتين المتعاقدتين .

المادة الثالثة : حررت هذه المعاهدة من نسختين باللغة العربية ، وتصير نافذة من تاريخ تناولها بعد إبرامها من قبل الملكين المتعاقدين ، ويجرى التبادل فى المحل الذى يتفق عليه الفريقان .

حررت فى صنعاء فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هـ .

طه باشا الهاشمى　　　　عبد الله بن حسين العمرى

- ١٧ -

وثيقة انضمام الإمام يحيى إلى معاهدة

« الأخوة العربية والتحالف »

بين المملكة العربية السعودية والمملكة العراقية[1]

١٧ صفر ١٨٥٦ هـ (مايو ١٩٣٧ م)

بالرغم مما عرف عن الإمام يحيى من تقوقع وانعزالية ، فإن انضمامه إلى معاهدة الأخوة والتحالف يعتبر خطوة تلفت النظر بالنسبة لسياسته الخارجية بوجه عام . وهذه المعاهدة وانضمام الإمام إليها تعتبر حلفا مبكرا بين الملكيات العربية الثلاث - السعودية والعراقية واليمنية - وتعاون وثيق بينهم . ويلاحظ أن الإمام يحيى لم ينضم إلى معاهدة الأخوة السعودية والعراقية نفسها ، بل إنه اختار بعض موادها فقط ، وأعلن انضمامه إلى المعاهدة على أساسها ، وهذا سبب كتابة المواد فى هذا الانضمام بدلا من الاكتفاء بإعلان الانضمام فحسب . ويقال إن الإمام يحيى كتب هذه الوثيقة بخط يده . ويلاحظ هنا أن المعاهدة دفاعية أكثر منها هجومية ، كما أنها تعبر عن تعاون الملكيات الثلاث للمحافظة على نظمها القائمة أكثر من أى شيء آخر . وهى تنظم طريقة التعاون بين الحكومات الثلاث ، وتقضى بضرورة التشاور فيما يهمهم من الأمور ، وبضرورة اللجوء إلى طريقة التحكيم عند نشوب أى نزاع بينهم .

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

وتنص أيضاً على أنه إذا حدث اعتداء عسكرى على أحد الأطراف ، فعلى الباقى أن يتقدما بالمعونة اللازمة لرد الاعتداء ، أما إذا حدث خلاف بين دولة أجنبية وبين أحد الأطراف فعلى باقى الأطراف التدخل لحل النزاع بكافة الطرق السلمية . ويلاحظ أن المعاهدة نصت كذلك على التشاور والتعاون بكافة الطرق والوسائل بين الأطراف الثلاث إذا قامت فتنة أو ثار تمرد داخل إحداها ، ونظمت المعاهدة كيفية التعاون ومد يد المساعدة حتى يمكن القضاء على الاضطراب الداخلى . وإلى جانب ذلك ، فهذه المعاهدة قد أجازت أن يمثل أحد أطرافها باقى الأطراف فى النواحى الدبلوماسية والقنصلية ، وخاصة فى البلاد التى ليس لأحدهم ممثلون فيها ، مع رعاية مصالح رعاياها ، دون أن يمس ذلك أو يخل بحرية أو بحقوق هذه الدولة فى المجال الدولى .

ويجب الإشارة إلى أن المعاهدة قد أتاحت الفرصة لأعضائها لتبادل البعثات الفنية – سواء ثقافية أو عسكرية – أو إرسال البعثات للتعليم إلى إحداها – وقد يكون هذا دافع الإمام فى إرسال بعثة دراسية للعراق قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وإحضار بعثة عسكرية عراقية إلى اليمن لتدريب الجيش الإمامى . وكانت مدة العمل بالمعاهدة عشر سنوات ، وتجدد إذا رأى المتعاقدون ذلك . (راجع ص ٤٤٦) .

نحن ملك اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين غفر الله له آمين .

نصرح بعد إنعام نظرنا فى معاهدة الأخوة العربية والتحالف المنعقدة بين صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية الموقع عليها فى بغداد فى اليوم العاشر من شهر محرم الحرام من العام الخامس والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية . وبناء على الروابط الإسلامية والوحدة القومية التى تربطنا بجلالتها ، وحيث إنا نشعر كما يشعر جلالتهما

بالحاجة الماسة للتعاون فيما بيننا وبينهما ، والتفاهم فى الشئون التى تهم مصلحة مملكتيهما ومملكتنا ، وبغية المحافظة على سلامة بلادنا وبلاديهما ، قد انضممنا إلى معاهدة « الأخوة العربية والتحالف » الآنفة الذكر مع درج المواد التى اشتركنا ووافقنا عليها نصًا ومعنى وتخصيصاً وتماماً ، والمواد المذكورة كما يلى :

المادة الأولى : يتعهد كل من الفرقاء الساميين المتعاهدين تعهداً متقابلا بأن لا يقوم بأى تفاهم أو اتفاق مع فريق آخر على أمر ضد مصلحة أحد الفرقاء المتعاقدين الساميين أو مملكته أو مصالحها إذا كان من شأنه تعريض سلامة مملكته أو مصالحها للأخطار أو الأضرار ، وسيتشاور الفرقاء السامون المتعاقدون فيما بينهم كلما اقتضى الحال لتنفيذ الأغراض المختصة بالروابط الإسلامية والقومية العربية التى رمت إليها مقدمة معاهدة الحلف .

المادة الثانية : يتعهد الفرقاء السامون المتعاقدون بأن يحسموا ما عساه يحدث من الاختلافات التى تقع بينهم بطرق المفاوضة إلى طريق التحكيم التى تنص عليها المادة الثامنة من معاهدة الطائف المعقودة بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية فى السادس من شهر صفر الخير سنة الثلاث والخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

المادة الثالثة : إذا أدى نزاع بين أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة يترتب عليها خطر يؤول إلى الحرب ، يوحد الفرقاء السامون المتعاقدون حينئذ مساعيهم لتسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية وبالمفاوضة الودية .

المادة الرابعة : فى حالة وقوع اعتداء على أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين من جانب دولة أخرى بالرغم من المساعى المبذولة وفق أحكام المادة الثالثة ، وكذلك فى حالة وقوع اعتداء مفاجئ لا يتسع معه الوقت لتطبيق أحكام المادة

الثالثة المذكورة ، حينئذ يتحتم على الفرقاء السامين المتعاقدين أن يتشاوروا فى ماهية التدابير التى يجوز القيام بها بقصد توحيد مساعيهم بالطرق النافعة والمفيدة لرد الاعتداء المذكور ، ويعتبر من أعمال التعدى :

١ - إعلان الحرب .

٢ - استيلاء دولة على إحدى دول الحلف بقوة مسلحة ولو بدون إعلان حرب .

٣ - هجوم دولة بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على بلاد إحدى دول الحلف أو بواخره أو طياراته ولو بدون إعلان حرب .

٤ - إعانة أو إسعاف المعتدى بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

المادة الخامسة : فى حالة حدوث اختلاف أو اضطراب أو فتنة فى بلاد أحد الفرقاء السامين المتعاقدين يتعهد كل منهم تعهداً متقابلا بما يلى :

١ - اتخاذ كل ما يمكن من التدابير :

(أ) لعدم تمكين المتمردين من الاستفادة من أراضيه ضد مصلحة الفريقين المتعاقدين السامين الآخرين .

(ب) ولمنع رعاياها من الاشتراك فى الاحتلال أو الاضطراب أو الفتنة أو مساعدة المتمردين أو تشجيعهم .

(جـ) ولمنع إيصال أى نوع من المساعدات إلى المتمردين من بلاديهما مباشرة أو بالواسطة .

٢ - عند التجاء المتمردين لأراضى أحد الفرقاء المتعاقدين السامين على الفريق المذكور أن يجردهم من السلاح ، ويبعدهم حالا لمنطقة لا يمكنهم أن يأتوا منها بأى ضرر لبلاد الفريق الآخر حتى يبت فى مصيرهم بين الفرقاء السامين المتعاقدين .

٣ - إذا اقتضى الأمر اتخاذ تـدابير مشتركة لقمع الاحتـلال أو الاضطراب أو الفتنة ، يتشـاور حينئذ الفـرقاء السـامون فى طـريقة التعاون الموافـق الواجب اتباعها لهذا الغرض .

المادة السادسة : يجوز أن يقوم الممثلـون الدبلوماسيـون والقنصليون لكل من الفرقـاء المتعاقـدين الساميين بتمثيل مصـالح الفريق الآخـر عندمـا يرغب ويطلب ذلك فى البلاد الأجنبيـة التى ليس فيها ممثلون لـذلك الفريق ، وليس فى هذا ما يمس بأى صورة من الصور بحرية ذلك الفريق فى تعيين ممثلين مستقلين له إذا أراد ذلك .

المادة السابعة : من المتفق عليـه لدى الفـرقاء المتعـاقدين السـاميين أنه ليس فى هـذا مـا يمس أو يخل بحقـوق وحريـة وتعهـدات حكـومات الفـرقـاء الساميين المتعاقدين مع الدول والحكومـات الأخرى والهيئات الدولية وبعلاقاتها معها .

المادة الثامنة : إذا قام أحد الفـرقاء الساميين المتعاقدين بـاعتداء منه على دولة أخرى فللفريقين الساميين المتعاقـدين الآخرين إنهاء أحكام هذه المعاهدة معه بـدون سبق إنذار ، على أن هـذا الإنهاء لا يؤثـر على الصداقـة والمحبة التى تربط ممالك الفرقاء الساميين ، ولا يخل بالمعاهدات الأخرى والاتفاقيات المعروفة المعقودة والجارية بينهم .

المادة التاسعة : إذا أراد وطلب أحـد الفـرقـاء السـاميين بعثـة فنيـة من الفريقين الآخرين لتقويم ثقافة إسلامية عربية أو عسكرية ، أو أراد إرسال بعثة إلى مملكة الفريقين الآخرين للتدريس والتعلم بعد المراجعة فى هذا فله ذلك .

المادة العاشرة : يعتبر هذا الانضمام إلى معاهدة الحلف نـافذًا من تاريخ إقراره من قبل حكومتى العـراق والمملكة العربية السـعودية ، ويبقى مرعيًا إلى أن تنتهى السـنوات العشر التى اعتـبرت من تاريخ تنفيذ المعاهـدات الآنفة

من قبل الحكومتين المشار إليهما ، وتعتبر متجددة لمدة عشر سنوات أخرى إذا لم يخبر أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين الفريقين المتعاقدين الساميين والآخرين برغبته فى إنهائها قبل سنة من تاريخ انتهاء أجلها .

خاتمة : هذه المواد العشر المصرح بها التى أمضيناها ووقعنا ختمنا عليها طبق المقدمة المندرجة أعلا هذا تقريرًا لانضمامنا إلى معاهدة « الأخوة العربية والتحالف ، وهى موافقة للمواد المندرجة فى المعاهدة المشار إليها الأصلية ما عدا بعض موادها التى لا تتعلق بشئون مملكتنا الخاصة ، وهذا التحالف قابل لمن أراد الدخول فيه من الدول المستقلة . وبالله نستعين ﴿ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ﴾ .

حاشية : وسيكون تقديم نسخة مختومة وممضاة طبق هذا التقرير إلى حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية لإلحاقها بنسخة معاهدة الحلف الأصلية الثانية الموجودة لدى جلالته .





المراجع العربية

الوثائق :

وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات بين المملكة السعودية والإمام يحيى حميد الدين .

(يسمى : الكتاب الأخضر السعودى) .

مكة - مطبعة أم القرى (١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م) .

الكتب :

أحمد فخرى (الدكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها .

القاهرة - مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٥٧ .

أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن.

القاهرة - المطبعة السلفية ، ١٣١٥ - ١٩٣٢ .

أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ؛ أسبابها ومقدماتها وتطورها ونتائجها . جزء ٢ .

بغداد - مطبعة الشعب - الطبعة الأولى - ١٣٤٩ - ١٩٣١ .

أمين الريحانى : ملوك العرب (جزء أول) .

بيروت - دار الريحانى للطبع والنشر - الطبعة الثالثة ، ١٩٥١ .

تاريخ نجد الحديث وملحقاته .

بيروت - دار الريحانى للطبع والنشر - الطبعة الثانية ، ١٩٥٤ .

أمين محمد سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم .

القاهرة - مطبعة الحلبى - ١٩٣٣ .

اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلالة فى القرن الثالث الهجرى .

القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ، ١٩٥٩ .

توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى (١٩٠٨ - ١٩١٤) .

رسالة ماجستير غير منشورة ومحفوظة فى مكتبة معهد الدراسات العربية العالية (١٩٦٠) (نشرت الآن وأصبحت من مطبوعات المعهد) .

جورج أنطونيوس : يقظة العرب (ترجمة حيدر الركابى) .

دمشق - مطبعة الترقى - ١٩٤٦ .

جمال حمدان : دراسات فى العالم العربى .

القاهرة - مطبعة النهضة - ١٩٥٨ .

حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين .

القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- الطبعة الثانية - ١٩٤٦ .

حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسلك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام .

القاهرة - مطبعة البرتيرى - طبعة ١٩٣٩ .

ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية .

القاهرة - مطبعة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٩٥١ .

سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى ، رحلة فى بلاد العربية السعيدة . (ترجمة طه فوزى عن الإيطالية) .

القاهرة - مطبعة السعادة ؛ ١٣٦٦ - ١٩٤٧ .

الشهرستانى أبو الفتح بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر : (٤٦٧- ٥٤٨) الملل والنحل ، جزء ١ .

القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣١٧ - ١٨٠٩ .

صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية (جزءان) .
بيروت - دار مكتبة الحياة - الطبعة الأولى - ١٩٥٧ .
محمد حسن : قلب اليمن .
بغداد - مطبعة المعارف - الطبعة الأولى - ١٩٤٧ .
محمد بن أحمد عيسى العقيلى : من تاريخ المخلاف السليمانى .
الرياض - مطابع الرياض - ١٩٥٨ . جزءان .
عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى : تاريخ اليمن (المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن) .
القاهرة - المطبعة السلفية - ١٩٢٧ - ١٣٤٦هـ .
عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن .
القاهرة - مطبعة الحلبى - ١٩٥١ .
نجم الدين عمارة بن أبى الحسن اليمنى : تاريخ اليمن .
لندن - مطبعة كلبرت - ١٣٠٩ (١٨٩١) .
نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة .
القاهرة - مطبعة الحلبى (لم يذكر تاريخ الطبعة) .
والتر لاكور : الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط (ترجمة لجنة) .
بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٥٩ .

الدوريـات :

الأمانة العـامة لجامعة الدول العـربية : حلقات الـدراسات الاجتماعيـة - الدورة الخامسة ١٦ - ٢٥ مايو ١٩٥٦ .

المجـلات :

المقتطف : المجـلد ٥٩ الجـزء ٣ .
المجـلد ٨٤ الجـزء ٥ .
المجـلد ٩٠ الجـزء ١ ، ٣ .
المجـلد ٩١ الجـزء ٢ ، ٤ .

المنـار: المجلد ١٥ الجزء ٢، ٦ .

المجلد ١٦ الجزء ٤، ٥، ٦ .

المجلد ٢٦ الجزء ٧ .

المجلد ٢٧ الجزء ١٠ .

المجلد ٢٨ الجزء ٨ .

المجلد ٣٣ الجزء ٥ .

المجلد ٣٤ الجزء ١.

الجـرائد:

الأهـرام: عـام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١٣، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٨، ١٩٣٤.

المـؤيد: عام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٣ .

اللـواء: عام ١٩١٢ .

❋ ❋ ❋

المراجع الأفرنجية

الوثائق

Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Midde East,
Vol. I, 11. U.S.A. Princeton, 1956. First Pub.

الكتب

Berreby, J.J. : La Péninsule Arabique,
Payot. Paris, 1958.

Brémond, E. : Yémen et Saudia.
Charles - Lavauzelle & Cie, Paris, lére Ed., 1937.

Burry, G. W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen.
Macmillan & Co., London, 1915.

Earle, E. M. : Turkey. The Great Powers and the Baghdad Railway.
Macmillan, New York, First Ed., 1935.

Fisher, S. N. : The Middle East. A History.
Routledge & Kegan Paul Ltd., London, First Ed., 1960.

Fisher, W. B. : The Middle East, A Physical, Social, and Regional,
Methuen & Co., London. First Pub., 1950.

Helfritz, H. : The Yemen, A Secret Journey,
Allen & Unwin, London, Translated by M. Heron _ First
Pub. in English 1958 (in Germany 1956).

Hogarth, D. G. : The Nearer East.
H. Frowde, London, 1905.

Arabia.
Calrendon Pr. Oxford, 1922, First ed.

Hollingorth, C. : The Arabs and the West .
Methuen & Co. Ltd., London. First Ed., 1952.

Jacob, H. : Kings of Arabia.
Mills & Boon, London. 1923.

Lenczowski, G. : The Middle East, in World Affairs.
U.S.A. (Cornell) Second edition, 1956.

Philby, H. St. J. B. : Arabia.
Ernest Benn Ltd., London. 1930 First Ed.

Arabian Highlands.
First Pub. Ocford, 1952 (The Middle East Institute).

Arabian Jubliee.
Robert Hale Ltd., London, 1952. First Pub.

Saudi Arabia.
Ernest Benn Ltd., London, 1955. First Pub.

Reilly, B. : Aden and The Yemen.
Her Majesty`s Stationery Office, London, 1960.

Rihani, Ameen : Arabian Peak and Desert, Travels in Yemen
Constable & Co. Ltd., London. 1930.

Sanger, Richard H. : The Arabian Peninsula.
Corn ell Univ. Pr., New York, 1954. First Pub.

Seton-Williams, M. V. : Britain and the Arab States.
Luzac & Co., London. 1948.

Stark, Freya : The Arab Island.
A. A. Knopf, New York, First Ed., 1945.

Van der Meulen, D. : Aden to the Hadheramout.
Joan Murry, Londo,1947, Second Ed.

Wavel, A. J. B. : A Modern Pilgrim in Mecca.
Constable & Co. Ltd. London. 1954. Second Ed.

Wilson, A. T. : The Persian Gulf.
Allen & Unwin, London. 1954. Second Ed.

الدوريـــات

Survery of International Affairs : Royal Institute of International Affairs.
Year 1925 Vol. I.
Survery of International Affairs : Year 1928.
Survery of International Affairs : Year 1930.
Survery of International Affairs : Year 1934.
Survery of International Affairs : Year 1939 - 1946.

المجـــلات

Correspiondance d'Orient, Revue économique, Politique, Littéraire. Vol. I, 1911 _ (15 Février 1911).

Journal of The Royal Central Aisan Socety : The Royal Central Asian Soc. Vol. XXVII. Part 1.
Revue de Monde Musulman : Mission Scientifique de Maroc.
Revue de Monde Musulman : Vol. IV, No. 1.
Revue de Monde Musulman : Vol. IX, No. 9.
Revue de Monde Musulman : Vol. XXVV, No. 12.



ملاحظات خاصة بالمراجع

تميز هذا الموضوع بقلة مراجعه بوجه عام ؛ ولكن رغم ذلك فقد اتصفت أغلب المراجع بصفات خاصة أعطت لكل منها مظاهر قوتها أو ضعفها على السواء . فبعض المراجع تميز بأنه لمؤرخين يمنيين مثل كتاب الواسعى ، وكتاب الجرافى ، ولكن أهميتها لم ترجعا إلى أنهما يمنيين فحسب - بل لأنهما اتخذا خطة الدفاع عن الإمام ونظمه خطة لهما. وقد استفدت كثيراً من وجهة النظر هذه - شبه الرسمية تقريبا بل والزيدية أيضا - لأنهما أوضحا وجهة نظرهما فى تاريخ اليمن القريب . والبعض الآخر من المراجع كان عبارة عن كتب رحالة، ومثل هذه الكتابات تهتم بصفة خاصة بالأحوال الاجتماعية والعمرانية فى فترة معينة لا تزيد عن العام على الأكثر ، وهذا يبعدها أساسا عن أنها كتب تاريخية بالمعنى المعروف . ومثال ذلك كتب الريحانى (ملوك العرب) والعظم ومحمد حسن . ويلاحظ أن هذه المراجع اختلفت فيما بينها تبعاً لعمق نظرة الكاتب ونوع ثقافته . وإلى جانب ذلك فقد كانت بعض المراجع خاصة بتاريخ اليمن أو بفترة منه مثل كتاب jacob أو .... bremond و سلفاتور ابونتى ، أما البعض الآخر - وهذا أغلبها - فكان يعالج أساساً موضوعات أخرى مثل تاريخ الشرق الأوسط أو تاريخ الجزيرة العربية أو خاص بالإمبراطورية العثمانية ولكنها إلى جانب ذلك اهتمت بتاريخ اليمن أو بعضاً منه مثل كتاب Lenzowsi .... أو Sanger أو حافظة وهبة أو كتب Philby الأربعة .

وهذه الأمور كلها تطلبت كثيراً من الحذر واليقظة ، كما احتاجت الجهد والوقت ، وذلك حتى يمكن استخلاص المادة التاريخية اللازمة ، وحتى يمكن

ربط أجزاء البحث بعضه ببعض . وأحب هنا أن أشير بإيجاز إلى بعض المراجع بصفة خاصة على سبيل المثال لا الحصر .

سار الواسعى والجرافى فى كتابيهما على طريقة المؤرخين المسلمين الأوائل ، فقد استعملا التاريخ الهجرى ، كما ذكرا الأحداث مرتبة عاما وراء آخر . وقد شمل كتاب الجرافى كل عهد الإمام يحيى حتى مقتله ، أما كتاب الواسعى فقد توقفت أحداثه عند عام ١٣٤٦ هـ . وقد اتضح تحيزهما إلى جانب الإمام بشكل كبير ، وهذا ما دفعنى إلى أن أقول عنهما إنهما شبه رسميين ، أما زيديتهما فقد اتضحت فى أسلوبهما واهتمامهما بذكر تاريخ الأئمة الزيديين فى اليمن . فالواسعى مثلا يبدأ كتابه بذكر الأئمة الشيعة منذ الإمام على بن أبى طالب ثم يخصص الحديث عن الزيديين بالذات وتاريخهم فى اليمن - وذلك كله بشكل موجز - حتى عهد الإمام يحيى فيبدأ فى التوسع والتفصيل .

أما مقدمة كتابه فتوضح اتجاهه بشكل كبير فقد استهلها بالآتى : «الحمد لله الذى خص قطر اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار ، فالإيمان يمان والحكمة يمانية بقول المصطفى المختار ، وجلل هذا القطر بالشرف المنيف والكرم المدرار ، وفضل أهله بالإيمان وملوكهم بالعدل على سائر الأمصار ، أحمده أن جعلنى من أهله ..... » ويتضح تحيزهما إلى جانب الإمام فى مدحهما الدائم ونظمه وذمهما لكل معارضى الإمام وأعدائه ، فالجرافى مثلا ينعت العناصر اليمنية الثائرة فى عهد الإمام بأقسى النعوت ويتهمها بالتمرد والخروج دون أن يذكر أسباب الثورات أو يحللها بل يركز كل اهتمامه على ذكر انتصار جيوش الإمام «الظافرة» أما الواسعى فقد هاجم الإدريسى . عندما بدأ الخلاف يدب بينه وبين الإمام يحيى .

ويعتبر كتاب الريحانى (ملوك العرب) من أهم المراجع العربية التى

تناولت تاريخ الجزيرة العربية فى العشرينيات من هذا القرن . وكان الريحانى (توفى سنة ١٩٤٠) مؤرخاً وأديباً ورحالة ، طاف بأنحاء الجزيرة العربية واتصل بملوكها ورؤسائها وشيوخها ، كما اتصل أيضا بكثير من الشخصيات العادية فى الجزيرة ليعرف آراءها ومواقفها من أحداث عصرها ، لذلك كان كتابه معبراً عن الواقع ، يتصف بالعمق والإخلاص والموضوعية . ورغم أن الكتاب بجزئيه عبارة عن وصف لرحلته فى أنحاء الجزيرة ، إلا أن الريحانى حاول فيه تقصى تاريخ المناطق التى زراها ، وهذا مما رفع من شأن الكتاب . وكان الريحانى يحلل وينقد كل ما يراه أو يسمعه فى نزاهة تامة ووعى كبير ، وهذا يرجع إلى عمق ثقافته وكثرة رحلاته . وقد احتلت زيارته لليمن القسم الثانى من الجزء الأول من كتابه .

أما كتابى العظم ومحمد حسن فلم يكونا على درجة نزاهة كتاب الريحانى أو عمق نظراته بل كانا على العكس يتصفان بالتحيز إلى جانب الإمام ، ويدافعان عن كل أعماله ونظمه دون استثناء . فيلاحظ مثلا أن العظم عندما يتناول ظاهرة عزلة اليمن بالنقد لم يوجه حديثه أو نصحه بالأحرى إلى الإمام يحيى بل وجه حديثه إلى ملوك ورؤساء العرب عامة وحثهم على الأخذ بالحضارة الغربية وأساليبها . أما محمد حسن فيهاجم مثلا النظم الدستورية السائدة فى البلاد العربية عندما مدح نظم الإمام الأوتقراطية وقال عنها إنها حققت الأمن والسلام لليمن . وقد قام العظم بزيارة اليمن ثلاث مرات ، الأولى عام ١٩٢٧، والأخيرة عام ١٩٣٦ . وكتابه عبارة عن مجموعة المقالات التى كان ينشرها فى الجرائد والمجلات العربية عقب كل زيارة ، إلى جانب ما أضافه بعد ذلك عند إخراج كتابه وخاصة الجزء الخاص بالمعاهدات التى كان الإمام قد أبرمها حتى ذلك الوقت .

ويلاحظ أن هذه الكتب الثلاث سالفة الذكر تكمل بعضها البعض من الناحية الزمنية ، وهذا مما أكمل فائدتها بوجه عام .

ورغم الملاحظات التى أبديتها فإن هذه المراجع قد أمدتنى بالمادة الوفيرة المتنوعة . ومن المعروف أن محمد حسن هو عضو البعثة العسكرية العراقية التى ذهبت إلى اليمن لتدريب الجيش سنة ١٩٣٩ ، فكان يرى الأمور عن كثب ، وذكر كثيراً من الحقائق بالرغم من تحيزه الذى أشرت إليه .

أما الكتاب الأخضر السعودى فكان فى الحقيقة وثيقة هامة ، أنار كثيراً تطور الخلاف الذى أدى إلى نشوب الحرب بين اليمن والمملكة العربية السعودية . ورغم أهميته هذه فقد كنت حذراً عند الرجوع إليه ، فهو مهما بلغت دقته يعبر عن وجهة النظر السعودية فى الخلاف ، أو هذا ما اعتقدته أنا على الأقل . وقد تمنيت مخلصاً أن يكون اليمن قد أصدر كتابا مثله حتى أستطيع المقارنة والتمحيص ولكنه لم يفعل .

أما كتاب العبدلى - أحد أبناء سلاطين لحج - فهو محاولة لا بأس بها لكتابة تاريخ لحج وما يعرف حالياً بالمحميات . ورغم ما يتميز به الكتاب من دفاع عن أسرته الحاكمة ، فقد كان للعبدلى آراء صائبة فى أحداث هذه المنطقة وخاصة التى عاصرها . وقد أوضح الكتاب عدة نقاط كنت فى حاجة إليها مثل حالة جنوب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وزحف الترك إلى لحج لمهاجمة الإنجليز فى عدن ، وقد اهتم الكتاب كذلك ببيان الخطوات التى اتخذها الترك فى اليمن عند خروجهم من المنطقة عامة وتسليمهم الحكم للإمام ، وتحدث عن الخلاف بين الإمام والإنجليز والحرب بينهما عقب الحرب العالمية الأولى .

أما المراجع الإنجليزية عامة فقد تناولت تاريخ اليمن من وجهة نظر

إنجليزية ، فقد دافعت عن حقوق إنجلترا فى عدن ومحمياتها ، واعتبرت هجوم الإمام على المحميات اعتداء على حقوقها هناك . ولكن رغم هذا فقد كانت هذه المراجع موضوعية فى نواح أخرى ، مما كان له فائدة كبيرة بالنسبة للبحث . ويعتبر كتاب Jacob ومجلة Survey of International Affairs من أهم المراجع الإنجليزية . وهذان المرجعان يكملان بعضهما البعض من الناحية الزمنية ، فقد انتهت أحداث الأول فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، بينما بدأ الثانى من عام ١٩٢٥ . وكانت المقالات الخاصة باليمن فى هذه المجلة خير معين لى من ناحية تسلسل الأحداث منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى أواخر عهد الإمام يحيى .

أما جيكوب فكان يشغل منصب المعاون الأول للمقيم البريطانى فى عدن ثم وكيلا سياسيًا لمرتفعات عدن . وفى أثناء الحرب العالمية الأولى شغل منصب المستشار الخاص بشئون جنوب غرب الجزيرة العربية لدى المندوبين الساميين بالقاهرة وهما السير ويجنالد وينجت والفيكونت اللنبى وهذه الوظائف التى شغلها - إلى جانب تحدثه بالعربية ومعرفته لعادات البلاد وتقاليدها - رفعت كثيراً من أهمية هذا الكتاب . ويلاحظ أن جيكوب كان يحمل القرآن دائماً معه أثناء إقامته فى منطقة عدن ومحمياتها ، كما كان يحفظ كثيراً من الأمثال العربية والمحلية ويستخدمها فى كتاباته وأقواله/ويعتبر كتابه وثيقة تاريخية هامة لتاريخ هذه المنطقة منذ دخول تركيا اليمن للمرة الثانية حتى خروجها منه وحتى تاريخ طبعه أيضاً . ومن المعروف أن جيكوب هذا هو صاحب البعثة المعروفة باسمه التى ذهبت إلى اليمن عقب الحرب العالمية الأولى . وقد أوضح جيكوب فى كتابه أحوال هذه المنطقة المضطربة حينذاك ، والعلاقات بين العناصر المختلفة الموجودة هناك ، وتكلم عن الإمام يحيى بكثير من الأمانة . ومن الطريف أن

أذكر أنه قد قيل عنه - تصويراً لاهتمامه بالإمام يحيى واليمن - إن علاقته باليمن تشبه علاقة فيلبى بالسعودية ولورانس بالحجاز .

أما كتب فيلبى فمن المعروف أنها اهتمت أساساً بالتاريخ السعودى ، ولكنها أفادت كثيراً فى توضيح العلاقات اليمنية السعودية وتطور الخلاف بينهما . وقد اهتم فيلبى كذلك بتاريخ وأوضاع جهات عسير ونجران ، وهى الجهات التى دار حولها الخلاف .

وهانز هلفرتز رحالة ألمانى دخل اليمن دون إذن الإمام لمشاهدة آثار اليمن لأن الإمام كان لا يشجع مثل هذه الزيارات ، ولكن الإمام قبض عليه وسجنه فترة من الزمن . وكتابه يعتبر من المراجع الهامة فقد تناول شخصية الإمام وحكمه وأعماله بالتحليل والنقد دون قسوة أو تحيز بالرغم من موقف الإمام منه . فمن آرائه مثلا أنه لا يجب الحكم على الإمام من وجهة النظر الأوروبية ، لأن أوروبا على درجة كبيرة من الحضارة ، بل يجب دراسة أحوال الإمام وظروفه عن كثب أولا قبل الحكم عليه .

وأحب أخيراً أن أذكر حقيقة هامة ، وهى أن الجرائد والمجلات المصرية قد أجبرتنى على الرجوع إليها والاهتمام بها ، وذلك لا لأنها أمدتنى بالمادة التاريخية اللازمة والتى أحسست بالحاجة إليها فى بعض المراحل فحسب - بل لقيمة هذه المادة ودسامتها . وقد استعنت بالجرائد والمجلات التى ذكرتها قبل ذلك فقط لاعتدالها التى عرفت به فى تاريخ الصحافة المصرية ، وذلك بالرغم من أن جريدة المنار قد مالت إلى الجانب السعودى أثناء النزاع اليمنى السعودى . وكانت جريدة الأهرام هى أكثر هذه الجرائد أهمية وصدقاً واعتدالا ، فلم تنحز إلى جانب العثمانيين ضد الإمام ، كما لم تفعل ذلك أيضاً أثناء النزاع اليمنى

السعودى ، بعكس جريدة المؤيد التى أظهرت عطفها على المسائل العربية عامة وقضيـة اليمن بالـذات . وإنى أذكـر - على سبيل المثال - أن جـريدة الأهـرام قالت فى أحـد أعدادها الصادر فى حوالى عـام ١٩١١ إن كثيراً من أخبار اليمن مشكـوك فيهـا لأن العثمانيين متعمـدون طمس الحقـائق وإصـدار البـلاغـات الكاذبـة ، وكانت فى نفس الوقت تحاول تحرى الحقيقـة من جانبها وهـذا مما رفع شأنها بالنسبة للموضوع .

وإنى إذ أقصر الحديث عن بعض المراجع فقط فإنى لا أغمط أهميـة باقى المراجع ، فقـد تكـاملت جميعهـا دون استثنـاء فى تكـوين الصـورة الأخيرة لهذه الرسالة .

الفهارس



الكشاف العام

(ب)

(خ)

(د)

الفهـــــرس

صفحة

الفصل الثالث : أحداث اليمن بعد ثورة سنة ١٩٠٨ :

الباب الثاني

الحكم العثماني منذ عقد الصلح مع الإمام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

١٩١١ - ١٩١٨

الفصل الأول : مقدمات الصلح :

الفصل الثاني : صلح دعان ونتائجه :

الفصل الثالث : علاقة الإمام بالإدريسي بعد عقد الصلح :

الفصل الرابع : جنوب غرب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى :

القسم الثالث

اليمن بعد الاستقلال
١٩١٩ - ١٩٤٨

الباب الأول
تدعيم الاستقلال
١٩١٩ - ١٩٣٤

□○□○□○□

الملاحـــق

صفحة

صدر للمؤلف

١ – تكوين اليمن الحديث ؛ اليمن والإمـام يحيى ؛ ١٩٠٤ – ١٩٤٨ م .

أربع طبعات : ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٤ ، ١٩٩٣ .

٢ – الفتح العثمانى الأول لليمن ؛ ١٥٣٨ – ١٦٣٥ م .

أربع طبعات : ١٩٦٩ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٧ ، ١٩٩٢ .

٣ – نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر .

طبعتان : ١٩٧٤ ، ١٩٨٩ .

٤ – مجلة الحكمة اليمانية (١٩٣٨ – ١٩٤١) وحركة الإصلاح فى اليمن .

طبعتان : ١٩٧٦ ، ١٩٨٨ .

٥ – العمليات البحـرية البريطـانية ضد اليمـن إبان الحكم التركى ؛ ١٩١٤ – ١٩١٩ .

طبعة واحـــدة : ١٩٨١ .

٦ – وثائق يمنية ؛ دراسة وثائقية تاريخية ؛ نشر وتعليق .

طبعتان : ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ .

رقم الإيداع ٨٢٨٤ لسنة ١٩٩٣

الترقيم الدولى

I.S.B.N

977 — 00 — 5675 — 8



ت ٩٣٢٧٠٦



توزيع
دار الأمين للنشر والتوزيع
ت : ٣٥٥٨٤٦١